﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾

نعرف أن مجرد الابتلاء ليس شرا ، ولكن الشر هو أن تسقط فى الابتلاء ، فكل ابتلاء هو اختبار وامتحان ، ولم يقل أحد : إن الامتحانات شر ، إنها تصير شراً من وجهة نظر الذى لم يتحمل مشاق العمل للوصول إلى النجاح ، أما الذى بذل الجهد وفاز بالمركز الأول ، فالامتحانات خير بالنسبة له ، إذن فقوله الحق : « ولنبلونكم » أى سنصنع لكم امتحاناً يصفى البطولة للعقيدة الجديدة .

والحق سبحانه قد ذكر لنا قبل هذه الآية قمة الابتلاءات ؛ وهى أن ينال الإنسان الاستشهاد فى سبيل الله ، وذكر ثواب الشهيد ، وهو البقاء على هيئة من الحياة عند ربه ، وكان ذلك مقدمة للابتلاءات الأقل ، فقمة الابتلاء ـ فى حدود إدراكنا ـ هى فقد الحياة ، وأراد الحق أن يعطى المؤمنين مناعة فيما دون الحياة ، مناعة من الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات . وكل ما دون حياة الفرد هو أمر ترق بالنسبة لفقد الحياة نفسها ، فمن لم يفقد حياته ، فستأتى له ابتلاءات فيما دون حياته وهى ابتلاءات الخوف والجوع ونقص الأموال ، ونقص فى عدد الإخوة المؤمنين ، وكذلك نقص فى الثمرات ، وكل هذه أشياء يحبها الإنسان ، ويأتى التكليف ليطلب من المؤمن أن يترك بعضا مما يحب ، وتلك الابتلاءات تدخل فى نطاق بقاء التكليف .

وأول تلك الابتلاءات هو الخوف ، والخوف هو انزعاج النفس وعدم اطمئنانها من توقع شىء ضار ، فالنفس لها ملكات متعددة ، وعندما يصيبها الخوف ، فهى تعانى من عدم الانسجام ، والخوف خورٌ لا ضرورة له ، لأنك إذا كنت تريد أن تؤمِّن نفسك من أمر يُخيفك ، فأنت تحتاج إلى أن تجتهد بأسبابك لتعوق هذا الذى يخيفك ، أما إن استسلمت للانزعاج ، فلن تستطيع مواجهة الأمر المخيف بكل

ملكاتك ، لأنك ستواجهه ببعض من الملكات الخائرة المضطربة . بينما أنت تحتاج إلى استقرار الملكات النفسية ساعة الخوف ؛ حتى تستطيع أن تمد نفسك بما يؤمنك من هذا الخوف . أما إن زاد انزعاجك عن الحد ، فأنت بذلك تكون قد أعنت مصدر الخوف على نفسك ؛ لأنك لن تواجه الأمر بجميع قواك ، ولا بجميع تفكيرك .

إذن فالذي يخاف من الخوف ؛ نقول له : أنت مُعين لمصدر الخوف على نفسك ، وخوفك وانزعاجك لن يمنع الخوف ، ولذلك لابد لك من أن تنشغل بما يمنع الأمر المخوف ، ودع الأمر المخوف إلى أن يقع ، فلا تعش في فزعه قبل أن يأتيك ، فآفة الناس أنهم يعيشون في المصائب قبل وقوعها ، وهم بذلك يطيلون على أنفسهم أمد المصائب . إن المصيبة قد تأتي ـ مثلا ـ بعد شهر ، فلماذا تطيل من عمر المصيبة بالتوجس منها والرهبة من مواجهتها ؟ إنك لو تركتها إلى أن تقع ، تكون قد قصرت مسافتها . وذلك أن تعرف أن الحق سبحانه وتعالى ساعة تأتي المصيبة فهو برحمته يُنزل معها اللطف ، فكأنك إن عشت في المصيبة قبل أن تقع ، فأنت تعيش في المصيبة وحدها معزولة عن اللطف المصاحب لها ، لكن لو ظللتَ صابراً محتسباً قادراً على مواجهة أي أمر صعب ، فأنت لن تعيش في المصيبة بدون اللطف .

لقد كانت الدعوة إلى الله بالإسلام مازالت وليدة ، لذلك كان لابد من إعداد القدوة المؤمنة إعداداً قوياً ، وكان الخوف متوقعاً ، لأن خصوم الدعوة يكيدون لها ويُبيتون ، وهذا هو الابتلاء . وما المراد من المؤمن حين يواجه ابتلاء الخوف ؟ إن عليه أن يجعل من الخوف ذريعة لاستكمال الأسباب التي تمنع وقوع الأمر المخوف ، فإن صنع ذلك يكون قد نجح في هذا الابتلاء .

ونأتي إلى الابتلاء الثاني في هذه الآية الكريمة ، وهو الجوع . إن الجوع شهوة غالبة إلى الطعام ، وهو ضروري لاستبقاء الحياة ، ومن رحمة الحق سبحانه وتعالى بالإنسان أن ضمن له في ذاته غذاء يدخره من وقت رخائه لينفعه وقت شدته . فالإنسان يحتفظ بالغذاء الزائد على صورة شحم ولحم ، وحين يجوع ولا يجد طعاماً ، فهو يأخذ من هذا الشحم ، فإذا انتهى الشحم ، فهو يأخذ من اللحم ، وإذا انتهى اللحم ،

يأخذ الجسم غذاءه من العظم ، من أجل أن يستبقى الإنسان الحياة .

والإنسان مكون من أجهزة متعددة ، وسيد هذه الأجهزة المخ ، ومادامت الحياة موجودة فى خلايا المخ فإن كل شىء فيك جاهز للعمل ، لكن إذا ماتت هذه الخلايا ، انتهى كل شىء ، وذلك هو السبب فى أن يقال : إن فلاناً مات ثم أعطوه دواء معينا فعادت إليه الحياة . إنهم يتناسون الحقيقة العلمية المؤكدة ، وهى أن الحياة لا تغادر الإنسان إلا إذا توقف المخ عن العمل ، ولذلك فهناك إنسان قد يتوقف قلبه فيعالجه الأطباء بصدمة كهربية تعيد تشغيل القلب ، أو يشقون الصدر لتدليك القلب . لكن إذا ماتت خلايا المخ فهذا هو الموت . فأجهزة الجسم كلها فى خدمة ذلك السيد وهو المخ .

ومن العجيب أنك تجد سيد الإنسان ـ وهو المخ ـ فى قمته ، والحيوانات كذلك مخها فى قمتها . أما النبات فسيده فى جذوره ، فالورق يذبل أولا ، ثم تجف الأغصان الرفيعة ، ثم الجذع ، ويجف الجذر فى النهاية عندما لا يأتيه بعض الماء ، وعندما يأتى بعض الماء إلى الجذور فى الوقت المناسب فهى تعود إلى الاخضرار ، وتنمو وتعود إليها الحياة ، وكذلك المخ فى الإنسان ، فساعة ينهى الإنسان مخزونه من شحمه ومن لحمه ويتغذى على العظام ، فإنقاذه يأتى من إيصال الغذاء إلى المخ . ولذلك قالت المرأة العربية التى لم تكن تعرف التشريح : « نحن مرت علينا سنون ، سنة أذابت الشحم ، وسنة مَحَقَتْ اللحم ، وسنة محت العظم » .

ويجب أن نفهم أن الجوع يُحَسِّن لنا كل رزق فى الحياة ؛ فإنك إن كنت جوعان صار كل طعام شهياً ، والذى يرغم الناس على إعداد ألوان مختلفة من الأطعمة ، إنما هو عدم الجوع ، فالإنسان يريد أن يُشهِّى لنفسه ليأكل ، لكنه لو كان جوعان لكفاه أى طعام ، ولذلك قالوا : « طعام الجائع هنىء وفراش المتعب وطىء » . فساعة يكون الإنسان متعبا فهو ينام على أرض خشنة ؛ ويستغرق فى النوم ، وإن لم يكن الإنسان متعبا ، فهو يظل يتقلب فى الفراش حتى ولو كان من الديباج .

إذن فابتلاء الجوع هو أن تصبر على الضرورى من الطعام الذى يقيم لك

الحياة ، وأنت تأكله كوقود لحركة الحياة ، ولا تأكله التذاذا ، وحين يقتات الإنسان ليضمن لنفسه وقود الحياة فأي طعام يكفيه . ولذلك شرع الله الصوم لتصبر على أذى الجوع ، لأن المؤمنين قد تضطرهم معركة ما لأن يعيشوا فيها ساعات طويلة دون طعام ، فإن لم يكونوا مدربين على تحمل قسط من الجوع فسيخورون ويتعبون .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعد المؤمن إعدادا كافيا كاملا ، فالمؤمن يواجه الخوف فيستعد ، ويواجه الجوع فيأخذ من قوت الحياة بقدر الضرورة .

ولذلك نجد أن المجتمعات تواجه متاعب الاقتصاد بالتقشف ، ولكن بعض المجتمعات لا تستطيع ذلك ، فتجد الناس في تلك المجتمعات لا تتقشف ، ولهذا نقول لمن يعيش حياة الترف : أنت لا تعد نفسك الإعداد اللازم لمواجهة تقلبات الزمن .

وأقول كما قال إبراهيم بن أدهم :

وإذا غلا شيء علىّ تركته فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

إن أي شيء إذا غلا سعره ، لا يشتريه ، ويتركه ، فيكون أرخص شيء ، لأنه لن يدفع فيه مالا ليشتريه .

وأما الابتلاء الثالث وهو نقص الأموال فمصدره أن المؤمنين سينشغلون عن حياتهم بأمر الدعوة ، وإذا ما شغلوا عن حركة الحياة لمواجهة العدو فسيضطرون إلى التضحية بحركة الحياة التي تنتج المال ولذلك تنقص الأموال ، لأن حركتهم في الحياة توجهت إلى مقاومة خصوم الله . وكذلك سيواجهون العدو مقاتلين ؛ وقد يستشهد منهم عدد . وأخيرا يواجهون نقص الثمرات ، والثمرات هي الغاية من كل عمل .

والحق سبحانه وتعالى حين يعدنا هذا الإعداد ، فإذا نجحنا فيه تكون لنا البشرى ، لأننا صبرنا على كل هذه المنغصات : صبر على الخوف ، وصبر على

الجوع ، وصبر على نقص الأموال ، وصبر على نقص الأنفس ، وصبر على نقص الثمرات .

إذن فالمهم أن ينجح المؤمن فى كل هذه الابتلاءات ؛ حتى يواجه الحياة صلبا ، ويواجه الحياة قويا . ويعلم أن الحياة معبر ، ولا يشغله المعبر عن الغاية ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾

والمصيبة هى الأمر الذى ينال الإنسان منه المشقة والألم ، وهى مأخوذة من إصابة الهدف . والمؤمن يستقبل المصيبة واثقا أنها على قدر إيلامها يكون الثواب عليها ، ولذلك عندما فرح الكفار بما يصيب المسلمين فى بعض المعارك ، أنزل الله ذلك القول الحق للمؤمنين :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾

(من الآية ٥١ سورة التوبة)

أى قولوا أيها المؤمنون لهؤلاء الحمقى من الكافرين،إنه لن يحدث لنا إلا ما كتبه الله .

وعندما نتأمل قوله الحق : « ما كتب الله لنا » أى أن المسألة ستكون لحسابنا ، وسنأخذ عليها حسن الثواب من الله ، ولم يقل الحق : كتب الله علينا،لأنها لو كانت كذلك لكان معناها أنها جزاء وعقاب من الله .

وأى أمر يصيب الإنسان ، إما أن يكون له دخل فيه ، وعند ذلك لا يصح أن

يجزع لأنه هو الذي جاء بالأمر المؤلم لنفسه ، وإما أن تكون مصيبة لا دخل له بها ، وحدثت له من غيره مثلا ، وعند ذلك عليه أن يبحث عن سببها : أعدلا أم ظلما ؟ إن كانت عدلا فهي قد جبرت الذنب ، وإن كانت ظلما فسوف يقتص الله له ممن ظلمه . وعلى هذا فالمؤمن في كلتا الحالتين رابح .

إذن فالمؤمن يستقبل كل مصيبة متوقعا أن يأتي له منها خير . وعلى كل مؤمن أن يفهم نفسه تفهيما حقيقيا ، « هل لي على الله حق ؟ أنا مملوك لله وليس لي حق عنده ، فما يجريه على فهو يجريه في ملكه هو » . ومن لا يعجبه ذلك فليتأبّ على أي مصيبة ، ويقول لها : « لا تصيبيني » ، ولن تستطيع درء أي مصيبة . ومادمنا لا نستطيع أن نمنع وقوع المصائب والأحداث ، فلنقبلها ـ كمؤمنين ـ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد بنسبتنا إليه أن يعزنا ويكرمنا . إنه يدعونا أن نقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون » . إننا بهذا القول ننسب ملكيتنا إلى الله ونقبل ما حدث لنا . ولابد لنا هنا أن نأتي بمثال ـ ولله المثل الأعلى ـ هل رأيت إنسانا يفسد ملكه ؟ أبداً .

إن صاحب الملك يعمل كل ما يؤدي إلى الصلاح في ملكه ، وإن رأى الناس في ظاهر الأمر أنه فساد ، فما بالنا بالله سبحانه وتعالى ونحن ملك له ، وهو سبحانه لا يُعرّض ملكه أبداً للضرر ، وإنما يقيمه على الحكمة والصلاح .

« إنا لله وإنا إليه راجعون » أي نحن مملوكون لله ، ونحن راجعون إليه ، وحتى إن كان في مصائب الدنيا ظلم لنا وقع علينا من إنسان،فسوف نأخذ ثواب ما ظُلمنا فيه عند الرجوع إلى الله ، إذن فنحن لله ابتداء بالملكية ، ونحن لله نهاية في المرجع ، وهو سبحانه ملك القوسين ؛ الابتداء والانتهاء ، ولذلك علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أي مصيبة تصيب الإنسان أن يسترجع ، أي أن يقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون » . وزادنا أيضا أن نقول : « اللهم اجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها » إنك إذا ما قلتها عند أي مصيبة تصيبك فلابد أن تجد فيما يأتي بعدها خيراً منها ، وحتى إن نسي الإنسان أن يقول ذلك عند وقوع المصيبة ، ثم تذكرها وقالها فله جزاؤها ، كأنه قالها ساعة المصيبة .

وهناك قصة عن أم سلمة رضي الله عنها ؛ حين مات أبو سلمة زوجها ـ وكان ملء السمع والبصر ـ وجزعت عليه أم سلمة ، فقيل لها قولي : ما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : وما علمكم ؟ قالوا : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم اجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها » فقالت ما قيل لها ، فإذا بها بعد انقضاء عدتها يذهب إليها النبي خاطبا ، فقيل لها : أوجد خير من أبي سلمة أم لم يوجد ؟ قالت : ما كنت لأتسامى ـ أي أتوقع ـ مثل هذا الموقف » .

فإذن ، كل مصيبة يتعرض لها الإنسان يجب أن يقول عندها : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم اجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها »[1] .

وماذا يكون حال الذين يقولون هذا الدعاء ؟. ها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

فلننظر إلى غاية الغايات التي يدربنا الله عليها لنحمل الدعوة ، ولنحمي منهج الحق ، ولنهدم دولة المبطلين ، هذه غاية ، لكنها ليست الغاية النهائية ، فالغاية النهائية أننا نفعل ذلك لنأخذ رحمات الله وبركاته في الآخرة .

إذن ، فالغاية النهائية في كل إيمان وفي كل عمل هي ابتغاء مرضاة الله ورحمته ، وكما قال المرحوم الشيخ سيد قطب رحمة الله عليه : إياك أن يشغلك عن صلوات الله وتحياته وبركاته شيء ولو انتصار العقيدة نفسه .

---

(١) هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم وأوله: « ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون .. » الحديث.

كأن انتصار العقيدة وسيلة لتنال بها الصلوات والرحمة من ربك ، فكل شيء ما عدا ذلك وسيلة تسلم إلى غاية ، وغاية المؤمن أن يكون من الذين يشملهم قول الله :

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ونحن نعرف أن الصلاة في اللغة هي الدعاء ، للناس صلاة ، وللملائكة صلاة ، ولله صلاة ، فهو القائل :

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأحزاب)

وكلنا نعيش برحمات الله ، حتى الكافر يعيش على الأرض برحمة الله ، ويأخذ أسباب حياته برحمة الله ، والنعم والخيرات التي يعيش عليها تأتيه بسبب رحمة الله ، والمؤمن يأخذ نعم الدنيا برحمة الله ويزيد الله له بالبركة والاطمئنان ، والاطمئنان نعمة كبرى ، فمن يعش في هذه الحياة وهو مطمئن إلى غاية أفضل من هذه الحياة ، فهذا لون عظيم من الاطمئنان .

فالصلاة من الله عطاء الرحمة والبركة .

والصلاة من الملائكة استغفار .

والصلاة من المؤمنين دعاء .

والدعاء حين تدعوه لمحمد صلى الله عليه وسلم بالخير وبالرحمة وبالبركة هو دعاء لك ، لماذا ؟ لأن كل منزلة ينالها رسول الله عائدة لأمته وللعالم أجمع .

فمن الذي يشفع عند الله في يوم الحشر ليعجل الله بالفصل بين الخلائق ؟ . إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن ، فكل خير يناله رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خير لأمته ، فإذا دعوت له فكأنك تدعو لنفسك .. إنك عندما تصلي عليه مرة يصلي الله عليك عشراً .

أليس في ذلك خير لك ؟

﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾

(سورة البقرة)

والمهتدون هم الذين التزموا الطريق الموصل للغاية، والغاية هي صلوات من ربهم ورحمة، وأنت الآن متمتع بنعم الله بأسباب الله ، وعند الله في الآخرة سوف تتمتع بإذن الله بنعم الله وبلقاء الله .

بعد ذلك يقول الحق:

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨) ﴾

والصفا والمروة جبلان صغيران ، يعرفهما الذين زاروا الأماكن المقدسة ، والذين لم يذهبوا ; أسأل الله أن يروهما عين اليقين ، وحين يرونهما يكون هذا علم اليقين . وهذان الجبلان كانت سيدتنا هاجر أم إسماعيل قد ترددت بينهما لتطلب الماء لولدها ، بعد أن تركهما إبراهيم عند بيت الله الحرام .

وبالله عليك، فبماذا تفكر امرأة عندما يتركها زوجها مع رضيعها في مكان

لا طعام فيه ولا ماء ؟

هنا قالت هاجر قولتها المشهورة :
ـ إلى من تكلنا ؟ آلله أمرك بذلك ؟

فقال سيدنا إبراهيم : نعم . فقالت : إذن لن يضيعنا ، لقد استغنت بالخالق عن المخلوق ، ولم تنطق مثل هذا القول إلا بوحي من المسبب ، وهذه أول قضية إيمانية مع ملاحظة الأرضية الإيمانية التي وجدت عليها ، حينما دعا إبراهيم عليه السلام ربه قائلا :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

وإذا قرأت « غير ذي زرع » فاعلم أنه غير ذي ماء ، فحيث يوجد الماء ؛ يوجد الزرع ، فالماء هو الأصل الأصيل في استبقاء الحياة ، وعندما يغيب الماء عن أم ووليدها ، فماذا يكون حالها ؟

لقد عطش وليدها وأرادت أن تبحث عن نبع ماء أو طير ينزل في مكان لتعلم أن فيه ماء ، أو ترى قافلة تسير ومعها ماء ؛ لذلك خرجت إلى أعلى مكان وتركت الوادي ، وصعدت إلى أعلى جبل الصفا فلم تجد شيئا ، فنظرت إلى الجهة الأخرى ؛ إلى المروة ، وصعدت عليها فلم تجد شيئا . وظلت تتردد بين الصفا والمروة سبعة أشواط . ولنا أن نتصور حالتها ، امرأة في مثل سنها ، وفي مثل وحدتها ، وفي مثل عدم وجود ماء عندها ، ولابد أنها عطشت كما عطش وليدها ، وعندما بلغ منها الجهد ، انتهت محاولاتها ، وعادت إلى حيث يوجد الوليد .

ولو أن سعيها بين الصفا والمروة أجدى ، فوجدت ماء ، لقلنا : إن السعي وحده قد جاء لها بالماء ، لكنها هي التي قالت من قبل : « إذن لن يضيعنا » ، وهي بهذا القول قد ارتبطت بالمسبِّب لا بالسبب ، فلو أنه أعطاها بالسبب المباشر وهو بحثها عن

الماء ، لما كان عندها حجة على صدقها في قولها : « إذن لن يضيعنا » ويريد الحق أن ينتهي سعيها سبع مرات بلا نتيجة ، وتعود إلى وليدها ، فتجد الماء عند قدم الوليد . وهكذا صدقت هاجر في يقينها ، عندما وثقت أن الله لن يضيعها ، وأراد الله أن يقول لها : نعم لن أضيعك ، وليس سعيك ، ولكن بقدم طفلك الرضيع ، يضرب بها الأرض ، فينبع منها الماء . وضرب الوليد للأرض بقدمه سبب غير فاعل في العادة ، لكن الله أراده سببا حتى يستبقي السببية ولو لم تؤد إلى الغرض .

وحين وجدت هاجر الماء عند قدم رضيعها ، أيقنت حقا أن الله لم يضيعها . وظل السعي شعيرة من شعائر الحج إلى بيت الله الحرام ، استدامة لإيمان المرء بالمسبب وعدم إهماله للسبب ، وحتى يفيق الإنسان من كل عمل وهو يؤمن بالمسبب . ولذلك يجب أن نفرق بين التوكل والتواكل . إن التوكل عمل قلب وليس عمل جوارح ، والتواكل تعطيل عمل جوارح ، ليس في الإسلام تواكل ، إنما الجوارح تعمل والقلوب تتوكل . هكذا كان توكل هاجر ، لقد عملت وتوكلت على الله ، فرزقها الله بما تريد بأهون الأسباب ، وهي ضربة قدم الوليد للأرض ، وبقيت تلك المسألة شعيرة من شعائر الحج وهي سمة أشواط بين الصفا والمروة .

وعندما غفل الناس عن عبادة الله ، ودخلت عبدة الأصنام في الجزيرة العربية ، أوجدوا على جبل الصفا صنما أسموه « إساف » وعلى المروة صنما أسموه « نائلة » . وكانوا يترددون بين إساف ونائلة ، لا بين الصفا والمروة ، لقد نقلوا العبادة من خالصية التوحيد إلى شائبة الوثنية .

فلما جاء الإسلام أراد الله ألا يوجه المسلمين في صلاتهم إلى البيت المحرم ، إلا بعد أن يطهر البيت ويجعله خالصا لله ، فلما ذهب بعض المؤمنين إلى الكعبة تحرجوا أن يسعوا بين الصفا والمروة ؛ لأن « إسافا » و « نائلة » فوق الجبلين ، فكأنهم أرادوا أن يقطعوا كل صلتهم بعادات الجاهلية ، واستكبر إيمانهم أن يترددوا بين « إساف » و « نائلة » ، فأنزل الله قوله الحق :

« إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن

يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم » ، أى لا تتحرجوا فى هذا الأمر ، لأنكم ستسعون بين الصفا والمروة ؛ لا بين إساف ونائلة كما كان يفعل المشركون الوثنيون ، إذن فالعمل هنا كان بالنية .

لقد كانت نية السعى الأولى عند هاجر هى الإيمان بالله والأخذ بالأسباب ، لكن الوثنية قلبت قمة الإيمان إلى حضيض الكفر ، وكان لابد أن يستعيد المسلمون نية الإيمان الأولى عند زيارة البيت المحرم بالسعى بين الصفا والمروة ، فنحن فى الإسلام نرضخ لأمر الآمر ، قال لنا : « قبلوا الحجر الأسود » ، وفى الوقت نفسه أمرنا أن نرجم الحجر الذى يرمز إلى إبليس ، هكذا تكون العبرة بالنية ، وليس بشكل العمل ، وتكون العبرة فى إطاعة أمر الله . وكأن الحق بهذه الآية يقول للمؤمنين : إن المشركين عبدوا « إسافا » و« نائلة » ، لكن أنتم اطرحوا المسألة من بالكم ، واذهبوا إلى الصفا والمروة ، فالصفا والمروة من شعائر الله ، وليستا من شعائر الوثنية ، ولكن ضلال المشركين هو الذى خلع عليهما الوثنية فى إساف وفى نائلة لقد أراد الوثنيون بوضع « إساف » على الصفا « ونائلة » على المروة أن يأخذوا صبغة التقديس للأوثان ، فلولا أن الصفا والمروة من المقدسات سابقا لما وضعوا عليهما أحجارهم ولما جاءوا بأصنامهم ليضعوها على الكعبة ، هذا دليل على أن قداسة هذه الأماكن أسبق من أصنامهم ، لقد حموا وثنيتهم بوضع « إساف » و« نائلة » على الصفا والمروة .

وبعد أن بين الحق للمؤمنين أن الصفا والمروة من شعائر الله ، ينبه على أن المكين - ساكن المكان - لا ينجس المكان ، بدليل أن الإيمان عندما تُبَتُّ له الغلبة ، كسر الأصنام وأزالها من الكعبة وأصبح البيت طاهرا ، وعندما كان المؤمنون يتحرجون عن أن يعملوا عملا من أعمال الجاهلية طمأنهم الحق سبحانه وتعالى ، وقال لهم « إن الصفا والمروة من شعائر الله »

وكلمة « صفا » معناها الحجر الأملس ، وأصبح كذلك من كثرة الملامسين له على مر الزمان ، وقيل إن الصفا منسوبة إلى اصطفاء آدم . وقيل إن المروة منسوبة إلى المرأة التى هى حواء ؛ لكنه كلام يقال لا نتوقف عنده كثيرا ، لأنه علم لا ينفع

وجبل لا يضر، فالمهم بالنسبة لنا أنه مكان ترددت بينه هاجر وهي تطلب الماء لابنها ، إن الحق جعل السعي بينهما من شعائر الله ، والشعائر هي معالم العبادة ، وتطلق دائماً على المعالم المكانية ، ويقال ، هذا مطاف ، وهذا مسعى ، وهذا مرمى الجمرات ، وهذا المشعر الحرام .

إن كلمة «المشعر» تعني المكان الذي له عبادة مخصوصة ، وبما أن الصفا والمروة مكانان ، فقد جاء وصفهما بأنهما «من شعائر الله» ، «فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما» كأن الحج والعمرة لهما شيء يجعلهما في مقام الفرضية ولهما شيء آخر يجعلهما في مقام التطوع ، فإن أدى المسلم الحج والعمرة مرة يكون قد أدى الفرض ، وهذا لا يمنع من أن تكرار الحج والعمرة هو تطوع مقبول بإذن الله ، له شكر من الله .

وساعة نقول «لا جناح عليك أن تفعل كذا» ، فمعنى ذلك أنك إن فعلت فلا إثم عليك ، لكن ليس خطأ في أن تفعل ، وليس فرضاً في أن تفعل ، وهذا ما جعل بعض الناس يقولون إن السعي بين الصفا والمروة ليس ركناً من أركان الحج ، ونقول لهؤلاء هذه آية جاءت لسبب ، وهو أنهم كانوا يتحرجون من الطواف في مكان يطوف فيه المشركون ، فقال لهم : «فلا جناح عليه أن يطوف بهما» .

إن نفي الجناح لا يعني أنك إن لم تفعل يصح ، لا ، إنه سبحانه يرد على حالة كانوا يتحرجون منها ، وقوله تعالى : «يطوف بهما» يستدعي منا وقفة ، إن الحاج أو المعتمر يسعى بين الصفا والمروة ، فماذا وصف الحق هذا السعي بـ «يطوف بهما» ؟

لكي نعرف ذلك لابد أن نوضح معنى «طاف» و«جال» و«دار» . إن «طاف» تعني «دار حول الشيء» ، فما هي الدورة التي بين الصفا والمروة ، حتى يسميها الحق طوافاً ؟ إن الدائر حول الدائرة يبدأ من أي نقطة منها كبداية ، لتكون تلك النقطة نهاية ، فكل طواف حول دائرة تجد فيه أن كل بداية فيها تعتبر نهاية ، وكل نهاية تعتبر بداية ، وأي حركة من وإلى شيء واحد يصنع دائرة

وصحيح أن من يسعى بين الصفا والمروة لا يدور ، ولكنه سيذهب من الصفا إلى المروة ثم ينقلب عائدا إلى الصفا ، ثم منها إلى المروة ، وهكذا يصير الأمر طوافا . ومثال آخر من حياتنا اليومية ، إن الشرطى الذى يطوف لحراسة الشوارع والمنازل بالليل ، قد يلف المدينة كلها ، ويمكن أن يلف شارعاً واحداً هو مكان حراسته ، هذا الدوران فى الشارع من أوله إلى آخره عدة مرات يسمى طوافا بينهما ، وهكذا نفهم معنى « يطوف بهما » ، أى يمشى بينهما عدة مرات من بداية إلى نهاية .

وهكذا نجد أن السعى بين الصفا والمروة هو جزء من شعائر الحج والعمرة . ونجد أن الفرضية فى الحج والعمرة أساسية ، والتطوع بتكرار الحج والعمرة هو خير « ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم » وهذا القول يقتضى أن نفهم أن الشاكر أصابته نعمة من المشكور ، فما الذى أصاب الحق هنا من تكرار الحج ؟.

إن المؤمن عندما يؤدى ما افترضه الله عليه فهو يؤدى الفرض ، لكن عندما يزيد بالتطوع حبا فى النسك ذاته فهذه زيادة يشكره الله عليها ، إذن فالشكر من الله عز وجل يفيد أن نعمة ستجىء ، والحق سبحانه وتعالى حين يفترض على عبد كذا من الفروض يلتزم العبد بذلك ، فإذا زاد العبد من جنس ما افترضه الله عليه ، فقد دل ذلك على حبه وعشقه للتكليف من الله ، وإذا ما أحب وعشق التكليف من الله بدون أن يطلبه الله منه ويلزمه به بل حببه إليه ، فهو يستحق أن يشكره الله عليه ، وشكر الله للعبد هو عطاء بلا نهاية .
ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ ﴾

والحق سبحانه حين يعرض هذه القضية ، يبين لنا موقف الجزاء من الذين يكتمون ما أنزل الله ، لقد كتم بعض من أهل الكتاب البينات التي أنزلها الله في الكتاب الذي معهم ، بينات تثبت صدق محمد صلى الله عليه وسلم في نبوته ، وهذا الكتمان سبورث شرورا ، وكلما نال العالم شر من كتمانهم فستلعنهم ، واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله

والحق سبحانه وتعالى ينبه المؤمنين بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى أن هذا الجزاء من الطرد ومن اللعن ليس مقصورا على هؤلاء ، وإنما ينسحب ويشمل كل من يكتم ما أنزل الله من البينات ، إذن فذلك فيه واقع مما حدث من أهل الكتاب ، وفيه ـ أيضا ـ تحذير للذين يؤمنون بالإسلام أن يكتموا بينات الله ، وإلا صاروا إلى ما صار إليه هؤلاء ، وهو اللعن

وكلمة « اللعن » وردت في القرآن إحدى وأربعين مرة ، وساعة تأتي بالعذاب تكون للطرد والإبعاد بغضب ، وهو الخلود في النار ، وساعة يكون الطرد إبعاد تأديب ، فلا يوجد بغضب ، لأن المؤدب لا يغضب على من يؤدبه ، وإنما يغضب لمن يؤدبه

وعندما يحدث الطرد من بعد غضب ، فذلك دليل على أنه ليس من بعد ذلك رجعة ، فالإنسان إذا ترك لشيء صامت ليعذب به كالنار ، يقول لنفسه : « ربما جاء من يرق لحالي ويعطف علي فيخرجني من النار » ، إنه يقول ذلك لنفسه . لأن الذي يعذب به صامت لا عاطفة له ، لكن ما المخرج إذا كانت اللعنة من الله والملائكة والناس ؟ كما يقول الحق في آية أخرى .

﴿ أُولَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ويتضح لنا هنا أن لعنة الله تكون في الدنيا وفي الآخرة ، ويلعنهم اللاعنون من الناس ، وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا فيها نجد أن اللعنة أشمل ، لأن

« اللاعنون » تضم الناس وغير الناس من الكائنات الأخرى ، كأن كل من في الوجود يشترك في لعنهم ، وعلى سبيل المثال ، إذا حبس الله الماء عن قوم لعصيانهم ، فالنبات يلعنهم لأنه حُرم من الماء ، وتلعنهم الحيوانات لأنها حُرمت من الماء ، وتلعنهم الأمكنة لأنهم خالفوا ما عليه الأمكنة من التسبيح لله. أما لعنة الآخرة حيث لا رى لنبات أو حيوان ؛ فسيكون اللعن لهم صادرا من الله وللملائكة والناس أجمعين. والناس هم بنو آدم إلى أن تقوم الساعة ، وهؤلاء منهم كافر ومنهم مؤمن ، كيف .. إذن .. يوجد اللعن ممّنْ كفر مع أنه هو أيضا ملعون ؟

نقول : نحن في الدنيا نجد مَنْ يخدع غيره في دين الله ، وهناك مَنْ ينخدع ، فإذا ما انجلت الأمور في الآخرة ، وافتضح الخادعون ، وأسقط في يد المخدوعين ، فهنا يتبرأ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبَعُوا ، يتبرأ الخادع من المخدوع ، ويتبرأ المخدوع من الخادع ، وكلما دخلت أمة من المخدوعين إلى النار لعنت الأمة التي خدعتها ، وكلما دخلت أمة خادعة إلى النار فإنها تلعن الذين استسلموا للخديعة ، يتبادلون اللعن . يقول الحق

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾

(من الآية ١٦٦ سورة البقرة)

ويقول أيضا :

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأعراف)

إذن ، فاللعنة موجودة بين الكافرين بعضهم لبعض ، كما هي موجودة في الدنيا أيضاً ، فالذين يكفرون بمنهج الله ويتصرفون ويظلمون ، هؤلاء يتلقون اللعنة من أهل منهج الله ، ويتلقون اللعنة من المظلومين منهم ، ثم يأتي لهم موقف آخر ، يأتي لهم مَنْ يظلمهم ، فيلعنونه ويلعنهم ، وهكذا يلعنهم الناس أجمعون

واللعن بطرد وغضب وزجر يختلف عن اللعن التأديبي الذي يأخذ صيغة الإبعاد ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المتخلفين في غزوة تبوك ، وغزوة تبوك كانوا يسمونها غزوة العسرة ، لأنها جاءت في مشقة من كل جهاتها ، لبعد المكان بين تبوك والمدينة ، ومشقة أخرى من نقص الدواب التي تحمل المقاتلين ، فقد كان كل عشرة من المقاتلين يتناوبون على دابة واحدة ، ومشقة وعسرة في الزاد ، حتى أنهم كانوا يأكلون التمر مدوداً ، وكانوا[1] يأكلون الشحم والدهن والإهالة المزنخة ، وعسرة في الماء حتى أنهم كانوا يذبحون البعير ليشربوا من فرثه وكرشه الماء ، وعسرة في الجو القائظ الشديد الحرارة . كانت كل الظروف صعبة وقاسية وتحتم ألا يخرج للغزوة إلا الصادق في يقينه .

لقد كانت تلك الغزوة اختباراً وابتلاء للإيمانية في نفوس الناس . ولذلك فإن بعضهم استسلم لحديث النفس في أن يظل بالمدينة ، وقال واحد منهم : « أظل في ظليل وراحة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في القيظ ؟! والله لا يكون هذا أبداً » ، ثم قام وتبع جيش المؤمنين ، وآخر عنده بستان فيه ظلال وثمار ، فنظر إلى بستانه وقال . « أأنت الذي منعني أن أكون في ركاب رسول الله ؟! والله لا تكون ملكي بعد الآن ، وأنت لله في سبيل الله » ، وثالث جلس في بيته وأمامه زوجته الجميلة وحوله أشجار وزروع ، فقال : « أأجلس في ظل ورطب وماء وامرأة حسناء ورسول الله في حمارة القيظ ، والله لا يكون هذا أبداً » وامتطى حصانه إلى الصحراء ليلحق بجيش المسلمين .

وعندما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصراً اعتذر له من لم يشاركوه رحلة النصر بأنهم كانوا لا يملكون وسائل الحرب من دواب ودروع وسيوف ومال ، فقبل رسول الله علانيتهم وترك سرائرهم لله ، إلا ثلاثة صدقوا وقالوا : « يارسول الله ما كنا أغنى منا ساعة امتنعنا عن الذهاب معك فعندنا عدة الحرب والدواب » .

---

(1) إن هذا أمر يجب الآن أن تدريب الفرق الخاصة في الجيوش ، إنهم يعودونهم ويدربونهم على أكل وشرب ما يجدونه من طعام أو شراب يحفظ حياتهم ، إذ قد يحدث ما يمنع إمدادهم بالطعام أو الشراب ، وذلك استبقاء لحياتهم ودفاعاً عن أوطانهم

لقد أمر رسولُ الله الناس ألا يكلموهم ولا يتعاملوا معهم ، واستكان اثنان منهم وظلا في بيتهم ، وهما هلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، أما كعب بن مالك فكان يخرج ويلقى الناس فلا يكلمه أحد ، ويذهب للصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسارق النظر إلى النبي وسلم عليه ، لكن رسول الله لا يرد ، ويخفض طرفه ويعرض عنه ، حتى أن كعباً يقول : « فانظر هل حرك رسول الله شفتيه برد السلام أم لا ؟ » .

لماذا كل ذلك ؟. لقد أرادها النبي صلى الله عليه وسلم وسيلة إيضاح لكيفية إبعاد التأديب وضاقت الدنيا على الثلاثة ، وذهب كعب إلى ابن عمه أبي قتادة وتسلق عليه الحائط ، لأنه يعلم أنه لو طرق الباب فلن يفتح له . ورغم تسلق الحائط إلا أن ابن العم أعرض عنه ، فقال راجيا.« أنشدك الله ، أنشدك الله ، أنشدك الله » كل ذلك وابن عمه لا يرد عليه ، ثم قال له . « تعلم أني أحب رسول الله » . فلم يرد عليه ابن العم وظل يتوسل سائلا عن موعد الغفر ، فقال أبوقتادة . « الله ورسوله أعلم » .

فيا مضت أربعون ليلة على هذا الإبعاد ، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يُصَعِّدُ التأديب فيطلب من الرجال الثلاثة ـ من خلال رسول أرسله إليهم ـ ألا يقربوا نساءهم لقد دخل العزل إلى دائرة جديدة هي دائرة المجتمع الخاص حيث الرجل وامرأته ، فقال كعب لرسول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أطلق زوجتي » ؟ . قال الرسول « بل لا تقربها » . وقال قوم لكعب : اذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فلتذهب امرأتك لتستأذنه في أن تظل معك لتخدمك ؛ فقد استأذنت امرأة هلال بن أمية رسول الله ؛ فأذن لها أن تخدم زوجها . فقال كعب : والله لا أفعل ، لأن امرأة هلال حينما ذهبت إلى رسول الله قال لها . « لا يقربنك » فقالت : « يا رسول الله والله إن هلالا ما به حركة لشيء » فأذن لها أن تظل لتخدمه لكني برجل شاب وأخاف أن استأذن رسول الله فلا يخطيني هذا الحق

هكذا كان إبعاد التأديب ، وليس بالطرد الكمل من حظيرة الإيمان ، بدليل أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل من يتلقون التأديب أهلا لأوامر يلقيها عليهم ، ثم جاءت البشرى بالإفراج بعد عشرة أيام عندما أنزل الحق قوله .

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وهكذا لم يقفل الحق الباب بل جعله مفتوحا أمام الإنسان ، حتى لمن كفر ، وحتى لمن كتم ، فلا يظن أن سابق كفره أو كتمانه أو تراخيه عن نصرة الحق سيغلق أمامه الباب ، أو يحول بينه وبين ربه ، لذلك يقول الحق :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾

أى أعلنوا التوبة وهى أمر ذاتى ، وأصلحوا بمقدار ما أفسدوا ، وبينوا للناس بمقدار ماكتموا ، إذن شرط التوبة أن يعود كل حق لصاحبه ، فالذى كتم شيئا عليه أن يبينه ، فالكتمان لا يؤثر فقط فى العلاقة بين العبد والرب ، ولكنه يضر العباد ، والحق سبحانه حين يفتح باب التوبة للعبد يقول :

﴿ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

ومادة « تاب » تعني الرجوع إلى الله ، فعندما يتوب العبد فهو يعود إلى ربه طالبا المغفرة من العصيان والذنب ، وعندما يتوب الله على عبد ، فذلك يعني أن الله قبل توبته ، فبعد أن كان مقدرا له أن يُعذب فإن الله يعفو عنه فلا يُعذبهُ ، إذن فالتوبة كلها رجوع إلى الله ، وحين تُقدم التوبة من الله على التوبة من العباد في قوله : « تاب عليهم ليتوبوا » ، فمعنى ذلك أن الحق شرع التوبة وقننها ليفتح باب الرجوع إليه ، فهناك ثلاث مراحل للتوبة :

المرحلة الأولى : هي أن الله شرع التوبة .
المرحلة الثانية : هي أن يتوب العبد
المرحلة الثالثة : أن يقبل الله التوبة .
وكلها تعني الرجوع عن المعصية والذنب .

إذن فأي إنسان يذنب ذنبا لابد أن يصلح هذا الذنب من جنس مافعل ، فإن فعل ذنبا سرا فيكفيه أن يتوب سرا ، أما إن كسر حدود الله علنا ، فنقول له : لا يستقيم أبدا أن تعصى الله على أمام الناس وتكون أسوة سيئة للناس تجعلهم يتجرأون ويكسرون حدود الله ثم تتوب بينك وبين الله سرا ، لابد أن تكون توبتك علنا ، ولذلك فالمثل العامي يقول : « تفضحني في شارع وتصالحني في حارة »

إن الذي يكسر حدا من حدود الله أمام الناس نقول له : لابد أن تعلن توبتك أمام الناس جميعا ، ولذلك نحن ندرأ الحدود بالشبهات ، لكن الذي يتباهى بأنه ارتكب الذنب لا نتركه ، مثلا الذي شهد عليه أربعة بأنه ارتكب ذنبا من الكبائر كالزنى ، لقد فعل يفعل الذنب باستهتار إلى أن شهد عليه أربعة ، هل يعقل أن نقول له : ندرأها بالشبهات ؟ لا ، هو كسر الحد علنا فوجبت معاقبته بإقامة الحد

وأما الذين تابوا وأصلحوا ما أفسدوه وبيّنوا للناس ما كتموه فجزاؤهم توبة من الله .

ومن لطف الله بالإنسان أن شرع التوبة حتى يشعر الناس بالذنب ، وجعلها من

فعل التائب ، ومن فعل قبول التوبة ، وهو الله سبحانه فقال : « تابوا » و« أتوب » ، كل ذلك حتى لا يستشعر الانسان عندما يرتكب ذنبا ويتوب أنها مسألة مستعصية ، إن الحق يقول : « فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم » إنه سبحانه يتوب على من تاب عن الذنب ويتوب عن المذنبين جميعا ، فهو تعالى « تواب » وهي كلمة تعني المبالغة في الصفة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾

إنهم الذين أصروا على عدم التوبة فكان جزاؤهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . ويضيف سبحانه :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

وساعة يأتي الحق في عذاب الكافرين ويتكلم عن النار عذابا وعن الزمان خلودا ثم يُصعِّد الخلود بالأبدية ، فنحن نعرف بذلك أن هناك عذابًا في النار ، وخلوداً فيها ، وأبدية . ولأن رحمة الله سبقت غضبه في التعبير القرآني ، لم يذكر الخلود في النار أبداً إلا في سورة الجن ، قال :

﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الجن)

ومادام فيه مقيد ، فإن كل مطلق من التأبيد يُحمل عليه ، وكون الحق لم يأت بكلمة « أبداً » عند ذكر العذاب ، فهذا دليل على أن رحمته سبقت غضبه حتى فى تقنين العذاب ، وهناك إشكال يَرِدُ فى سطحية الفهم فحين يقول الحق :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ۝ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝ ﴾

(سورة هود)

فإنّ الحق يتحدث عن يوم الحشر ، وعن الشر شقيهم وسعدائهم ، فالذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق ، ولنا أن نتخيل صورة لنفس داخل النار وسط جوها المكفهر بالملهب . إن الإنسان يتنفس ليستروح بالهواء ؛ فكيف يأخذه من النار ؟ إن فى ذلك عذاباً عظيماً . وأهل النار خالدون فيها مادامت السماوات والأرض .

ويتساءل السطحيون : إن الله يضع الذين شقوا فى النار مادامت السماوات والأرض ، ويقولون القول نفسه عن الذين سعدوا بالجنة ، ونقول لهم : السماوات والأرض الآن ، تختلف عن السماوات والأرض فى الآخرة ، إن السماوات والأرض فى الدنيا هى أسباب ومعاش ، أما فى الآخرة فنحن لا نأكل بالأسباب ، إنما بالمسبب ، نحن نحيا فى الآخرة بكلمة « كن » ، ولا نعيش بأسباب الحرث والزرع والمطر . إن الحق يبدل السماوات والأرض فى اليوم الآخر ، واقرأ إن شئت قول الحق

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة إبراهيم)

ومن هذا القول نفهم أن المقصود هو السماوات والأرض المبدلة . ونلحظ أن الحق جاء في أمر خلود الأشقياء بالمشيئة فقال : « إلا ما شاء ربك » ، فكأن خلود الأشقياء في النار تنقضه وتضع نهاية له مشيئة الله،لأن الأشقياء ليسوا هم الكفار فحسب ، بل منهم بعض المؤمنين العصاة . وهؤلاء المؤمنون العصاة الأشقياء سيدخلون النار على قدر حظهم من المعاصي ، وساعة تقوم الساعة ويأتي الجزاء يدخلون النار ويأخذون جزاءهم ، لكن بعد أخذ الجزاء يخرجون ، إذن ، فسينتهي الخلود من آخر الزمن ، فيكون المعنى : « إلا ما شاء ربك » أن يستمروا في النار إلى وقت محدد .

أما بالنسبة للجنة فالاستثناء يكون من البدء ، لماذا ؟ لأن المؤمن الذي عصى الله لن يدخل الجنة من البداية ، وإنما سيقضي فترة في النار ثم يدخل الجنة ، إذن فالخلود في الجنة بالنسبة له قد نُقِصَ من أوليته . أما الشقي فالخلود في النار نقص من آخريته ، إذن « إلا ما شاء ربك » ؛ تعني أن المؤمن العاصي لن يدخل الجنة من بدء الآخرة . إذن « إلا » هنا جاء لاستثناء الزمن من أوله بالنسبة للسعداء ، أو استثناء الزمن من آخره بالنسبة للعصاة الأشقياء . وبذلك لا نجد تناقضاً في ذلك التناقض الذي تصنعه سطحية الفهم .

أما قوله الحق : « لا يخفف عنهم العذاب » فهو أن الإنسان عندما يُعذب بشيء فإن تكرار العذاب عليه ربما يجعله يألف العذاب ، لكن الواقع يقول إن العذاب يشتد عليه ، فالتخفيف لا علاقة له بالزمن ، وقوله الحق : « ولا هم ينظرون » نعرف منه أن الإنظار هو الإمهال ، والمعنى أنهم لا يؤخرون عن عذابهم ، أو « لا ينظرون » بمعنى لا يُنظر إليهم . وهناك آية تفيد هذا المعنى في قوله تعالى :

﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾

(من الآية ٧٧ سورة آل عمران)

لأن النظر يعطي شيئاً من الحنان ، ولماذا قال : « لا يُنظرون » ؟ لأنك قد تتجه ناحيته فتنظره دون قصد ، بتلقائية . ولكن النظرة لا تتجه عطفاً عليه ، وهو سبحانه

لا ينظر إليهم أساسا ، لأن النظرة قد توحي بلون من الشفقة ، بذلك تكون لا ينظرون » أي لا يُنظر إليهم أبداً ، فكأنهم أهملوا إهمالا تاماً

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾

وتلك هي قضية الحق الأساسية ، و« إلهكم » يعني أن المعبود إله واحد ، فالواقع أن الإله الحق موجود قبل أن يوجد الكفر

و« لا إله إلا هو » هذه قضية ثانية ، لأن غفلة الناس هي التي جعلت بعضا من نفوس الناس تلتفت إلى آلهة أخرى .

وقوله الحق أنه سبحانه « إله واحد » أي ليس له ثان ، والفارق بين « واحد » و« أحد » هو أن « واحد » تعني ليس له ثان ، و« أحد » يعني ليس مركباً ولا مكوناً من أجزاء ، ولذلك فالله لا يمكن أن نصفه بأنه « كُلّ » أو « كُلِّي » لأن « كل » يقابلها « جزء » ، و« كلي » يقابلها « جزئي » ، و« كل » هو أن يجتمع من أجزاء . والله منفرد بالوحدانية ، وسبحانه منزه عن كل شيء وله المثل الأعلى ، وأضرب هذا المثل للتقريب لا للتشبيه ، إن الكرسي « كل » مكون من خشب ومسامير وغراء وطلاء ، فهل يمكن أن نطلق على الخشب أنه « كرسي » أو على المسامير أو على الغراء أو على الطلاء ؟ لا إذن كل جزء لا يطلق على « الكل » ، بل الكل ينشأ من اجتماع الأجزاء .

و« الكل » يُطلق على أشياء كثيرة ؛ لكن كل شيء منها يحقق الكل ، فكلمة « إنسان » نقول عنها « كلي » ؛ جزئياتها محمد وزيد وبكر وعمر وخالد ، فنقول

زيد إنسان ، وهو قول صحيح ، ونقول عمر إنسان وذلك قول صحيح .

والله سبحانه وتعالى لا هو «كل» لأنه واحد ، ولا هو «كلى» لأنه أحد .

إن القضية الأساسية في الدين هي «وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو» والقرآن لا ينفي ويقول : «لا إله إلا هو» إلا حين توجد غفلة تعطي الألوهية لغير الله ، أو تعطي الألوهية لله ولشركاء معه ، إن القرآن ينفي ذلك ويقول . «لا إله إلا هو الرحمن الرحيم» وليس هناك شيء غير الله إلا نعمة منه سبحانه أو مُنعَم عليه .

إن ما دون الله إما نعمة وإما منعم عليه بالنعمة ، وهذه كلها نفح الرحمن ، ونفح الرحيم ومادام كل شيء ماعدا الله إما نعمة وإما منعم عليه فلا توصف النعمة بأنها إله ، ولا يقال في المنعم عليه: إنه إله ، لأن المُنعم عليه معناه أن غيره أفاض عليه نعمه ، لأن النعمة موهوبة ، والمُنعَم عليه موهوب إليه ، فإذا كانت هبة أو موهوبة إليه فلا يصح أن تكون إلها ، لكن الذين يُفتنون إنما يُفتنون في الأسباب ، والحق سبحانه وتعالى هو المسبب لكل الأسباب .

وبعد ذلك يلفتنا الحق سبحانه إلى خدمة هذه القضية فيدعونا أن ننظر في الكون ونتأمل في النعمة الموجودة لك ، وبعد ذلك فأنت يا من أنعم الله عليه بهذه النعمة إن وجدت أحدا يدعيها لنفسه فأعطها و تركها له وانسب النعم إلى موجدها وهو الله ، وإياك أن تشرك في نعمة الله أحداً غيره ، لأن الله يقول : في الحديث القدسي :

«أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشركه»[1]

ويلفتنا الحق إلى الكون ، ويقول

---

(١) حديث قدسي أخرجه مسلم وابن ماجه

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

إن الله سبحانه برحمته خلق الإنسان منعماً عليه ، وخلق كل ما في الكون نعمة له ، ويلفتنا إلى الدليل على هذه القضية بالكون نفسه . ويعدد مظاهر في الكون لم يدع أحد أنه خلقها وأوجدها ، فإذا ما جاء الناس الذين لا يؤمنون بالإله الواحد يزحزحون الألوهية إلى سواه نقول لهم : هذا الكون العجيب الذي يتمثل في الأرض ويتمثل في السماء ، ويتمثل في اختلاف الليل والنهار ، ويتمثل في الفلك التي تجري في البحر ، ويتمثل في ما أنزل الله من السماء من ماء ، ويتمثل في السحاب المسخر بين السماء والأرض ؛ كل هذه الآيات – أي الأمور العجيبة – . تلفت إلى أن موجدها أعظم منها .

إنه سبحانه يريد أن ينبه العقل إلى أن يستقبل نعمة الوجود في ذاته وفي الكون المسخر له ليستنبط من هذه الآيات العجيبة صدق الله في قوله : « وإلهكم إله واحد » ، لأنه ليس من المعقول أن يخلق غير الله كل ذلك الخلق ثم يسكت عنه ! ، فضلاً عن أن أحداً لم يدع أنه خلقها ، ومادام لم يدع أحدٌ ذلك ، وأنت أيها الإنسان لم تخلقها ، ورغم الكفر والعناد لم يدع أحد هذه القضية قط ، إذن سيظل الملك لله وحده إلى أن يقول أحدٌ: أنا لي الملك ، ولم يوجد إلى الآن من يجرؤ على هذه الكلمة ، وهذا دليل على أن الله واحد أحد . إن الحق سبحانه يقول :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

(سورة غافر)

لماذا ؟. لأن الناس من الأرض قد خُلقوا ، وبما في الأرض عاشوا ، فالأصل هو أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ، فالناس أبناء الأرض ، واقتياتهم منها وبقاء حياتهم عليها . ومن المعقول أن الحق سبحانه قد خلق ما يخلق منه الإنسان قبل أن يخلق الإنسان ، وحتى يعيش ذلك الإنسان أمده الله بجنس ما خُلق منه . واذكروا جيدا أننا قلنا إن الله حين يعرض قضية الخلق للإنسان ؛ فهو سبحانه يعرضها عرضا فيه مناعة ضد أي قضية أخرى تناقضها . ولذلك يقول لنا إن خلق السموات والأرض وخلقكم هو أمر غيبي ، ومادام أمرا غيبيا فلا رائي له ولا مشاهد له إلا الذي خلقه ، فخذوا علم الخلق منه ، ولذلك قال سبحانه وتعالى

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فيجب أن نحذر هؤلاء المضللين الذين يحاولون إضلالات بقضايا ليست حقيقية ، فالحق قد علم أزلا بأنه سيوجد قوم يقولون:إن السماء والأرض خلقتا بطريقة كذا ، والانسان خلق بأسلوب كذا ، وعندما نسمع هؤلاء نقول : هؤلاء هم المضللون ، وقد نبهنا الله أزلا إليهم .

إذن ، فوجود المضللين هو عين الدليل على صدق الله ، هؤلاء الذين قالوا:الأرض كانت جزءا من الشمس وانفصلت عنها ، والإنسان أصله قرد ، لأنه لو لم يوجد مضللون لقلنا : « أين يارب ما قلت عنهم إنهم مضللون ؟ » .

وحينما يعرض الله سبحانه وتعالى أنه خلقت من الأرض ؛ وجعل اقتياتنا منها ، فإن العلم يأتي - حتى من الكافرين بالله - ليزيد هذه القضية . فحينما حللوا الإنسان ، وجدوه مكونا من ستة عشر عنصرا ، وحللوا الطين الذي يأتي منه الزرع

والمصرية ، توجدوه ستة عشر عنصرا أيضا تتطابق مع عناصر الإنسان ، أولها الأكسجين وآخرها المنجنيز . وعلى ذلك فالحق عندما يقول : أنا خلقت الإنسان من طين . نقول له . صدقت يا رب فقد جعلت اقتياتنا مما يخرج من الطين .

إذن ، فمسألة خلق السماوات والأرض يجب أن يبدأ منها التعجب ، وأنت أيها الإنسان يجب أن تفطن إلى ما خلق لك لتستدل على خالقك ، ولتؤمن ولتشهد أنه إله واحد ، وإن حاول أحد إضلالك وقال لك :هناك إله آخر ، فقل : لا إله إلا هو سبحانه

وحين يتكلم الحق عن الإنسان فهو سبحانه يتكلم عن مكين في الكون ، وهذا المكين في الكون يحتاج إلى شيئين . إلى زمان ، وإلى مكان . والمكان للإنسان هو الأرض التي يسير عليها والسماء التي تظلله ، والزمان هو ما ينشأ من الليل وما ينشأ من النهار ، ولذلك يريد الحق سبحانه أن يعطينا العبرة في اختلاف الليل والنهار . ومعنى اختلاف الليل والنهار ، أن كلا منهما يأتي خلف الآخر ، النهار يأتي خلف الليل ، والليل يأتي خلف النهار .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

فاختلاف الليل والنهار يعني ألا يكون النهار سرمدا أي دائما لا ينقطع ، ولا يكون الليل كذلك سرمدا ، ولذلك فإن هناك آيات أخرى يمتن فيها الحق علينا بهذه النعمة ، فيقول .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ

الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾

(سورة القصص)

إذن ، فأنت أيها المتحرك في الكون ينطبق عليك ما ينطبق على كل متحرك ، لابد لك من سكون بقدر حركتك ، ولذلك انقسم الزمان إلى ليل تسكن فيه ، وإلى نهار تتحرك فيه ولذلك يقول الحق :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الفرقان)

ويعلم سبحانه أزلاً أنه لا يمكن أن يكون الليل - أي وقت الراحة - سباتاً لكل الناس ، بل لابد من أناس يقومون بأمور تقتضي اليقظة بالليل ، ولهؤلاء يقول سبحانه

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الروم)

إنه يعطي فرصة لهؤلاء الذين تظل عيونهم ساهرة طوال الليل ليستريحوا بالنهار .

إذن ، فمن عظمة الحق أنه جعل الزمان خلفة ، فلو كان الليل سرمداً والنهار سرمداً لفسدت الحياة ، ولذلك نجد أن الحق أقسم بقوله

﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ .

(سورة الضحى)

فالضحى محل الحركة والكدح ، والليل محل السكون ، ولا بد أن يوجد الاثنان معاً . والحق سبحانه يقول « إن في اختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر » وكلمة « فلك » يستوي فيها المفرد والجمع ، كقوله عن سفينة نوح

« واصنع الفلك بأعيننا » . يعني يصنع سفينة واحدة أما الفلك التي تجري فهي كل الفلك . وكيف يكون جريان الفلك في الماء آية ؟ . إن الإنسان يدرك أن الماء لو لم يكن على هذه السيولة ، لما استطاعت المراكب أو الفلك الإبحار فوقه ، بل لابد أن يكون الماء سائلا حتى تستطيع أن تجري فوقها الفلك ، وقبل اختراع آلات البخار كانت هذه الفلك تجري في البحر بقوة الرياح ، لماذا ؟ لأن المائية تنقسم قسمين

● مائية أنهار .
● ومائية بحار .

ومياه الأنهر تجري دائما من أعلى إلى أسفل بحجة المصب ، ولذلك من المعقول أن تسلم جريان السفينة فيها إلى مجرى الماء ، ولكن إذا كنت تريد أن تسيرها عكس جريان الماء ، فلابد من الريح ليساعدنا على ذلك . ونحن نأخذ كلمة الريح على أنها الهواء ولكن الريح هي القوة ، لأن الله سبحانه يقول :

﴿ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأنفال)

يعني قوتكم ، أي أن النزاع إنما ينتج عنه تبديد القوة ، وكانت الريح قوة ظاهرة ، وعندما توصل الإنسان إلى اختراع آلة البخار وتم تشغيل السفن به ، استغنى الإنسان عن تشغيل السفن بالريح . وهكذا نعرف أن كلمة « الريح » تؤخذ على أنها الرياح ، وتؤخذ أيضا على أنها مطلق القوة ، وتؤخذ ثالثا عن معنى الرائحة .

والقرآن يوضح لنا ذلك ، فعند استخدام معنى الريح كمطلق القوة نجد القرآن يقول :

﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الشورى)

أى أن الله حين يشاء يعطل القوة المحركة لأى شيء، فهو سبحانه يفعل لما عن معنى الريح كرائحة فنحن نجده فى قوله الحق :

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة يوسف)

إن يعقوب والد يوسف عليهما السلام كان يملك حاسة شم قوية ، فعندما خرجت القافلة من مصر ، قال والده ، إنى أشم رائحة يوسف . وفى الريف نحن نسمع من يقول « سأنتقم من فلان ولا أجعل له ريحة فى الأرض » ، ويقصد أنه لن يجعل له أثرا فى الأرض ، ولماذا استخدم هنا كلمة الرائحة ؟ لقد ثبت حديثا فقط أن الرائحة هى أبقى الآثار بالنسبة إلى الكائن الحى ، بدليل أن الذين عندهم حاسة الشم قويه من الكائنات كالكلاب البوليسية يستدلون برائحة الجانى عن مكان وجوده ، كأن الجانى يترك أثرا لرائحته فى مكان الجريمة ، وكل ما هو مطلوب أن يوجد من له حاسة شم قويه ليستدل عليه

والحق سبحانه وتعالى أعطانا العقل ، ولكنه أبقى لبعض منا ولغير العاقل ما لا تستطيع أعليتنا أن تصل إليه ، وأصبح الكلب الذى هو حيوان بهيم أعجم يستدل على أشياء لا نستطيع نحن أن نستدل عليها ، لأنه لايزال فى عالم الحس فقط ، بينما الإنسان أخذ جانبا من عالم حس وجانبا من العقل

وقوله الحق : « وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها » ، فهل يعنى هذا القول أن الماء فى السماء ؟ لا إن الماء أصله فى الأرض ، لكن ماء الأرض الثابت لا ينفع لربنا ولا لرى زرع إنه ملح أجاج مُرّ . والذى يوجد على الأرض منه هو مخزون فقط ، ولذلك وضع الله له المواد الكيماوية التى تجعله لا يفسد ولا تتغير صفاته وطبيعته ، ثم تتسع رقعة الماء على قدر اليابس ثلاث مرات . لماذا ؟ لأن الله يريد أن تتسع صفحة الماء اتساعا يجعل للبحر مصادر كبيرة واسعة ، هذا البخر هو عملية التقطير الإلهى

إن انزال الماء من السماء هو الذي نراه على هيئة المطر ، لكن تسبق نزوله مراحل متعددة هي بخر وتكثيف وتلقيح الرياح للسحاب وغيرها . وتلك المراحل المتعددة اهتدينا إليها مؤخرا ، بدليل أننا حاولنا تقليد هذه الدورة ، بأن نبخر الماء المالح ونكثفه لنستخرج ماء مقطرا ، لكن ذلك له تكاليفه المالية العالية ، فكوب واحد من الماء المقطر يستغرق وقتا ويستلزم جهدا، وتكاليف بينما المعمل الإلهي يدر لنا ماء عذبا لا حصر لكمياته ، إن هذا المعمل يعمل ونحن لا ندرى .

إن الدورة المائية تبدأ بصعود البخار من الماء ، وبعد ذلك يصادف منطقة باردة فينزل ماء عذبا . ومن دقة الخالق الحكيم سبحانه أن جعل منسوب الماء العذب دائما أعلى من منسوب الماء المالح ، فلو كان منسوب المالح أعلى من العذب فسيطغى عليه ويفسده ، ولا نجد ماء نشربه ، لكن الخالق الحكيم جعل منسوب المياه العذبة في الأنهار أعلى من ماء البحار والمحيطات حتى ينساب الماء من النهر إلى البحر ؛ وذلك لا يسبب ضررا .

فالحق سبحانه وتعالى يعلمنا أنه أنزل من السماء ماء ، كيف ينزل هذا الماء ؟ هذا ما عرفناه مؤخرا ، وبالماء العذب يحيى الله الأرض بعد موتها . وما هو الموت ؟ إن الموت هو ذهاب الحركة ، كذلك الأرض عندما تجف فلا تبقى لها حركة ، ونحن لا نستطيع بحواسنا أن ندرك حركة الأرض أثناء نمو النبات ، لكن الله عز وجل يؤكد ذلك في قوله :

﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾

(من الآية ٥ سورة الحج)

فالأرض عندما ينزل عليها المطر تنتفخ قشرتها ، وتطفو تلك القشرة على سطح الأرض ، ثم ماذا يحدث ؟

﴿ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾

(من الآية ٥ سورة الحج)

وهذا هو معنى قوله تعالى «فأحيا به الأرض بعد موتها» ثم تمضي الآية «وبث فيها من كل دابة» أى نشر فيها كل ما يدب على الأرض، «وتصريف الرياح» ومعنى التصريف هو التحويل والتغيير، أى توجيه الرياح إلى مواح مختلفة سواء إلى الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب، وهذا الاختلاف لم يجعل للهواء مساراً رتيباً، وعندما نتأمل عملية الاستطراق فى الهواء نجد أنها تعطى اعتدالا مزاجيا للهواء، فمرة يأتى من ناحية حارة؛ ليهب على المناطق الباردة، ومرة يأتى من المناطق الباردة؛ فيهب على المناطق الحارة، وهذا التصريف نعمة من نعم الله، فلو كانت الرياح ثابتة لصارت مرهقة للبشر

ونحن نسمع عن أسماء الرياح مثل الصبا والدابور، وريح الشمال، وريح الجنوب، والنكباء، والزعزع، والصرصر، وساعة نسمع كلمة «رياح» بصيغة الجمع؛ فلنعلم أنها للخير، وإن جاءت «ريح» بصيغة المفرد فنعلم أنها ريح عقيم ضارة. مثل قول الحق: «بريح صرصر عاتية»، لكن هذه القاعدة كسرتها آية واحدة فى قوله تعالى:

﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

لماذا؟ لأن الريح لو اختلفت على السفينة لكانت كارثة، فكان لابد أن تأتى الرياح إلى السفينة من اتجاه واحد، ولذلك لم يترك الله كلمة «ريح» مطلقة، وإنما وصفها بأنها ريح طيبة. وفى قول آخر يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

إنه سبحانه يلفتنا إلى قدرته، حتى لا يعتقد أحد أن الله خلق الخلق وخلق لهم قانون ثم تخلى عن حكمهم، لا، إنه سبحانه هو ما يزال قيوم السماوات والأرض وله مطلق القدرة

« والسحاب المسخر بين السماء والأرض »

والتسخير معناه حمل الشيء على حركة مطلوبة منه لا اختيار له فيها ، والله يسخر السحاب لأنه يريده أن يمطر هنا ، فيأتي مسخر الرياح فيسوقه إلى حيث يريد الله ، وأنت قد تنتفع بمطر ينزل من سحابة في غير مكانك ، ونحن ننتفع - في مصر - بمياه النيل برغم أن المطر ينزل في جنوب السودان ، وفي هضاب الحبشة ، ولو اقتصرنا على الماء الذي ينزل من سماء مصر لكنا قد هلكنا عطشا ، وهذا يؤكد معنى قوله تعالى .

﴿ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

إن السحاب يسير مسخرًا إلى غاية مطلوبة منه ولا إرادة له فيها . ويختم الحق الآية بقوله: « لآيات لقوم يعقلون » أي أنها عجائب لقوم يعقلون . وحين يقول الحق: « لقوم يعقلون » فكأنه ينبه الملكة المفكرة العاقلة في الإنسان وحين يخاطبك مخاطب ، وينبه فيك الملكة العاقلة ، فاعلم أن ما يخبر به ينتهي عقلك إليه بمجرد أن تفكر ، وإلا لو لم يكن الأمر كذلك ، ما كانت هناك ضرورة أن يذكر لك كلمة العقل

والقرآن الكريم دائما يقول : « يتفكرون » ، و « يعقلون » و « يتدبرون » و « يتذكرون » وكل ذلك معناه أنهم لو فكروا ، ولو عقلوا ، ولو تدبروا ، ولو تذكروا ، لانتهوا إلى الحقيقة التي يريدها الله . والحق سبحانه وتعالى ينبه المسلم دائما لأن يستقبل الأمور بعقله وبفكره وتدبره وبتذكره ، لأنه سبحانه يعلم أن الإنسان إذا فكر أو عقل أو يذكر أو يدبر فسوف ينتهي إلى ذات القضية

ومن بعد ذلك يقول الحق:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ (١٦٥)

الند هو الشبيه والنظير، والكافر هو من يجعل لله شبيها ونظيرا، والمشركون لا يخلون الله عن الألوهية، إنما يشركون معه غيره أندادا، وهم يحبون هؤلاء الأنداد كحبهم لله، أو يحبونهم كحبكم أنتم لله، فكما يحب المؤمن ربه، يحب الكافر إلهه الذي اتخذه معبودا. «والذين آمنوا أشد حبا لله» لماذا؟ لأن هذا هو الحب الذي لا يختلف عليه أحد، ولكن حب هؤلاء المشركين للآلهة المتعددة المزيفة يختلف؛ فعندما يمس المشرك الضر يضرع إلى الله وليس إلى الآلهة المزيفة، مصداقا لقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إن المشرك يكتشف بفطرته كذبه على نفسه في مسألة اتخاذه أندادا لله، ولذلك، إذا عزت عليه الأسباب، ووقع في مأزق فهو لا يخدع نفسه ويقول: يا صنم أنقذني. وإنما يقول «يارب أنقذني». أما المؤمن فهو لا يغير حبه لله أبداً،

المؤمن يحب ربه في السراء والضراء ، وعلى ذلك يكون الذين آمنوا أشد حباً لله ، لأنهم لا ينسونه ، لا في الرخاء ولا في الشدة ، لكن الكافرين لا يعرفون الله الحق إلا في الشدائد ، فإذا مرت المسألة فإنهم يسلكون كما يصف القرآن سلوك كل كافر منهم :

﴿ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾

(من الآية ٨ سورة الزمر)

إنهم ينسون الله ، ويعودون إلى تقديس الأنداد المزيفة ، وهم بذلك يظلمون أنفسهم « ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب » ، ويفاجأ هؤلاء المشركون بأمر عجيب لم يكن في حسبانهم ، هم آمنوا بأنداد ويأتون يوم القيامة ليروا تلك الأنداد وهي وقود للنار تعذبهم ، ولو لم تأت معهم حجارة الأصنام التي كانوا يعبدونها لقالوا : « إن الحجارة ستجدن من هذا العذاب » وها هو ذا الحق سبحانه يبين لهم : أن الحجارة ليست معكم في العذاب فقط ، بل هي وقود النار التي تعذبون بها ، مصداقا لقوله تعالى

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾

(من الآية ٩٨ سورة الأنبياء)

وكذلك قوله الحق عن النار :

﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة البقرة)

وبذلك ينقطع عن الكافرين المشركين كل أمل في أن تنفعهم آلهتهم المزيفة « إذ يرون العذاب » أي يرون العذاب حق اليقين ، وقد سبق أن أخبروا به، لكنهم لم يؤمنوا باليوم الآخر ؛ لكن لو صدقوا بيوم القيامة وآمنوا لكفاهم أن يروا العذاب عين اليقين ، ويختم الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله « أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب » أي أنهم ساعة يرون العذاب حق اليقين سيدركون عندها أن القوة لله وأنه شديد العقاب .

ثم يبين الحق سبحانه وتعالى ماذا سيكون حالهم عندما يرون العذاب ، فيقول

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) ﴾

إن كل مَنْ زين الكفر والعصيان لغيره سيتبرأ من كل مَنْ زيَّنَ لهم معصية الله والشرك به ، حتى الشيطان ؛ العُمدة في إغوائهم سيتبرأ منهم ، وسيقول ساعتها

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

فلن يستطيع الشيطان أن ينقذ أحداً من المشركين ، ولن يصرخ فيأتي له المشركون لإنقاذه ، وإن صرخ المشركون ؛ فلن يأتي لهم الشيطان لينقذهم ، وسيتبرأ كل منهم من الآخر ، وسيتبرأ الكافرون من كل من زين لهم الشرك بالله ، أو سيقول الكافرون لمن زينوا لهم الشرك بالله : « نحن أبرياء منكم ولا علاقة لنا بكم » .
وجاءت الآية بالذين اتبعوا أولا لأنهم المفتون فيهم ، ثم جاءت بالذين اتَّبَعُوا من بعد ذلك ، إنهم يرون العذاب وتتقطع بهم الأسباب ، وأصبحت كل نفس بما كسبت رهينة ، والشيطان نفسه يعترف بأنه لم يكن صاحب سلطان إلا بأن دعاهم ، فمن استجاب له ، يجيء به إلى هذا المصير ، والسلطان إما أن يكون سلطان حُجة ، وإما سلطان قهر ، ولم يكن للشيطان سلطان قهر على الكافرين ، ولم يكن له إلا عمل واحد بلا سلطان ، وهو أن دعاهم إلى الشرك بالله ؛ فاستجابوا له . فماذا يحدث عندما تتقطع بهم الأسباب ؟ إن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾

إن تبرؤ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبَعُوا لن ينفعهم ، وتمنيهم أن تكون لهم كرّة ـ أي عودة ـ ليتبرأوا منهم لن يجدي ، ويُريهم الله أعمالهم ـ التي سبقت ـ حسرات عليهم .
ولا تكون الحسرة إلا إذا أصيب الإنسان بمصيبة لا منأى من النجاة منها . « وما هم بخارجين من النار » أي لن ينفعهم ندمهم على ما سبق من أعمالهم السيئة ، ولن يجدي هذا الندم في إخراجهم من النار . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾

إن من رحمة الله عز وجل على عباده أنه لم يقصر الخطاب على الذين آمنوا ؛ وإنما وسع الدائرة لتشمل المؤمنين وغيرهم ؛ فقال : « يا أيها الناس » فكأنه خلق ما في الأرض جميعا للناس جميعا ، وهذا ما قلنا عنه : إنه عطاء الربوبية لكل البشر ، من آمن منهم ومن لم يؤمن ، فهو سبحانه خلق كل الخلق ، مؤمنهم وكافرهم ، ومادام قد خلقهم واستدعاهم إلى الوجود فهو يوجه الخطاب لهم جميعا ؛ مؤمنهم وكافرهم ؛ وكان الخطاب يقول للكافرين : حتى ولو لم تؤمنوا بالله ، فخذوا من المؤمنين الأشياء الحلال واستعملوها لأنها تفيدكم في دنياكم ، وإن لم تؤمنوا بالله ، لأن من مصلحتكم أن تأكلوا الحلال الطيب ، فالله لم يحرم إلا كل ضار ، ولم يحلل إلا كل طيب .

هنا موقف يقفه كثير من الذين أسرفوا على أنفسهم ، ويحبون أن تكون قضية الدين وقضية التحريم وقضية التحليل ، قضايا كاذبة ؛ لأنه لا يحميهم أمام أنفسهم إلا أن يجدوا أشياء يكذبون بها الدين ، لأنهم لم يستطيعوا أن يحملوا أنفسهم على مطلوبات الله ، فلما لم يستطيعوا ذلك لم يجدوا منفذا لهم إلا أن يقولوا : إن قضايا الدين كاذبة بما فيها التحليل والتحريم ، إنهم يقولون : مادام الله قد حرم شيئا ؛ فلماذا خلقه في الكون ؟

كأنهم يعتقدون أن كل مخلوق في الأرض قد خُلق ليؤكل ، وما علموا أن لكل مخلوق في الأرض مهمة ، فهم الآن يمسكون الحيات والثعابين ليستخلصوا منها السموم ؛ حتى يقتلوا بها الميكروبات التي تقتل الإنسان ، وكانوا قبل اكتشاف فائدة السم في الثعبان يتساءلون : « وما فائدة خلق مثل هذه الثعابين ؟ » . فلما أحوجهم الله وألجأهم إلى أن يستفيدوا بما في الثعابين من سم ، ليجعلوه علاجا ، أدركوا

حكمة الله من خلق هذه الأنواع ، لقد خلقها لا لنأكلها ، وإنما لمصالح بها .

فأنت إذا رأيت شيئا محرما ، لا تقل لماذا خلقه الله ، لأنك لا تعرف ما هي مهمته ، فليست مهمة كل مخلوق أن يأكله الإنسان ، إنما لكل مخلوق مهمة قد لا نشعر بأدائها في الكون .

وهذه مسألة نستعملها نحن في ذوات نفوسنا ، على سبيل المثال ، عندما يأتي الصيف ونخشى على ملابسنا الصوفية من الحشرات ، فنأتي لها بما يقتل الحشرات ، وهو « النفتالين » ، ونحذر أبناءنا من عدم الاقتراب منه وأكله ، إن « النفتالين » لا يؤكل ، ولكنه مفيد في قتل الحشرات الضارة .
كذلك « الفنيك » نشتريه ونضعه في زجاجة في المنزل لنطهر به أي مكان ملوث ،

ونحذر الأطفال منه لأنه صار هم ، ولكنه نافع في تطهير المنزل من الحشرات ، وكذلك المخلوقات التي لا نعرف حكمة خلقها ، لقد خلقها الله لمهمة خاصة بها ، فلا تنقل شيئا من مهمته إلى مهمة أخرى .

وإذا كان الإنسان لم يدرك حتى الآن فائدة بعض المخلوقات ، فما أكثر ما يجهل ، وهو يكتشف كل يوم سر من أسرار مخلوقات الله .

وعلى سبيل المثال ، كانوا ينظرون إلى نوع من السمك لا يتجاوز حجمه عقلة الاصبع ، ولا يكبر أبدا ، ويحتاروا في فائدته ، وعندما ذهبنا للسعودية ورأينا الأماكن التي نأخذ منها الماء للذي قد يفسد ، ووجدنا هذا النوع من السمك بكثرة ، سألناهم عن حقيقة هذا السمك ، فقالوا : إنه لا يكبر ويظل على هذا الحجم ، ومهمته تنقية المياه في الأماكن التي لا يقوم الإنسان بتنقيتها ، وجربنا حقيقة ما قالوا ؛ فألقينا بعضا من علقات الطعام ؛ فوجدنا هذه الأسماك تخرج من حيث لا ندري وتنقف هذه البقايا ، ولا تتركها حتى تنهيها .

هكذا يخلق الحي القيوم ، مخلوقات لتحفظ مخلوقات أخرى ، هو سبحانه يقول للإنسان : لا تأكل هذا وكل ذاك ؛ لحكمة قد لا نعرفها .

مثال آخر ، الطائر المعروف بأبي قردان صديق الفلاح ، كانت وظيفته في الحياة أن

بأكل الحشرات والديدان عند ري الأرض ، ومنذ أن اختفى هذا الطائر بتأثير المبيدات ؛ استفحل خطر الديدان على الزرع وبخاصة دودة القطن . إنها معدلة إلهية مركبة تركيبا دقيقا . وكذلك الذباب ، يتساءل بعض الناس : ما حكمة وجوده في الحياة ؟ ، وهم لا يعرفون أن الذباب يؤدي للإنسان دورا هاما هو أكل القاذورات وما بها من أمراض ، ولو تخصص الناس بالنظافة لما جاءهم الذباب .

إذن ، فكل شيء في الوجود مرتب ترتيبا دقيقا ، إنه ترتيب خالق عليم حكيم ، ومادام الحكيم هو الذي خلق ؛ فلا يعترض أحدٌ ويقول لماذا خلق كذا وكذا ؟ ، لأن لكل مخلوق دورا يؤديه في الكون .

ولذلك ينبه الخالق الناس ـ مؤمنهم وكافرهم ـ بأن يأكلوا الحلال الطيب من الأرض ، وهو يقول للكافر : إنك إن تعقلت الأمور ؛ لوجدت أن كل ما أمرتك به هو لصالحك ، وحتى لو لم تؤمن فأنا أدلك على ما ينفع ، فلا تأكل إلا الحلال الطيب ، وانظر إلى المؤمنين بماذا سُمح لهم من طعام وَكُلْ مثلهم

وقد أثبت الواقع والتاريخ ؛ أن الكافرين يلجأون إلى منهج الله في بعض الأقضية ؛ ليحلوا مشاكل حياتهم ، لا بدين الله كدين ، ولكن بأوامر الله كنظام ، فلو كان عند الكافرين بالله حكمة حتى فيما يتعلق بشئون دنياهم ؛ لأخذوا ما أمر الله به المؤمنين واتبعوه .

والمثال على ذلك : عندما يحرم الحق سبحانه وتعالى لحم الميتة ، أي التي ماتت ولم تُذبح ، إن لحمها ضار بالصحة ، لأن أوعية الدم في الحيوان وفي كل كائن حي هي وعاءان : إما أوردة وإما شرايين ، والدم قبل أن يذهب إلى الكلى أو الرئة يكون دما فاسدا ، وحين عندما نذبح الحيوان يسيل منه الدم الفاسد وغير الفاسد ويخرج ، ويصير اللحم خالصا ، لكن الحيوان الذي لم يذبح ؛ لم ينزف ، يعني لم يُطهَّر من فساد الدم ، وهو ضار للإنسان .

والحق سبحانه وتعالى عندما يقول « يا أيها الناس » فكأنه يدعو غير المؤمنين لو عقلتم ، لوجب أن تحتاطوا إلى حياتكم فلا تأكلوا إلا حلالا أحله الله للمؤمنين « ولا تتبعوا خطوات الشيطان » أي لا تسيروا وراء الشيطان ، فالخطوة هي المسافة بين القدمين عند المشي ، أي بين النقله والنقلة ، ولا تجعلوا الشيطان قائدكم ؛ لأن

الشيطان عداوته لكم مسبقة ، ويجب أن تحتاطوا بسوء الظن فيه ؛ فهو الذي عصى ربه ، ولا يصح أن يطاع في أي أمر ، « إنه لكم عدو مبين » وعداوة الشيطان للإنسان قديمة من أيام آدم . ويقول الحق عن أوامر الشيطان :

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

والسوء هو كل ذنب لا حد فيه ، مثل الغيبة أو النميمة ، والفحشاء هي كل ذنب فيه حد وفيه عقوبة . والشيطان يأمركم أن تقولوا على الله ما تجهلون .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

وهذه الآية تعالج قضية خطيرة في المجتمع الإسلامي ، قضية تقليد الناس

لعادات آبائهم . والتقليد هو مسألة طبيعية في الإنسان ، لأن الإنسان حين يخرج للوجود تبدأ طاقة الحياة ، فهذه الطاقة تريد أن تتحرك ، وحركتها تأتي دائما وفق ما ترى من حركة السابق لها ، فالطفل الصغير لا يعرف أن يده تتناول أشياء إلا إذا رأى في البيئة المحيطة به إنسانا يفعل ذلك ، وحين يريد الطفل أن يتحرك ، فهو يقلد حركة الذين حوله ، ولذلك نجد الأطفال دائما يقلدون آباءهم في معظم حركاتهم ، وحين يوجد الأطفال مع أجيال متعاقبة تمثل أعمارا مختلفة ، فإن الطفل الصغير يأخذ في حركته ابتدائية خليطا من حركات هذه الأجيال ، فهو يقلد جده ، ويقلد جدته ، ويقلد أباه وأمه ، وإخوته ، فتنشأ حركات مختلطة تمثل الأجيال كلها

ولذلك فاندماج الطفل في أسرة مكونة من آباء وأجداد ، تمثل في الإنسان طبيعة إنسانية متصلة بمنهج الحركة في الأرض وبمنهج السماء ، لأن الطفل حين يعيش مع أبيه فقط ، قد يجده مشغولا في حركة الحياة التي ربما شغلته عن قيم الحياة أو عن منهج السماء ، لكنه حين يرى أبا لأبيه ، هو جده قد فرغ من حركة الحياة ، واتجه إلى منهج القيم ، لأنه قريب عهد بما يظن بلقاء الله ، فإن كان لا يصلي في شبابه فهو يصلي الآن ، وإن كان لا يعمل الطاعات سابقا ، أصبح يعملها الآن ، وهكذا يرى الطفل حركة الحياة الجامحة في الدنيا والتلهف عليها من أبيه ، ويأخذ الإقبال على القيم والعبادات من جده ، ولذلك نجده ربما عاون جده على الطاعة ، فساعة يسمع الطفل المؤذن يقول : « الله أكبر » ، فهو يعرف أن جده يريد أن يصلي ، فيذهب هو ويأتي بالسجادة ويفرشها لجده ، ويقف مقلدا جده ، وإن كانت بنتا ، فنحن نجدها تقلد أمها أو جدتها وتضع الغطاء على رأسها لتصلي ، إذن ، فاندماج الأجيال يعطي الخير من الحركتين ، حركة مادية الحياة وحركة قيم منهج السماء ، ولذلك يمتن الحق علينا قائلا :

﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾

(من الآية ٧٢ سورة النحل)

إذن ، فتقليد الأجيال اللاحقة للأجيال السابقة أمر تقتضيه طبيعة الوجود وحين يدعو الله الناس أن يتبعوا ما ينزله على الرسل فهو ينهاهم أن يتبعوا تقليد

الآباء فى كل حركاتهم ، لأنه قد تكون حركة الأبناء قد اختلت بالغفلة عن المنهج أو بنسيان المنهج ، لذلك يدعونا ويأمرنا سبحانه : أن ننخلع عن هذه الأشياء ونتبع ما أنزل الله ، ولا نهبط إلى مستوى الأرض ، لأن عادات ومنهج الأرض قد تتغير ، ولكن منهج السماء دائما لا يتغير ، فاتبعوا ما أنزل الله .

والناس حين يحتجون يقولون : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا . وتلك قضية تبريرية فى الوجود ، ولو كان ذلك حقا وصدقا ، ومطابقا للواقع ، لما كرر الله الرسالات بعد أن علم آدم كل المنهج الذى يريد ؛ لأننا لو كنا نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، لكان أبناء آدم سيتبعون ما كان يفعله آدم ، وأبناء أبناء آدم يتبعون آباءهم ، وهكذا يظل منهج السماء موجوداً متوارثاً فلا تغيير فيه

إذن فما الذى اقتضى أن يتغير منهج السماء ؟

إن هذا دليل على أن الناس قد غيروا المنهج ، ولذلك فقولهم : « نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » هى قضية مكذوبة ، لأنهم لو اتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم ؛ لظل منهج الله فى الأرض مضيئا غير متأثر بغفلة الناس ولا متأثرا بانحرافات أهل الأرض عن منهج السماء وهو تبرير يكشف أن ما وجدوا عليه آباءهم يوافق أهواءهم .

وقوله الحق « اتبعوا » أى اجعلوا ما أنزل عليكم من السماء متبوعا وكونوا تابعين لهذا المنهج ؛ لا تابعين لسواه ؛ لأن ما سوى منهج السماء هو منهج من صناعة أهل الأرض ، وهو منهج غير مأمون ، وقولهم : « ما ألفينا عليه آباءنا » أى ما وجدنا عليه آباءنا ، وما تفتحت عليه عيوننا فوجدناه حركة تُحتَذى وتُقتدى

والحق يبين لهم أن هذا كلام خاطىء ، وكلام تبريرى وأنتم غير صادقين فيه ، وعدم الصدق يتضح فى أنكم لو كنتم متبعين لمنهج السماء ؛ لما تغير المنهج ، هذا أولا ، أما ثانيا ، فأنتم فى كثير من الأشياء تختلفون عن آبائكم ، فحين تكون للأبناء شخصية وذاتية فإننا نجد الأبناء حريصين على الاختلاف ، ونجد أجيالا متفسخة ، فالأب يريد شيئا والابن يريد شيئا آخر ، لذلك لا يصح أن يقولوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ؛ لأنه لو صح ذلك لما اختلف منهج الله على الأرض لكن المنهج اختلف لدخول أهواء البشر ، ومع ذلك نرى بعضا من الخلاف فى سلوك الأبناء عن الآباء ، ونقبل ذلك ونقول : هذا بحكم تغير واختلاف الأجيال ، أى أن الأبناء أصبحت

لهم ذاتية . ولذلك فالقول باتباع الأبناء للآباء كذب لا يمثل الواقع .

والحق سبحانه وتعالى يرد على هذه القضية لأنها قضية تبريرية لا دليل لها من صدق ، ولا برهان لها من واقع . ويقول سبحانه : « أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » أي أيتبعون ما وجدوا عليه آباءهم حتى ولو كان آباؤهم لا يعقلون ولا يهتدون ؟ .

إذن ، الرد جاء من ناحيتين ، من ناحية التعقل ، ومن ناحية الاهتداء ، وكل من العقل والاهتداء منفي عن الآباء في هذه الآية ، فأنتم تتبعونهم اتباعا بلا تفكير ، اتباعا أعمى . والإنسان لا يطيع طاعة عمياء إلا لمن يثق صدق بصيرته الناصحة المطلقة ، وهذه لا يمكن أن تتأتى من بشر إلى بشر ، فالطاعة المطلقة لا تصح أن تكون لشيء إلا لمنهج السماء . وحين تكون طاعة عمياء لمن تثق ببصره الشافي الكاف الحكيم ، فهي طاعة مبصرة وبصيرة في آن واحد . لأنك تحمي نفسك من خطأ بصرك ، وخطأ بصيرتك ، وتلتزم في التبعية بمن تعتقد أن بصره وبصيرته لا يخطئان أبدا ، عندها لا تكون طاعة عمياء .

إذن ، فالحق سبحانه وتعالى ينبههم إلى أنه لا يصح أن تقولوا : إنكم تتبعون ما وجدتم عليه آباءكم ، لأنه يجوز أن يكون آباؤكم لا يعقلون ، ويجوز أن يكونوا غير مهتدين . لو كان آباؤكم لهم عقل أو لهم اهتداء ، عند ذلك يكون اتباعكم لهم أمرا سليما ، لا لأنكم اتبعتم آباءكم ، ولكن لأنكم اتبعتم المعقول والهدى .

وهكذا نجد أن قضية التقليد هي أمر مزعوم ، لأنك لا تقلد مساويك أبدا ، ولكنك تتبع من تعتقد أنه أحكم منك ، ومادام مساويا لك فلا يصح أن تقلده في كل حركة . بل يجب أن تعرض الحركة على ذهنك . ولذلك فتكليف الله لعبده لم يشأ إلا بعد اكتمال العقل بالبلوغ . فهو سبحانه لا يأخذ العقل على غرة قبل أن ينضج ، بل لا يكلف الله عبدا إلا إذا نضج عقله ، ولا يكلفه إن لم يوجد له عقلا ، ولا يكلفه إن لم تكن قوته وراء عقله ، فإن كان الإنسان سليم القوة والعقل فإن تكليفه يكون تاما ، فسبحانه لا يكلف إلا صاحب العقل الناضج والذي لديه قدرة تمكنه من تنفيذ ما اهتدى إليه عقله ، أي غير مُكره .

فالذي يكلف الإنسان بمقتضى هذه الأشياء هو عالم أن العقل إن وجد ناضجا بلا إكراه فلابد أن يهتدي إلى قضية الحق

إن الحق سبحانه لم يكلف الإنسان إلا بعد أن تكتمل كل ملكات نفسه ، لأن آخر ملكة تتكون في الإنسان هي ملكة الغريزة ، أي أن يكون صالحا للإنجاب ، وصالحا لأن تمتد به الحياة وقلنا من قبل إن الثمرة التي نأكلها لا تصبح ثمرة شهية ناضجة إلا بعد أن تؤدي مهمتها الأولى ؛ فمهمتها ليست في أن يأكلها الإنسان فقط . إنما أن توجد منها بذرة صالحة لامتداد الحياة ، وعندما توجد البذرة يكون أكل الثمرة صالحا ، كذلك الإنسان ؛ لا يكون صالحا لامتداد الحياة إلا بعد البلوغ أو في سن البلوغ ، وسبحانه وتعالى جعل لهذه الغريزة سعارا ؛ لأن الحياة التي ستأتي من خلالها لها تبعات أولاد ومشقات ، فلو لم يربطها الله بهذه اللذة لانصرف عنها كثير من الناس ، لكنه سبحانه يربطها باللذة حتى يوجد امتداد الحياة بدافع عنيف وقوي من الإنسان

فالحق سبحانه لا يفجيء الإنسان بتكليف إلا بعد أن يعده إعدادا كاملا ، لأنه لو كلفه قبل أن يصبح غريزيا ، وقبل أن تصبح له قدرة على استبقاء النوع ، لقال الإنسان : إن الله كلفني قبل أن يوجد فيّ ذلك ، عندئذ لا يكون التعاقد الإيماني صحيحا .

ولذلك يؤخر الحق تكليفه لعباده حتى يكتمل لهم نضج العقل ونضج الغريزة معا ، وحتى يدخل الإنسان في التكليف بكل مقوماته ، وبكل غرائزه ، وانفعالاته ؛ حتى إذا تعاقد إيمانيا ، فإن عليه أن يلتزم بتعاقده

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يربي في الإنسان ذاتيته من فور أن يصبح صالحا لاستبقاء النوع في غيره ، ومادامت قد أصبحت له ذاتية مكتملة ، فالحق يريد أن ينفي عنه التبعية لغيره ، عند ذلك لا يقول أحد : « أفعل مثل فعل أبي » لكن هناك من قالوا « نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » ، لماذا يتبعون آباءهم في المنهج الباطل ، ولا يتبعونهم في باقي أمور الدنيا ، وفي الملابس ، وفي الأكل ، وفي كل مناحي الحياة ؟ .

إذن فلا شيء قد جعلهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم إلا لأنهم وجدوا فيه مايوافق هواهم ، بدليل أنهم انسلخوا عن تبعيتهم لآبائهم في أشياء رأوها في سلوك الآباء وخالفوهم فيها ، وماداموا قد خالفوهم في أشياء كثيرة ، فلماذا يتبعونهم في الدين الزائف ؟.

إن الله يريد أن يخلص الإنسان من إسار هذا الاتباع ، ويلفت العباد . تعقلوا يا من أصبحت لكم ذاتية ، وليعلم كل منكم أنه بنضج العقل يجب أن يصل إلى الهداية إلى الخالق الواحد الأحد ، فإن كنت قد التحمت بأبيك في أول الأمر لأنه يعولك ويمدك ، فهذا الأب هو مجرد سبب أراده الله لك ، ولكن الله هو خالقك ، وهو الذي أنزل المنهج الذي يجب أن تلتحم به لتصير حياتك إلى نماء وخير . وهو سبحانه يقول :

﴿ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ٣٣ سورة لقمان)

إن الحق سبحانه وتعالى يفصل لنا هذا الأمر بدقة ، فإذا كان الآباء لا يعقلون ؛ فلماذا عن موقف الأبناء ؟. إن على الأبناء أن يصلحوا أنفسهم بمنهج الحق

وقد وردت في سورة المائدة آية أخرى بالمعنى نفسه ولكن بخلاف في اللفظ ، فهنا في سورة البقرة يقول الحق . « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله » . وفي آية سورة المائدة يقول الحق

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وبين الآيتين اتفاق واختلاف ، فقوله الحق هنا « اتبعوا ما أنزل الله » وهى نص أن نمعن النظر وأن نطبق منهج الله . وآية سورة المائدة « تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول » هذا هو الخلاف الأول

والخلاف الثاني في الآيتين هو في جوابهم على كلام الحق . ففي هذه السورة - سورة البقرة - قالوا « بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » وهذا القول فيه مؤخذة لهم . لكنهم في سورة المائدة قالوا : « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » ، وهذه تعني أنهم اكتفوا بما عندهم ، ورفضوا اتباع منهج السماء ، وهذا الموقف أقوى وأشد تعنتا ، لذلك نجد أن الحق لم يخاطبهم في هذه الآية بـ « اتبعوا » بل قال لهم : « تعالوا » أي لترتفعوا من حضيض ما عندكم إلى الإيمان بمنهج السماء . ومادمتم قد قلتم « حسبنا » بملء الفم ؛ فهذا يعني أنكم اكتفيتم بما أنتم عليه .

وكلمة « حسبنا » فيها بحث لطيف ؛ لأن من يقول هذه الكلمة قد حَسَبَ كلامه واكتفى ، وكلمة الحساب تدل على الدقة ، والحساب يفيد العدد والأرقام فقولهم : « حسْبُنَا » تعني أنهم حسبوا الأمر واكتفوا به وتجد كل ورود هذه الكلمة في القرآن يفيد أنها مرة تأتي لحساب الرقم المادي ، ومرة تأتي لحساب الإدراك العقلي فالحق يقول :

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

ومعناها - هل ظن الناس أن يتركوا دون اختبار لإيمانهم ؟ . هذا حساب ليس بالرقم ، وإنما حساب بالفكر ، والحساب بالفكر يمكن أن يخطيء ، ولذلك نسميه الظن .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

إذن ، فكلمة « حساب » تأتي مرة بمعنى الشيء المحسوب والمعدود ، ومرة تأتي في

المعنويات ، ونعرفها بالفعل ، فإذا قلت : حَسَبَ يَحسب ، فالمعنى عدّ ، وإذا قلت : حَسِبَ يَحسَب ، فهي للظن .

وفيه ماض وفيه مضارع ، إن كنت تريد العد الرقمي الذى لا يختلف فيه أحد تقول : « حَسَبَ بفتح السين في الماضي وبكسرها في المضارع يَحسِب » ، وإن أردت بها حسبان الظن الذى يحدث فيه خلل تقول : « حَسِبَ » بالكسر ، والمضارع « يَحْسَبُ » بالفتح .

وعندما يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن حساب الآخرة ، فمعنى ذلك أنه شيء محسوب ، لكن إذا بولغ في المحسوب يكون حسباناً . وكما تقول « غفر غفراً » و« شكر شكراً » ، يمكن أن تقول : « غفر غفراناً » و « شكر شكراناً » . كذلك « حسب حسباناً » . والحسبان هو الحساب الدقيق جداً الذى لا يخطىء أبداً .

ولذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى بكلمة « حسبان » فى الأمور الدقيقة التى خلقت بقدر ونظام دقيق ، إن اختل فيها شيء يحدث خلل فى الكون ، فيقول

﴿ الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ ﴾ (سورة الرحمن)

أى أن الكون يسير بنظام دقيق جداً ؛ لا يختل أبداً ، لأنه لو حدث أدنى خلل فى أداء الشمس والقمر لوظيفتيهما ، فنظام الكون يفسد لذلك لم يقل الحق « الشمس والقمر بحساب » ، وإنما قال «بحسبان» وبعد ذلك فيه فرق بين « الحسبان و« المحسوب بالحسبان » . والحق سبحانه وتعالى حينما يقول

﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾

(من الآية ٩٦ سورة الأنعام)

لم يقل « بحسبان » لأنها هي في ذاتها حساب وليست محسوبة ، أي أن حسبها آلي .

وتأتي الكلمة بصورة أخرى في سورة الكهف وفي قوله تعالى :

﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الكهف)

المعنى هنا شيء لعقاب على قدر الظلم . تماما هذه هي مادة الحساب وقولهم « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » في ظاهرها أبلغ من قولهم « نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » لكن كل من اللفظين مناسب للسياق الذي جاء فيه . فـ « اتبعوا » يناسبها « نتبع ما ألفينا » وقوله تعالى « وإذا قيل لهم تعالوا » يناسبها قولهم : « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » ، يعني كافينا ما عندنا ولا نريد شيئا غيره .

ومن هنا نفهم لماذا جاء الحق في آية البقرة بقوله : « اتبعوا » ، وفي آية المائدة « تعالوا » ، وجاء جوابهم في سورة البقرة : « بل نتبع » ، وفي سورة المائدة : « حسبنا » .

وهناك خلاف ثالث في الآيتين : ففي آية البقرة قال « أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا » . وفي آية المائدة قال : « أو لو كان آباؤهم لا يعلمون » الخلاف في « لا يعقلون » و « لا يعلمون » .

وما الفرق بين « يعقلون » و « يعلمون » ؟
إن « يعقلون » تعني ما ينشأ عن فكرهم وتدبرهم للأمور ، لكن هناك أناس لا يعرفون كيف يعقلون ، ولذلك يأخذون القضايا مسلماً بها كعلم من غيرهم الذي عقل .

إذن فالذي يعلم أقل منزلة من الذي يعقل ، لأن الذي عقل هو إنسان قد استنبط ، وأما الذي علم فقد أخذ علم غيره وعلى سبيل المثال ، فالأمي الذي أخذ حكما من الأحكام هو قد علمه من غيره ، لكنه لم يتعقله ، إذن فنفي العلم عن

شخص أبلغ من نفي التعقل ، لأن معنى « لا يعلم » أي أنه ليس لديه شيء من علم غيره أو علمه .

وعندما يقول الحق سبحانه : « لا يعقلون شيئا » فمعنى ذلك أنه من المحتمل أن يعلموا ، لكن عندما يقول : « لا يعلمون » فمعناه أنهم لا يعقلون ولا يعلمون ، وهذا يناسب ردهم . فعندما قالوا : « بل نتبع » فكان وصفهم بـ لا يعقلون » . وعندما قالوا : « حسبنا » وصفهم بأنهم « لا يعلمون » كالحيوانات تماما .

نخلص مما سبق أن هناك ثلاث ملحوظات على الآيتين .

في الآية الأولى قال : « اتبعوا » ، وكان الرد منهم « نتبع ما ألفينا » والرد على الرد « أَوَ لَوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئا » .

وفي الآية الثانية قال : « تعالوا » ، وكان الرد منهم « حسبنا » ، فكان الرد عليهم « أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا » .

وهكذا نرى أن كلا من الآيتين منسجمة ، ولا يقولن أحد : إن آية جاءت بأسلوب ، والأخرى بأسلوب آخر ، فكلّ آية جاءت على أسلوبها يتطلبها مهي الأبلغ ، فكل آية في القرآن منسجمة كلماتها مع جملها ومع سياقها

وقوله تعالى : « وإذا قيل لهم » مبنية للمفعول ليتضمن كل قول جاء على لسان أي رسول من الله من بدء الرسالات ، فهي ليست قضية اليوم فقط إنما هي قضية قيلت من قبل ذلك . إن المعنى هو : إذا قيل لهم من أي رسول ، اتبعوا ما أنزل الله قالوا : « بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون »

ويختم الحق الآية في سورة البقرة بقوله : « ولا يهتدون » . وكذلك كان ختام آية المائدة : « ولا يهتدون » ، لنعلم أن هدى السماء لا يختلف بين عقل وعلم ، فالأولى جاءت بعد قوله تعالى : « أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » والثانية جاءت في ختام قوله تعالى : « أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » وذلك للدلالة على أن هدى السماء لا يختلف بين من يعقلون ومن يعلمون .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) ﴾

والذى ينعق هو الذى يُصَوِّتُ ويصرخ لبهائم ، وهو الراعى ، إذن ، فكلمة ينعق أعطتنا صورة راع يرعى بهائم وكان هذا الصياح من الراعى ليلفت الماشية المرعية لتسير خلفه ، وهو لا يقول لها ما يريده أن تفعله ، وإنما ينبهها بالصوت إلى ما يريد ، ويسير أمامها لتسير خلفه إلى المرعى أو إلى نبع الماء ، فالنداء لفتة ودعاء فقط ، لكن ما يراد من الدعاء يصير أمرا حركيا تراه الماشية فكأن الماشية المرعية لا تفهم من الراعى إلا النداء والدعاء ، إنما دعاء ونداء لماذا ؟ فهى لا تعرف الهدف منه ، إلا بأن يسلك الراعى أمامها بما يرشدها وهكذا نفهم أن هناك « راعيا » ، و« ماشية » ، و« صوتا من الراعى » وهو مجرد دعاء ونداء

مقابل هؤلاء الثلاثة فى قضيتنا هو الرسول حين يدعو فيكون هو « الراعى » ويدعو من ؟ ، يدعو « الرعية » الذين هم الناس

وبماذا يدعو الرعية ؟ أيناديها فقط لتأتيه ، أم ينادى لتأتيه ويأمرها بأشياء ؟.
إنه يأمرها باتباع منهج السماء .
وهذا هو الفارق بين الراعى فى الماشية والراعى فى الآدميين

فعندما يأتى الرسول ويقول : « يا قوم إنى لكم رسول ، وإنى لكم نذير » ، فهذ هو الدعاء ، ومضمون ذلك الدعاء هو « اعبدوا الله »

« انظروا فى السماوات والأرض » ، « افعلوا كذا من أوامر وانتهوا عن تلك النواهى » ، هذا ما يريده الرسول

إذن فالرسول يشترك مع الراعي في الدعاء والنداء ، وهم اشتركوا مع المرعيّ في أنهم لم يفهموا إلا الدعاء والنداء فقط ، وفي الاستجابة هم « صم بكم عمي » ، فالمدعو به لم يسمعوه ، وكأنهم اشتركوا مع الحيوان في أنهم لا يستمعون إلا للدعاء والنداء ، إنما المدعو به ومضمون النداء هم لا يعقلونه ولا يفهمونه . وبكم لا ينطقون بمطلوب الدعوة وهو « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » ، وليس عندهم عقل يدير حركة العيون لينظروا في ملكوت السماوات والأرض ليظهر لهم وجه الحق في هذه المسألة .

إذن فمثل الذين كفروا بالرسول كمثل الماشية مع الراعي ، فهم لا يسمعون إلا مجرد الدعاء ، كما أن الماشية تسمع الراعي ولا تعقل ، مع الفارق ، لأن الدواب ليس مطلوبا منها أن ترد على من يناديها ولا تسمع غير ذلك من مدعو به لذا كان الكافرون شر الدواب .

وقول الحق « صُم » أي مصابون بالصمم ، وهو داء تمنع الأذن من أداء مهمتها . و « بكم » أي مصابون بآفة تصيب اللسان فتمنعه من أداء مهمته ، إلا أن السبب في الصمم سبب إيجابي ، لأن هناك شيئا قد سد منفذ السمع فلا يسمع ، وبسبب الصمم فهم بكم ، والبكم هو عجز للسان عن الكلام ، لأن الإنسان إن لم يسمع فهو لن يتكلم . ولذلك فإن الإنسان إذا وُجد في بيئة عربية فهو يتكلم اللغة العربية ، وإذا نشأ الإنسان في بيئة إنجليزية فهو يتكلم لغة إنجليزية . وهبْ أنك قد نشأت في بيئة تتكلم العربية ثم لم تسمع كلمة من كلماتها هل تتكلم بها ؟ لا . إذن فاللسان ينطق بما تسمعه الأذن ، فإذا لم تسمع الأذن لا يتكلم اللسان . والصمم يسبق البكم ، ولذلك فالبكم هو آفة سلبية ، ونجد أن اللسان يتحرك ويُصوّت أصواتاً لا مدلول لها ولا مفهوم . فهل نفهم من قوله تعالى عنهم « صُم » أنهم مصابون بالصمم ؟ لا . إن الحق يقول : لقد جعلت الأذن لتسمع أسمى المعاني ، فكأنها معطلة لا تسمع شيئا . وكذلك اللسان أوجدته ليتكلم الكلام المفيد ، بحيث من لا يتكلم به كأنه أبكم ، والعقل أوجدته ليفكر به ، فإذا لم يفكر تفكيرا سليما منطقيا ، فكأن صاحبه لا عقل له . فالأصم حقيقة خير من الذي يملك حاسة السمع ولا ينتفع بها ، لأن الأصم له عذره ، والأبكم كذلك ، والمجنون أيضا له عذره ، فليت هؤلاء الكفار كانوا كذلك ، لقد صمّوا آذانهم عن سماع الدعوة ، وهم بُكم عن النطق بما ينجيهم بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وهم عمي عن

النظر في آيات الكون ، فلو أن عندهم بصرا لنظروا في الكون كما قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَٰتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فلو أنهم نظروا في خلق السماوات والأرض ، لاهتدوا بفطرتهم إلى أن هذا الوجود المتقن المحكم صانعا قد صنعه ، لكنهم لا يعقلون ، لأن عملية العقل تنشأ بعد أن تسمع ، وبعد اكتمال الحواس ، ولذلك فالإنسان في تكوينه الأول حركي حسيّ ، يرى ويسمع ويتذوق ثم تتكون عنده من بعد ذلك القضايا العقلية .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

وهذا خطاب من الله للذين آمنوا بأن يأكلوا من الطيبات ، وقد سبق في الآية ١٦٨ خطاب مماثل في الموضوع نفسه ، ولكن للناس جميعا وهو قوله تعالى . « يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا » . وقلنا : إن الحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب الناس جميعا ، فهو يلفتهم إلى قضية الإيمان ، ولكن حين يخاطب المؤمنين فهو يعطيهم أحكام الإيمان ، فالله لا يكلف بحكم إلا من آمن به ، أما من لم يؤمن به ، فلا يكلفه بأي حكم ، لأن الإيمان التزام ومادمت قد التزمت بأنه إله حكيم ، فخذ منه أحكام دينك .

وعدل الله اقتضى ألا يكلف إلا من يؤمن ، وهذا على خلاف مألوف البشر ، لأن تكليفات القادة من البشر للبشر تكون لمن يرضى بقيادتهم ومن لم يرض ، وإذا كان للقائد من البشر قوة ، فإنه يستخدمها لإرغام من يوجدون تحت ولايته على تنفيذ ما يقول .

وخطاب الله للمؤمنين هنا جاء بقوله : « كلوا من طيبات ما رزقناكم » ، ذلك أن المؤمن يتيقن تماما بأن الله هو الخالق وهو الذي يرزق . ويذيل الآية الكريمة بقوله : « واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون » ، فشكر العبد المؤمن للرب الخالق واجب ، مادام العبد المؤمن يختص الله بالعبادة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾

ونجد أن استخدام « الموت » يأتي في كلمات متنوعة ، مثل : « ميْت » و« ميِّت » و« ميتة » ، ومثال ذلك ما يقوله الحق :

﴿ فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾

(من الآية ٩ سورة فاطر)

و «الميّت» بتشديد الياء هو مَنْ ينتهي أمره إلى الموت وإن كان حياً، فكل واحد منا يقال له أنت ميّت، أي مصيره إلى الموت، ولذلك يخاطب الله رسوله

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾

(سورة الزمر)

إذن، فكلمة «ميّت» معناها أنك ستموت، رغم أنك الآن حي.

لكن عندما نقول «ميْت»، بتسكين الياء، فمعناها مات بالفعل، وفي الشعر العربي جاء

وما الميْت إلا من إلى القبر يُحمل.

والحق سبحانه وتعالى يقول «إنما حرم عليكم الميتة والدم»، ولو قال «الميّتة» بتشديد الياء، لقلت إن كل شيء سيموت يصير محرما، لكن كلام الله هنا عن الميْتة ـ بالياء الساكنة وهي الميتة بالفعل، وهي التي خرجت روحها حتفاً، لأنه فيه خروج الروح إزهاقاً بمعنى أن تذبحه فيموت؛ لكن هناك مخلوقات تموت حتف أنفها، وساعة تموت الحيوانات حتف أنفها تُحتبس فيها خلاصة الأغذية التي تناولتها وهي الموجودة بالدم؛ وهذا الدم فيه أشياء ضارة كثيرة، ففي الدم مواد ضارة فاسدة استخلصتها أجهزة الجسم وهي حي، وكانت في طريقها إلى الخروج منه، فإذا ما ذبحناه؛ سال كل الدم الفاسد والسليم، ولأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، فإننا نضحي بالدم السليم مع الدم الفاسد. وهذا الدم يختزنه الجسم عندما يموت، وتظل بداخله الأشياء الضارة فيصبح اللحم مملوءاً بالمواد الضارة التي تصيب الإنسان بالأمراض ونظرة بسيطة إلى دجاجتين، إحداهما مذبوحة أريق دمها، والأخرى منخنقة أي لم يرق دمها، فإننا نجد اختلافاً ظاهراً في اللون، حتى لو قمنا بطهي هذه وتلك فسنجد اختلافاً في الطعم، سنجد طعم الدجاجة المذبوحة مقبولاً، وسنجد طعم الدجاجة الميتة غير مقبول، وكان الذين لا يؤمنون بإله أو بمنهج يقومون بذبح الحيوانات قبل أكلها، لماذا؟ لقد هدتهم تجاربهم إلى أن هذه عملية فيها مصلحة، وإن لم يعرفوا طريقة الذبح الإسلامية

وحين يحرم الله « الميتة » فليس هناك أحد منا مطالب أن يجيب عن الله : لماذا حرم الميتة ؟، لأنه يكفينا أن الله قال : إنها حرام ، ومادام الذي رزقك قال لك : لا تأكل هذه ، فقد أخرجها من رزقية النعمية المباشرة ، ولو لم يكن فيها ضرر نعلمه ، هو سبحانه قد قال : لا تأكلها ، فلا تأكلها ، لأنه هو الذي رزق ، وهو الذي خلقك ، وهو الذي يأمرك بألا تأكلها ، فليس من حقك بعد ذلك أن تسأل لماذا حرمها على؟

وهب أننا لم نهتد إلى حكمة التحريم ، ولم نعرف الأذى الذي يصيب الإنسان من أكل الميتة ؟ هل كان الناس يقفون عند الأمر حتى تبدو علته ، أم كانوا ينفذون أوامر الله فلا تفكر؟ لقد استمع المؤمنون لأوامر الحق ونفذوها دون تردد .

إذن ، فمادام الله يخاطبنا ، فمقتضى حيثية الإيمان يجب أن تتقبل عنه الحكم ، وعلة قبول الحكم هي صدوره من الذي حكم . أما أن نعرف علة الحكم ، فهذه عملية إيناس للعقل ، وتطمين على أن الله لم يكلفنا بأمر إلا وفيه نفع لنا ، والمؤمن لا يصح أن يجعل إيمانه رهناً بمعرفة العلة .

إن الحق يقول : « إنما حرم عليكم الميتة » والآية صريحة في أن كل ميتة حرام ، ومادامت ميتة فقد كان فيها حياة وروح ثم خرجت ، لكننا نأكل السمك وهو ميت ، وذلك تخصيص من السنة لعموم القرآن ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :

« أحل لكم ميتتان : السمك والجراد ، ودمان : الكبد والطحال »[1] .

لماذا هذا الاستثناء في التحليل ؟ لأن للعرف في تحديد ألفاظ الشارع مدخلاً ، فإذا حلفت ألا تأكل لحماً وأكلت سمكا فهل تحنث ؟ لا تحنث ، ويمينك صادقة ؛ رغم أن الله وصف السمك بأنه لحم طري ، إلا أن العرف ساعة يُطلق اللحم لم يدخل فيه السمك .

إذن ، فالعرف له اعتبار ، لذلك فالزمخشري صاحب الكشاف يقول في هذه المسألة : « لو حلفت ألا تأكل اللحم وأكلت السمك فإجماع العلماء على أنك لم تحنث

---

(١) هذا الحديث أخرجه الشافعي وأحمد وابن ماجه والدارقطني والحاكم والبيهقي عن ابن عمر مرفوعاً وموقوفاً

في يمينك » . وضرب مثلا آخر فقال : لو حلفت بأن تركب دابة ، والكافر قد أسماه الله دابة فقال « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا » فهل يجوز ركوب الكافر ؟ لا يجوز فكان مقتضى لآية أنه يصح لك أن تركبه وعلق على ذلك قائلا : صحيح أن الدابة هي كل ما يدب على الأرض ، إلا أن العرف خصها بذوات الأربع

هذا كان للعرف مدخل في مسائل التحليل والتحريم فإذا قال قائل إن الله حرم الميتة ، والسمك والجراد ميتة فلماذا نأكلها ؟ نرد عليه إن العرف جرى على أن السمك والجراد ليسا لحما ، بدليل قولهم : « إذا كثر الجراد أرخص اللحم » ، وذلك يعني أن الجراد ليس من اللحم

أما بالنسبة للسمك ، فالسمك لم يكن كالميتة التي حرمها الله لأن الميتة المحرمة هي كل ما يذبح ويسيل دمه ، والسمك لا نفس سائلة له أي لا دم له والجراد أيضا لا دم فيه ، إذن ، فتحليل أكله وهو ميت إنما جاء بسبب عدم وجود نفس سائلة يترتب عليها انتقال ما يضر من داخله إلى الإنسان ، وكذلك الكبد والطحال أيضا ليس بدم ، فالدم له سيولة ، والكبد والطحال لحم متجمد متماسك ، خلاصة دم تكوّن منه عضو الكبد وعضو الطحال

إذن ، السنة لها دور بيان في التحليل والتحريم ، وقوله الحق « إنّما حرم عليكم الميتة والدم » يعني أنه سبحانه قد حرمها لأجل بقاء الدم في الميتة وعدم سيلانه ، ومن باب أولى ؛ كان تحريم الدم أمرا واضحا وحرم الحق « لحم الخنزير » وقلنا إن علة الإقبال على الحكم هو أمر الله به ، فإذا أثبت الزمن صدق القضية الإيمانية في التحليل ؛ فذلك موضوع يؤكد عملية الإيمان ، لكن لو انتظرنا وأجلنا تنفيذ حكم الله حتى نتأكد من علة التحريم ؛ لكُنا نؤمن بالعلماء وبالاكتشافات العلمية قبل أن نؤمن بالله . لأننا إن انتظرنا حتى يقول العلماء كلمتهم ؛ فقد اعتبرنا العلماء آمن علينا من الله وهل يوجد مخلوق آمن على مخلوق من الخالق ؟

إن ذلك مستحيل إذن فالمؤمن من يأخذ كل حكم صادر من الله ، وهو متيقن أن الله لا يأمره إلا بشيء نافع له ، وفي الحقيقة فالشيء الضار غير ضار في ذاته ، فقد ينفع في أشياء أخرى ونضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - فأنت ساعة تعاقب ابنك بأمر من الأمور ، فتحرمه من المصروف أو تحرمه من أكله شهية ، فإن ذلك العقاب ليس ضاراً في ذاته ، إنما إغراقك إياه بما يحب ويطلب ، مع سيره في

طريق لا ترتضيه ، هو دعوة للابن أن يستمر في عمل ما لا ترتضيه. إذن عدم تربية الابن بالثواب والعقاب هو أمر ضار.

ولذلك نقول للذين يريدون أن يوجدوا علة لكل مُحَرَّم : أنتم لم تفطنوا إلى تحريم التأديب ، فهناك تحريم لأمر لأنه ضار ، وهناك تحريم لأمر آخر لأنك تريد أن تحرمه تأديباً به ، وأنت لا يصح منك أن تهمل عملية التأديب في القيم دون عملية الإصلاح في المادة البدنية. والحق سبحانه وتعالى أرحم بخلقه من الأب بابنه ، وهو قد حرم بعضاً من طيبات الحياة على بني إسرائيل للتأديب ، فقال عز وجل :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

فالحق حرم عليهم الطيبات كتأديب لهم على ظلمهم لأنفسهم. إذن ، ساعة ترى تحريماً فلا تنظر إلى تحريم الشيء الضار ، لكن انظر أيضاً إلى أن هناك تحريماً من أجل التأديب ، لأن إباحة بعض من الطيبات لهؤلاء مع كونهم مخالفين للمنهج هو إغراء لهم بأن يكونوا مخالفين دائماً ، ظالمين لأنفسهم.

فالحق قد منع ما يضر الإنسان في بدنه ، ومنع أيضاً بعضاً من الطيبات على بعض المخالفين كتأديب لهم. وبالنسبة لتحريم الخنزير ، فقد شاءت إرادة الله عز وجل أن يكشف لخلقه سر التحريم ، فأثبت العلماء أن هناك أمراضاً في الخنزير لم تكن معروفة قبل ذلك ، وتبين لهم خطورتها مثل الدودة الشريطية ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد كشف لهم سراً واحداً هو الدودة الشريطية ، فربما هناك أسرار أخرى أخطر من الدودة الشريطية.

ويحرم الحق أيضاً ﴿ وما أهل به لغير الله ﴾ والإهلال هو رفع الصوت ، ولذلك يقال : هلل أي رفع صوته بلا إله إلا الله ، ويُسمى الهلال هلالاً ؛ لأننا ساعة نراه نهلل ونقول : الله أكبر ، ربي وربك الله ، وساعة يولد الوليد ، ويخرج من بطن أمه ينبه إلى حياته وإلى ذاتية وجوده بعد أن كان ملتحماً بذاتية أمه فهو يصرخ ، إنه يبدأ حياته بالصراخ ، ولذلك فالذين ينتظرون مولد الطفل عندما يستمعون لصرخته يطمئنون

ولذلك يقول الشاعر :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد

كان الوليد يقبل على شيء فيه نكد ، ولا يلتفت إلى ما في اتساع الدنيا ورغد العيش فيها . وإلا فما يبكيه وإنها لأوسع مما كان فيه وأرغد ؟ . فكأن صرخة الوليد هي صرخة الانتقال من رحم الأم إلى مواجهة الحياة .

كانت حياة الطفل في بطن أمه رتيبة وغذاؤه من الحبل السري ، لكنه ساعة ينفصل من أمه تنقطع صلته بجهاز تحضير الغذاء في رحم الأم ، ويفقد المدد الغذائي في لحظة خروجه من بطن أمه ولم يأته مدد الرضاعة بعد ، فالرضاعة من مدد الدنيا ، ولا يأخذها الطفل إلا إذا أخذ أقل نسبة من الهواء ليدير الرئة ، ولذلك يحرص الأطباء في أن ينزل الوليد من جهة رأسه دائماً ، لأنه لو نزل من ناحية رجليه ورأسه ما زال بالداخل ، فإن أنفاسه تكون محبوسة في بطن أمه ، ويكاد يموت ، ولذلك يكشفون الآن على الأم ليعرفوا وضع الجنين ، ويقوم الطبيب بإجراء الجراحة القيصرية حرصاً على حياة الوليد ، وأول شيء يقوم به الطبيب بعد ميلاد الطفل هو أن يُسلك منافذ الهواء إلى أنفه ، وبعد ذلك يعالج بقية الأعضاء .

إنها صرخة الغريزة ، تماماً مثل ما تسهو أمه عنه وجاء موعد رضعته فهو يصرخ . وهكذا نعرف أن الإهلال هو رفع الصوت ، وقوله الحق : « وما أهل به لغير الله » يعني هو رفع الصوت لحظة الذبح ، والذبح نوعان : ذبح لنفسك لتأكل ويأكل غيرك ، وذبح قربى لله ، وما أهل به لله ، هو ذبح قربى لله ، أما « ما أهل به لغير الله » فهو الذبح لمنفعة الإنسان فقط ، وتقرباً إلى أصنامهم وأوثانهم وما يعبدونه من دون الله .

وما دام الله هو الذي أعطى الحيوانات وسخرها لنا من أجل أن نأكلها ؛ فعلينا أن نذكر اسمه ، وأن يكون القرب لله وحده هي القصد الأول . ولذلك فالمؤمنون يتقربون ويأكلون ، أما الكفار فيأكلون ولا يتقربون لله وإنما يذبحون ويتقربون إلى آلهتهم .

والحق سبحانه وتعالى حينما شرع ، فتشريعه يضع الاحتمالات ، وليس كالمشرعين من البشر الذين تضطرهم أحداث الحياة بعد التشريع إلى أن يغيروا ما شرعوا ؛ لأنه

حدثت أقضية بعد تطبيق التشريع لم تكن فى بالهم ساعة شرعوا ، وذلك لقصور علمهم عما يحدث فى الكون من القضايا التى تضطرهم وتلجئهم إلى أن يعدلوا القانون . فتعديل أى قانون بشرى معناه حدوث أقضية لا يوجد لها تكييف فى القانون عند التطبيق ؛ فيلجأ المشرعون إلى تعديل القانون ، ليضعوا فيه ما يتسع هذه الأقضية .

ولكن الحق سبحانه وتعالى ساعة قنن - فهو يقنن تقنينا يحمل فى طياته كل ما يمكن أن يستجد من أقضية دون حاجة إلى تعديل، ولأن الإسلام جاء منهجاً خاتماً ولا منهج للسماء بعده ، لذلك كان متضمناً كافة الاحتمالات . لقد كان من المعقول تعديل التقنينات عندما كانت الرسل تتوالى ، لكن عندما ختم الله رسالات السماء بمحمد صلى الله عليه وسلم ، كان لابد أن تكون التشريعات التى أنزلها الله على رسوله تحمل فى ذاتها ضمانات تكفل ذلك .

إذن ، فالضرورات التى تتطلب المشرع الوضعى أن يعدل قانوناً غفل عن جزئياته ساعة وضعه الأول ، مثل هذه الأمور لا توجد فى تشريعات السماء ، لأن الله يعلم الأقضية التى تجىء .

وهب أن الضرورة التى تستلزم التعديل لم تكن موجودة ، وبعد ذلك حدثت ضرورات ، أكان الحق يترك خلقه لأنه قال : « لا تأكلوا الميتة » عندئذ كنا سنقول : ما هذه الحكاية ؟ صحيح الميتة ستضر ، ولكن المخمصة والمجاعة ستميت ، فلماذا لا تحتمل أكل ما يضر بدلاً من أن تمتنع عن الأكل فتموت من الجوع ؟

إذن ، فهى عدالة الحق التى قالت : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » فالاضطرار له شرط هو : « غير باغ ولا عاد » ، وغير باغ يعنى غير متجاوز الحد ، فيأخذ على قدر حاجته الضرورية ، مثلاً ، لا يقول : إن الله أحل الميتة لمثل ما أنا عليه من الاضطرار ويملأ بطنه منها ، لا ، إن عليه أن يأخذ على قدر استبقاء الحياة ولا يظن أن ذلك يصبح حلالاً ؛ بل يقول : إن هذا حرام أبيح للاضطرار .

وأيضا لابد أن نلحظ قيمة الحقوق المتعلقة بالآخرين ، هب أن إنساناً يملك فنجان ماء لا يكفيه إلا ليروى حلقه ، وبعد ذلك جاء شخص آخر مضطر وقوى وضربه ليأخذ منه هذا الفنجان . نقول لهذا المعتدى : لا تعتد لأن بملكية سبقاً ،

فإن اتسعت لكما كمية الماء معاً فأهلاً وسهلاً ، وإن لم تتسع ، فصاحب الملكية أولى بالماء ، ولا يقولن هذا الآخر : « أنا مضطر لأن آخذ منه » إن اضطراره سيدفع عنه المضرة ويوقعها في غيره

إذن ، فالمقاييس عند الضرورة تظل كما هي ، فلابد من احترام الحق والسبق ، ولا يصح أن تتجاوز بالضرورة قدرها ، هذا معنى قوله . « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » ، وقوله الحق : « فلا إثم عليه » يدل على أن المسألة فيها إثم أباحه الله عز وجل للضرورة ؛ وذلك حتى لا نحللها تحليلاً دائماً ، فإذا مازالت الضرورة عُدنا إلى أصل الحكم

ويختم الحق الآية بقوله . « إن الله غفور رحيم » وتتساءل ما علاقة « غفور رحيم » بهذه الآية ؟ إن المغفرة والرحمة تقتضيان ذنوباً ، وما سبق كله هو قول الحق وتشريعه ، وتحريم الميتة إلا عند الضرورة هو كلام الحق ، والمضطر حين يأخذ منها على قدر الضرورة فإنما هو إباحة من الحق ، فلا ذنب - إذن - يقتضي تذييل الآية بقوله . « إن الله غفور رحيم » ؟.

ونقول : إذا كان الله يغفر مع الذنب ، أفلا يغفر مع الضرورة التي شرع لها الحكم ، إن المنطق يقول إن الله يغفر الذنب الذي يحدث بلا مناسبة تستدعيه ، أفلا يغفر للمضطر الذي أجبرته الظروف على أكل الميتة ؟ إن الله غفور في الأصل ، أفلا يغفر لمن أعطاه رخصة ؟ إذن فهو غفور رحيم ، ولن يكتب على المضطر ذنباً من جراء اضطراره إن رحمة الله التي تغفر للعاصي الذي اجترأ على الحق بلا مناسبة ، هو سبحانه الذي كتب المغفرة لمن اضطر وكسر قاعدة التحريم عند الاضطرار

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾

إن الحق سبحانه وتعالى ينزل بوساطة رسله على خلقه ليحكم المنهج حركة الحياة للناس وعلى الناس ، إنه يحكم للناس أى لمصالحهم ، ويحكم على الناس إن فوتوا المصالح ، لأن الذى يفوّت مصلحة سواء عنده ، لابد أن يلحظ أن غيره سيفوّت عليه مصلحة عنده .

إذن ، فمن الإنصاف فى التشريع أن يجعل له وعليه ، فكل « تكليف عليه » يقابله « تكليف له » ، لأنه إن كان له حق ، فحقه واجب على سواه ، ومادام حقه واجباً على ما سواه ، فلزم أن يكون حق غيره واجباً عليه ؛ وإلا فمن أين يأخذ صاحب الحق حقه ؟

والحق سبحانه وتعالى حين ينزل المنهج يبلغه الرسل ويحمله أولو العلم ، ليبلغوه للناس . فالذين يكتمون ما أنزل الله إنما يصادمون منهج السماء . ومصادمة منهج السماء من خلق الله لا تأتى إلا من إنسان يريد أن يتمتع بباطل الحياة ؛ ليأكل حق الناس فحين يكتمون ما أنزل الله ، فقد أصبحوا عوائق لمنهج الله الذى جاء ليسيطر على حركة الحياة .

ومن معهم في ذلك ؟ . لابد أن يوجد نفع لهم ، هذا النفع لهم هو الثمن القليل ، مثل « الرشا » ، أو الأشياء التي كانوا يأخذونها من أتباعهم ليجعلوا أحكام الله على مقتضى شهوات الناس .

فالله يبين لهم : أن الشيء لا يُثمن إلا بثمين من يعلم حقيقته ، وأنتم تُثَمِّنون منهج الله ، ولا يصح أن يُثَمَّن منهج الله إلا الله . ولذلك يجب أن يكون الثمن الذي وضعه الله لتطبيق المنهج ثمنا مربحا مقنعا لكم ، فإن أخذتم ثمنا على كتمان منهج الله وأرضيتم الناس بتقنين يوافق أهواءهم وشهواتهم ، فقد خسرتم في الصفقة ؛ لأن ذلك الثمن مهما علا بالتقدير البشري ، فهو ثمن قليل وعمره قصير .

والأثمان عادة تبدأ من أول شيء يتعلق بحياة الإنسان هو قوام حياته من مأكل ومشرب ، لذلك قال الله سبحانه وتعالى - « أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار » وإذا كانوا يأكلون في بطونهم ناراً فكيف يكون استيعاب النار لكل تلك البطون ؟

لأن المؤمن كما قال الرسول يأكل في معى واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء ، أي أن الكافر لا يأكل إلا تلذذاً بالطعام ؛ فهو يريد أن يتلذذ به ذاتيا حتى يضيق بطنه بما يدخل فيه . لكن المؤمن يأخذ من الطعام بقدر قوام الحياة ، سيد الخلق محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث الشريف :

« حسب ابن آدم لقيمات يقمن أوده »[1]

إذن فالأكل عند المؤمن هو مقومات الحياة وكوقود للحركة ، ولكن الكافر يأخذ الأكل كأنه متعة ذاتية . والحق يقول « أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار » يعني كما أرادوا امتلاء بطونهم شهوة ولذة ، فكذلك يجعل الله العذاب لهم من جنس ما فعلوه بالثمن القليل الذي أخذوه ، فهم أخذوا ليملأوا بطونهم من حيث ما أخذوا وسيملأ الله بطونهم ناراً ، جزاء وفاقا لما فعلوا . وهذا لون من العقاب المادي يتبعه لون آخر من العقاب هو « ولا يكلمهم الله » أي أن الحق يتصرف عنهم يوم لا أنس للخلق إلا بوجه الحق .

---

(١) هذا الحديث أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب والترمذي في [illegible] والقرطبي في تفسيره والكحال في الأحكام النبوية في الصناعة الطبية .

ونحن حين نقرأ كلمة « لا يكلم فلان فلاناً » نستشعر منها الغضب ، لأن الكلام في البشر هو وسيلة الأنس ، فإذا ما امتنع إنسان عن كلام إنسان ، فكأنه يمقته ويكرهه . إذن « لا يكلمهم الله » معناها أنه يغضبهم ، وحسبك بصدود الله عن خلقه عقابا وعذابا لقد والاهم بالنعمة وبعد ذلك يصد عنهم . ويقول قائل : كيف نقرأ هنا أن الحق لا يكلمهم ، وهو سبحانه القائل :

﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

نقول : صحيح أنه سبحانه يقول لهم : « لا تكلمون » ولكن الكلام حين ينفى من الله فالمقصود به هو كلام الحنان وكلام الرحمة وكلام الإيناس واللطف ، أما كلام العقوبة فهو اللعنة . إذن « لايكلمهم الله » أي لا يكلمهم الحق وصلا للأنس . ولذلك حين يؤنس الله بعض خلقه يطيل معهم الكلام . ومثال ذلك عندما جاء موسى لميقات ربه ، ماذا قال الله له ؟

قال عز وجل :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة طه)

فهل معنى هذا السؤال أن الله يستفهم من موسى عما بيده ؟ . إنه سؤال الإيناس في الكلام حتى يخلع موسى من دوامة المهابة .

وضربنا مثلا لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ حينما يذهب شخص إلى بيت صديقه ليزوره ، ويأتي ولده الصغير ومعه لعبة ، فيقول الضيف للطفل : ما الذي معك ؟ إن الضيف يرى اللعبة في يد الطفل ، لكن كلامه مع الطفل هو للإيناس وعندما جاء

كلام الله بالإيناس لموسى قال له :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة طه)

كان يكفي موسى أن يقول : عصا ، وتنتهي إجابته عن السؤال ، ولو قال موسى : عصا ، لكان ذلك منه عدم استيعاب لتقدير إيناس الله له بالكلام ، لكن سيدنا موسى عليه السلام انتهز سؤال الله له لطيل الأنس بالله فيقول :

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة طه)

تأمل التطويل فى إجابة موسى. إنَّ كلمة « هى » زائدة ، و« أتوكأ عليها » زائدة لى غير محتاج إليها فى إفادة المعنى ، و« أهش بها على غنمى » تطويل أكثر ، و« لى فيها مآرب أخرى » رغبة منه فى إطالة الحديث أكثر .

إذن فكلام الله والنظر إليه سبحانه أفضل النعم التى ينعم الله بها على المؤمنين يوم القيامة

فإذا كان الله سيمنع عن الكافرين وسائل التكريم المادى فلا يكلمهم ، فهذه مسألة صعبة « ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » وبعد أن يحرمهم من الكلام والاستئناس بحضرته ، ولا يطهرهم من الخبائث التى ارتكبوها ، ولا يجعلهم أهلا لقربه ، بعد ذلك يعذبهم عذاباً شديداً ، كأن فيه عذابا سابقا ، ثم يأتى العذاب الأشد ، لأنهم لابد أن يلاقوا عذاباً مضاعفاً ، لأنهم كتموا منهج الله عن خلق الله ، فتسببوا فى إضلال الخلق ، فعليهم وزر ضلالهم وأوزار فوق أوزارهم لأنهم أضلوا سواهم .

ومسألة كلام الله للناس أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال :

« ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم : شيخ زانٍ ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر »[1]

ما سر حرمان هؤلاء من كلام الله وتزكيته والنظر إليهم ؟ إن الشيخ الزاني يرتكب إثماً ، لا ضرورة له لأنه لا يعاني من سعار المراهقة . والملك الذي يكذب ، إنما يكذب على قوم هم رعيته ، والكذب خوف من الحق ، فممن يخاف الملك إذا كان الناس تحت حكمه ؟. وعائل الأسرة عندما يصيبه الكِبرُ وهو فقير ، سيسبب له هذا الكِبرُ الكثير من المتاعب ويضيق عليه سبيل الرخاء وسبل العيش ويجعله في شقاء من العيلة ، فإن أراد أحد مساعدته فسيكون الكبر والاستعلاء على الناس حائلاً بينه وبين مساعدته ، وهذا هو معنى « لا يكلمهم ولا يزكيهم » ، فما معنى « لا ينظر إليهم »؟ إن النظر شراك العطف ، ولذلك يقطع الحق عنهم باب الرحمة والعطف من الأصل ، وهو النظر إليهم ، ويُذَيِّل الحق الآية الكريمة بقوله : « ولهم عذاب أليم » أي مؤلم ، وعندما تسمع صيغة « فعيل » فتحن نأخذها بمعنى فاعل أو مفعول ، لذلك نفهم « أليم » على أنه مؤلم .

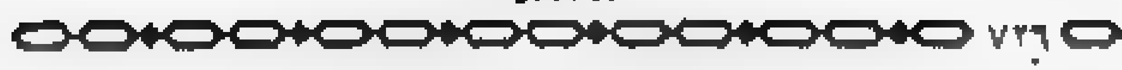
ثم يقول الحق :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ﴾

يذكر الله في حيثية الحكم عليهم ، ولماذا لا يكلمهم ، ولماذا لا يزكيهم ، ولماذا يكون لهم في الآخرة عذاب أليم ؟ إنهم قد بدلوا الضلالة بالهدى ، والعذاب

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه .



بالمغفرة . وعندما ترى فظاعة العقاب فلا تستهوله ، ولكن انظر إلى فظاعة الجُرم . إن الناس حين يفصلون الجريمة عن العقاب فهم يعطفون على المجرم ؛ لأنهم لا يرون المجرم إلا حالة عقابه ومحاكمته ونسوا جريمته ، ولذلك فساعة ترى عقوبة ما وتستفظعها ، فعليك استحضار الجرم الذي أوجب تلك العقوبة . ولذلك نجد الناس غالباً ما يعطفون على كل المجرمين الذين يحاكمون وتصدر عليهم عقوبات صارمة ، لأن الجريمة مرّ عليها وقت طويل ، ولم نرها ، وآثارها وتبعاتها إنتهت ولم يبق إلا المجرم ؛ فيعطفون عليه ، ولذلك فمن الخطأ أن تطول الإجراءات في المحاكمات ، بل لابد من محاكمة المجرم بن فور وقوع الجريمة وهى ساخنة ؛ حتى لا يعطف عليه الجمهور ، لأن تعطيف قلب الجمهور عليه يجعل العقوبة قاسية .

« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » وتعرف أن « الباء » تدخل على المتروك ، فالضلالة هنا أخذت وترك الهدى ، واستبدلوا العذاب بالمغفرة ، وماداموا قد أخذوا الضلالة بدلا من الهدى ، والعذاب بدلا من المغفرة ، فالمحالة أن يأخذوا العذاب الأليم .

وبعد ذلك يقول الحق : « فما أصبرهم على النار » هذا تبشيع للعقاب حتى يُنفّر منه الناس ويريد منا الله أن نتعجب ، كيف يجوز للضال أن يترك الهدى ويأخذ الضلال ، وبعد ذلك تكون النتيجة أن يأخذ العذاب ويترك المغفرة ما الذي يعطيه الأمل في أن يصبر على النار ؟ ، هل عنده صبر إلى هذا الحد يجعله يقبل على الذنب الذي يدفعه إلى النار ؟ وما الذي جعله يصبر على هذا العذاب ؟ أعنده قوة تُصبره على النار ؟ وما هذه القوة ؟ .

وكأن الحق يقول : أنت غير مدرك لما ينتظرك من الجزاء وإلا ما الذي يصبرك على هذه النار ؟ إنك تتمادى في طغيانك وضلالك ، وتنسى أن النار ستكون من نصيبك ، فإذا كنت متيقناً أن النار من نصيبك ، فكيف أخذت أماناً من صبرك على النار . فالنار أمر لا يصبر عليه إنسان أبداً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾

وذلك إشارة إلى ما تقدم ، وما تقدم هو الضلالة التي أخذوها وتركوا الهدى ، والعذاب الذي أخذوه بدلاً من المغفرة ، ونار يعذبون بها . وقد صبروا عليها ، إنها ثلاثة أشياء ملتقية ؛ العذاب ، والضلالة ، والنار

فالضلال هو السبب الأصيل في العذاب ، فإذا قال الله : عاقبتهم بكذا لأنهم ضلوا ، فذلك صحيح ، وإذا قال : فعلت فيهم ذلك لأنهم استحقوا العذاب ، فهو صادق ، والعذاب كحكم عام يكون بالنار .

إذن ، عندما يقول الحق . بالنار أو بالعذاب أو بالضلال نرجعها جميعاً واحداً ، يقال عنه : « ذلك » . « ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق » والذي يغير الكتاب ويكتمه إنما يكره الحق « وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد » . إنها هوة واسعة يسقطون فيها ، فالشقاق في القيم المنهجية السماوية هو هوة كبيرة ، فلو كان الخلاف في أمور مادية لأمكن للبشر أن يتحملوها فيما بينهم ، ولكانت مسألة سهلة . ولكن الخلاف في أمر قيمي لا يقدر البشر على أن يصلحوه فيما بينهم ، من هنا فإن شقة الخلاف واسعة ، ولا يقوى على حلها إلا الله ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

(من الآية ٣ سورة الزمر)

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

وعندما جاء الأمر من الحق سبحانه وتعالى بتحويل القبلة إلى الكعبة واتجاه المسلمين فى صلواتهم إليها بعد أن كانوا يصلون ووجههم إلى بيت المقدس ، عند ذلك حدثت بلبلة ، وصار لكل أتباع ملة قبلة خاصة . فالمسلمون يتجهون إلى الكعبة ، واليهود يتجهون إلى بيت المقدس ، والنصارى يتجهون إلى المشرق .

وهذه الآية تؤكد أن الخلاف ليس فى مسألة اتجاه الصلاة ، وقبل تحويل القبلة كان كل من يصلى يتجه إلى مُتجه ، وتغيير المتجه ليس فيه مشقة .

والحق سبحانه وتعالى يقول لهم . لا تجعلوا أمر الاتجاه إلى الكعبة هو كل البر ، لأن هذا الأمر لا مشقة فيه ، فلا مشقة فى توجه المسلمين إلى الكعبة بعد أن كانوا متوجهين إلى بيت المقدس ، إنما المسألة هى امتثال لأمر الآمر . فالبر إذن ليس فى

الأمور السهلة التى لا مشقة فيها ، وإنما فى الخير الواسع الكثير . ويشمل الإيمان ، ويشمل التقوى ، ويشمل الصدق ، ويشمل الطاعة ، ويشمل الإحسان ، وكل وجوه الخير تدخل فى كلمة « البر » . فالبر معناه كبير واسع ، ومادام معناه متسعا هكذا فكل ناحية منه تحتاج إلى مشقة .

وانظروا إلى مطلوب البر ، ومتعلقات البر التى تتطلب حكم المشقة ، ولا تختلفوا فى المسألة السهلة اليسيرة التى لا يوجد فيها أدنى تعب مثل مسألة تغيير اتجاه القبلة ، فإن كنتم تعتقدون أن ذلك هو البر نقول لكم : لا ، البر له مسئوليات تختلف ، إن مُتعلق البر هو أن تختبر صدق الإيمان ، وبظهر الإيثار لمطلوب الله على الراحة ، ويتطلب من المؤمن أن يقبل على الطاعة وإن شقَّت عليه ، ويتطلب أن يمتنع المسلم عن المعاصى ، وأن يعرف أن للمعاصى لذة عاجلة ، لكن عقابها كبير ، كل ذلك هو من مطلوبات البر والإيمان ، فلا تجعلوا مسألة التوجه إلى الكعبة أو إلى بيت المقدس ، أو إلى المشرق هو المشكلة ، لأن وجوهكم ستولى إلى جهة ما وإن لم تُؤمَروا . وٌالبر كما تعلم هو الخير الواسع الذى يشمل كل وجوه الجمال فى الكون . يقول الحق : « ولكن البر من ءامَنَ » .

ولماذا جعل الله الحديث عن البر حديثا عن ذات مجسدة ، برغم أن البر معنى ؟ . إن الحق يجسد المعنى وهو البر فى ذات العبد الذى آمن لأنه سبحانه حينما يريد أن يؤكد معنى من المعانى يجعل الذات مجسدة فيه . وعلى سبيل المثال ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما نقول : «فلان عادل» ، أى نحن نصفه بما يحقق للسامع أنه رجل يعرف العدل . ولكن عندما نقول : « فلان عدل » فكأنه هو العدل ذاته ، وكذلك عندما نقول : « فلان صادق » فمعنى ذلك أنه صاحب ذات اتصفت بالصدق ، ومن الممكن للذات أن تنفصل عن الصدق يوما . ولكن حين نقول . « فلان صدق » فمعنى ذلك أن الصدق قد امتزج به فلا ينحل عنه أبدا ، أو أن الحق يريد أن يقول لنا . لكن صاحب البر هو من آمن بالله ، أو يقول . « ولكن البر هو بر من آمن بالله » ، أو أن الإخبار بالذات « من آمن » عن الصفة « البر » دليل على امتزاج الذات فى الصفة امتزاجا لا تنحل عنه أبدا فكأن البر قد تجسد فيهم

وكل هذه الأقوال يتسع لها النص القرآني الكريم .

والحق يقول : « ولكن البر من آمن بالله » هذه بداية الإيمان ، ويأتي بعد ذلك نهاية الإيمان وهو ضرورة الإيمان بـ « اليوم الآخر » ، إن بداية القوس هي الإيمان بالله وطرفه الأخير الإيمان باليوم الآخر .

وقد نتساءل : وكيف يأتي الإيمان باليوم الآخر ؟

نقول : يأتي الإيمان باليوم الآخر بأن نؤمن بالله ثم نؤمن بما يخبرك به الله ، فلا تقل : أنا جعلتهما في صف واحد ، بل الإيمان بالله أولا ، وبعد ذلك الإيمان بما يخبرني به الله ، وقد أخبر سبحانه : أن هناك يوماً آخر ، فصدقت ما أخبر به . وتأتي مسألة الإيمان بالملائكة فيقول الحق : « والملائكة » فكيف تؤمن بخلق من خلق الله لا نراه ؟

إننا مادمنا قد آمنا بالقمة ، وهي الإيمان بالله ، والله أخبرنا بأن هناك ملائكة ، وحتى لو كان وجود الملائكة غيبيا فنحن نؤمن بها ؛ لأن الذي أخبرنا بها هو الله ، وكذلك نؤمن بالجن برغم أننا لا نراه ، وكل ما يتعلق بالغيبيات هو إخبار ممن آمنت به ؛ لذلك نؤمن بها .

والمسائل الإيمانية كلها غيبية ، ولا تقول في الأمر الحسي : « إنني آمنت به » ، إنما تقول : « آمنت » في الأمر الغيبي ؛ لأنه أمر غيبي لا تأنس به الحواس والإدراكات ، ونريد أن نجعله عقيدة ، والعقيدة هي أمر يُعقد فلا ينحل أبدا ، ولأنه أمر غيبي مرة يتفلت منا ؛ لأنه لو كان أمرا مشهديا لما غفل عنه الإنسان أبدا ؛ لأن مشهديته ستجعلك تتذكره ، إنما هو أمر غيبي ، ويسمى عقيدة ، أي أمراً معقوداً لا يُحل أبدا .

والقمة العقدية هي أن تؤمن بالله ، ثم تؤمن بما يخبرك به الله من غيبيات لا دليل لك عليها إلا أن الله قال بها ، فإن رأيت في متعلقات الإيمان أمورا غيبية فاعلم أن

الجهة في الإيمان منفكة ، لأنه سبق ذكر الملائكة واليوم الآخر وكلاهما غيب ، وبعد ذلك سيذكر الكتاب والنبيين ، وهما محسوسان

صحيح أن الكتاب أمر حسى والنبيين كذلك ، لكننا لم نحس أن الله أنزل الكتاب ، وأن الله بعث النبيين . ونحن لم نكن على قيد الحياة وقت نزول الكتاب ولا وقت بعث النبي ، وجاء إيماننا لأننا صدقنا أن الله أنزل وحيا على محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا الوحي نزل بالكتاب ، وأن الله اختار محمدا صلى الله عليه وسلم ليكون مبلغا لهذا الوحي ، وكل هذه أمور غيبية لم نرها

والغيبيات هي أرضية الحركة الإيمانية ؛ أو أساس الإيمان .

وبعد ذلك تنتقل الآية من الحديث عن الأمر العقدى ، لتبين لنا أن البر مكون من أمور عقدية هي أساس لأمور حركية ، والأمور الحركية هي المقصودة من كل تدين . فالحق سبحانه لا يعنيه أن يؤمن به أحد ، ولا يعنيه أن تؤمن بملائكته ، وكتبه ورسله ، لكن الأمر الذى يريده الله هو أن تنتظم حركة الحياة في الأرض بمنهج الله ، ولذلك ينتقل الحديث إلى الأمر المادى فيقول : « وآتى المال على حبه » كأن الإنسان قد ملك المال وبعد ذلك « آتاه » . وعندما نقول . « آتيت » فهي تعني أعطيت ، وهي تختلف عن « أتيت » التي تعني « جئت » .

وما هو المال ؟ إن المال هو كل ما يتمول إلا أننا نصرفه إلى شيء يمكن أن يأتي بكل متمول وأسميناه بالنقد . وأصبحت له العليه ؛ لأننا نشترى بالنقد كل شيء ، لكن المعنى الأصلي للمال هو كل ما يتمول ، وكيف يجيء المال لك أو لى أو لأى إنسان ؟ . أخرج أحد منا من بطن أمه وهو يملك شيئا ؟ . لا .

إن ما يملكه الإنسان يأتي إما من متحرك في الحياة قبلك إن كان والدك أو جدك ، وإما من حركتك أنت .

إذن لا يقال : « آتى المال » إلا إذا ثبتت له حركة ذاتية يصير بها متمولا ، أو ورث

عن متمول ، والمتمول هو الذي يتحرك في الحياة حركة قد تكون لنفسه ، وإن اتسعت حركته فستكون لأسرته ، وإن اتسعت أكثر ستكون لأحفاده .

والحق يقول : « وآتى المال على حبه » وكلمة الحب مصدر ، والمصدر أحيانا يضاف إلى فاعله ، وأحيانا يضاف إلى المفعول الواقع عليه ، مثلا كلمة « ضرب » نحن نقول : ضرب زيد عَمْرًا ، وهكذا نجد ضاربا هو « زيد » ومضروبا هو « عمرو » وإذا قيل : « أعجبني ضَرْبُ زيدٍ » . إن قلت « لعمرو » عرفنا الضارب والمضروب ، وإن سكت عند قولك : أعجبني ضرب زيد » فهي تحتمل معنيين ، الضرب الصادر من زيد ، أو الضرب الواقع على زيد . فساعة تأتي بالمصدر ويضاف إلى شيء فيصح أن يضاف إلى فاعله وأن يضاف إلى مفعوله .

« وآتى المال على حبه » يمكن أن نفهمها على أكثر من معنى : يمكننا أن نفهمها على أنه يعطي المال وهو يحب المال ، ويحتمل أن نفهمها على أنه يؤتي المال لأنه يحب أن يعطي مما يحبه من المال عملا بقول الله تعالى « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » .. وهي تحتمل المعنيين . ويمكن أن تُصَعِّد المعنى فيصير « وآتى المال على حب الإيتاء أي الإعطاء » أي يُحب الإعطاء وترتاح نفسه للإعطاء ، ومن الممكن تصعيدها تصعيدا آخر يشمل كل ما سبق فيصبح المعنى : وآتى المال على حب الله الذي شرع له ذلك ، وكل هذه المعاني محتملة

والحق يقول :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ ﴾

(سورة الإنسان)

ويقول سبحانه أيضا :

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة آل عمران)

وتعطينا كل هذه الآيات وضوح الفرق بين الملكية ، وبين حب المملوك ، فمن الممكن أن تكون لديك أشياء كثيرة أنت مالكها ، ولكن ليس كل ما تملكه تحبه ، فحينما تؤتى المال فمن المحتمل أن تكون قد نزعته من ملكيتك وأنت لا تحبه . وبذلك أخرجته من ملكيتك فقط ، وإما أن تكون محبا للشيء الذى تعطيه لغيرك ، وبذلك تكون قد أخرجته من ملكيتك ، ومن حبك له

وإما أن يكون المال الذى فى يدك مجرد أداة لك ولغيرك وليس له مكانة فى قلبك ، ولذلك يقول الشاعر :

لا أبالى تسوفيير مسالى لسدهرى
منفقا فيه فى رخاء وبأس
إن يكن فى يسدى وليس بقلبى
فهو ملكى وليس يملك نفسى

إن قول الحق : « آتى المال على حبه » تعطينا إما منزلة إخراجه من الملك وإما منزلة إخراجه من القلب الذى يحبه . ولذلك يعيب الحق على جماعة من الناس يريدون العمل على طاعة الله ، لكنهم لا ينفقون لله إلا مما يكرهون ويقول الله فى حقهم « ويجعلون لله ما يكرهون » .

ولكن لمن يكون ذلك المال الذى ينطبق عليه القول : « وآتى المال على حبه » ؟

إنه . لـ « ذوى القربى » ألا ترون إنسانا له حركة فى الحياة قد اتسعت لنفسه ، ثم يرى قرباه الذين لا يقدرون على الحركة محتاجين . كيف تكون حالة نفسيته إذن ؟ . لابد أن تكون نفسية متعبة ، لأن المفروض فى الإنسان المؤمن أن يجعل كل الناس قرباه ، ونتذكر فى هذا المقام قصة معاوية عندما كان أميرا للمسلمين ، ودخل عليه الحاجب وهو يقول يا أمير المؤمنين رجل بالباب يدعى أنه « أخوك » ، فقال معاوية : أبلغ بك الأمر ألا تعرف إخوتى ؟ أدخله .

فلما دخل الرجل قال له معاوية . أي إخوتي أنت ؟
قال : أخوك من آدم .
فماذا قال معاوية : ؟.
قال : رحم مقطوعة ، والله لأكونن أول من وصلها . وأكرمه

فإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يصل قرباه من الناس كافة ، ألا يستطيع أن يصل خاصة أقاربه ؟. كيف يستطيب المؤمن ـ إذن ـ نعيم الحياة وهو يجد أقاربه محتاجين ، حتى لو نظرنا بعيدا عن الدين والإنسانية ، ألا تستحق المسألة أن يجود الإنسان بما عنده على أهله ؟.

وفي دائرة الإيمان حين يجعل الله حركة الحياة في التكافل دوائر ، فهو سبحانه يريد أن يوزع الخير للمجتمع على المجتمع ؛ لأنه سبحانه حينما أراد استبقاء النوع شرع لنا طهر الالتقاء بين الرجل والمرأة بعقد علني وشهود ، لماذا ؟. لأن الثمرة من الزواج هي الأبناء التي ستأتي بقطاع جديد من البشر في الكون . وهذا القطاع لابد أن يكون محسوبا على الرجل أمام الناس ، وإن لم يرع الرجل في أبنائه حق الله يلومه الناس على ذلك لأنهم أبناؤه

ولذلك عندما نرى شخصا يخفي زواجه ، كأن يتزوج زواجا عرفيا مثلا نقول له أنت تريد أن تأتي بثمرة منك ثم تنكرها ، فيأتي أبناء غير محسوبين عليك ولذلك فلنكن على ثقة من أن كل مشرد في الأرض نراه هو نتيجة لخطيئة إما معلنة ، وإما لا يقدر على إعلانها رجل لم يتحمل مسئولية علاقته بالمرأة ، ولا يجعل رجل ولدا منسوبا له إلا إذا تشكك في نسبه إليه ، وهذا ما يجعله ينكر نسبه

إذن فعملية الطهر التي أرادها الله سبحانه وتعالى في الالتقاءات بين الرجل والمرأة ، إنما أرادها سبحانه لأنه يشرع لبناء أجيال جديدة ، ينشأ منها مجتمع المستقبل ، وقبل أن يوجد هؤلاء الأبناء لابد أن يكون هم رصيد وأساس يتحملهم ، فجعل الله لنا الأولاد والأحفاد ، ويوصي الله الأبناء على الوالدين قبل ذلك ، ثم

تتسع الدائرة للقرابة القريبة

وهات واحداً واصنع له هذه الدائرة ، وهات آخر واصنع له الدائرة نفسها ، وثالثاً واصنع له دائرته ، واصنع إحصاء للقادرين وحدد دوائرهم العائلية ، ستجد كل إنسان في الكون يدخل في دائرة من هذه الدوائر ، فإن رأيت عوجاً فاعلم أن مركز الدائرة قد تخلى عن محيط الدائرة

والله سبحانه وتعالى يقول : « وآتى المال على حبه ذوي القربى » ، تأمل - إذن - الحث على البر تجد أن أول ما جاء فيه هو إيتاء ذوي القربى ؛ لأن لهم مكانة خاصة ، وصدق يؤتى كل ما قرباه ويحملهم على فائض ماله وفائض حركته فلن يوجد محتاج ، وإذا وُجدَ المحتاج فسيكون نزراً يسيراً ، وتتسع له الزكاة الواجبة

أو كما قال بعض العلماء : المقصود بذوي القربى هم قربى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقولون ذلك ؛ لأن في القرآن آية تقول :

﴿ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الشورى)

ولماذا قربى رسول الله ؟

لأنهم ليس لهم حق في الزكاة ، حتى يبرأ المبلغ عن الله من أي نفع يعود عليه ، أو يعود على آله ، لذلك منع الله عنهم أي حق في الزكاة . وكأن الله يريد أن يقول لنا : لا يصح أن تجعلوا الناس الذين رفعهم الله وكرمهم عن أخذ الزكاة التي يأخذها أي فقير منكم محرومين من أخذ كل شيء ، فلا بد أن تجعلوهم أقرب لكم بحيث لا تجعلوهم محتاجين .

وعلى فرض أن الآية تريد قُرباناً نقول : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » ، فقرباه وآله أولى من قربانا وأهلنا

وبعد ذلك جاء الله بقوله : « واليتامى » ، ونعرف أن اليتيم هو من فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال . واليتيم في الإنسان غير اليتيم في الحيوان ؛ فاليتيم في الحيوان هو من فقد أمه ، ولكن اليتيم في الإنسان هو من فقد أباه . واليتيم لا يكون له وصي إلا إذا كان عنده شيء من مال ، عندئذ يكون هناك وصي لإدارة أمور اليتيم . ولذلك جاء الحق بالأمر بإعطاء المال على حبه لليتامى ، ولم يقل : « لذوى اليتامى » . فربما كان هناك يتيم ضائع لا يتقدم أحد للوصاية عليه ، وليس عنده ما يستحق الوصاية ، لذلك فعلينا أن نرزق اليتيم من مال الله حتى يدخل في صفات البر ، أو نعطي للوصي على اليتيم لينفق عليه إن كان له وصي .

وكذلك نرزق المال للمساكين ، والمسكين مأخوذة من السكون ، وهو الإنسان الذي لا قدرة له على الحركة ، كأن استخدامه وذله في الحياة منعاه من الحركة

واختلف الفقهاء حول من هو الفقير ، ومن هو المسكين ، قال بعضهم : إن الفقير هو من لا يملك شيئا ، والمسكين يملك ما لا يكفيه ، أي يملك شيئا دون ما يحتاجه ، وقال البعض الآخر : إن الفقير هو الذي يملك ما هو دون حاجته ، والمسكين من لا يملك

وعلى كل حال فقد شاءت حكمة الله عز وجل أن يجعل للفقير نصيبا من البر وللمسكين أيضا نصيبا كالآخر ، والخلاف بين العلماء لا يؤدي إلى منع أحدهما من المال ، لأن كُلًّا منهما ـ المسكين والفقير ـ يستحق من مال الله وعلى ذلك فالخلاف لا طائل من ورائه

وكذلك نرزق المال لابن السبيل ، والسبيل هو الطريق ، وابن السبيل هو ابن الطريق ، وعادة ما يُنسب الإنسان إلى مكانه أو إلى بلده ، فإذا قيل ابن السبيل ، فذلك يعني أنه ليس له مكان يأوي إليه إلا الطريق ، فهو رجل منقطع ، وقد يكون ابن سبيل ذا مال في مكانه ، إلا أن الطريق قطعه عن ماله وباعد بينه وبين ما يملك ، أو يكون ذا مال وسرق منه ماله ، فهو منقطع

ولماذا جعل الله نصيبا من البر لابن السبيل ؟ . لقد جعل الله نصيبا من المال لابن السبيل حتى يفهم المؤمن أن تكافله الإيماني متعد إلى بيئة وجوده ، فحين يوجد في مكان وينتقل إلى مكان آخر يكون في بيئة إيمانية متكافلة.

ونؤتي المال أيضا للسائلين أي الذين يضعون أنفسهم موضع السؤال . اعط من يسألك ولو كان على فرس ؛ لأنك لا تعرف لماذا يسأل . إن بعضاً من الناس يبررون الشح فيقولون : إن كثيرا من السائلين هم قوم محترفون للسؤال ، ونقول لهم : مادام قد سأل انتهت المسألة ، وعمدتنا في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

« أعطوا السائل وإن جاء على ظهر فرس »[1]

ومادام قد عرض نفسه للسؤال فأعطه ولا تتردد.

قد تظن أنه يحمل حقيبة ممتلئة بالخبز ، أو يخفي المال بعيداً . وأقول : قد يكون عنده خبز لكنه لا يكفي أولاده ، وقد يخفي المال الذي لا يكفيه ، ولن تخسر شيئاً من إعطائه ، فلأن تخطىء في العطاء ، خير من أن تصيب في المنع.

ونؤتي المال أيضاً لمن هم « في الرقاب » ، وكلمة « رقبة » تطلق في الأصل اللغوي على أصل العنق ، وليس على العنق نفسه . وتطلق كلمة الرقبة على الذات كلها ، أي الإنسان في حد ذاته ، لماذا ؟ لأن حياة الإنسان يمكن أن تملكها من الرقبة ، فتستطيع أن تمسك إنساناً من رقبته وتتحكم فيه وتضغط عليه ضغطاً تمنع نفسه إلى أن يموت ، لذلك تطلق الرقبة ويراد بها الشخص ذاته ، وفي ذلك يقول القرآن :

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة البلد)

أي فك الأسير ، إذن « في الرقاب » تعني فك أسر العبد ، ويمكن لصاحب المال أن

(١) هذا الحديث أخرجه ابن عدي في الكامل عن أبي هريرة رضي الله عنه وهو ضعيف

يشترى العبيد ويعتقهم ، أو يسهم فى فك رقابهم فذلك لون من ألوان تصفية الرق ، وفى تصفية الرِّق هناك شيء اسمه التدبير ، وشيء اسمه المكاتبة

هب أن عبداً يخدمك وبعد ذلك ترى أنه أخلص فى خدمتك ، فثمناً لإخلاصه فى خدمتك مدة طويلة قررت أن تُدَبِّره بعد موتك ، أى تعطيه حريته فيصبح حراً بعد موتك ، فكأنك علقت عبوديته على مدى حياتك ، وبعد انتهاء حياتك يصبح مدبراً أى حراً ، ولا يدخل فى تركتك ، ولا يُورث

وقد تكاتبه على مال فتقول له : يا عبد أنا أكاتبك على مائة جنيه ، وأطلق حركتك لتتصرف أنت وتضرب فى الحياة وتكسب وتأتى لى بالمائة جنيه ، ثم أطلق سراحك ، وفى هذه الحالة فإن على أهل البر أن يعاونوا هذا المُكاتب ليؤدى مال المكاتبة حتى يفك رقبته من الأسر

ومن البر أيضاً إقامة الصلاة ، كأن الحق ـ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة ، ونعرف أن معنى إقامة الصلاة هى أداء الصلاة فى أوقاتها على الوجه المطلوب شرعاً

ومن البر أن تؤتى الزكاة ، فكأن كل ما سبق « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين فى الرقاب » لا علاقة لها بالزكاة ، إذ كل ذلك هو بِرّ آخر غير المطلوب للزكاة ، لأن الزكاة لو كانت تدخل فيما سبق لما كان الله كرَّرها فى الآية .

هذه أوجه البر التى ذكرتها الآية من إيتاء ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكل ذلك لمن أراد أن يدخل فى مقام الإحسان ، فمقام الإحسان كما نعرف هو أن تلزم نفسك شيء لم يفرضه الله عليك ، إنما تحس أنت بفرح الله بك ورضاه عنك فيقبله الله منك

ولذلك عندما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل في المال حق غير الزكاة ؟ ذكر هذه الآية

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾

(من سورة البقرة)

إذن ، فتلك أوجه البر المطلوبة ، والزكاة أيضاً مطلوبة . ففي مصرف الزكاة لا يوجد ذوو القربى ولا ليتامى . صحيح أن في مصارف الزكاة إعطاء المسكين وابن السبيل . لكن في البر هناك أشياء غير موجودة في الزكاة ، فكأنك إن أردت أن تفتح لنفسك باب البر مع الله ، فوسع دائرة الإنفاق ، وستجد أن البر قد أخذ حيزاً كبيراً من الإنفاق ، لأن المنفق مستخلف عن الله . فالله هو الذي استدعى الإنسان إلى الوجود ، وما دام هو المستدعي إلى الوجود فهو سبحانه مكلف بإطعامه ، وأنت إذا أنفقت على المحتاج الذي استدعاه الله للوجود ، فإنك تتودد إلى الله بمساعدة المحتاجين من خلقه دون أن يلزمك به الله، ولذلك يقول الله عز وجل .

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

إذا كان هو سبحانه الذي أعطى المال ، فكيف يقول: أقرضني؟ . نعم ، لأنه سبحانه لا يرجع فيما وهبه لك من نعمة المال ، إن المال الذي لك هو هبة من الله ولكن إن احتاجه أخ مسلم، فهو لا يقول لك ، أعطه من عندك أو أقرضه من

عندك » ، إنما يقول لك : « أقرضني أنا » ، لأن أنا الذي أوجدته في الكون ورزقه مطلوب مني » ، فكأنك حين تعطيه تقرض الله ، وهذا معنى قوله « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً » . إنه سبحانه وتعالى متفضل بالنعمة ثم يسألك أن تقرضه هو .

ولنضرب على ذلك مثلاً من أمر الدنيا ـ وسبحانه وتعالى منزه عن كل مثل وله المثل الأعلى ـ هب أنك محتاج وفي ضائقة مالية ، وعندك أولاد ولهم مبالغ مدخرة مما كنت تعطيهم من مال فتقول لهم أقرضوني ما معكم من مال ؛ وسأرده لكم عندما تمر الضائقة . كأنك لم ترجع في هبتك وما أعطيته لهم من مال ، إنما اقترضته منهم ، كذلك يفعل الله سبحانه وتعالى

وكذلك لنا عبرة وعظة من السيدة فاطمة رضي الله عنها عندما دخل عليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآها ممسكة بدرهم ، والدرهم يعلوه الصدأ وأخذت تجلوه ، فسألها أبوها : ما تصنعين يا فاطمة ؟ قالت : أجلو درهما . قال : لماذا ؟ قالت : لأني نويت أن أتصدق به ، قال : وما دمت تتصدقين به فلماذا تجليه ؟ قالت : لأني أعلم أنه يقع في يد الله قبل أن يقع في يد المحتاج

ومن البر أيضاً أن يفي الإنسان بالعهد ، فالحق يقول : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » . وما معنى العهد ؟ إن هناك عهداً ، وهناك عقد . والعهد يوجد من طرفين تعاهدا على كذا ، لكن قد يستطيع أحدهما العطاء ولا يستطيع الآخر الرد . والعقد يوجد بين طرفين أيضاً ، أحدهما يعطي ويأخذ ، والآخر يعطي ويأخذ .

ومن البر أن تكون من « الصابرين في البأساء والضراء » . ولنا أن نلحظ أن الحق جاء بـ « الموفون بعهدهم » مرفوعة لأنها معطوفة على خبر لكنّ البر ، فلماذا جاء « بالصابرين » منصوبة ؟ ماذا يعني كسر الإعراب ؟ إن الأذن العربية اعتادت على النطق السليم الفصيح فإذا كان الكلام من بليغ تقول : لم يكسر الإعراب هنا إلا لينبهني إلى أن شيئاً يجب أن يُفهم ، لأن الذي يتكلم بليغ ومادام بليغاً وقال قبلها :

« والموفون » ثم قال : « والصابرين » فلابد أن يكون هناك سبب ، ما هو السبب ؟

إن كل ما سبق مطيةُ الوصول إليه هو الصبر ، إيتاء المال على حبه ذوى القربى و... و... ولذلك أراد الله أن ينبه إلى مرتبة الصبر فكسر عنده الإعراب ، وكسر الإعراب يقتضى أن نأتى له بفعل يناسبه فجاء قوله تعالى : « والصابرين » وكأن معناها : وأخص الصابرين ، وأمدح الصابرين .

إذن كسر الإعراب هنا غرضه تنبيه الآذان إلى أن شيئاً جديداً استحق أن يُخالف عنده الإعراب . لأن الصبر هو مطية كل هذه الأفعال ، فالذى يقدر فى الصبر عن نفسه بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وإيتاء المال على حبه هو الذى فاز وظفر ، إذن كل ذلك امتحان للصبر . ومن هنا خص الله « الصابرين » بإعراب مخالف حتى تفهم أنه منصوب على المدح ، أو على الاختصاص .

ولماذا خص الله الصابرين بالمدح ؟.

لأن التكليفات كلها تعطى مشقات على النفس ، ولا يستطيع تحمل هذه المشقات إلا من يقدر على الصبر . ومادام قد قدر على الصبر فكل ذلك يهون ومن هنا خص الله الصبر بهذه الميزة .

والمهم أن الآية جاءت بالصابرين بعد « والموفون » حتى تكون النقلة ملحوظة ومتيقنة ، بأن الإعراب فيما سبق « والصابرين » تقديرى معطوف أى هو معطوف على خبر « ولكن البر من آمن بالله » . فجاءت « والموفون » مرفوعة مفهم أنها معطوفة عن خبر « ولكن » ، ثم جاء ما بعدها « والصابرين » منصوبة ، حتى تلحظ الفرق بين النصبين ، ولو جاءت مرفوعة مثل ما قبلها فربما مرت علينا ولم نلحظها . « والصابرين فى البأساء والضراء » البأساء هو البؤس والفقر ، وهذا فى الأحوال ، نقول : فلان حاله بائس . « والضراء » هى الألم والوجع والمرض ، وهى تصيب البدن والجسد . « وحين البأس » أى حين الحرب عندما يلتقى المقاتل بالعدو ويصبر ويصمد ليقاتل .

إذن صفة الصبر تناولت ثلاثة أمور . في البأساء ، أي في الفقر ، وفي المرض ، وفي الحرب مع العدو ، صابر في كل هذه الأمور .

ولذلك جاء في الحديث الشريف .

« ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كَفَّرَ الله بها عنه حتى الشوكة يُشاكها »[1]

ويقول الحق عن الذين دخلوا إلى رحاب البر : « أولئك الذين صدقوا » فـ « من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا » .

ماذا تعني صدقوا ؟ الصدق هو مطابقة النسبة الكلامية للواقع العملي . وأولئك صدقوا في إعلان إيمانهم ، وواقع حركتهم في الحياة ، وصدق قولهم « لا إله إلا الله محمد رسول الله »

إذن فصدق إيمانك متوقف على أن تكون حركة حياتك مناسبة لمقتضيات إيمانك ، فإن آمنت وأسلمت وجاءت حركة حياتك مناقضة لإعلان إسلامك ، نقول : أنت غير صادق ، ولكن إذا وُجدت صفات الإيمان في إنسان نقول له : لقد صدقت في إيمانك ، لأن حركة حياتك انسجمت مع واقعك الإيماني . وما أكثر الناس الذين يقولون ولا يفعلون ، وهم منسوبون إلى الإسلام بالكلام

وما نتيجة صدق المؤمنين ؟ يجيبنا الحق بوصفهم « أولئك هم المتقون » وساعة تسمع كلمة « متقون » أو « اتقوا » فذلك يعني أنهم جعلوا وقاية بينهم وبين شيء ، ولا يطلب منك أن تجعل وقاية بينك وبين شيء إلا إن كنت لا تتحمل هذا الشيء

(١) رواه البخاري في كتاب المرضى

ومثل ذلك قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾

(من الآية ٦ سورة التحريم)

أى اجعلوا بينكم وبين النار حاجزاً . وقلنا : إن من العجب أن كلمة « اتقوا » تأتى إلى الشيء الذى هو « اتقوا النار » وتأتى إلى « اتقوا الله » ، كيف يكون التقوى فى متناقضين ؟

نعم ، لأن معنى اتقوا النار ، أى اجعلوا بينكم وبينها وقاية ، وهل النار فاعلة بذاتها أم متسلط الله لها على العاصى ؟ إنها فاعلة بتسليط الله لها على العاصى . إذن تقوى الله معناها اتقوا متعلق صفات الجلال من الله ، لأن لله صفات جمال وصفات جلال ، فاجعلوا بينكم وبين صفات الجلال من الله وقاية ، لأنكم لا تتحملون غضب الله ، ولا قهر الله ، ولا بطش الله ، فاجعلوا بينكم وبين صفات جلاله وقاية ، ومن آثار صفات جلاله النار . فالمسألة متساوية ولا تناقض فيها .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ ﴾

وساعة ينادى الله « يأيها الذين آمنوا » فهذا النداء هو حيثية الحكم الذى سيأتى ، ومعنى هذا القول : أنى لم أكلفكم اقتحاما على إرادتكم ؛ أو على اختياركم ، وإنما كلفتكم لأنكم دخلتم إلىّ من باب الإيمان بى ، ومادمتم قد آمنتم بى فاسمعوا منى التكليف .

فالله لم يكلف من لم يؤمن به ، ومادام الله لا يكلف إلا من آمن به فإيمانك به جعلك شريكا فى العقد ، فإن كتب عليك شيئا فأنت شريك فى الكتابة ، لأنك لو لم تؤمن لما كتب ، فكأن الصفقة انعقدت ، ومادامت الصفقة قد انعقدت فأنت شريك فى التكليف ، ولذلك يقول الله : « كُتب » بضم الكاف . ولم يقل « كَتب » بفتح الكاف . ونلحظ الفرق جليا فى الأشياء التى للإنسان دخل فيها ، فهو سبحانه يقول :

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ ﴾

(من الآية ٢١ سورة المجادلة)

إنه سبحانه هنا الذى كتب ، لأنه لا شريك له . عندما تقرأ « كُتب عليكم » فافهم أن فيها إلزاما ومشقة ، وهى على عكس « كَتب لكم » مثل قوله تعالى :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾

(من الآية ٥١ سورة التوبة)

إن « كُتب لنا » تشعرنا أن الشيء لمصلحتنا . وفى ظاهر الأمر يبدو أن القصاص مكتوب عليك ، وساعة يكتب عليك القصاص وأنت قاتل فيكون ولى المقتول مكتوبًا له القصاص ، إذن كل « عليك » مقابلها « لك » ، وأنت عرضة أن تكون قاتلا أو مقتولا . فإن كنت مقتولا فالله كتب لك . وإن كنت قاتلا فقد كتب الله عليك . لأن الشيء « لى » لابد أن يكون « على » غيرى ، والشيء « علىّ » ، لابد أن يكون « لغيرى » . فالتشريع لا يُشرع لفرد واحد وإنما يشرع للناس أجمعين .

عندما يقول . « كُتب عليكم القصاص » ، ثم يقول فى الآية التى بعدها . « ولكم فى القصاص حياة » ، فهو سبحانه قد جاء بـ « لكم » ، و« عليكم » ، « عليكم » للقاتل ، و« لكم » لولى المقتول . فالتشريع عدل لأنه لم يأت لأحد على حساب أحد ، والعقود دائما تراعى مصلحة الطرفين . « ياأيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر » .

من هو الحر ؟ الحر ضد العبد وهو غير مملوك الرقبة ، والحر من كل شىء هو أكرم ما فيه ، ويقال . حر المال يعنى أكرم ما فى المال . و« الحر » فى الإنسان هو من لا يحكم رقبته أحد . و« الحر » من البقول هو ما يؤكل غير ناضج ، أى غير مطبوخ على النار ، كالفستق واللوز .

والحق سبحانه يقول : « الحر بالحر » ، وظاهر النص أن الحر لا يُقتل بالعبد ، لأنه سبحانه يقول : « الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى » ، لكن ماذا يحدث لو أن عبداً قتل حراً ، أو قتلت امرأة رجلاً ، هل نقتلها أم لا ؟

إن الحق يضع لمسألة الثأر الضوابط ، وهو سبحانه لم يُشَرِّع أن الحر لا يُقتل إلا بالحر ، وإنما مقصد الآية أن الحر يُقتل إن قتل حراً ، والعبد يُقتل إن قتل عبداً ، والأنثى مقابل الأنثى ، هذا هو إتمام المعادلة ، فجزاء القاتل من جنس ما قتل ، لا أن يتعداه القتل إلى من هو أفضل منه . إن الحق سبحانه وتعالى يواجه بذلك التشريع فى القصاص قضية كانت قائمة بين القبائل ، حيث كان هناك قتل للانتقام والثأر .

ففى الزمن الجاهلى كانت إذا نشأت معركة بين قبيلتين ، فمن الطبيعى أن يوجد قتلى وضحايا لهذا الاقتتال ، فإذا قُتل عبد من قبيلة أصرت القبيلة التى تملك هذا العبد أن تُصَعِّد الثأر فتأخذ به حراً ، وكذلك إذا قُتلت فى تلك الحرب أنثى ، فإن قبيلتها تُصعد الثأر فتأخذ بها ذكراً .

والحق سبحانه وتعالى أراد أن يحسم قضية الثأر حسماً تدريجيا ، لذلك جاء بهذا

الأمر «الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى» . إذن ، فالحق هنا يواجه قضية تصعيدية في الأخذ بالثأر ، ويضع منهجاً يحسم هذه المغالاة في الثأر.

وفي صعيد مصر ، مازلنا نعاني الغفلة في تطبيق شريعة الله ، فحين يُقتل رجل من قوم فهم لا يثأرون من القاتل ، وإنما يذهبون إلى أكبر رأس في عائلة القاتل ليقتلوه . فالذين يأخذون الثأر يريدون النكاية الأشد ، وقد يجعلون فداء المقتول عشرة من العائلة الأخرى ، وقد يمثلون بجثثهم ليتشفوا ، وكل ذلك غير ملائم للقصاص وفي أيام الجاهلية كانوا يغالون في الثأر . والحق سبحانه وتعالى يبلّغ البشرية جمعاء بأن هذه المغالاة في الثأر تجعل نيران العداوة لا تخمد أبداً . لذلك، فالحق يرد أمر الثأر إلى حده الأدنى ، فإذا قتلت قبيلة عبداً فلا يصح أن تُصعِّد القبيلة الأخرى الأمر فتأخذ بالعبد حراً

إذن ، فالحق يشرع أمراً يخص تلك الحروب الجماعية القديمة ، وما كان يحدث فيها من قتل جماعي ، وما ينتج عنها بعد ذلك من مغالاة في الثأر ، وهنا هو التشريع التدريجي ، وقضى سبحانه أن يرد أمر الثأر إلى الحد الأدنى منه ، فإذا قتلت قبيلة عبداً فلا يصح أن تُصعِّد القبيلة الأخرى الثأر بأن تقتل حراً . والحق يشرع بعد ذلك أن القاتل في الأحوال العادية يتم القصاص منه بالقتل له أو بالدية . فقد جاءت آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

(سورة المائدة)

وهكذا يصبح القصاص في قتل النفس يتم بنفس أخرى ، فلا تفرقة بين العبد أو الحر أو الأنثى ، بل مطلق نفس بمطلق نفس . وهنا هو ذا الحق سبحانه وتعالى يواجه

بتقنين تشريع القصاص قضية يريد أن يميت فيها لدد الثأر وحمق الحقد . فساعة تسمع كلمة قصاص وقتل ، فمعنى ذلك أن النفس مشحونة بالبغضاء والكراهية ، ويريد أن يصفي الضغن والحقد الثأري من نفوس المؤمنين . إن الحق جل وعلا يعطي لولي الدم الحق في أن يقتل أو أن يعفو ، وحين يعطي الله لولي الدم الحق في أن يقتل ، فإن أمر حياة القاتل يصبح بيد ولي الدم ، فإن عفا ولي الدم لا يكون العفو بتقنين ، وإنما بسماحة نفس ، وهكذا يمتص الحق الغضب والغيظ .

وبعد ذلك يرقق الله قلب ولي الدم فيقول : « فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » .

وإذا تأملنا قوله : « فمن عفي له من أخيه » فلنلاحظ النقلة من غليان الدم إلى العفو ، ثم المبالغة في التحنن ، كأنه يقول : لا تنس الأخوة الإيمانية « فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف » .

وساعة يقول الحق كلمة « أخ » فانظر هل هذا الأخ اشترك في الأب ؟ مثل قوله تعالى : « وجاء إخوة يوسف » . ثم يرتقي بالنسب الإيماني إلى مرتبة الأخوة الإيمانية ، فيقول : « إنما المؤمنون إخوة » يعني إياكم أن تجعلوا التقاء النسب المادي دون لتقائكم في القيم العقائدية .

والأصل في الأخ أن يشترك في الأب مثل « وجاء إخوة يوسف » ، فإن كانوا إخوة من غير الأب يسميهم إخوانًا ، فإن ارتقوا في الإيمان يسميهم إخوة وعندما وصفهم بأنهم إخوان قال : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » لقد كانت بينهم حروب وبغضاء وشقاق ، لم يصفهم بأنهم إخوة ؛ لأنهم لازالوا في الشحناء ، فوصفهم بأنهم إخوان ، وبعد أن يختمر الإيمان في نفوسهم يصبحون إخوة .

ولننظر في غزوة بدر ، ها هو ذا مصعب بن عمير ، كان فتى قريش المدلل والمنعّم الذي كانت تفوح منه رائحة العطر وملابسه من حرير ؛ كان ذلك قبل إسلامه ،

وتغير كل ذلك عندما دخل في الإسلام ، فقد أخرجه الإيمان من هذا النعيم إلى بؤس المؤمنين الأولين لدرجة أنه كان يلبس جلد حيوان ويراه رسول الله في هذا الصك فيقول : « انظروا كيف فعل الإيمان بصاحبكم » .

وعندما جاءت معركة بدر التقى مع أخيه « أبي عزيز » الذي ظل على دين قريش ، والتقى الإثنان في المعركة ، مصعب في معسكر المؤمنين ، وأبو عزيز في جيش المشركين وأثناء المعركة رأى أخاه أبا عزيز أسيراً مع أبي اليسر وهو من الأنصار ؛ فالتفت مصعب إلى أبي اليسر ، وقال : يا أبا اليسر اشدد على أسيرك فإن أمه غنية وستفديه بمال كثير .

فالتفت إليه أبو عزيز وقال : يا أخي أهذه وصاتك بأخيك ؟ قال مصعب لا لست أخي وإنما أخي هذا . وأشار إلى أبي اليسر . لقد انتهى نسب الدم وأصبح نسب الإيمان هو الأصل ، وأصبح مصعب أخاً لأبي اليسر في الإيمان ، وانقطعت صلته بشقيقه في النسب لأنه ظل مشركاً .

وقوله تعالى « فمن عفى له من أخيه شيء » كأنه يحث ولي الدم على أن يعفو ولا ينسى أخوة الإيمان . صحيح أنه ولي للمقتول ؛ لأنه من لحمته ونسبه ، ولكن الله أراد أن يجعل أخوة الإيمان فوق أخوة الدم . « فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف » .

وقد أورد الحق الأخوة هنا لترقيق المشاعر ، لينبه أهل القاتل والقتيل معاً أن القتل لا يعني أن الأخوة الإيمانية انتهت ، لا . إن على المؤمنين أن يضعوا في اعتبارهم أن أخوة الإيمان قد تفتر رابطتها وحين يتذكر أولياء الدم أخوة الإيمان ، فإن العفو يصبح قريباً من نفوسهم . ولنا أن نلاحظ أن الحق يرفعنا إلى مراتب التسامي ، فيذكرنا أن عفو واحد من أولياء الدم يقتضي أن تسود قضية العفو ، فلا يقتل القاتل

وبعد ذلك لننظر إلى دقة الحق في تصفية غضب القلوب حين يضع الدية مكان

القصاص بالقتل . إن الدية التي سيأخذها أولياء الدم من القاتل قد تكون مؤجلة الأداء ، فقد يقدر القاتل أو أهله على الأداء العاجل ، لذلك فعلى الذي يتحمل الدية أن يؤديها ، وعلى أهل القتيل أن يتقبلوا ذلك بالمعروف ، وأن تؤدى الدية من أهل القاتل أو من القاتل نفسه بإحسان .

وقوله الحق : « عُفِي له من أخيه شيء » ، « شيء » تدل على أن أولياء المقتول إن عفا واحد منهم فهو عفو شيء واحد ، وليس له أن يقتص بعد ذلك . وتنتهي المسألة ويحقن الدم ، ولم يرد الله أن يضع نصا بتحريم القصاص ، ولكن أراد أن يعطي ولي الدم الحق في أن يقتص ، وحين يصبح له الحق في أن يَقْتُل ؛ فقد أصبحت المسألة في يده ، فإن عفا ، تصبح حياة القاتل ثمرة من ثمرات إحسانه ، وإن عاش القاتل ، لا يترك هذا في نفس صاحب الدم بغضاء ، بل إن القاتل سيحسن إليه لأنه أحسن إليه ووهبه حياته .

لكن لو ظل النص على قصاص أهل القتيل من القاتل فقط ولم يتعد إلى العفو لظلت العقدة في القلب

والثارات الموجودة في المجتمعات المعاصرة سببها أنه لم يُمَكِّن ولي الدم من القاتل ، بدليل أنه إذا ما قدر قاتل على نفسه وذهب إلى أهل القتيل ودخل عليهم بيتهم ، وبالغ في طلب العفو منهم ، وأخذ كفنه معه وقال لهم : جئتكم لتقتصوا مني ، وهذا كفني معي فاصنعوا بي ما شئتم ، لم يحدث قط أن أهل قتيل غدروا بقاتل ، بل المألوف والمعتاد أن يعفوا عنه . لماذا ؟

لأنهم تمكنوا منه وأصبحت حياته بين أيديهم ، وفي العادة تنقلب العداوة إلى مودة . ويظل القاتل مدينا بحياته للذين عفوا عنه . والذين يعرفون ذلك من أبناء القاتل يرون أن حياة أبيهم هبة وهبها لهم أولياء القتيل وأقرباؤه ، يرون أن عفو أهل القتيل هو الذي نَجَّى حياة قريبهم ، وهكذا تتسع الدائرة ، وتنقلب المسألة من عداوة إلى ود .

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة فصلت)

ولو لم يشرع الله القصاص لأصبحت المسألة فوضى. لكنه يشرعه، ثم يتلطف ليجعل أمر إنهاء القصاص فضلاً من ولى الدم ويحببه لنا ويقول: «فمن عُفِى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان».

وهل من المعقول أن تكون الدية إحساناً؟ لنتذكر أن القائل هنا هو الله، وكلامه قرآن، والدقة فى القرآن بلا حدود. إن الحق ينبه إلى أن أولياء الدم إذا ما قبلوا الدية؛ فمعنى ذلك أن أهل القتيل قد أسقطوا القصاص عن القاتل؛ وأنهم وهبوه حق الحياة، لذلك فإن هذا الأمر يجب أن يُرد بتحية أو مكرمة أحسن منه.

كأن الحق لا يريد من أولياء الدم أن يرهقوا القاتل أو أهله فى الاقتضاء، كما يريد أن يؤدى القاتل أو أهله الدية بأسلوب يرتفع إلى مرتبة العفو الذى ناله القاتل. وفى ذلك الأمر تخفيف عما جاء بالتوراة؛ ففى التوراة لم تكن هناك دية يفتدى القاتل بها نفسه، بل كان القصاص فى التوراة بأسلوب واحد هو قتل إنسان مقابل إنسان آخر. وفى الإنجيل لا دية ولا قتل. لأن هناك مبدأ أراد أن يتسامى به أتباع عيسى عليه السلام على اليهود الذين انغمسوا فى المادية. لقد جاء عيسى عليه السلام رسولاً إلى بنى إسرائيل لعله يستل من قلوبهم المادية، فجاء بمبدأ «من صفعك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر».

ولكن الإسلام قد جاء ديناً عاماً جامعاً شاملاً، فيثير فى النفس التسامى، ويضع الحقوق فى نصابها، فأبقى القصاص، وترك للفضل مجالاً. ولذلك يقول الحق عن الدية: «ذلك تخفيف من ربكم ورحمة، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم». وما وجه الاعتداء بعد تقرير الدية والعفو؟

كان بعض من أهل القاتل إذا قُتل منهم واحد يشيعون أنهم عفوا وصفحوا وقبلو

الدية حتى إذا خرج القاتل من محبسه مطمئناً، عندئذ يقتلونه. والحق يقرر أن هذا الأمر هو اعتداء، ومن يعتدي بعد أن يُسقط حق القتل ويأخذ الدية فله عذاب أليم. وحكم الله هنا في العذاب الأليم، نفهمه على أن المعتدي بقتل من أعلن العفو عنه لا يُقبل منه دية ويستحق القتل عقاباً. ولا يرفع الله عنه عذاب الدنيا أو الآخرة.

إن الحق يرفع العقاب والعذاب عن القاتل إذا قبل القصاص ونفذ فيه، أو إذا عفي عنه إلى الدية وأداها. ولكن الحق لا يقبل سوى استخدام الفرص التي أعطاها الحق للخلق ليرتفعوا في علاقاتهم. إن الحق لا يقبل أن يتستر أهل قتيل وراء العفو، ليقتلوا القاتل بعد أن أعلنوا العفو عنه فذلك عبث بما أراده الحق منهجاً بين العباد.

ولذلك يقول الحق:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰأُولِي الْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

وهنا نلاحظ أن النسق القرآني يأتي مرة فيقول: «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم» ويأتي هنا بقول النسق القرآني: «ولكم في القصاص».

التشريع الدقيق المحكم يأتي بواجبات وبحقوق، فلا واجب بغير حق، ولا حق بغير واجب، وحتى نعرف سمو التشريع مطلوب من كل مؤمن أن ينظر إلى ما يجب عليه من تكاليف، ويعرف ما له من حقوق، ولسوف يكتشف المؤمن أنه في ضوء منهج الله قد نال مطلق العدالة.

إن المشرع هو الله ، وهو رب الناس جميعاً ، ولذلك فلا يوجد واحد من المؤمنين أولى بالله من المؤمنين الآخرين. إن التكليف الإيماني يمنع الظلم ، ويعيد الحق ، ويحمي ويصون للإنسان المال والعرض . ومن عادة الإنسان أن يجادل في حقوقه ويريدها كاملة ، ويحاول أن يقلل من واجباته ، ولكن الإنسان المؤمن هو الذي يعطي الواجب تماماً فينال حقوقه تامة ، لذلك يقول الحق :

﴿ وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن القصاص مكتوب على القاتل والمقتول وولي الدم. فإذا علم القاتل أن الله قد قرر القصاص فإن هذا يفرض عليه أن يسلم نفسه ، وعلى أهله ألا يخفوه بعيداً عن أعين الناس ؛ لأن القاتل عليه أن يتحمل مسئولية ما فعل ، وحين يجد القاتل نفسه محسوباً بمجتمع مؤمن يرفض القتل فإنه يرتدع ولا يقتل ، إذن ففي القصاص حياة ؛ لأن الذي يرغب في أن يقتل يمكنه أن يرتدع عندما يعرف أن هناك مَنْ سيقتص منه ، وأن هناك مَنْ لا يقبل المداراة عليه .

ونأتي بعد ذلك للذين يتشدقون ويقولون: إن القصاص وحشية وإهدار لآدمية الإنسان ، ونسألهم: لماذا أخذتكم الغيرة لأن إنساناً يُقتص منه بحق وقد قتل غيره بالباطل ؟ ما الذي يحزنك عليه ؟

إن العقوبة حين شرعها الله لم يشرعها لتقع ، وإنما شرعها لتمنع . ونحن حين نقتص من القاتل نحمي سائر أفراد المجتمع من أن يوجد بينهم قاتل لا يحترم حياة الآخرين ، وفي الوقت نفسه نحمي هذا الفوضوي من نفسه ؛ لأنه سيفكر ألف مرة قبل أن يرتكب جريمة.

إذن ، فالقصاص من القاتل عبرة لغيره ، وحماية لسائر أفراد المجتمع ولذلك يقول الحق سبحانه : « ولكم في القصاص حياة » . إن الحق يريد أن يحذرنا أن تأخذنا الأريحية الكاذبة ، والإنسانية الرعناء ، والعطف الأحمق . فنقول : نمنع القصاص .

كيف نغضب لمعاقبة قاتل بحق، ولا نتحرك لمقتل بريء؟ إن الحق حين شرع القصاص كأنه يقول: إياك أن تقتل أحداً لأنك ستُقتل إن قتلته، وفي ذلك عصمة لنفوس الناس من القتل. إن في تشريع القصاص استبقاء لحياتكم؛ لأنكم حين تعرفون أنكم عندما تقتلون بريئاً وستقتلون بفعلكم فسوف تمتنعون عن القتل، فكأنكم حقنتم دماءكم. وذلك هو التشريع العالي العادل.

وفي القصاص حياة؛ لأن كل واحد عليه القصاص، وكل واحد له القصاص، إنه التشريع الذي يخاطب أصحاب العقول وأولي الألباب الذين يعرفون الجوهر المراد من الأشياء والأحكام. أما غير أولي الألباب فهم الذين يجادلون في الأمور دون أن يعرفوا الجوهر منها. فلولا القصاص لما ارتدع أحد، ولولا القصاص لغرقت البشرية في الوحشية. إن الحكمة من تقنين العقوبة ألا تقع الجريمة وبذلك يمكن أن تتوارى الجريمة مع العقوبة ويتوازن الحق مع الواجب.

إن المتدبر لأمر الكون يجد أن التوازن في هذه الدنيا على سبيل المثال في السنوات الماضية يأتي من وجود قوتين عظميين كلتاهما تخشى الأخرى وكلتاهما تختلف مع الأخرى، وفي هذا الاختلاف حماية لكثير من الشعوب، لأنهما لو اتفقتا على الباطل لتهدمت أركان دونيهما، وكان في ذلك دمار العالم، واستعباد لبقية الشعوب.

وإذا كان كل نظام من نظم العالم يحمل للآخر الحقد والكراهية والبغضاء ويريد أن يسيطر بهدمه لكنه يخشى قوة انتقام الآخر، هنا نجد في ذلك الخوف المتبادل حماية لحياة الآخرين، وفرصة للمؤمنين أن يأخذوا بأسباب الرقي العلمي ليقدموا للدنيا أسلوباً لائقاً بحياة الإنسان على الأرض في ضوء منهج الله. وعندما حدث انهيار لقوة من القوتين هي الاتحاد السوفيتي، فإن الولايات المتحدة تبحث الآن عن عدو لها؛ لأنها تعلم أن الحياة دون تحدٍ في مستوى قوتها، قد يجرئ الصغار عليها.

إن الخوف من العقوبة هو الذي يصنع التوازن بين معسكرات العالم، والخوف من العقوبة هو الذي يصنع التوازن في الأفراد أيضاً.

إن عدل الرحمن هو الذي فرض علينا أن نتعامل مع الجريمة بالعقاب عليها وأن يشاهد هذا العقاب آخرون ليرتدعوا

فهاهو ذا الحق في جريمة الزنى على سبيل المثال يؤكد ضرورة أن يشاهد العقاب طائفة من الناس ليرتدعوا . إن التشديد مطلوب في التحري للدقيق في أمر حدوث الزنى ، لأن عدم دقة التحري يصيب الناس بالقلق ويسبب ارتباكاً وشكاً في الأنساب ، والتشديد نجده أيضاً في العقوبة في قول الحق

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾

(سورة النور)

إن الذي يجترئ على حقوق الناس يجترئ أيضاً على حقوق الله ، ولذلك فمقتضى إيثار الإيمان هو إرضاء الله لا إرضاء الناس . وفي إنزال العقاب بالمعتدي خضوع لمنهج الله ، وفي رؤية هذا العقاب من قبل الآخرين هو نشر لفكرة أن المعتدي ينال عقاباً ، ولذلك شرع الحق العقاب والعلانية فيه ليستقر التوازن في النفس البشرية

وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه وتعالى ليعالج قضية اجتماعية أخرى . إن الحق بعد أن عالج قضية إزهاق الحياة ينتقل بنا إلى قضية أخرى من قضايا الحياة ، إنها قضية الموت الطبيعي . كأن الحق بعد أن أوضح لنا علاج قضية الموت بالجريمة يريد أن يوضح لنا بعضاً من متعلقات الموت حتفاً من غير سبب مزهق للروح . إن الحق يضع في الآية القادمة بعضاً من الأمور المتعلقة بالموت ليحقق التوازن الاقتصادي في المجتمع كما حقق بالآية السابقة التوازن العقابي والجنائي في المجتمع . يقول الحق :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

والحق كما أوضحت من قبل لا يقتحم على العباد أمورهم ولكنه يعرض عليهم أمر الإيمان به ، فإن آمنوا فهذا الإيمان يقتضي الموافقة على منهجه ، ولذلك فالمؤمن يشترك بعقيدته في الإيمان بما كتب الله عليه . إن المؤمن هو من ارتضى الله إلهاً ومشرعاً ، فحين يكتب الله على المؤمن أمراً ، فالمؤمن قد اشترك في كتابة هذا الأمر بمجرد إعلانه للإيمان . أما الكافر بالحق فلم يقتحم الله عليه اختياره للكفر ، لذلك لم يكتب عليه الحق إلا أمراً واحداً هو العذاب في الآخرة .

فالله لا يكلف إلا من آمن به وأحبه وآمن بكل صفات الجلال والكمال فيه . ولذلك فالتكليف الإيماني شرف خص به الله المحبين المؤمنين به ، ولو فطن الكفار إلى أن الله أعفاهم لأنهم لم يؤمنوا به لسارعوا إلى الإيمان ، ولرأوا اعتزاز كل مؤمن بتكليف الله له . إن المؤمن يرى التكليف خضوعاً لمشيئة الله . والخضوع لمشيئة الله يعني الحب . ومادام الحب قد قام بين العبد والرب فإن الحق يريد أن يديم هذا الحب ، لذلك كانت التكاليف هي مواصلة للحب بين العبد والرب .

إن العبد يحب الرب بالإيمان ، والرب يحب العبد بالتكليف ، والتكليف مرتبة أعلى من إيمان العبد ، فإيمان العبد بالله لا ينفع الله ، ولكن تكاليف الله للعبد ينتفع بها العبد . إن المؤمن عليه أن يفطن إلى عزة التكليف من الله ، فليس التكليف ذلاً يريده الحق بعباده المؤمنين ، إنما هو عزة يريدها الله لعباده المؤمنين ، هكذا قول الحق : « كتب عليكم » إنه أمر مشترك بين العبد والرب . إن الكتابة هنا أمر مشترك بين الحق الذي أنزل التكليف وبين العبد الذي آمن بالتكليف .

والحق يورد هنا أمراً يخص الوصية فيقول سبحانه :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهنا نجد شرطين : الشرط الأول : يبدأ بـ « إذا » وهي للأمر المتحقق وهو حدوث الموت . والموت أمر حتمي بالنسبة لكل عبد ، لذلك جاء الحق بهذا الأمر بشرط هو « إذا » ، فهى أداة لشرط وظرف لحدث . والموت هو أمر محقق إلا أن أحداً لا يعرف ميعاده .

والشرط الثاني يبدأ بـ « إن » وهي أداة شرط نقولها في الأمر الذي يحتمل الشك ، فقد يترك الإنسان بعد الموت ثروة وقد لا يترك شيئا . ولذلك فإن الحق يأمر العبد بالوصية خيراً له لماذا ؟ لأن الحق يريد أن يشرع للاستطراق الجمعي ، فبعد أن يوصي الحق عبده بأن يضربوا في الحياة ضرباً يوسع رزقهم ليتسع لهم ، ويفيض عن حاجتهم ، فهذا الفائض هو الخير ، والخير في هذا المجال يختلف من إنسان لآخر ومن زمن لآخر .

فعندما كان يترك العبد عشرة جنيهات في الزمن القديم كان هذا المبلغ قيمة ، أما عندما يترك عبد آخر ألف جنيه في هذه الأيام فقد تكون محسوبة عند البعض بأنها قليل من الخير ، إذن فالخير يُقدر في كل أمر بزمانه ، ولذلك لم يربطه الله برقم . إننا في مصر - مثلاً - كنا نصرف الجنيه الورقي بجنيه من الذهب ويفيض منه قرشان ونصف قرش ، أما الآن فالجنيه الذهبي يساوي أكثر من مائتين وخمسين جنيها ؛ لأن رصيد الجنيه المصري في الزمن القديم كان عالياً . أما الآن فالنقد المتداول قد فاق الرصيد الذهبي ، لذلك صار الجنيه الذهبي أعلى بكثير جداً من الجنيه الورقي .

ولأن الإله الحق يريد بالناس الخير لم يحدد قدر الخير أو قيمته . وعندما يحضر الموت الإنسان الذي عنده فائض من الخير لابد أن يوصي من هذا الخير . ولنا أن

نلحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى عن انتظار لحظة الموت ليقول الإنسان وصيته ، أو ليبلغ أسرته بالديون التي عليه ، لأن الإنسان لحظة الموت قد لا يفكر في مثل هذه الأمور . ولذلك فعلينا أن نفهم أن الحق ينبهنا إلى أن يكتب الإنسان ما له وما عليه في أثناء حياته . فيقول ويكتب وصيته التي تنفذ من بعد حياته يقول المؤمن : إذا حضرني الموت فللوالدين كذا وللأقربين كذا

أي أن المؤمن مأمور بأن يكتب وصيته وهو صحيح ، ولا ينتظر وقت حدوث الموت ليقول هذه الوصية . والحق يوصي بالخير لمن ؟ « للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين » . والحق يعلم عن عباده أنهم يلتفتون إلى أبنائهم وقد يهملون الوالدين ، لأن الناس تنظر إلى الآباء والأمهات كمودعين للحياة ، على الرغم من أن الوالدين هما سبب إيجاد الأبناء في الحياة ، لذلك يوصي الحق عباده المؤمنين بأن يخصصوا نصيبا من الخير للآباء والأمهات وأيضاً للأقارب . وهو سبحانه يريد أن يحمي ضعيفين هما : الوالدان والأقرباء .

وقد جاء هذا الحكم قبل تشريع الميراث ، فالناس قبل تشريع الميراث كانوا يعطون كل ما يملكون لأولادهم ، فأراد الله أن يخرجهم من إعطاء أولادهم كل شيء وحرمان الوالدين والأقربين . وقد حدد الله من بعد ذلك نصيب الوالدين في الميراث ، أما الأقربون فقد ترك الحق لعباده تقرير أمرهم في الوصية وقد يكون الوالدان من الكفار ، لذلك لا يرثان من الابن ، ولكن الحق يقول :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة لقمان)

إن الحق يذكر عباده بفضله عليهم ، وأيضاً بفضل الوالدين ، ولكن إن كان الوالدان مشركين بالله فلا طاعة لهما فى هذا الشرك ، ولكن هناك الأمر بمصاحبتهما فى الحياة بالمعروف واتباع طريق المؤمنين الحاملين للمنهج الحق . لذلك فالإنسان المؤمن يستطيع أن يوصى بشىء من الخير فى وصيته للأبوين حتى ولو كانا من الكافرين ، ونحن نعرف أن حدود الوصية هى ثلث ما يملكه الإنسان والباقى للميراث الشرعى . أما إذا كانا من المؤمنين فنحن نتبع الحديث النبوى الكريم : « لا وصية لوارث »[1] .

وفى الوصية يدخل إذن الأقرباء الضعفاء غير الوارثين ، هذا هو المقصود من الاستطراق الاجتماعى . والحق حين ينبه عباده إلى الوصية فى أثناء الحياة بالأقربين الضعفاء ، يريد أن يدرك العباد أن عليهم مسئولية تجاه هؤلاء . ومن الخير أن يعمل الإنسان فى الحياة ويضرب فى الأرض ويسعى للرزق الحلال ويترك ورثته أغنياء بدلا من أن يكونوا عالة على أحد .

عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : « جاء النبى صلى الله عليه وسلم يعودنى ، وأنا بمكة ، قال : يرحم الله ابن عفراء ، قلت : يا رسول الله أوصى بمالى كله ؟ قال : لا . قلت : فالشطر ؟ قال : لا . قلت الثلث ؟ قال : فالثلث ، والثلث كثير ، إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس »[2] . وإذا رزق الله الإنسان بالعمل خيراً كثيراً فإياك أيها الإنسان أن تقصر هذا الخير على من يرثك .

لماذا ؟ لأنك إن قصرت شيئاً على من يرثك فقد تُصادف فى حياتك من لا يرث وله شبهة القربى منك ، وهو فى حاجة إلى من يساعده على أمر معاشه فإذا لم تساعده يحقد عليك وعلى كل نعمة وهبها الله لك ، ولكن حين يعلم هذا القريب أن النعمة التى وهبها الله لك قد يناله منها شىء ولو بالوصية وليس بالتقنين الإرثى هذا القريب يملأه الفرح بالنعمة التى وهبها الله لك .

---

(١) رواه البيهقى فى سننه والدارقطنى عن جابر
(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد والنسائى

ولذلك قال الحق :

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾

(من سورة البقرة)

إن الحق يريد أن يلفت العباد إلى الأقرباء غير الوارثين بعد أن أدخل الآباء والأمهات في الميراث . إن الإنسان حين يكون قريباً لميت ترك خيراً ، وخص الميت هذا القريب ببعض من الخير في الوصية ، هذا القريب تمتلىء بالخير نفسه فيتعلم ألا يحبس الخير عن الضعفاء ، وهكذا يستطرق الحب وتقوم وشائج المودة .

والحق يفترض ـ وهو الأعلم بنفوس عباده ـ أن الموصي قد لا يكون على حق والوارث قد يكون على حق ، لذلك احتاط التشريع لهذه الحالة ؛ لأن الموصي له حين يأخذ حظه من الوصية سينقص من نصيب الوارث ، ولذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعصم الأطراف كلها ، إنه يحمي الذي وصى ، والموصى له ، والوارث ومن هنا يقول الحق

﴿فَمَن بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾

ونحن نعرف أنه في زمن نزول القرآن كانت الوصية شفاهة ، ولم تكن الكتابة منتشرة ، ولذلك أتى الحق بالجانب المشترك في الموصي والموصى له والوارث وهو جانب القول ، فقد كان القول هو الأداة الواضحة في ذلك الزمن القديم ، ولم تكن هناك وسائل معاصرة : كالشهر العقاري لتوثيق الوصية ، لذلك كان تبديل وصية الميت

إنما على الذي يُبدل فيها .

إن الموصى قد برئت ذمته ، أما ذمة الموصى له والوارث فهي التي تستحق أن تنتبه إلى أن الله يعلم خبايا الصدور وهو السميع العليم ويريد الحق أن يصلح العلاقة بين الوارث والموصى له ، لذلك يقول الحق :

﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾

إن الحق يريد العدل للجميع فإذا كانت الوصية زائغة عن العدل وعن الصراط المستقيم وكان فيها حرمان للفقير وزيادة في ثراء لغني أو ترك للأقربين ، فهذا ضياع للاستطراق الذي أراده الله ، فإذا جاء من يسعى في سبيل الخير لرد الوصية للصواب فلا إثم عليه في التغيير الذي يحدثه في الوصية ليبدلها على الوجه الصحيح لها الذي يرتضيه الله ؛ لأن الله غفور رحيم .

وقد يخاف الإنسان من صاحب الوصية أن يكون جنفاً ، والجنف يفسر بأنه الحيف والجور ، وقد يخلق الله الإنسان بجنف أي على هيئة يكون جانب منه أوطى من الجانب الآخر ، ونحن نعرف من علماء التشريح أن كل نصف في الإنسان مختلف عن النصف الآخر وقد يكون ذلك واضحا في بعض الخلق ، وقد لا يكون واضحا إلا للمدقق الفاحص

والإنسان قد لا يكون له خيار في أن يكون أجنف ، ولكن الإثم يأتي باختيار الإنسان ـ أي أن يعلم الإنسان الذنب ومع ذلك يرتكبه ـ إذن فمن خاف من موص جنفاً أي حيفاً وظلماً من غير تعمد فهذا أمر لا خيار للموصي فيه ، فإصلاح ذلك الحيف والظلم فيه خير للموصي . أما إذا كان صاحب الوصية قد تعمد أن يكون آثما

وإصلاح ذلك الإثم أمر واجب . وهذه هي دقة التشريع القرآني الذي يشحذ كل ملكات الإنسان لتلقي العدل الكامل

والحق عالج قضية التشريع للبشر في أمر القصاص باستثارة كل ملكات الخير في الإنسان حين قال : « فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف » . إنه ليس تشريعاً جافاً كتشريع البشر . إنه تشريع من الخالق الرحيم العليم بحنايا البشر . ويستثير الحق في البشر كل نوازع الخير ، ويعالج كذلك قضية تبديل الوصية التي وصى بها الميت نفسه ، فمن خالف الوصية التي أقيمت على عدالة فله عقاب .

أما الذي يتدخل لإصلاح أمر الوصية بما يحقق السجة للميت من الحنف أي الحيف غير المقصود ولكنه يسبب ألماً ، أو يصلح من أمر وصية فيها إثم فهذا أمر يريده الله ولا إثم فيه ويحقق الله به المغفرة والرحمة . وهكذا يعلمنا الحق أن الذي يسمع أو يقرأ وصية فلا بد أن يقيسها على منهج الحق والعدل وتشريع الله ، فإن كان فيه مخالفة فلا بد أن يراجع صاحبها . ولك أن تلحظ أن الحق قد عبر عن إحساس الإنسان بالخوف من وقوع الظلم بغير قصد أو بقصد حين قال : « فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم »

إن كلمة « خاف » عندما تأتي في هذا الموضع تدل على الوحدة الإيمانية في نفوس المسلمين . إن المؤمن الذي يتصدى لإصلاح من هذا النوع قد يكون غير وارث ، ولا هو من الموصى لهم ، ولا هو الموصي ، إنما هو مجرد شاهد ، وهذه الشهادة تجعله يسعى إلى التكافل الإيماني ؛ فكل قضية تمس المؤمن إنما تمس كل المؤمنين ، فإن حدث حنف فهذا يثير الخوف في المؤمن لأن نتيجته قد تصيب غيره من المؤمنين ولو بغير قصد ، وهكذا نرى الوحدة الإيمانية . إن الإيمان يفرح المؤمنين بعضهم ببعض حتى يصيروا كالجسد الواحد إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى

ولقد فعندما يتدخل المؤمن الذي لا مصلحة مباشرة له في أمر الإرث أو الوصية ليصلح من هذا الأمر فإن الحق يثيبه بخير الجزاء

والحق سبحانه قال : « فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم » ، وهذا القول يلفتنا إلى أن الإنسان إذا ما عزم على اتخاذ أمر في مسألة الوصية فعليه أن يستشير من حوله ، وأن يستقبل كل مشورة من أهل العلم والحكمة ، وذلك حتى لا تنشأ الضغائن بعد أن يبرم أمر الوصية إبراماً نهائياً أي بعد وفاته ، والحق قد وضع الاحتياطات اللازمة لإصلاح أمر الوصية إن جاء بها ما يورث المشاكل ؛ لأن الحق يريد أن يتكاتف المؤمنون في وحدة إيمانية ، لذلك فلابد من معالجة الانحراف بالوقاية منه وقبل أن يقع . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوْا ونجوْا جميعا »[1].

والحديث الشريف يضرب المثل على ضرورة التآزر والتواصي بين المؤمنين حماية لهم . فهؤلاء قوم اقتسموا سفينة بالقرعة ، والاستهام هو قرعة لا هوى لها ، وسكن بعضهم أسفل السفينة حسب ما جاء من نتيجة الاستهام ، وسكن بعضهم أعلى السفينة . لكن الذين سكنوا أسفل السفينة أرادوا بعضا من الماء ، واقترح بعضهم أن يخرقوا السفينة للحصول على الماء ، وبرروا ذلك بأن مثل هذا الأمر لن يؤدي من يسكنون في النصف الأعلى من السفينة . ولو أنهم فعلوا ذلك ، ولم يمنعهم الذين يسكنون في النصف الأعلى من السفينة لغرقوا جميعا ، لكن لو تدخل الذين يسكنون في النصف الأعلى من السفينة لنجوا من الغرق ، وكذلك حدود الله ، فعلى المؤمنين أن يتكاتفوا بالتواصي في تنفيذها ، فلا يقولن أحد : « إن ما يحدث من الآخرين لا شأن لي به » لأن أمر المسلمين يهم كل مسلم ، ولذلك جاءت آية قال فيها سيدنا أبو بكر رضي الله عنه : « هناك آية تقرأونها على غير وجهها » أي تفهمونها على غير معناها والآية هي قول الحق :

---

(١) رواه البخاري والترمذي ورواه أحمد في مسنده عن النعمان بن بشير.

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

ويقول شيخنا «حسنين مخلوف» مفتي الديار المصرية الأسبق في شرح هذه الآية : أي احذروا ابتلاء الله في محن قد تنزل بكم ، تعم المسيء وغيرهم ، كالبلاء والقحط والغلاء ، وتسلط الجبابرة وغير ذلك . والمراد تحذير من الذنوب التي هي أسباب الابتلاء ، كإقرار المنكرات والبدع والرضا بها ، والمداهنة في الأمر بالمعروف ، وافتراق الكلمة في الحق ، وتعطيل الحدود ، وفشو المعاصي ، ونحو ذلك . وفيما رواه البخاري : عندما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ويل للعرب من شر قد اقترب ... » فقيل له : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : «نعم إذا كثر الخبث»(١) .

إذن فلا يعتقد مسلم أنه غير مسئول عن الفساد الذي يستشرى في المجتمع ، بل عليه أن يحذر وأن ينبه . ولذلك نجد أن حكمة الحق قد فرضت الدية على العاقلة ، أي على أهل القاتل ، لأنهم قد يرون هذا القاتل وهو يمارس الفساد ابتداء ، فلم يردعه أحد منهم ، لكنهم لو ضربوا على يده من البداية لما جاءهم الغرم بدفع الدية ، لذلك فعندما تسمع قول الله عز وجل : «فمن خاف من موص جنفا» إياك أن تقول : لا شأن لي بهذا الأمر لا ، إن الأمر يخصك وعليك أن تحاول الإصلاح بين الموصى له ، وبين الورثة . وقول الحق : «فلا إثم عليه» يعني عدم إدخاله في دائرة الذين يبدلون القول والتي تناولتها بالخواطر قبل هذه الآية ، بل لك ثواب على تدخلك ؛ فأنت لم تبدل حق بباطل ، بل تزحزح باطلاً لتؤسس حقاً ، وبذلك تُرَطِّبُ قلب الوارث على ما نقص منه ، وتقيم ميزان العدل بالنصيحة ، وتسخي نفسه ليقبل الوصية بعد تعديلها بما يرضي شريعة الله . إن الله يريد إقامة ميزان العدل وأن يتأكد الاستطراق الصفائي بين المؤمنين فلا تورث الوصية شروراً

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في الفتن .

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾

والحق سبحانه يبدأ هذه الآية الكريمة بترقيق الحكم الصادر بالتكليف القادم وهو الصيام فكأنه يقول: « يا من آمنتم بي وأحببتموني لقد كتبت عليكم الصيام ». وعندما يأتي الحكم ممن آمنت به فأنت تثق أنه يحملك تكليفا تأتي منه فائدة لك، وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ هب أنك تخاطب ابنك في أمر فيه مشقة، لكن نتائجه مفيدة، فأنت لا تقول له: « يا ابني افعل كذا »، لكنك تقول له « يا بُنَيَّ افعل كذا » وكأنك تقول له: « يا صغيري لا تأخذ العمل الذي أكلفك به بما فيه من مشقة بمقاييس عقلك غير الناضج، ولكن خذ هذا التكليف بمقاييس عقل وتجربة والدك ».

والمؤمنون يأخذون خطاب الحق لهم بـ « يا أيها الذين آمنوا » بمقياس المحبة لكل ما يأتي منه سبحانه من تكليف حتى وإن كان فيه مشقة، والمؤمنون بقبولهم للإيمان إنما يكونون مع الحق في التعاقد الإيماني، وهو سبحانه لم يكتب الصيام على من لا يؤمن به؛ لأنه لا يدخل في دائرة التعاقد الإيماني وسيلقى سعيرا. والصيام هو لون من الإمساك؛ لأن معنى « صام » هو « أمسك »، والحق يقول:

﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة مريم)

وهذا إمساك عن الكلام؛ إذن فالصوم: معناه الإمساك. لكن الصوم التشريعي يعني الصوم عن شهوتي البطن والفرج من الفجر وحتى الغروب. ومبدأ

الصوم لا يختلف من زمن إلى آخر ، فقد كان الصيام الركن التعبدي موجوداً في الديانات السابقة على الإسلام ، لكنه كان إما إمساكاً مطلقاً عن الطعام وإما إمساكاً عن ألوان معينة من الطعام كصيام النصارى . فالصيام إذن هو منهج لتربية الإنسان في الأديان ، وإن اختلفت الأيام عدداً ، وإن اختلفت كيفية الصوم وتذييل الحق الآية الكريمة بقوله « لعلكم تتقون » ونعرف أن معنى التقوى هو أن نجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية ، وأن نتقي بطش الله ، ونتقي النار وهي من آثار صفات الجلال . ويريد الحق « لعلكم تتقون » أي أن تهذب وتشذب سلوكك فتبتعد عن المعاصي . والمعاصي في النفس إنما تنشأ من شره ماديتها إلى أمر ما والصيام كما نعلم يضعف شرة المادية وحدتها وتسلطها في الجسد . ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم للشباب المراهق وغيره

« يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »[1]

وكأن الصوم يشذب شرة المادية في الجسم الشاب ، وإن تقليل الطعام يعني تقليل وقود المادة ، فيقل السعار الذي يدفع الإنسان لارتكاب المعاصي ، والصيام في رمضان يعطي الإنسان الاستقامة لمدة شهر ، ويلحظ الإنسان حلاوة الاستقامة فيستمر بها بعد رمضان ، والحق لا يطلب منك الاستقامة في رمضان فقط ، إنما هو سبحانه قد اصطفى رمضان كزمن تتدرب فيه على الاستقامة لتشيع من بعد ذلك في كل حياتك ؛ لأن اصطفاء الله لزمان أو اصطفاء الله لمكان أو لإنسان ليس لتدليل الزمان ، ولا لتدليل المكان ، ولا لتدليل الإنسان ، ولكن يريد الله من اصطفائه لرسول أن يشيع أثر اصطفاء الرسول في كل الناس ، ولذلك نجد تاريخ الرسل مليئاً بالمشقة والتعب ، وهذا دليل على أن مشقة الرسالة يتحملها الرسول وتعبها يقع عليه هو ، فالله لم يصطفه ليدلله ، وإنما اصطفاه ليجعله أسوة .

وكذلك يصطفي الله من الزمان أياماً لا ليدللها على بقية الأزمنة ، ولكن لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يشيع اصطفاء هذا الزمان في كل الأزمنة ، كاصطفائه لأيام

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه وأحمد والبيهقي

رمضان . والحق سبحانه وتعالى يصطفى الأمكنة ليشيع اصطفاؤها في كل الأمكنة .
وعندما نسمع من يقول : «زرت مكة والمدينة وذقت حلاوة الشفافية والإشراق والتنوير ، ونسيت كل شيء» . إن من يقول ذلك يظن أنه يمدح المكان ، وينسى أن المكان يفرح عندما يشيع اصطفاؤه في بقية الأمكنة ، فأنت إذا ذهبت إلى مكة لتزور البيت الحرام ، وإذا ذهبت إلى المدينة لتزور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلماذا لا تتذكر في كل الأمكنة أن الله موجود في كل الوجود ، وأن قيامك بأركان الإسلام وسلوك الإسلام هو تقرب من الله ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

صحيح إن سلوكك وأنت في جوار بيت الله ، يتميز بالدقة وحسن النية . كذلك وأنت في جوار بيت الله وفي حضرة رسول الله تستحي أن تعمل معصية . وساعة تسمع «الله أكبر» تنهض للصلاة وتخشع ، ولا تؤذي أحداً . إذن لماذا لا يشيع هذا السلوك منك في كل وقت وفي كل مكان ؟ إنك تستطيع أن تستحضر النية التعبدية في أي مكان ، وستجد الصفاء النفسي العالي .

إذن فحين يصطفي الله زماناً أو مكاناً أو يصطفي إنساناً إنما يشاء الحق سبحانه وتعالى أن يشيع اصطفاء الإنسان في كل الناس ، واصطفاء المكان في كل الأمكنة ، واصطفاء الزمان في كل الأزمنة . ولذلك أتعجب عندما أجد الناس تستقبل رمضان بالتسبيح وبآيات القرآن وبعد أن ينتهي رمضان ينسون ذلك . وأقول هل جاء رمضان ليحرس لنا الدين ، أم أن رمضان يجيء ليدربنا على أن نعيش بحق الصفاء في كل الأزمنة ؟

وقوله الحق : «كُتِبَ عليكم الصيام كما كُتِبَ على الذين من قبلكم» يدلنا على أن المسلمين ليسوا بدعاً في مسألة الصوم ، بل سبقهم أناس من قبل إلى الصيام وإن اختلفت شكلية الصوم . وساعة يقول الحق : «كتب عليكم الصيام» فهذا تقرير للمبدأ ، مبدأ الصوم ، ويُفصِّلُ الحق سبحانه المبدأ من بعد ذلك فيقول .

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾

وكلمة « أياماً » تدل على الزمن وتأتي مجملة ، وقوله الحق عن تلك الأيام ، إنها « معدودات » يعني أنها أيام قليلة ومعروفة ، ومن بعد ذلك يوضح الحق لنا مدة الصيام فيقول :

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

إذن فمدة الصيام هي شهر رمضان ، ولأنه سبحانه لعليم بالضرورات التي تطرأ

على هذا التكليف فهو يشرع هذه الضرورات ، وتشريع الله لرخص الضرورة إعلام لنا بأنه لا يصح مطلقاً لأي إنسان أن يخرج عن إطار الضرورة التي شرعها الله ، فبعض من الذين يتفلسفون من السطحيين يحبون أن يزينوا لأنفسهم الضرورات التي تبيح لهم الخروج عن شرع الله ، ويقول الواحد منهم

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

ونقول : إنك تفهم وتحدد الوُسع على قدر عقلك ثم تقيس التكليف عليه ، برغم أن الذي خلقك هو الذي يُكلف ويعلم أنك تَسعُ التكليف ، وهو سبحانه لا يكلف إلا بما في وسعك ؛ بدليل أن المشرع سبحانه يعطي الرخصة عندما يكون التكليف ليس في الوسع . ولنر رحمة الحق وهو يقول : « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » ، وكلمة « مريضاً » كلمة عامة ، وأنت فيها حجة على نفسك وبأمر طبيب مسلم حاذق يقول لك : « إن صمت فأنت تتعب » والمرض مشقته مزمنة في بعض الأحيان ، ولذلك شرع الفدية بإطعام مسكين .

وكذلك يرخص الله لك عندما تكون « على سفر » . وكلمة « سفر » هذه مأخوذة من المادة التي تفيد الظهور والانكشاف ، ومثال ذلك قولنا : « أسفر الصبح » وكلمة « سفر » تفيد الانتقال من مكان تقيم فيه إلى مكان جديد ، وكأنك كلما مشيت خطوة تتكشف لك أشياء جديدة ، والمكان الذي تنتقل إليه هو جديد بالنسبة لك ، حتى ولو كنت قد اعتدت أن تسافر إليه ؛ لأنه يصير في كل مرة جديداً لما ينشأ عنه من ظروف عدم استقرار في الزمن . صحيح أن شيئاً من المباني والشوارع لم يتغير ، ولكن الذي يتغير هو الظروف التي تقابلها ، وصحيح أن ظروف السفر في زماننا قد اختلفت عن السفر من قديم الزمن .

إن المشقة في الانتقال قديماً كانت عالية ، ولكن لنقارن سفر الأمس مع سفر اليوم من ناحية الإقامة . وستجد أن سفرْ الآن بإقامة الآن فيه مشقة ، ومن العجب أن الذين يناقشون هذه الرخصة يناقشونها ليسقطوا الرخصة ، ونقول لهم : اعلموا أن

تشريع الله للرخص ينقلها إلى حكم شرعي مطلوب ؛ وفي ذلك يروى عن جابر ابن عبدالله رضي الله عنه قال . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فرأى زحامًا ورجلًا قد ظُلّل عليه فقال : « ما هذا » فقالوا : صائم فقال : « ليس من البر الصوم في السفر »[1] .

وعندما نقرأ النص القرآني نجده يقول : « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر ، فعدة من أيام أخر » أي أن مجرد وجودك في السفر يقتضي الفطر والقضاء في أيام أخر ، ومعنى ذلك أن الله لا يقبل منك الصيام ، صحيح أنه سبحانه لم يقل لك . « فطر » ولكن بمجرد أن تكون مريضاً مرضاً مؤقتا أو مسافراً فعليك الصوم في عدة أيام أخر وأنت لن تشرع لنفسك .

ولنا في رسول الله أسوة حسنة فقد نهى عن صوم يوم عيد الفطر ، لأن عيد الفطر سُمى كذلك ، لأنه يحقق بهجة المشاركة بنهاية الصوم واجتياز الاختبار ، فلا يصح فيه الصوم ، والصوم في أول أيام العيد إثم ، لكن الصوم في ثاني أيام العيد جائز ، لحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن صيام يومين : يوم الفطر ويوم الأضحى »[2] .

وقد يقول قائل . ولكن الصيام في رمضان يختلف عن الصوم في أيام أخر ؛ لأن رمضان هو الشهر الذي أنزل فيه القرآن . وأقول . إن الصوم هو الذي يتشرف بمجيئه في شهر القرآن ، ثم إن الذي أنزل القرآن وفرض الصوم في رمضان هو سبحانه الذي وهب الترخيص بالفطر للمريض أو المسافر ونقله إلى أيام أخر في غير رمضان . وسبحانه لا يعجز عن أن يهب الأيام الأخر نفسها التجليات الصفاتية التي يهبها للعبد الصائم في رمضان . إن الحق سبحانه حين شرع الصوم في رمضان إنما أراد أن يشيع الزمن الضيق - زمن رمضان - في الزمن المتسع وهو مدار العام ، فنحن نصوم رمضان في الصيف ونصومه في الشتاء وفي الخريف والربيع ، إذن فرمضان يمر على كل العام

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصوم

(٢) رواه مسلم

ويقول الحق : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » والطوق هو القدرة ، ويطيقونه أى يدخل فى قدرتهم وفى قوتهم ، والفدية هى إطعام مسكين

ويتساءل الإنسان : كيف يطيق الإنسان الصوم ثم يؤذن له بالفطر مقابل فدية هى إطعام مسكين ؟ وأقول : إن هذه الآية دلت على أن فريضة الصوم قد جاءت بتدرج ، كما تدرج الحق فى قضية الميراث ، فجعل الأمر بالوصية ، وبعد ذلك نقلها إلى الثابت بالتوريث ؛ كذلك أراد الله أن يُخرج أمة محمد صلى الله عليه وسلم من دائرة أنهم لا يصومون إلى أن يصوموا صياماً يُخيّرهُم فيه لأنهم كانوا لا يصومون ثم جاء الأمر بعد ذلك بصيام لا خيار فيه ، فكان الصوم قد فُرض أولاً باختيار ، وبعد أن اعتاد المسلمون وألفُوا الصوم جاء القول الحق : « فمَنْ شهد منكم الشهر فليصمه »

وفى هذه الآية لم يذكر الحق الفدية أو غيرها . إذن كانت فرضية الصوم أولاً اختيارية بقول الحق : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » ، ثم جاء القرار الارتقائى ، فصار الصوم فريضة محددة المدة وهى شهر رمضان « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمَنْ شهد منكم الشهر فليصمه » وبذلك انتهت مسألة الفدية بالنسبة لمن يطيق الصوم ، أما الذى لا يطيق أصلاً بأن يكون مريضاً أو شيخاً ، وإن قال الأطباء المسلمون : إن هذا مرض « لا يُرجى شفاؤه » نقول له : أنت لن تصوم أياماً أخر وعليك أن تفدى

لقد جاء تشريع الصوم تدريجياً ككثير من التشريعات التى تتعلق بنقل المكلفين من إلف العادات ، كالخمر مثلاً والميسر والميراث ، وهذه أمور أراد الله أن يتدرج فيها . ويقول قائل : ما دام فرض الصيام كان اختيارياً فلماذا قال الحق بعد الحديث عن الفدية « فمَنْ تطوع خيراً فهو خير له » ؟ .

وأقول : عندما كان الصوم اختيارياً كان لابد أيضاً من فتح باب الخير والاجتهاد فيه ، فمنْ صام وأطعم مسكيناً فهذا أمر مقبول منه ، ومَنْ صام وأطعم مسكينين ، فذلك أمر أكثر قبولاً . ومنْ يدخل مع الله من غير حساب يؤتيه الله من غير حساب ، ومَنْ يدخل على الله بحساب ، يعطيه الحق بحساب ، وقول الحق : « وأن تصوموا خير لكم » هو خطوة فى الطريق لتأكيد فرضية الصيام ، وقد تأكد ذلك الفرض بقوله الحق : « فمَنْ شهد منكم الشهر فليصمه » ولم يأت فى هذه الآية بقوله : « وأن

تصوموا خير لكم ، لأن المسألة قد انتقت من الاختيار إلى الفرض

إذن فالصيام هو منهج لتربية الإنسان ، وكان موجوداً قبل أن يبعث الحق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم دخل الصوم على المسلمين اختيارياً في البداية ، ثم فريضة من بعد ذلك . وقد شرع الله الصوم في الإسلام بداية بأيام معدودة ثم شرح لنا الأيام المعدودة بشهر رمضان .

والذي يطمئن إليه خاطري أن الله بدأ مشروعية الصوم بالأيام المعدودة ، ثلاثة أيام من كل شهر وهو اليوم العاشر والعشرون ، والثلاثون من أيام الشهر ، كانت تلك هي الأيام المعدودة التي شرع الله فيها أن نصوم ؛ وكان الإنسان مخيراً في تلك الأيام المعدودة إن كان مطيقاً للصوم أن يصوم أو أن يفتدي ، أما حين شرع الله الصوم في رمضان فقد أصبح الصوم فريضة تعبدية وركنا من أركان الإسلام ، وبعد ذلك جاءنا الاستثناء للمريض والمسافر

إذن لك أن تلحظ أن الصوم في الإسلام كان على مرحلتين المرحلة الأولى . أن الله سبحانه وتعالى شرع صيام أيام معدودة ، وقد شرحنا أحكامها ، والمرحلة الثانية هي تشريع الصوم في زمن محدود . شهر رمضان ، والعلماء الذين ذهبوا إلى جواز رخص إفطار المريض وإفطار المسافر لأنهم لم يرغبوا أن يردوا حكمة الله في التشريع ، أقول لهم : إن الحق سبحانه وتعالى حين يرخص لابد أن تكون له حكمة أعلى من مستوى تفكيرنا ، وأن الذي يؤكد هذا أن الحق سبحانه وتعالى قال : « فمن كان منكم مريضا أو على سفر » .

الحكم هنا هو الصوم عدة أيام أخر ، ولم يقل فمن أفطر فعليه عدة من أيام أخر ، أي أن صوم المريض والمسافر قد انتقل إلى وقت الإقامة بعد السفر ، والشفاء من المرض ، فالذين قالوا من العلماء : هي رخصة ، إن شاء الإنسان فعلها وإن شاء تركها ، لابد أن يقدر في النص القرآني « فمن كان منكم مريضا أو على سفر » ، فأفطر ، « فعدة من أيام أخر » ونقول : ما لا يحتاج إلى تأويل في النص أولى في الفهم مما يحتاج إلى تأويل ، ولكن أدبنا في التعبير ليس أدب ذوق ، بل أدب طاعة ؛ لأن الطاعة فوق الأدب .

إذن فالذين يقولون هذا لا يلحظون أن الله يريد أن يخفف عنه ، ثم ما الذي يمنعنا أن نفهم أن الحق سبحانه وتعالى أراد للمريض وللمسافر رخصة وصحة ، فجعل صيام أي منهما في عدة من الأيام الأخر . وإن صام في رمضان وهو مريض أو على سفر فليس له صيام ، أي أن صيامه لا يعتد به ولا يقبل منه ، وهذا ما نرتاح إليه ، ولكن علينا أن ندخل في اعتبارنا أن المراد من المرض والسفر هنا ، هو ما يخرج بمجموع ملكات الإنسان عن سويتها

وما معنى كلمة « شهر » التي جاءت في قوله : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه »؟ إن كلمة « شهر » مأخوذة من الإعلام والإظهار ، وما زلنا نستخدمها في الصفقات فنقول مثلا : لقد سجلنا البيع في « الشهر العقاري » أي نحن نُعْلِمُ الشهر العقاري بوجود صفقة ، حتى لا يأتي بعد ذلك وجود صفقة على صفقة ، فكلمة « شهر » معناها الإعلام والإظهار ، وسُمّيت الفترة الزمنية « شهراً » لماذا ؟ لأن لها علامة تُظهرها ، ونحن نعرف أننا لا نستطيع أن نعرف الشهر عن طريق الشمس ، فالشمس هي سمة لمعرفة تحديد اليوم ، فاليوم من مشرق الشمس إلى مشرق آخر وله ليل ونهار

ولكن الشمس ليست فيها علامة مميزة سطحية ظاهرة واضحة تحدد لنا بدء الشهر ، إنما القمر هو الذي يحدد تلك السمة والعلامة بالهلال الذي يأتي في أول الشهر ، ويظهر هكذا كالعرجون القديم ، إذن فالهلال جاء لتمييز الشهر ، والشمس لتمييز النهار ، ونحن نحتاج لهما معا في تحديد الزمن

إن الحق سبحانه وتعالى يربط الأعمال العبادية بآيات كونية ظاهرة التي هي الهلال ، وبعد ذلك نأخذ من الشمس اليوم فقط ؛ لأن الهلال لا يعطيك اليوم ، فكأن شهور الهلال على شكل خاص بحسبما يأتي المحاق وينتهي ، فميلاد الهلال بداية إعلام وإعلان وإظهار أن الشهر قد بدأ ، ولذلك تبدأ العبادات منذ الليلة الأولى في رمضان ؛ لأن العلامة - الهلال - مرتبطة بالليل ، فنحن نستطلع الهلال في المغرب ، وإن رأيناه نقول شهر رمضان بدأ . ولم تختلف هذه المسألة لأن النهار لا يسبق الليل ، إلا في عبادة واحدة وهي الوقوف بعرفة ، فالليل الذي يجيء بعدها هو الملحق بيوم عرفة .

وكلمة « رمضان » مأخوذة من مادة (الراء - والميم - والضاد) ، وكلها تدل على

الحرارة وتدل على القيظ «ورمض الإنسان» أي حرّ جوفه من شدة العطش ، و«الرمضاء» أي الرمل الحار ، وعندما يقال : «رمضت الماشية» أي أن الحر أصاب خفها فلم تعد تقوى أن تضع رجلها على الأرض . إذن فرمضان مأخوذ من الحر ومن القيظ ، وكأن الناس حينما أرادوا أن يضعوا أسماء للشهور جاءت التسمية لرمضان في وقت كان حاراً ، فسموه رمضان كما أنهم ساعة سموا مثلا «ربيع الأول وربيع الآخر» كان الزمن متفقا مع وجود الربيع ، وعندما سموا «جمادى الأولى وجمادى الآخرة» كان الماء يجمّد في هذه الأيام.

فكأنهم لاحظوا الأوصاف في الشهور ساعة التسمية ، ثم دار الزمن العربي الخاص المحدد بالشهور القمرية في الزمن العام للشمس . فجاء رمضان في صيف ، وجاء في خريف ، لكن ساعة التسمية كان الوقت حاراً

وهب أن إنسانا جاءه ولد جميل الشكل ، فسماه «جميلاً» وبعد ذلك مرض والعياذ بالله بمرض الجدري فشوه وجهه ، فيكون الاسم قد لوحظ ساعة التسمية ، وإن طرأ عليه فيما بعد ذلك ما يناقض هذه التسمية ، وكأن الحق سبحانه وتعالى حينما هيأ لعقول البشرية المواضعة للألفاظ أن يضعوا لهذا الشهر ذلك الاسم ، دل على المشقة التي تعتري الصائم في شهر رمضان ، وبعد ذلك يعطي له سبحانه منزلة تؤكد لماذا سُمي ، إنه الشهر الذي أنزل فيه القرآن ، والقرآن إنما جاء منهج هداية للقيم ، والصوم امتناع عن الاقتيات ، فمنزلة الشهر الكريم أنه يربي البدن ويربي النفس ، فناسب أن يوجد التشريع في تربية البدن وتربية القيم مع الزمن الذي جاء فيه القرآن بالقيم ، «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن» . وإذا سمعت «أنزل فيه القرآن» فافهم أن هناك كلمات «أنزل» و«نزّل» و«نزل» ، فإذا سمعت كلمة «أنزل» تجدها منسوبة إلى الله دائما :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① ﴾

(سورة القدر)

أما في كلمة «نزّل» فهو سبحانه يقول :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ١٩٣ ﴾

(سورة الشعراء)

وقال الحق :

﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾

(من الآية ٤ سورة القدر)

إذن فكلمة « أنزل » مقصورة على الله ، إنما كلمة « نَزَّلَ » تأتي من الملائكة ، و« نَزَلَ » تأتي من الروح الأمين الذي هو « جبريل » ، فكأن كلمة « أنزل » بهمزة التعدية ، عدت القرآن من وجوده مسطورا في اللوح المحفوظ إلى أن يبرز إلى الوجود الإنساني ليباشر مهمته .

وكلمة « نَزَّلَ » و« نَزَلَ » نفهمها أن الحق أنزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا مناسباً للأحداث ومناسبً للظروف . فكان الإنزال في رمضان جاء مرة واحدة ، والناس الذين يهاجموننا يقولون كيف تقولون : إن رمضان أنزل فيه القرآن مع أنكم تشيعون القرآن في كل زمن ، فينزل هنا وينزل هناك وقد نزل في مدة الرسالة المحمدية ؟

نقول لهم : نحن لم نقل إنه « نزل » ولكننا قلنا « أنزل » ، فأنزل تعدي من العلم الأعلى إلى أن يباشر مهمته في الوجود وحين يباشر مهمته في الوجود ينزل منه « النَّجم » ـ يعني القسط القرآني ـ موافقا للحدث الأرضي ليجيء الحكم وقت حاجته ، فيستقر في الأرض ، إنما لو جاءنا القرآن مكتملاً مرة واحدة فقد يجوز أن يكون عندنا الحكم ولا نعرفه ، لكن حينما لا يجيء الحكم إلا ساعة نحتاجه ، فهو يستقر في نفوسنا

واضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت مثلاً تريد أن تجهز صيدلية للطوارىء في المنزل ، وأنت تضع فيها كل ما يخص الطوارىء التي تتخيلها ، ومن الجائز أن يكون عندك الدواء لكنك لست في حاجة له ، أما ساعة تحتاج الدواء وتذهب لتصرف تذكرة الطبيب من الصيدلية ، عندئذ لا يحدث لبس ولا اختلاط ، فكذلك حين يريد الله حكما من الأحكام ليعالج قضية من قضايا الوجود فهو لا ينتظر حتى ينزل فيه حكم من الملأ الأعلى من اللوح المحفوظ ، إنما الحكم موجود في السماء الدنيا ، فيقول للملائكة : تنزلوا به ، وجبريل ينزل في أي وقت شاء له الحق أن

يوم من أوقات البعثة المحمدية ، أو الوقت الذي أراد الله سبحانه وتعالى أن يوجد فيه الحكم الذي يغطي قضية من القضايا

إذن فحينما يوجد من يريد أن يشككنا نقول له : لا
نحن نملك لغة عربية دقيقة ، وعندنا فرق بين « أنزل » ، و « نزّل » و « نزل » ، ولذلك فكلمة « نزل » تأتي للكتاب ، وتأتي للنازل بالكتاب يقول تعالى :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ويقول سبحانه :

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة الإسراء)

وكان بعض من المشركين قد تساءلوا : لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة ؟ وانظر إلى الدقة في الحيثية التي أراد الله بها نزول القرآن عندما قال الحق :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

وعندما نتأمل قول الحق : « كذلك » فهي تعني أنه سبحانه أنزل القرآن على الهيئة التي نزل بها لزوماً لتثبيت فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ولو نزل مرة واحدة لكان تكليفاً واحداً ، وأحداث الدعوة شتى وكل لحظة تحتاج إلى تثبيت ، فحين يأتي الحدث ينزل نجم قرآن فيعطي به الحق تثبيتاً للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأضرب مثلاً بسيطاً ـ ولله المثل الأعلى والمنزه عن كل تشبيه ـ أن أباً لك يريد حلة

جديدة أحضرها له مرة واحدة ، فتصادفه فرحة واحدة ، أم تحضر له في يوم ربطة العنق واليوم الذي يليه تحضر له القميص الجديد ، ثم تحضر له « البدلة » ؟. إذن لكل شيء يأتي له وقع وفرحة .

والحق ينزل القرآن منجماً لماذا ؟ « لنثبت به فؤادك » ومعنى « لنثبت به فؤادك » أي أنك ستتعرض لمنغصات شتى ، وهذه المنغصات الشتى كل منها يحتاج إلى تربيت عليك وتهدئة لك ، فيأتي القسط القرآني ليفعل ذلك وينير أمامك الطريق . « كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً » أي لم نأت به مرة واحدة بل جعلناه مرتباً على حسب ما يقتضيه من أحداث حتى يتم العمل بكل قسط ، ويهضمه المؤمن ثم نأتي بقسط آخر . ولنلحظ دقة الحق في قوله عن القرآن :

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

إن الكفار لهم اعتراضات ، ويحتاجون إلى أمثلة ، فلو أنه نزل جملة واحدة لأهدرت هذه القضية ، وكذلك حين يسأل المؤمنون يقول القرآن : يسئلونك عن كذا وعن كذا ، ولو شاء الله أن يُنزل القرآن دفعة واحدة ، فكيف كان يعطي هذه المسألة ؟ مادام سوف يسألون فلينتظر حتى يسألوا ثم تأتي الإجابة بعد ذلك .

إذن فهذا هو معنى « أنزل » أي أنه أُنزل من اللوح المحفوظ ، ليباشر مهمته في الوجود ، وبعد ذلك نزل به جبريل ، أو تنزل به الملائكة على حسب الأحداث التي جاء القرآن ليغطيها

ويقول الحق : « أنزل فيه القرآن هدى للناس » . ونعرف أن كلمة « هدى » معناها : الشيء الموصل للغاية بأقصر طريق ، فحين تضع إشارات في الطريق الملتبسة ، فمعنى ذلك أننا نريد للسالك أن يصل إلى الطريق بأيسر جهد . و« هدى » تدل على علامات لنهتدي بها يضعها الخالق سبحانه ، لأنه لو تركها للخلق ليضعوها لاختلفت الأهواء ، وعلى فرض أننا سلمنا بأنهم لا هوى لهم ويلتمسون الحق ، وعقولهم ناضجة ، سنسلم بكل ذلك ، ونتركهم كي يضعوا المعالم ، ونتساءل : وماذا عن الذي يضع تلك العلامات ، وبماذا يهتدي ؟

إذن فلابد أن يوجد له هدى من قبل أن يكون له عقل يفكر به ، كما أن الذى يضع هذا الهدى لابد ألا ينتفع به ، وعلى ذلك فالله سبحانه أغنى الأغنياء عن الخلق ولن ينتفع بأى شىء من العباد ، أما البشر فلو وضعوا « هدى » فالواضع سينتفع به ، ورأينا ذلك رأى العين ؛ فالذى يريد أن يأخذ مال الأغنياء ويمتص يخترع المذهب الشيوعى ، والذى يريد أن يمتص عرق الغير يضع مذهب الرأسمالية ، مذاهب نابعة من الهوى ، ولا يمكن أن يُبرأ أحد من فلاسفة المذاهب نفسه من الهوى . الرأسمالى يفتش فيميل لهوى نفسه ، الشيوعى يميل لنفسه ، ونحن نريد مَن يُشرع لنا دون أن ينتفع بما شرع ، ولا يوجد من تنطابق معه هذه المواصفات إلا الحق سبحانه وتعالى فهو الذى يشرع فقط ، وهو الذى يشرع لفائدة الخلق فقط .

والذى يدلك على ذلك أنك تجد تشريعات البشر تأتى لتنقض تشريعات أخرى ، لأن البشر على فرض أنهم عالمون فقد يغيب عنهم أشياء كثيرة ، برغم أن الذى يضع التشريع يحاول أن يضع أمامه كل التصورات المستقبلية ، ولذلك نجد التعديلات تجرى دائما على التشريعات البشرية ؛ لأن المشرع غاب عنه وقت التشريع حكم لم يكن فى باله ، وأحداث الحياة جاءت فلفتته إليه ، فيقول : التشريع فيه نقص ولم يعد مُلائِماً ، نعدله .

إذن فنحن نريد فى من يضع الهدى والمنهج الذى يسير عليه الناس بجانب عدم الانتفاع بالمنهج لابد أيضا أن يكون عالما بكل الجزئيات التى قد يأتى بها المستقبل ، وهذا لا يتأتى إلا فى إله عليم حكيم ، ولذلك قال تعالى :

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

ستعمون السبل ، هذا له هوى ، وهذا له هوى ، فتوجد القوانين الوضعية التى تبددنا كلٌ فى الأرض ، لأننا نتبع أهواءنا التى تتغير ولا نتبع منهج من ليس له نفع فى هذه المسألة ، ولذلك أقول : انظروا جيداً إلى أن الهدى الحق الذى لا أعترض عليه هو هدى الله ، « هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » . والقرآن فى جملته « هدى » والفرقان هو أن يضع فارقا فى أمور يلبس فيها الحق بالباطل ، فيأتى التنزيل الحكيم ليفرق بين الحق والباطل .

ويقول الحق : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » ، وحين نجد تعقيباً على قضية فافهم أن من شهد منكم الشهر فليصمه ولابد أن تقدر من شهد الشهر فليصمه إن كان غير مريض ، وإن كان غير مسافر ، لابد من هذا مادام الحق قد جاء بالحكم .

و« شهد » هنا تنقسم قسمين : « فمن شهد » أي من حضر الشهر وأدركه وهو غير مريض وغير مسافر أي مقيم ، « ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . ونريد أن نفهم النص بعقلية من يستقبل الكلام من إله حكيم ، إن قول الله : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »

تعقيب على ماذا ؟ تعقيب على أنه أعفى المريض وأعفى المسافر من الصيام ، فكان الله يريد بكم اليسر ، فكأنك لو خالفت ذلك لأردت الله معسراً لا ميسراً والله لا يمكن أن يكون كذلك ، بل أنت الذي تكون معسراً على نفسك ، فإن كان الصوم له قداسة عندك ، ولا تريد أن تكون أسوة فلا تفطر أمام الناس ، والتزم بقول الله « فعدة من أيام أخر » لأنك لو جنحت إلى ذلك لجعلت الحكم في نطاق التعسير ، فنقول لك : لا ، إن الله يريد بك اليسر ، فهل أنت مع العبادة أم أنت مع المعبود ؟ أنت مع المعبود بطبيعة الإيمان .

ومثال آخر نجده في حياتنا ، هناك من يأتي ليؤذن ثم بعد الأذان يجهر بقول « الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله » يقول : إن هذا حب لرسول الله . لكن هل أنت تحب الرسول إلا بما شرع ؟ إنه قد قال : (إذا سمعتم النداء فقولوا مثلما يقول المؤذن ثم صلوا علي)[1] فقد سمح الرسول صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن ولمن يسمع أن يصلي عليه في السر ، لا أن يأتي بصوت الأذان الأصيل وبلهجة الأذان الأصيلة ويصلي على النبي ، لأن الناس قد يختلط عليها ، وقد يفهم بعضهم أن ذلك من أصول الأذان . إني أقول لمن يفعل ذلك : يا أخي ، ألا توجد صلاة مقبولة على النبي إلا المجهور بها ؟ لا ، إن لك أن تصلي على النبي ، ولكن في سرك

(١) هذا الحديث أخرجه الإمامان البخاري ومسلم ، وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري .

وكذلك إن جاء من يفطر في رمضان لأنه مريض أو على سفر ، نقول له : استتر ، حتى لا تكون أسوة سيئة ، لأن الناس لا تعرف أنك مريض أو على سفر ، استتر كي لا يقول الناس : إن مسلماً أفطر . ويقول الحق : « ولتكملوا العدة » فمنها كي لا تفوتكم أيام من الصيام

انظروا إلى دقة الأداء القرآني في قوله : « ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » . إن العبادة التي نفهم أن فيها مشقة هي الصيام وبعد ذلك تكبرون الله ؛ لأن الحق سبحانه عالم أن عبده حين ينصاع لحكم أراده الله وفيه مشقة عليه مثل الصوم ويتحمله ، وعندما يشعر بأنه قد انتهى منه فإنه سبحانه عالم بأن العبد سيجد في نفسه إشراقاً يستحق أن يشكر الله الذي كلفه بالصوم ووفقه إلى أدائه ؛ لأن معنى « ولتكبروا الله » يعني أن تقول : « الله أكبر » وأن تشكره على العبادة التي كنت تعتقد أنها تضنيك ، لكنك وجدت فيها تجليات وإشراقات ، فتقول : الله أكبر من كل ذلك ، الله أكبر ؛ لأنه حين يمنعني يعطيني ، وسبحانه يعطي حتى في المنع ؛ فأنت تأخذ مقومات حياة ويعطيك في رمضان ما هو أكثر من مقومات الحياة وهو الإشراقات التي تتجلى لك ، وتذوق حلاوة التكليف وإن كان قد فوت عليك الاستمتاع بنعمة فإنه أعطاك نعمة أكثر منها .

وبعد ذلك فالنسق القرآني ليس نسقاً من صنع بشر ، فنحن نجد أن نسق البشر يقسم الكتاب أبواباً وفصولاً ومواد كلها مع بعضها ، ويُفصل كل باب بفصوله ومواده ، وبعد ذلك ينتقل لباب آخر ، لكن الله لا يريد الدين أبواباً ، وإنما يريد الدين وحدة متكاملة في بناء ذلك الإنسان . فيأتي بعد قوله : « ولتكبروا الله » بـ « ولعلكم تشكرون » ومعنى ذلك أنكم سترون ما يجعلكم تنطقون بـ « الله أكبر » ؛ لأن الله أسدى إليكم جميلاً ، وساعة يوجد الصفاء بين « العابد » وهو الإنسان و« المعبود » وهو الرب ، ويثق العابد بأن المعبود لم يكلفه إلا بما يعود عليه بالخير ، هنا يحسن العبد ظنه بربه ، فيلجأ إليه في كل شيء ، ويسأله عن كل شيء ، ولذلك جاء هنا قول الحق :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

ومادمت قد ذقت حلاوة ما أعطاك الحق من إشراقات صفائية فى الصيام فأنت ستتجه إلى شكره سبحانه ، وهذا يناسب أن يرد عليك الحق فيقول : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب » ونلحظ أن « إذا » جاءت ، ولم تأت « إن » فالحق يؤكد لك أنك بعدما ترى هذه الحلاوة ستشكر الله ؛ لأنه سبحانه يقول فى الحديث القدسى :

« ثلاثة لا ترد دعوتهم ، الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم ، يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين »[1] .

فمادام سبحانه سيجيب الدعوة ، وأنت قد تكون من العامة لا إمامة لك ، وكذلك لست مظلوما ، إذن تبقى دعوة الصائم . وعندما نقرأ فى كتاب الله كلمة « سأل » ستجد أن مادة السؤال بالنسبة للقرآن وردت وفى جوابها « قل »

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

وقوله

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

(١) هذا الحديث أخرجه الترمذى وابن ماجة والإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة

وقوله :

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾

(من الآية ٢١٥ سورة البقرة)

وكل « يسألونك » يأتي في جوابها « قل » إلا آية واحدة جاءت فيها « فقل » بالفاء ، وهي قول الحق :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة طه)

انظر إلى الدقة الأدائية . الأولى « قل » ، وهذه « فقل » ، فكأن « يسألونك عن الخمر والميسر » يؤكد أن السؤال قد وقع بالفعل . ولكن قوله : « يسألونك عن الجبال » ، فالسؤال هنا سيتعرض له ، فكأن الله أجاب عن أسئلة وقعت بالفعل فقال : « قل » ، والسؤال الذي سيأتي من بعد ذلك جاء وجاءت إجابته بـ « فقل » أي أعطاه جواباً مسبقاً ، إذن ففيه فرق بين جواب عن سؤال حدث ، وبين جواب عن سؤال سوف يحدث ، ليدلك على أن أحداً لن يفاجيء الله بسؤال ، « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً » .

لكن نحن الآن أمام آية جاء فيها سؤال وكانت الإجابة مباشرة : « وإذا سألك عبادي عني » ، فلم يقل : فقل : إني قريب ؛ لأن قوله « قل » هو عملية تطيل القرب ، ويريد الله أن يجعل القرب في الجواب عن السؤال بدون وساطة ، « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب » . لقد جعل الله الجواب منه لعباده مباشرة ، وإن كان الذي سيبلغ الجواب هو رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهذه هي قصة : لقد سألوا رسول الله . أقريب ربك فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟

لأن عادة البعيد أن يُنادى ، أما القريب فيُناجى ، ولكي يبين لهم القرب ، حذف كلمة « قل » ، فجاء قول الحق : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب » وما فائدة ذلك

القرب؟ إن الحق يقول . «أجيب دعوة الداع إذا دعان» ولكن ما الشروط اللازمة لذلك؟

لقد قال الحق . «وإذا سألك عبادي» ونعرف أن فيه فرقا بين «عبيد» و«عباد»، صحيح أن مفرد كل منهما «عبد»، لكن هناك «عبيد» و«عباد»، وكل من في الأرض عبيد لله، ولكن ليس كل من في الأرض عباداً لله . لماذا؟

لأن العبيد هم الذين يُقهرون في الوجود كغيرهم بأشياء، وهناك من يختارون التمرد على الحق، لقد أخذوا اختيارهم تمرداً، لكن العباد هم الذين اختاروا الانقياد لله في كل الأمور إنهم منقادون مع الجميع في أن واحدا لا يتحكم متى يولد، ولا متى يموت، ولا كيف يوجد، لكن العباد يختارون بأن الأمر الذي جعل الله لهم فيه اختياراً قالوا : صحيح يارب أنت جعلت لنا الاختيار، وقد اخترنا منهجك، ولم نترك هوانا ليحكم فينا، أنت قلت سبحانك «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ونحن قبلنا التكليف منك يارب

ولا يقول لك ربك، «افعل» إلا إذا كنت صالحاً للفعل ولعدم الفعل . ولا يقول لك «لا تفعل» إلا إذا كنت صالحاً لهذه ولهذه إذن فكلمة «افعل» و«لاتفعل» تدخل في الأمور الاختيارية، والحق قد قال «افعل» و«لاتفعل» ثم ترك أشياء لا يقول لك فيها «افعل» و«لا تفعل»، فتكون حراً في أن تفعلها أو لا تفعلها، سميها «منطقة الاختيار المباح»، فهناك اختيار قُيِّد بالتكليف بافعل ولا تفعل، واختيار بقي لك أن تفعله أو لا تفعله ولا يترتب عليه ضرر، فالذي أخذ الاختيار وقال يارب أنت وهبتني الاختيار، ولكني تركت لك يا واهب الاختيار أن توجه هذا الاختيار كما تحب، أنا سأتنازل عن اختياري، وما تقول لي «افعل» سأفعله، والذي تقول لي «لا تفعله» لن أفعله

إذن فالعباد هم الذين أخذوا منطقة الاختيار، وسلموها لمن خلق فيهم الاختيار، وقالوا لله وإن كنت مختاراً إلا أنني أمنتك على نفسي إن العباد هم الذين ردوا أمر الاختيار إلى من وهب الاختيار ويصفهم الحق بقوله

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

هؤلاء هم عباد الرحمن ، ولذلك يقول الحق للشيطان في شأنهم :

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الحجر)

إذن فللشيطان سلطان على مطلق عبيد ؛ لأنه يدخل عليهم من باب الاختيار ، ولم تأت كلمة « عبادي » لغير هؤلاء، إلا حين تقوم الساعة ، ويحاسب الحق الذين أضلوا العباد فيقول

﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى ﴾

(من الآية ١٧ سورة الفرقان)

ساعة تقوم الساعة لا يوجد لاختيار ويصير الكل عباداً ؛ حتى الكفرة لم يعد لهم اختيار . وحين يقول الحق « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » فالعباد الذين التزموا لله بالمنهج الإيماني لن يسألوا الله إلا بشيء لا يتنافى مع الإيمان وتكاليفه

والحق يقول « فليستجيبوا لي » ؛ لأن الدعاء يطلب جواباً ، ومادمت تطلب إجابة الدعاء تأدب مع ربك ؛ فهو سبحانه قد دعاك إلى منهجه فاستجب له إن كنت تحب أن يستجيب الله لك « فليستجيبوا لي » ، وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه وتعالى في كلمة « الداع » ولا يتركها مطلقة ، فيقول . « إذا دعان » فكأن كلمة « دعا » تأتي ويدعو بها الإنسان ، وربما اتجه بالدعوة إلى غير القادر على الإجابة ، ومثال ذلك قول الحق :

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ .. (١٩٤)﴾

(سورة الأعراف)

وقوله الحق :

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ .. (١٤)﴾

(سورة فاطر)

فكأن المدعى قد يأخذ صفة يدعو بها غير مؤهل للإجابة ، والحق هنا قال « أجيب دعوة الداع إذا دعان » أما إذا ذهب مدعا غير قادر على الوفاء، فالله ليس مسئولاً عن إجابة دعوته

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يعلمنا أن الإنسان يدعو بالخير لنفسه ، وأنت لا تستطيع أن تحدد هذا الخير ، لأنك قد تنظر إلى شيء على أنه الخير وهو شر ، وما دمت تدعو فأنت تظن أن ذلك هو الخير ، إذن فملحظية الأصل في الدعاء هي أنك تحب الخير ، ولكنك قد تخطىء الطريق إلى فهم الخير أو الوسيلة إلى الخير ؛ أنت تحب الخير لا جدال ، لذلك تكون إجابة ربك إلى دعائك هي أن يمنع إجابة دعوتك إن كانت لا تصادف الخير بالنسبة لك ، ولذلك يجب ألا تفهم أنك حين لا تجاب دعوتك كما رجوت وطلبت أن الله لم يستجب لك فتقول : ماذا لم يستجب الله لي؟. لا لقد استجاب لك ، ولكنه نحّى عنك حمق الدعوة أو ما تجهل بأنه شر لك. فالذي تدعوه هو حكيم ؛ يقول : « أنا سأعطيك الخير ، والخير الذي أعلمه أنا فوق الخير الذي تعلمه أنت ، ولذلك فمن الخير لك ألا تُجاب إلى هذه الدعوة » .

واضرب هذا مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ : قد يطلب منك ابنك الصغير أن تشتري له مسدساً ، وهو يظن أن مسألة المسدس خير ، لكنك تؤخر طلبه وتقول له : فيما بعد سأشتري لك المسدس إن شاء الله ، وتماطل ولا تأتيه بالمسدس ، فهل عدم مجيئك بالمسدس له على وفق ما رأى هو منع للخير عنه ؟

إن منعك للمسدس عنه فيه عائدة وصيانة وخير للابن

إذن، فالخير يكون دائماً على مقدار الحكمة في تناول الأمور ، وأنت تمنع المسدس عن ابنك ، لأنك قدرت أنه طفل ويلهو مع رفاقه وقد يتعرض لأشياء تخرجه عن طوره وقد يتسبب في أن يؤديه أحد ، وقد يؤذى هو أحداً بمثل هذا المسدس

وكذلك يكون حظك من الدعاء لا يُستجاب لأن ذلك قد يرهقك أنت والحق سبحانه وتعالى يقول

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ولذلك يقول سبحانه :

﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

والعلماء يقولون إن الدعاء إن قصدت به الذلة والعبودية يكون جميلاً ، أما الإجابة فهي إرادة الله ، وأنت إن قدرت حظك من الدعاء في الإجابة عليه فأنت لا تُقدر الأمر . إن حظك من الدعاء هو العبادة والذلة لله ، لأنك لا تدعو إلا إذا اعتقدت أن أسبابك كبشر لا تقدر على هذه ، ولذلك سألت مَنْ يقدر عليها ، وسألت مَنْ يملك ، ولذلك يقول الله في الحديث القدسي

« مَنْ شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين »[1]

ونتعلم ما علّمَهُ رسول الله لعائشة أم المؤمنين لقد سألت رسول الله إذا صادفت

---

(١) أخرجه البخاري في تاريخه

ليلة القدر فقالت . إن أدركتني هذه الليلة بماذا أدعو ؟

انظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد علّم أم المؤمنين عائشة أن تدعو بمقاييس الخير الواسع، فقال لها : «قولى : اللهم إنك تحب العفو فاعف عنى»[1]

ولا يوجد جمال أحسن من العفو ، ولا يوجد خير أحسن من العفو ، فلا أقول : أعطني ، أعطني ؛ لأن هذا قد ينطبق عليه قول الحق

﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

فمَنْ يقول : لقد دعوت ربي فلم يستجب لي ، نقول له : لا تكن قليل الفطنة عمن الخير لك أنك لا تُجاب إلى ما طلبت، فالله يعطيك الخير في الوقت الذي يريده

وبعد ذلك يترك الحق لبعض قضايا الوجود في المجتمع أن تجيبك إلى شيء ثم يتبين لك منه الشر ، لتعلم أن قبض إجابته عنك كان هو عين الخير ، ولذلك فإن الدعاء له شروط ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يدعونا إلى الطيب من الرزق .

فقد جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة قوله : « ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء : يا رب يا رب ومطعمه حرام وملبسه حرام وغُذي بالحرام فأنّى يستجاب له »[2] . إن الرسول يكشف أمامنا كيف يفسد جهاز الإنسان الذي يدعو ، لذلك تعدم إجابة الدعوة إما لأن جهاز الدعوة جهاز فاسد ، وإما لأنك دعوت بشيء تظن أن فيه الخير لك لكن الله يعلم أنه ليس كذلك ، ولهذا يأخذ بيدك إلى مجال حكمته ، ويمنع عنك الأمر الذي يحمل لك الشر

وشيء آخر ، قد يحجب عنك الإجابة ، لأنه إن أعطاك ما تحب لقد أعطاك في خير الدنيا الفانية ، وهو يحبك فيُبقى لك الإجابة إلى خير الباقية ، وهذه ارتقاءات

(١) هذا لفظ الترمذي ، وقال حديث حسن صحيح ، وأخرجه الحاكم في مستدركه ، وقال صحيح على شرط الشيخين

(٢) رواه مسلم في صحيحه

لا ينالها إلا الخاصة ، وهناك ارتقاءات أخرى تتمثل في أنه ما دام الدعاء فيه ذلة وخضوع ، فقد يطبق الله عليك ما جاء في الحديث القدسي : « ينزل الله تعالى في السماء الدنيا فيقول : مَنْ يدعوني فأستجيب له أو يسألني فأعطيه ؟ ثم يقول : مَنْ يقرض غير عديم ولا ظلوم »[1]

ولأن الإنسان مرتبط بمسائل يحبها ، فما دامت لم تأت فهو يقول دائماً يا رب . وهذا الدعاء يحب الله أن يسمعه من مثل هذا العبد ، فيقول : إن من عبيدي من أحب دعاءهم فأنا أبتليهم ليقولوا : يا رب . إن الإنسان المؤمن لا يجعل حظه من الدعاء أن يجاب ، إنما حظه من الدعاء ما قاله الحق :

﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ .. ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

إن معنى الربوبية والمربوبية أن تقول دائماً : « يا رب » . وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - الأب قد يعطي ابنه مصروف اليد كل شهر ، والابن يأخذ مصروف اليد الشهري ويغيب طوال الشهر ولا يحرص على رؤية والده . لكن الأب حين يعطي مصروف اليد كل يوم ، فالابن ينتظر والده ، وعندما يتأخر الوالد قليلاً ، فإن الابن يقف لينتظر والده على الباب ؛ لقد ربط الأب ابنه بالحاجة ليأنس برؤياه .

والحق سبحانه يضع شرطاً للاستجابة للدعاء ، وهو أن يستجيب العبد لله سبحانه وتعالى فيما دعاه إليه . عندئذ سيكون العباد أهلاً للدعاء ، ولذلك قال الحق في الحديث القدسي : « مَنْ شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين »[2] .

ومثال ذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار ، قال له جبريل : ألك حاجة ؟ لم ينف أن له حاجة ، فلا يوجد استكبار على البلوى ، ولكنه قال

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي

(٢) رواه البخاري في تاريخه

لجبريل : أما إليك فلا ، صحيح أن له حاجة إنما ليست لجبريل ، لأنه يعلم جيدا أن نجاته من النار المطبوعة على أن تحرق وقد ألقى فيها ، هى عملية ليست لخلق أن يتحكم فيها ولكنها قدرة لا يملكها إلا من خلق النار . فقال لجبريل : أما إليك فلا ، وعلمه بحالى يغنى عن سؤالى . لذلك جاء الأمر من الحق :

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

ولنتعلم من الإمام على كرم الله وجهه حين دخل عليه إنسان يعوده وهو مريض فوجده يتأوه ، فقال له . أتتأوه وأنت أبو الحسن قال : أنا لا أتشجع على الله

إذن فقوله « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى » تعنى ضرورة الاستجابة للمنهج ، « وليؤمنوا بى » أى أن يؤمنوا به سبحانه إلها حكيما وليس كل من يسأل يستجاب له بسؤاله نفسه ؛ لأن الألوهية تقتضى الحكمة التى تعطى كل صاحب دعوة خيراً يناسب الداعى ، لا بمقاييسه هو ولكن بمقاييس من يجيب الدعوة

ويذيل الحق الآية بقوله : « لعلهم يرشدون » فما معنى « يرشدون » ؟ إنه يعنى الوصول إلى طريق الخير وإلى طريق الصواب . وهذه الآية جاءت بعد آية « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس » كى تبين لنا أن الصفائية فى الصيام تجعل الصائم أهلاً للدعاء ، وقد لا يكون حظك من هذه الدعوة الإجابة ، وإنما يكون حظك فيه العبادة ، ولكى يبين لنا الحق بعض التكليفات الإلهية للبشر فهو يأتى بهذه الآية التى يبيّن بها ما يحل لنا فى رمضان

يقول الحق .

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

بعد أن أورد لنا الحق آداب الدعاء ومزجها وأدخلها في الصوم، يشرح لنا سبحانه أدب التعامل بين الزوجين في أثناء الصيام، ويأتي هذا التداخل والامتزاج بين الموضوعات المختلفة في القرآن لنفهم منه أن الدين وحدة متكاملة تخاطب كل الملكات الإنسانية، ولا يريد سبحانه أن تظهر أو تطغى ملكة على ملكة أبداً.

يقول الحق: «أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم» وساعة تسمع «أحل لكم» فكأن ما يأتي بالتحليل كان محرماً من قبل. والذي أحله الله في هذا القول كان محرماً عليهم في الصيام، لأن الصيام إمساك بالنهار عن شهوة البطن وشهوة الفرج، فكأنه قبل أن تنزل هذه الآية كان الرفث إلى النساء في ليل الصيام حراماً، فقد كان الصيام في بدايته إمساكاً عن الطعام من قبل الفجر إلى لحظة الغروب، ولا اقتراب بين الزوجين في الليل أو النهار. فكان الرفث في ليلة الصيام محرماً. وكان يحرم

عليهم الطعام والشراب بعد صلاة العشاء وبعد النوم حتى يفطروا .

وجاء رجل وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ذهبت فلم أجد أهلي قد أعدوا لي طعاما ، فنمت ، فاستيقظت يا رسول الله فعلمت أني لا أقدر أن آكل ولذلك فأنا أعاني من التعب ، فأحل الله مسألتين : المسألة الأولى هي : الرفث إلى النساء في الليل ، والمسألة الثانية قوله الحق : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » أي كلوا واشربوا إلى الفجر حتى ولو حصل منكم نوم ، وهذه رخصة جديدة لكل المسلمين مثلها مثل الرخصة الأولى التي جاءت للمسافر أو المريض ، كانت الرخصة الأولى بخصوص مشقة الصوم على المسافر أو المريض ، أما الرخصة الجديدة فهي عامة لكل مسلم وهي تحقيق لمفهوم الحكم .

وقد ترك الحق هذا الترخيص مؤجلا بعض الشيء لكي يدرك كل مسلم مدى التخفيف ، لأنه قد سبق له أن تعرض إلى زلة المخالفة ، ورفعها الله عنه ، وانظر للآية القرآنية وهي تقول : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم » .

كلمة « تختانون أنفسكم » هذه تعني أن الإنسان لم يقو على الصوم كل الوقت عن شهوة الفرج ، فعندما تركك تختان نفسك ، ثم أنزل لك الترخيص ، هنا تشعر بفضل الله عليك .

إذن فبعض الرخص التي يرخص الله لعباده في التكاليف . رخصة تأتي مع التشريع ، ورخصة تخفيفية تأتي بعد أن يجيء التشريع ، ليبين الحق أنه لو لم يفعل ذلك لتعرضتم للخيانة والحرج « علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم » وانظر الشجاعة في أن عمر رضي الله عنه ، يذهب إلى النبي ويقول له : أنا يا رسول الله ذهبت كما يذهب الشاب ، والذي جاع أيضا يقول للرسول عليه الصلاة والسلام: إنه جاع ، وجاء التشريع ليناسب كل المواقف ، فمسك نهاراً عن شهوتي البطن والفرج ، وليلاً أحل الله لنا شهوتي البطن والفرج ، وهذا التخفيف إنما جاء بعد وقوع الأحيان ليدلنا على رحمة الله في أنه قدر ظرف الإنسان . « أحل لكم ليلة

الصيام الرفث إلى نسائكم »، و« الرفث » هو الاستمتاع بالمرأة ، سواء كان مقدمات أو جماعاً « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا عملية التحام الرجل والمرأة بكلمة الله ، و« اللباس » هو الذي يوضع على الجسم للستر ، فكأن المرأة لباس للرجل والرجل لباس للمرأة واللباس أول مدلولاته ستر العورة . فكأن الرجل لباس للمرأة أي يستر عورتها ، والمرأة تستر عورته ، فكأنها عملية تبادلية ، فهذ يحدث في الواقع فهما يلتفان في ثوب واحد ، ولذلك يقول : « باشروهن » أي هات البشرة على البشرة .

إذن، فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعلمنا أن المرأة لباس ساتر للرجل ، والرجل لباس ساتر للمرأة ، ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يظل هذا اللباس ستراً بحيث لا يفضح شيئاً من الزوجين عند الآخرين ولذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام يحذرنا أن يحدث بين الرجل وأهله شيء بالليل وبعد ذلك تقول به المرأة نهاراً ، أو يقول به الرجل ، فهذا الشيء محكوم بقضية الستر المتبادل

« هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » . وما دام هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، فيكون من رحمة التشريع بالإنسان وقد ضَمَّ الرجلَ والمرأة لباس واحد وبعد ذلك نطلب منهما أن يمتنعا عن النواحي .

إذن، فقوله : « تختانون أنفسكم » كان مسألة حتمية طبيعية ، ولذلك قال الحق بعدها : « فتاب عليكم » ومعنى « تاب عليكم » هو إخبار من الله بأنه تاب ، وحين يخبر الله بأنه تاب ، أي شرع لهم التوبة ، والتوبة كما نعرف تأتي على ثلاث مراحل يشرع الله التوبة أولاً ، ثم تتوب أنت ثانياً ، ثم يقبل الله التوبة ثالثاً ، «وعفا عنكم » لأنه ما دام قد جعل هذه العملية لحكمة إبراز سمو التشريع في التخفيف ، فيكون القصد أن تقع هنا وأن يكون العفو منه ـ سبحانه ـ .

ويقول الحق « فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم » فلم يشأ أن يترك المباشرة على عماها، فقال: أنت في المباشرة لابد أن تتذكر ما كتبه الله، وما كتبه الله

هو الإعفاف بهذا اللقاء والإنجاب ، فالمرأة تقصد إعفاف الرجل حتى لا تمتد عينه إلى امرأة أخرى ، وهو يقصد أيضاً بهذه العملية أن يعفها حتى لا تنظر إلى غيره ، والله يريد الإعفاف في تلك المسألة لينشأ الطفل من هذا اللقاء على أرض صلبة من الطهر والنقاء .

وحتى لا يتشكك الرجل في بعض منه هم أبناؤه ، والحق سبحانه يريد طهارة الإنسان ، فكل نسل يجب أن يكون منسوباً عن من استمتع ، وبعد الاستمتاع ، عليه أن يتحمل التبعة ، فلا يصح لمسلم أن يستمتع ويتحمل سواه تبعة ذلك ، فالمسلم يأخذ كل أمر بحقه . « فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم » أي ما كتب الله من أن الزواج للإعفاف والإنجاب . وفي ذلك طهارة لكل أفراد المجتمع . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم .

« وفي بضع أحدكم صدقة . قالوا يا رسول الله : أيأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر »[١]

ويتابع الحق : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود » أي إلى أن يتضح لكم الفجر الصادق . وكان هناك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أذانان للفجر ، كان بلال يؤذن بليل ، أي وما زال الليل موجوداً ، وكان ابن أم مكتوم يؤذن في اللحظة الأولى من الفجر ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإن سمعتم أذان ابن أم مكتوم فأمسكوا » . لكن أحد الصحابة وهو عدي بن حاتم قال : أنا جعلت بجواري خيطاً أبيض وخيطاً أسود ، وأظل آكل حتى أتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود . فقال له : إنك لعريض القفا (أي قليل الفطنة) فالمراد هنا بياض النهار وسواد الليل .

ويتابع الحق : « ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد » . لقد كانوا يفهمون أن المباشرة في الليل حسب ما شرع الله لا تفسد

---

(١) رواه مسلم وأبو داود ، وأحمد .

الصوم . ولكن كان لابد من وضع آداب للسلوك داخل المسجد أو لآداب هذه الاعتكاف التي سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم في العشر الأواخر من رمضان هذا أوضح الحق أن حلال المباشرة بين الرجل وزوجته هو لغير المعتكف وفي غير ليل رمضان . أما المعتكف في المسجد فذلك الأمر لا يحل له ، ومعنى الاعتكاف هو أن تحصر حركتك في زمن ما عن وجودك في مكان ما ، ولذلك يقولون : إن فلان معتكف هذه الأيام ، أي حبس حركته في زمن ما في مكان ما ، وليس معنى ذلك أن الاعتكاف مقصور على العشر الأواخر من رمضان فقط ، ولكن للمسلم أن يعتكف في بيت الله في أي وقت .

واختلف العلماء في الاعتكاف ، بعضهم اشترط أن يكون المرء صائماً حين يعتكف ، واشترطوا أيضاً أن يكون الاعتكاف لمدة معينة ، وأن يكون بالمسجد ، وقالوا : إن أردت الاعتكاف ، فاحصر حركتك في مكان هو بيت الله .

وكثير من العلماء يقولون : إنك إذا دخلت المسجد تأخذ ثواب الاعتكاف مادمت قد نويت سنة الاعتكاف ، بشرط ألا تتكلم في أي أمر من أمور الدنيا ؛ لأنك حبست من حركتك المطلقة في الأرض إلى بيت الله في تلك اللحظة ، فحصن لحظاتك لله . ولذلك حينما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً ينشد ضالته في المسجد ، أي شيء قد ضاع منه ، فقال له : « لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تبن لهذا »[1] .

لماذا ؟ لأن المسجد مكان للعبادة ، ولذلك أقول لمن يحدثني في المسجد بأي شيء يتعلق بحركة الحياة : « أبشر فإنه لن ينفع » ؛ لأنك دخلت المسجد للعبادة فقط ، إن لحظة دخولك المسجد هي لحظة جئت فيها لتقترب من ربك وتناجيه ، وتعيش في حضن عنايته ، فلماذا تأتي بالدنيا معك ؟ وليكن لنا في أحد الصحابة قدوة حسنة ؛ كان يقول : كنا نخلع أمر الدنيا مع نعالنا . وزاد صحابي آخر فقال له : وزد يا أخي أننا نترك أقدارنا مع نعالنا .

انظر إلى الدقة ، إن الصحابي المتبع لا يخلع الدنيا مع نعله فقط على باب المسجد ، ولكن يخلع أيضاً قدره في الدنيا ، فيمكن أن تأخذك الدنيا ساعات اليوم

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبوداود والنسائي وابن ماجه .

الكثيرة ، والمسجد لن يأخذ منك إلا الوقت القليل ، فضع قدرك مع نعلك خارج المسجد ، وادخل بلا قدر إلا قدر إيمانك بالله واجلس في المكان الذي تجده خالياً، فلا تتخطى الرقاب لتصل إلى مكان معين في المسجد . فأنت تدخل بعبودية لله وقد يأتي مجلسك بجانب مَنْ يخدمك ، والصغير يقعد بجانب الكبير ، ولا تلحظ لك قدراً إلا قدرك عند الله .

إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجلس حيث ينتهي به المجلس أي عندما يجد مكاناً له ، وهذا خلاف زماننا حيث يحجز إنساناً مكاناً لإنسان آخر بالسجادة ، وقد يدخل إنسان ليتخطى الرقاب ، ويجلس في الصف الأول وهو لا يعلم أن الله قد صف الصفوف قبل أن يأتي هو إلى المسجد وما دمت ستترك أقدارنا فلا تقل أين سأجلس وبجوار مَنْ ؟ بل اجلس حيث ينتهي بك المجلس ولا تتخطى الرقاب . وانو الاعتكاف ولا تتكلم في أي أمر من أمور الدنيا حتى لا تدخل في دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يبارك الله لك في الضالة التي تنشدها وتطلبها » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف في المسجد في العشر الأواخر من رمضان ، فهل معنى ذلك أن الاعتكاف لا يصح إلا في المساجد ؟ لا ، إن الاعتكاف يصح في أي مكان ، ولكن الاعتكاف بالمسجد هو الاعتكاف الكامل ؛ لأنك تأخذ فيه بالزمان والمكان معاً .

« ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها » ومعنى « الحد » هو الفاصل المانع من اختلاط شيء بشيء ، وحدود الله هي محارمه . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

« ... ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا إن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله تعالى في أرضه محارمه »[1] .

إذن، فالمحارم هي التي يضع الله لها حداً فلا تتعداه . ولك أن تلحظ أنه ساعة ينهى

---

(1) هذا الحديث أخرجه الإمام البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن النعمان بن بشير وهو هنا جزء من الحديث

الله عن شيء فهو يقول : « فلا تقربوها » وساعة يأمر بأمر يقول سبحانه : « فلا تعتدوها » . وفى ذلك رحمة من الله بك أيها المكلف .

فلا تجعل امرأتك تأتيك وأنت فى معتكفك ؛ فقد تكون جميلة ، صحيح أنك لا تنوى أن تفعل أى شيء ، لكن عليك ألا تقرب أسباب النواهى ، ومثال ذلك تحريم الخمر لقد أمر الحق باجتنابها أى ألا تقرب حتى مكان الخمر ؛ لأن الاقتراب قد يُزين لك أمر احتسائها ، إذن فلكى تمنع نفسك من تلك المحرمات فعليك ألا تقرب النواهى . وفى الأوامر عليك ألا تتعداها

ويذيل الحق الآية بقوله : « كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » . والآيات هى العجائب ، وكل آية هى شيء عجيب لافت ، لذلك نقول : هذه آية فى الحسن ، وتلك آية فى الجمال ، وقد تطلق الآية أيضا على السمة ؛ لأن السمة أو العلامة هى التى تلفتنا إلى الشيء ، فيكون ما جاء بالآية داخلا فى معنى قوله الحق : « تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » .

ولقد أوضحت هذه الآية والآيات السابقة عليها ، تشريعات الصيام والاستثناء من التشريع رفعا للحظر ودفعا للمشقة بعد أن تقع ، وكل ذلك ليستوفى التشريع كل مطلوبات الله من المشرّع له . وحين يأخذ كل إنسان ذلك البيان الوافى من ربه ويسيطر به على حركة حياته فى ضوء منهج الله يكون قد اتقى . والتقوى - كما نعلم - ليست للنار فقط ، ولكنها اتقاء لكل مشاكل الحياة ؛ فالذى يجعل الحياة مليئة بالمشاكل هو أننا نأخذ بالقوانين التى نسنها لأنفسنا ونعمل بها ، ولكن إذا أحدث تقنين الله لنا فمعنى ذلك أنه نفى المشاكل . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة طه)

أى أن حياته تمتلىء بالهموم والمشاكل ، لأنه يخالف منهج الله . وإذا لم تنشأ المشاكل مع المخالفات نقال الناس : خالفنا منهج الله وفلحنا ، لذلك كان لابد أن توجد المشاكل لتنبه أن منهج الله يجب أن يسيطر . وحين يتمسك الناس بمنهج

الله ، لن تأتى لهم المشاكل بإذن الله .

وانظر إلى دقة الأداء القرآنى فى ترتيب الأحكام بعضها على بعض . فالإنسان المخلوق لله فى الأرض المسخرة له بكل ما فيها ، له حياة يجب أن يحافظ عليها وتبقى الحياة ببقاء الرزق فى الاقتيات من مأكل ومشرب ، وكذلك يبقى النوع الإنسانى بالتزاوج . وتكلم الله فى رزق الاقتيات ، فجعله للناس جميعا عندما قال :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة البقرة)

وتكلم سبحانه مخاطباً المؤمنين فى شأن هذا الرزق ، فقال :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة البقرة)

وبعد ذلك شاء الله أن يديم على المؤمنين به قضية التكليف فحرَّم عليهم الطعام والشراب والنكاح فى أيام رمضان ، وهى حلال فى غير رمضان ، وأحلها الله فى ليل رمضان . وقد كان قد ترشد أن كل حركة فى الحياة هدفها بقاء الحياة ، وإذا كان بقاء الحياة متوقف على الطعام ، وهو أمر ضرورى لكل إنسان ، وإذا كانت الحياة تمتد وتتوالى باستبقاء النوع ، فيبلغ الرجل وينضج ويصير أهلاً للإخصاب ، وتبلغ المرأة وتنضج وتصير أهلا للحمل ، فإذا كانت كل المسائل السابقة لازمة للجميع ، فلابد من تشريع ينظم كل ذلك

إن التشريع يسمح لك أن تأكل مما تملك ، أو تأكل مما لا مالك له ، كنبات الأرض غير المملوكة لأحد ، إلا أنك قبل أن تأكل لابد أن تنظر فى الطعام لتعرف هل هو مما أحل الله أم لا ؟ والتشريع لا يسمح لك أن تأكل من نبات الأرض المملوكة لغيرك ، ويحرم عليك أن تصطاد حيوانات مملوكة لغيرك ، فالتشريع يحترم الجهد

الذي تحرك به مالك الأرض ليزرع النبات أو ليربي الحيوان ، فلا تقل : إن ذلك النبات في الأرض وأنا آكل منه ، أو أن ذلك حيوان موجود أمامي وأنا اصطدته .

إن الحق يضع التشريع لينظم الحركة في المال المملوك للغير بعد أن نظم الحركة في المال غير المملوك ولطعام غير المملوك ، وإذا سبقك إلى المال غير المملوك أو الطعام غير المملوك إنسان ، أو تحرك إنسان بحركة في الوجود فاستنبط مالاً صارت هناك قضية أخرى لا تتعلق بذات المأكول ، ولكن بملكية المأكول ، فقد بيّن الله سبحانه أن كل عمليات الكسب في الحياة عملية لا يمكن أن تستقل بها أنت ، فلابد من اختلاط حركة الآخرين معك ، فأنت لا تأكل إلا مما يكون في أيديهم ، وهم لا يأكلون إلا مما يكون في يدك

فالفلاح مثلاً يبذر البذور ، ولكنه يحتاج إلى الصانع الذي يصنع له الفأس ، ويصنع له المحراث ، ويصنع له الساقية ، والذي يصنع ذلك يحتاج إلى من يعلمه ، ويحضر له المواد الخام ، إذن فلو سلسلت الأشياء التي توصلك إلى الطعام لوجدت حركات الكون كلها تخدم هذه المسألة . وهكذا نجد أن الأكل من المال المتداول أمر شائع بين البشر ، ويريد الله أن يضبطه بنظام فقال سبحانه :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾

وما دامت أموالي فلماذا لا آكلها ؟ إن الأمر هنا للجميع ، والأموال مصانة للجميع ، فالمال ساعة يكون ملكاً لي ، فهو في الوقت نفسه يكون مالاً ينتفع به الغير

إذن، فهو أمر شائع عند الجميع ، لكن ما الذى يحكم حركة تداوله ؟ إن الذى يحكم حركة تداوله هو الحق الثابت الذى لا يتغير ، ولا يحكمه الباطل . وما معنى الباطل ، والحق ؟ إن الباطل هو الزائل ، وهو الذى لا يدوم ، وهو الذاهب . والحق هو الثابت الذى لا يتغير فلا تأكل بالباطل ، أى لا تأكل مما يملكه غيرك إلا بحق أثبته الله بحكم فلا تسرق ، ولا تغتصب ، ولا تخطف ، ولا ترتش ، ولا تكن خائناً فى الأمانة التى أنت موكل بها ، فكل ذلك إن حدث تكن قد أكلت المال بالباطل .

وحين تأكل بالباطل فلن تستطيع أنت شخصياً أن تحمى غيرك مما أبحته لنفسك ، وسيأكل غيرك بالباطل أيضاً . وما دمت تأكل بالباطل وغيرك يأكل بالباطل ، هنا يصير الناس جميعاً نهباً للناس جميعاً . لكن حين يُحكّم الإنسان بقضية الحق، فأنت لا تأخذ إلا بالحق ، ويجب على الغير ألا يعطيك إلا بالحق ، وبذلك تخضع حركة الحياة كلها لقانون ينظم الحق الثابت الذى لا يتغير ، لماذا ؟ لأن الباطل قد يكون له علو ، لكن ليس له استقرار ، فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ (سورة الرعد)

وساعة ترى مطراً ينزل فى مسيل وواد ، فأنت تجد هذا المطر قد كنس كل القش والقاذورات وجرفها فطفت فوق الماء وبها رغوة ، وكذلك فأنت عندما تدخل الحديد فى النار تجده يسيل ويخرج منه الخبث ويطفو الخبث فوق السطح ، وهكذا نجد أن طفو الشيء وعلوه على السطح لا يعنى أنه حق ، إنه سبحانه يعطينا من الأمور المحسة ما نستطيع أن نميز من خلاله الأمور المعنوية ، وهكذا ترى أن الباطل قد يطفو ويعلو

إلا أنه لا يدوم، بل ينتهي، والمثل العامي يقول: «يفور ويغور».

إن الله يريد أن تكون حركة حياتنا نظيفة شريفة، حركة كريمة فلا يدخل في بطنك إلا ما عرقت من أجله، ويأخذ كل إنسان حقه. وقبل أن يفكر الإنسان في أن يأكل عليه أن يتحرك ليأكل، لا أن ينتظر ثمرة حركة الآخرين، لماذا؟ لأن هذا الكسل يشيع الفوضى في الحياة. وحين نرى إنساناً لا يعمل ويعيش في راحة ويأكل من عمل غيره فإن هذا الإنسان يصبح مثلاً يحتذي به الآخرون فيقنع الناس جميعا بالسكون عن الحركة ويعيشون عالة على الآخرين. ويترتب على ذلك توقف حركة الحياة، وهذا باطل زائل، وبه ستنتهي ثمار حركة المتحرك، وهنا يجوع الكل.

إن الحق يريد للإنسان أن يتحرك ليشبع حاجته من طعام وشراب ومأوى. وبذلك تستمر دورة الحياة. إنه سبحانه يريد أن يضمن لنا شرف الحركة في الحياة بمعنى أن تكون لك حركة في كل شيء تنتفع به؛ لأن حركتك لن يقتصر نفعها عليك، ولكنها سلسلة متداخلة من الحركات المختلفة، وحين تشيع أنت شرف الحركة فالكل سيتحرك نحو هذا الشرف، لكن الباطل يتحقق بعكس ذلك، فأنت حين تأكل من حركة الآخرين تشيع الفوضى في الكون.

وعلى هذا فالحركة الحلال لا يكفي فيها أن تتحرك فقط، ولكن يجب أن ننظر إلى شرف الحركة فلا تكون في الباطل، لأن الذي يسرق إنما يتحرك في سرقته، ولكن حركته في غير شرف وهي حركة حرام. إذن كل مسروق في الوجود نتيجة حركة باطلة، وكذلك الغصب، والتدليس، والغش، وعدم الأمانة في العمل، والخيانة في الوديعة، وإنكار الأمانة، كل ذلك باطل، وكل حركة في غير ما شرع الله باطل، حتى اللهو هو حركة في غير ما شرع الله، كل ذلك باطل.

ويقول لنا الحق سبحانه: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ أي إياكم أن تأكلوها بالباطل ثم تدلوا بها إلى الحكام ليبرروا لكم أن هذا الباطل هو حق لكم فهناك أناس كثيرون يرون في حكم الحاكم مبرراً لأن يفعلوا مثله. وهذا أمر خاطئ؛ لأن كل إنسان مسئول عن حركته

لا تقل إن الحاكم قد شرع أعمالاً وتلقى عليه تبعة أفعالك ، ومثال ذلك تلك الأشياء التي نقول عليها إنها فنون جميلة من رقص وغناء وخلاعة ، من إباحة الحكومات لها وعدم منعها لها هل ذلك يجعلها حلالاً ؟ لا ؛ لأن هناك فرقاً بين الديانة المدنية والديانة الربانية . ولذلك نجد أن الفساد إنما ينشأ في الحياة من مثل هذا السلوك

إن الذين يشتغلون بعمل لا يقره الله منهم يأكلون أموالهم بالباطل ، ويُدخلون في بطون أولادهم الأبرياء مالاً باطلاً ، وعلى الذين يأكلون من مثل هذه الأشياء أن ينتبهوا جيداً إلى أن الذي يقومهم ، إنما أدخل عليهم أشياء من هذا الحرام والباطل ، وعليهم أن يذكروا ربهم وأن يقولوا : لا لن نأكل من هذا المصدر ؛ لأنه مصدر حرام وباطل . ونحن قد خلقنا الله وهو سبحانه متكفل برزقنا

وإن أسمع كثيراً عن يقولون : إن هذه الأعمال الباطلة أصبحت مسائل حياة ، ترتبت الحياة عليها ولم نعد نستطيع الاستغناء عنها . وأقول لهم : لا ، إن عليكم أن ترتبوا حياتكم من جديد على عمل حلال ، وإذا أصر واحد على أن يعمل عملاً غير حلال ليعول من هو تحته ، فعلى المعال أن يعف نفسه موقفاً يرده ، ويصر على ألا يأكل من باطل

وتصوروا ماذا يحدث عندما يرفض ابن أن يأكل من عمل أمه التي ترقص مثلاً أو تغني ، أو عمل والده إذا علم أنه يعمل بالباطل ؟ المسألة ستكون قاسية على الأب أو الأم نفسيهما

إن الذين يقولون : إن هذا رزقنا ولا رزق لنا سواه ، أقول لهم : إن الله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب ، ولا يظن إنسان أن عمله هو الذي سيرزقه ، إنما يرزقه الله بسبب هذا العمل . وإن انتقل من عمل باطل إلى عمل آخر حلال فلن يضن الله عليه بعمل حق ورزق حلال ليقتات منه .

وقد عالج الحق سبحانه وتعالى هذه القضية حينما أراد أن يحرم بيت الله في مكة

على المشركين ، لقد كان هناك أناس يعيشون على ما يأتي به المشركون في موسم الحج ، وكان أهل مكة يبيعون في هذا الموسم الاقتصادي كل شيء للمشركين الذين يأتون للبيت ، وحين يُحَرِّم الله على المشرك أن يذهب إلى البيت الحرام فماذا يكون موقف هؤلاء ؟

إن أول ما يخطر على البال هو الظن القائل : «من أين يعيشون» ؟ ولنتأمل القضية التي يريد الله أن ترسخ في نفس كل مؤمن. قال الحق :

﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾

(من الآية ٢٨ من سورة التوبة)

ثم يأتي للقضية التي تشغل بال الناس فيقول :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ﴾

(من الآية ٢٨ من سورة التوبة)

وهكذا نرى أن هذه القضية لم تخف على الله فلا يقولن أحدٌ إن العمل الباطل الحرام هو مصدر رزقي ، ولن أستطيع العيش لو تركته سواء كان تلحيناً أو عزفاً أو تأليفاً للأغاني الخليعة ، أو الرقص ، أو نحت تماثيل. نقول له : لا ، لا تجعل هذا مصدراً لرزقك والله يقول لك : « وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ». وأنت عندما تتقي الله ، فهو سبحانه يجعل لك مخرجاً « ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب » ، وعليك أن تترك كل عمل فيه معصية لله وانظر إلى يد الله الممدودة لك بخيره .

إذن، فقول الله : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » تنبيه للناس ألا يُدخلوا في بطونهم وبطون من يعولون إلا مالاً من حق ، ومالاً بحركة شريفة : نظيفة. وليكن سند المؤمن دائماً قول الحق

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ.. ۝ ﴾

(سورة الطلاق)

ولنا أن نعرف أن مَنْ أكل بباطل جاع بحق ، أي أن الله يبتليه بمرض يجعله لا يأكل من الحلال الطيب ، فتجد إنساناً يمتلك أموالاً ويستطيع أن يأكل من كل ما في الكون من مطعم ومشرب ، ولكن الأطباء يحرمون عليه الأكل من أطعمة متعددة لأن أكلها وبال وخطر على صحته ، وتكون النعمة أمامه وملك يديه ، ولكنه لا يستطيع أن يأكل منها بحق . وفي الوقت نفسه يتمتع بالنعمة أولاده وخدمه وحاشيته وكل مَنْ يعولهم ، مثل هذا الإنسان نقول له : لا بد أنك أخذت شيئاً بالباطل فحرمك الله من الحق .

ومن هنا نقول : « مَنْ أكل بباطل جاع بحق » . وكذلك نقول : « مَنْ استعمل وسيلة في باطل أراه الله فيها بحق » ، فالذي ظلم الناس بقوته وبعضلاته المفتولة لا بد أن يأتي عليه يوم يصبح ضعيفاً .

والمرأة التي تهز وسطها برشاقة لابد أن يأتي عليها يوم يتيبس وسطها فلا تصبح قادرة على الحركة ، والتي تخايل الناس بجمال عيونها في اليمين والشمال لا بد أن يأتيها يوم وتعمى فلا ترى أحداً ، وينفر الناس من دمامتها .

إن كل مَنْ أكل بباطل سيجوع بحق ، وكل مَنْ استغل وسيلة بباطل أراه الله فيه بحق ، واكتب قائمة أمامك لِمَنْ تعرفهم ، واستعرض حياة كل مَنْ استغل شيئاً مما خلقه الله في إشاعة انحراف ما أو جعله وسيلة لباطل لا بد أن يُرِيه الله باطلاً فيه .

وأنا أريد الناس أن يعملوا قائمة لكل المنحرفين عن منهج الله ، ويتأملوا مسيرة حياتهم، وكل منا يعرف جيرانه وزملاءه من أين يأكلون ؟ ومن أين يكتسبون ؟ ليتأمل حياتهم ويعرف أعمال الحلال والحرام ويجعل حياتهم عبرة له ولأولاده ، كيف كانوا؟ وإلى أي شيء أصبحوا ؟ ثم ينظر خواتيم هؤلاء كيف وصلت .

ومن حقنا لهؤلاء الناس نقول لهم : تداركوا أمر أنفسكم فلن تخدعوا الله في أنكم تجمعون المال الحرام ، وبعد ذلك تخرجون منه الصدقات ، إن الله لن يقبل منكم عملكم هذا ؛ لأن الله طيب لا يقبل إلا الطيب .

ونحن نسمع عن كثير من المنحرفين في الحياة يذهبون للحج ، ويقيمون مساجد ويتصدقون ، وكل ذلك بأموال مصدرها حرام ، ولهؤلاء نقول : إن الله غني عن عبادتكم ، وعن صدقاتكم الحرام ، وننصحهم بأن الله لا ينتظر منكم بناء بيوت له من حرام أو أن تتصدق على عباده من مال مكتسب بغير حلال ، لكنه سبحانه يريد منكم استقامة على المنهج .

وحين نتأمل الآية نجد فيها عجباً ، يقول الله عز وجل : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام » لقد ذكر الحق الحكام في الآية ؛ لأن الحاكم هو الذي يقنن ويعطي مشروعية للمال ولو كان باطلاً ، وقوله سبحانه : « تدلوا » مأخوذة من « أدلى » ، ونحن نُدلي الدلو لرفع الماء من البئر و« دلاه » أي أخرج الدلو ، أما « أدلى » فمعناها « أنزل الدلو » ولذلك في قصة الشيطان الذي يغوي الإنسان قال الحق :

﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

« وتدلوا بها إلى الحكام » أي ترشوا الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالباطل . ومن العجيب أن هذا النص بعينه هو نص الرشوة . والرشوة مأخوذة من الرِّشاء ، والرِّشاء هو الحبل الذي يعلق فيه الدَّلو ، فأدلى ودلَّا في الرشوة . ولماذا يدلون بها إلى الحكام ؟ إنهم يفعلون ذلك حتى يعطيهم الحكام التشريع لتقنين لأكل أموال الناس بالباطل ، وذلك عندما نكون محكومين بقوانين البشر ، لكن حينما نكون محكومين بقوانين الله فالحاكم لا يبيح مثل هذا العمل .

ولذلك وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المبدأ فقال : « إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صادق فأقضي له

بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها »[1] . إن الذي يقول ذلك هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو المعصوم ؛ إنه يحذر من أن يحاول أحد أن يبالغ في قوة الحجة ليأخذ بها حقاً ليس له.

إذن فحين يُقنن الفساد فذلك نتيجة أن الحاكم يقر ذلك ، ويأخذ الإنسان حكم الحاكم كأمر عياني ، مثال ذلك : بعض من الحكام لم يحرموا الربا ، ويتعامل به الناس بدعوى أن الحكومات تحلله ، فلا حرج عليهم . ومثل هذا الفهم غير صحيح ؛ لأن الحكومات لا يصح أن تحلل ما حرمه الله ، وإن حللت ذلك فعلى المؤمن أن يحتاط وأن يعرف أنه والحكام محكومون بقانون إلهي ، وإن لم تمس الحكومات الحلال من أجل سلطتها الرسمية فعلى المؤمن ألا يخرج عن تعاليم دينه.

وإذا نظرنا إلى أي فساد في الكون ، في أي مظهر من مظاهر الفساد فسنجد أن سببه هو أكل المال بالباطل . ولذلك لم يترك الحق سبحانه وتعالى تلك المسائل غائبة ، وإنما جعلها من الأشياء المشاهدة . وأنت إن أردت أن تعرف خلق أي عصر ، واستقامته الدينية وأمانته في تصريف الحركة فانظر إلى المعمار في أي عصر من العصور ، انظر إلى المباني ومن خلالها تستطيع أن تُقيم أخلاق العصر . إنك إن نظرت إلى عملية البناء الآن تجد فيها استغلال المال ، وعدم أمانة المنفذ ، وخيانة العامل ، وكل هذه الجوانب تراها في المعمار . فلننظر مثلاً إلى مجمع التحرير ولنسترجع تاريخ بنائه ، ولنعرف مبنى هيئة البريد أو دار القضاء العالي وما بني في عهدهم.

ولننظر إلى المباني والإنشاءات التي نسمع عنها وتنهار فوق سكانها وسقارها مبنى هيئة البريد أو دار القضاء العالي ، سنجد أن المباني القديمة قامت على الذمة والأمانة ، أما المباني التي تنهار على سكانها في زماننا أو نعاني من تلف وصلات الصرف الصحي فيها ، تلك المباني قامت على غش الممول الشره الطامع ، والمهندس المدلس الذي صمم أو أشرف على البناء أو الذي سلم المبنى وأقر صلاحيته ، ومرورا بالعامل الخائن ، وتكون النتيجة ضحايا أبرياء لا ذنب لهم ، ينهار عليهم المبنى

(١) رواه البخاري.

ويخرجون حقنا من تحت الأظافر . إن كل ذلك معناه أكل المال بالباطل . ولقد نظر الشاعر أحمد شوقي في هذه المسألة ، وجعل الأخلاق أساساً من مبادىء فقال :

وليس بعامر بنيان قوم ... إذا أخلاقهم كانت خراباً

وإن الله حين أنزل أن نعد سجلاً محفوظاً لكل عمل نعمله ، فالحفظة في هذه السجلات اسم كذا ، ومهندس يشرف على سلوكنا ، وكذلك اسمه عنوان العمال المنضبط ، والأعمال الصحيحة والتكنولوجيا وكافة شئون الذين يشاركون في سلوكنا ، ويحفظ كل ذلك في ملف خاص بالجمهور ، وعندما تحدث أي شيء لهؤلاء ، كل في تخصصه ويحاسبونهم على ما قصروا فيه من عمل ، والأمور كلها للناس مستوفية حتى يكون مثال من يقوم في هذه الخدمة ، عمله لا يخفى على صاحب عمله .

ويجب أن نأخذ بنظام « الطابور » حتى لا يتقدم أحد على دور الآخر ، ولقد جاء واحد في « الطابور » من الساعة السابعة صباحاً وأخذ دوره ، وجاء آخر متأخراً بعد أن قام بسرح ثم قضى جميع مصالحه وذهب للجمعية ووجد صفاً طويلاً ، فنظر حوله إلى شخص يتخطى هذا « الطابور » ، وأعطاه مبلغاً من المال سهل به قضاء حاجته . مثل هذا الإنسان يتعدى على حقوق كل الواقفين في « الطابور » .

وقد يقول : أنا أعطيت مثلما يأخذون ، نقول له : لا ، لقد أخذت رغبي غيرك ، ولا يصح أن تأخذ حق الناس وتأخذ حق الشخص الذي وقف في « الطابور » من الساعة السابعة . إن حقك مرتبط برغبتك ، فلا تعتد على وقت الآخرين الذين هم وقفوا قبلك في الطابور ، أو غيره .

إن الحق يقول : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » . والفريق هو الجماعة المعزولة من جماعة أكثر عدداً ، فإذا ما انفصلت جماعة صغيرة عن أناس فهذه الجماعة تسمى فريقاً .

والإثم الأصل فيه ـ ولو لم يكن هناك دين ـ أن تفعل ما تُعاب عليه وتُذم، وكذلك تُعاب عليه وتُلم من ناحية الدين ، وفوق ذلك تُعاقب في الآخرة . وما هو مقياس الحق والباطل ؟ إن المقياس الذي ينجيك من الباطل هو أن تقبل لنفسك ما تقبله للطرف الآخر في أية صفقة أو معاملة ؛ لأنك لا ترضى لنفسك إلا ما تعلم أن فيه نفعاً لك .

ثم ينتقل الحق سبحانه وتعالى إلى قضية يعالج فيها أمراً واجه الدعوة الإسلامية، والدعوة الإسلامية إنما جاءت لتخلص المؤمنين بالله من واقع في الحياة كان كله أو أغلبه باطلاً ، ولكنهم اعتادوه وألفوه أو استفاد أناس من ذلك الباطل ، ذلك أن الباطل لا يستمر إلا إذا كان هناك مَنْ يستفيدون منه . وجاء الإسلام ليخلص الناس من هذه الأشياء الباطلة . والحق لم يشأ أن يعلمنا أن كل أحوال الناس غارقة في الشرور ، بل كانت هناك أمور أقرها الإسلام كما هي . فالإسلام لم يجئ لمجرد التغيير ، ولكنه واجه الأمور الضارة بالحياة التي لا يستفيد منها إلا أهل الباطل .

مثال ذلك كان العرف السائد في الدية أنها مائة من الإبل يدفعها أهل القاتل ، وقد أبقاها الإسلام كما هي . وحينما استقبل المسلمون الإيمان بالله ، فهم قد استقبلوا أحكامه وأرادوا أن يبنوا حياتهم على نظام إسلامي جديد طاهر ، حتى الشيء الذي كانوا يصنعونه في الجاهلية كانوا يسألون عن حكمه ؛ لأنهم لا يريدون أن يصنعوه على عادة ما كان يُصنع ، بل على نية القربى إلى الله بالامتثال ، إذن فهم عشقوا التكليف ، وعلموا أن الله لم يكلفهم إلا بالنافع ، وعندما تقرأ « يسألونك » في القرآن فاعلم أنها من هذا النوع ، مثل ذلك قوله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ .. (٢١٩) ﴾

(سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى .. (٢٢٢) ﴾

(سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ .. (٢٢٠) ﴾

(سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ .. (٢١٥) ﴾

(سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ .. (٨٣) ﴾

(سورة الكهف)

وقوله تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ .. (١) ﴾

(سورة الأنفال)

إذن، فكل سؤال معناه أنهم أرادوا أن يبنوا حياتهم على نُظام إسلامي، حتى الشيء الذي لم يغيره الإسلام أرادوا أن يعرفوه ويصنعوه على أنه حكم الإسلام لا على حكم العادة.

والسؤال الذي نحن بصدده يعالج قضية كونية. وعندما يسأل المسلمون عن قضية كونية فذلك دليل على أنهم التفتوا إلى كون الله التفاتاً دينياً آخر، لقد وجدوا الشمس تشرق كل يوم ولا تتغير. أما القمر الذي يطلع في الليل فهو الذي يتغيّر، إنه يبدأ في أول الشهر صغيراً ثم يكبر حتى يصبح بدراً، وبعد ذلك يبدأ في التناقص حتى يعود إلى ما كان عليه، لقد لفت نظرهم ما يحدث للقمر ولا يحدث من الشمس، فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم، أو أن بعضاً من اليهود أرادوا إحراج المسلمين، فقالوا لهم: « اسألوا رسولكم عن الهلال كيف يبدأ صغيراً ثم يكبر حتى

يصير بدراً ثم يعود لدورته مرة أخرى حتى يختفي ليلتين لا نراه فيهما ! ، وهذا السؤال يجيبه القرآن في قوله تعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾

الأهلة جمع هلال ، وسمي هلالاً لأن الإنسان ساعة يراه يهل ، أي يرفع صوته بالتهليل . ويجيب الحق سبحانه وتعالى الجواب الذي يحمل كل التفاصيل عن القمر ، وهو الكوكب الذي خضع لنشاطات العقل حتى يكتشفه ، والعرب القدامى لم يكونوا يعلمون شيئاً عن ذلك القمر ، ولكنهم كانوا يؤرخون به ، وعلمهم به لم يزد على حدود انتفاعهم به . ولم يصلوا إلى الترف العقلي الذي يتأملون به آيات الله في الكون ، فكل آيات الكون يُنتفع بها ثم ينشط العقل بعد ذلك ، فنعرف السبب ، وقد لا ينشط العقل ، فتظل الفائدة هي العائدة .

وأراد الحق سبحانه أن يلفتنا لمبدأ مهم ، وهو أن يعلمنا كيف نستفيد من الآيات الكونية مثل القمر ، لا يكفى ظهوره واختفاؤه ، وتغير حجمه ، لأن هذه لن يتسع لها العقل ، بل نستفيد منه كميقات ، ونستخدمه لقياس الزمن . فإذا كنا ونحن نعيش في القرن العشرين ، لم يعرف العلماء سبباً لظواهر القمر ، فكيف كان حال الذين سألوا عنها منذ أربعة عشر قرناً ؟

قال العلماء المعاصرون في تفسيراتهم مثلاً : إن الشمس مثل حجم الأرض مليون

وربع مليون مرة ، والقمر أصغر من الأرض ، وعندما تأتي الأرض بين الشمس والقمر برغم حجم الشمس الهائل فإن الأرض تحجب جزءاً من القمر ، هذا الجزء المحجوب بقدر تدوير القرص المحجوب من الأرض ويصبح هذا الجزء من القمر مظلماً .

إن القمر وجوده ثابت لكن الأرض عندما توجد بينه وبين الشمس فهي التي تحجب عنه ضوء الشمس ، ويكبر حجم نوره كلما تزحزحت الأرض بعيداً عنه وعندما تنزاح الأرض بعيداً عنه كلية يظهر في السماء بدراً كاملاً ، ثم تعود الأرض بعد ذلك لتحجب عنه جزءاً من الشمس ، ويزداد ذلك يوماً بعد يوم ، فينقص ضوء الشمس المنعكس عليه تبعاً لذلك ، فيقل تدريجياً حتى تأتي الأرض بينه وبين الشمس فلا يظهر منه شيء .

ونحن نحن إننا عندما لا نرى القمر لا في الليل ولا في النهار برغم أنه موجود في مكانه ، نقول إنه مستور في ظل الأرض ، لذلك لا نراه وهذه الظاهرة لا تحدث للشمس لأن جرم الشمس كبير جداً وعندما تحدث فإن الأثر يكون قليلاً ، ويسمى بالكسوف

وعندما التفت العرب للكون قالوا : ما بال الهلال يصبح هكذا ثم يكبر حتى يصير بدراً ، فقال الحق عز وجل « قل هي مواقيت للناس والحج » إنهم هنا يسألون عن الأهلة ودورتها ، فصعب الله عليهم خيط تفكيرهم وأعطاهم الخلاصة والنتيجة ، فقال « قل هي مواقيت للناس والحج » إن هذا الأمر هو الذي يستطيع العقل في ذلك الزمان أن يعرفه ، أما ما وراء ذلك فانتظروا حتى يكشف الزمن عنه ، وجهلكم به لا يقلل من نفعكم

لقد كانت كل إجابة لأي سؤال في ذلك الزمان تحتوي على ما يتسع العقل لإدراكه ساعة التشريع ، أما بقية الإجابة فالحق يتركها للزمن ولا يعطينا إلا ما يفيد التشريع ، مثال ذلك : كانوا قديماً يقولون : الأرض كرة وأثبت لنا العلم أنها كذلك ، ورأيناها بالأقمار الصناعية وسفن الفضاء

وعندما سأل العرب عن الأهلة أخبرنا الحق بأنها مواقيت ، والمواقيت جمع ميقات ، والميقات من الوقت ، والوقت هو الزمن ، ونعرف أن كل حدث من الأحداث يحتاج إلى زمن وإلى مكان . إذن فالزمان والمكان مرتبطان بالحدث ، فلا يوجد زمان ولا مكان إلا إذا وجد حدث

والذي يقول : كيف كان الزمن قبل أن يخلق الله الخلق ؟ نقول له : الزمن وُجد للحادث وهو المخلوقات والله قديم ، ومادام الله قديما وليس حادث فلا زمن ولا مكان ، لا تقل متى ولا أين ؛ لأن متى وأين مخلوقة . وكيف نعرف الوقت ؟ نحن نعرف الوقت بأنه مقدار من الزمن ، لمقدار من الحركة ولمقدار من الفعل

وأين المكان في هذا التعريف ؟ إن الزمان يتحكم أحياناً في المكان ، فيكون الزمان هو الأصل ، والمكان طارىء عليه ، ومرة أخرى يكون المكان هو الأصل ، والزمان هو الطارىء عليه ، ومرة ثالثة يتلازم الاثنان الزمن والمكان .

ونحن في مصر إذا أردنا الحج فإننا نبدأ الإحرام عند رابغ ، ونُسمي رابغ ميقات أهل مصر أي هي المكان الذي لا يتجاوزه من مر عليه إلا وهو محرم

إذن فالميقات قد أطلق على مكان هو رابغ ، ومن فور وصول الإنسان المصري إلى رابغ بنية الحج يحرم ، سواء كان الوقت صباحاً أو ظهراً أو عصراً أو مغربا

ولكن عندما نبدأ في الصوم فإن الزمن يصبح هو الأصل في صومك في أي مكان تذهب إليه ، إن الزمان هو الذي يحدد مواعيد الصوم . في طنطا أو لندن أو في طوكيو ، وهكذا نعرف كيف يكون الزمن ميقاتاً .

إذن فمرة يكون الزمن هو المتحكم في الميقات والمكان طارىء عليه ، ومرة يكون المكان هو الذي يتحكم في الميقات ، والزمن طارىء عليه . ومرة يتحكم الزمان والمكان معاً في الفعل مثل يوم عرفة

وهكذا نعرف معنى « مواقيت للناس » ، فنحن بالهلال نعرف بدء شهر رمضان، ونعرف به عيد الفطر ، وكذلك موسم الحج وعدة امرأة ، والأشهر الحرم ، إن كل هذه الأمور إنما نعرفها بالمواقيت وشاء الحق أن يجعل الهلال هو أسلوب تعريفنا تلك الأمور وجعل الشمس لتدلنا على اليوم فقط ، وإن كان لها عمل آخر في البروج التي يتعلق بها حالة الطقس والجو ، والزراعة ، ولذلك قال :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. (٥)﴾

(سورة يونس)

وانظر إلى الدقة في الأداء وكيف يشرح الحق للإنسان ماهية النور ، وماهية الضوء إن الشمس مضيئة بذاتها ، أما القمر فهو منير ؛ لأن ضوءه من غيره ؛ فهو مثل قطعة الحجر اللامعة التي تنعكس عليها أشعة الشمس فتعطينا نوراً . إن القمر منير بضوء غيره ، ولذلك يقول الحق في آية أخرى :

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١)﴾

(سورة الفرقان)

والسراج في هذه الآية هو الشمس التي فيها حرارة ، وجعلها الحق ذات بروج، أما القمر فله منازل وهو منير بضوء غيره ؛ وفي ذلك يقول الحق :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. (٥)﴾

(سورة يونس)

إذن ، فعدد السنين وحسابها يأتي من القمر ، وفي زماننا إذا أرادوا أن يضبطوا المعايير الزمنية فهم يقيمونها بحساب القمر ؛ فقد وجدوا أن الحساب بالقمر أضبط من الحساب بالشمس ؛ فالحساب بالشمس يختل يوماً كل عدد من السنين

ولنفهم الفرق بين منازل القمر وبروج الشمس . إن البروج هي أسماء من اللغة السريانية ، وهو . برج الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والعذراء ، والأسد ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت ، وعددها اثنا عشر برج هذه هي أبراج الشمس ، ويتحقق بها مواعيد الزرع والطقس والجو ، ويجب أن نفهم أن لله في البروج أسراراً ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى جعلها قسماً حين يقول . « والسماء ذات البروج » .

ولذلك نجد أن التوقيت في الشمس لا يختلف ، فالشهور التي تأتي في البرد ، والتي تأتي في الحر هي هي ، وكذلك التي تأتي في الخريف ، والربيع ، وبين السنة الشمسية والسنة القمرية أحد عشر يوماً . والسنة القمرية هي التي تستخدم في التحديد التاريخي للشهور العربية ونعرف بداية كل شهر بالهلال

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا﴾

(من الآية ٣٦ سورة التوبة)

ولذلك كانت تكاليف العبادة محسوبة بالقمر حتى تشيع المنازل القمرية في البروج الشمسية ، فيأتي التكليف في كل جو وطقس من أجواء السنة ، فلا نصوم رمضان في صيف دائم ، ولا في شتاء دائم ، ولكن يُشيِّعُ الله مواعيد العبادات على سائر أيام السنة ، والذين يعيشون في المناطق الحارة مثلاً لو كان الحج ثابتا في موسم الصيف لما استطاعوا أن يؤدوا الفريضة ، ولكن يدور موسم الحج في سائر الشهور فعندما يأتي الحج في الشتاء ييسر لهم مهمة أداء الفريضة في مناخ قريب من مناخ بلادهم

وهكذا نجد أن حكمة الله اقتضت أن تدور مواقيت العبادات على سائر أيام السنة حتى يستطيع كل الناس حسب ظروفهم المناخية أن يؤدوا العبادات بلا مشقة . إذن فالمنازل شائعة في البروج ، وهذا سبب قول بعض العلماء إن ليلة القدر تمر دائرة في كل ليالي السنة ، وذلك حسب سياحة المنازل في البروج

إذن فهناك بروج للشمس ، ومنازل للقمر ، ومواقع للنجوم ، ومواقع النجوم

هي التي يقسم بها الله سبحانه في قوله :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾

(سورة الواقعة)

ولعل وقت يأتي يكشف الله فيه للبشرية أثر مواقع النجوم على حياة الخلق وذلك عندما تتهيأ النفوس لذلك وتقدر العقول على استيعابه . إذن كل شيء في الكون له نظام : للشمس بروج ، وللقمر منازل ، وللنجوم مواقع . وكل أسرار الكون ونواميسه ونظامه في هذه المخلوقات . وقد أعطانا الله من أسرار الأهلة أنها مواقيت للناس والحج . وعندما تكلم سبحانه عن الحج أراد أن يعطينا حكماً متعلقاً به ، فقد كانت هناك قبائل من العرب تعرف بالحمس ، هؤلاء الحمس كانوا متشددين في دينهم ومتحمسين له ، ومنهم كانت قريش ، وكنانة ، وخثعم ، وجشم ، وبنو صعصعة بن عامر . وكان إذا حج الفرد من هؤلاء لا يدخل بيته من الباب ؛ لأنه أشعث أغبر من أثر أداء مناسك الحج . ويجدون أن يدخل بيته على غير عادته ، لذلك كان يدخل من ظهر البيت ، وكان ذلك تشدداً منهم ، لم يرد الله أن يُشرّعه حتى لا يطلع على شيء يكرهه في زوجه أو أهله . وأراد سبحانه عندما ذكر مناسك الحج في القرآن أن ينقي المناسك من هذه العادة المألوفة عند العرب فقال :

« وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون » أي لا تجعلوا المسائل شكلية ، فنحن نريد أصل البر وهو الشيء الحسي النافع .

والملاحظ أن كلمة « البر » في هذه الآية جاءت مرفوعة ، لأن موقعها من الإعراب هو « اسم ليس » وهي تختلف عن كلمة « البر » التي جاءت من قبل في قوله تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » التي جاءت منصوبة ، لأن موقعها من الإعراب هو « خبر مقدم لليس » . حاول المستشرقون أن يأخذوا هذا الاختلاف في الرفع والنصب على القرآن الكريم . ونقول لهم : أنتم قليلو الفطنة والمعرفة باللغة العربية ، فماذا نفعل لكم ؟ يصح أن نجعل الخبر مبتدأ فنقول

« زيد مجتهد » ، هذا إذا كنا نعلم زيداً ونجهل صفته ، فجعلنا زيداً مبتدأ ، ومجتهداً خبراً . لكن إذا كنا نعرف إنساناً مجتهداً ولا نعرف من هو ؛ فإننا نقول : « المجتهد زيد » .

إذن فمرة يكون الاسم معروفاً لك فتلحق به الوصف ، ومرة تجهل الاسم وتعرف الوصف فتلحق الاسم بالوصف . وهذا سر اختلاف الرفع والنصب في كلمة « البر » في كل من الآيتين . ونقول للمستشرقين : إن لكل كلمة في القرآن توجيهاً ومعنى ، فلا تتناولوا القرآن بالجهل ، ثم تثيروا الإشكالات التي لا تقلل من قيمة الكتاب ولكنها تكشف جهلكم .

ثم ما هو « البر » ؟ قلنا : إن البر هو الشيء الحسن النافع . ولو ترك الله لنا تحديد « البر » لاختلفت قدرة كل منا على فهم الحسن والنافع باختلاف عقولنا ؛ فأنت ترى هذا « حسناً » ، وذاك يرى شيئاً آخر ، وثالث يرى عكس ما تراه . لذلك يجلي الله بدءاً من بيان معنى البر ، ويحدد لنا سبحانه مواصفات الحسن النافع ، فما من واحد ينحرف ويميل إلى شيء إلا وهو يعتقد أنه هو الحسن النافع ، ولذلك يقول الحق : « ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها » .

إن هذا يدلنا على أن كل غاية لها طريق يوصل إليها ، فاذهب إلى الغاية من الطريق الذي يوصل إليها . ويتبع الحق قوله عن البر : « واتقوا الله لعلكم تفلحون » . لا تزال كلمة التقوى هي الشائعة في هذه السورة ، وكل حكم يعقبه المسبب من تشريعه وهو التقوى .

ونعرف أن معنى التقوى هو أن تتقي معضلات الحياة ، ومشكلاتها بأن تلتزم منهج الله . وساعة ترى منهج الله وتطبقه فأنت تقيت المشكلات ، أما من يعرض عن تقوى الله فإن الحق يقول عن مصيره :

﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة طه)

ولا يظن أحد أن التقوى هي اتقاء النار ، لا ، إنها أعم من ذلك ، إنها اتقاء المشكلات والمخاطر التي تنشأ من مخالفة منهج الله . وليعلم الإنسان أن كل مخالفة ارتكبها لابد أن يمر عليها يوم ترتكب فيه هذه المخالفة كما ارتكبها في غيره ، فمن لا يحب أن تجرى فيه المخالفات فعليه ألا يرتكب المخالفات في غيره .

وبعد ذلك ينتقل الحق إلى قضية أخرى ، وهذه القضية الأخرى هي التي تميز الأمة الإسلامية بخصوصية فريدة ؛ لأنه سبحانه قد أوجد وفطر هذه الأمة على منهاج قويم لم تظفر به أمة من قبل ، وهذه الخصوصية هي أن الله قد أمن أمة محمد على أن تؤدب الخارجين على منهج الله ؛ فقديماً كانت السماء هي التي تؤدب هؤلاء الخارجين عن المنهج كان الرسول يشرح ويبلغ المنهج ، فإن خالفه الناس تتدخل السماء وتعاقبهم ، إما بصاعقة ، وإما بعذاب ، وإما بفيضان ، وإما بأي وسيلة ولم يكن الرسل مكلفين بحمل وقسر الناس على المنهج . وحين سأل بنو إسرائيل ربهم أن يقاتلوا ، لم يكن قتالهم من أجل الدين مصداقاً للآية الكريمة .

﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

علة القتال - إذن - أنهم أخرجوا من بيوتهم وأجبروا على ترك أولادهم ، فهم عندما سألوا القتال لم يسألوه للدفاع عن العقيدة ، وإنما لأنهم أخرجوا من ديارهم وأولادهم .

أما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فهي التي أمنها الله على أن يكون في يدها الميزان ، وليس هذا الميزان ميزان تسلط ، وإنما هو ميزان يحمي كرامة الإنسان بأن يضمن له حرية اختياره بالعقل الذي خلقه الله ، فلا إكراه في الإيمان بالله . وقد شرع الله القتال لأمة محمد لا لتفرض به دين ، ولكن ليحمي اختيارك في أن تختار الدين الذي ترتضيه وهو يمنع سدود الطغيان التي تحول دونك ودون أن تكون حراً مختاراً في أن تقبل التكليف

ولذلك فالذين يحاولون أن يتهموا بالإسلام بحجة أنه انتشر بالسيف نقول لهم :

إن حججهم ساقطة واهية ، وكذلك قولهم : إن الإسلام عندما يعرض الجزية فكأنه جاء لجباية الأموال ، نقول لهؤلاء : جزية على مَنْ ؟ جزية على غير المؤمن ، وما دام قد فُرضت عليه جزية، فمعنى ذلك أنه أباح له أن يكون غير مؤمن ، لو كان الإسلام يكره الناس على اعتناقه لما كان هناك مَنْ يأخذ عليه جزية . إذن، فالإسلام لم يكرهه ، وإنما حماه من القوة التي تسيطر عليه حتى لا يكرهه أحد على ترك دين، وهو حر بعد ذلك في أن يسلم أو لا يسلم . وكأن الذين ينتقدون الإسلام يدافعون عنه ؛ فسهامهم قد ارتدت إليهم .

وهنا تساؤل قد يثور : إذا كان الأمر كذلك، فلماذا كانت حروب المسلمين ؟ نقول : إن حروب الإسلام كانت مواجهة الذين يفرضون العقائد الباطلة على غيرهم. وجاء الإسلام ليقول لهؤلاء : ارفعوا أيديكم عن الناس واجعلوهم أحراراً في أن يختاروا الدين المناسب . ولماذا تركهم الإسلام أحراراً ؟ لأنه واثق أن الإنسان مادام على حريته في أن يختار فلا يمكن أن يجد إلا الحق واضحاً في الإسلام ولذلك فكثير من الناس الذين يقرأون قوله تعالى :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦) ﴾

(سورة البقرة)

لا يفطنون إلى أن العلة واضحة في قوله ـ سبحانه ـ من الآية نفسها « قد تبين الرشد من الغي » إذن، فالمسألة واضحة لماذا نكره الناس وقد وضح أمامهم الحق والباطل ؟ نحن فقط نمنع الذين يفرضون عقائدهم الباطلة على الناس ؛ فأنت تستطيع أن تكره القالب ، لكن لا تستطيع أن تكره القلب . ونحن نريد أن ينبع الإيمان من القلب ، ولهذا يقول الحق لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾

(سورة الشعراء)

إن الله لا يريد أعناقاً ، لو كان يريد أعناقاً لما استطاع أحد أن يخرج عن قدره

ـ سبحانه ـ من يُريد الله أن يبتليه بمرض أو موت، فلن ينجو من قدره . إن الحق يريد إيمان قلوب لا رضوخ قوالب . فالذى يجبر الآخرين على الإيمان بالكرباج لن يتبعه أحد ، وهو نفسه غير مؤمن بما يفرضه على الناس ولو كان مؤمناً به لما فرضه على الناس بالقسر ، إنهم سيقبلونه عن طواعية واختيار عندما يتبيّن لهم أنه الحق المناسب لصلاح حياتهم .

ونحن نلتفت حولنا فنجد أن النظم والحكومات التي تفرض مبادئها بالسوط والقهر تتساقط تباعاً ، فعندما تتخلى هذه الحكومات عن السوط والبطش، فإن الشعوب تتخلى عن تلك الأفكار . والقرآن هنا يعالج هذه المسألة عندما يتحدث عن القتال وتشريع القتال ، الأمر الذى اختص به الحق أمة الإسلام ، وهو سبحانه لم يأذن بالقتال خلال فترة الدعوة المكية التي استمرت ثلاثة عشر عاماً ، ثم أذن به بعد الهجرة إلى المدينة ، وقد كان من الضرورى أن يتأخر أمر القتال ، لأن الحق أراد أولاً أن يلتفت المسلمون إلى اتباع المنهج حتى يكونوا لغيرهم قدوة ، ويروا فيهم أسوة حسنة ، لذلك قال الحق

﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

وقال سبحانه أيضاً :

﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأحزاب)

لماذا كل هذا التدرج ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى علم أن الدعوة للإسلام ستدخل البيوت العربية ، فسيصير البيت الواحد كافراً بالله ومؤمناً بالله ، ولو أنه سبحانه وتعالى شرع القتال من البداية لصار في كل بيت معركة

ثم إن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن تلك القبائل العربية بها كثير من خفة وطيش وسفه ، وكانوا يقتتلون لأتفه الأسباب، فمن أجل ناقة ضربها كليب بسهم في ضرعها فماتت اشتعلت الحرب أربعين سنة وفي ذلك يقول الشاعر عند الحفيظة

والمعصب :

قـوم إذ الشـر أبدى ـ نـاجـذيه لهم ـ
طاروا إليــــه زرافـــات ووحـــدانا

والثاني يقول

لا يســـألون أخاهم حـيـن يندبهم
في النائبـــات على مـــا قـــال برهـان

أى أنهم لا يسألون أخاهم : « لماذا تحارب ؟ » ، وإنما يحاربون بلا سبب ولأى سبب ، فالحمية الرعناء تدفعهم لقتال بلا سبب وفي مقابل ذلك كانت عندهم نخوة للحق ، فعندما يرون شخصاً قد ظلمه غيره ، تأخذهم النخوة ، ويأخذون على يد الظالم ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يهيج فيهم النخوة حين يرون الضعاف من المسلمين مستضعفين ، وقد عزلهم بعض من القوم في شعب أبي طالب وجوعوهم وقاطعوهم حتى اجتمع الخمسة العظام في مكة وقالوا : « كيف نقبل أن نأكل ونشرب ونأتي نساءنا وبنو هاشم وبنو المطلب محصورون في الشعب لا يأكلون ولا يشربون ولا يتبايعون » .

لقد كانوا كفاراً ، وبرغم ذلك وقفوا موقفاً عظيماً وقالوا : هاتوا الصحيفة التي تعاهدنا فيها على أن نقاطع بنى هاشم وبنى المطلب ونقطعها ، واتفقوا على ذلك . وكانوا خمسة من سادات مكة هم : هشام بن عمرو ، وزهير بن أبي أمية ، وأبو البخترى بن هاشم ، وزمعة ابن الأسود ، والمطعم بن عدى . وكانوا قادة النخوة التي أنهت مقاطعة المسلمين . هكذا نرى أن العرب كانوا يتسمون بالحمية الرعناء وتقابلها النخوة في الحق

ويعلم الحق سبحانه وتعالى أن نقل أمة العرب مما اعتادته ليس أمراً سهلاً ، لذلك أخذهم برفق الهوادة . والذين يقولون : لماذا لم يحارب المسلمون أعداءهم من أول وهلة ولماذا لم يقتلوا صناديد الكفر في مكة ؟

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر

نقول لهم: إن كثيراً من الذين كنتم ترون قتالهم فى بداية الدعوة الإسلامية هم الذين نشروا راية الإسلام من بعد ذلك، ومثال ذلك خالد بن الوليد، الذى كان قائداً مغواراً فى صفوف المشركين، وقاتل المسلمين فى أول حياته، ثم هداه الله للإسلام وأصبح سيف الله المسلول، ماذا لو قتل هذا القائد العدو على أيدى المسلمين؟ كان مثل هذا الفعل سيتسبب فى حرمان المسلمين من موهبته، تلك الموهبة التى أسهمت فى معظم الفتوحات الإسلامية فى الشام والعراق.

إذن شاءت حكمة الله أن يستبقى أمثال خالد وهم خصوم للإسلام فى بدء الدعوة لأن الله قد أعد لهم دوراً يخدمون به الإسلام. والذين نالوا من الإسلام أولا هم الذين ستبقى عندهم الحرارة حتى يعملوا عملاً يغفر الله لهم به ما قد سبق

انظر إلى عكرمة بن أبى جهل كان شوكة فى ظهر المسلمين فى بداية الدعوة، ثم أسلم وأبلى بلاء حسناً، ولما أصيب فى موقعة اليرموك وأوشكت روحه أن تصعد إلى خالقها نظر إلى قائده خالد بن الوليد وقال: أهذه ميتة تُرضى عنى رسول الله؟. كأنه كان يعلم أن رسول الله كان قد غضب عليه قبل أن يسلم.

وعمرو بن العاص داهية المسلمين الذى لولاه ما فُتحت مصر. فقد كسب بدهائه أهل مصر فامتنعوا عن قتاله، وناظرهم بعد ذلك حتى استل حقدهم على المسلمين. وأبان لهم أن رسول ﷺ قال موصياتهم «استوصوا بالقبطيين خير لأن لهم رحما وذمة» وفرق هذا فقد أرسله النبى ﷺ إلى بعض العرب يستفزهم إلى الاسلام.

إذن فمن رحمة الله أنه لم يشأ تشريع القتال من البداية، وإلا لكنا فقدنا كثيراً من قادة الإسلام العظام الذين حملوا لواء الدعوة الإسلامية فيما بعد. وكل إنسان استقبله الإسلام وهو خصم وعدو للإسلام، قدر الله له بعد الإسلام دوراً يخدم به الدين الخاتم.

من هنا نفهم الحكمة من تأخير القتال فى الإسلام، لأن الله أراد أن يمحص ويختبر، وألا يدخل هذا الدين إلا من يتحمل متاعب هذا الدين، ومشاقه لأنه

سيكون مأموناً على مجد أمة، وعلى منهج سماء، وتلك أمور لا يصلح لها أى واحد من الناس.

وقد كان من الممكن أن ينصر الله دينه من أول وهلة دون تدخل من المسلمين، وكان معنى ذلك أن الناس سيتساوون فى الإيمان أولهم وآخرهم، ولكن شاءت إرادته سبحانه وتعالى أن يجعل لهذا الدين رجالاً يفدونه بأرواحهم وأموالهم لينالوا الشهادة ويرتفعوا إلى مصاف النبيين. لذلك جاء الأمر بالقتال متأخراً وبالتدريج. لقد جاء الأمر بالقتال فى أول مرحلة بقول الله تعالى:

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾

وسبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ اشتاق هو وصحابته إلى البيت الحرام، وأرادوا أن يعتمروا، فجاءوا فى ذى القعدة من السنة السادسة من الهجرة. وأرادوا أن يؤدوا العمرة فلما ذهبوا وكانوا فى مكان كان اسمه الحديبية، ووقفت أمامهم قريش وقالت: لا يمكن أن يدخل محمدٌ وأصحابه مكة.

وقامت مفاوضات بين الطرفين. ورضى رسول الله بعدها أن يرجع هذا العام على أن يأتى فى العام القادم. وتخلى لهم مكة ثلاثة أيام فى شهر ذى القعدة.

وكان رسول ﷺ قد بشر أصحابه بأنهم سيدخلون المسجد الحرام محلقين ومقصرين، وشاع ذلك الخبر، وفرح به المسلمون وسعدوا، ثم فوجئوا بمفاوضات رسول الله ورجوعه على بعد نحو عشرين كيلو متراً من مكة وحزن الصحابة. حتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه غضب وقال للنبى ﷺ:

ألست رسول الله؟ ألبست على الحق؟ فرد عليه سيدنا أبوبكر قائلا: الزم غرزك ياعمر إنه لرسول الله.

وقد أظهرت هذه الواقعة موقفا لأم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها، وهو موقف يعبر عن الحنان والرحمة والمشورة اللينة الهينة. فحينما دخل عليها رسول الله وقال لها: هلك المسلمون يا أم سلمة، أمرتهم فلم يمتثلوا.

فانظر إلى مهمة الزوجة عندما يعود إليها زوجها مهموما، هنا تتجلى وظيفتها في السكن، قالت أم سلمة: أعذرهم يارسول الله؛ إنهم مكروبون كانت نفوسهم مشتاقة لأن يدخلوا بيت الله الحرام محلقين ومقصرين، ثم حرموا منها وهم على بعد أميال منها، أعمد إلى ما أمرك الله فافعله ولا تكلم أحداً، فإن رأوك فعلت، علموا أن ذلك عزيمة.

وأخذ رسول الله بنصيحة أم سلمة، وصنع ما أمره به الله، وتبعه كل المسلمين، وانتهت المسألة. وقبل أن يرجعوا للمدينة لم يشأ الله أن يطيل على الذين انفعلوا الموقف حتى لا يظل انشراخ في نفوس المؤمنين. وتلك عملية نفسية شاقة، لذلك لم يُطل الله عليهم السبب، وجاء بالعلة قائلا لهم: ما يحزنكم في أن ترجعوا إلى المدينة، أنتم لكم إخوان مؤمنون في مكة وقد أخفوا إيمانهم وهم مندسون بين الكفر، فلو أنكم دخلتم، وقاتلوكم، ستقاتلون الجميع مؤمنين وكافرين، فتقتلون إخوانا لكم، فلو كان هؤلاء الإخوان المؤمنون متميزين في جانب من مكة لأذنت لكم بقتال المشركين، كما تريدون واقرأ قول الله تعالى:

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

[الفتح]

بعد نزول الآية عرف المسلمون أن الامتناع كان لعلة ولحكمة ، فلما جاءوا في العام التالي قال الله لهم :

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ... ﴿١٩٤﴾ ﴾ [البقرة]

وكان الحق يطمئنهم ، فالذين صدوكم في ذي القعدة من ذلك العام ستقاتلونهم وستدخلون في ذي القعدة من العام القادم . وخاف المسلمون إن جاءوا في العام المقبل أن تنقض قريش العهد وتقاتلهم ، ونزل قول الحق :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [البقرة]

وعندما نتأمل قوله تعالى : «وقاتلوا في سبيل الله» فإننا نجد أن الحق سبحانه يؤكد على كلمة «في سبيل الله» لأنه يريد أن يضع حداً لجبروت البشر ، ولابد أن تكون نية القتال في سبيل الله لا أن يكون القتال بنية الاستعلاء والجبروت والطغيان فلا قتال من أجل الحمية ، أو المال أو لضمان سوق اقتصادي ، وإنما القتال لإعلاء كلمة الله ، ونصرة دين الله . هذا هو غرض القتال في الإسلام .

«وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» والحق ينهى عن الاعتداء ، أي لا يقاتل مسلم من لم يقاتله ولا يعتدى .

وهب أن قريشا هي التي قاتلت ، ولكن أناساً كالنساء والصبيان والعجزة لم يقاتلوا المسلمين مع أنهم في جانب من قاتل ، لذلك لا يجوز قتالهم ، نعم على قدر الفعل يكون رد الفعل . لماذا؟ لأن في قتال النساء والعجزة اعتداء ، وهو سبحانه لا يحب المعتدين . لكن قتال المؤمنين إنما يكون لرد العدوان لا بداية عدوان .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) ﴾

ونحن نسمع كلمة « ثقافة » وكلمة « ثقاف » ، والثقافة هي يسر التعلم ، أو أن تلم بطرف من الأشياء المتعددة ، وبذلك يصبح فلان مثقفاً أي لديه كمٌ من المعلومات ، ويعرف بعض الشيء عن كل شيء ، ثم يتخصص في فرع من فروع المعرفة فيعرف كل شيء عن شيء واحد .

كل هذه المعاني مأخوذة من الأمور المحسة ، والتثقيف عند العرب هو تقويم الغصن ، فقد كان العرب يأخذون أغصان الشجر ليجعلوها رماحاً وعصياً ، والغصن قد يكون معوجاً أو به نتوء ، فكان العربي يثقفه ، أي يزيل زوائده واعوجاجه ، ثم يأتي بالثقاف وهو قطعة من الحديد المعقوف ليقوِّم بها المعوج من الأغصان كما يفعل عامل التسليح بحديد البناء .

كان المُثَقِّف هو الذي يعدل من شيء معوج في الكون ، فهو يعرف هذه وتلك ، وأصبح لنا تقويم سليم . وهكذا نجد أن معاني اللغة وألفاظها مشتقة من المحسات التي أمامنا وقوله « ثقفتموهم » أي «وجدتموهم » ، نثقف الشيء أي نجده .

والحق يقول :

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم ﴾(من الآية ٥٧ سورة الأنفال)

أى «شردهم حيث تجدهم. ويقول الحق : «واقتلوهم حيث ثقفتموهم» أى لا تقولوا إنهم أخرجوكم من هنا، وإنما أخرجوهم من حيث أخرجوكم، أى من أى مكان أنتم فيه، وعند ذلك لن تكونوا معتدين. وقوله تعالى : «وأخرجوهم من حيث أخرجوكم» يذكرنا بمنطق مشابه فى آية أخرى منها قوله تعالى :

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦)﴾ [النحل]

وقوله تعالى :

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ... (٤٠)﴾ [الشورى]

وعندما نبحث فى ثنايا هذه النصوص «وجزاء سيئة سيئة مثلها» قد يرد هنا الخاطر: أخذت حقى من أساء إلى، وانتقمت منه بعمل يماثل العمل الذى فعله معى، هل يقال: إننى فعلت سيئة؟

وحتى نفهم المسألة نقول: الحق سبحانه وتعالى يأتى فى بعض الأحايين بلفظ «المشاكلة» وهى ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته، ومثل ذلك قوله «ومكروا ومكر الله»، إن الله لا يمكر، وإنما اللفظ جاء للمشاكلة. أو أن اللفظ الكريم قد جاء فى استيفاء حقك بكلمة «سيئة مثلها» ليتيهك إلى أن استيفاء حقك بمثل ما صنع بك يعتبر سيئة إذا ما وازناه بالصفح والعفو عن المسيء، يشير إلى ذلك سبحانه فى نهاية هذه الآية بقوله: «فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين» وبمثل ذلك كان ختام الآية السابقة «ولئن صبرتم لهو خير للصابرين».

ويقول الحق: «والفتنة أشد من القتل». والفتنة مأخوذة من الأمر الحسى، فصائغ الذهب يأخذ قطعة الذهب فيضعها فى النار فتنصهر، فإذا ما كان يشوبها معدن غريب عن الذهب فهو يخرج ويبقى الذهب خالصا، فكأن الفتنة ابتلاء واختبار. وقد فعل المشركون ما هو أسوأ من القتل، فقد حاولوا من قبل أن يفتنوا المؤمنين فى دينهم بالتعذيب، فخرج المؤمنون فراراً بدينهم

والحق يأمر المسلمين في قتالهم مع أهل الشرك أن يراعوا حرمة البيت الحرام ، فلا ينتهكوها بالقتال إلا إذا قاتلهم أهل الشرك .

وهكذا نجد أن أول أمر بالقتال إنما جاء لصد العدوان ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يسقط من أيدى خصوم الإسلام ورقة قد يلعبون بها مع المسلمين ، فهم يعلمون أن المؤمنين بالإسلام سيحترمون الأشهر الحرم ويحترمون المكان الحرام ويحترمون الإحرام فلا يقاتلون ؛ وربما أغرى ذلك خصوم الإسلام ألا يقاتلوا المسلمين إلا في الأشهر الحرم ، ويظنون أن المسلمين قد يتهيبون أن يقاتلوهم ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يشرع لهم ما يناسب مثل هذا الأمر فأذن لهم في القتال ، فإن قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم في الشهر الحرام ، وإن قاتلوكم في المكان الحرام فقاتلوهم في المكان الحرام ، وإن قاتلوكم وأنتم حُرُم فقاتلوهم ؛ لأن الحرمات قصاص .

إذن أسقط الحق الورقة من أيدى الكافرين . إن الحق سبحانه وتعالى يعلل ذلك بأنه وإن كان القتال في الشهر الحرام وفي المكان الحرام وفي حال الإحرام صعباً وشديداً، فالفتنة في دين الله أشد من القتل ، لأن الفتنة إنما جاءت لِتُفسد على الناس دينهم ، صحيح أنها لا تعوق الناس عن أن يتدينوا ، ولكنها تفتن الذين تدينوا، وقد حاولوا إجبار المسلمين الأوائل بالتعذيب حتى يرتدوا عن الدين ، وكان ذلك أشد من القتل لأنها فتنة في الدين .

إن الله هو الذى شرع الشهر الحرام، فكيف يُفتن المؤمنون عن دين الله ويُحملون على الشرك به ثم تقولون بعد ذلك إننا في الشهر الحرام ؟ إن الشهر الحرام لم يكن حراماً إلا لأن الله هو الذى حرمه ، فالفتنة في الله شرك وهو أشد من أن نقاتل في الشهر الحرام ، ولذلك فلا داعي أن يتحرج أحد من القتال في الشهر الحرام عندما يفتن في دينه . وحينئذ نعلم أن القتال إنما جاء دفاعاً .

وبعد ذلك هل يظل القتال دفاعاً كما يريد خصوم الإسلام أن يجعلوه دفاعاً عَمّن آمن فقط ؟ أو كما يريد الذين يحاولون أن يدفعوا عن الإسلام أنه دين قتال

ويقولون : لا ، الإسلام إنما جاء بقتال للدفاع فقط. نقول لهؤلاء : قتال الدفاع عمّن ؟ هل دفاع عمّن آمن فقط ؟ أم عن مطلق إنسان نريد أن ندفع عنه ما يؤثر في اختيار دينه ؟

هو دفع أيضاً ، ونسميه دفاعاً ، ولكنه دفاع عمّن آمن ، ندفع عنه مَنْ يعتدى عليه ، وأيضاً عمّن لم يؤمن ندفع عنه مَنْ يؤثر عليه في اختيار دينه لنحمي له اختياره ، لا لنحمله على الدين ، ولكن لنجعله حراً في الاختيار ، فالقوى التي تفرض على الناس ديناً نزيحها من الطريق ، ونعلن دعوة الإسلام ، فمَنْ وقف أمام هذه الدعوة نحاربه ؛ لأنه يفسد على الناس اختيار دينهم ، وهي هذا أيضاً دفاع .

﴿ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ﴾ لأنكم أحرى وأجدر أن تحترموا تحريم الله للمسجد الحرام ، لكن إذا هم اجترأوا على القتال في المسجد الحرام فقد أباح سبحانه لكم أيها المسلمون أن تقاتلوهم عند المسجد الحرام ما داموا قد قاتلوكم فيه ﴿ فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ﴾ . وما أسمى هذا الدين .

إننا لا نؤاخذهم بعد أن انتهوا إلى الإيمان بما قدمت أيديهم من الاجتراء على أهل الإيمان ما داموا قد آمنوا ، ولذلك نرى عمر بن الخطاب وقد مر على قاتل أخيه زيد بن الخطاب : وأشار رجل وقال . هذا قاتل زيد . فقال عمر . وماذا أصنع به وقد أسلم ؟ لقد عصم الإسلام دمه .

لقد انتهت المسألة بإسلامه ، فالإيمان بالله أعز على المؤمن من دمه ومن نفسه ، وحين يؤمن فقد انتهت الخصومة . وهذا وحشي قاتل حمزة ، يقابله رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل ما يصنعه رسول الله هو أن يزوى وجهه عنه ، لكنه لا يقتله ولا يثأر منه. وهند زوجة أبي سفيان التي أكلت كبد حمزة ، أسلمت وانتهت مسألتها بإسلامها . إذن ، فالإسلام ليس دين حقد ولا ثأر ولا تصفية حسابات ، فإذا كان الدم يغلي في مواجهة الكفر ، فإن إيمان الكافر بالإسلام يعطيه السلامة ، هذا هو الدين .

﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾

أي مادموا قد كفوا عما يصنعون من الفتنة بالدعوة والشرك بالله وزُجروا بالدين الأمر فانزجروا عن الكفر، بعدها لا شيء لنا عندهم؛ لأن الله غفور رحيم، فلا يصح أن يشيع في نفوسنا الحقد على ما فعلوه بنا قديما، بل نحتسب ذلك عند الله ، ومادامو قد آمنوا فذلك يكفينا. والحق سبحانه وتعالى بعد أن أعطانا مراحل القتال ودوافعه قال:

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى الظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾

وعرفنا أن الفتنة ابتلاء واختبار والحق يقول:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت]

إن الحق يختبر الإيمان بالفتنة، ويرى الذين يُعلنون الإيمان هل يصبرون على ما فيه من ابتلاءات أم لا؟ فلو كان دخول الإسلام لا يترتب عليه دخول في حرب أو قتال ولا يترتب عليه استشهاد بعض المؤمنين لكان الأمر مغريا لكثير من الناس بالدخول في الإسلام، لكن الله جعل لهم الفتنة في أن يُهزَموا ويُقتل منهم عدد من الشهداء، وذلك حتى لا يدخل الدين إلا الصفوة التي تحمل كرامة الدعوة، وتتولى حماية الأرض من الفساد، فلابد أن يكون المؤمنين هم خلاصة الناس.

لذلك قال سبحانه: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة». معنى أن يكون الدين لله، أي تخرجوهم من ديانة أنفسهم أو من الديانات التي فرضها الطغيان عليهم، وعندما نأخذهم من ديانات الطغيان، ومن الديانات التي زينها الناس إلى ديانات الخالق فهذه مسألة حسنة بالنسبة لهم، وتلك مهمة سامية. كأنك بهذه

المهمة السامية تريد أن ترشد العقل الإنساني وتصرفه وتمنعه من أن يَدِينَ لمسار له ؛ إلى أن يدين لمن خلقه . وعلى صاحب مثل هذا العقل أن يشكر من يوجهه إلى هذا الصواب . ولذلك يُجلي الحق سبحانه وتعالى هذه الحقيقة فيقول على لسان الرسول :

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

[الفرقان]

فكأننا لو نظرنا إلى عمل الرسول بالنسبة إلينا بمنظار الاقتصاد لوجب أن يكون له أجر، لأنه يقدم المنفعة لنا، وبرغم ما قدمه من منفعة فهو لا يأخذ أجراً، لأنه زاهد في الأجر فإنه يعلم أن الأجر من المساوى له قليل مهما عظم وهو يريد الأجر ممن خلقه، وهذا طمع في الأعلى؛ لأنه لا يعطى الأجر على الإيمان إلا الله سبحانه وتعالى ، وهو الذي يعطى بلا حدود .

ويختم الحق هذه الآية الكريمة بقوله : «فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين» أي أنهم إذا انتهوا إلى عدم قتالكم، فأنتم لن تعتدوا عليهم ، بل ستر دون عدوان الظالم منهم . والظالم حين يعتدى يظن أنه لن يقدر عليه أحد، والحق يطلب منا أن نقول له: بل نقدر عليك ، ونعتدى عليك بمثل ما اعتديت علينا ويعطينا الحق حيثية ذلك فيقول :

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾

والمقصود هو أنه إذا ما قاتلوكم فى الشهر الحرام فقاتلوهم فى الشهر الحرام، فإذا ما اعتدوا على حرمة زمان فالقصاص يكون فى زمان مثله ، وإن عتدوا فى حرمة مكان يكن القصاص بحرمة مكان مثله، وإذا كان الاعتداء بحرمة إحرام ، يكون الرد بحرمة إحرام مثله ؛ لأن القصاص هو أن تأخذ للمظلوم مثل ما فعل الظالم

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يخفف وقع الأمر على المؤمنين الذين رُدوا عام الحديبية فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة وأعادهم المشركون إلى المدينة ، فاقتص الله منهم بأن أعادهم فى ذى القعدة فى العام القابل في السنة السابعة من الهجرة ، فإن كانوا قد مُنعوا فى الشهر الحرام فقد أراد الله أن يعودوا لزيارة البيت فى الشهر الحرام في الزمان نفسه

وقوله الحق ، « والحرمات قصاص » يقتضى منا أن نسأل كيف يكون ذلك ؟ وما هو الشيء الحرام ؟ إن الشيء الحرام هو ما يُحظر هتكه ، والشيء الحلال هو المُطلق والمأذون فيه فهل يعنى ذلك أن الذى يقوم بعمل حرام نقتص منه بعمل مماثل ؟

هل إذا زنى رجل بامرأة نقول له نقتص منك بالزنى فيك ؟ لا إن القصاص في الحرمات لا يكون إلا فى المأذون به وكذلك إذا سرق مني إنسان مالاً وليس لديَّ بينة ، لكنى مقتنع بأنه هو الذى سرق هل أقتص منه بأن أسرق منه ؟ لا . إن القصص إنما يكون فى الأمر المعروف الواضح ، أما الأمر المختفى فلا يمكن أن نقتص منه بمثل ما فعل .

لكن هب أن أحد الأقارب ممَّنْ تجب نفقتهم عليك وامتنعت أنت عن النفقة على هذا الإنسان ، وهذا أمر محرم عليك ، ومادام الأمر علنيا، فله أن يأخذ من مالك فيأكل وتكون المسألة قصاصاً وهب أن زوجتك تشتكي من بخلك وتقصيرك ، كما

اشتكت هند زوجة أبي سفيان لرسول الله ﷺ من بخل زوجها فقال لها: خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك وولدك.

ومثال آخر، هب أن ضيفا بمنزلك ورفضت أن تكرمه، وانتهز فرصة بعدك عن المكان الذي يجلس فيه ثم تناول شيئا وأكله. لا يكون تعديا عليك مالم يكن داخلا في محرم آخر، وبعد ذلك يترك الحق لولي الأمر تنظيم هذه الأمور حتى لا تصير المسائل إلى الفوضى.

وقوله الحق: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» يدعونا إلى اليقظة حتى لا يخدعنا أحد ويدعي الإيمان وهو يريد الانتقام. ويجب أن نتمثل قول الشاعر:

إن عادت العقرب عدنا لها

وكانت النعل لها حاضرة

ويختتم الحق الآية الكريمة بقوله: «واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين» أي لا تظنوا أن الله ملككم فيهم شيئاً، بل أنتم وهم مملوكون جميعا لله. ويقول الحق من بعد ذلك:

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾

وهذه الآية جاءت بعد آيات القتال، ومعناها: أعدوا أنفسكم للقتال في سبيل الله.

وقوله الحق: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» تقتضي منا أن نعرف أن كلمة

«تهلكة» على وزن تَفْعُلة ولا نظير لها في اللغة العربية إلا هذا اللفظ، لا يوجد على وزن تَفْعُلة في اللغة العربية سوى كلمة «تهلُكة»، والتهلكة هي الهلاك، والهلاك هو خروج الشيء عن حال إصلاحه بحيث لا يُدرى أين يذهب، ومثال ذلك هلاك الإنسان يكون بخروج روحه. والحق يقول:

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنفال]

فالهلاك ضد الحياة، وعلى الإنسان أن يعرف أن الحياة ليست هي الحس والحركة التي نراها، إنما حياة كل شيء بحساب معين فحياة الحيوان لها قانونها وحياة النبات لها قانونها، وحياة الجماد لها قانونها، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى جعل «يهلك» أمام «يحيى» وهو سبحانه القائل:

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص]

فلسنا نحن فقط الذين يهلكون، ولا الحيوانات، ولا النباتات وإنما كل شيء بما فيه الجماد، كأن الجماد يهلك مثلنا، ومادام يهلك فله حياة ولكن ليست مثل حياتنا، وإنما حياة بقانونه هو، فكل شيء مخلوق لمهمة يؤديها، فهذه هي حياته.

وقوله الحق: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» يكشف لنا بعضاً من روائع الأداء البياني في القرآن، ففي الجملة الواحدة تعطيك الشيء ومقابل الشيء وهذا أمر لا نجده في أساليب البشر؛ فالحق في هذه الآية يقول لنا: «أنفقوا في سبيل الله» أي أنفقوا في الجهاد، كما يقول بعدها: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» لماذا؟ لأن الإنفاق هو إخراج المال إلى الغير الذي يؤدي لك مهمة تفيد في الإعداد لسبيل الله، كصناعة الأسلحة أو الإمدادات التموينية، أو تجهيز مبانٍ وحصون، هذه أوجه إنفاق المال.

والحق يقول: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» وكلمة «ألقى» تفيد أن هناك شيئا عاليا وشيئا أسفل منه، فكأن الله يقول: لا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة، وهل سيلقى الواحد منا نفسه إلى التهلكة، أو أن يلقى نفسه فى التهلكة بين عدوه؟ لا، إن اليد المغلولة عن الإنفاق فى سبيل الله هى التى تُلقى بصاحبها إلى التهلكة؛ لأنه إن امتنع عن ذلك اجترأ العدو عليه، ومادام العدو قد اجترأ على المؤمنين فسوف يفتنهم فى دينهم، وإذا فتنهم فى دينهم فقد هلكوا. إذن فالاستعداد للحرب أنفى للحرب، وعندما يرى العدو قوياً فهو يهابك ويتراجع عن قتالك.

والحق سبحانه ـ كما يريد منا فى تشريع القتال أن نقاتل ـ يأمرنا أن نزن أمر القتال وزناً دقيقاً بحسم، فلا تأخذنا الأريحية الكاذبة ولا الحمية الرعناء، فيكون المعنى: ولا تقبلوا على القتال إلا إن كان غالب الظن أنكم ستنتصرون، فحزم الإقدام قد يطلب منك أن تقيس الأمور بدقة، فالشجاعة قد تقتضى منك أن تحجم وتمتنع عن القتال فى بعض الأحيان، لتنتصر من بعد ذلك ساعة يكمل الإعداد له.

والمعنى الأول يجعلك تنفق فى سبيل الله ولا تلقى بيدك إلى التهلكة بترك القتال. والمعنى الثانى أى لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بأن تقبلوا على القتال بلا داع أو بلا إعداد كاف. إن الحق يريد من المؤمنين أن يزنوا المسائل وزناً يجعلهم لا يتركون الجهاد فيهلكوا؛ لأن خصمهم سيجترىء عليهم، ولا يحبهم فى أن يلقوا بأيديهم إلى القتال لمجرد الرغبة فى القتال دون الاستعداد له. وهذا هو الحزم الإيمانى. إنها جملة واحدة أعطتنا عدة معان.

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله: «وأحسنوا إن الله يحب المحسنين» الحق يقول: «وأحسنوا». والإحسان كما علمنا رسول الله ﷺ: «أن تعبد الله ـ أى تطيع أوامره ـ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

مشكلة الناس هذه الأيام أنهم يتشهدون بـ «فإنه يراك»، فعملوا الدوائر التليفزيونية المغلقة فى المحلات الكبرى حتى تتم مراقبة سير العمل فى أرجاء المحل، هذه فعل البشر. لكن انظر إلى تسامى الإيمان، إنه يأمرك أنت أن ترى الله،

(١) جزء من حديث أخرجه الشيخان.

فلا تؤد العمل أداء شكلياً يرفع عنك العتب ، بل عليك أن تؤدى العمل بقصد الإحسان فى العمل

والإحسان فى كل شيء هو إتقانه إتقاناً بحيث يصنع الإنسان لغيره ما يحب أن يصنعه غيره له ، ولو تعامل الناس على هذا الأساس لازدهرت كل الصناعات ، لكن إذا ساد الغش فأنت تغش غيرك ، وغيرك يغشك ، وبعد ذلك كلنا نجأر بالشكوى ، وعلينا إذن أن نحسن فى كل شيء مثلا نحسن فى الإنفاق ، ولن نحسن فى الإنفاق إلا إذا أحسنا فى الكدح الذى يأتى بثمرة ما ننفق ؛ لأن الكدح ثمرته مال ، ولا إنفاق إلا بمال ، فتخرج من عائد كدحك لتصرفه فى المناسب من الأمور

ودائرة الإحسان لا تقتصر على القتال فقط ، فالأمر هنا عام ، ولا تعتقد أنه أمر فى زاوية من زوايا الدين جاءت لتخدم جزئية من جزئيات الحياة ، إنما كل زاوية من زوايا الدين جاءت لتخدم كل جزئيات الحياة ، فالإحسان إذا كان بالمال فهذا يقتضى أن يحسن الإنسان الحركة فى الأرض ، ويعمل عملاً يكفيه ويكفى من يعول ، ثم يفيض لديه ما يحسن به .

إذا لم يتوافر المال ، فعليك أن تحسن بجاهك وتشفع لغيرك ، والجاه قد قومه الإسلام أى جعل له قيمة ، فعلى صاحب الجاه أن يشفع بجاهه فيساعد أصحاب الحقوق فى الحصول على حقوقهم ،وعلى الوجيه أيضا أن يأخذ الضعيف فى جواره ويحميه من عسف وظلم القوى ، وعليه بجاهه أن يقيم العدل فى البيئة التى يعيش فيها

والوجاهة تعنى أن يكون للإنسان احترام أو وزن أو تقدير ، وهذه الأشياء لها مسببات فى إحساس الشخص ، لا يأخذها بلا سبب ، إنما سبقها عمل جعل له وجاهة عند الناس فالناس فى العادة لا يحترمون إلا من يكون له لون من الفضل عليهم ، فكأنه احترام مدفوع الثمن ، وليس احتراما مجانياً . وقد يكون الإحسان بالعلم أو بفضل القوة ، بإعانة الضعيف . أو باكتساب الخبرة للآخرين . أو بتفريج كربة عن مسلم .

إذن وجوه الإحسان في الأشياء كثيرة، وكلها تخدم قضية الإيمان. وعندما يرى الكافر المؤمنين وكل واحد منهم يحسن عمله فإن ذلك يغريه بالإيمان. وإذا سألنا: ما الذي زهد دنيانا المعاصرة في ديننا؟ سوف نجد أن العالم ينظر إلى دين الله من خلال حركة المسلمين. وهي حركة غير إسلامية في غالبيتها. صحيح أن بعضاً من عقلاء الغرب وفلاسفته لا يأخذون الدين من حركة المسلمين، وهذا منتهى العدالة منهم لأنه ربما كان بعض المسلمين غير ملتزم بدينه، فلا يأخذ أحد الإسلام منه لمجرد إنه مسلم.

وأتباع الديانات الأخرى يعرفون ان هناك افعالا حرمها دينهم. ومادام هناك أفعال جرمها الدين وسن لها عقوبة فذلك دليل على أنها قد تقع، فأنت عندما ترى شخصاً ينتسب إلى الإسلام ويسرق، هل تقول: إن المسلمين لصوص لا، إن عليك أن تنظر إلى تشريعات الإسلام هل جرمت السارق أو لم تجرمه؟ فلا يقولن أحد: انظر إلى حال المسلمين. ولكن لننظر إلى قوانين الإسلام، لأن الله قدر على البشر أن يقوموا بالأفعال حسنها وسيئها، ولذلك أثاب على العمل الصالح وعاقب على العمل السيىء.

والعقلاء والمفكرون يأخذون الدين من مبادىء الدين نفسه، ولا يأخذونه من سلوك الناس، فقد يجوز أن تقع عين المراقب على مُخالف في مسألة يحرمها الدين. فلا تأخذ الفعل الخاطىء على أنه لإسلام، وإنما خذه على أنه خارج على الإسلام.

وساعة يرانا العالم مسحين في كل شيء فنحن نعطيهم الأسوة التي كان عليها أجدادنا، وجعلت الإسلام يمتد ذلك المد الخرافي الأسطوري حتى وصل في نصف قرن إلى آخر الدنيا في الشرق، وإلى آخرها في الغرب، وبعد ذلك ينحسر سياسيا عن الأرض، ولكن يظل كدين، ويبقى من الإسلام هذا السلطان الذي يجذب له الناس. إن الإسلام له مناعة في خميرته الذاتية إنه يحمل مقومات بقائه وصلاحيته، وهو الذي يجذب غير المسلمين له فيؤمنون به، وليس المسلمون هم الذين يجذبون الناس للإسلام.

ولذلك أقول: لو أن التمثيل السياسي للأمم الإسلامية في البلاد غير الإسلامية

المتحضرة قد أخذ بمبادىء الإسلام لكان أسوة حسنة . وانظر إلى عاصمة واحدة من عواصم الدول الغربية تجد فيها أكثر من ثلاث وستين سفارة إسلامية ، وكل سفارة يعمل بها جهاز يزيد على العشرين ، هب أن هؤلاء كانوا أسوة إسلامية في السلوك والمعاملات في عاصمة غير إسلامية ، حينئذ يجد أهل ذلك البلد جالية إسلامية ملتزمة ولمْ تفتنها زخارف المدنية ؛ لا يشربون الخمر ، ولا يراقصون ، ولا يترددون على الأماكن السيئة السمعة ، ولا تتبرج نساؤهم ، بالله ألا يلفت النظر سلوكُ هؤلاء ؟

لكن ما يحدث - للأسف - هو أن أهل الغرب - على باطلهم - غلبوا بنى الإسلام - على حقهم - واخذوهم إلى تحللهم ، وهذا الاتباع الأعمى يجعل الغربيين يقولون : لو كان في الإسلام مناعة لحفظ أبناءه من الوقوع فيما وقعنا فيه .

إذن الإحسان من المسلمين أكبر دعاية ودعوة إلى دين الإسلام . إن الحق يقول « إن الله يحب المحسنين » والحب كما نعرفه هو ميل قلب المحب إلى المحبوب ، وذلك الأمر يكون بالنسبة للبشر ، لكن بالنسبة للحق هو تودد الخالق بالرحمة والكرامة على المخلوق ، والحق سبحانه وتعالى يحب من عباده أن يكونوا على خُلقه، فكما أن الله أحسن كل شيء خلقه « الذى أحسن كل شيء خلقه » يريد من عباده وقد تفضل عليهم بالعقل المفكر فيخطط ، وبالطاقات فتبرز التفكير إلى عمل يريد الحق ما أن يكون رائدنا في كل عمل أن نحسنه ؛ حتى نكون متخلقين بأخلاق الله، فتشيع كلمة « الله » هذا اللفظ الكريم الذى يستقبل به الإنسان كل جميل في أى صنعة ، فيقول : « الله »

إذن تشيع كلمة « الله » نغمة في الوجود تعليقاً على كل شيء حسن ، حتى الذى لا يؤمن بذلك الإله يقول أيضاً : « الله » ، كأن الفطرة التى فطر الله الناس عليها تنطق بأن كل حسن يجب أن يُنسب إلى الله سواء كان الله هو الذى فعل مباشرة كالأسباب والكونيات والنواميس ، أو خلق الذى فعل الحسن ، فكل الأمور تؤول إلى الله .

ولو علم الذين لا يحسنون أعمالهم بهذا يحرمون الوجود لتحسروا على أنفسهم،

وليتهم يحرمون الوجود من كلمة «الله»، ولكنهم يجعلون مكان «الله كلمة خبيثة فيشيمون القبح في الوجود، وحين يشيع القبح في الوجود يكون الإنسان في عمومه هو الخاسر.

فقول الله: «إن الله يحب المحسنين» تشجيع لكل من يلي عملاً أن يحسنه ليكون على أخلاق الله. وبعد ذلك يقول الحق:

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾

والنسق القرآني نسق عجيب، فأنتم تذكرون أنه تكلم عن الصيام ورمضان يأتي قبل أشهر الحج، فكان طبيعياً أن يتكلم عن الحج بعد أن تكلم عن رمضان وعن الأهلة وعن جعل الأهلة مواقيت للناس والحج كما أن هناك شيئاً آخر يستدعي أن يتكلم في الحج وهو الكلام عن القتال في الأشهر الحرم، وعن البيت الحرام فقد قال سبحانه.

﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ﴾

(من الآية ١٩١ سورة البقرة)

إذن فالكلام عن الحج يأتي في سياقه الطبيعي. وحين يقول الله: « وأتموا الحج والعمرة لله » نفهم منه أن الأمر بإتمام الشيء لا يكون إلا إذا جاء الأمر بفرض هذا الفرض ، فكأنك بدأت في العمل بعد التشريع به ، ويريد منك سبحانه الا تحج فقط ، ولكن يريد منك أن تتمه وتجعله تاماً مستوفياً لكل معلومات المشرع به .

وساعة يقول الحق : « وأتموا الحج والعمرة » ، لقائل أن يقول : إن الحج شيء والعمرة شيء آخر ، بدليل عطفها عليه ، والعطف يقتضي المغايرة كما يقتضي المشاركة ، فإن وُجدت مشاركة ولم توجد مغايرة فلا يصح العطف ، بل لابد أن يوجد مشاركة ومغايرة . والمشاركة بين الحج والعمرة أن كليهما نسك وعبادة ، وأما المغايرة فهي أن للحج زمناً مخصوصاً ويشترط فيه الوقوف بعرفة ، وأما العمرة فلا زمن لها ولا وقفة فيها بعرفة

ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول في مشروعية الحج

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

ولم يأت في تلك الآية بذكر العمرة ، ومنها نعرف أن الحج شيء والعمرة شيء آخر ، والمفروض علينا هو الحج . ولذلك أقول دائماً لابد لنا أن نأخذ القرآن جملة واحدة ، ونأتي بكل الآيات التي تتعلق بالموضوع لنفهم المقصود تماماً ، فحين يقول الحق في قرآنه أيضاً : « وأتموا الحج والعمرة لله » نعرف من ذلك أن العمرة غير الحج ، وحين نقرأ قول الله في سورة براءة :

﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ﴾

(من الآية ٣ سورة التوبة)

تعرف أن هناك حجاً أكبر، وحجاً ثانيا كبيراً. ولذلك فاية «ولله على الناس حج البيت» جاءت بالبيت المحرم، وهو القدر المشترك فى الحج والعمرة. ونعرف أن الحج الأكبر هو الحج الذى يقف فيه المسلم بعرفة؛ لأن الرسول ﷺ قال: «الحج عرفة»[1]. وهو الحج الأكبر؛ لأن الحشد على عرفة يكون كبيراً، وهو يأتى فى زمن مخصوص ويُشترط فيه الوقوف بعرفة.

إذن قوله تعالى: «ولله على الناس حج البيت» الحج هو القصد إلى مُعظَّم وهو «حج البيت»، أما العمرة فهى الحج الكبير وزمانها شائع فى كل السنة، والقاصدون للبيت يتوزعون على العام كله. وذلك قد ثبت بالتشريع بقوله سبحانه: «ولله على الناس حج البيت». ومادام جاء بالأمر المشترك فى قوله: حج البيت فهو يريد الحج الأكبر والحج الكبير.

والحق سبحانه وتعالى يخاطب عباده ويعلم أن بعض الناس سيقبلون على العبادات إقبالاً شكلياً، وقد يقبلون على العبادة لأغراض أخرى غير العبادة، فكان لابد أن يبين القصد من الحج والعمرة، وأن المطلوب هو تمامهما، ولابد أن يكون القصد لله لا لشيء آخر، لا ليقال «الحاج فلان»، أو ليشترى سلعاً رخيصة ويبيعها بأغلى من ثمنها بعد عودته.

ونحن نعلم أن الحج هو العبادة الوحيدة التى يستمر اقترانها بفاعلها، فمثلاً لا يقال: «المصلى فلان» ولا «المزكى فلان»، فإن كان الحاج حريصاً على هذا اللقب، وهو دافعه من وراء عبادته فلابد ألا يخرج بعبادته عن غرضها المشروعة من أجله، إن الحق يقول: «وأتموا الحج والعمرة لله». وكلمة «لله» تحدثنا فى قضايا متعددة، فما هى هذه القضايا؟

إن المسلم عندما يريد أن يحج لله فلا يصح أن يحج إلا بمال شرع الله وسائله. كثير من الناس حين يسمعون الحديث الشريف.

---

(١) رواه أحمد وأبوداود والترمذى والنسائى وابن ماجه

«من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[1]

يعتقدون أن الإنسان له أن يرتكب ما يشاء من معاص ومظالم، ثم يظن أن حجة واحدة تُسقط عنه كل ذنوبه، نقول لهؤلاء: أولاً. لابد أن تكون الحجة لله

وثانياً: أن تكون من مال حلال، ومادامت لله ومن مال حلال فلابد أن نعرف ماهي الذنوب التي تسقط عنه بعد الحج، فليست كل الذنوب تسقط، وإنما الذنوب المتعلقة بالله سبحانه وتعالى؛ لأن الذنب المتعلق بالله أنت لم تظلم الله به، لكن ظلمت نفسك، ولكن الذنب المتعلق بالبشر فيه إساءة لهم أو انتقاص من حقوقهم، وبالتالي فإن ظلم العباد لا يسقط إلا برد حقوق العباد.

ونعرف أن العمرة هي قصد البيت الحرام في مطلق زمان من العام، والحج قصد البيت في خصوص زمان من العام، ويقول بعض العلماء: إن هذا تكليف وذاك تكليف، فهل يجوز أداؤهما معاً، أم كل تكليف يؤدى بمعزل عن الآخر؟

وبعضهم تناول ملحظيات الفضل والحسن، فالذي يقول: إن الإفراد بالحج أحسن، فذلك لأنه خص كل نُسك بسفرة، والذي يقول: يؤديهما معاً ويحرم بالحج والعمرة معاً بإحرام واحد، فيذهب أولاً ويأتي بنسك العمرة، ثم يظل على إحرامه إلى أن يخرج إلى الحج، وفي هذه الحالة يكون قد قرن الأمرين معاً؛ أي أداهما بإحرام واحد وهذا ما يفضله بعض من العلماء؛ لأن الله علم أن العبد قد أدى نسكين بإحرام واحد، وهناك إنسان متمتع أي يؤدي العمرة، ثم يتحلل منها، وبعد ذلك يأتي قبل الحج ليحرم بالحج، وهذا اسمه التمتع، وهو متمتع لأنه تحلل من الإحرام، ومن العلماء من يقول: إن التمتع أحسن لأنه فصل بين أمرين بما أخرجه عن العادة، أحرم ثم تحلل ثم أحرم.

إذن كل عالم له ملحظ، فكأن الله لا يريد أن يضيق على خلقه في أداء نُسك على أي لون من الألوان وقد احتاط المشرع سبحانه وتعالى عند التكليف،

---

(١) رواه البخاري والنسائي وابن ماجه وأحمد عن أبي هريرة.

واحترم كل الظروف سواء كانت الظروف التي قد تقع من غير عزيم وهو القدريات، أو تقع من عزيم، وهي التي لها أسباب أخرى فقال: «فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى»

وأحصرتم تعني مُنِعْتُم . وهناك «حصر» وهي للقدريات، وهناك «أحصر» وتكون بفعل فاعل مثل تدخل العدو كما حوصر رسول الله ﷺ في عام الحديبية، وقيل له لا تدخل مكة هذا العام، لذلك فالحق سبحانه وتعالى يخفف عنا وكأنه يقول لنا: أنا لا أهدر تهيؤ العباد، ولا نيتهم ولا استعدادهم ولا إحرامهم؛ فإن أُحصروا «فما استيسر من الهدى» والهدى هو ما يتم ذبحه تقربا إلى الله، وكفارة عما حَدث.

ثم يقول بعد ذلك: «ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله» أي إلى أن يبلغ المكان المخصص للذلك، هذا إن كنت سائق الهدى، أما إن لم تكن سائق الهدى فليس ضروريا أن تذبحه، ويكفي أن تكلف أحداً يذبحه لك، وقوله الحق: «فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى» تعني أنه يصح أن يذبح الإنسان الهدى قبل عرفة، ويصح أن تؤخره ليوم النحر، ويصح أن يذبحه بعد ذلك كله.

«فما استيسر من الهدى» تعني أيضاً إن كان الحصول على الهدى سهلاً، سواء لسهولة دفع ثمنه، أو لسهولة شرائه، فقد توجد الأثمان ولا يوجد المُثمَّن. «والهدى» هو ما يُهدى للحرم، أو ما يهدى الإنسان إلى طريق الرشاد. والمعنى مأخوذ من الهُدى، وهو الغاية الموصلة للمطلوب.

وقوله تعالى: «ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية» فالمريض الذى لا يستطيع أن يذبح الهدى وعنده أذى من رأسه كالصحابي الذى كان في رأسه قمل، وكان بسبب له الما، فقال له رسول الله: «احلق رأسك وصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين أو انسك بشاة»[1]

إنها تشريعات متعاقبة وكل تشريع له مناسبة، فكما شرع لمن أحصر ما استيسر

---

(١) رواه البخاري ومسلم

من الهدى ، كذلك شرع لمن حلق رأسه لمرض أو كان به أذى من رأسه ، شرع له ثلاثة أشياء : صيام أو صدقة أو نسك

والمتأمل هذه الأشياء الثلاثة يجد أنها مرتبة ترتيبا تصاعدياً . فالصيام هو أمر لا يتعدى النفع المباشر فيه إلى الغير ، والصدقة عبادة يتعدى النفع فيها للغير ، ولكن بقدر محدود لأنها إطعام ستة أفراد مثلاً ، والنسك هو ذبيحة ، ولحمها ينتفع به جمع كبير من الناس .

فانظر إلى الترقى فى النفع ، إما صوم ثلاثة أيام ، وإما إطعام ستة مساكين ، وإما ذبح ذبيحة أى شاة . إن هذا تصعيد من الأضعف للأقوى كل بحسب طاقته ومقدرته

والحق سبحانه وتعالى ساعة يشرع كفارات معينة فذلك من أجل مراعاة العمليات المطلوبة فى الحج ، والمناسبة لظروف وحالة المسلم ، فأباح له فى حالة التمتع مثلاً أن يقسم الصوم إلى مرحلتين . ثلاثة أيام فى الحج ، وسبعة إذا رجعتم . إنه الترقى فى التشريعات ، واختيار للأيسر الذى يجعل المؤمن يخرج من المأزق الذى هو فيه

« فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم » .

وكلمة « فمن لم يجد » معناها أنه لا يملك ، وهذا الذى لا يملك نقول له لا تفعل كما يفعل كثير من الناس قبل أن يطوفوا ، إذ بعضهم يذهب للسوق ويشترى الهدايا ، وبعد ذلك ساعة وجوب الهدى عليه يقول : ليس معى ولذلك سأصوم . هنا نقول له : ألم تكن ثمن تلك الهدايا يصلح لشراء الهدى ؟

إنه لأمر غريب أن نجد الحاج يشترى هدايا لا حصر لها ، ساعات وأجهزة كهربائية ويملأ حقائبه ، ثم يقول لا أجد ما أشترى به الهدى . أليس ذلك غشاً

وخداعاً ؟ إن من يفعل ذلك يغش نفسه .

إذن قوله تعالى : «فمن لم يجد» يعني لا يجد حقا ، لا من تنفد أمواله في الهدايا ، ثم يصبح صفر اليدين ، ولذلك فالذين يحسنون أداء النسك لا يشترون هداياهم إلا بعد تمام أداء المطلوب في النسك ، وإن بقي معهم مال اشتروا على قدر ما معهم

والذين ينفقون أموالهم في شراء الهدايا ثم يأتون عند «فما استيسر من الهدى» ويقولون ليس معنا ثمن الهدى وسنصوم ، الغريب أنهم لا يتذكرون الصوم إلا عند عودتهم ، ألم يكن الأفضل للواحد منهم أن يصوم من البداية ، من لحظة أن يعرف أنه لا يملك ثمن الهدى ويدخل في الإحرام للعمرة؟

إن المفروض أن يبدأ في صوم الثلاثة أيام حتى يكون عذره مسبقاً وليس لاحقاً ، وبعض العلماء أباح صوم أيام التشريق ، وأيام التشريق الثلاثة هي التي تلي يوم العيد لأنهم كانوا «يشرقون اللحم» أي يبسطونه في الشمس ليجف ويقدد . وبعد ذلك عندما ينتهي من أداء المناسك إما أن يصوم السبعة الأيام في الطريق وهو عائد ، أو عندما يصل لمنزله ، إن له أن يختار ما يناسبه «فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة» ومعروف أن «ثلاثة» أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة» ومعروف أن «ثلاثة» و «سبعة» تساوي «عشرة» ، وذلك حتى لا يظن الناس أن المقصود إما صوم ثلاثة أيام وإما سبعة أيام . لذلك قال : «عشرة كاملة» حتى لا يلتبس الفهم .

وربما أراد الحق سبحانه وتعالى أن ينبهنا إلى أن الصائم سيصوم عشرة أيام فهي كاملة بالنسبة لأداء النسك . وليس الذابح بأفضل من الصائم ، فمادام لم يجد ثمن الهدى وصام العشرة الأيام ، فله الأجر والثواب كمن وجد وذبح . فإياك أن تظن أن الصيام قد يُنقصُ الأجر أو هو أقل من الذبح .

ويقول الحق : «ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام» . وهذا التشريع مقصود به من لم يكن أهله مقيمين بمكة . ونعرف أن حدود المسجد الحرام هي اثنا عشر ميلاً ، والمقيم داخل هذه المسافة لا يلزمه ذبح ولا صوم ، لماذا؟ بعض العلماء

قال لأن المقيمين حول المسجد الحرام طوافهم دائم فيغنيهم عن العمرة، فإن حج لا يدخل في هذا التشريع .

ويختم الحق هذه الآية بقوله : « واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب» . كيف يقول الحق : إنه شديد العقاب في التيسيرات التي شرعها ؟ أي . إياكم أن تغشوا في هذه التيسيرات ، فليس من المعقول أو من المقبول أن مدلس شيئاً فيها ، لذلك حذرنا سبحانه من الغش في هذه المناسك بقوله : « واعلموا أن الله شديد العقاب » .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾

ولنا أن نلحظ أن الحق قال في الصوم : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » ، ولم يذكر شهور الحج : شوالاً وذا القعدة وعشرة من ذي الحجة كما ذكر رمضان ، لأن التشريع في رمضان خاص به فلابد أن يعين زمنه ، لكن الحج كان معروفاً عند العرب قبل الإسلام ، ويعلمون شهوره وكل شيء عنه ؛ فالأمر غير محتاج لذكر أسماء الشهور الخاصة به ، والشهور المعلومة هي : شوال وذو القعدة وعشرة أيام من ذي الحجة ونتنتهي بوقفة عرفات وبأيام منى ، وشهر الحج لا يستغرق منه سوى عشرة أيام ، ومع ذلك ضمه لشوال وذي القعدة ، لأن بعض الشهر يدخل في الشهر

وكلمة « معلومات » تعطينا الحكمة من عدم ذكر أسماء شهور الحج ، لأنها كانت معلومة عندهم

« فمن فرض فيهن الحج » والفرض ليس من الإنسان إنما الفرض من الله الذى فرض الحج ركنا ، وأنت إن ألزمت به نفسك نية وفعلاً ، وشرعت ونويت الحج فى الزمن المخصوص للحج تكون قد فرضت على نفسك الحج هذا الموسم الذى تختاره وهو ملزم لك . وقوله سبحانه : « فرض » يدل على أنك تلتزم بالحج وإن كان مندوباً . أى غير مفروض .

« فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » والرفث للسان ، وللعين . وللجوارح الأخرى رفث ، كلها تلتقى فى عملية الجماع ومقدماته ، ورفث اللسان فى الحج أن يذكر مسألة الجماع . ورفث العين أن ينظر إلى المرأة بشهوة فالرفث هو كل ما يأتى مقدمة للجماع ، أو هو الجماع أو ما يتصل به بالكلمة أو بالنظرة ، أو بالفعل

والرفث وإن أبيح فى غير الحج فهو محرم فى الحج ، أما الفسوق فهو محرم فى الحج وفى غير الحج ، فكأن الله ينبه إلى أنه وإن جاز أن يحدث من المسلم فسوق فى غير الحج ، فليس من الأدب أن يكون المسلم فى بيت الله ويحدث ذلك الفسوق منه ، إنّ الفسوق محرم فى كل وقت ، والحق ينبه هنا المسرف على نفسه ، وعليه أن يتذكر إن كان قد فسق بعيداً عن بيت الله فليستح أن يعصى الله فى بيت الله ؛ فالذاهب إلى بيت الله يبغى تكفير الذنوب عن نفسه ، فهل يُعقل أن يرتكب فيه ذنوبا ؟ لابد أن يستحى أيها المسلم وأنت فى بيت الله ، واعلم أن هذا المكان هو المكان الوحيد الذى يُحاسب فيه على مجرد الإرادة

يقول الله عز وجل

﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحج)

إذن الرفث حلال فى مواضع ، لكنه يُحَرَّمُ فى البيت الحرام ، ولكن الفسوق ممتنع فى كل وقت ، وامتناعه أشد فى البيت الحرام .

والجدال وإن كان مباحا فى غير الحج فلا يصح أن يوجد فى الحج . ولنا أن نعرف أن مرتبة الجدال دون مرتبة الفسوق ، ودون مرتبة العصيان ، والرسول قال : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه »[1] لم يقل : « ولم يجادل » إن بشرية الرسول تراعى ظروف المسلمين ، فمن المحتمل أن يصدر جدال من الحاج نتيجة فعل استثاره ، فكأن عدم ذكر الجدال فى الحديث فسحة للمؤمن ولكن لا يصح أن نتمادى فيها .

والجدال ممكن فى غير الحج بدليل .



(من الآية ١٢٥ سورة النحل)

إنما الحج لا جدال فيه .

والجدل هو أن يلف كل واحد من الطرفين على الآخر ليطوقه بالحجة . ثم انظر إلى تقدير الحق لظروف البشر وعواطف البشر والاعتراف بها والتقنين لأمر واقع معترف به ، فالحج يخرج الإنسان من وطنه ومن مكان أهله ، ومن ماله ، ومما ألف واعتاد من حياة . وحين يخرج الإنسان هذا الخروج فقد تضيق أخلاق الناس ؛ لأنهم جميعا يعيشون عيشة غير طبيعية ؛ فهناك من ينام فى غرفة مشتركة مع ناس لا يعرفهم ، وهناك أسرة تنام فى شقة مشتركة ليس فيها إلا دورة مياه واحدة ، ومن الجائز أن يرغب أحد الأفراد فى قضاء حاجته فى وقت قضاء حاجة شخص آخر ، وحين تكون هذه المسألة موجودة لا رأى لإنسان ، ولذلك يقال : « لا رأى لحاقن » أى لا رأى لمحصور . أى لمن يريد قضاء حاجته من بول ، وكذلك الشأن فى الحاقب وهو الذى يحبس غائطه لأنها مسألة تُخِل توازن الإنسان

---

(١) رواه أحمد ، والبخارى ، والنسائى وابن ماجه

إذن فالحياة فى الحج غير طبيعية، وظروف الناس غير طبيعية، لذلك يحذرنا الحق من الدخول فى جدل، لأنه ربما كان الضيق من تغيير نظام الحياة سبباً فى إساءة معاملة الآخرين، والحق يريد أن يمنع هذا الضيق من أن يؤثر فى علاقتنا بالآخرين. وقد أثبتت التجربة أن من يذهبون للحج فى جماعة إما أن يعودوا متحابين جداً، وإما أعداء ألداء.

ولذلك يطلب إلينا الحق أن يصبر كل إنسان على مايراه من عادات غيره فى أثناء الحج، وليحتسب خروجه عن عاداته وعن رتابة أموره وعن أنسه بأهله يحتسب ذلك عند الله، وليشتغل بأنس الله، وليتحمل فى جانبه كل شيء، ويكفى أنه فى بيت الله وفى ضيافته.

والحق سبحانه وتعالى يقول: «وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى» فبعد أن نهانا الحق بقوله: «فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج» وتلك أمور سلبية وهى أفعال على الإنسان أن يمتنع عنها، وهنا يتبع الحق الأفعال السلبية بالأمر بالأفعال الإيجابية، أفعال الخير التى يعلمها الله.

إن الله يريد أن نجمع فى العبادة بين أمرين، سلب وإيجاب، سلب ما قال عن الرفث والفسوق والجدال، ويريد أن توجب وتوجد فعلا. «وما تفعلوا من خير يعلمه الله» وما هو ذلك الخير؟ إنها الأمور المقابلة للمسائل المنهى عنها، فإذا كان الإنسان لا يرفث فى الحج فمطلوب منه أن يعف فى كلامه وفى نظرته وفى أسلوبه وفى علاقته بامرأته الحلال له فيمتنع عنها مادام محرماً ويُطلب منه أن يفعل ما يقابل الفسوق، من بر وخير.

وفى الجدال نجد أن مقابله هو الكلام بالرفق والأدب واللين وبحلاوة الأسلوب وبالعطف على الناس، هذا هو المقصود بقوله: «وما تفعلوا من خير

يعلمه الله» . وكلمة من في قوله «من خير» للابتداء، كأن الله سبحانه وتعالى يريد منك أن تصنع خيراً وهو سبحانه يرى أقل شيء من الخير؛ ولذلك قال: «يعلمه الله» . فكأنه خير لا يراه أحد؛ فالخير الظاهر يراه كل الناس؛ والتعبير «يعلمه الله» أي الخير مهما صغر، ومهما قل فإن الله يعلمه، وكثير من الخيرات تكون هواجس بالنية، ويجازي الله على الخير بالجزاء الذي يناسبه .

وقوله الحق : «وتزودوا» والزاد : هو ما يأخذه المسافر ليتقوى به على سفره، وكان هذا أمراً مألوفاً عند العرب قديماً؛ لأن المكان الذي يذهبون إليه ليس فيه طعام . وكل هذه الظروف تغيرت الآن، وكذلك تغيرت عادات الناس التي كانت تذهب إلى هناك . كانت الناس قديماً تذهب إلى الحج ومعها أكماتها، ومعها ملح طعامها، ومعها الخيط والإبرة، فلم يكن في مكة والمدينة ما يكفي الناس؛ وأصبح الناس يذهبون الآن إلى هناك ليأتوا بكماليات الحياة، وأصبحت لا تجد غرابة في أن فلاناً جاء من الحج ومعه كذا وكذا . كأن الحق سبحانه وتعالى جعل من كل ذلك إيذاناً بأنه أخبر قديماً يوم كان الوادي غير ذي زرع فقال :

﴿ يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص]

وانظر إلى دقة الأداء القرآني في قوله : «يجبى» ومعناها يؤخذ بالقوة وليس باختيار من يذهب به، فكأن من يذهب بالثمرات بكل ألوانها إلى هناك مرغم أن يذهب بها، وهو رزق من عند الله، وليس من يد الناس .

وهذا تصديق لقوله تعالى :

﴿ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ ... ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

وقوله الحق : «وتزودوا» مأخوذة - كما عرفنا - من الزيادة، والزاد هو طعام المسافر، ومن يدخر شيئاً لسفر فهو فائض وزائد عن استهلاك إقامته، ويأخذه حتى يكفيه مئونة السؤال أو الاستشراف إلى السؤال؛ لأن الحج ذلة عبودية، وذلة العبودية يريدها الله له وحده . فمن لا يكون عنده مئونة سفره ربما يذل لشخص آخر، ويطلب منه أن يعطيه طعاماً، والله لا يريد من الحاج أن يذل لأحد، ولذلك

يطلب منه أن يتزود بقدر حاجته حتى يكفي نفسه ، وتظل ذلته سليمة لربه ، فلا يسأل غير ربه ، ولا يستشرف للسؤال من الخلق ، ومَنْ يسأل أو يستشرف فقد أخذ شيئاً من ذلته المفروض أن تكون خالصة في هذه الرحلة لله وهو يوجهها للناس ، والله يريدها له خالصة.

وإن لم يعط الناس السائل والمستشرفَ للسؤال فربما سرق أو نهب قدر حاجته ، وتتحول رحلته من قصد البر إلى الشر . وكان بعض أهل اليمن يخرجون إلى الحج بلا زاد ويقولون « نحن متوكلون ، أنذهب إلى بيت الله ولا يطعمنا ؟ » . ثم تضطرهم الظروف لأن يسرقوا ، وهذا سبب وجود النهب والسرقة في الحج . إن إلحاح الجوع قد يدفع الإنسان لأن ينهب ويسرق ليسد حاجته.

ومن هنا أراد الحق سبحانه وتعالى أن يقطع على النفس البشرية هذا الشر، فقال : « وتزودوا » إنه أمر من الله بالتزود في هذه الرحلة التي ينقطع فيها الإنسان عن ماله وعن أهله وعن أحبابه وعن معارفه، ويقول سبحانه : « فإن خير الزاد التقوى » ونعرف أن الزاد هو ما تَقي به نفسك من الجوع والعطش ، وإذا كان التزود فيه خير لاستبقاء حياتك الفانية ، فما بالك بالحياة الأبدية التي لا فناء فيها ، ألا تحتاج إلى زاد أكبر ؟ فكان الزاد في الرحلة الفانية يعلمك أن تزود للرحلة الباقية .

إذن فقوله : « فإن خير الزاد التقوى » يشمل زاد الدنيا والآخرة ، والله سبحانه وتعالى يذكرنا بالأمور الحُسِّيَّة وينقلنا منها إلى الأمور المعنوية ، ولكن إذا نظرت بعمق وصدق وحق وجدت الأمور المعنوية أقوى من الأمور الحسية . ولذلك نلاحظ في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوارِي سَوْءَاتِكُمْ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

هذا أمر حسي . ويفيدنا ويزيدنا سبحانه «وريشاً» إنه - سبحانه - لا يوارى السوءة فقط، وإنما زاد الأمر إلى الكماليات التي يتزين بها ، وهذه الكماليات هي الريش ، أي ما يتزين به الإنسان . ثم قال الحق

﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

أي أنعمت عليكم باللباس والريش ، ولكن هناك ما هو خير منهما وهو « لباس التقوى » . فإن كنت تعتقد في اللباس الحسي أنه سَتَرَ عورتك ووقاك حراً وبرداً وتزينت بالريش منه فافهم أن هذا أمر حسي ، ولكن الأمر الأفضل هو لباس التقوى ، لماذا ؟ لأن مفضوح الآخرة شر من مفضوح الدنيا .

إذن فقوله : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب » . يعني أن الحق يريد منك أن تتزود للرحلة زاداً يمنعك عن السؤال والاستشراف أو النهب أو الغصب ، واحذر أن يدخل فيه شيء مما حرم الله ، ولكن تزودك في دائرة « واتقون يا أولي الألباب » أي يا أصحاب العقول ، ولا ينبه الله الناس إلى ما فيهم من عقل إلا وهو يريد منهم أن يُحَكِّمُوا عقولهم في القضية ، لأنه جل شأنه يريد منك أن تُحكِّم عقلك ، فإن حَكَّمْتَ عقلك في القضية فسيكون حُكْمُ العقل في صف أمر الله

ولما كان الله - سبحانه - بسعة لطفه ورحمته - يريد في هذه الشعيرة المقدسة والرحلة المباركة أن يتعاون الناس ، أذنَ لجماعةٍ من الحجيج أن تقوم على خدمة الآخرين تيسيراً لهم . ومن العجيب أن الذين يقومون بخدمة الحجاج يُرخِّصُ الله لهم في الحج أن ينفروا قبل غيرهم ؟ لأن تلك مصلحة ضرورية . فهب أن الناس جميعاً امتنعوا عن خدمة بعضهم بعضاً فمن الذي يقوم بمصالح الناس ؟ إذن لابد أن يذهب أناس وحظهم العمل لخدمة الحجيج ،والله - سبحانه وتعالى - بين ذلك ووضحه بقوله .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾

« ليس عليكم جناح » أى لا إثم عليكم ولا حرج « أن تبتغوا فضلاً من ربكم » أى أن تكسبوا فى الحج وهو نسك عبادى . والمكسب الذى يأتى فيه هو فضل من الله . وقديماً كانوا يقولون : فيه « حاج » ، وفيه « داجّ » ، واحدة بالحاء وواحدة بالدال . « فالداجّ » هو الذى يذهب إلى الأراضى المقدسة للتجارة فقط ، ونقول له : لا مانع أن تذهب لتحج وتتاجر ؛ لأنك ستيسر أمراً ؛ لأننا إن منعناه فمن الذى يقوم بأمر الحجيج ؟

ولماذا قال الحق : « تبتغوا فضلاً من ربكم » ولم يقل رزقاً ؟ لقد أوضح الحق فى الآية التى قبلها ، ألاّ تذهبوا إلاّ ومعكم زادكم . إذن أنت لا تريد زاداً بعملك هذا ، أى لا تذهب إلى الحج لتأكل من التجارة ، إنما تذهب ومعك زادك وما تأتى به هو زائد عن حاجتك ويكون فضلاً من الله سبحانه وتعالى ، وهو جل شأنه يريد منك ألاّ يكون فى عملك المباح حرجٌ ؛ فنفى الجناح عنه ؛ فأنت قد جئت ومعك الأكل والشرب ويكفيك أن تأخذ الربح المعقول ، فلا يكون فيه شائبة ظلم كالاستغلال لحاجة الحجيج ، لذلك أسماه « فضلاً » يعنى أمرا زائداً على الحاجة .

وكل ابتغاء الرزق وابتغاء الفضل لا يصح أن يغيب عن ذهن مبتغى الرزق والفضل ، فكله من عند الله . إياك أن تقول : قوة أسباب ، وإياك أن تقول : ذكاء أو احتياط ، فلا شيء من ذلك كله ؛ لأن الرزق كله من الله هو فضل من الله ولا ضرر عليك أن تبتغى الفضل من الرب ؛ لأنه هو الخالق وهو المربى . ونحن مربوبون له ، فلا غضاضة أن تطلب الفضل من الله .

ثم يقول الحق بعد ذلك : « فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر

الحرام ، وأنت حين تملأ كأساً عن آخرها فهي تفيض بالزائد على جوانبها ، إذن فالفائض معناه شيء افترق عن الموجود للزيادة .

قوله : « فإذا أفضتم من عرفات » تدل على أن الله قد حكم بأن عرفات ستمتلىء امتلاء ، وكل من يخرج منها كأنه فائض عن العدد المحدد لها . وهذا حكم من الله في الحج . وأنت إذا ما شهدت المشهد ـ كتبه الله للمسلمين جميعاً . إن شاء الله ـ سترى هذه المسألة ، فكأن إناءً قد امتلأ ، وذلك يفيض منه ولا تدرى من أين يأتي الحجيج ولا إلى أين يذهبون . ومن ينظر من يطوفون بالبيت يظن أنهم كتل بشرية ، وكذلك إذا فاض الحجيج في مساء يوم عرفة يخيل إليك عندما تنظر إليهم أنه لا فارق بينهم ؛ ولذلك يقال : سالت عليه شعاب الحي كأنها سيل .

وقال الشاعر :

فسالت عليه شعاب الحي حين دعا
أصحابه بوجوه كالدنانير

وقال آخر :

ولما قضينا من منىً كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطى الأباطح

أي كأنه سيل متدفق ، هكذا تماما تكون الإفاضة من عرفات . وعندما تتأمل الناس المتوجهين إلى « مزدلفة » تتعجب أين كان كل هذا الجمع ؟ ترى الوديان يسير فيها الناس والمركبات كأنهم السيل ولا تستطيع أن تفرق شخصاً من مجموعة ، وفي موقف الحجيج إفاضتان : إفاضة من عرفات ، ثم إفاضة ثانية بينتها الآية التي بعدها يقول ـ سبحانه ـ :

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾

وعرفات ننطقها بمنطوقين : مرة نقول « عرفات » كما وردت فى هذه الآية ، ومرة ننطقها « عرفة » كما فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « الحج عرفة »[1] وعرفات جمع ، وعرفة مفرد .

هذه الكلمة أصبحت علماً على المكان الفسيح الذى يجتمع فيه الحجيج فى التاسع من ذى الحجة ، ولا تظن أنها جبل ، فإذا سمعت « جبل عرفات » كما يقول الناس فافهم أن المقصود هو الجبل المنسوب إلى عرفات . وليست عرفات فى ذاتها ، ولذلك تجد أناساً كثيرين يظنون أنهم إن لم يصعدوا الجبل المسمى بجبل الرحمة الذى عند الصخرات التى وقف عليها رسول الله فى حجة الوداع فكأن الإنسان منهم لم يحج . نقول لهم : لا ، الوقوف يكون فى الوادى ، والجبل المجاور للوادى أسميناه جبل عرفات ، فالجبل هو المنسوب لعرفات وليس الوادى هو المنسوب للجبل .

وأصل كلمة عرفة وردت فيها أقوال كثيرة وهناك فرق بين الاسم يكون وصفاً ثم يصير اسماً . وبين أن يكون علَماً من أول الأمر . وقلنا إنه إذا سميت العَلَم من أول الأمر فلا ضرورة أن يكون فيه معنى اللفظ ، فقد تسمى واحداً شقياً بـ « سعيد » ، وتُسمى زنجية بـ « قمر » ، وهذا لا يُسمى « وصفا » وإنما يُسمى علَماً إلا أن الناس حين يسمون يتفاءلون بالأصل ، فيقال : أسمِّى ابنى « سعيد » تفاؤلا بأن يكون « سعيداً » ، وعندما تكون بنتاً فقد تعطيها اسماً مخالفاً لحالها ، فقد تكون دميمة وتسميها « جميلة » تفاؤلاً بالاسم . هنا يكون أخذ العلم للتفاؤل . والعرب عندما كانوا يسمون الأسماء كانوا يتفاءلون بها . مثلاً كانوا يسمون « صخراً » ليتفاءلوا به أمام الأعداء . ويسمون « كلبا » حتى لا يجرؤ عليه أحد .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والحاكم والبيهقى

وقيل لعربي : إنكم تحسنون أسماء عبيدكم فتقولون « سعيداً » و« سعداً » و« فضلاً » ، وتسيئون أسماء أبنائكم ، تسمونهم : « مُرة » ، « كلبً » ، « صخراً » قال العربي : نعم ؛ لأننا نسمي أبناءنا لأعدائنا ليكونوا في نحورهم ، ونسمي عبيدنا لنا . وكلمة « عرفة » هي الآن علم على مكان ، لكن سبب تسميتها فيه خلاف : قيل . لأن آدم هبط في مكان وحواء هبطت في مكان ، وظل كلاهما يبحث عن الآخر حتى تلاقيا في هذا المكان ، فسُمي « عرفة » .

والحديث عن آدم وحواء يقتضينا أن نبحث عن سبب تفرقهما الذي جعل كلا منهما يبحث عن الآخر ، إذا كان الله عز وجل خلقهما ليكونا زوجين فلماذا فرقهما ؟ . لك أن تتصور حال آدم وهو مخلوق في عالم غريب واسع بمفرده ، وينظر حوله فلا يجد بشراً مثله ، بالله ألا يشتاق لإنسان يؤنس وحشته ؟ .

وماذا يكون حاله عندما يرى إنساناً ؟ لاشك أنه سيقابله باشتياق شديد من أجل هذا فرق الله بينهما وجعل كلاًّ منهما يبحث عن إنسان يؤنس وحشته ، ولو ظل كل منهما بجوار الآخر فربما كان الأمر عادياً وهكذا أراد الله لكل من آدم وحواء أن يشتاق كل منهما للآخر ، فأبعدهما عن بعضهما ثم تلاقيا بعد طول بعاد ، فكان الشوق للقاء وبعد اللقاء تأتي المودة والرحمة والألفة والسكن ، وهو مطلوب الحياة لزوجين . وهناك قول آخر بخصوص تسمية عرفات : إن سيدنا آدم قالت له الملائكة وهو في ذلك المكان : اعرف ذنبك وتب إلى ربك فقال .

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأعراف)

ليكون بذلك قد عرف زلته وعرف كيف يتوب . أو حينما أراد الله أن يُعَلِّم إبراهيم عليه السلام ، وهو الذي دعا ربَّه أن يجعل أفئدة الناس وقلوبهم تميل وتهوى هذا المكان . إنَّ إبراهيم رأى في المنام أن يذبح ابنه . وتلك مسألة شاقة من ثلاثة وجوه : المشقة الأولى أنها رؤيا وليست وحياً . والمشقة الثانية أنه ابنه الوحيد ، والمشقة الثالثة أنه هو الذي سيذبحه .

إنها ثلاث مشقات صعاب ، وليس من المعقول أن تمر هذه المسألة على أبي الأنبياء بيسر وسهولة ، بل لابد أنه تحدّث فيها كثيراً بينه وبين نفسه ، هل هي رؤيا أم ماذا ؟. ومن هنا سُمى اليوم الذى قبل يوم عرفه بيوم التروية . وعندما تأكد سيدنا إبراهيم بأن رؤيا الأنبياء حق عرف أنه لابد أن ينفذ ما رأى . والمكان الذى عرف فيه حقيقة الرؤيا سُمى عرفة . أو أنه حين جاءت له الرؤيا بذبح ابنه فالشيطان لم يدع مثل هذه الفرصة تمر ، وكان لابد أن يدخل ليوسوس لإبراهيم . أليس هو القائل

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

فعندما تمثل الشيطان لإبراهيم رجمه بالحصى سبعا فى المرة الأولى ، ثم عاوده مرة أخرى فرجمه سبعاً ، وجاءه فى الثالثة فرجمه سبعاً ، بعدها لم يأت له ثانيه ، فجرى إبراهيم مخافه أن يلاحقه ، ولذلك سُمى المكان بالمزدلفه ، والمزدلف هو المسرع ، ويسمى « ذا المجاز » أى أنه اجتاز المزدلفة ، ويكون قد عرف المسألة عند عرفة

أو أن جبريل كان يعرفه المناسك فى هذا المكان ، فيقول له : عرفتَ ؟ فيرد إبراهيم . « عرفت » . أو أن الإنسان يعرف فيها ربه فى آخر ما شرع له من أركان ، فكل ما عرف الأركان . هذا عرف ، وذاك عرف ، وثالث ، ورابع ، وهكذا فيكون كلنا . عرفات ، ويصبح المكان عبودية لله . اشترك فيها جميع الحجاج .

« فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام » . والمشعر الحرام فى مزدلفة : « فاذكروا اللهَ » معناها أن الله يَسَّر لكم هذه الرحلة الشاقة ، وجاء بكم آمّين وقاصدين بيت الله الحرام ، ثم تعودون مغفورا لكم ، وهى مسألة تستحق أن تذكروا الله بالشكر والعرفان .

« واذكروه كما هداكم » ، لأن هدايته لكم وتعليمكم أقصر طريق يوصل إلى الخير هو تحية من الله لخلقه ، والتحية يجب أن يُرَدّ عليها ، فكما هداكم اذكروه . « وإن كنتم من قبله لمن الضالين » ، لأنهم طالما حجوا كثيراً ، فى الجاهلية ، فأنتم كنتم تحجون بضلال ، والآن تحجون بهدى . « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » .

قوله : « ثم » تدل على أنه لابد من الوقوف بعرفة أو المبيت في مزدلفة ؛ لأن « ثُمَّ » تدل على البعدية ببطء والتعقيب بتمهل

إذن قوله : « ثم أفيضوا » حجة لمن قال : إنه لابد من المبيت في مزدلفة . وهذه الآية نزلت لأن قريشاً كانت ترى نفسها أهل الحرم فلا يُطالبون أبداً بما يُطالب به سائر الناس ، ولذلك لا يذهبون مع الناس إلى عرفات ، والله يريد بالحج المساواة بين الناس ، ولذلك قال النبي في حجة الوداع : « كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ، لينتهين قوم يفتخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان »[1] فلابد أن يسمع الله مسلك قريش فقال : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » يعني لا تميز لكم ولا تفرقة بين المسلمين

وبعض المفسرين يقول : إن معنى « من حيث أفاض الناس » المقصود به من حيث أفاض إبراهيم ، بمعنى أن سيدنا إبراهيم عليه السلام قد رسم مناسك الحج كلها بعد أن علمها الله له ، فالناس وإن كانوا جمعاً إلا أن المراد بكلمة « الناس » هو إبراهيم ولا نستغرب أن يكون معنى : « الناس » هو « إبراهيم » لأن الله وصفه بأنه « أمة » . وكلمة الناس تُطلق على الإنسان الذي يجمع خصائص متعددة ؛ ولذلك قال الله عز وجل عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة النساء)

لقد وصف الحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس والرجل الذي ذهب للمؤمنين يخبرهم باستعداد المشركين لقتالهم نزل فيه قوله تعالى : « الذين قال لهم الناس » إنه إنسان واحد ومع ذلك وصفه الله بالناس ، كأنه بتنبيهه للمسلمين يكون جمع كل صفات الخير في الناس .

« واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » إنّ الحق سبحانه وتعالى يعلم أن بني آدم

(١) رواه البزار عن حذيفة والجعلان دويبة مهينة

لا يمكن لهم أن يراعوا حقوقه كما يجب أن تُراعى ، فلا بد أن تفلت منهم أشياء ، وهو سبحانه وتعالى يعلم ذلك ، لأنه خالقهم ، فأمرهم -جلّت حكمته- أن يستغفروه ، ليكفروا عن سيئاتهم

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

ونعرف أن « قضى » تأتي بمعان متعددة ، والعمدة في هذه المعاني فصل الأمر بالحكمة ، قد يُفصل الأمر بحكمة لأنه فرغ منه أداء « فإذا قضيتم » أي إذا فرغتم من مناسككم ، هذه واحدة . وقد يكون لأنك فصلت الأمر بحكم يقين مثل قوله الحق

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الإسراء)

وقد يكون « قضى » بمعنى حكم حكماً لازماً كما تقول . قضى القاضي . إذن فكلها تدور حول معنى : فصل بحكمة . « فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله » . أي إذا فرغتم من مناسككم ، والمناسك هي الأماكن لعبادة ما ، عرفات مكان للموقف ، و« مزدلفة » مكان للمشعر الحرام يبيت فيه الحجاج و« منى » منسك للمبيت أيضاً ، إذن كل مكان فيه عبادة يُسمى « منسكاً »

وقوله سبحانه : « فاذكروا الله » أي فلا يزال ذكر الله دائماً وارداً في الآيات ، كأنك

حين تُوفق إلى أداء شيء إياك أن تغتر، بل اذكر ربك الذي شرع لك ثم وفقك وأعانك. وكأن الحق يريد أن يضع نهاية لما تعودت عليه العرب في ذلك الزمان، فقديماً كانوا يحجون، فإذا ما اجتمعت القبائل في منى، كانت كل قبيلة تقف بشاعرها أو بخطيبها ليعدد مآثره ومآثر آبائه، وما كان لهم من مفاخر في الجاهلية، ويحملون الديات، ويحملون الحمالات، ويطعمون الطعام، ويفعلون غير ذلك من العادات، فأراد الله سبحانه وتعالى أن ينهي فيهم هذه العادة التي هي التفاخر بالآباء وبأعمالهم فقال: «فاذكروا الله كذكركم آباءكم» والذكر معناه توجيه الفكر إلى شيء غير موجود ساعة تأتي به، ولا يمكن أن يذكر الإنسان من أحداث الماضي إلا الحدث الذي له الأثر النافع فيه، وعلى مقدار الأثر النافع يكون الذكر.

وكانوا قديماً يطعمون الطعام، والذي يطعم الطعام يؤدي مهمة في مثل هذه البلاد البدائية - أي البدوية - وكان من المبالغة في الحسنات أن بعضهم كالمطعم بن عدي مثلاً كانت له جفنة يحكي رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يستظل بها ساعة الهجير. والجفنة هي الوعاء الذي يوضع فيه الطعام، فتأمل الجفنة كيف تكون؟!

ويحملون الحمالات، بمعنى أنه إذا قامت قبيلة على قبيلة وقتلت منها خلقاً كثيراً يتطوع منهم ذو الحسب وذو المروءة وذو الشهامة وذو النجدة فيحمل كل هذه الآثار في ماله. والديات هي التي يتطوع بدفعها أهل الشهامة منهم إذا ما قتل قاتل قتيلاً، ولا يقدر على أن يعطي ديته، وكانت كل تلك الأعمال هي المفاخر.

أراد الحق سبحانه وتعالى أن يردهم في كل شيء إلى ذاته، فقال لهم: أنتم تذكرون آباءكم، لأنهم كانوا يفعلون كذا وكذا، وآباؤكم يفتخرون بآبائهم، انقلوها وسلسلوها إلى خالق كل الآباء وكل البشر، فكل ما يجري من خير على يد الآباء مرده إلى الله، فإن ذكرتم آباءكم لما قدموه من خير، فاذكروا من أمدهم بذلك الخير.

وهو يريد منهم أن يذكروا الله كذكرهم آباءهم، أو أشد ذكراً؛ لأن كل كائن إنما يستحق من الذكر على مقدار ما قدم من الخير، ولن تجد كل الخير إلا لله، إذن لابد أن نذكر الله.

وأيضا فإن الإسلام أراد أن ينهى التفاخر بالآباء ليجعل الفخر ذاتيا في نفس المؤمن ، أي فخر من عمل جليل نابع وحاصل من الشخص نفسه ؛ ولذلك يقولون في أمثال هؤلاء الذين يفخرون بأسلافهم إنهم : « عظاميون » أي منسوبون إلى مجد صنعه من صاروا عظاما تضمها القبور ، والله يريدنا أن نكون ذاتيين في مفاخرنا ، أي أن نفخر بما نعمل نحن ، لا بما فعل آباؤنا ، فالآباء أفضوا إلى ما قدموا ، ويريد الله أن يأخذ الإنسان ذاتية إيمانية تكليفية . ومن يريد أن يفتخر فليفتخر بنفسه ، ولذلك يقول الشاعر :

لا تكونوا عظاميين مفخرة ماضيهم عامر في حاضر خرب
لا ينفع الحسب الموروث من قدم إلا ذوي همة صاروا على الحسب
والعود من مثمر إن لم يلد ثمراً عدّوه مهما نما أصلاً من الحطب

فالنبت الذي ليس له ثمرة ، يعتبره الناس مجرد حطب ، ويريد الحق أن ينبه في المؤمن ذاتية تعمل ، وليس ذاتية تفتخر بأنه كان وكان ، بل على كل إنسان أن يقدم ما يفتخر به :

ليس الفتى من يقول كان أبي إن الفتى من يقول ها أنذا

وعندما كان العرب يفاخر بعضهم على بعض يقول أحدهم للآخر : يا أخي أنت تفتخر عليّ بماذا ؟

فيرد عليه الثاني : افتخر عليك بآبائي وأجدادي .

فيرد الأول : اذكر جيدا أن مجد آبائك انتهى بك ، ومجد آبائي بدأ بي ، فلماذا لا أجعل لآبائي الفخر بأنهم أنجبوني ؟

وفي ذلك يقول أحدهم :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم
كلا لعمرى ولكن منه شيبانُ
وكَمْ أبٍ قد علا بابن ذُرَا شَرَفٍ
كما عَلَتْ برسول الله عدنانُ

ومادام القوم يفتخرون بحي منهم ، فهم يلتحمون بمن يعطيهم المدد ليكونوا شيئا باقيا ومؤثرا في الوجود ، وليس بذلك الشيء المحدود المتمثل في أنه يطعم الطعام ، ويحمل الحمالات ويؤدي الديات ، وإنما يكون بحمل رسالة الإنسانية العليه

« فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا » لأن ذكركم لله سيصلكم بالمدد منه ، ويعطيكم المعونة لتكونوا أهلا لقيادة حركة الحياة في الأرض ، لتوطدوا فيها الأمن والسلام والرحمة والعدل ، وهذا هو ما يجب أن يكون مجالا للفخر .

وبعد ذلك يلفتنا الحق فيما يأتي إلى أن الإنسان إذا ما قضى المناسك كان أهلا لأن يضرع إلى الله ، ويسأل الله بما يجب أن يسأله ، والسؤال لله يختلف باختلاف همه السائلين ، وكانوا لا يسألون الله إلا قائلين . يارب أعطني إبلاً ، يارب أعطني غنياً ، يارب أعطني بقراً ، يارب أعطني حائطاً - أي بستاناً - ، يارب كما أعطيت أبي أعطني .

ولم يكن في بالهم إلا الأمور المادية ، وأراد الله أن يجعلهم يرتفعون بالمسألة لله ، وأن يُصَعِّدُوها إلى شيء أخلد وأبقى وأنفع ، ومن هنا تأتي المزية الإيمانية ، فإذا كنتم ستسألون الله متاعا من متاع الدنيا فما الفارق بينكم وبين أهل الجاهلية ؟

ذلك ما نفهمه من قول الله عز وجل في ختام هذه الآية : « فمن الناس من يقول ربنا ءاتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق » . فالعبد حين يؤدي مناسكه لله يجد نفسه أهلا لأن يسأل الله ، ومادمت قد وجدت نفسك أهلا لأن تسأل الله فاسأل الله بخير باق ؛ لأن الإنسان إنما يُصَعِّدُ حاجته إلى المسئول على مقدار مكانة المسئول ومنزلته ، فقد تذهب لشخص تطلب منه عشرة قروش ، وقد تذهب لآخر أغنى من

الأول فتقول له : أعطني جنيها ، والثالث : تطلب منه عشرة جنيهات ، إنك تطلب على قدر همة كل منهم في الإجابة على سؤالك

إذن مادام العباد بعد أداء المناسك في موقف سؤال لله فليصَعِّدُوا مسألتهم لله وليطلبوا منه المنافع أبداً ، ولا يحطوا بالسؤال إلى الأمور الدنيوية الفانية البحتة . « فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق » إن العبد قد لا يريد من دعائه لله إلا الدنيا ، ولا حظ ولا نصيب له في الآخرة ، ومثل هذا الإنسان يكون ساقط الهمة ؛ لأنه طلب شيئاً في الدنيا الفانية ، ويريد الله أن تُصَعِّد همتنا الإيمانية ، ولذلك يتبعها بقوله الحق .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾

ولماذا لم ننس الدنيا هنا ؟ لأنها هي المزرعة للآخرة . وقوله سبحانه : « آتنا في الدنيا حسنة » اختلف فيها العلماء ؛ بعضهم ضيقها وقال : إن حسنة الدنيا هي المرأة الصالحة . وقال عن حسنة الآخرة إنها الجنة . ومنهم من قال : إن حسنة الدنيا هي العلم ؛ لأن عليه يُبْنَى العمل ، وفي حسنة الآخرة قال : إنها المغفرة ؛ لأنها أم المطالب

ومن استعراض أقوال العلماء نجدهم يتفقون على أن حسنة الآخرة هي ما يؤدى إلى الجنة مغفرة ورحمة ، لكنهم اختلفوا في حسنة الدنيا . أقول : لماذا لا نجعل حسنة الدنيا أعم وأشمل فنقول : يارب أعطنا كل ما يُحَسِّنُ الدنيا عندك لعبدك

ويذيل الحق هذه الآية بقوله : « وقنا عذاب النار » وسبحانه وتعالى حين يَمْتَنُّ على عباده يمتن عليهم بأن زحزحهم عن النار وأدخلهم الجنة ، كأن مجرد الزحزحة عن

النار نعيم ، فإذا ما أدخل الجنة بعد الزحزحة عن النار فكأنه أنعم على الإنسان بنعمتين ؛ لأنه سبحانه قال :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾

(من الآية ٧١ سورة مريم)

ومعناه أن كل إنسان سيرى النار إما ومرق طريقه للجنة ، فيقول : الحمد لله ، الإيمان أنجاني من هذه النار وعذابها . فهو عندما يرى النار وبشاعة منظرها يحمد الله على نعمة الإسلام . لتي أنجته من النار . فإذا ما دخل الجنة ورأى نعيمها يحمد الله مرة ثانية وكذلك يرى النار من هو من أهل الأعراف أي لا في النار ولا في الجنة ، يقول الحق :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾

والنصيب هو الحظ ، وأما « مما كسبوا » فنعرف من قبل أن فيه « كسب » وفيه « اكتساب » . والاكتساب فيه افتعال ، إنما الكسب هو أمر عادي ، ولذلك نجد أن الاكتساب لا يكون إلا في الشر ، كأن الذي يفعل الشر يتكلف فيه ، لكن من يفعل الخير فذلك أمر طبيعي من الإنسان والمقصود بـ « مما كسبوا » هنا هو الكسب من استيفاء أعمالهم التي فعلوها في الحج إحراماً ، وتلبية وطوافاً ، وسعياً ، وذهاباً إلى « منى » ، وذهاباً إلى « عرفات » ووقوفاً بها ، وإفاضة إلى « مزدلفة » ، ورمياً للجمار في « منى » ، وطواف إفاضة ، وكل هذا كسب للإنسان الذي نال شرف الحج .

وعندما نقرأ : « والله سريع الحساب » فلنفهم أن السرعة هي أن يقل الزمن عن الحدث ، فبدلا من أن يأخذ الحدث منك ساعة ، قد تنهيه في نصف ساعة ، وكل حدث له زمن ، والحدث حين يكون له زمن ونريد أن تقلل زمن الحدث فلا بد أن تسرع فيه حتى تنجزه في أقل وقت . وتقليل الزمن يقتضي سرعة الحركة في الفعل ، وذلك في الأعمال العلاجية التي تحتاج مُعَالجة ، وعملاً من الإنسان ، لكن سبحانه يفعل بـ« كُن » ولا يحتاج عمله إلى علاج ، وبالتالي لا يحتاج إلى زمن ، إذن فهو سريع الحساب ، لأنه لا يحتاج إلى زمن ، ولأنه لا يشغله شأن عن شأن ، وهذا هو الفرق بين قدرة الواحد سبحانه وقدرة الحادث ، لأن الحادث عندما يؤدي عملاً ، فهذا العمل يشغله عن غيره من الأعمال ، فلا يستطيع أن يؤدي عمليتين في وقت واحد ، لكن الواحد الأحد لا يشغله فعل عن فعل ، وبالتالي يفعل ما يريد وقتما يريد ولكل من يريد .

ولذلك سُئل الإمام علي بن أبي طالب : كيف يحاسب الله الخلائق جميعاً في لحظة واحدة ؟. فقال : « كما يرزقهم في ساعة واحدة » . فهو سبحانه الذي يرزقهم ، وكما يرزقهم يحاسبهم . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

ونلاحظ أن ذكر الله أمر شائع في جميع المناسك ، وهو في أيام معدودات ، أي في أيام التشريق . في اليوم التاسع نكون في عرفة وليلة العاشر نبيت فيها بـ« مزدلفة » ، ثم بعد ذلك نفيض من حيث أفاض الناس ، نذهب لرمي جمرة العقبة ، وبعضنا يذهب ليطوف طواف الإفاضة وينهي مناسكه ، أو قد يذهب ليذبح ويتحلل التحلل

الأصغر ، إن لم يكن معه امرأة ، وإن طاف فهو يتحلل التحلل الأكبر . أما الأيام المعدودات أى أيام التشريق فهى الأيام الثلاثة بعد يوم النحر وقد سميت بذلك نسبة إلى الشروق ، والشروق خاص بالشمس ، كانوا قديماً إذا ما ذبحوا ذبائحهم أخذوا اللحم وشرقوه ، أى عرضوه لمطلع الشمس كلون من الحفظ ، ومن هنا سميت هذه الأيام بأيام التشريق . وعندما نسمع قوله : « فى أيام معدودات » نفهم منها أياما فوق يومين .

وبعد ذلك يقول الحق : « فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى » . قول الحق سبحانه وتعالى : « فى أيام معدودات » ثم قوله : « فمن تعجل فى يومين » يدل على أن كلمة « أيام » تطلق على الجمع وهو الأكثر من يومين ، أى ثلاثة أيام ، لكن الحق سبحانه وتعالى جعل للقيام بيومين حكم القيام بالثلاثة ، فإن تعجلت فى يومين فلا إثم عليك ومن قضى ثلاثة أيام فلا إثم عليه كيف يكون ذلك ؟

لأن المسألة ليست زمناً ، ولكنها استحضار نية تعبدية ، فقد تجلس ثلاثة أيام وأنت غير مستحضر النية التعبدية ؛ لذلك قال سبحانه . « لمن اتقى » ، فإياك أن تقارن الأعمال بزمنها ، وإنما هى بإخلاص النية والتقوى فيها .

ويذيل الحق الآية بالقول الكريم : « واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون » وقد جاء سبحانه وتعالى بكلمة « تحشرون » لتناسب رحلة الحج ؛ لأنه كما حشركم هذا الحشر وأنتم لكم اختيار ، هو سبحانه القادر أن يحشركم وليس لكم اختيار . فإذا كنت قد ذهبت باختيارك إلى هذا الحشر البشرى الكبير فى الحج فاعرف أن الذى كلفك بأن تذهب باختيارك لتشارك فى هذا الاجتماع الحاشد هو القادر على أن يأتى بك وقد سُلب منك الاختيار . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا

وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يضع أمامنا قضية وجودية ، وهذه القضية الوجودية هي أن كل عمل له ظاهر وله باطن . ومن الجائز أن تغر الظاهر وتدلس على الناس في الباطن ، فإذا كان الناس لهم مع بعضهم ظاهر وباطن . فمن مصلحة الإنسان أن يتمنى هو والناس جميعاً إلى عالم يعرف فيه كل إنسان أن هناك إلهاً حكيماً يعرف كل شيء عنا جميعاً

فإذا كان عندك شيء لا أعلمه ، وأنا عندي شيء أنت لا تعلمه كيف تسير مصالحنا ؟ ولذلك فمن ضروريات حياتنا أن نؤمن معا بإله يطلع على سرائرنا جميعاً ، وهذا ما يجعلنا نلزم الأدب . ولذلك قيل : « إن غَمَيْتَ على قضاء الأرض فلن تعمى على قضاء السماء » .

إذن فقضاء السماء وعلم الله بالغيب مسألة يجب أن نحمده عليها ، لأنه هو الذي سيحمي كل واحد منا من غيره . وعندما ستر الله غيبنا فذلك نعمة يجب أن نشكره عليها ؛ لأن النفوس متقلبة . فلو علمت ما في نفسي عليك في لحظة قد لا يسرك وقد لا تنساه أبداً ويظل رأيك فيَّ سيئاً ، لكن الظنون والآراء تمر عندي وعندك وتنتهي . ولو اطلع كل منا على غيب الآخر لكانت الحياة مرهقة ، والقول المأثور يذكر ذلك . « لو تكاشفتم ما تدافنتم » .

إذن فمن رحمة الله ومن أكبر نعمه على خلقه أن ستر غيب خلقه عن خلقه . والحق يحدثنا عن قال فيهم : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا » أي الذين يظهرون من خير خلاف ما يبطنون من شر ، ولذلك صور الشاعر هذه المسألة فقال :

على الذمّ بتنا مجمعين وحالنا
من الخوف حال المجمعين على الحمد

أي لو تكاشفنا لقلنا كلنا ذماً ، إنما كلنا مداهنون حين يلقى بعضنا بعضا كل يقول بلسانه ما ليس في قلبه . « يعجبك قوله » فهل الممنوع أن يعجبك القول ؟ لا ، يعجبني القول ولكن في غير الحياة الدنيا ، فالقول الذي يعجب هو ما يتعلق بأمر الحياة الأخرة الباقية ليضمن لنا الخير عند من يملك كل الخير

وكفى بالذي يسمع من مادح له مدحاً ، والمادح نفسه يُضمر في قلبه كرهاً له ، وكفى بذلك شهادة تجهيل للممدوح ، بأنه يقول بينه وبين نفسه : « إن الممدوح غبي ؛ لأني أمدحه وهو مصدق مدحي له » . إن الله سبحانه وتعالى ينبهنا إلى ضرورة أن يكون المسلم يقظا وفطناً ، ومن يقول لنا كلاماً يعجبنا في الحياة الدنيا نتهمه بأن كلامه ليس حسنا ؛ لأن خير الكلام هو ما يكون في الأمر الباقي .

ولذلك عندما أرسل خليفةُ المسلمين للإمام جعفر الصادق يقول له : ـ لماذا لاتغشانا ـ أي لا تزورنا ـ كما يغشانا الناس ؟ فكتب الإمام جعفر الصادق للخليفة يقول : أما بعد فليس عندي من الدنيا ما أخافك عليه ، وليس عندك من الأخرة ما أرجوك له وكأنه يريد أن يقول له اتركنا وحالنا ؛ أنت محتاج لمن يجلس معك ويمدحك ، وأنت لا تعلم أن أول الناس ذم رأي فيك هم من يمدحونك .

« ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا » وهذه الآية نزلت في الأخنس ابن شريق الثقفي واسمه أبيّ ولقب بالأخنس لأنه خنس ورجع يوم بدر فلم يقاتل المسلمين مع قريش واعتذر لهم بأن العير قد نجت من المسلمين وعادت إليهم ، وكان ساعة يقابل رسول الله صلى الله عليه وسلم يظهر إسلامه ويلين القول للرسول ويدعي أنه يحبه ولكنه بعد أن خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بزرع وحُمُر لقوم من المسلمين فأحرق الزرع وقتل الحُمُر والآية وإن نزلت في الأخنس فهي تشمل كل مُنافق .

« ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام » لا تقولوا : « الله يشهد » ، وإنما

هاتوا شهداءكم ليشهدوا على صدق قولكم ؛ لأن معنى « الله يشهد » هو إخبار منك بأن الله يشهد لك ، وأنت كاذب في هذه ، وتريد أن تضفي المصداقية على كذبك بإقحام الله في المسألة .

وساعة تسمع واحداً يقول لك : أُشهِدُ الله على أني كذا ، فقل له : هذا إخبار منك بأن الله يشهد ، وأنت قد تكذب في هذا الخبر ، أنا أفضل أن يشهد اثنان من البشر ولا تقحم الله في هذه الشهادة . « ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام » والألد الخصام هو الفاسق في معصيته ، ويقال : فلان عنده لدد أي له حق في خصومته ، ويجادل بالباطل . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «إنّ أبغض الرجال إلى الله هو الألد الخصم »[1]

يعني المجادل بالباطل الذي عنده قسوة في المعصية ، فهو عاصٍ وفي الوقت نفسه قاسٍ في معصيته . ولماذا هو ألد الخصام ؟ لأن الذي يجابهك بالأمر يجعلك تحتاط له ، أما الذي يقابلك بنفاق فهو الذي يريد أن يخدعك ، وهذا عنف في الخصومة ، فالخصم الواضح أفضل لأنه يواجهك بما في باطنه ، لكن إذا جابهت الذي يُبطِن خصومته ويظهر محبته يكون قاسياً عليك في خصومته ؛ لأنه يريد أن يخدعك ويبيّتُ لك .

« وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها » و « تولى » : انصرف أي يقول لك ما يعجبك ، فإذا تولى عنك نقل المسألة إلى الحقيقة بإظهار ما كان يخفيه ، ويحتمل المعنى أنه إذا تولى شيئاً آخر ، من الولاية . فنفيه « تَوَلّى » من التَّولِّي وهو الانصراف والإعراض ، وفيه « تَوَلّى » من الولاية .

« وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل » كانت الأرض بدون تدخل البشر مخلوقة على هيئة الصلاح ، والفساد أمر طارئ من البشر ونعرف أن الفساد لم يطرأ على أي أمر إلا وللإنسان فيه دخل

---

(١) رواه البخاري ، ومعنى « الألد الخصم » : الأشد في خصومته .

لماذا اشتكينا أزمة قوت ولم نشتك أزمة هواء ؟ لأن الهواء لا تدخل للإنسان فيه ، وبمقدار تدخل الإنسان يكون الفساد . لقد تدخلنا قليلاً في المياه فجاء في ذلك فساد ، فلم نحسن نقلها في مواسير جيدة فوصلت لنا ملوثة ، أو زاد عليها الكلور أو نقص . وبقدر ما يكون التدخل يكون الإفساد ، أما في الزمن القديم فقد كان الإنسان يذهب إلى مصدر الماء المباشر في الآبار ويأخذ الماء الطبيعي الذي خلقه الله بلا تدخل من الإنسان ولم يكن تلوث أو غيره

إذن على مقدار وجود الإنسان في حركة الحياة غير المُرْشَدة بالإيمان بالله ينشأ الفساد ، ولذلك كان لابد له من منهج سماوي للإنسان . والكائنات غير الإنسان ليس لها منهج وهي مخلوقة بالغريزة وتؤدي مهمتها فقط ؛ فالدابة لم تمتنع يوماً عن ركوبك عليها ، ولم تمتنع أن تحمل عليها أثقالك ، أو تستعين بها في الحرث ، أو الري ، حتى عندما تذبحها لا تمتنع عليك ، لماذا ؟ لأنها مخلوقة بالغريزة التي تؤدي بها الحركة النافعة بدون اختيار منها . وإذا امتنعت في وقت فإنما يكون ذلك لأمر طارىء كمرض مثلا .

لكن الذي له اختيار لابد أن يكون له منهج يقول له : افعل هذه ولا تفعل تلك . فإن استقام مع المنهج في « افعل » و« لا تفعل » سارت حياته بشكل متوازن ، لكن إذا لم يستقم تفسد الحياة . وهذا ما نفهمه من قوله تعالى : « وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها » ، كأن الإفساد هو الذي يحتاج إلى عمل ، اترك الطبيعة والمخلوقات كي هي تجدها تعمل في انضباط وكمال على ما يرام .

إذن فالفساد طارىء من الإنسان الذي يحيا بلا منهج لأنه « إذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها » ، فكأن الأصل في الأرض وما فيها جاء على هيئة الصلاح ، فإن لم تزد الصالح صلاحاً فلا تحاول أن تفسده . قال تعالى

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ومن هنا منهم أنهم ظنوا أن الأرض تحتاج إلى حركتهم لإصلاحها ، برغم أن الأرض بدون حركتهم صالحة ؛ لأنهم لا يتحركون بمنهج الله .

إذن هذه الآية نفهم منها أن الإنسان إذا « تولى » بمعنى رجع أو تولى ولاية سعى في الأرض ليفسد فيها ، فكأن الفساد في الأرض أمر طارئ، وينتج من سعي الإنسان على غير منهج من الله . وما دام للإنسان اختيار فيجب أن يكون له منهج أعلى منه يصون ذلك الاختيار ، فإن لم يكن له منهج وسار على هواه فهو مفسد لا محالة

وانظر إلى غباء الذي يفسد في الأرض ، هل يظن أنه هو وحده الذي سيستفيد في الأرض ، فأباح لنفسه أن يفسد في الأرض لغيره ؟ إنه نسي الحقيقة ، فكما يُفسد لغيره ، فغيره يفسد له ، فمَنْ الخاسر ؟ كلنا سنخسر إذن

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ .. (٢٠٥) ﴾

(سورة البقرة)

والحرث له معنيان . فمرة يُطلق على الزرع ، ومرة يُطلق على النساء ، المعنى الأول ورد في قوله تعالى :

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ .. (٧٨) ﴾

(سورة الأنبياء)

فالحرث في الآية معناه : الزرع ، والزرع ناتج عن إثارة الأرض وإهاجتها وعملك يا أيها الإنسان أن تهيج الأرض وتثيرها ، وتأتي بالبذر الذي خلقه الله في الأرض التي خلقها الله ، وتسقيها بالماء الذي خلقه الله ، وتكبر في الهواء الذي خلقه الله ، ولذلك يلفتنا وينبهنا الحق ـ سبحانه ـ فيقول

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾

(سورة الواقعة)

والمعنى الثاني : يُطلق الحرث على المرأة في قوله تعالى :

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ٢٢٣ سورة البقرة)

وإذا كان حرث الزرع هدفه إيجاد النبات فكذلك المرأة حتى تلد الأولاد . ويقول سبحانه وتعالى

﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾

(من الآية ٢٢٣ سورة البقرة)

وأراد المتحللون الإباحيون أن يُطلقوا إتيان المرأة في جميع جسدها ، ونقول لهم لاحظوا قوله « حرثكم » والحرث محل الإنبات ، فالإتيان يكون في محل الإنبات فقط ، لا تفهموها تعميماً وإنما هي تخصيص . ويتابع الحق وصف الذي يقول القول الحسن ، ولكنه يسعى في الأرض بالفساد فيقول : « ويهلك الحرث والنسل » والنسل هو الأجيال والذرية .

ويذيل الحق الآية : « والله لا يحب الفساد » أي أن الحق يريد منكم إن لم تدخلوا مطاقة الله التي خلقها لكم فكراً وعطاء ، فعلى الأقل اتركوا المسألة كما خلقها الله ؛ لأن الله لا يحب أن تفسدوا فيما خلقه صالحاً في ذاته .

وما سبق في هذه الآية هو مجرد صورة من صور استقبال الدعوة الإسلامية في أول عهدها ، من الذين كانوا ينافقون واقعها القوى ، فيأتون بأقوال تُعجب ، وبأفعال تعجب من يُنافق . ونعرف أن النفاق كان دليلا على قوة المسلمين ، ولذلك لم ينشأ النفاق في مكة ، وإنما نشأ في المدينة . فقد قال الحق .

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة التوبة)

وربما يتساءل إنسان : وكيف تظهر هذه الظاهرة فى البيئة الإيمانية القوية فى المدينة ؟ ونقول : لأن الإسلام فى مكة كان ضعيفاً ، والضعيف لا ينافقه أحد ، والإسلام فى المدينة أصبح قوياً ، والقوى هو الذى ينافقه الناس .

إذن ، فوجود النفاق فى المدينة كان ظاهرة صحية تدل على أن الإيمان أصبح قوياً بحيث يدعيه مَنْ ليس عنده إسلام ، وهؤلاء كانوا يقولون قولاً حسناً جميلاً ، وقد يصلون أمام مَنْ ينافقونه فعلاً يُعجب مَنْ يراهم أو يسمعهم ، ولكنهم لا يثبتون على الحق ، فإذا ما تولوا ، أى اختفوا عن أنظار مَنْ ينافقونه رجعوا إلى أصلهم الكفرى ، أو إذا انتسبوا على شيء فهم يسعون فى الأرض فساداً

والآية هنا تتعرض لشيء يدل على فطنة المؤمنين ، إن الآية فضحت مَنْ نافق وكان الأخنس عمدة فى النفاق ، وفضيحة المنافق بهذه الصورة ، تدل على أن وراء محمد صلى الله عليه وسلم ووراء المؤمنين بمحمد ، رباً يخبرهم عمَّنْ يدلس عليهم، وأيضاً ينبههم لضرورة أن تكون لهم فطنة بدليل قول الحق

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾

ولا يقال له اتق الله إلا إذا كان قد عرف أنه منافق ، وما داموا قد قالوا له ذلك فهذا دليل على أن فطنتهم لم يجز عليها هذا النفاق . ونفهم من هذه الآية أن المؤمن كيِّس فطن ، ولابد أن ينظر إلى الأشياء بمعيار اليقظة العقلية ، ولا يدع نفسه لمجرد الصفاء الربانى ليعطيه الفطنة ، بل يريد الله أن يكون لكل مؤمن ذاتية وكياسة .

« وإذا قيل له اتق الله » فكأن المظهر الذى يقول أو يفعل به ، ينافى التقوى ؛ لأنه قول معجب لا ينسجم مع باطن غير معجب ، صحيح أنه يصلى فى الصف الأول ،

ويتحمس لقضايا الدين ، ويقول القول الجميل الذي يعجب النبي صلى الله عليه وسلم ويعجب المؤمنين ، لكنه سلوك وقول صادر عن نية فاسدة . ومعنى « اتق الله » أي ليكن ظاهرك موافقاً لباطنك ، فلا يكفي أن تقول قولاً يُعجب ، ولا يكفي أن تعمل عملاً يروق الغير ، لأن الله يحب أن يكون القول منسجماً مع الفعل ، وأن يكون فعل الجوارح منسجماً مع نيات القلب .

إذن ، فالمؤمن لا بد أن تكون عنده فطنة ، وذكاء ، والمَعِيَّة ، ويرى تصرفات المقابل ، فلا يأخذ بظاهر الأمر . ولا بمعزل القول ولا الفعل ، إن لم يصادف فيه انسجام نفس مع انسجام نية . ولا يكتفي بأن يعرف ذلك ، بل لا بد أن يعود للمنافق حقيقة ما يراه حتى يقصر على المنافق أمد النفاق ، لأنه عندما يقول له : « اتق الله » يفهم المنافق أن نفاقه قد انكشف ، ولعله بعد ذلك يرتدع عن النفاق ، وفي ذلك رحمة من المؤمن بالمنافق ، وكل مَنْ يرى ويلمح بذكائه نفاقاً من أحد عنا يقول له : « اتق الله » فالمراد أن يفضح نفاقه ويقول له : « اتق الله » . فإذا قال له واحد : « اتق الله » وقال له آخر « اتق الله » ، وثالث ، ورابع ، فسيعرف تماماً أن نفاقه قد انكشف ، ولم يعد كلامه يعجب الناس .

« وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم » ، وتقييد العزة بالإثم هنا يفيد أن العزة قد تكون بغير إثم ، وما دام الله قد قال « أخذته العزة بالإثم » ، فهناك إذن عزة بغير إثم . نعم ، لأن العزة مطلوبة للمؤمن والله عز وجل حكم بالعزة لنفسه وللرسول وللمؤمنين :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ . ﴿٨﴾ ﴾

(سورة المنافقون)

وهذه عزة بالحق وليست بالإثم . وما الفرق بين العزة بالحق وبين العزة بالإثم ؟ ولنستعرض القرآن الكريم لنعرف الفرق . ألم يقل سحرة فرعون فيما حكاه الله عنهم :

﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

هذه عزة بالإثم والكذب . وكذلك قوله تعالى .

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة ص)

وهى عزة كاذبة أيضا أما قوله عز وجل

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

(سورة الصافات)

فتلك هى العزة الحقيقية ، إذن فالعزة هى القوة التى تَغْلِبُ ، ولا يَغْلِبها أحد . أما العزة بالإثم فهى أنفة الكبرياء المقرونة بالذنب والمعصية . والحق سبحانه وتعالى يقول لكل من يريد هذا اللون من العزة بالإثم : إن كانت عندك عزة فلن يقوى عليك أحد ، ولكن يا سحرة فرعون يا من قلتم بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ، أنتم الذين خررتم سُجَّدًا لموسى وقلتم :

﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ولم تنفعكم عزة فرعون ؛ لأنها عزة بالإثم ، لقد جاءت العزة بالحق فغلبت العزة بالإثم . لذلك يبين لنا الحق سبحانه وتعالى أن العزة حق لا تكون بالإثم . يجب أن تكون على الكافر بالله ، وتكون ذلة على المؤمن بالله .

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

وكذلك قوله الحق

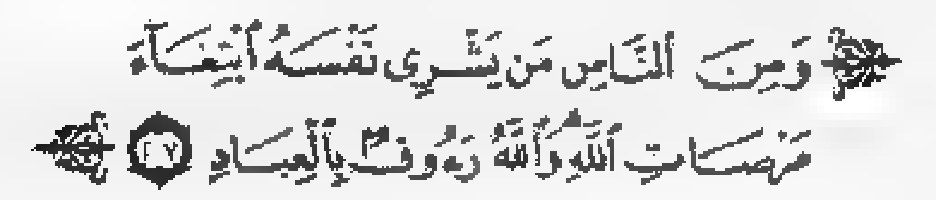
﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

وهذه دليل العزة بالحق ، وعلامتها أنها ساعة تغلب تكون في منتهى الانكسار ولنا القدوة في سيدنا رسول الله ﷺ ، وهو الذي خرج من مكة لأنه لم يستطع أن يحمي الضعفاء من المؤمنين ، وبعد ذلك يعود إلى مكة فاتحاً بنصر الله ، ويدخل مكة ورأسه ينحني من التواضع لله حتى يكاد أن يمس قربوس سرج دابته ، تلك هي القوة ، وهي على عكس العزة بالإثم التي إن غلبت تطغى ، إنما العزة بالحق إن غلبت تواضع

«وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم» أي أن الأنفة والكبرياء مقرونة بالإثم ، والإثم هو المخالف للمأمور به من الحق سبحانه وتعالى ، «فحسبه جهنم ولبئس المهاد» . أي عزة هذه التي تقود في النهاية إلى النار؟ إنها ليست عزة ، ولكنها ذلة ، فلا خير في عمل بعده النار ، ولا شر في بعده الجنة . فإن أردت أن تكون عزيزاً فتأمل عاقبتك وإلى أين ستذهب؟

«فحسبه» أي يكفيه هذا فضيحة لعزته بالإثم ، وأما كلمة «مهاد» فمعناها شيء ممهد وموطأ ، أي مريح في الجلوس والسير والإقامة ولذلك يسمون فراش الطفل المهد وهل المهاد بهذه الصورة يناسب العذاب؟ نعم يتناسب تماماً ؛ لأن الذي يجلس في المهاد لا إرادة له في أن يخرج منه ، كالطفل فلا قوة له في أن يغادر فراشه إذن فهو قد فقد إرادته وسيطرته على إبعاضه فإن كان المهاد بهذه الصورة في النار فهو بئس المهاد هذا لون من الناس وفي المقابل يعطينا ـ سبحانه ـ لوناً آخر من الناس فيقول سبحانه :



﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

(١) القربوس هو الجزء المرتفع المقوس من السرج

والله سبحانه تعالى ساعة يستعمل كلمة « يشرى » يجب أن نلاحظ أنها من الأفعال التي تستخدم في الشيء ومقابله ، فـ «شرى» يعني أيضا «باع» . إذن كلمة«شرى» لها معنيان ، واقرأ إن شئت في سورة يوسف قوله تعالى :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ [سورة يوسف]

أي باعوه بثمن رخيص . وتأتي أيضا بمعنى اشترى ، فالشاعر العربي القديم عنترة ابن شداد يقول : فخاض غمارها وشرى وباعا .

إذن «شرى» لغة ، تُستعمل في معنيين : إما أن تكون بمعنى « باع » ، وإما أن تكون بمعنى « اشترى » ، والسياق والقرينة هما اللذان يحددان المعنى المقصود منها فقول عنترة : « شرى وباع » نفهم أن المقصود من «شرى» هنا هو « اشترى » لأنها مقابل « باع»، وقوله تعالى :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ [سورة يوسف]

يوضحه سياق الآية بأنهم باعوه . وهذا من عظمة اللغة العربية ، إنها لغة تريد أناساً يستقبلون اللفظ بعقل ، ويجعلون السياق يتحكم في فهمهم للمعنى .

«ومن الناس من يشرى نفسه» ونفهم «يشرى» هنا بمعنى يبيع نفسه ، والذي يبيع نفسه هو الذي يقبض مقابل . والإنسان عندما يفقد نفسه فهو يضحي بها ، وعندها تكون التضحية ابتغاء مرضاة الله فهي الشهادة في سبيله عز وجل ، كأنه باع نفسه وأخذ مقابلها مرضاة الله .

ومثل ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ﴾ [سورة التوبة]

إن الحق يعطيهم الجنة مقابل أنفسهم وأموالهم . إذن فقوله : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » يعني باع نفسه وأخذ الجنة مقابلاً لها ، هذا إذا كان معنى « يشرى » هو باع .

وماذا يكون المعنى إذا كانت بمعنى اشترى ؟ هنا نفهم أنه اشترى نفسه بمعنى أنه ضحى بكل شيء في سبيل أن تسلم نفسه الإيمانية . ومن العجب أن هذه الآية قيل في سبب نزولها ما يؤكد أنها تحتمل المعنيين ، معنى « باع » ومعنى « اشترى » فها هو ذا أبو يحيى الذي هو صهيب بن سنان الرومي كان في مكة ، وقد كبر سنه ، وأسلم وأراد أن يهاجر ، فقال له الكفار : لقد جئت مكة فقيراً وآويناك إلى جوارنا وأنت الآن ذو مال كثير ، ونريد أن تهاجر بمالك .

فقال لهم : إذا خليت بينكم وبين مالي أأنتم تاركوني ؟

قالوا : نعم .

قال : تضمنون لي راحلة ونفقة إلى أن أذهب إلى المدينة ؟

قالوا : لك هذا .

إنه قد شرى نفسه بهذا السلوك واستبقاها إيمانياً بثروته ، فلما ذهب إلى المدينة لقيه أبو بكر وعمر فقالا له : ربح البيع يا أبا يحيى .

قال : وأربح الله كل تجارتكم .

وقال له سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا أن جبريل أخبره بقصتك ، ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : ربح البيع أبا يحيى . إذن معنى الآية وفق هذه القصة . أنه اشترى نفسه بماله ، وسياق الآية يتفق مع المعنى نفسه . وهذه من فوائد الأداء القرآني حيث اللفظ الواحد يخدم معنيين متقابلين .

ولكن إذا كان المعنى أنه باعها فلذلك قصة أخرى ، ففي غزوة بدر ، وهي أول غزوة في الإسلام ، وكان صناديد قريش قد جمعوا أنفسهم لمحاربة المسلمين في هذه الغزوة ، وتمكن المسلمون من قتل بعض هؤلاء الصناديد ، وأسروا منهم كثيرين أيضاً ، وكان ممّن قتلوا في هذه الغزوة واحد من صناديد قريش هو أبو عقبة الحارث

ابن عامر والذى قتله هو صحابي اسمه خبيب بن عدى الأنصاري الأوسى ، وهو من قبيلة الأوس بالمدينة ، وبعد ذلك مكر بعض الكفار فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ قالوا : يارسول الله ، إنا قد أسلمنا ، ونريد أن ترسل إلينا قوما ليعلمونا الإسلام. فأرسل لهم رسول الله ﷺ عشرة من أصحابه ليعلموهم القرآن ؛ فغدر الكافرون بهؤلاء العشرة فقتلوهم إلا خبيب بن عدى ، استطاع أن يفر بحياته ومعه صحابى آخر اسمه زيد بن الدثنة ، لكن خبيباً وقع فى الأسر وعرف الذين أسروه أنه هو الذى قتل أبا عقبة الحارث في غزوة بدر ، فباعوه لابن أبى عقبة ليقتله مقابل أبيه ، فلم يشأ أن يقتله وإنما صلبه حياً ، فلما تركه مصلوباً على الخشبة ، قال رسول الله ﷺ وهو فى المدينة : من ينزل خبيبا عن خشبته وله الجنة ؟

قال الزبير : أنا يارسول الله .

وقال المقداد : وأنا معه يارسول الله .

فذهبا إلى مكة فوجدا خبيباً على الخشبة وقد مات وحوله أربعون من قريش يحرسونه ، فانتهزا منهم غفلتهم وذهبا إلى الخشبة وانتزعا خبيباً وأخذاه ، فلما أفاق القوم لم يجدوا خبيباً فقاموا يتتبعون الأثر ليلحقوا بمن خطفوه ، فرآهم الزبير ، فألقى خبيباً على الأرض ثم نظر إليه فإذا بالأرض تبتلعه فسمى بليع الأرض . وبعد ذلك التفت إليهم ونزع عمامته التى كان يتخفى وراءها وقال : أنا الزبير بن العوام ، أمى صفية بنت عبد المطلب ، وصاحبى المقداد ، فإن شئتم ناضلتكم يعنى يفاخر كل منهما بنفسه . وإن شئتم نازلتكم . يعنى قاتلتكم . وإن شئتم فانصرفوا ، فقالوا : ننصرف ، وانصرفوا ، فلما ذهب الزبير والمقداد إلى رسول الله ﷺ بشرهم بالجنة التى صار إليها خبيب .

إذن فقد باع خبيب نفسه بالجنة . وعلى ذلك فإن ذهبت بسبب نزول الآية إلى أبى يحيى صهيب بن سنان الرومى تكون « شرى » بمعنى اشترى ، وإن ذهبت بسبب النزول إلى خبيب فتكون بمعنى « باع » وهكذا نجد أن اللفظ الواحد فى القرآن الكريم يحتمل أكثر من واقع .

وخبيب بن عدى هذا قالت فيه ماوية ابنة الرجل الذى اشتراه ليعطيه لعقبة ليقتله مقابل أبيه ، قالت : والله لقد رأيت خبيباً يأكل قطفاً من العنب كرأس الإنسان ووالله ما فى مكة حائط ـ بستان ـ ولا عنب وإنما هو رزق ساقه الله له .

ولما جاءوا ليقتلوه قال : أنظرونى أصلِّ ركعتين . فصلى ركعتين ونظر إلى القوم وقال : والله لولا أنى أخاف أن تقولوا إنه زاد فى الصلاة لكى نبطىء بقتله لزدت وقال قبل أن يقتلوه : اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تبق منهم أحداً ثم هتف وقال :

ولست أبالى حين أقتل مسلماً

على أى شق كان فى الله مصرعى

وكان ذلك آخر ما قاله

ويقول الحق : « والله رءوف بالعباد » وما العلاقة بين ما سبق وبين رءوف بالعباد ؟ ما دام الله رءوفاً بالعباد فلم يشأ الله أن يجعل ذلك أمراً كلياً فى كل مسلم، وإنما جعلها فلتات لتثبت صدق القضية الإيمانية ، لأنه لا يريد أن يضحى كل المسلمين بأنفسهم ، وإنما يريد أن يستبقى منا أناساً يحملون الدعوة

وبعد أن عرض الحق سبحانه وتعالى أصناف الناس الذين يستقبلون الدعوة كفراً ونفاقاً ، ومَنْ يقابلهم ممن يستقبلونها إيماناً خالصاً ، نادى جميع المؤمنين فقال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ ﴾

تبدأ الآية بنداء الذين آمنوا بالله وكأنه يقول لهم : يا مَنْ آمنتم بى استمعوا

الحديث . فلم يكلف الله من لم يؤمن به وإنما خاطب الذين أحبوه وآمنوا به، وماداموا قد أحبوا الله فلابد أن يتجه كل مؤمن إلى من يحبه. لأن الله لن يعطيه إلا ما يسعده.

إذن فالتكليف من الله إسعادٌ لمن أحب، «يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة»، وكلمة «في» تفيد الظرفية، ومعنى الظرفية أن شيئا يحتوي شيئا مثال ذلك الكوب الذي يحتوي الماء فتقول: «الماء في الكوب»، وكذلك المسجد يحتوي المصلين فتقول «المصلون في المسجد».

والظرفية تدل على إحاطة الظرف بالمظروف، ومادام الظرف قد أحاط بالمظروف إذن فلا جهة يفلت منها المظروف من الظرف ولذلك يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة التمكن من مسألة الظرفية عندما يقول:

﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾

(من الآية ٧١ سورة طه)

إن الصلب دائماً يكون على شيء ، وتشاء الآية الكريمة أن تشرح لنا كيف تمكن أن يكون الصلب متمكناً من المصلوب فأنت إذا أردت أن تصلب شيئاً على شيء فأنت تربطه على المصلوب عليه ، ولكن ما بالك في ربطه كأنك أدخلت المصلوب داخل المصلوب عليه .

ومثال ذلك ، هات عود كبريت وضعه على إصبعك ثم اربطه بخيط ربطاً جيداً ، ستلاحظ أن العود قد غاص في جلدك والحق يقول : « ادخلوا في السلم كافة » والسِّلم والسَّلْمُ والسَّلم هو الإسلام ، فالمادة كلها واحدة ؛ لأن السلم ضد الحرب ، والإسلام جاء لينهي الحرب بينك وبين الكون الذي تعيش فيه لصالحك ولصالح الكون ولتكون في سلام مع الله وفي سلام مع الكون ، وفي سلام مع الناس وفي سلام مع نفسك

قوله : « ادخلوا في السلم » معناه حتى يكتنفكم السلم إن الله هو الإله الخالق

لتكون ولابد أن تعيشوا في سلام معه ؛ لأنكم لا تؤمنون إلا به إلهاً واحداً . فيجب عليك أن تعيش مع الأرض والسماء والكون في سلام ؛ لأن الكون الخاضع المقهور المسخر الذي لا يملك أن يخرج عما رُسم له يعمل لخدمتك ولا يعاندك.

والإنسان حين يكون طائعاً يُسرّ به كل شيء في الوجود ؛ لأن الوجود طائع ومُسبّح ، فساعة يجد الإنسان مُسبّحاً مثله يُسرّ به لأنه في سلام مع الكون . وأنت في سلام مع نفسك ؛ لأن لك إرادة ، وهذه الإرادة قهر الله لها كل جوارحك ، والذي تريده من أي عضو يفعله لك . لكن هل يرضى أي عضو عمّا تأمره به ؟ تلك مسألة أخرى . مثلاً ، لسانك يعمل بإرادتك ، فتقول به « لا إله إلا الله » وقال به غيرنا من المشركين غير ذلك ، وأشركوا مع الله شيئاً وغير بشر يعبدونهم . وقال الملحدون بألسنتهم والعياذ بالله . « لا إله في الكون » ولم يعص اللسان أحداً من هؤلاء ؛ لأنه مقهور لإرادتهم.

وتنتهي إرادة الإنسان على لسانه وعلى جميع جوارحه يوم القيامة فيشهد عليه كما تشهد عليه سائر أعضائه . الأرجل ، والأيدي ، والعيون ، والآذان ، وكل عضو يشهد بما كان يفعل به ، لأنه لا سيطرة للإنسان على تلك الأبعاض في هذا اليوم ؛ إذ السيطرة كلها للخالق الأعلى.

« لمن المُلك اليوم لله الواحد القهار » والحق حين ينادي المؤمنين بأن يدخلوا في السلم كافة فذلك يحتمل أيضاً أن الحق سبحانه وتعالى يخاطب المسلمين ألا يأخذوا بعضاً من الدين ، ويتركوا البعض الآخر ، فيقول لهم : خذوا الإسلام كُله وطبقوه كاملاً ؛ لأن الإسلام يمثل بناء له أسس معلومة ، وقواعد واضحة ، فلا يحاول أحد أن يأخذ شيئاً من حكم بعيداً عن حكم آخر ، وإلا حدث الخلل.

وعلى سبيل المثال قد تجد خلافاً بين الزوج والزوجة ، وقد يؤدي الخلاف إلى معارك وطلاق ، وبعد ذلك نجد من يتهم الإسلام بأنه أعطى الرجل سيفاً مسلطاً على المرأة . ونقول لهم . ولماذا تتهمون الإسلام ؟ هل دَخلتَ على الزواج بمنطق الإسلام ؟ إن كنت قد دخلت على الزواج بمنطق الإسلام فستجد القواعد المنظمة

والتي تحفظ للمرأة كرامتها، ولكن هناك مَنْ يدخل على الزواج بغير منطق الإسلام، فلما وقع في الأزمة راح ينادي الإسلام. هل اختار الرجل مَنْ تشاركه حياته بمقياس الدين؟ وهل وضع نُصب عينيه شروط اختيار الزوجة الصالحة التي جاءت في الحديث الشريف:

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[1].

هل فضَّل الرجل ذات الدين على سواها؟ أم فضَّل مقياساً آخر؟. وعندما جاء رجل ليخطب ابنة من أبيها هل وضع الأب مقاييس الإسلام في الاعتبار عند موافقته على هذا الزواج؟ هل فضلتم مَنْ ترضون دينه وخُلُقه؟ أم تركتم تلك القواعد أنت تركت قواعد الإسلام، فلماذا تلوم الإسلام عند سوء النتائج والعواقب؟

إنك إن أردت أن تحاسب فلابد أن تأخذ كل أمورك بمقاييس الإسلام، ثم تصرَّف بما يناسب الإسلام. فإن كنت كذلك فالإسلام يحميك من كل شيء. فالإسلام يساند القُوَى في الكون ويساند القُوَى في النفس بحيث تعيش في سلام ولا تتعاند؛ لأن كل ذلك يقابله الحرب. والحرب إنما تنشأ من تعاند القوى، فتتعاند قوى نفسك في حرب مع نفسك، وتتعاند قوى البشر في حرب البشر مع البشر، وتتعاند قواك مع قوى الكون الأخرى، فأنت تعاند الطبيعة وتعاند مع الحق سبحانه وتعالى.

إذن، فالتعاند ينشأ منه الحرب، والحروب لا تنشأ إلا إذا اختلفت الأهواء. وأهواء البشر لا يمكن أن تلتقي إلا عندما تكون محروسة بقيم مَنْ لا هوى له، ولذلك يقول الله عز وجل:

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ .. ﴿٧١﴾﴾

(سورة المؤمنون)

---

(1) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه

لماذا ؟. دعك من الكون الأصم حولك ، أو دعك من الكون الذى لا اختيار له فى أن يفعل أو ينفعل لك ؛ فهو فاعل أو منفعل لك بدون اختيار منه ، ولكن انظر إلى البشر من حولك ، فما الذى يجعل هوى إنسان يسيطر على أهواء غيره ؟

ما الذى زاده ذلك الإنسان حتى تكون أنت تابعاً له ؟ أو يكون هو تابعاً لك ؟.
إن قانون التبعية لا يمكن إلا أن يكون التابع مؤمناً بأن المتبوع أعلى منه ، ولا يمكن لبشر أن توجد عنده هذه الفوقية أبداً . لذلك لابد للبشر جميعاً أن يكونوا تبعاً لقوة آمنوا بأنها فوقهم جميعاً . فحين نؤمن ندخل فى السلم ، ولا يوجد تعاند بين أى قوة وقوة أخرى ؛ لأنى لست خاضعاً لك ، وأنت لست خاضعاً لى ، وأنا وأنت مسلمون لقوة أعلى منى ومنك ، ويُشترط فى القوة التى نتبعها طائعين ألا يكون لها مصلحة فيما تشرع

إن المشرعين من البشر يراعون مصالحهم حين يشرعون ، فمشرع الشيوعية يضع تشريعه ضد الرأسمالية ، ومشرع الرأسمالية يضع تشريعه ضد الشيوعية ، لكن عندما يكون المشرع غير منتفع بما يشرع ، فهذا هو تشريع الحق سبحانه وتعالى .

وحين ندخل فى الإسلام ندخل جميعاً لا يشذ منا أحد ، ذلك معنى « ادخلوا فى السلم كافة » ، هذا معنى وارد ، وهناك معنى آخر وارد أيضا وهو ادخلوا فى السلم أى الإسلام بجميع تكاليفه بحيث لا تتركوا تكليفاً يشذ منكم .

وحين يأتى المعنى الأول فلأننا لو لم ندخل فى السلم جميعاً لشقى الذين يُسلمون بالذين لا يُسلمون ؛ لأن الذى يُسلم سيهذب سلوكه بالنسبة للآخرين ، ويكون نفع المسلم لسواه ، ويشقى المسلم بعدم إسلام من لم يسلم ، فمن مصلحتنا جميعاً أن نكون جميعاً مسلمين والذين لا يدركون هذه الحقيقة يفسرون قول الله تعالى :

﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة المائدة)

على غير ظاهرها ، فمن ضمن هدايتكم أن تُبصّروا من لم يؤمن بأن يؤمن ؛ لأن

مصلحتكم أن تسلموا جميعاً ، فإذا أسلمت أنت فسيعود إسلامك على الغير ؛ لأن سلوكك سيصبح مستقيماً مهذباً ، والذى لم يسلم سيصبح سلوكه غير مستقيم وغير مهذب ، وستشقى أنت به . إذن فمن مصلحتك أن تقضى وقتاً طويلاً وتتحمل عناءً كبيراً فى أن تدعو غيرك ليدخل فى الإسلام . وإياك أن تقول : إن ذلك يضيع عليك فرص الحياة ؛ لا إنه يضمن لك فرص الحياة ، ولن يضيع وقتك لأنك ستحمى نفسك من شرور غير المسلم.

واذكر جيداً أننا حين تكلمنا فى فاتحة الكتاب قلنا : إن الله يُعلمنا أن نقول « إياك نعبد » فكلنا يارب عبيدك وسنسعد جميعاً بذلك ، واهدنا كلنا يارب ؛ لأنك إن هديتنى وحدى فسيسعد غيرى بهدايتك لى ، وأنا سوف أشقى بضلاله . فمن مصلحتنا جميعاً أن نكون مهديين جميعاً.

هذا على معنى « ادخلوا فى السلم كافة » أى جميعا . أما معنى قوله تعالى: « لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم » أى لا تتحملون أوزار ضلالهم إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر . أما المعنى الثانى فادخلوا فى الإسلام بحيث لا يشذ منكم أحد ويأخذ شيئا ويدع شيئا من الإسلام ويترك بعضا منه ، فأنت تريد أن تبنى حياتك ورسول الله صلى الله عليه وسلم شرح أن للإسلام أسساً هى الأركان الخمسة ، وإياك أن تأخذ ثلاثة أركان وتترك ركنين ؛ لأن هندسة الإسلام مبنية على خمسة أركان .

وقد قال لى أحد المهندسين : إننا نستطيع أن ننشىء بياناً على ثلاثة أركان أو على أربعة أو على خمسة . فقلت له : ولكن حين تجعل البيان على أربعة أركان ، وتوزع الأحمال والأثقال على أربعة أسس ، هل يمكنك حين تُنشىء أن تجعلها ثلاثة أركان فقط ؟. قال : لا

قلت : إذن فالبناء إنما يُنشأ من البداية على الأسس التى تريدها ، ولذلك فأنت توزع القوى على ثلاثة أو أربعة أو خمسة من البداية . والله سبحانه وتعالى شاء أن يجعل أسس الإسلام خمسة ، وبعد ذلك يبنى الإسلام ، وحين يبنى الإسلام فإياك أن

تأخذ لبنة من الإسلام دون لبنة ، بل يؤخذ الإسلام كله ، فالضرر الواقع في العالم الإسلامي إنما هو ناتج من التلفيقات التي تحدث في العالم المسلم . تلك التلفيقات التي تحاول أن تأخذ بعضاً من الإسلام وتترك بعضا ، وهذا هو السبب في التعب والضرر ؛ لأن الإسلام لابد أن يؤخذ كله مرة واحدة . إذن « ادخلوا في السلم كافة » يعني إياكم أن تتركوا حكماً من الأحكام . إن الذي يتعب المتنسبين إلى الدين الآن أننا نريد أن نلفق حياة إسلامية في بلاد تأخذ قوانينها من بلاد غير إسلامية .

إذن حتى ننجح في حياتنا ، فلابد أن نأخذ الإسلام كله . وللأسف فإن كثيراً من حكام البلاد المسلمة لا يأخذون من الإسلام إلا آخر قول الله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » إنهم يأخذون « أولي الأمر منكم » ويتركون « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » .

وأقول : لماذا تأخذون الأخيرة وتتركون ما قبلها ؟ إن الله لم يجعل لولي الأمر طاعة مستقلة بل قال : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر » ليدل على أن طاعة ولي الأمر من باطن طاعة الله وطاعة الرسول . فنحن لا نريد تلفيقاً في الإسلام ، خذوه كاملا ، تستريحوا أنتم ونستريح نحن معكم .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد بدعوته إلى دخول الإسلام أن يعصم الناس من فتنة اختلاف أهوائهم فخفف ورفع عن خلقه ما يمكن أن يختلفوا فيه ، وتركهم أحراراً في أن يزاولوا مهمة استنباط أسرار الله في وجوده بالعلم التجريبي كما يحبون ، فإن أرادوا رقياً فليُعْمِلوا عقولهم المخلوقة لله ، في الكون المخلوق لله ، بالطاقة المخلوقة لله ؛ ليسعدوا أنفسهم ويدفعوها إلى الرقي ، وإن انتهى أحد منهم إلى قضية كونية ، واكتشف سراً من الأسرار في الكون فهو لن يقدم للناس جديداً في المنهج ، وسيأخذ الناس هذا الجديد ولا يعارضونه .

إذن فمن الممكن أن يستنبط العقل بعضاً من أسرار قضايا الكون المادية بواسطة العلم التجريبي ، وهي أمور سيتفق عليها الناس ، ولكن البشر يمكن أن يختلفوا في الأمور النابعة من أهوائهم ؛ لأن لكل واحد هوى ، وكل واحد يريد أن يتبع هواه

ولا يتبع هوى الآخرين ، والحق سبحانه يريد أن يعصمنا من الأهواء لذلك قال لنا « ادخلوا في السلم كافة » أي ادخلوا في كل صور الإسلام . حتى لا يأتي تناقض الأهواء في المجتمع .

وكن أيها المؤمن في سلم مع نفسك فلا يتناقض لسانك مع ما في قلبك ، فلا تكن مؤمن اللسان كافر القلب كن منسجماً مع نفسك حتى لا تعاني من صراع الملكات وأيضاً كن داخلاً في السلام مع الكون الذي تعش فيه ، مع السماء ، مع الأرض ، مع الحيوان ، مع النبات كن في سلم مع كل تلك المخلوقات لأنها مخلوقة مسخرة طائعة لله ، فلا تشذ أنت لتغضبها وتُسخطها عليك

كن منسجماً مع الزمن أيضاً ، لأن الزمن الذي يحدث فيه منك ما يخالف منهج الله سيلعنك هو والمكان ، وإذا أردت أن تشيع سلامك في الكون فعليك كما علمك الرسول صلى الله عليه وسلم أن تسالم كل الكون ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يشيع السلام في الزمان والمكان ، وعلى سبيل المثال كان صلى الله عليه وسلم أكثر الناس صياماً في شعبان ، ولما سأله الصحابة عن هذا أخبرهم أن شعبان شهر يهمله الناس لأنه بين رجب ، ـ وهو من الأشهر الحرم الأربعة ـ وبين رمضان، فأحب أن يحيي ذلك الشهر الذي يغفل عنه الناس ، فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يسعد الزمان بأن يشيع فيه لوناً من العبادة فلا يحمله أقل من الأزمنة الأخرى

كذلك الأمكنة تريد أن تسعد بك ، فكل الأماكن تسعد بذكر الله فيها والحق ـ سبحانه ـ بعد أن أمرنا جميعاً بالدخول في السلم بالفعل ولا تفعل ، حذرنا من اتباع الشيطان لأنه هو الذي يعمل على إبعادنا عن منهج الله ، فقال جل شأنه .

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ولماذا لا تتبع خطوات الشيطان ؟ لأن عداوته للإنسان عداوة مسبقة ، وقف من

آدم هذا الموقف ، وبعد ذلك أقسم بعزة الله أن يغويكم جميعاً ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد حكى لنا القصة فكأنه أعطانا المناعة ، أي أن الشيطان لم يفاجئنا وإنما وضع الحق أمامنا قصة الشيطان مع آدم واضحة جلية ليعطينا المناعة ، بدليل أننا حين نريد أن نصون أجسامنا نجعل لأنفسنا مناعة قبل أن يأتي المرض ، نُطعم أنفسنا ضد شلل الأطفال ، وضد الكوليرا ، وضد كذا ، وكذا ، فكأن الله سبحانه وتعالى يذكر قصة الشيطان مع أبينا آدم ليقول لنا : لاحظوا أن عداوته مسبقة .

وما دام به معكم عداوة مسبقة قبل يأخذكم على غرة ؛ لأن الله نبهكم لتلك المسألة مع الخلق الأول . والشيطان عندما يُذكر في القرآن يراد به مرة عاصي الجن ؛ لأن طائع الجن مثل طائع البشر تماماً ، ومرة يريد به شياطين الإنس . إذن من الجن شياطين ، ومن الإنس شياطين .

وحتى تستطيع أن تفرق بين ما يزينه الشيطان وبين ما تزينه لك نفسك ، فإن رأيت نفسك مصراً على معصية من لون واحد فاعلم أن السبب هو نفسك ، لأن النفس تريدك عاصياً من لون يشبع شغفاً فيها فهي تصر عليه . إنسان يحب المال فتسلط عليه نفسه من جهة المال ، وإنسان آخر يحب الجنس فتسلط عليه نفسه من جهة النساء ، وثالث يحب الفخر والمديح فتسلط عليه نفسه من جهة مَنْ ينافقه . لكن الشيطان لا يصر على معصية بعينها ، فإن رآك قد امتنعت عن معصية فهو يزين لك معصية أخرى ؛ لأنه يريدك عاصياً على أية جهة .

والحق يحذرنا : « ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » وليس هناك عداوة أوضح من عداوة الشيطان بعد أن وقف من آدم وقال ما أورده الحق على لسانه :

﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ الْبَيِّنَٰتُ فَاعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾

والزلة هي المعصية ، وهي مأخوذة من « زال » ، وزال الشيء أي خرج عن استقامته ، فكأن كل شيء له استقامة ، والخروج عنه يعتبر زللا ، والزلل هو الذنوب والمعاصي التي تخالف بها المنهج المستقيم

« من بعد ما جاءتكم البينات » إنه سبحانه يوضح لنا أنه لا عذر لكم مطلقا في أن تزلوا ؛ لأني بينت لكم كل شيء ، ولم أتركم إلى عقولكم ، ومن المنطقي أن تستعملوا عقولكم استعمالا صحيحا لتديروا حركة الكون الذي استخلفتكم فيه ، ومع ذلك ، إن أصابتكم الغفلة فأنا أرسل الرسل . ولذلك قال سبحانه .

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

لقد رحم الله الخلق بإرسال الرسل ليبينوا للإنسان الطريق الصحيح من الطريق المعوج . والحق سبحانه وتعالى يترك بعض الأشياء للبشر ليأتوا بفكر من عندهم ثم يرتضي الإسلام ما جاءوا به ليعلمنا أن العقل إذا ما كان طبيعيا ومنطقيا فهو قادر على أن يهتدي إلى الحكم بذاته . وفي تاريخ الإسلام نجد أن سيدنا عمر قد رأى أشياء واقترح بعضا من الاقتراحات ، ووافق عليها الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم ينزل القرآن على وفق ما قال عمر ، وقد يتساءل أحد قائلا : ألم يكن النبي صلى الله عليه وسلم أولى ؟

نقول : لو كانت تلك الآراء قد جاءت من النبي صلى الله عليه وسلم ما كان فيها غرابة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم ويوحى إليه ، لكن الله يريد أن يقول

لنا : إن العقل الفطرى عندما يصفو مهو يستطيع أن يهتدى للحكم الصحيح ، وإن لم يكن هناك حكم قد نزل من السماء . ولذلك تستفز أحكام سيدنا عمر عدداً كبيراً من المستشرقين ويقولون : أليس عندكم سوى عمر؟ لماذا لا تقولون محمداً ؟

نقول لهم : لقد تربى عمر فى مدرسة النبى صلى الله عليه وسلم ، فما يقوله هو ، إنما قد أخذه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد أقر عمر بذلك وقال : « ما عمر لولا الإسلام » ، ونحن نستشهد بعمر لأنه بشر وليس رسولاً ، ويسرى عليه ما يسرى على البشر ، فلا يوحى إليه ولم يكن معصوما .

إذن كان الحق أراد أن يُقرِّب لنا القدرة على الاستنباط والفهم فنكون جميعا عمر ؛ لأن عمر بالفطرة كان يهتدى إلى الصواب ، ويقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « افعل كذا » ، فينزل الوحى موافقا لرأيه ، فكأن الله لم يكلفنا شططا ، إنما جاء تكليفه ليحمى العقول من أهواء النفس التى تطمس العقول ، فآفة الرأى الهوى ، ولولا وجود الأهواء لكانت الآراء كلها متفقة .

وقديما أعطوا لنا مثلا بالمرأة التى جمعت الصيف والشتاء فى ليلة واحدة ، فقد زوجت ابنها وابنتها ، وعاش الأربعة معها فى حجرة واحدة ، ابنها معه زوجته ، وابنتها معها زوجها ، والمرأة معهم ، تنام نوما قليلا وتذهب لابنتها توصيها : « دفئى زوجك وارعيه » فالحر بارد ، وتذهب لابنها وتقول : « ابعد عن زوجتك فالدنيا حر » .

إن المكان واحد ، والليل واحد ، لكن امرأة جعلته صيفاً وشتاء فى وقت واحد والسبب هو هوى النفس . والله ـ سبحانه ـ يبيّن لنا ذلك فى قوله :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المؤمنون)

إذن فالحق سبحانه وتعالى يعصمنا حين يُشَرِّع لنا ، فالبشر يضيقون ذرعا بتقنينات أنفسهم لأنفسهم ، فيحاولون أن يعصموا من خطأ التقنين البشرى ، فيقنوا أشياء

يعدلون بها ما عندهم ، ولو نظرت إلى ما عدلوه من قوانين لوجدته تعديلا يلتقى مع الإسلام أو يقترب من الإسلام .

لقد سألونى فى أمريكا : لماذا لم يظهر الإسلام فوق كل العقائد برغم أنكم تقولون : إن الله يقول فى كتابه « ليظهره على الدين كله » ومع ذلك لم يظهر دينكم على كل الأديان ، ولم يزل كثير من الناس غير مسلمين سواء كانوا يهودا أو نصارى أو بلا دين ؟

قلت : لو فطنتم إلى قول الله « ولو كره الكافرون » و« ولو كره المشركون » لدلكم ذلك على أن ظهور الإسلام قد تم مع وجود كفار ، وظهوره مع وجود مشركين ، وإلا لو ظهر ولا شىء معه فممن يكره ؟ إن العقيدة التى يكرهها أهل الكفر هى التى تبرز وجود الإسلام . إذن « ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » يدل على أن ظهور الإسلام يعنى وجود كافر ووجود مشرك كلاهما سيكون موجودا وسيكرهان انتشار الدين .

وعندما نرى أحداث الحياة تضطر البلاد الغربية عندما يجدون خطأ تقنينهم يحاولون أن يعدلوا فى التقنينات فلا يجدون تعديلا إلا أن يذهبوا إلى أحكام الإسلام ، لكنهم لم يذهبوا إليه كدين إنما ذهبوا إليه كنظام ، إن رجوعهم إلى الإسلام لدليل وتأكيد على صحة وسلامة أحكام الإسلام ، لأنهم لو أخذوا تلك الأحكام كأحكام دين لقال غيرهم : قوم تعصبوا لدين آمنوا به فتمدحوا أحكامه . ولكنهم برغم كرههم للدين اضطروا لأن يأخذوا بتعاليمه ، فكأنه لا حل عندهم إلا الأخذ بما ذهب إليه الإسلام .

إذن قول الله : « ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » قوة لتعاليم الإسلام ، لا لتؤمن به وإنما تضطر أن تلجأ إليه ، وكانوا فى إيطاليا ـ على سبيل المثال ـ يعيبون على الإسلام الطلاق ويعتبرونه انتقاصا لحقوق المرأة ، ولكن ظروف الحياة والمشكلات الأسرية اضطرتهم لإباحة الطلاق ، فهل قننوه لأن الإسلام قال به ؟ لا ، ولكن لأنهم وجدوا أن حل مشكلاتهم لا يأتى إلا منه .

وفى أمريكا عندما شنوا حملة شعواء على تناول الخمور ، هل حاربوها لأن الإسلام حرمها ؟ لا ، ولكن لأن واقع الحياة الصحية طلب منهم ذلك . إذن « ولو كره الكافرون » ، « ولو كره المشركون » : معناها أنهم سيلجأون إلى نظام الإسلام ليحل قضاياهم . فإن لم يأخذوه كدين فسوف يأخذونه نظاما .

« فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم » أى إياكم أن تظنوا أنكم بزللكم أخذتم حظوظ أنفسكم من الله ، فإن مرجعكم إلى الله وهو عزيز وعزته سبحانه هى أنه يَغلب ولا يُغلب ، فهو يدبر أمورنا برحمة وحكمة . ويقول الحق بعد ذلك

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾

أى ماذا ينتظرون ؟ هل ينتظرون أن تداهمهم الأمور ويجدوا أنفسهم فى كون وإن أخذ زخرفه فهو يتحول إلى هشيم تذروه الرياح ، ويصير الإنسان أمام لحظة الحساب

وقوله : « هل ينظرون » مأخوذة من النظر . والنظر هو طلب الإدراك لشيء مطلق . وطلب الإدراك لأى شيء بأى شيء يُسمى نظرا . ومثال ذلك أننا نقول لأى إنسان يتكلم فى أى مسألة معنوية . أليس عندك نظر ؟ أى هل تملك قوة الإدراك أم لا ؟

إذن فالنظر هو طلب الإدراك لشيء ، فإن طلبت أن ترى فهو النظر بالعين ، وإن طلبت أن تعرف وتعلم ؛ فهو النظر بالفكر وبالقلب . وأحيانا يُطلق النظر على الانتظار ، وهو طلب إدراك ما يتوقع .

«هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله» ، يعنى هل ينتظرون إلا أن تأتيهم الساعة وتفاجئهم فى الزمن الخاص ؟ لأنها لن تفاجىء أحدا فى الزمن العام ، فسوف يكون لها آيات صغرى وآيات كبرى ، ومعنى أن لها آيات صغرى وكبرى ، أن ذلك دليل على أن الله يمهلنا لنتدارك أنفسنا ، فلايزال بابًا لباب التوبة ما لم تطلع الشمس من مغربها

وساعة نسمع قوله تعالى : «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله» نقول : ما الذى يؤجل دخولهم فى الإسلام كافة ؟ ما الذى ينتظرونه ؟ كما كأن تقول لشخص أمامك : ماذا تنتظر ؟ كذلك الحق يحثنا على الدخول فى السلم كافة وإلا فماذا تنتظرون ؟

«إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة» ساعة نقول : «يأتيهم الله» أو «وجاء ربك» ، أو يأتى سبحانه بمثل فى القرآن مما نعرفه فى المخلوقين من الإتيان والمجىء وكالوجه واليد ، فلنأخذه فى إطار «ليس كمثله شىء» ، فالله موجود وأنت موجود ، فهل وجودك كوجوده ؟ لا .

إن الله حى وأنت حى ، أحياتك كحياته ؟ لا . والله سميع وأنت سميع ، أسمعك كسمعه ؟ لا . والله بصير وأنت بصير ، أبصرك كبصره ؟ لا . وما دمت تعتقد أن له صفات مثلها فيك ، فلتأخذها بالنسبة لله فى إطار «ليس كمثله شىء» .

والذين يفسرون المقصود بوجه الله أنه ذاته ، وبيده يعنى قدرته ، و«يد الله فوق أيديهم» ، يعنى قدرته فوق قدرتهم . نقول لهم : لماذا هذه التصويرات ؟ إننا لو أخذناه كما قال الحق عن نفسه ولكن فى إطار «ليس كمثله شىء» نكون قد سلمنا من الخطأ . . لاتشبيهاً بخلقه ، ولا عطلنا نصًّا عن معناه .

ولذلك يقول المحققون : إنك تؤمن بالله كما أعطاك صورة الإيمان به لكن فى إطار لا يختلف عنه عما فى أنه «ليس كمثله شىء» ، وإن أمكن أن تتصور أى شىء فربك على خلاف ما تتصور ، لأن ما خطر ببالك فإن الله سبحانه على خلاف ذلك ،

فبال الإنسان لا يخطر عليه إلا الصور المعلومة له ، ومادامت صورا معلومة فهى فى خلق الله وهو سبحانه لا يشبه خلقه .

إن ساعة يتجلى الحق ، سيفاجىء الذين تصوروا الله على أية صورة ، أنه سبحانه على غير ما تصوروا وسيأتيهم الله بحقيقة لم تكن فى رءوسهم أبداً ؛ لأنه لو كانت صورة الحق فى بال البشر لكان معنى ذلك أنهم أصبحوا قادرين على تصوره ، وهو القادر لا ينقلب مقدوراً عليه أبداً ، ومن عظمته أن العقل لا يستطيع أن يتصوره مادياً . ولذلك ضرب الله لنا مثلاً يقرّب لنا المسألة ، فقال :

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إن الروح الموجودة فى مملكة جسمنا والتى إذا خرجت من إنسان صار جيفة ، وعاد بعد ذلك إلى عناصر تتحلل وأبخرة تتصاعد ، هذه الروح التى فى داخل كل منا لم يستطع أحد تصورها ، أو تحديد مكانها أو شكلها ، هذه الروح المخلوقة لله لم نستطع أن نتصورها ، فكيف نستطيع أن نتصور الخالق الأعظم ؟

« هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله » يعنى بما لم يكن فى حسبانهم . هل ينتظرون حتى يروا ذلك الكون المنسق البديع قد انتثر ، والكون كله تبعثر ، والشمس كورت ، والنجوم انكدرت ، وكل شىء فى الوجود تغير ، وبعد ذلك يفاجئون بأنهم أمام ربهم . فماذا ينتظرون ؟

إذن يجب أن ينتهزوا الفرصة قبل أن يأتى ذلك الأمر ، وقبل أن تفلت الفرصة من أيديهم ويُنهى أمد رجوعهم إلى الله . لماذا يسوفون فى أن يدخلوا فى السلم كافة ؟ ما الذى ينتظرونه ؟ أينتظرون أن يتغير الله ؟ أو أن يتغير منهج الله ؟ إن ذلك لن يحدث .

ونؤكد مرة أخرى أننا عندما نسمع شيئاً يتعلق بالحق فيما يكون مثله فى البشر فلنأخذه فى إطار « ليس كمثله شىء » . فكما أنك آمنت بأن لله ذاتاً لا كالذوات ،

فيجب أن تعلم أن لله صفات ليست كالصفات ، وأن لله أفعالاً ليست كالأفعال ، فلا تجعل ذات الله مخالفة لذوات الناس ، ثم تأتى فى الصفات التى قال الله فيها عن نفسه وتجعلها مثل صفات الناس . فإذا كان الله يجيء ، فلا تتصور مجيئه أنه سيترك مكاناً إلى مكان ، فهو سبحانه يكون فى مكان بما لا يخلو منه مكان ، تلك هى العظمة

فإذا قيل : « إلا أن يأتيهم الله » فلا تظن أن إتيانه كإتيانك ؛ لأن ذاته ليست كذاتك ، ولأن الناس فى اختلاف درجاتهم تختلف أفعالهم ، فإذا كان الناس يختلفون فى الأفعال باختلاف منازلهم ، وفى الصفات باختلاف منازلهم ، فالحق منزه عن كل شيء وكل تصور ، ولنأخذ كل شيء يتعلق به فى إطار « ليس كمثله شيء » ، فعمل ربك يختلف عن فعلك . وإياك أن تُخضع فعله لقانون فعلك ، لأن فعلك يحتاج إلى علاج وإلى زمن يختلف باختلاف طاقتك وباختلاف قدرتك ، والله لا يفعل الأشياء بعلاج بحيث نأخذ منه زمناً ولكنه يقول « كن فيكون » .

كأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا صورة عن الإيجاز الذى لا دخل لاختيار البشر فى أن يخالفوا فيه فيقول : ساعة يجيء الأمر انخلعت كل قدرة لمخلوق عن ذلك الأمر وأصبح الأمر لله وحده .

« فى ظلل من الغمام » ، فيه شيء يظلك وفيه شيء تستظل به ، والشيء الذى يظلك لا يكون لك ولاية عليه فى أن يظلك إلا أن ترى أين ظله وتذهب إليه ، وشيء آخر تستطيع أنت التصرف فيه كالمظلة تضعها فى أى مكان تريد . وكلمة « ظلل » معناها أنها تستر عنك مصدر الضوء ؛ ولذلك حينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يصور لك ذلك قال :

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة لقمان)

أى جاءهم الفزع الأكبر كالظلة محيطاً بهم ، فكأن الله يريد أن يخبرنا أن الكون سينتثر كله وسيأتيك الأمر المفزع ، الأمر المفجع ، والمؤمن كان يتوقعه ، وسيدخل

عليه برداً وسلاماً ؛ لأنه ما آمن من أجله ، لكن الكافر سيصاب بالفزع الأكبر ؛ لأنه فوجىء بشيء لم يكن في حسابه .

وقارن بين مجيء الأمر من يؤمله ، وبين مجيء الأمر لمن لا يؤمله . إن الحق سبحانه وتعالى قال : ساعة تجيء هذه الظلل والملائكة فقد قضي الأمر . وعندما تسمع « قضي الأمر » فاعلم أن المراد أن الفرصة أفلتت من أيدي الناس ، فمن لم يرجع إلى ربه قبل الآن فليست له فرصة أن يرجع . ومثال ذلك ما قاله الحق في قصة نوح

﴿ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة هود)

أي انتهى كل شيء ، ولم يعد للناس قدرة على أن يرجعوا عما كانوا فيه. فالله يقول : ماذا تنتظرون ؟ هل تنتظرون حتى يأتيكم هذا اليوم ؟ لابد أن تنتهزوا الفرصة لترجعوا إلى ربكم قبل أن تفت منكم فرصة العودة . «وإلى الله تَرجع الأمور» ، ومرة تأتي « وإلى الله تُرجع الأمور »

وفيه فرق بين « تَرجع الأمور » بفتح التاء وبين « تُرجع الأمور » بضم التاء فكأن الأمور مندفعة بذاتها ، ومرة تساق إلى الله . إن الراغب سيرجع إلى ربه بنفسه ؛ لأنه ذاهب إلى الخير الذي ينتظره ، أما غير الراغب والذي كان لا يرجو لقاء ربه فسيُرجَع بالرغم عنه ، تأتي قوة أخرى تُرجعه ، فمن لم يجيء رغباً يأتي رغماً . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ ﴾

فكأن الله لم يجعل على بنى إسرائيل ويريد منهم أن يقروا على أنفسهم بما أكرمهم به الله من خير سابق ، فساعة تقول : « اسأل فلاناً عما فعلته معه » ، كأنك لا تأمر بالسؤال إلا عن ثقة ، وأنه لن يجد جواباً إلا ما يؤيد قولك . والحق يبلغ رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسأل بنى إسرائيل عن الخير السابق الذى غمرهم به وهو سبحانه عليم أنهم لن يستطيعوا مع لدهم أن يتكلموا إلا بما يوافق القضية التى يقولها الحق وتصبح حجة عليهم .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « سل بنى إسرائيل كم آتيناهم » ساعة تسمع « كم » فى مقام كهذا فافهم أنها كناية عن الإخبار عن الأمر الكثير بخلاف « كم » التى تريد بها الاستفهام . وأنت تقول : « كم فعلت كذا مع فلان » و« كم صنعت معه معروفاً » و« كم تهاونت معه » و« كم أكرمته » . لذلك عندما تسمع « كم » هذه فاعرف أن معناها الكمية الكثيرة التى يكنى بها على أن عددها لا يحصى .

« سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة » إن الحق يريد أن يضرب لنا مثلاً كمثل إنسان يأكل خيرك وينكر معروفك ، ويشكوك إلى إنسان ، فترد أنت لم يقل لك الشكوى . سله ماذا قدمت له من جميل ، أنا لن أتكلم بل سأجعله هو يتكلم . وأنت لا تقول ذلك إلا وأنت على ثقة من أنه لا يستطيع أن يغير شيئاً .

ألم يفلق لهم البحر ؟ . ألم يجعل عصا موسى حية ؟ ألم يظللهم الله بالغمام ؟ ألم يطعمهم الله المن والسلوى ؟ كل ذلك أعطاه الله لهم ، فلم يشكروا نعمة الله ، فحل عليهم غضبه ، أخذهم بالسنين والجوع وأخذهم بالقمل والضفادع والدم ، كل ذلك فعله الله معهم . وحين يقول الحق لرسوله : « سل بنى إسرائيل » فالقول منسحب على أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا جاءك واحد منهم فاسأله : كم آية أعطاها الله لكم فأنكرتموها ، وتلكأتم وتعنتم . « كم آتيناهم من آية بينة » إن « كم » تدل على الكمية الكثيرة ، و« من آية » : معناها الأمر العجيب ، و« بينة » تعنى الأمر الواضح الذى لا يمكن أن يغفل عنه أحد .

« سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ، ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته

«فإن الله شديد العقاب» . وكيف يبدل الإنسان نعمة الله ؟. إن نعمة الله حين تصيب خلقه فالواجب عليهم أن يستقبلوها بالشكران ، ومعنى الشكران هو نسبتها إلى واهبها والاستحياء أن يعصوا من أنعم عليهم بها . فإذا استعمل الناس النعمة بغير ذلك فقد بُدّلت . ولذلك يقول الحق في آية أخرى : «ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً» وماداموا قد بدلوها كفراً ، يكون الكفر هو الذي جاء مكان الإيمان . إذن كان المطلوب أن يقابلوا النعمة بالإيمان ، والازدياد في التقرب إلى الله ، لكنهم بدلوا النعمة بالكفر .

«ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب» قد نفهم أن معنى «شديد العقاب» هو أمر يتعلق بالآخرة ، ولعل أناساً يستبطئون الآخرة ، أو أناساً غير مؤمنين بالآخرة ، فلو كان الأمر بالعقاب يقتصر على عقاب الآخرة لشقي الناس بمن لا يؤمنون بالآخرة .. أو يستبطئون لأن هؤلاء يعيثون في الأرض فساداً ؛ لأنهم لا يخافون الآخرة ولا يؤمنون بها ، أو أنها لا تخطر ببالهم .

فالذي يؤمن بأن هناك آخرة تأتي وسيكون فيها حساب ، هو الذي سيكون سلوكه على مقتضى ذلك الإيمان . أما الذي لا يؤمن أن هناك يوماً آخر فالدنيا تشقى به ، فإذا لم يعجل الله بلون من العقوبة للذين لا يؤمنون بالآخرة أو الذين يستبطئون الآخرة لشقي الناس بهؤلاء الذين لا يؤمنون أو يستبطئون .

وكل جماعة لا تقبل على منهج الله ، ويبدلون نعمة الله كفراً لابد أن يكون لله فيهم عقاب عاجل ، وذلك ليعلم الناس أن من لم يرتدع إيماناً وخوفاً من اليوم الآخر فعليه أن يرتدع مخافة أن يأتيه العقاب في الدنيا . فالظالم إذا علم أن ظالماً مثله لقي عقابه وحسابه في الدنيا فسيخاف أن يظلم ؛ وإن لم يكن مؤمناً بالآخرة ، لأنه سيتأكد أن الحساب واقع لا محالة . وبذلك لا يؤجل الله العقاب كله إلى الآخرة ولكن ينزل بعضاً منه في الدنيا . ويقول الحق في الذين يبدلون نعمة الله كفراً :

﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾

(سورة إبراهيم)

هذه عقوبة الآخرة،ولن يتركهم الله فى الدنيا دون أن ينالهم العقاب

وحتى الذين يظلمون ويتعسفون مع أنهم مسلمون لا يتركهم الله بلا عقاب فى الدنيا حتى يأتيهم يوم القيامة بل لابد أن يجىء لهم من واقع دنياهم ما يخيف الناس من هذه الخواتيم حتى تستقيم حركة الحياة بين الناس جميعا ، وإلا فسيكون الشقاء واقعا على الناس من هؤلاء ومن الذين لا يؤمنون بعقاب الآخرة

وكان بعض الصالحين يقول . « اللهم إن القوم قد استبطأوا آخرتك وغرهم حلمك فخذهم أخذ عزيز مقتدر » ، لأنه سبحانه لو ترك عقابهم للآخرة لعسدوا وكانوا فتنة لغيرهم من المؤمنين . ولذلك شاء الله أن يجعل فى منهج الإيمان تجريماً وعقوبة تقع فى الدنيا ، لماذا ؟ حتى لا يستشرى فساد من يشك فى أمر الآخرة . وشدة عقاب الله لا يجعلها فى الآخرة فقط ، بل جعلها فى الدنيا أيضا ، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة طه)

ثم يقول سبحانه وتعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ۘ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين واقع الإنسان فى الكون ، هذا الواقع الذى يدل

عن أنه سيد ذلك الكون ، ومعنى ذلك أن كل الأجناس تخدمه وقد عرفنا أن الجماد يخدم النبات ، والجماد والنبات يخدمان الحيوان ، والجماد والنبات والحيوان تخدم الإنسان ، فالإنسان سيد هذه الأجناس .

وكان مقتضى العقل أن يبحث هذا السيد عن جنس أعلى منه ، فكما كانت الأجناس التي دونه في خدمته ، فلابد أن يكون هذا الجنس الأعلى يناسب سيادته ، ولن يجد شيئا في الوجود أبدا أعلى من الجنس الذي ينتسب إليه ، لذلك كان المفروض أن يقول الإنسان أنا أريد جنسا يستغني عن معنى ؛ فأنا في أشد الاحتياج إليه . فإذا جاء الرسل وقالوا : إن الذي أعلى منك أيها الإنسان هو الله وليس كمثله شيء وتعالى عن كل الأجناس . كان يجب على الإنسان أن يقول : مرحبا ؛ لأن معرفة الله تحل له اللغز والرسل إنما جاءوا ليحلوا للإنسان لغزاً يبحث عنه ، وكان على الإنسان أن يفرح بمجيء الرسل ، وخصوصاً أن الله عز وجل لا يريد خدمة منه ، إن الإنسان هو الذي يحتاج لعبادة الله ليسخر له الكائنات ، ويعينه بعمره . إذن فالمؤمن بين أمرين : بين خادم له مسخر وهو من دونه من الجماد والنبات والحيوان ، ومعطٍ متفضلٍ عليه مختارٍ وهو أعلى منه إنه هو الله .

فمن يأخذ واحدة ويترك واحدة فقد أخذ الأدنى وترك الأعلى . فيقول له الحق خذ الأعلى . فإذا كنت سعيداً بعطاء المخلوقات الأدنى منك ، وتحب أن تستزيد منها فكيف لا تستزيد ممن هو أعلى منك ؟ . إنه الله

والحق عندما يقول : « زين للذين كفروا الحياة الدنيا » فهو يريد أن يلفتنا إلى أن مقاييس الكافرين مقاييس هابطة نازلة ؛ لأن الذي زُين لهم هو الأمر الأدنى . ومن خيبة التقدير أن يأخذ الإنسان الأمر الأدنى ويفضله على الأعلى . وكلمة « زُين » عندما تأتي في القرآن تكون مبنية لما لم يسم فاعله مثل قوله تعالى

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَٰتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَٰطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾

(من الآية ١٤ سورة آل عمران)



هناك « زين للناس » وفى آية البقرة التى نحن بصددها « زين للذين كفروا » لماذا قال الحق هناك « زين للناس » ولماذا قال هنا : « زين للذين كفروا » ؟ لقد قال الحق ذلك لأن الذين كفروا ليس عندهم إلا الحياة الدنيا ، فالأعلى لا يؤمنون به ، ولكن فى مسألة الناس عامة عندما يقول الله عز وجل : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » فهو سبحانه يقول للناس : حللوا الحياة على قدرها وزينت يعنى حُسنت ممن الذى حسنها ؟ لقد حسنها الله عز وجل . فكيف تنسى الذى حسنها لك ، وجعلها جميلة وجعلها تحت تصرفك ؟

كان يجب أن تأخذها وسيلة للإعجاب بمن رزقك إياها ، وكلما ترى شيئا جميلا فى الوجود تقول : « سبحان الله » ، وتزداد إيمانا بالله ، أما أن تأخذ المسألة وتغرها عمن خلقها فذلك هو المقياس النازل .

أو أن الله سبحانه وتعالى هو الذى زينها بأن جعل فى الناس غرائز تميل إلى ما تعطيه هذه الحياة الدنيا ، ونقول : هل أعطى سبحانه الغرائز ولم يعط منهجا لتعلية هذه الغرائز ؟ لا ، لقد أعطى الغرائز وأعطى المنهج لتعلية الغرائز ، فلا تأخذ هذه وتترك تلك . ولذلك يقول الحق



﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الكهف)

والحق عندما يقول : « زين للذين كفروا الحياة الدنيا » فهو يفضح من يعتقدون أنه لا حياة بعد هذه الحياة ، ويقول لهم : هذا مقياس نازل ، وميزان غير دقيق ، ودليل على الحمق ، لأنكم ذهبتم إلى الأدنى وتركتم الأعلى . ومن العجيب أنكم فعلتم ذلك ثم يكون بينكم وبين من اختار الأعلى هذه المفارقات : أنتم فى الأدنى ، وتسخرون من الذين اتجهوا إلى الأعلى ، إن الحق يقول : « ويسخرون من الذين آمنوا » . لماذا يسخرون منهم ؟

لأن الذين آمنوا ملتزمون ، ومادام الإنسان ملتزماً فسيحوق نفسه عن حركات الوجود التي تأتيه من غير حل ، لكن هؤلاء قد انطلقوا بكل قواهم وملكاتهم إلى ما يزين لهم من الحياة .

لذلك تجد إنساناً يعيش في مستوى دخله الحلال ، ولا يملك إلا « حُلّة واحدة وبدلة » ، وإنساناً آخر يسرق غيره ، فتجد الثاني الذي يعيش على أموال غيره حسن المظهر والهندام وعندما يلتقي الاثنان تجد الذي ينهب يسخر من الذي يعيش على الحلال ، لماذا ؟ لأنه يعتبر نفسه في مقياس أعلى منه ، يرى نفسه حسن الهندام والشياكة ، فيحسم الحق هذه المسألة ويقول : « والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة » . لماذا يوم القيامة ، أليسو فوقهم الآن ؟

إن الحق سبحانه وتعالى يتحدث عن المنظور المرئي للناس ؛ لأنهم لا ينظرون إلى الراحة النفسية وهي انسجام ملكات الإنسان حينما يذهب لينام ، ولم يجرب على نفسه سقطة دينية ولا سقطة خلقية ، ولا يؤذي أحدًا ، ولا يرتشي ، ولا ينم ولا يغتاب ، كيف يكون حاله عندما يستعرض أفعال يومه قبل نومه ؟ لابد أن يكون في سعادة لا تقدر بمال الدنيا .

ولذلك لم يدخل الله هذا الإحساس في المقارنة ، وإنما أدخل المسألة التي لا يقدر عليها أحد « والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة » ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة المطففين)

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المطففين)

أى هل عرفتنا أن نجازيهم ؟ نقول : نعم يارب . خصوصا أن ضحك الآخرة ليس بعده بكاء .

« والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة » ولنلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى خالف الأسلوب في هذه الآية، لقد كان المفروض أن يقول : والذين آمنوا فوقهم . لكنه قال : « والذين اتقوا فوقهم » لأنه قد يؤخذ الإيمان على انه اسم ، فقد شاع عنك أنك مؤمن ، فأنت بهذا الوصف لا يكفى لتنال به المرتبة السامية إلا إذا كانت أفعالك تؤدى بك إلى التقوى .

فلا تقل « أنا مؤمن » ويقول غيرك « أنا مؤمن » ، ويصبح المؤمنون مليارا من البشر في العالم ، نقول لهؤلاء : أنتم لن تأخذوا الإيمان بالاسم وإنما تأخذون الإيمان بالالتزام بمنهج السماء ولذلك لم يقل الله : « والذين آمنوا فوقهم يوم القيامة » وإنما قال : « والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة » ليعزل الاسم عن الوصف . ويذيل الحق الآية بالقول الكريم : « والله يرزق من يشاء بغير حساب » . ما هو الرزق ؟ الرزق عند القوم : هو كل ما ينتفع به ؛ فكل شيء تنتفع به هو رزق . وطبقا هذا التعريف فاللصوص يعتبرون الحرام رزقا ، ولكنه رزق حرام

والناس يقصرون كلمة الرزق على شيء واحد يشغل بالهم دائما وهو « المال » نقول لهم : لا ، إن الرزق هو كل ما يُنتفع به ؛ فكل شيء يكون مجاله الانتفاع يدخل في الرزق : علمك رزق ، وخلقك رزق ، وجاهك رزق ، وكل شيء تنتفع به هو رزق . ساعة تقول : إن كل ذلك رزق تأخذ نور الله .

﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾

(من الآية ٧١ سورة النحل)

كأن الله يريد من خلقه استطراق أرزاقهم على غيرهم ، وكل إنسان متميز وتزيد عنده حاجة عليه أن يردها على الناس ، لكن الناس لا تفهم الرزق إلا على أنه مال ، ولا يفهمون أنه يطلق على كل شيء ينتفعون به .

إذا كان الأمر كذلك فما معنى « يرزق من يشاء بغير حساب » كلمة « بغير حساب » لابد أن نفهمها على أن الحساب يقتضي مُحاسِب ، ومُحاسَب ، ومُحاسَب عليه . وعلى هذا يكون « بغير حساب » من وفي ماذا ؟

إنه رزق بغير حساب من الله ، فقد يرزقك الله على قدر سعيك . وربما أكثر ، وهو يرزق بغير حساب ، لأنه لا توجد سلطة أعلى منه تقول له : لماذا أعطيت فلانا أكثر مما يستحق .

وهو يرزق بغير حساب ، لأن خزائنه لا تنفد ويرزق بغير حساب ، لأنه لا يحكمه قانون ، وإنما يعطي بطلاقة القدرة إنه جل وعلا يعطي للكافر حتى تتعجب أنت وتقول : يعطي الكافر ولا يعطي المؤمن لماذا ؟

إذا استطاع أحد أن يحاسبه فليسأله لماذا يعمل ذلك ؟ إنه يعطي مقابلا للحسنة سبعمائة ضعف بغير حساب . إن الحساب إنما يأتي عندما تأخذ معدوداً ، فإذا أخذت مثلا مائة من ألف فأنت طرحت معدودًا من معدود فلابد أن ينقص ، وعندما تراه ينقص فأنت تخاف من العطاء . لكن الله بخلاف ذلك ، إنه يعطي معدوداً من غير معدود .

إذن ساعة تقرأ « بغير حساب » فقل إن الحساب إن كان واقعا من الله على الغير ، فهو لا يعطي على قدر العمل بل يزيد ، ولن يحاسب نفسه ولن يُحاسبه أحد .

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة النحل)

إذن « يرزق من يشاء بغير حساب » تجعل كل إنسان يلزم أدبه إن رأى غيره قد

رُزق أكثر منه ، لأنه لا يعلم حكمة الله فيها . وهناك أناس كثيرون عندما يعطيهم الله نعمة يقولون : « ربنا أكرمنا » ، وعندما يسلبهم النعمة يقولون : « ربنا أهاننا » ، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى .

﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الفجر)

كلا . مخطىء أنت يا مَن اعتبرت النعمة إكراما من الله ، وأنت مخطىء أيضاً يا مَن اعتبرت سلب النعمة إهانة من الله ، إن النعمة لا تكون إكراما من الله إلا إذا وفقك الله في حسن التصرف في هذه النعمة ، ولا تكون النعمة إهانة إلا إذا لم يوفقك الله في أداء حق النعمة ، وحق النعمة في كل حال يكون بشكر المنعم ، وعدم الانشغال بها عمن رزقك إياها .

ونحب أن نفهم ـ أيضا ـ أنّ قول الله سبحانه وتعالى : « والله يرزق من يشاء بغير حساب » ينسحب على معنى آخر ، وهو أنه ـ سبحانه ـ لا يجب أن تُقدِّر أنت رزقك بحساب حركة عملك فقط ؛ فحساب حركة عملك قد يخطىء . مثال ذلك الفلاح الذي يزرع ويقدر رزقه فيما يُنتج من الأرض ، وربما جاءت آفة تذهب بكل شيء كما نلاحظ ونشاهد ، ويصبح رزق الفلاح في ذلك الوقت من مكان آخر لم يدخل في حسابه أبداً .

ولهذا فإن على الإنسان أن يعمل في الأسباب ، ولكنه لا يأخذ حسابا من الأسباب ، ويظن أن ذلك هو رزقه ؛ لأن الرزق قد يأتي من طريق لم يدخل في حسابك ولا في حساباتك ، وقال الحق في ذلك .

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

(من الآيتين ٢ ، ٣ سورة الطلاق)

وبعد ذلك يقول لنا الحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى ما يوضح لنا ويبين قصة العقيدة وموكب الرسالات فى الأرض ، بداية وتسلسلا وتتابعا فى رسل متعاقبين ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾

ولقائل أن يقول : إذا كان الناس أمة واحدة ، وقد رتب الله بعث وإرسال النبيين على كونهم أمة واحدة ، فمن أين إذن جاء الخلاف إلى حياة الناس ؟ ونقول : لابد أن نحمل هذه الآية المجملة على آية أخرى مفصلة فى قوله تعالى

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة يونس)

لابد لنا إذن أن نأخذ هذه الآية فى ظل آية سورة يونس ، فالحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب العقل البشرى يريد أن يخاطبه خطابا يوقظ فيه عقله وفكره حتى يستقبل

كلام الله بجماع تفكيره ، وأن يكون القرآن كله حاضراً فى ذهنك ، ويخدم بعضه بعضاً

« كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين » فقبل بعث الله النبيين كان الناس أمة واحدة يتبعون آدم ، وقد بلغ الحق آدم المنهج بعد أن اجتباه وهداه ، وعلم آدم أبناءه منهج الله ، فظل الناس من أبنائه على إيمان بعقيدة واحدة ، ولم ينشأ عندهم ما يوجب اختلاف أهوائهم ، فالعالم كان واسعاً ، وكانت الفئة السكانية فيه هى آدم وأولاده فقط ، وكان حيز العالم يتسع للموجودين جميعا إذن لا تطاحن على شىء ، ومن يريد شيئاً يأخذه ، وكانت الملكية مشاعة للجميع ؛ لأنه لم تكن هناك ملكية لأحد ؛ فمن يريد أن يبنى بيتا فله أن يبنيه ولو على عشرين فداناً ، ومن يريد أن يأكل فاكهة أو يأخذ ثمرا من أى بستان فله أن يأخذ ما يريد .

والمثال عن ذلك فى حياتنا اليومية ، هناك رب الأسرة الذى يأتى بعشرين كيلو برتقالاً ويتركها أمام أولاده ، وكل طفل يريد برتقالة أو أكثر فهو يأخذ ما يريد بلا حرج ، لكن لو اشترى رب البيت كيلو برتقالاً واحداً فكل طفل يأخذ برتقالة واحدة فقط .

إذن كان الناس أمة واحدة ، أى لم توجد الأطماع ، ولم يوجد حب الاستئثار بالمنافع مما يجعلهم يختلفون . إذن فأساس الاختلاف هو الطمع فى متاع الدنيا ، ومن هنا ينشأ الهوى

وكان من المفروض فى آدم عليه السلام بعد أن بلغه الله المنهج أن يبلغه لأولاده ، وأن ينقل أبناؤه المنهج ، ولكن بعض أولاده تمرد على المنهج ، ونشأ حب الاستئثار من ضيق المستأثر والمتمتع به ، ومن هنا نشأت الخلافات ولنا فى قصة هابيل وقابيل ما يوضح ذلك :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ونعرف أن آدم وحواء هما أصل الوجود ، حواء تلد توأمين في كل مرة ، وأراد آدم أن يزاوجهم فكيف تكون المزاوجة رغم جميعاً أبناؤه وأبناء عنصر واحد ؟ وكل منهم يعرف أن الذي أمامه هو أخوه .

لقد واجه الشرع تلك المشكلة في ذلك الوقت ، واعتبر أن البعد هو بعد البطن، أي أن الذي يولد مع أخيه في بطن واحد فهو أخوه ، أما الذي ولد بعده أو قبله فكأنه ليس أخاه ، بذلك كان آدم وحواء يبادلان زواج الأبناء حسب ابتعاد البطون ، وكان الغرض من هذا التباعد أن تكون المرأة وكأنها أجنبية عن أخيها .

روى عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم « أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الآخر ، وأن هابيل أراد أن يتزوج أخت قابيل وكان أكبر من هابيل وأخت قابيل أحسن فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه ، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى ، فأمرهما أن يقربا قرباناً فقرب هابيل جذعة سمينة وكان صاحب غنم ، وقرب قابيل حزمة من زرع من ردىء زرعه فنزلت نارٌ فأكلت قربان هابيل ، وتركت قربان قابيل، فغضب وقال : لأقتلنك حتى لا تنكح أختي ، فقال : «إنما يتقبل الله من المتقين »

إذن ، كان ميلاد أول خلاف بين البشر حينما تنافس اثنان للاستئثار بمنفعة ما ، وكان هذا مثالاً واضحاً ما يمكن أن يحدث عندما تضيق المنافع عن الأطماع .

« كان الناس أمة واحدة » لكنهم اختلفوا لحظة الاستئثار بالمنافع ، وأصبح لكل إنسان هوى . ولو شاء الله أن يجعل منهجه لآدم منهجاً دائماً إلى أن تقوم الساعة لفعل . لكنه سبحانه برحمته يعلم أنه خلقنا ، ويعلم أننا نغفل مرة ونسهو مرة ، ونلتزم مرة ونهمل مرة أخرى ، فشاء الله أن يواصل خلفه مواكب الرسل . ولذلك يأتي قوله الحق : « فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » . ومهمة « التبشير والإنذار» هي أن يتذكر الناس أن هناك جنة وناراً ، ولذلك يبشر كل رسول مَنْ آمن من قومه بالجنة ، وينذر مَنْ كفر من هؤلاء القوم بالنار . ويذكرنا الحق سبحانه بأنه أشهدنا على أنفسنا على وحدانيته فقال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

يخبر سبحانه أنه استخرج ذرية آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو كما أنه فطرهم على ذلك . ثم بعد أن أخرجهم إلى الوجود من آدم جده للخلق الأول وهو آدم وأعطاه المنهج وكانت الأهواء غير موجودة ، ظل المنهج مطبقا بين بني آدم . وبعد ذلك تعددت الأهواء ، وتعدد الأهواء إنما ينشأ عن الاستئثار بالمنافع ، وذلك بسبب الخوف من استئثار الغير ، فنشأ حب الذات ، ولما كانت المنافع لا تتسع لأطماع الناس فقد استشرى حب الاستئثار والتملك .

ونجد هذه المسألة واضحة حينما تتوافر السلع وتغمر الأسواق . وتستطيع أن تشتري أي سلعة في أي وقت شئت ، وتجدها متوافرة ، عند ذلك لا توجد أزمة ، لكن الأزمة تنشأ عندما تقل الكميات المعروضة من السلع عن حاجة الناس ، فيتكالب الناس على الاستئثار بها . وهكذا نعرف أن المنافع عندما توجد ، وتكون دون الأطماع هنا تتولد المشكلات .

ومن رحمة الحق سبحانه وتعالى بالخلق ، ومن تمام علمه سبحانه بضعف البشر أمام أهوائهم وأمام استئثارهم بالمنافع ، أرسل الرسل إلى البشر ليبشروا ولينذروا ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات ، فكأن الحق لم يشأ أن يترك البشر ليختلفوا ، وإنما القلة من الناس هي التي أوجدت هذا الاختلاف . « من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم » ومن هذا القول الحكيم نعرف أن الاختلاف لا ينشأ إلا من إرادة البغي ، والبغي هو أن يريد الإنسان أن يأخذ غير حقه . ومادام كل

منا يريد أن يأخذ غير حقه فلا بد أن ينشأ البغض .

« فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه » أي أن الله يهدى الذين آمنوا من كل قوم بالرسول الذى جاء مبشرا ومنذرا وحاملا منهج الحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . وبذلك يظل المنهج سائداً إلى أن تمضى فترة طويلة تعمل فيها النفوس ، وتبدأ من خلال المطامع وتحدث النسيان لمنهج الله ، وتنشأ الأهواء ، فيرسل الله لرسل ليعيدوا الناس إلى المنهج القويم ، واستمر هذا الأمر حتى جاءت رسالة الإسلام خاتمة وبعث الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم للدنيا كافة ، وبذلك ضمن لنا الحق سبحانه وتعالى ألا ينشأ خلاف فى الأصل ؛ لأننا لو كنا سنختلف فى أصل العقيدة لجرى علينا ما جرى على الأمم السابقة . هم اختلفوا فأرسل الله لهم رسلا مبشرين ومنذرين ، لكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم أراد الحق لها منهجا واضحا يحميها من الاختلاف فى أصل العقيدة . وإن اختلف الناس من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فعليهم أن يسترشدوا بالمنهج الحق الممثل فى القرآن والسنة

ونعرف أن من مميزاته صلى الله عليه وسلم أنه خاتم الأنبياء بحق ، ولن تجد فى الموكب الرسالى رسولا أوكل له الله أن ينشىء حكما جديدا لم ينزل فى كتاب الله إلا سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم . لقد أعطى الله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم التفويض فى أن يشرع عن الله ؛ فى ظل عصمة الله له فقد قال سبحانه

﴿ وَمَا ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

إنه أمر واضح للمؤمنين بأن يأخذوا بأمر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، لأن ما يأمرهم به فيه الصلاح والخير ، وأن ينتهوا عما ينهاهم عنه ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم إنما ينهى عن الأمور التى ليس فيها خير لأمة المسلمين . ويأمر الحق جل وعلا جماعة المسلمين بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لأنها من طاعة الله ، فيقول جل وعلا:

﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

وهكذا نرى أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم من طاعة الله ، ومن يعرض عن طاعته فله العقاب في الآخرة . ويؤكد الحق سبحانه على طاعته وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

هكذا نعرف أن طاعة الرحمن تستوجب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم . إذن فقد فوض الله رسوله أن يُشَرِّع للبشر . وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما ينطق عن الهوى .

وميزة أخرى لأمة المسلمين هي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك لنا حق الاجتهاد في المسائل التي لم يأت فيها نص من القرآن ولا من السنة،أو ورد فيها نص ولكنه يحتمل أكثر من معنى،ومعنى ذلك أن الحق سبحانه قد أمن أمة محمد عليه الصلاة والسلام بأن تصل بالاجتهاد لما يحسم أي خلاف ، وأن أي اختلاف لن يصل إلى الجوهر . فلو علم الله أزلا أننا سوف نختلف اختلافا في صحيح العقيدة لكان قد أرسل لنا رسلاً

ونحن نجد كل الاختلافات بين طوائف المسلمين لا تخرج عن إطار فهم نصوص القرآن أو أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل مسلم يريد أن يسعى دليله من الكتاب والسنة .

ومعنى ذلك أننا لم نترك الأصل ، ولكن كل ما يريد أن يأخذ الحكم الصحيح بل إننا نجد أن بعضا من المسيئين الذين لم يجدوا دليلهم من القرآن والسنة قد حاولوا أن يضعوا حديثا ينسبونه إلى رسول الله ليبنوا عليه الحكم الذي يريدونه

وهؤلاء مأواهم النار ؛ لأنهم نطقوا بلسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقله الرسول الكريم لقد كذبوا عليه ، ومن كذب عليه متعمدا فليتبوأ مقعده من النار .

إذن فكلنا متفق حول القرآن والسنة النبوية ، أين المشكلة إذن ؟ المشكلة هي أن يكون الناس أذكياء وعلى علم حتى يعرفوا هل المأخوذ من القرآن مقبول أو غير مقبول ؟ وهل الأحاديث المستند إليها بمقاييس الجرح والتعديل موجودة أو لا ؟

إذن فحصالة الاجتهاد والرأى عند أمة محمد صلى الله عليه وسلم جعلتهم مأمونين على كل شىء فى المنهج وأن الخلاف فيما بينهم لم يصل إلى ما وصلت إليه الأمم السابقة ، ولكن عليهم أن يتنبهوا ويرتقوا حتى يميزوا الأمور التى تكون من غير معطيات القرآن ، ثم يريد قوم أن يحملوها على القرآن .

إن عليهم ألا يفسروا القرآن حسب أهوائهم بل حسب ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ـ حتى يكون هواهم تبعا لما جاء به ـ وعلينا أن نتنبه إلى أن الله قد أمن أمة محمد صلى الله عليه وسلم على القرآن وعلى رسالة الإسلام ، والقرآن ورسالة الإسلام لن يصيبها التغيير أو التحريف ، وكل ما هو مطلوب أن يكون المؤمنون أهل دقة وفطنة ، فإذا أراد إنسان أن يستغل أية سلطة زمنية أو أن يجىء بحديث موضوع ليروج لباطله فعلى المسلمين أن يكشفوا سوء مقصد هذا الإنسان .

فنحن نفهم أن الله شبه بالإسلام حياة القيم ، كما شبه بالماء حياة المادة ، والماء حتى يظل ماء فلا بد أن يظل بلا طعم ولا لون ولا رائحة ، فإذا أردت أن تجعل له طعمًا خرج عن خاصيته ، ربما أصبح مشروبا أو عصيراً أو غير ذلك ، وقد يحب بعض الناس نوعا من العصير ، لكن كل الناس يحبون الماء ؛ لأن به تصان الحياة ، فإذا رأيت دينا قد تلون بجماعة أو بهيئة أو بشكل فاعلم أن ذلك خارج عن نطاق الإسلام . وكل جماعة تريد أن تصبغ دين الله بلون إنما يخرجونه عن طبيعته الأصلية ، ولذلك نجد أمتنا فى مصر قد صانت علوم الإسلام بالأزهر الشريف وكل عالم من علماء الإسلام فى أى بقعة من بقاع الأرض مدين للأزهر الشريف . ونجد أمتنا تحب آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن لا نجد عندنا تشيعا واحدا ،

وفى الوقت نفسه لا تجد واحداً يكره أبا بكر وعمر ، وهذا هو الإسلام الذى لا يتلون ، لأنه إسلام الفطرة

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة البقرة)

فالذين يحاولون فى أى زمان من الأزمنة أن يصبغوا الدين بشكل أو بطقوس أو بلون أو برسوم أو هيئة خاصة نقول لهم : أنتم تريدون أن تخرجوا الإسلام عن عموميته الفطرية التى أرادها الله له ، ولابد أن تقفوا عند حد الفطرة الإسلامية ، ولا تلونوا الإسلام هذا التلوين . وبذلك نحقق قول الله . « فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » ونعرف أن الهداية معناها الأمر الموصل للغاية ، وحين ترد الهداية من الله سبحانه وتعالى فعلينا أن نفهم أن الهداية من الله ترد على معنيين : المعنى الأول هو الدلالة على الطريق الموصل ، والمعنى الثانى هو المعونة .

وضربت من قبل المثل بشرطى المرور الذى يدلك على الطريق الموصل إلى الغاية التى تريدها ، فإن احترمت كلامه وتفقدته فهو يعطى لك شيئاً من المعونة ، بأن يسير معك أو يوصلك إلى المكان الذى تريد . فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى وله المثل الأعلى ؟ إنه يهدى الجميع بمعنى يدلهم ، فالذين آمنوا به واتبعوه يهديهم هداية أخرى ، وهى أن يعينهم على ما ألزموا نفوسهم فيه وبعضنا يدخله العجب عندما يسمع قول الحق :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة فصلت)

بعضنا يتعجب متسائلا كيف يقول سبحانه : إنه هداهم ، ثم استحبوا العمى على الهدى ؟ ونقول : إن « هداهم » جاءت هنا بمعنى « دلهم » لكنهم استحبوا

العمى على الهدى ، أما الذين استجابوا لهداية الدلالة وآمنوا فقد أعانهم الله وأنجاهم ، لأنهم عرفوا تقواه سبحانه

ونحن نسمع بعض الناس يقولون : مادام الله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم فما ذنب الذى لم يهتد ؟ نقول : إن الحق يهدى من شاء إلى صراط مستقيم ، أى يبين الطريق إلى الهداية ، فمن يأخذ بهداية الدلالة يرده الله بهداية المعونة وييسر له ذلك الأمر ونحن نعلم أن الله نفى الهداية عن رسوله صلى الله عليه وسلم فى آية ، وأثبتها له فى آية أخرى برغم أنه فعل واحد لفاعل واحد قال الحق نافيا الهداية عن الرسول صلى الله عليه وسلم

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة القصص)

والحق يذكر للرسول صلى الله عليه وسلم الهداية فى موضع آخر فيقول له :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

ومن هنا نفهم أن الهداية نوعان : هداية الدلالة ، فهو « يهدى » أى يدل الناس على طريق الخير وهناك هداية أخرى معنوية ، وهى من الله ولا دخل للرسول صلى الله عليه وسلم فيها ، وهى هداية المعونة .

إذن قوله تعالى : « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » معناها : أنك تدل على الصراط المستقيم ، ولكن الله هو الذى يعين على هذه الهداية . « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » فعلينا أن نستحضر الآيات التى شاء الله أن يهدى فيها مؤمنا وألا يهدى آخر ويقول الحق ـ سبحانه ـ :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

معنى ذلك أن الله لا يهدى إلا الذين آمنوا به . وهدايته للمؤمنين تكون بمعونتهم على الاستمرار في الهداية ، فالكل قد جاءته هداية الدلالة ولكن الحق يختص المؤمنين بهداية المعونة . والحق يقول في ذلك

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

(سورة التوبة)

إن الحق يوضح لنا المقارنة بين الذى يؤسس بنيان حياته على تقوى من الله ابتغاء الخير والجنة ، وهو الذى جاءته هداية الدلالة فاتبعها ، فجاءته هداية المعونة من الله . وبين ذلك الذى يؤسس بنيان حياته على حرف واد متصدع آيل للسقوط فسقط به البنيان في نار جهنم ، إنه الذى جاءته هداية الدلالة فتجاهلها ، فلم تصله هداية المعونة . ذلك هو الظالم المنافق الذى يريد السوء بالمؤمنين . والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة التوبة)

إن الحق يبلغ رسوله أنه مهما استغفر للمنافقين الذين يُظهرون الإسلام ، ويبطنون الكفر فلن يغفر الله لهم ، لماذا ؟ لأن هداية الدلالة قد جاءت لهم فادعوا أنهم مؤمنون بها ، ولم تصلهم هداية المعونة ؛ لأنهم يكفرون بالله ورسوله ، والله لا يهدى مثل هؤلاء القوم الفاسقين الخارجين بقلوبهم عن منهج الله . وبعد ذلك يقول الحق .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ

ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾

أي أظننتم أنكم تدخلون الجنة بدون ابتلاءات تحدث لكم ؟ إن الحق سبحانه ينفي هذا الظن ويقول : ليس الأمر كذلك ، بل لابد من تحمل تبعات الإيمان ، فلو كان الإيمان بالقول لكان الأمر سهلا ، لكن الذي يُصعِّبُ الإيمان هو العمل ، أي حمل النفس على منهج الإيمان . لقد استكبر بعض من الذين عاصروا محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقولوا : « لا إله إلا الله » لأنهم فهموا مطلوبها ؛ لأن الأمر لو اقتصر على مجرد كلمة تقال بلا رصيد من عمل يؤيدها ، لكان أسهل عليهم أن يقولوها ، لكنهم كانوا لا يقولون إلا الكلمة بحقها ، ولذلك أيقنوا تماماً أنهم لو قالوا : « لا إله إلا الله » لانتهت كل معتقداتهم السابقة ، لكنهم لم يقولوها ؛ لأنهم أبَوْا وامتنعوا عن القيام بحقها وأداء مطلوبها .

إن الحق يقول : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء » فما العلاقة بين هذه الآية وما سبق من الآيات ؟ لقد كان الحديث عن بني إسرائيل الذين حسبوا أنهم يدخلون الجنة بدون أن يبتلوا ، وصارت لهم أهواء يحرفون بها المنهج . أما أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فعليهم أن يستعدوا للابتلاء ، وأن يعرفوا كيف يتحملون الصعاب .

ونحن نعرف في النحو أن هناك أدوات نفي وجزم . ومن أدوات النفي « لم » و« لما » ، فعندما نقول : « لم يحضر زيد » فهذا حديث في الماضي ، ومن الجائز أن يحضر الآن . ولكن إذا قلت : « لما يحضر زيد » فالنفي مستمر حتى الآن ، أي أنه لم يأت حتى ساعة الكلام لكن حضوره ومجيئه متوقع . ولذلك يقول الحق :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الحجرات)

وعندما سمع الأعراب ذلك قالوا : نحمد الله ، فمازال هناك أمل أن نؤمن . لقد أراد الله أن يكون الأعراب صادقين مع أنفسهم ، وقد نزلت هذه الآية كما يقول بعض المفسرين في قوم من بني أسد ، جاءوا إلى المدينة في سنة جدب ، وأعلنوا الشهادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وكانوا يطلبون الصدقة ، ويحاولون أن يمنوا على الرسول صلى الله عليه وسلم بأنهم لم يقاتلوه كما فعل غيرهم ، فجاءت هذه الآية لتوضح أن الإيمان درجة أرقى من إظهار الإسلام ، لكن ذلك لا يعني أنهم منافقون ، ولذلك يوضح القرآن الكريم أن إظهار الإسلام لا يعني الإيمان ، لأن الإيمان عملية قلبية .

لقد أعلنوا الخضوع لله ، وأرادوا أن يقوموا بأعمال المسلمين نفسها لكن ليس هذا هو كل الإيمان . وهم قالوا : « آمنا » فقال الحق لهم : لا لم تؤمنوا وكونوا صادقين مع أنفسكم فالإيمان عملية قلبية ، ولا يقال إنك آمنت ؛ لأنها مسألة في قلبك ، ولكن قل أسلمت ، أي خضعت وفعلت مثلما يفعل المؤمنون ، فهل فعلت ذلك عن إيمان أو غير إيمان ، إن ذلك موضوع آخر .

ف تقول الآية : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم » أي لا يمكن أن تدخلوا الجنة إلا إذا جاءكم من الابتلاء مثل من سبقكم من الأمم ولابد أن تفتنوا وأن تُمحصوا بالبأساء والضراء ، ومن يثبت بعد ذلك فهو يستحق أن يدخل الجنة ، فلا تظنوا أنكم أمة متميزة عن غيركم في أمر الاختبار ، فأنتم لن تدخلوا الجنة بلا ابتلاء ، بل على العكس سيكون لكم الابتلاء على قدر النعماء .

أنتم ستأخذون مكانة عالية في الأمم ولذلك لابد أن يكون ابتلاؤكم على قدر مكانتكم ، فإن كنتم ذوي مكانة عالية وستحملون الرسالة الخاتمة وستأخذون في

الدنيا فلا بد أن يكون ابتلاؤكم على قدر عظمة مسئوليتكم ومهمتكم .

« ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا » إن قول الله : « ولما » يفيد بأن ما حدث للذين من قبلهم من ابتلاء عليهم سيقع على المؤمنين مثله

وعندما نتأمل قوله الحق . « وزلزلوا » فأنت تكتشف خاصية فريدة في اللغة العربية . هذه الخاصية هي تعبير الصوت عن واقعية الحركة ، فكلمة « زلزلوا » أصلها زلزلة ، وهذه الكلمة لها مقطعان هما « زل ، زل » . و « زل » ' أي سقط عن مكانه ، أو وقع من مكانه ، والثانية لها المعنى نفسه أيضاً ، أي وقع من مكانه ، فالكلمة تعطينا معنى الوقوع المتكرر . وقوع أول ، ووقوع ثانٍ ، والوقوع الثاني ليس امتداداً للوقوع الأول ، ولكنه في اتجاه معاكس ، فلو كانت في اتجاه واحد لجاءت رتيبة ، إن الزلة الثانية تأتي عكس الزلة الأولى في الاتجاه ، فكأنها سقوط جهة اليمين مرة ، وجهة الشمال مرة أخرى

ومثل ذلك « الخلخلة » أي حركة في اتجاهين معاكسين « خَلّ » الأولى جهة اليمين ، و« خَلّ » الثانية جهة اليسار ، وبهذا تستمر الخلخلة

وهكذا « الزلزلة » تحمل داخلها تغير الاتجاه الذي يُسمى في الحركة بالقصور الذاتي . والمثال على ذلك هو ما يحدث للإنسان عندما يكون راكباً سيارة ، وبعد ذلك يأتي قائد السيارة فيوقفها بالكابح « الفرامل » بقوة ، عندئذ يندفع الراكب للأمام مرة ، ثم للخلف مرة أخرى ، وربما تكسر زجاج السيارة الأمامي حسب قوة الاندفاع ، ما الذي تسبب في هذا الاندفاع ؟ إن السبب هو أن جسم الراكب كان مهيأ لأن يسير للأمام ، والسائق أوقف السيارة والراكب لا زال مهيأ للسير للأمام ، فهو يرتج ، وقد يصطدم بأجزاء السيارة الداخلية عند وقوفها فجأة . وعملية « الزلزلة » مثل ذلك تماماً ، ففيها يصاب الشيء بالارتجاج للأمام والخلف ، أو لليمين واليسار ، وفي أي جهتين متعاكستين .

و« زلزلوا » يعني أصابتهم الفاجعة الكبرى ، المذهلة ، المتكررة ، وهي لا تتكرر

على نمط واحد ، إنما يحدث تكرارها ، فمرة يأخذها الإيمان ، ثم تأخذها المصائب والأحداث ، وتتكرر المسألة حتى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه : « متى نصر الله » ؟

ويأتي بعده القول : « ألا إن نصر الله قريب » فهل يتساءلون أولاً ، ثم يثوبون إلى رشدهم ويردون على أنفسهم « ألا إن نصر الله قريب » أم أن ذلك إيضاح بأن المسألة تتأرجح بين « متى نصر الله » وبين « ألا إن نصر الله قريب » ؟

لقد بلغ الموقف في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاختبار والابتلاء إلى القمة ، ومع ذلك واصل الرسول صلى الله عليه وسلم والذين معه الاستمساك بالإيمان . لقد مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ، أي أصابتهم رجفة عنيفة هزتهم ، حتى وصل الأمر من أثر هذه الهزة أن « يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » .

إن مجيء الأسلوب بهذا الشكل « متى نصر الله » يعني استبطاء مجيء النصر أولاً ، ثم التبشير من بعد ذلك في قوله الحق « ألا إن نصر الله قريب » ولم يكن ذلك للشك والارتياب فيه . وهذا الاستبطاء ، ثم التبشير كان من ضمن الزلزلة الكبيرة ، فقد اختلطت الأفكار : أناس يقولون : « متى نصر الله » فإذا بصوت آخر من المعركة يرد عليهم قائلاً : « ألا إن نصر الله قريب » .

وسياق الآية يقتضي أن الذين قالوا : « متى نصر الله » هم الصحابة ، وأن الذي قال « ألا إن نصر الله قريب » هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم ينتقل الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك إلى قضية أخرى ، هذه القضية شاعت في هذه الصورة وهي ظاهرة سؤال المؤمنين عن الأشياء ، وهي ظاهرة إيمانية صحية ، وكان في استطاعة المؤمنين ألا يسألوا عن أشياء لم يأت فيها تكليف إيماني خوفاً من أن يكون في الإجابة عنها تقييد للحركة ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على

أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه »[1]

ورغم ذلك كانوا يسألون عن أدق تفاصيل حياتهم ، وكسب هذه الظاهرة تؤكد أنهم عشقوا التكليف من الله ؛ فهم يريدون أن يبنوا كل تصرفاتهم بناء إسلاميا ، ويريدون أن يسألوا عن حكم الإسلام في كل عمل ليعملوا على أساسه . يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) ﴾

والسؤال ورد من عمرو بن الجموح وكان شيخا كبيرا فقال : يا رسول الله ، إن مالي كثير فماذا أتصدق ، وعلى من أنفق ؟ ولم يكن يسأل لنفسه فقط ، بل كان يترجم عن مشاعر غيره أيضا . ولذلك جاءت الإجابة عامة لا تخص السائل وحده ولكنها تشمل كل المؤمنين .

والسؤال عن « ماذا ينفقون » ، فكأن الشيء المُنفَق هو الذي يسألون عنه ، والإنفاق - كما نعرف - يتطلب فاعلاً هو المُنفِق ، والشيء المُنفَق - هو المال - ، ومنفقاً عليه . وهم قد سألوا عن ماذا ينفقون ، فكأن أمر الإنفاق أمر مُسلَّمٌ به ، لكنهم يريدون أن يعرفوا ماذا ينفقون ؟ فيأتي السؤال على هذا الوجه ويجيء الجواب حاملا الإجابة عن ذلك الوجه وعن أمر زائد .

(1) هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم والنسائي وابن ماجه والإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة .

يقول الحق : « يسألونك ماذا ينفقون » هذا هو السؤال ، والجواب «قل ما أنفقتم من خير فللوالدين » . إن الظاهر السطحي يظن أن السؤال هو فقط عن ماذا ينفقون ؟ وأن الجواب جاء عن المنفق عليه . نقول : لا ، لماذ نسيت قوله الحق : إن الإنفاق يجب أن يكون من « خير »، فالمال المُنفق منه لا بد أن يتصف بأنه جاء من مصدر خير .

وبعد ذلك زاد وبيَّن أنه : ما دمتم تعتقدون أن الإنفاق واجب، فعليكم أن تعلموا ما هو الشيء الذي تنفقونه ، ومَنْ الذي يستحق أن يُنفَقَ عليه . « قل ما أنفقتم من خير » . والخير هو الشيء الحسن النافع . والمُنفَق عليه هو دوائر الذي يُنْفِق؛ لأن الله يريد أن يُحَمِّل المؤمن دوائره الخاصة ، حتى تلتحم الدوائر مع بعضها فيكون قد حمَّل المجتمع على كل المجتمع ، لأنه سبحانه حين يُحَمِّلني أسرتي ووالدى والأقربين ، فهذه صيانة للأهل، وكل واحد منا له والدان وأقربون ، ودائرتي أنا تشمل والديَّ وأقاربي ، ثم تشيع في أمر آخر ؛ في اليتامى والمساكين .

ولنعُدّ كل واحد ولنحسب دوائره من الوالدين والأقربين وما يكون حوله من اليتامى والمساكين ، فسنجد الدوائر المتماسكة قد شملت كل المحتاجين ، ويكون المجتمع قد حمل بعضه بعضاً ، ولا يوجد بعد ذلك إلا العاجز عن العمل . وعرفنا أن السائل هو « عمرو بن الجموح » ، وكانت له قصة عجيبة ؛ كان أعرج ، والأعرج معذور من الله في الجهاد ، فليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج .

وأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخرج في غزوة، فجاءه عمرو بن الجموح وقال : يا رسول الله لا تحرمني من الجهاد. فإن أبنائي يحرمونني من الخروج لعرجتي . قال له النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله قد عذرك فيمنْ عذر . قال: ولكني يا رسول الله أحب أن أطأ بعرجتي الجنة .

هذا هو مَنْ سأل عن ماذا ينفقون، فجاءت الإجابة من الحق : « قل ما أنفقتم من خير » أي ما أخرجتم من مال ؛ لأن الإنفاق يعني الإخراج . والخير هنا هو

المال ، والإنفاق يقتضي إخراج المال من ملكية الإنسان ببيع أو هبة أو صدقة ، وأصل كلمة «الإنفاق» مأخوذ من « نفقت السوق » أي راجت ؛ لأن السوق تقوم على البضاعة ، وحين تأتي إلى السوق ولا تجد سلعاً فذلك يعني أن السوق رائجة ، ولكن عندما تجد البضائع مكدسة بالسوق فذلك يعني أن السوق لازالت قائمة

إذن فمعنى « نفقت السوق » أي ذهبت كل البضائع كما تذهب الحياة من الدابة ، فعندما تقول : نفقت الدابة ، أي ماتت . وأوجه الإنفاق بيّنها ـ سبحانه ـ في قوله : « فللوالدين ، والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل » . فهل كل يتيم محتاج ؟ ربما يكون اليتيم قد ورث المال لكن علينا أن نفهم أنّ المسألة ليست هي سد حاجة محتاج فقط ، ولكنها الوقوف بجانب ضعيف في أي زاوية من زوايا الضعف ؛ لأن الطفل عندما يكون يتيماً ولديه مال ، ثم يراك تعطف عليه فهو يشعر أن أباه لم يمت ؛ لأن أبوته باقية في إخوانه المؤمنين ، وبعد ذلك لا يشب على الحسد لأولادٍ آباؤهم موجودون ، لكن حين يرى اليتيم كل أب مشغولا بأبنائه عن أيتام مات أبوهم ، هنا يظهر فيه الحقد ، وتتربى فيه غريزة الاعتراض على القدر ، فيقول « لماذا أكون أنا الذي مات والدي ؟» ، ولكن حين يرى الناس جميعا آباءه ، ويصلونه بالبسمة والود والترحاب والمعونة فسوف يشعر أن من له أب واحد يتركه الناس اعتمادا على وجود أبيه ، لكن حينما يموت أبوه فإن الناس تلتفت إليه بالمودة والمحبة ، ويترتب على ذلك أن تشيع المحبة في المجتمع الإسلامي والألفة والرضا بقدر الله ، ولا يعترض أحد على وفاة أبيه ، فإن كان القدر قد أخذ أباه فقد ترك له آباء متعددين .

ولو علم الذين يرفضون المودة والعطف على اليتيم لأن والده ترك له ما يكفيه ، لو علموا ما يترتب على هذا التعطف من نفع معنوي لتنافسوا على التعاطف معه ؛ فليست المسألة مسألة حاجة مادية ، وإنما هي حاجة معنوية

وأنا أقول دائما : يجب أن نربي في الناشئة أن الله لا يأخذ أحداً من خلقه رقي الأرض حاجة إليه ، وارقبوا هذا الأمر فيمن حولكم تجدوا واحداً رقد توفي وترك أولاداً صغاراً يحزن أهله ومعارفه ؛ لأنه ترك أولاده صغارا ، ويسود الأمر من بعد ذلك ، وتمر فترة من الزمن ويفاجأ الناس بأن أولاد ذلك الرجل قد صاروا سادة

الحى ، وكأن والدهم كان عبئا على رزقهم ، فحينما انتهى الأب فتح الله على الأبناء منابع الرزق ، وذلك حتى لا يُفتن إنسان فى سبب .

وبعد الإنفاق على اليتامى نجد الإنفاق يكون على المساكين وابن السبيل ، وقد عرفنا أن المسكين هو المحتاج وابن السبيل هو المنقطع عن أهله وماله . ويختم الحق هذه الآية بقوله : « وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم » . إن الله يريد أن يربى الطبع البشرى إلى قضية هى : إياك أن تطلب جزاء الخير الذى تفعله مع هؤلاء من أحد من الخلق ، ولكن اطلبه من الله ، وإياك أن تحاول أن يعلم الناس عنك أنك مُنفق على الأقارب واليتامى وابن السبيل ؛ لأن الذين تريدهم أن يعلموا لا يقدرون لك على جزاء ، وعلمهم لن يزيدك شيئا ، وحسبك أن يعلم الله الذى أعطاك ، والذى أعطيت مما استخلفك فيه ابتغاء مرضاته . وحين ينفق الناس لمرضاة الناس ، يلقون من بعد ذلك النكران والجحود ويكون من أعطى قد خسر ما أنفق ، وسيلقى الشر ممن أنفقه عليهم .

ولو أن الإنسان المسلم قصد بالإنفاق وعمل الخير مرضاة الخالق الأعلى عز وجل لاستبقى ما أنفق من حسنات وثواب ليوم القيامة ، ولسخر الله له قلوب من تصدق عليهم بالمحبة والوفاء بالمعروف ، وهذه عدالة من الله تتجلى فى أنه يغص مع المرائى ذلك ؛ لأنهم يعطون وفى بالهم أنهم أعطوا له ، ولو أعطوا الله لما أنكر الأحد جميل العطاء . أنت أعطيته لمرضاته هو ، فكأن الله يقول لك : سأتركك له ليجازيك . ولهذا كان المتصدق فى السر من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله فمنهم :

« . . ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »[1] وهذا هو الأفضل فى صدقة التطوع ، وأما الزكاة الواجبة فإعلانها أفضل ، وكذلك الحال بالنسبة للصلاة فالفريضة تكون إعلانها أفضل ، والنافلة يكون إسرارها أفضل .

لكن لو عملت وفى بالك الله ستجد أثر العطاء فى وفاء من أحد . فإياكم أن

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة

تحاولوا ولو من طرف خفي أن يعلم الناس أنكم تعضون الخمر . وبعد ذلك يرجع الحق إلى قضية سبق أن عالجها في قوله تعالى : « ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه » يرجع الحق إلى القتال فيتكلم عن المبدأ العام في القتال فيقول .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾

إن كراهية القتال هي قضية فطرية يعرفها الذي خلق الإنسان فهو سبحانه لا يعالج الأمر علاجا سوفسطائيا ، بمعنى أن يقول . وماذا في القتال ؟ لا ، إن الخالق يقول . أعلم أن القتال مكروه . وحتى إذا ما أصابك فيه ما تكره فأنت قد علمت أن الذى شرعه يُقدر ذلك . ولو لم يقل الحق إن القتال كره لفهم الناس أن الله يصور لهم الأمر العسير يسيرا .

إن الله عز وجل يقول للذين آمنوا اعلموا أنكم مقبلون على مشقات ، وعلى متاعب ، وعلى أن تتركوا أموالكم ، وعلى أن تتركوا لذتكم ومتعكم ولذلك نجد كبار الساسة الذين برعوا في السياسة ونجحوا في قيادة مجتمعاتهم كانوا لا يجرون لشعوبهم أن تخوض المعارك إلا مضطرين ، فإذا ما اضطروا فهم يوضحون لجندهم أنهم يدرأون بالقتال ما هو أكثر شرا من القتال ، ومعنى ذلك أنهم يعبئون النفس الإنسانية حتى تواجه الموقف بجماع قواها ، وبجميع ملكاتها ، وكل إرادتها

والحق سبحانه وتعالى يقول : « كُتب عليكم القتال وهو كره لكم » إنه سبحانه يقول لنا : أعلم أن القتال كره بكم ولكني أردت أن أشيع فيكم قضية ، هذه القضية هي ألا تحكموا في القضايا الكبيرة في حدود علمكم ؛ لأن علمكم ذاتيا ناقص ، بل

حللوا القضايا من خلال علمي أنا ، لأنني قد أشرع مكروها ، ولكن يأتي منه الخير .
وقد تريدون حبا في شيء ويأتي منه الشر . ولذلك ينبهنا الحق إلى أن كثيرا من الأمور المحبوبة عندما يأتي منها الشر ، فيقول الواحد منا : « كنت أتوقع الخير من هذا الأمر ، لكن الشر هو ما جاءني منه » .

وهناك أمور أخرى نظن أن الشر يأتي منها ، لكنها تأتي بالخير . ولذلك يترك الحق فلتات في المجتمع حتى يتأكد الناس أن الله سبحانه وتعالى لا يُجري أمور الخير على مقتضيات ومقاييس علم العباد ، إنما يُجري الحكم على مقتضى ومقاييس وعلم رب العباد . ولننظر إلى ما رواه الحق مثلا للناس عن ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَـٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ۝٦٠ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ۝٦١ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ۝٦٢ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ۝٦٣ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ۝٦٤ ﴾

(سورة الكهف)

إن موسى عليه السلام يسير مع فتاه إلى مجمع البحرين ، ويقال : إنه ملتقى بحرين في جهة المشرق ، وكان معهما طعام هو حوت مملوح يأكلان منه ، لكن السفر والمشقة أنساهما الحوت وانطلق الحوت بآية من آيات الله إلى البحر ، وعندما وصل موسى إلى مجمع البحرين طلب من فتاه أن يأتي بالطعام بعد طول التعب ، لكن الفتى يقول لموسى : إنه نسي الحوت ، ولم ينسه إياه إلا الشيطان . وإن الحوت اتخذ طريقه إلى البحر ، فقال موسى : إن هذا ما كنا نطلبه علامة على وصولنا إلى غايتنا وهي مجمع البحرين ، أي أمر الحوت ونفسه هو الذي نطلب ، فإن الرجل الذي جئنا من أجله هناك في هذا المكان ، وارتد موسى والغلام على آثارهما مرة أخرى .

فما الذي يحدث ؟ يلتقي موسى عليه السلام بالعبد الصالح الخضر ، وهو ولي من أولياء الله ، علمه الله العلم الرباني الذي يهبه الله لعباده المتقين كثمرة للإخلاص والتقوى . ويطلب موسى عليه السلام من العبد الرباني سيدنا الخضر عليه السلام أن يتعلم منه بعض الرشد . لكن العبد الرباني الذي وهبه الله من العلم ما يفوق استيعاب القدرة البشرية يقول لموسى عليه السلام :

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لقد كان موسى على علم سابق بأن ضياع الحوت هو مسألة في ظاهرها شر لكن في باطنها خير ؛ لأن ذلك هو السبيل والعلامة التي يعرف بها موسى كيف يلتقي بالعبد الصالح . ويستمر السياق تمسه في قصة موسى والعبد الصالح ، قصة ظاهرها الشر وباطنها الخير ، سواء في قصة السفينة التي خرقها أو الغلام الذي قتله ، أو الجدار الذي أقامه .

لقد كان علم العبد الصالح علماً ربانياً ، لذلك أراد موسى أن يتعلم بعضاً من هذا العلم لكن العبد الصالح ينبه موسى عليه السلام أن ما قد يراه هو فوق طاقة الصبر ؛ لأن الذي قد يراه موسى من أعمال إنما قد يرى فيها شراً ظاهراً ، لكن في باطنها كل الخير .

وقبل موسى عليه السلام أن يقف موقف المتعلم بأدب مع العالم الذي وهبه الله العلم الرباني . ويشترط العبد الرباني على موسى ألا يسأل إلا بعد أن يحدثه العبد الرباني عن الأسباب . ويلتقي موسى والعبد الرباني بسفينة فيصعدان عليها ، ويخرق العبد الرباني السفينة ، فيقول موسى :

﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فيرد العبد الصالح .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ويتذكر موسى أنه وعد العبد الصالح بالصبر ، لكن ما الذى يفعله موسى وقد وجد العبد الصالح يخرق سفينة تحملهم فى البحر ؟ إنه أمر شاق على النفس . لذلك يقول موسى .

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إن موسى يعود إلى وعده للعبد الصالح ، ويطلب منه فقط ألا يكلفه بأمور تفوق قدرته . وينطلق العبد الصالح ومعه موسى عليه السلام ، فيجد العبد الصالح غلاما فيقتله ، فيقول موسى

﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الكهف)

ويُذكّر العبد الصالح موسى أنه لن يستطيع الصبر معه ، ويعتذر موسى عما لا يعلم . ويمر العبد الصالح ومعه موسى بقرية فطلبا من أهل القرية الضيافة ، لكن أهل القرية يرفضون الضيافة ، ويجد العبد الصالح جدارا مائلا يكاد يسقط فيبدأ فى بنائه ، فيقول موسى

﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(من الآية ٧٧ سورة الكهف)

ويكون الفراق بين العبد الصالح وموسى . ويخبر العبد الصالح موسى بما لم يعلمه ولم يصبر عليه . إن خرق السفينة كان لإنقاذ أصحاب من اغتصابها منهم ؛ لأن هناك ملكا كان يأخذ كل سفينة صالحة غصبا ، فأراد أن يعيبها ليتركها الملك لهؤلاء المساكين .

وقتل الغلام كان رحمة بأبويه المؤمنين ، كان هذا الابن سيجلب لهما الطغيان والكفر ، وأراد الله أن يبدله خيراً منه

وأن الجدار الذى أقامه كان فوق كنز ، وكان ليتيمين من هذه القرية وكان والد الغلامين صالحاً ، لذلك كان لابد من إعادة بناء الجدار حتى يبلغ الغلامان أشدهما ويستخرجا الكنز ويقول العبد الصالح عن كل هذه الأعمال .

واقرأ قول الله سبحانه وتعالى

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إن العبد الصالح لا ينسب هذا العمل الربانى نفسه ، ولكن ينسبه إلى الخالق الذى علمه . إذن فالحق يطلق بعضاً من قضايا الكون حتى لا يظن الإنسان أن الخير دائماً فيما يحب ، وأن الشر فيما يكره ، ولذلك يقول سبحانه : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم » فإن كان القتال كرهاً لكم ، فلعل فيه خيراً لكم . وبمناسبة ذكر الكُره نوضح أن هناك « كَره » و« كُره » . إن « الكَرْه » بفتح الكاف هو الشىء المكروه الذى تُحمل وتُكْرَهُ على فعله ، أما « الكُره » بضم الكاف فهو الشىء الشاق

وقد يكون الشىء مكروهاً وهو غير شاق ، وقد يكون شاقاً ولكن غير مكروه . والحق يقول « كتب عليكم القتال وهو كُره لكم » . ولنلاحظ أن الحق دائماً حينما يشرع فهو يقول : « كُتِبَ » ولا يقول « كَتبت » ذلك حتى نفهم أن الله لن يشرع إلا لمَنْ آمن به ؛ فهو سبحانه لم يكتب على الكافر أى تكاليف ، وهل يكون من المنطقى أن يكلف الله مَنْ آمن به ويترك الكافر بلا تكليف ؟

نعم ، إنه أمر منطقى ؛ لأن التكليف خير ، وقد ينظر بعض الناس إلى التكليف من زاوية أنه مُقيِّد ، نقول لهم : لو كان التكليف الإيمانى يقيد لكلف الله به الكافر ، ولكن الله لا يكلف إلا مَنْ يحبه ، إنه سبحانه لا يأمر إلا بالخير ، ثم إن الله لا يكلف إلا مَنْ آمن به ؛ لأن العبد المؤمن مع ربه فى عقد الإيمان

إذن فالله حين يقول : « كُتب » فمعنى ذلك أنه سبحانه يقصد أنه لم يقتحم على أحد حركة اختياره الموهوبة له ، والله سبحانه وتعالى قد ترك للناس حرية الاختيار في أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا . ومن آمن عن اختيار وطواعية فقد دخل مع الله في عقد إيمان ، وبمقتضى هذا العقد كتب الله عليه التكاليف . ومن هذه التكاليف القتال ، فقال سبحانه : « كُتب عليكم القتال » .

وقوله : « عليكم » يعني أن القتال ساعة يكتب لا يبدو من ظاهر أمره إلا المشقة ، فجاءت « عليكم » لتناسب الأمر . وبعد انتهاء القتال إذا انتصرنا فنحن نأخذ الغنائم ، وإذا انهزمنا واستشهدنا فلنا الجنة .

ويعبر الحق عن ظاهر الأمر في القتال فيقول عنه : « وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » . إنها قضية عامة كما قلنا ، لذلك فعلينا أن نرد الأمر إلى من يعلمه . « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » فكل أمر علينا أن نرده إلى حكمة الله الذي أجراه ؛ لأنه هو الذي يعلم .

وهناك قصة من التراث الإنساني تحكي قضية رجل من الصين ، وكان الرجل يملك مكانا متسعا وفيه خيل كثيرة ، وكان من ضمن الخيل حصان يحبه . وحدث أن هام ذلك الحصان في المراعي ولم يعد ، فحزن عليه ، فجاء الناس ليعزوه في فقد الحصان ، فابتسم وقال لهم : ومن أدراكم أن ذلك شر لتعزوني فيه ؟

وبعد مدة فوجىء الرجل بالجواد ومعه قطيع من الجياد يجره خلفه ، فلما رأى الناس ذلك جاءوا ليهنئوه ، فقال لهم : وما أدراكم أن ذلك خير ، فسكت الناس عن التهنئة . وبعد ذلك جاء ابنه ليركب الجواد فانطلق به ، وسقط الولد من فوق الحصان فانكسرت ساقه ، فجاء الناس مرة أخرى ليواسوا الرجل فقال لهم : ومن أدراكم أن ذلك شر ؟

وبعد ذلك قامت حرب فجمعت الحكومة كل شباب البلدة ليقاتلوا العدو ، وتركوا هذا الابن ؛ لأن ساقه مكسورة ، فجاءوا يهنئونه ، فقال لهم : ومن أدراكم

أن ذلك خير ؟ فعلينا ألا نأخذ كل قضية بظاهرها ، إن كانت خيراً أو شراً ، ولكن علينا أن نأخذ كل قضية من قضايا الحياة في ضوء قول الحق .

﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الحديد)

والحق هو القائل « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ولله المثل الأعلى ، سبق لنا أن ضربنا المثل من قبل بالرجل المثري الذي يحب ولده الوحيد ويرجو بقاءه في الدنيا ، لذلك عندما يمرض الابن فالأب يعطيه الدواء المر ، وساعة يعطيه الجرعة فالابن يكره الدواء ولكنه خير له . بعد ذلك يتحدث الحق سبحانه وتعالى عن سؤال آخر يقول فيه

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾

والسؤال هنا ليس عن الشهر الحرام ؛ لأنه كان معروفا عندهم من أيام الجاهلية ، ولكن السؤال عن القتال في الشهر الحرام ، فما جدوى السؤال إذن ؟ إنه سؤال استفزازي ، والمسألة لها قصة . ونعرف أن للسنة اثنى عشر شهرا ، وقد جعل الله فيها أربعة أشهر حرم : شهر واحد فرد وهو رجب ، وثلاثة سرد ، وهي ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم . ومعنى أشهر حرم أي أن القتال محرم فيها .

لقد علم الله كبرياء الخلق على الخلق ، لذلك جعل الله لخلقه ساترا يحمي كبرياءهم ، ومن هذه السنن التي سنها الله هي حرمة القتال في الأشهر الحرم ، والأماكن الحرم ، فيجوز أن الحرب تضر المحارب ، لكن كبرياءه أمام عدوه يمنعه من وقف القتال ، فيستمر في الحرب مهما كان الثمن ، فيأتي الحق سبحانه وتعالى ويقول للمتحاربين : ارفعوا أيديكم في هذه الشهور لأني حرمت فيها القتال . وربما كان المحاربون أنفسهم يتمنون من أعماقهم أن يتدخل أحد ليوقف الحرب ، ولكن كبرياءهم يمنعهم من التراجع ، وعندما يتدخل حكم السماء سيجد كل من الطرفين حجة ليتراجع مع حفاظه على ماء الوجه . وكذلك جعل الله أماكن محرمة ، يحرم فيها القتال حتى يقول الناس إن الله هو الذي حرمها ، وتكون لهم ستاراً يحمي كبرياءهم .

إذن فالحق سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان أراد أن يصون الإنسان حتى يحقن الدماء ، فإذا ظل الناس ثلاثة أشهر بلا حرب ، ثم شهراً آخر ، فنعموا في هذه الفترة بالسلام والراحة والهدوء ، فربما يألفون السلام ، ولا يفكرون في الحرب مرة أخرى ، لكن لو استمرت الحرب فلا توقف لظل سُعار الحرب في نفوسهم ، وهذه هي ميزة الأشهر الحرم .

والأشهر الحرم حُرُمٌ في الزمان والمكان ؛ لأن الزمان والمكان هما ظرف الأحداث ، فكل حدث يحتاج زمانا ومكانا . وعندما يُحرم الزمان ويُحرم المكان فكل من طرفي القتال يأخذ فرصة للهدوء .

إن الحق سبحانه وتعالى يعرض هنا قضية أراد بها خصوم الإسلام من كفار قريش

واليهود أن يثيروها ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل بعض السرايا للاستطلاع ، والسرية هي عدد محدود من المقاتلين ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرسل سرية على رأسها عبدالله بن جحش الأسدي ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرسل معه ثمانية أفراد ، وجعله أميرا عليهم ، وأعطاه كتابا وأمره ألا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين ، وذلك حتى لا يعلم أحد أين تذهب السرية ، وفي ذلك احتياط في إخفاء الخبر .

فلما سارت السرية ليلتين، فتح عبدالله الكتاب وقرأه فوجد به : اذهب إلى « بطن نخلة » وهو مكان بين مكة والطائف واستطلع عير قريش ، ولا تُكره أحدا ممن معك على أن يسير معها ، بمعنى أن يكون لكل فرد في السرية حرية الحركة ، فمن يفضل عدم السير في السرية فله هذا الحق .

وبينما هم في الطريق ضل بعير لسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ، وذهبا يبحثان عن البعير ، وبقي ستة مقاتلين مع عبدالله ، وذهب الستة إلى « بطن نخلة » فوجدوا « عمرو بن الحضرمي » ومعه ثلاثة على عير لقريش ، فدخلوا معهم في معركة ، وكان هذا اليوم في ظنهم هو آخر جمادى الآخرة ، لكن تبين لهم فيما بعد أنه أول رجب أي أنه أحد أيام شهر حرام

وقتل المسلمون ابن الحضرمي ، قتله واقد بن عبدالله من أصحاب عبدالله ابن جحش ، وأسروا اثنين ممن معه ، وفر واحد ، فلما حدث هذا ، وتبين لهم أنهم مضوا ذلك في أول رجب ، عند ذلك اعتبروا أن قتالهم وغنائمهم مخالفة لحرمة شهر رجب

وثارت المسألة أخذا وردًا بين المسلمين قبل أن تتحدث فيها قريش حيث قالوا : إن محمداً يدعي أنه يحترم المقدسات ويحترم الأشهر الحرم ، ومع ذلك قاتل في الأشهر الحرم ، وسفك دما ، وأخذ أموالا ، وأسر الرجال . فامتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغنائم والأسرى حتى يفصل الله في القضية فنزل حكم السماء في القضية بهذا القول الحكيم :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) ﴾

(سورة البقرة)

نحن مُسلّمون أن القتال في الشهر الحرام أمر كبير ولكن انظروا يا كفار قريش إلى ما صنعتم مع عبادنا وقارنوا بين كِبْر هذا وكِبْر ذاك. أنتم تقولون : إن القتال في الشهر الحرام مسألة كبيرة. ولكن صدكم عن سبيل الله وكفركم به، ومنعكم المسلمين من المسجد الحرام، وإخراج أهل مكة منها أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام، فلا تفعلوا ما هو أكبر من القتال في الشهر الحرام، ثم تأخذكم الغيرة على الحرمات.

فكأن الحق أراد أن يضع قضية واضحة هي : لا تأخذوا من جزئيات الدين أشياء وتتحصنوا فيها خلف كلمة حق وأنتم تريدون الباطل فالواقع يعرض الأشياء، ونحن نقول، نعم إن القتال في الشهر الحرام كبير. ولكن يا كفار قريش اعلموا أن فتنة المؤمنين في دينهم وصدهم عن طريق الله، وكفركم به - سبحانه - وإهداركم حرمة البيت الحرام بما تصنعون فيه من عبادة غير الله، وإخراجكم أهله منه، إن هذه الأمور الآثمة هي عند الله أكبر جرماً وأشد إثماً من القتال في الأشهر الحرم لاسترداد المسلمين بعض حقهم لديكم

ولهذا يرد الحق سهام المشركين في نحورهم «ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا» أي إياكم أن تعتقدوا أنهم سيحترمون الشهر الحرام ولا المكان الحرام، بل «ولا يزالون يقاتلونكم» أي وسيصرون، ويداومون على قتالكم

«حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا».

وتأمل قوله: «إن استطاعوا» إن معناها تجيء لهم بأنهم لن يستطيعوا أبدا لـ «إنْ» تأتي دائما في الأمر المشكوك فيه. ويتبع الحق «ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» سيظلون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا. ثم يختم الحق الآية بقضية يقول فيها: «ومن يرتدد منكم عن دينه» هذه الآية يقابلها آية أخرى يقول الحق فيها:

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

(من الآية ٥ سورة المائدة)

وإذا قارنا بين الآيتين نجد أن الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قد ورد فيها قوله: «فيمت وهو كافر» وفي سورة المائدة لم يرد هذا وإنما ورد قوله: «ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله» وقد اختلف العلماء في المسألة اختلافات جليلة. ولكنهم اتفقوا أولاً على أن أي إنسان يرتد عن الإسلام ثم يموت مرتداً فقد حبطت أعماله ولكن اختلافهم تركز فيما لو رجع وآمن مرة ثانية، أي لم يمت وهو كافر، بل رجع وآمن بعد ردته، فهل حبط عمله أم لم يحبط؟

وللإمام الشافعي رأي يقول: إن الذي يرتد عن الدين تحبط أعماله إن مات على الكفر. أما إن عاد وأسلم مرة أخرى فإن أعماله التي كانت قبل الارتداد تكون محسوبة له. والإمام أبو حنيفة له رأي مختلف فهو يقول: لا، إن آية سورة المائدة ليس فيها «فيمت وهو كافر» وعليه فإننا نحملها على آية سورة البقرة التي ذكر فيها ذلك من باب حمل المطلق على المقيد، وعلى ذلك فالذي يكفر بعد إيمانه عمله محبط سواء رجع إلى الإيمان بعد ذلك أو لم يرجع، فلا يحتسب له عمل.

أين موضوع الخلاف إذن؟. هب أن إنساناً آمن وأدى فريضة الحج ثم لا قدر الله كفر وارتد، ثم رجع فآمن أتظل له الحجة التي قام بها قبل الكفر أم تحبط ويطلب منه حج جديد؟ هذه هي نقطة الخلاف. فالشافعي يرى أنه لا يحبط عمله مادام قد

رجع إلى الإيمان لأن الله قال . « ويمت وهو كافر » فمعنى ذلك أنه إن لم يمت على الكفر فإن عمله لا يحبط . ولكن لا يأخذ ثوابا على ذلك الحج الذي سبق له أن أداه . لقد التفت الإمام الشافعي رضي الله عنه إلى شيء قد يغفل عنه كثير من الناس ، وهو أن الحج ركن من أركان الإسلام ، فالذي لا يحج وهو قادر على الحج فالله يعاقبه على تقصيره ، والذي حج لا يعاقب ويأخذ ثواب فعله .

فكأن الأعمال التي طلبها الحق سبحانه وتعالى إن لم تفعلها وكانت في استطاعتك عوقبت ، وإن فعلتها يمر عملك بمرحلتين ، المرحلة الأولى هي ألا تُعاقب ، والمرحلة الثانية هي أن تُثاب على الفعل . فالشافعي قال : إن الشخص إذا فعل عملاً يُثاب عليه الإنسان ، ثم كفر ، ثم عاد إلى الإسلام فهو لا يُعاقب ، ولكنه لا يُثاب . أما الإمام أبو حنيفة فقد قال : إنه لا عبرة بعمله الذي سبق الردة مصداقا لقوله تعالى « حبطت أعمالهم » أي أُبطلت وزالت ، وكأنها لم تكن .

إنّ القرآن استخدم هنا كلمة « حبط » ، وهي تُستخدم تعبيراً عن الأمر المحسوس ، فيقال : « حبطت الماشية » أي أصابها مرض اسمه الحَبَط ، لأنها تأكل لونا من الطعام تنتفخ به ، وعندما تنتفخ فقد تموت . والنبي عليه الصلاة والسلام يقول : « إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم »(١)

إنه صلى الله عليه وسلم يحذرنا من أن الخير قد يندس فيه شر ، مثلما يحدث في الربيع الذي ينبت فيه من النبات الذي يعجب الماشية فتأكله فيأتيها مرض « الحبط » ، فتنتفخ ثم تموت ، أو « يلم » أي توشك أن تموت ، وكذلك الأعمال التي فعلها الكفار تصبح ظاهرة مثل انتفاخ البطن ، وكل هذه العمليات الباطلة ستحبط كي تحبط الماشية التي أكلت هذا اللون من الخضر ، ثم انتفخت فيظن المشاهد لها أنها سمنة ، وبعد ذلك يفاجأ بأنه مرض . لقد أعطانا الله من هذا القول المعنى المحسوس لتتشابه الصورتين ؛ فالماشية عندما تحبط تنتفخ وكأنها غنت وسمنت ، لكنه نمو غير طبيعي إنه ليس شحماً أو لحماً ، لكنه ورم ، كذلك عمل الذين كفروا ؛ عمل حابط ، وإن بدا أنهم قد قاموا بأعمال ضخمة في ظاهرها أنها طيبة وحسنة .

(١) رواه البخاري والترمذي وابن ماجه

ويقول بعض الناس : وهل يُعقل أن الكفار الذين صنعوا إنجازات قد استفادت منها البشرية ، هل من المعقول أن تصير أعمالهم إلى هذا المصير ؟ لقد اكتشفوا علاج لأمراض مستعصية وخففوا آلام الناس ، وصنعوا الآلات المريحة والنافعة . ونقول لأصحاب مثل هذا الرأى : مهلاً ، فهناك قضية يجب أن نتفق عليها وهى أن الذى يعمل عملاً ؛ فهو يطلب الأجر ممن عمل له ، فهل كان هؤلاء يعملون وفى بالهم الله أم فى بالهم الإنسانية والمجد والشهرة ؟. لقد أعطتهم الإنسانية المجد والشهرة ، وماداموا قد نالوا هذا الأجر فى الدنيا فليس لهم أن ينتظروا أجراً فى الآخرة . لذلك يقول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

إن الكافر يظن أن أعماله صالحة نافعة لكنها فى الآخرة كالسراب الذى يراه الإنسان فى الصحراء فيظنه ماء ، ويجد نفسه فى الآخرة أمام لحظة الحساب فيوفيه الله حسابه بالعقاب ، وليس لهم من جزاء إلا النار ، وينطبق عليهم ما ينطبق على كل الكافرين بالله ، وهو « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

هذا وإن الحق سبحانه وتعالى يوضح حقيقة الأمر للمؤمنين به وبرسوله صلى الله عليه وسلم حتى يعطيهم مناعة إيمانية ضد آمال الكافرين فى الإضرار بالمؤمنين ، فيعلمهم أنهم لن يسخروا منهم حتى يردوكم عن دينكم ؛ لأن منهج الله دائماً لا يخيف إلا المنطبين ؛ فالإنسان السوى الذى يريد أن يعايش العالم فى سلام ويأخذ من الخير على قدر حركته فى الوجود لا ترهقه سيادة مبادىء الإسلام ، إنما ترهق مبادىء الإسلام هؤلاء الذين يريدون أن يسرقوا عرق وكدّ غيرهم وهم يبذلون كل الجهد ويستخدمون كافة الأساليب التى تصرف المسلمين عن دينهم ، ولكن هل يمكّنهم الله من ذلك ؟ لا ؛ فلا يزال هناك أمل فى الخير إن تمسكت أمة الإسلام بالمنهج الحق .

إنه سبحانه يعطى المناعة للمؤمنين ، والمناعة ـ كما نعرف ـ هى أن تتقل للسليم

ميكروب المرض بعد إضعافه ، وبذلك تأخذ أجهزة جسمه فرصة لأن تنتصر على هذا الميكروب ؛ لذلك قال الحق : « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم » . إن الخلاف الجوهري بين المؤمن والكافر ، هو أن المؤمن إنما يعمل العمل الصالح وفي نيته أن المكافئ هو الله ، وهو يتجه بنية خالصة في كل عمل ويأخذ بأسباب الله في العلم لينتفع به غيره من الناس ؛ فتكون الفائدة عميمة وعظيمة ، وعلى المؤمن أن يكون سباقاً إلى الاكتشاف والاختراع ونهضة العالم المسلم ، وأن يكون المؤمن العالم منارة تشع بضوء الإيمان أمام الناس ، لا أن يترك غيره من الكافرين يصلون إلى المكتشفات العلمية وهو متواكل كسلان .

إن على المؤمن أن يأخذ بأسباب الله في الحياة ؛ لأن الإسلام هو دين ودنيا ، وهو دين العلم والتقدم ، ويضمن لمن يعمل بمنهجه سعادة الدنيا وسعادة الآخرة . وإذا كان المؤمن يستمتع بإنتاج يصنعه الكافر فلنعلم أن الكافر إنما أخذ أجره مُسخراً من عمل له ، أما المؤمن فحين يتفوق في الصنعة والزراعة والعلم والاكتشاف فهو يأخذ الأجر في الدنيا وفي الآخرة ؛ لأن الذي يعطي هنا هو الله .

أما عمل الكافر فهو عمل من مسخر كالمطايا وكالجماد والنبات والحيوان المسخرة لخدمة الإنسان . وإذا كان الله قد ميز المؤمن على الكافر بالأجر في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة ، ألا يليق بالمؤمن أن يسبق الكافر في تنمية المجتمع الإسلامي ، وأن يكون بعمله منارة هداية لمن حوله ؟! ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾

إن الآية قد حددت ثلاثة أصناف . الصنف الأول هم الذين آمنوا ، والصنف

الثاني هم الذين هاجروا ، والصنف الثالث هم الذين جاهدوا . إن الذين آمنوا إيماناً خالصاً لوجه الله ، وهاجروا لنصرة الدين ، وجاهدوا من أجل أن تعلو كلمة الإسلام هؤلاء قد فعلوا كل ذلك وهم يرجون رحمة الله . ولقائل أن يقول . أليست الرحمة مسألة متيقنة عندهم ؟

ونقول : ليس للعبد عند الله أمر متيقن ؛ لأنك قد لا تفطن إلى بعض ذنوبك التي لم تُحسن التوبة منها ، ولا التوبة عنها . وعليك أن تضع ذلك في بالك دائماً ، وأن تيقن من استحضر نية الإخلاص لله في كل عمل تقوم به ؛ فقد تحدثك نفسك بشيء قد يفسد عليك عملك ، وكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد الخلق وسيد الموصولين بربهم يقول : « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وعمل لا يُرفع ودعاء لا يسمع »[1]

إن الرسول الكريم وهو سيد المحتسبين في كل أعماله يعلمنا أن النفس قد تخالط صاحبها بشيء يفسد الطاعة وعلى المسلم أن يظل في محل الرجاء والمؤمن الذي يثق في ربه لا يقول . إن على الله واجباً أن يعمل لي كذا ؛ لأن أصل عباداتك لله سبق أن دُفع ثمنها ، وما نالته من بعد ذلك هو فضل من الله عليك ، مدفوع ثمنها لك إيجاداً من عدم وإمداداً من عُدْم ، ومدفوع ثمنها بأن متعك الله بكل هذه الأشياء ، فلو قارنت بين ما طلبه الله منك - على فرض أنك لا تستفيد منه - فقد أخذت مما قدم لك أولاً ، وكل خير يأتيك من بعد ذلك هو من فضل الله عليك ، والفضل يُرجى ولا يُتيقن

وعظمة الحق سبحانه وتعالى في أنك تدعوه خوفاً وطمعاً . ونقول هذا المثل - ولله المثل الأعلى - إن من عظمتك أمام ولدك أنك تجد لك ابناً يخاف منه ، ويرغب أن يحقق لك بعضاً من أحلامك ، ولو اختلت واحدة من الاثنتين لاختلت الأبوة والنبوة .

كذلك عظمة الرب يُرغب ويُرهب . إن رغبت فيه ولم ترهبه فأنت ناقص

(١) رواه أحمد والحاكم وابن حبان عن أنس

الإيمان ، وإن رهبت ولم ترغب فإيمانك ناقص أيضاً ، لذلك لابد من تلازم الأثنتين : الرهبة والرغبة . ولو تصوَّر الإنسان ما فرضه الله عليه من تكاليف إيمانية لوجدْ أنه يعبد من هذه التكاليف أضعافاً مضاعفة . فكل ما يجازى به الله عباده إنما هو الفضل ، وهو الزيادة . وكل رزق للإنسان إنما هو محض الفضل . ومحض الفضل يُرجى ولا يُتيقن .

وها هو ذا الحق يقول :

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ ﴾

(سورة الأعراف)

إن الدنيا كلها مسخرة تحت قهر الرحمن ومشيئته وسحره ، وله تمام التصرف في كل الكائنات وهو الخالق البديع ، لذلك سيدعو الإنسان الله بخشوع وخضوع في السر والعلانية ، والحق لايحب من يعتدي بالقول أو الرياء أو الإيذاء .

إن الإيمان يجب أن يكون خالصاً لله ، فلا يفسد الإنسان الأرض بالشرك أو المعصية ؛ لأن الحق قد وضع المنهج الحق لصلاح الدنيا وهو القرآن ، ورسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورحمة الله قريبة من المطيعين للحق جل وعلا .

إن عظمة الرب في أنه يُرغب ويُرهب ، إن رغبت فيه ولم ترهبه فعملك غير مقبول ، وإن رهبته ولم ترغب فعملك غير مقبول . إن الرغب والرهب مطلوبان معاً ، لذلك فالمؤمن المجاهد في سبيل الله يرجو رحمة الله .

والحق يقول : « أولئك يرجون رحمة الله » ، ما هي الرحمة ؟ الرحمة ألا تنزل الآلام من أول الأمر . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

(من الآية ٨٢ سورة الإسراء)

الشفاء هو أن تكون مصابا بداء ويبرئك الله منه، لكن الرحمة، هي ألا يأتي الداء أصلا «والله غفور رحيم».

والله سبحانه وتعالى يعلم من عباده أن أحداً منهم قد لا يبرأ من أن يكون له ذنب، فلو حاسبنا بالمعايير المضبوطة تماما فسوف يتعب الإنسان منا، ولذلك أحب أن أقول دائما مع إخواني هذا الدعاء: «اللهم بالفضل لا بالعدل وبالإحسان لا بالميزان وبالجبر لا بالحساب» أي عاملنا بالفضل لا بالعدل، وبإحسانك لا بالميزان، لأن الميزان يتعب.

ولقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن دخول الجنة لا يكون بالأعمال وحدها، ولكن بفضل الله ورحمته ومغفرته. إن الرسول الكريم يقول:

«لن يدخل أحدكم الجنة بعمله» فقالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: «ولا أنا حتى يتغمدني الله برحمته»(١).

إذن فالمؤمن يرجو الله ولا يشترط على الله، إن المؤمن يتجه بعمله خالصا لله يرجو التقبل والمغفرة والرحمة، وكل ذلك من فضل الله. ويأتي الحق لسؤال آخر:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والبيهقي.

والخمر ـ كما نعرف ـ مأخوذة من الستر ، ويقال « دخل فلان فى خمرة » أى فى أيكة من الأشجار ملتفة فاختبأ فيها . و« الخمار » هو القناع الذى ترتديه المسلمة لستر رأسها ، وهو مأخوذ أيضا من نفس المادة . و« خامره الأمر » أى خالطه . وكل هذه المعانى مأخوذة من عملية الستر . و« الميسر » مأخوذ من اليسر ؛ لأنه يظهر للناس بمكسب يسيرة بلا تعب .

الخمر والميسر من الأمور التى كانت معروفة فى الجاهلية . والإسلام حين جاء ليواجه نظاما جاهلية واجه العقيدة بلا هوادة ، ولم يجابهها ويواجهها على مراحل بل أزالها من أول الأمر ، ورفع راية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، ثم جاء الإسلام فى الأمور التى تُعتبر من العادات عندا يجوبها ؛ لأن الناس كانت تألفها ، لذلك أخذها بشىء من الرفق والهوادة . وكان هذا من حكمة الشرع ، فلم يجعل الأحكام فى أول الأمر عملية قسرية فقد يترتب عليها الخلل فى المجتمع وفى الوجود كله ، وإنما أخذ الأمور بالهوادة .

وإذا كانت الخمرة مأخوذة من الستر ، فماذا تستر ؟ إنها تستر العقل بدليل أن من يتعاطاها يغيب عن وعيه . ولا يريد الله سبحانه وتعالى للإنسان الذى كرمه الله بالعقل أن يأتى للشىء الذى كرمه به ويُمَيِّز به أمور الخلافة فى الأرض ويستره ويغيِّبه ، لأن من يفعل ذلك فكأنه رد على الله النعمة التى أكرمه بها ، وهذا هو الحمق .

ثم إن كل الذين يتعاطون الخمر يبررون فعلهم بأنهم يريدون أن ينسوا هموم الدنيا ، ونسأل هؤلاء : وهل نسيان الهموم يمنع مصادرها ؟ لا ، ولذلك فالإسلام يطلب منك أن تعيش همومك لتواجهها بجماع عقلك ، فإذا كانت هناك هموم ومشكلات فالإسلام لا يريد منك أن تنساها ، لا ، بل لابد أن توظف عقلك فى مواجهتها ، ومادام المطلوب منك أن تواجه المشكلات بعقلك فلا تأتى لمركز إدارة الأمور الحياتية وهو العقل،والذى يعينك على مواجهة المشكلات وتقهره بتغييبه عن العمل

وهل النسيان يمنع المصائب ؟ إن الذى يمنع المصائب هو أن تحاول بجماع فكرك أن

تجد السبيل للخروج منها ، فإذا كان الأمر ليس في استطاعتك فمن الحمق أن تفكر به ؛ لأن الله يريد منك أن تريح عقلك في مثل هذه الأمور ، وإن كان الأمر له حل وفي استطاعتك حله ، فأنت تحتاج للعقل بكامل قوته .

والحق سبحانه وتعالى يرشدنا في هذه القضية بحكمة الحكيم ، ويعطينا عطاء بحكم نحن في الأمر قبل أن يطلب منا إنه ـ سبحانه ـ كتب علينا ويقول

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾

(من الآية ٦٧ سورة النحل)

فعندما ذكر الله «سَكَراً» مر عليها بلا تعليق . وعندما قال : «ورزقاً» وصفه بأنه «حسناً» . فكان يجب أن ننتبه إلى أن الله يمهد لموقف الإسلام من الخمر ؛ فهو لم يصف «السكر» بأي وصف ، وجعل للرزق وصفا هو الحسن ؛ فالناس عندما يستخرجون من هذه الثمرات سكراً ، فهم قد أخرجوها عن الرزق الحسن ، لأن هناك فرقاً بين أن تأخذ من العنب غذاء وبين أن تخمره فتفسده وتجعله ساتراً للعقل .

وبعد ذلك فهناك فرق بين تشريع ونصح . فعندما تنصح شخصا فأنت تقول له : سأدلك على طريق الخير وأنت حر في أن تسير فيه أو لا تسير . وعندما تشرع وتضع الحكم ، فأنت تأمر هذا الشخص أن ذلك بأن يفعل الأمر ولا شيء سواه

والحق سبحانه وتعالى عندما قال «يسألونك عن الخمر والميسر» ، ذكر لنا المفاسد وترك لنا الحكم عليها ، قال سبحانه مُبَلِّغاً رسوله «قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس» ولو لم يقل «ومنافع للناس» لاستغرب الناس وقالوا : نحن نأخذ من الخمر منافع ، ونكتسب منها ، وننسى بها همومنا ، كانت هذه هي المنافع بالنسبة لهم ، لكن الحق يوضح أن إثمهما أكبر من نفعهما ، أي أن العائد من وراء تعاطيهما أقل من الضرر الحادث منهما ، وهذا تقييم عادل ، فلم تكن المسألة قد دخلت في نطاق التحريم ، لأنها مازالت في منطقة النصح والإرشاد .

وقوله تعالى : «وإثمهما أكبر من نفعهما» يحمل فيها نوعا من المذنب ، لقد كان

التدرج في الحكم أمراً مطلوباً لأنه سبحانه يعالج أمراً يألف العادة ، فيمهد سبحانه ليخرجه عن العادة . والعادة شيء يقود إلى الاعتياد ؛ بحيث إذا مر وقت ولم يأت ما تعودت عليه تفسيتك رهمك يحدث لك اضطراب . وما دامت المسألة تقود إلى الاعتياد ، فالأفضل أن تسد الباب من أوله وتمنع الاعتياد .

لقد كانت بداية الحكم في أمر الخمر أن أحداً من المسلمين شرب الخمر قبل أن تُحرم نهائياً ، وجاء ليصلي ، فقال : « قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون » وبعدها نزل تأديب الحق بقوله

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ..﴾ (٤٣) (سورة النساء)

وفي ذلك تدريب لمَنْ اعتاد على الخمر ألا يقربها ؛ فالإنسان الذي يصلي صدر عليه الحكم ألا يقرب الصلاة وهو سكران ، فمتى يمتنع إذن ؟ إنه يصحو من نومه فلا يقرب الخمر حتى يصلي الصبح ، ويقترب الظهر فيستعد للصلاة ، ثم العصر بعد ذلك ، ويليه المغرب فالعشاء ، أي لن يصبح عنده وقت ليشرب في الأوقات التي ينتظر فيها الصلاة ، إذن فلا تصبح عنده فرصة إلا في آخر الليل ، فإذ ما جاء الليل يشرب له كأساً ثم يغط في نومه . ويكون الوقت الذي امتنع فيه عن الخمر أطول من الوقت الذي يتعاطى فيه الخمر .

ولما بدأ تعودهم على الخمر يتزعزع ، حدثت بعض الخلافات والمشكلات التي دفعتهم لأن يطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوضح لهم حكماً فاصلاً في الخمر فنزل قوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ

﴿ الصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

فقالوا : انتهينا يارب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى أراد بتحريم الخمر أن يحفظ على الإنسان عقله ، لأن العقل هو مناط التكليف للإنسان ، وهو مناط الاختيار بين البدائل ، فأراد الحق أن يصون للإنسان تلك النعمة .

إن هدف الدين في المقام الأول سلامة الضرورات الخمس التي لا يستغنى عنها الإنسان : سلامة النفس ، وسلامة العرض ، وسلامة المال ، وسلامة العقل ، وسلامة الدين . وكل التشريعات تدور حول سلامة هذه الضرورات الخمس ، ولو نظرت إلى هذه الضرورات تجد أن الحفاظ عليها يبدأ من سلامة العقل ، فسلامة العقل تجعله يفكر في دينه . وسلامة العقل تجعله يفكر في حركة الحياة . وسلامة العقل تجعله يحتاط لصيانة العرض .

إذن فالعقل هو أساس العملية التكليفية التي تدور حولها هذه المسألة ، والحق سبحانه وتعالى يريد ألا يخمر الإنسان عقله بأي شيء مسكر . حتى لا يحدث عدوان على هذه الضرورات الخمس .

وقد جمع الله في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بين الخمر والميسر ، وهو جل وعلا يريد أن يحمي غفلة الناس . فلعب الميسر يتمثل في صورته البسيطة في اثنين يجلسان أمام بعضهما البعض ، وكل واحد منهما حريص على أن يأخذ ما في جيب الآخر ، فأي أخوة تبقى بين هؤلاء ؟ إن كلاًّ منهما حريص على أن يعيد الآخر إلى منزله خاوي الجيوب فأي أخوة تكون بين الاثنين ؟

ومن العجيب أنك ترى الذين يلعبون الميسر في صورة الأصحاب ، ويحرص كل منهما على لقاء الآخر ، فأي خيبة في هذه الصداقة ؟!

ومن العجيب أن يقر كل من الطرفين صاحبه على فعله ، يأخذ ماله ويبقى على صداقته ، والعجب الأكبر هو التدليس والسرقة بين الذين يتعودون على لعب الميسر . ولو لاحظت حياة هؤلاء الذين يلعبون الميسر تجدهم ينفقون ويبذرون بلا احتياط ولا ينتفعون أبداً بما يصل أيديهم من مال مهما كان كثيراً ، لماذا ؟

لأن المال حين يُكتسب بيسر ، يُصرف منه بلا احتياط ، هذا هو حال من يكسب ، أما بالنسبة للخاسر فتجده يعيش في الحسرة والألم على ما فقد ، وتجده في فقر دائم ، وربما اضطر إلى التضحية بعرضه وشرفه ، إن لم يبع ملابسه ، وأعز ما يملك ، ويحدث كل ذلك بأماني زائفة ، وآمال كاذبة يزينها الشيطان للطرفين ؛ الذي كسب والذي خسر ، فالذي كسب يتمنى زيادة ما معه من مال أكثر وأكثر ، والذي خسر يأمل أن يسترد ما خسره ويكسب .

وعندما يتعود الإنسان أن يكسب بدون حركة فكل شيء يهون عليه ، ويعتاد أن يعيش على الكسب السهل الرخيص ، وحين لا يجد من يستغفله ليلعب معه ربما سرق أو اختلس . وهذا هو حال الذين يلعبون الميسر ؛ إنهم أصحاب الرذائل في المجتمع ، فهم الذين يرتشون ويسرقون ويعربدون ، ولا أخلاق عندهم وليس لهم صاحب ولا صديق ، وبيوتهم منهارة ، وأسرهم مفككة ، وعليهم اللعنة حتى في هيئتهم وهندامهم

ولذلك قال الحق : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » ومادام الإثم أكبر من النفع ، فقد رجح جانب الإثم . هذا في العملية الذاتية ، أما في العملية الرسمية فقد قال سبحانه :

﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة النساء)

وبعد ذلك أنهى - سبحانه - المسألة تماماً بقوله الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ

﴿ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ثم تمضي الآية إلى سؤال آخر هو « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » إنه السؤال نفسه من عمرو بن الجموح وكان الجواب عليه من قبل هو « قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل » وهنا جواب بشكل وصورة أخرى « قل العفو » والعفو معناه الزيادة وفي ذلك يقول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إن الله ـ جلت قدرته ـ يحذر وينذر لعل الناس تتذكر وتعتبر ، إنه ـ سبحانه ـ لم يرسل نبيًا إلى قوم فقابلوه بالتكذيب والنكران إلا أخذهم وابتلاهم بالفقر والبؤس والمرض والضر لعلهم يتوبون إلى ربهم ويتذللون له ـ سبحانه ـ ليرفع عنهم ما ابتلاهم به ، ثم لما لم يرجعوا ويقلعوا عما هم فيه من الكفر والعناد اختبرهم وامتحنهم بالنعم ، بالخصب والثراء والصحة والرخاء حتى كثروا وزادت أموالهم وخيراتهم ، وقالوا ـ وهم في ظل تلك النعم ـ إن ما يصيبنا من سراء وضراء وخير وشر إنما هو سنة الكون ، وعادة الدهر ، فأسلافنا وآباؤنا كان يعتريهم مثل ما يعتريـ ، ولما أصروا على كفرهم باغتهم الله بالعذاب ، وأنزل بهم العقاب المفاجيء . قلبهم الله بين الشدة والرخاء ، وعالجهم بالعسر واليسر ، حتى لا تكون لهم حجة على الله ، ولما ظهرت خسة طبعهم وأقاموا على بطرهم أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر . ولنتأمل قوله تعالى في ذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝ ﴾

(سورة الأنعام)

أي لم نعجل بعقابهم بل تركناهم فتمادوا فى المعصية حتى إذا فرحوا بما أوتوا من النعمة والثروة وكثرة العدد ، « أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » أي يائسون من رحمة الله أو نادمون متحسرون ، ولا ينفعهم الندم حينئذ . فقد فاتت الفرصة وضيعوها على أنفسهم .

إن الحق ينزل هذا الأمر كعقاب وبه تكون النقلة صعبة ، إنهم يتمادون فيعاقبهم الحق عقابا صاعقا ، كالذى يرفع كائنا فى الفضاء ثم يتركه ليهوى على الأرض ، والعفو هنا يمكن أن يكون بمعنى أنهم ازدادوا فى الطغيان . وهناك معنى آخر للعفو ، فقد يأتى بمعنى الترك :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

أى من ترك له أخوه شيئا فليأخذه . إذن فالعفو تارة يكون بمعنى الزيادة ، وتارة أخرى يكون بمعنى الترك ، والحق هنا يقول : « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » أي أن الإنفاق إنما يكون من الزائد عن الحاجة ، فيكون معنى العفو هنا هو الزائد أو المتروك ، وهكذا نرى أن العفو واحد فى كلا الأمرين ، فلا تظن أن المعانى تتضارب ؛ لأن بها يتحقق المعنى المقصود فى النهاية . فالعفو هو الزيادة ، والعفو أيضا يؤخذ بمعنى الصفح .

إذن فالإنفاق من الزائد عن الحاجة يحقق الصفح ويحقق الرفاهية فى المجتمع . فالذى يزرع أرضا وينتج ما يكفيه هو وعياله ويزيد ، فهل يترك ما يزيد عن حاجته ليفسد أم ينفق منه على قريبه أو جاره المحتاج ؟ أيها أقرب إلى العقل والمنطق ؟ وكان ذلك قبل أن يشرع الحق الزكاة بنظامها المعروف . وما سر تبديلها من عفو إلى زكاة ؟

لأن الحق أراد أن يقدر حركة المتحرك ، فجعل حركته تخفف عنه ولا تثقل عليه لأن حركة المتحرك تنفع المتحرك ، أراد المتحرك أو لم يرد ، ولذلك نجد « زكاة الركاز » وهي الزكاة المفروضة على ما يوجد في باطن الأرض من ثروات كالمعادن النفيسة والبترول وغيرها ، لقد جعل الحق نصيب تلك الزكاة عشرين في المائة ، أي الخمس بينما الذي يحرث الأرض ويبذر فيها الحب ويتركها حتى ينزل المطر فتنمو ، فنصاب الزكاة هو العشر على ما أنتجته زراعته .

وأما الذي يزرع على ماء الري فعليه نصف العشر . والذي يتاجر كل يوم ويتعب فيذهب للمنتج يشتري منه ، ثم يوفر السلعة على البائع فيشتريها ، هذا نقول له : عليك اثنان ونصف في المائة (٢,٥٪) فقط .

إذن فالزكاة متناسبة مع الحركة والجهد ، كأن الحق يحمي الحركة الإنسانية من حق التقنين البشري . إن المتحرك القوي يدفعه الله ليزيد من حركته ليتسع المجتمع ، وأوكل الله للحاكم الذي يتبع منهج الإسلام أن يأخذ من الأثرياء ما يقيم به كرامة الفقراء . إن بخل الأغنياء بفضل الله عليهم ، ولم ينفقوا على الفقراء من رزق الله ، فالمنهج الحق يحمي المال من فساد الطمع ، ومن فساد الكسل ، ويريد الحياة مستقيمة وآمنة للناس .

فالذي ينفق من ماله على أهله يحيا وهو آمن . وكذلك من ينفق على أهله وتوابعه فتزداد دائرة الأمان ، وهكذا لقد حمى الله بالزكاة طموح البشر من حق التقنين من البشر ، فالمقنن من البشر يأتي للمتحرك أكثر ويزيد عليه الأعباء ، نقول له : إن هذا المتحرك إن لم يقصد أن ينفع المجتمع فالمجتمع سينتفع بجهده بالرغم عنه ؛ فالإنسان الذي يملك مالا يبغي الله خاطرا في باله ، ويقول : « ماذا لو بنيت عمارة من عشرة أدوار ، وفي كل دور أربع شقق » ويحسب كم تعطيه تلك العمارة من عائد كل شهر . إن هذا الرجل لم يكن في باله إلا أن يربح ، فنتركه يفكر في الربح ، وعندما نراقب الفائدة التي ستعود على المجتمع منه فسنجد الفائدة تعود على المجتمع من هذا العمل ، ولنا أن نحسب كم فردا سوف يعمل في بناء تلك العمارة الجديدة ؟ ابتداء من البنائين ومرورا بالنجارين والحدادين والمبيضين والسباكين وغيرهم

إن كل طبقات المجتمع الفقيرة تكون قد أفادت واستفادت من مال هذا الرجل قبل أن يدخل جيبه مليم واحد ؛ لقد اتقى الله في نفسه خاطراً ، فأخرج كل ما في جيبه ، وألقاه في جيوب الآخرين قبل أن توجد له عمارة . وهكذا يحمي الله حركة المتحرك لأن حركته مفيدة سواء قصد إلى ذلك أو لم يقصد.

أما إذا قلنا له : ستأخذ ما يزيد على حاجتك قسراً فلا بد أن يقول لنفسه : «سأجعل حركتي على قدر حاجتي ولا أزيد إلا قليلاً » . والحق عز وجل لا يريد أن يشيع هذا المنطق بين الناس ، ولكن يريد لهم أن يتحركوا في الحياة بالجدية والحلال، وكلما تكثر حركتهم تقل الزكاة المفروضة عليهم ؛ لأن الحركة لا يستفيد منها صاحبها فقط ولكن يستفيد منها المجتمع ، فبعضه يسكن ، وآخر يزرع ، وثالث يعمل ، وخير للإنسان أن يأكل من عمل يديه من أن يأكل من صدقات الناس وزكاتهم .

عن المقدام بن معديكرب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده »[1]

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) ﴾

إن الحق يبدأ هذه الآية بقوله : « في الدنيا والآخرة » وكأنه يقول لنا : إياكم أن

(١) رواه أحمد والبخاري

تعتقدوا أن كل تكليف من الله جزاؤه في الآخرة فقط ، أبداً إن الجزاء سيصيبكم في الدنيا أيضاً

وتأمل سيرة المستقيمين الملتزمين بمنهج دينهم ومنهج الأخلاق في حياتهم تجدهم قد أخذوا جزاءهم في الدنيا رضا وسعادة وأمناً حتى أنك تجد الناس تتساءل : كيف ربى فلان أولاده ، وكيف علمهم برغم أن مرتبه بسيط ؟

هم لا يعلمون أن يد الله معه بالبركة في كل حركات حياته فلا تظن أن الجزاء مقصور على الآخرة فقط ، بل يعجل الله بالجزاء في الدنيا . أما الآخرة فهي زيادة ، ونحن نأخذ متع الآخرة بفضل الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته »[1]

وأحب أن يتأمل كل منا أحوال الناس المستقيمين في منهج الحياة ، ويرى كيف يعيشون وكيف ينفقون على أولادهم ، ويتأمل البشر والرضا الذي يتمتعون به ، وكيف تخلو حياتهم من المشاكل والعقد النفسية

وكأنه سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أن كل ما جاء في المنهج القويم ، إنما جاء لينظم لنا حركة الحياة ويخرجنا من أهواء النفوس

ونقول بعد أن استكمل الحق الكلام عن الحج وهو الركن الخامس من أركان الإسلام ، يبين لنا صنفين من المجتمع . أما الصنف الأول فهو الصنف المنافق الذي لا ينسجم منطقه مع واقع قلبه ونفسه

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ

(١) أخرجه الإمام البخاري ومسلم والإمام أحمد في مسنده والبيهقي وغيرهم بروايات مختلفة

﴿ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وليت هذا الصنف حين ينتبه إلى ذلك يرتدع ويرجع ، لا ، إنه إذا قيل له من ناصح محب مشفق : « اتق الله » أخذته العزة بالإثم !! والصنف الآخر في المجتمع هو من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ، ويتمثل ذلك في أنه إما أن يبيع نفسه في القتال فيكون شهيداً ، وإما أن يستبقيها استبقاءً يكون فيه الخير لمنهج الله فقال سبحانه :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ثم تكلم الحق عن الدخول في السلم كافة ، والدخول في السلم أي الإسلام يطلب منا أن ندخل جميعاً في كل أنواع السلم في الحياة ، سلم مع نفسك فلا تتعارض ملكاتك ، فلا تقول قولاً يناقض قلبك ، وسلمٌ مع المجتمع الذي تعيش فيه ، وسلم مع الكون الذي يخدمك جماداً ونباتاً وحيواناً ، وسلم مع أمتك التي تعيش فيها ، فقال سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

كل ذلك يدلنا على أن الحق حين خلق الخلق ، وضع لهم المنهج الذي يضمن لهم السلامة والأمن في كل أطوار هذه الحياة ، فإن رأيت خللاً أو اضطراباً في الكون ، أو رأيت خوفاً أو قلقاً فاعلم أن منهجاً من مناهج الإسلام قد عُطل . والحق سبحانه وتعالى حينما يأمرنا أن ندخل في السلم كافة فهو سبحانه يحذرنا أننا إن زللنا عن المنهج فإن الله عزيز حكيم فلا يغلبه أحد ، ولا يقدر عليه أحد ، فهو القادر القوي الذي يُجري كل شيء بحكمة ، فلا تظنوا أنكم بذلك تسيئون إلى الله بالزلل عن منهجه ، وإنما تسيئون إلى أنفسكم وإلى أبناء جنسكم ؛ لأن الله لا يُغلب

ويبهنا الحق سبحانه تنبيها آخر ، إنه يلفتنا إلى أننا لا نملك أمر الساعة ، فالساعة تأتي بغتة ومفاجئة ، صاخة طامة ، مرجفة مزلزلة . فاحذروا أن تصيبكم هذه الرجفة وأنتم في غفلة عنها . وكل ذلك لندخل أيضا في السلام في اليوم الآخر ، وكأن الحق سبحانه يلفتنا إلى أن كلمات القرآن ليست مجرد كلمات نظرية ، ولكنها كلمات الحكيم الخبير التي حكمت تاريخ الأمم التي سبقت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم .

فكم من آيات أرسلها الحق إلى بني إسرائيل فتلكأوا وكان منهم ما كان ، وشقوا بهم ، وشقي بهم المجتمع ، إذن فالكلام ليس كلاماً نظرياً ويريد الله لنا أن ننظر بعمق إلى أمور الحياة ، وألا ننظر إلى سطحيات الأمور ، فيجب ألا تخدعنا زينة الحياة الدنيا عن الحياة الآخرة ؛ لأن الحياة الدنيا أمدها قصير ، وعلينا أن نقيس عمر الدنيا بأعمارنا فيها ، وأعمارنا فيها قصيرة ؛ لأن منا من يموت كبيراً ومنا من يموت صغيراً .

ويبين لنا الحق سبحانه أنه لم يترك خلقه هملاً ، وإنما أرسل لهم رسُلاً يبينون لهم منهج الله ، فكان الناس أمة واحدة مجتمعة على الحق إلى أن تحركت الأهواء في نفوسهم ، ومع ذلك رحمهم الله فلم يسلمهم إلى الأهواء ، بل استمر موكب الرسالات في البشر ، وكلما غلبتهم الأهواء وطمّ الفساد ، أرسل الحق برحمته رسولاً لينبه إلى أن جاء الرسول الخاتم الذي ميزه الله بخلود منهجه ، وبجعل القيم في أمته وصارت الأمة المحمدية هي حاملة أمانة حراسة المنهج الذي يصون حركة الحياة في الأرض ؛ لأن الحق سبحانه لم يأمن أمة سواها ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء .

ثم ينبهنا الله من بعد ذلك إلى أن نهاية الإنسان إلى نعيم الله في الجنة لن يأتي سهلاً ميسوراً ، بل هو طريق محفوف بالمكاره ، فيجب أن تنبهوا أنفسكم وتروضوها وتدربوها على تحمل هذه المكاره ، وتوطنوها على تحملها لتلك المشاق كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (حُفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات)[1]

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أنس .

ويمتن الحق من بعد ذلك على خلقه أنه أعطى للإنسان الخليفة في الأرض عقلاً يفكر به ، وطاقة تنفذ تخطيط العقل ، وكوناً مادياً أمامه يتعامل معه في الحركة . فالعقل يخطط ، والطاقة تنفذ في المادة المخلوقة المسخرة لله . إذن فكل أدوات الحركة موجودة لله ، وليس لك أيها الإنسان أن تخلق شيئاً فيها إلا أن تُوجه طاقات مخلوقة للعمل في مادة مخلوقة ، فأنت لا توجد شيئاً .

وبعد ذلك يطلب الحق منك أيها المسلم أن تحافظ على حركة الحياة ، بأن تقدر للعاجز عن هذه الحركة نصيباً من حركتك ، لذلك فعليك أن تتحرك في الحياة حركة تسعك ، وتسع من تعول ، وتسع العاجز عن الحركة . وبذلك تؤمّن نفسية كل عاجز عن الحركة بحركة المتحركين من إخوانه المؤمنين ، وهو سبحانه يطمئنك بأنك إذا فعلت ذلك وأمّنت العاجز ، فهو ـ جل وعلا ـ يؤمنك حين يطرأ عليك العجز .

لقد جعل الله سبحانه حالة الحياة دولاً بين الناس ، فلا يوجد قوم قادرون دائماً ولا قوم عاجزون دائماً ، بل يجعل الحق من القادرين بالأمس عاجزين اليوم ، ومن العاجزين بالأمس قادرين اليوم ؛ حتى تتوزع الحركة في الوجود . وحتى نعلم كل ما أن الله يطلب منك حين تقدر ؛ ليعطيك حين تعجز . لذلك طلب منا أن ننفق ، والنفقة على الغير لا تنشأ إلا بعد استيفاء الإنسان ضروريات حياته ، فكأن الحق يقول لك : إن عليك أن تتحرك في الحياة حركة تسعك وتسع أن تنفق على من تعول ، وإلا لو تحركت حركة على قدرك فقد لا تجد ما تنفقه .

وبعد ذلك يكلفنا سبحانه بأن كل مؤمن عليه أن يأخذ مسئولية الإنفاق على الدائرة القريبة منه ؛ ليتحمل كل موجود في الحياة مسئولية قطاع من المجتمع مربوط به رباطاً نسبياً ؛ كالوالدين والأقربين . وأن نجعل الضعفاء من الأيتام مشاعاً على المجتمع مطلوبين من الجميع . سواء كانت تربطهم بنا قرابة أو لا تربطنا بهم قرابة ، فهم جميعاً أقاربنا ؛ لأن الله كلفنا بأن نرعاهم .

ولكن هل يمكن أن يستقر منهج الله دون أن يعاديه أحد ؟ حتماً لا ؛ لذلك ينبهنا الحق إلى أننا سنجد أقواماً لا يسعدهم أن يتحقق منهج الله في الوجود ، لأنهم

لا يمشون إلا على مظالم الناس، هؤلاء قوم سيسوؤهم أن يُطفئ منهج الله، فلا تتشبهوا بهؤلاء، ولذلك فرض الحق سبحانه القتال حتى تمنع الفتنة بالكفر من الأرض، لأن الكفر يعدد الآلهة في الكون وسيتبع كل إنسان الهوى، ويصبح إلهه هواه وستتعدد الآلهة بتعدد الأهواء، ولذلك كتب الله على المؤمنين القتال وقال «وهو كُره لكم». كل ذلك ليضمن لنا الغاية التي يريدها، وهي الدخول في السلم والسلام والإسلام كافة. وبعد ذلك يطلب منا أن نجاهد بأموالنا وأنفسنا وأن نهجر أوطاننا وأهلنا إن احتاجت إلى ذلك الحركة الإيمانية فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويلفتنا الحق بعد ذلك إلى نعمة جهاز التخطيط في الإنسان ليحميه ويجعله جهازاً سليماً قادراً على التخطيط بصفاء وحكمة وقوة، وهو العقل، ويلفتنا بضرورة أن نمنع عن العقل كل ما يخمره أي يستره عن الحركة فيمنع عنه الخمر لماذا؟ ليظل العقل كما يريده الله أداة الاختيار بين البدائل.

ومادام العقل هو الذي يخطط لطاقات الموجودة في الإنسان لتعمل في المادة الموجودة في الكون، فيجب أن يظل هذا العقل المخطط سليماً، فلا يحاول الإنسان أن يستره، ولا يقل أحد: «إني أستره من فرط زيادة المشكلات». لا، لأن المشكلات لا تريد عقلاً واحداً منك فقط، ولكنها تريد عقلين، فلا تأت للعقل الواحد لتعميه بالخمر، فمواجهة المشكلات تقتضي أن نخطط تخطيطاً قوياً.

وبعد ذلك يحذرنا الحق أن نأخذ من حركة الآخرين بغير عرق وبغير جهد، فيحذرنا من الميسر وهو الرزق السهل، والتحذير من الميسر إنما جاء ليضمن لكل إنسان أن يتحرك في الحياة حركة سليمة لا خداع فيها وكأن كل ما تقدم هو من إشراقات قوله الحق: «في الدنيا والآخرة»، ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٢٠ سورة البقرة)

ونعرف أن اليتامى قد لا يدخلون في دائرة المحتاجين لكن الله ينبهنا إلى أن المسألة في اليتيم ليست مسألة احتياج إلى الاقتيات ، ولكنه في حاجة إلى أن نعوضه بالتكافل الإيماني عما فقده من الأب ، وذلك يمنع عنه الحقد على الأطفال الذين لم يمت آباؤهم . وحين يجد اليتيم أن كل المؤمنين آباء له فيشعر بالتكافل الذي يعوضه حنان الأب ولا يعاني من نظرة الأسى التي ينظر بها إلى أقرانه المتميزين عليه بوجود آبائهم ، وبذلك نخلع منه الحقد .

وكان المسلمون القدامى يخلطون أموالهم بأموال اليتامى ليسهلوا على أنفسهم ، وعلى أمر حركة اليتيم مئونة العمل ، فلو أن يتيماً دخل تحت وصاية إنسان ، وأراد هذا الإنسان أن يجعل لليتيم القاصر حياة مستقلة وإدارة مستقلة ومسلكاً مستقلاً في الحياة لشق ذلك على نفس الرجل ، ولذلك أذن الله أن يخلط الوصي ماله بمال اليتيم ، وأن يجعل حركة هذا المال من حركة ماله ، بما لا يوجد عند الوصي مشقة . ولما نزل قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

(من الآية ١٥٢ من سورة الأنعام)

وتحرج الناس ، وتساءلوا كيف يعاملون اليتيم خصوصاً أن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾

(من الآية ١٠ سورة النساء)

وكف الناس أيديهم عن أمر اليتامى ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يسهل

الأمر، فأنزل الحق: «قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم» والمخالطة تكون على أساس أن اليتامى إخوانكم واحذروا جيداً أن يكون في هذا الخلط شيء لا يكون فيه إصلاح لليتيم.

وإياكم أن تفهموا أن الشكلية الاجتماعية تكفي الوصي في أن يكون مشرفاً على مال اليتيم دون حساب، لأن الله يعلم المفسد من المصلح. فلا يحاول أحد أن يقول أمام الناس: إنه قد فتح بيته لليتيم وإنه يرعى اليتيم بينما الأمر على غير ذلك، لأن الله يعلم المفسد من المصلح.

ويقول الحق: «ولو شاء الله لأعنتكم» والإعنات هو أن توقع غيرك وتدخله في أمر فيه مشقة، فلو لم يبح الله لكم مخالطتهم لأصابتكم مشقة. ييسر الله للمؤمنين من الأوصياء أن يخالطوا اليتامى، ومعنى المخالطة: هو أن يُوحِّد الوصي حركة اليتيم مع حركته، وأن يوحد معاش اليتيم مع معاشه، بدلاً من أن يكون لليتيم على سبيل المثال أدوات طعام مستقلة، وقد كان هذا هو الحاصل.

وكان يفسد ما يتبقى من الطعام، فلم تكن هناك وسائل صيانة وحفظ الأطعمة مثل الثلاجات، وكان ذلك ضرراً باليتيم، وضرراً أيضاً لمن يشرف عليه. لكن حين قال: «وإن تخالطوهم»، فكان ذلك توفيراً للمشقة على الأوصياء. فالمخالطة هي المعاشرة التي لا يتعذر فيه التمييز.

وقد درسنا في طفولتنا درساً بعنوان: «الخلط والمزج»، فالخلط هو أن تخلط على سبيل المثال حبوب الفول مع حبوب العدس، أو حبوب الأرز مع حبات البندق.

وعندما تأتي لتميز صنفاً من آخر، فأنت تستطيع ذلك، وتستطيع أن تفصل الصنفين بعضاً عن بعض بالغربال؛ ولذلك فالمخالطة تكون بين الحبوب ونحوها.

أما المزج فهو في السوائل والحق سبحانه يرشدنا أن نخالط اليتامى لا أن نمزج مالهم بمالنا ؛ لأن اليتيم سيصل يوما إلى سن الرشد ، وسيكون على الوصي أن يفصل ماله عن مال اليتيم .

ويتابع الحق . « والله يعلم المفسد من المصلح » لأن الوصي قد يدعي أمام الناس أنه يرعى حق اليتيم ، وأنه يقوم بمصالحه ويحترم ماله ، لكن الأمر قد يختلف في النية وهو سبحانه لم يكل الأمر إلى ظواهر فهم المجتمع لسلوك الوصي مع اليتيم وعن المخالطة ، بل نسب ذلك كله إلى رقابته سبحانه ، وذلك حتى يحتاط الإنسان ويعرف أن رقابة الله فوق كل رقابة ، ولو شاء الحق لأعنت الأوصياء وجعلهم يعملون لليتيم وحده ، ويفصلون بين حياة اليتيم وحياتهم ومعاشهم . وفي ذلك مشقة شديدة على النفس . وحتى نفهم معنى العنت بدقة فلنقرأ قول الحق سبحانه .

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة التوبة)

لقد جاءكم أيها المؤمنون رسول منكم ، عربي ومن قريش يبلغكم رسالة الله سبحانه وتعالى يحرص عليكم كيلا تقعوا في مشقة أو تعيشوا في ضنك الكفر ، حريص على أن تكونوا من المهتدين . فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت من جنس الملائكة ، ولكن جاء من جنس البشر ، فلا يقولن أحد . إنه لا يصلح أسوة لي . إنه نشأ في مكة التي تعيش بها قريش ، وتاريخه معروف بقومه بدليل أنهم خلعوا عليه أول الأوصاف المطلوبة والواجبة للرسالة وهي الأمانة ، فالحق جاء به من البشر وليس بغريب عليهم ، وبمجرد أن أخبر بالوحي وجد أناسا آمنوا به قبل أن يقرأ قرآنا ، وقبل أن يأتيهم بتحد .

فعندما جاءه الملكُ جبريلُ عليه السلام في غار حراء ، فقال: اقرأ . قال : ما أنا بقارىء . فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، [إي ضمني وعصرني، والحكمة فيه شغله عن الالتفات ليكون قلبه حاضراً] ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا

بقارئ» فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني وقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ» . فأخذني الثالثة فغطني ثم أرسلني فقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال لها : « زملوني ، زملوني » فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر « لقد خشيت على نفسي » لكن خديجة رضي الله عنها بحسن استنباطها تقول : « كلا والله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق »[1]

إن خديجة رضوان الله عليها تستنبط أن من فيه هذه الخصال إنما هو مهيأ للرسالة

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة التوبة)

أي عزيز عليكم يشق عليه ويتعبه ما يشق عليكم ويتعبكم ؛ ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم مشغولا بأمته . ويروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « أمتي أمتي . أمتي» .

والحق سبحانه وتعالى يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشغول بأمته .

عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم « رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني الآية » . وقال عيسى عليه السلام : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » فرفع يديه وقال اللهم أمتي أمتي وبكى فقال الله عز وجل : « يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك، فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك »[2] .

(١) رواه البخاري باب كيف كان بدء الوحي

(٢) رواه مسلم

إننا عندما نتأمل دقة الجواب النبوي نعرف أن الرسول الكريم مشغول بأمته، ولكنه ينظر إلى نفسه على أنه أخ لكل مؤمن. والأخ قد يتغير على أخيه. لذلك لم يشأ الرسول الكريم أن يُخرج أمر المسلمين من يد الله ورحمته وهو الخالق الكريم إلى أمره هو صلى الله عليه وسلم.

إن الرسول يعرف أن الله أرحم بخلقه من أي إنسان، حتى الرسول نفسه. نقول ذلك في معرض حديثنا عن العنت الذي يمكن أن يصاحب الإنسان إن لم يرع حق الله في مال اليتيم؛ لأن الله عزيز حكيم، وهو الحق الذي يغلب ولا يغلبه أحد. ونرى في قول الحق: «إن الله عزيز حكيم» أن صفة العزة مقرونة بصفة الحكمة.

وبعد ذلك يدخل معنا الحق سبحانه وتعالى في مسألة جديدة لو نظرنا إليها لوجدناها أساس أي حركة في الحياة وفي المجتمع، إنها مسألة الزواج. ويريد سبحانه أن يضمن الاستقرار والسعادة للكائن الذي كرمه وجعله خليفة في الأرض، وجعل كل الأجناس مسخرة لخدمته.

إن الحق يريد أن يصدر ذلك الكائن عن ينبوع مصفى واحد، لأن الأهواء المتضاربة هي التي تفسد حركة الحياة. فأراد أن يصدر المجموع الإنساني كله عن ينبوع عقدي واحد، وأراد أن يحمي ذلك الينبوع من أن يتعثر بتعدد النزعات والأهواء، لذلك ينبهنا الحق إلى هذا الموقف؛ لأنه سبحانه يريد سلامة الوعاء الذي سيوجد ذلك الإنسان، من بعد الزواج، فالزوج ينجب الإنسان، وتستمر الحياة بالتكاثر. ولذلك لا بد من الدقة في اختيار الينبوع الذي يأتي منه النسل، فهو سبحانه يقول:

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ

يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

إن الحق يقول : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » ، وهذه أول لبنة في بناء الأسرة وبناء المجتمع ، لأنها لو لم تكن مؤمنة ، فماذا سوف يحدث ؟ إنها ستشرف على تربية الطفل لوليد إشرافا يتناسب مع إشراكها ، وأنت مهمتك كأب ومرب لن تتأتى إلا بعد مدة طويلة تكون فيها المسائل قد غرست في الوليد . فإياك أن يكون الرجل مؤمنا وامرأة مشركة ؛ لأن هذا يجعل نظام الأسرة منفصل الأم مع الولد يؤثر في أولويات تكوينه إنه يؤثر في قيمه ، وتكوين أخلاقه . وهذا أمر يبدأ من لحظة أن يرى ويعى ، والطفل يقضى سنواته الأولى في حضن أمه . وبعد ذلك يكبر ، فيكون في حضن أبيه . فإذا كانت الأم مشركة والأب مؤمنا فإن الإيمان لن يلحقه إلا بعد أن يكون الشرك قد أخذ منه وتمكن وتسلط عليه .

ونعرف أن الطفولة في الإنسان هي أطول أعمار الطفولة في الكائنات كلها ، فهناك طفولة تمكث ساعتين اثنتين مثل طفولة الذباب ، وهناك طفولة أخرى تستغرق شهراً ، وأطول طفولة إنما تكون في الإنسان ؛ لأن هذه الطفولة مناسبة للمهمة التي سيقوم بها الإنسان ، كل الطفولات التي قبلها طفولات في مهمة سهلة جدا ، إنما الإنسان هو الذى ستأتى منه القيم ، لهذا كانت طفولته طويلة ؛ إنها تستمر حتى فترة بلوغ الحلم . والحق هو القائل :

﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة النور)

فكأن الطفل يظل طفلاً إلى أن يبلغ الحلم ، فكم سنة إذن ستمر على الطفل ؟. وكم سنة سوف يتغذى هذا الطفل من ينابيع الشرك إن كانت أمه مشركة ؟ إنها فترة طويلة لا يمكن له من بعد ذلك أن يكون مؤمن غير مضطرب الملكات . وإن صلح مثل هذا الإنسان أن يكون مؤمنا فسيقوم إيمانه على القهر والقسر والولاية للأب ، وسيكون مثل هذا الإيمان عملية شكلية ليست مرتكزة ولا معتمدة على أساس صادق

ونحن نعرف أن الثمرات التي نطعم نحن بأكلها لا يكون نضجها إلا حين تنضج البذرة التي تكوّن منها شجرة جديدة ، وقبل ذلك تكون مجرد فاكهة فجة وليس لها طعم . وقد أراد الحق أن ينبهنا إلى هذا الأمر ليحرص الإنسان على أن يستبقي الثمرة إلى أن تنضج ويصير لها بذور .

إن المرأة لا تكون ثمرة طيبة إلا إذا نجبت مثلها ولداً صالحا نافعا ، يريد الحق للنشء أن يكون غير مضطرب الإيمان ، لذلك يقول : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » أي إياكم أن تنخدعوا بالمعايير الهابطة النازلة ، وعلى كلّ منكم أن يأخذ حكم الله : « ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم » ، لأن إعجاب الإنسان بالمرأة بصرف النظر عن الإيمان سيكون إعجابا قصير العمر .

إن عمر الاستمتاع بالجمال الحسي للمرأة إن جمعنا لحظاته فلن يزيد مجموعه عن شهر من مجموع سنوات الزواج فكل أسبوع يتم لقاء قد يستمر دقائق وبعده يذهب الجمال ، وتبقى القيم هي المتحكمة ، ونحن نجد المرأة حين تتزوج ، ثم يبطىء الحمل فإنها تعاني من القلق وكذلك أهلها

إن الرجل إن كان قد تزوجها للوسامة والقسامة والقوام والعينين ، فهذا كله سيبرد ويهدأ بعد فترة ، ثم توجد مقاييس أخرى لاستبقاء الحياة ، وعندما يلتفت إليها الإنسان ولا يجدها فهو يغرق في الندم ؛ لأنها لم تكن في باله وقت أن اختار .

لذلك تريد المرأة أن تُمكن لنفسها بأن يكون عندها ولد لتربط الرجل بها ، وحتى

يقول المجتمع « عليك أن تتحملها من أجل الأولاد » ! فالرجل بعد الزواج يريد قيماً أخرى غير القيم الحسية التي كانت ناشئة أولاً ، لذلك يحذرنا الله قائلاً : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ » . وجاء قوله « حتى يؤمنّ » لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ما دامت قد آمنت فقد انتهت المسألة .

وانظروا إلى دقة قوله سبحانه . « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ ولأمة مؤمنة خير من مشركة » أي إنّ الأمة المسلمة خير من حرة مشركة ، « ولو أعجبتكم » لقد جاء قول الحق هنا بمقاييس الإعجاب الحسي . ليلفتنا إلى أننا لا يصح أن نهمل مقاييس خالدة ونأخذ مقاييس بائدة وزائلة

ثم يقول الحق . « ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا » وهذا هو التطير في الخطاب وهو ليس متقابلاً فهو لم يخاطب المؤمنات ألا ينكحن المشركين ، إنما قال . « ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا » وتلك دقة في الأداء هنا ، لأن الرجل له الولاية في أن يُنكح ، فيأمره بقوله له : لا تُنكح ، لكن المرأة ليس لها ولاية أن تُنكح نفسها . فنحن نعرف القاعدة الشرعية التي تقول . « لا نكاح إلا بولي » ، وهو لم يوجه حديثه للنساء ، لأن المرأة تتحكم فيها عاطفتها لكن وليها ينظر للأمر من مجموعة رؤيا أخرى تحكم المؤلف .

صحيح أننا نستأذن الفتاة البكر كي تضمن أن عاطفتها ليست مصدودة عن هذا الزواج ، لكن الأب أو ولي الأمر الرجل يقيس المسائل بمقاييس أخرى ، فلو تركنا للفتاة مقياسها لتهدم الزوج بمجرد هدوء العاطفة ، وساعة تأتي المقاييس العقلية الأخرى فلن تجد ذلك الزواج مناسباً لها فتفشل الحياة الزوجية . لذلك يطالبنا الإسلام أن نستشير المرأة ، كيلا نأتيها بواحد تكرهه ، ولكن الذي يزوجها إلى ذلك الرجل هو وليها ؛ لأن له المقاييس العقلية والاجتماعية والخلقية التي قد لا تنظُر إليها الفتاة ؛ فقد يبهرها في الشاب قوامه وحسن شكله وجاذبية حديثه ، لكن عندما تدخل المسألة في حركة الحياة ودوامتها قد تجده إنساناً غير جدير بها .

ولكي تكون المسألة مزيجاً من عاطفة بنت ، وعقل أب ، وحيرة أم ، كان لابد من

استشارة الفتاة، وأن يستمع الأب رأي الأم، ثم يقول الأب رأيه أخيراً، وكل زواج يأتي بهذا الأسلوب فهو زواج يحالفه التوفيق، لأن المعايير كلها مشتركة، لا يوجد معيار قد اختل، فالأب بنى حكمه على أساس موافقة الابنة، أما إذا رفضت الفتاة وكانت معايير الأب صحيحة، لكن الابنة ليس لها تقبل لهذا الرجل، لذلك فلا يصح أن يتم هذا الزواج.

وكثير من الزيجات قد فشلت لأننا لم نجد من يطبق منهج الله في الدخول إلى الزواج. وحين لا يطبقون منهج الله في الدخول إلى الزواج ثم يُفاجأون بالفشل، فهم يصرخون منادين قواعد الإسلام لتتقدم.

ونقول لهم: وهل دخلتم الزواج على دين الله؟ إنكم مادمتم قد دخلتم الزواج بمرائكم المعزولة عن منهج الله فتحملوا المسألة بآرائكم. فالدين ليس مسئولاً إلا عمّن يدخل بمقاييسه، لكن أن تدخل على الزواج بغير مقاييس الله ثم تريد من الله أو من القائمين على أمر الله أن يحلوا لك المشاكل فذلك ظلم منك لنفسك وللقائمين على أمر الله. وإن لم تحدث مثل هذه المشكلات لكنا قد اتهمنا منهج الله، ولقلنا: قد تركنا منهج الله وسعدنا في حياتنا، لذلك كان لابد أن تقع المشكلات.

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى: «ولا تُنكحوا المشركات حتى يؤمن» هذه قضية لها سبب، لكن العبرة فيها بعموم موضوعها لا بخصوص سببها، فقد كان السبب فيها هو ما رُوِيَ أنه كان هناك صحابي اسمه مرثد بن أبي مرثد الغنوي بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين. وكان يهوى إمرأة في الجاهلية اسمها «عناق»، وكانت تحبه، وساعة رأته أرادت أن تخلو به فقال لها: ويحك إن الإسلام قد حال بيننا، فقالت له: تزوجني. فقال لها: أتزوجك لكن بعد أن أستأمر وأستأذن النبيّ صلى الله عليه وسلم، فلما استأمره نزل قوله تعالى: «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم».

وقيل إن قوله تعالى: «ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم» نزلت في خنساء[1] وليدة سوداء كانت لحذيفة بن اليمان، فقال لها حذيفة: يا خنساء قد ذكرت

(١) الخنس: انخفاض في قصبة الأنف مع ارتفاع قليل في طرف الأنف.

في الملأ الأعلى مع سوادك ودمامتك وأنزل الله ذكرك في كتابه ، فأعتقها حذيفة وتزوجها.

ويتابع الحق فيقول : « ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم » إن المقاييس واحدة في اختيار شريك الحياة ، إنها الرغبة في بناء الحياة الأسرية على أساس من الخير ، وغاية كل شيء هي التي تحدد قيمته ، وليست الوسيلة هي التي تحدد قيمة الشيء ، فقد تسير في سبيل وعر فيه خطر وغايته فيها خير ، وقد تسير في سبيل مفروش بالورود والرياحين وغايته شر . ولذلك يقول الحق : « أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » والذين يدعون إلى النار هم أهل الشرك . أما الله فهو يدعو إلى الجنة ، والمغفرة تأتي بإذن الله أي بتيسير الله وتوفيقه . ونعرف جميعاً الحكمة التي قالها الإمام « علي » كرم الله وجهه : لا خير في خير بعده النار ، ولا شر في شر بعده الجنة.

وقوله الحق : « لعلهم يتذكرون » ترد كثيراً ، هذا التذكر ماذا يعمل ؟ إن التذكر يُشعرك بأن القضية كانت معلومة والغفلة هي التي طرأت ، لكن الغفلة إذا نُبهت إليها ، فهي تذكرك بما كنت قد نسيته من قبل ، لكن إن طالت الغفلة ، ونسي الأصل فهذه هي الطامة ، التي تتمحص بها المسألة.

إذن فالتذكر يشمل مراحل : المرحلة الأولى : أن تعرف إن لم تكن تعرف ، أو تعلم إن كنت تجهل ، والمرحلة الثانية : هي أن تتذكر إن كنت ناسياً ، أو تواثم بين ما تعلم وبين ما تعمل ، فالتذكر يوحي لك بأن تواثم ما بين معرفتك وسلوكك حتى لا تقع في الجهل ، والجهل معناه أن تعلم ما يناقض الحقيقة . لقد أراد الله أن يصون الإنسان الذي اختار الإيمان عندما حرم عليه الزواج بواحدة من أهل الشرك.

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن لي حمية حليمة في الأرض عقيدة واحدة يصدر عنها السلوك الإنساني ؛ لأن العقائد إن تنوعت حسب الأهواء فسيتنوع السلوك حسب الأهواء . وحين يتنوع السلوك تتعاند حركة الحياة ولا تتساند

فيريد الحق سبحانه وتعالى أن يضمن وحدة العقيدة بدون مؤثر يؤثر فيها ، فشرط في بناء اللبنة الأولى للأسرة ألا ينكح مؤمن مشركة ، لأن المشركة في مثل هذه الحالة ستتولى حضانة الطفل لمدة طويلة هي - كما قلنا - أطول أعمار الطفولة في الكائن الحي. ولو كان الأب مؤمناً والأم مشركة فالأب سيكون مشغولاً بحركة الحياة فتتأصل عن طريق الأم معظم القيم التي تتناقض مع الإيمان.

وأراد الحق سبحانه وتعالى أيضاً ألا تتزوج المؤمنة مشركاً ؛ لأنها بحكم زواجها من مشرك ستنتقل إليه وإلى بيته المشركة وإلى أسرته. وسينشأ طفلها الوليد في بيئة شركية فتتأصل فيه الأشياء القيمية التي تناقض الإيمان. ويريد الحق سبحانه وتعالى بهذه الصيانة ، أي بعدم زواج المؤمن من مشركة ، وبعدم زواج المؤمنة من مشرك ، أن يحمي الحاضن الأول للطفولة. وحين يحمي الحاضن الأول للطفولة يكون الينبوع الأول الذي يصدر عنه تربية عقيدة الطفل ينبوعاً واحداً ، فلا يتذبذب بين عقائد متعددة. لذلك جاء قول الحق :

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

كل ذلك حتى يصون الحق البيئة التي ينشأ فيها الوليد الجديد. وعلينا أن نفهم أن الحق سبحانه وتعالى رخص للمؤمنين في أن ينكحوا أهل الكتاب بقوله الحق :

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن

قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾

(سورة المائدة)

وقد وقف العلماء من مسألة ترخيص الحق للمؤمنين فى أن يتزوجوا من أهل الكتاب موقفين : الموقف الأول : هو موقف مانع ؛ لأن بعض العلماء رأى أن أهل الكتاب قد يحرفون فى معتقداتهم إلى ما يدخلهم فى الشرك ، وقالوا . وهل هناك شرك أكثر من أن تدعى الربوبية لبشر ؟ والموقف الثانى : أجاز بعض العلماء أن يتزوج الإنسان من كتابية ويجب عليه أن يسألها أهى تدين بألوهية أحد من البشر أم تدين بالله الواحد القهار ؟ فإن كانت المسألة مجرد الخلاف فى الرسول فالأمر يهون ، أما إن كانت تؤمن بألوهية أحد من البشر بجانب الله فقد دخلت فى الشرك وعلى المؤمن أن يحتاط .

وإذا كان للرجل الولاية وله أن يتزوج بكتابية فهو غالباً ما ينقلها إلى بيئته هو وستكون البيئة المؤثرة واحدة ، ووجود الولاية للأب مع الوجود فى البيئة الإيمانية سيؤثر ويخفف من تأثير الأم الكتابية على أولادها ، وإن كان على الإنسان أن يتيقظ إلى أنّ هناك مسالك تتلطف وتتسلل ناحية الشرك ، فمن الخير أن يبتعد المسلم عن ذلك ، وأن يتزوج ويحصن ويعف فتاة مسلمة

وحين يحمى الحق سبحانه وتعالى الحضانة الأولى للطفل فهو يريد أن يرى فى الطفل عدم التوزع ، وعدم التمزق ، وعدم التنافر بين ملكاته . وحين نضمن للطفل التوحد والنشأة فى بيئة متآلفة فهو ينشأ طفلاً سوياً . والإسلام يريد أن يحافظ على سويّة هذا الطفل . ويقول بعض الناس . ولماذا لا توجد محاضن جماعية ؟ وكأنهم بذلك يريدون أن يحلوا الإشكال

نقول لهم ، إن الإشكال لم يحل عند الذين فعلوا ذلك من قبل ، ولذلك فعندما نقرأ مؤلفاتهم مثل كتاب ، أطفال بلا أسر ، فسنجد أن الطفولة عندهم معذبة . ولماذا

تذهب بعيداً ؟ إننا عندما نتتبع كيفية النشأة الجماعية للأطفال في إسرائيل فالبحوث العلمية تؤكد على أن الأطفال يعيشون في بؤس رهيب لدرجة أن التبول اللاإرادي ينتشر بينهم حتى سن الشباب .

وكيف يغيب عن بالنا أن الطفل يظل حتى تصل سنه إلى عامين أو أكثر وهو يطلب ألا يشاركه في أمه أحد ، حتى وإن كان أخاً له فهو يغار منه فما بالك بأطفال متعددين تقوم امرأة ليست أمهم برعايتهم ؟ ولا يغني عن حنان الأم حنان مائة مربية ؛ فليس للمربيات حباً قلب الأم التي ولدت الطفل ، فالحنان الذي تعطيه الأم ليس حناناً شكلياً ولا وظيفياً ، ولكنه طبيعة حياة خلقها الله لتعطي العطاء الصحيح ، لذلك لابد من إعطاء الطفل فترة يشعر فيها بأن أمه التي ولدته له وحده ، ولا يشاركه فيها أحد حتى لو كان أخاً له ، وتمر عليه فترة بعد أن يخرج من مهد الطفولة الأولى إلى الشارع ليجد حركة الحياة ، ويجد القائمين على حركة الحياة هم الرجال وأنه أمثاله من الأطفال فيحب بعد ذلك أن ينسب إلى أب له كيان معروف في المجتمع الخارجي .

فمن مقومات تكوين الطفل أن يشعر أن له أماً لا يشاركه فيها أحد ، وأن له أباً لا يشاركه فيه أحد . وإن شاركه فيهما أحدٌ فهم إخوته ويضمهم ويشملهم جميعا حنان الأم ورعاية الأب . لقد اعترف أهل العلم بتربية الأطفال أن احتياج الطفل لأمه هو احتياج هام وأساسي بلزمه لمدة عامين وبضعة من الشهور ، والحق تبارك وتعالى حين أنزل على رسوله قبل أربعة عشر قرناً من الآن ؛ القول الحكيم الصادق بيّن هذه الحقيقة واضحة في أجلى صورها :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الأحقاف)

إن الأم هي الحاضنة الطبيعية للطفل كما أرادها الحق . إذن ، فالحق يريد أن يحمي اللبنة الأولى في تكوين المجتمع وهي الأسرة في البناء العقدي من أن تتأثر بالشرك ، ويريد أن يحفظ للأسرة كياناً سليماً .

ويعالج الحق بعد ذلك قضية التواصل مع المرأة أثناء فترة الحيض فيأتي التشريع ليحسم هذه المسألة لأن الإسلام جاء وفي الجو الاجتماعي تياران :

تيار يرى أن الحائض هي امرأة تعاني من قذارة ، لذلك لا يمكن للزوج أن يأكل معها أو يسكن معها أو يعاشرها أو يعيش معها في بيت واحد وكذلك أبناؤه . وتيار آخر يرى المرأة في فترة الحيض امرأة عادية لا فرق بينها وبين كونها غير حائض أي تباشر حياتها الزوجية مع زوجها دون تحوط أو تحفظ . كان الحال ـ إذن ـ متأرجحاً بين الإفراط والتفريط ، فجاء الإسلام ليضع حداً لهذه المسألة فيقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾

حين تقرأ « هو أذى » فقد أخذت الحكم ممن يُؤمَنُ على الأحكام ، ولا تناقش المسألة ، ومهما قال الطب من تفسيرات وتعليلات وأسباب نقل له : لا ، الذي خلق قال : « هو أذى » . والمحيض يطلق على الدم ، ويراد به ـ أيضاً ـ مكان الحيض ، ويراد به زمان الحيض .

وقوله الحق عن المحيض إنه أذى يهيئ الذهن لأن يتلقى حكماً في هذا الأذى ، وبذلك يستعد الذهن للحظر الذى سيأتي به الحكم . وقد جاء الحكم بالحظر والمنع بعد أن سبقت حيثيته .

إن الحق سبحانه وتعالى وهو الخالق أراد أن تكون عملية الحيض في المرأة عملية كيماوية ضرورية لحياتها وحياة الإنجاب وأمر الرجال أن يعتزلوا النساء وهن حوائض ؛ لأن المحيض أذى لهم . لكن هل دم الحيض أذى للرجال أو للنساء ؟ إنه أذى للرجال والنساء معاً ؛ لأن الآية أطلقت الأذى ، ولم تحدد من المقصود به والذى يدل على ذلك أن الحيض يعطى قذارة للرجل في مكان حساس هو موضع الإنزال عنده ، فإذا وصلت إليه الميكروبات تصيبه بأمراض خطيرة

والذى يحدث أن الحق قد خلق رحم المرأة وفي مبيضيها عدد محدد معروف له وحده سبحانه وتعالى من البويضات ، وعندما يفرز أحد المبيضين البويضة فقد لا يتم تلقيح البويضة ، فإن بطانة الرحم المكون من أنسجة دموية تقل فيها نسبة الهرمونات التى كانت تثبت بطانة الرحم ، وعندما تقل نسبة الهرمونات يحدث الحيض

والحيض هو دم يحتوى على أنسجة غير حية ، وتصبح منطقة المهبل والرحم في حالة تهيج ، لأن منطقة المهبل والرحم حساسة جداً لنمو الميكروبات المسببة للالتهابات سواء للمرأة ، أو للرجل إن جامع زوجته في فترة الحيض . والحيض يصيب المرأة بأذى في نفسها وجسدها ؛ بدليل أن الله رخص لها ألا تصوم وألا تصلى إذن فالمسألة منهكة ومتعبة لها ، فلا يجوز أن يرهقها الرجل بأكثر مما هي عليه

إذن فقوله تعالى : « هو أذى » تعميم بأن الأذى يصيب الرجل والمرأة وبعد ذلك بيّن الحق أن كلمة « أذى » حيثية تتطلب حكماً يرد ، إما بالإباحة وإما بالحظر ، ومادام هو أذى فلابد أن يكون حظراً .

يقول عز وجل : « فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن » والذى يقول إنّ المحيض هو مكان الحيض يبني قوله بأن المحرم هو المباشرة الجنسية ، لكن من فوق

السرة وما فوق الملابس فهو مباح ، فقوله الحق : « ولا تقربوهن » أي لا تأتوهن في المكان الذي يأتي منه الأذى وهو دم الحيض « حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله »، و« يطهرن » من الطّهور مصدر طَهُر يطهر ، وعندما نتأمل قوله : « فإذا تطهرن » نجد أنه لم يقل : « فإذا طهرن » ، فما الفرق بين « طهر » و« تطهر » ؟

إنّ « يطهرن » معناها امتنع عنهن الحيض ، و« تطهرن » يعني اغتسلن من الحيض ، ولذلك نشأ خلاف بين العلماء ، هل بمجرد انتهاء مدة الحيض وانقطاع الدم يمكن أن يباشر الرجل زوجته ، أم لا بد من الانتظار حتى تتطهر المرأة بالاغتسال ؟.

وخروجا من الخلاف نقول : إن قوله الحق : « تطهرن » يعني اغتسلن فلا مباشرة قبل الاغتسال . ومن عجائب ألفاظ القرآن أن الكلمات تؤثر في استنباط الحكم ، ومثال ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ ﴾

(سورة الواقعة)

ما المقصود إذن ؟ هل المقصود أن القرآن لا يمسكه إلا الملائكة الذين طهرهم الله من الخبث ، أو أن للبشر أيضا حق الإمساك بالمصحف لأنهم يتطهرون ؟ بعض العلماء قال : إن المسألة لابد أن ندخلها في عموم الطهارة ، فيكون معنى « إلا المطهرون » أي الذين طهرهم من شرع لهم التطهير ، ولذلك فالمسلم حين يغتسل أو يتوضأ يكون قد حدث له أمران : التطهر والطهر .

فالتطهر بالفعل هو الوضوء أو الاغتسال ، والطهر بتشريع الله ، فكما أن الله طهر الملائكة أصلا فقد طهرنا معشر الإنس تشريعا ، وبذلك نفهم الآية على إطلاقها ونرفع الخلاف . وقول الحق في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : « حتى يَطْهُرن » أي حتى يأذن الله لهن بالطهر ، ثم يغتسلن استجابة لتشريع الله لهن بالتطهر . « فأتوهن من حيث أمركم الله » يعني في الأماكن الحلال

«إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين» وأراد الحق تبارك وتعالى أن يدخل عليك أنسا، فكما أنه طلب منك أن تتطهر ماديا فهو سبحانه قبل أيضاً منك أن تتطهر معنويا بالتوبة، لذلك جاء بالأمر حسيا ومعنويا. وبعد ذلك جاء الحق سبحانه وتعالى بحكم جديد، هذا الحكم يمس إشكالا أثاره اليهود.

وقد كان اليهود يثيرون أن الرجل إذا أتى امرأته من خلف ولو في قُبلها - بصمام واحد - جاء الولد أحول. و«القبل» هو مكان الإتيان، وليس معناه الإتيان في الدبر والعياذ بالله كما كان يفعل قوم لوط. ولمّا كان هذا الإشكال الذي أثاره اليهود لا أساس له من الصحة فقد أراد الحق أن يرد على هذه المسألة فقال:

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾

إن الحق سبحانه وتعالى يفسح المجال للتمتع للرجل والمرأة على أي وجه من الأوجه شريطة أن يتم الإتيان في محل الإنبات. وقد جاء الحق بكلمة «حرث» هنا ليوضح أن الحرث يكون في مكان الإنبات «فأتوا حرثكم» وما هو الحرث؟ الحرث مكان استنبات النبات، وقد قال تعالى:

﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾

(من الآية ٢٠٥ سورة البقرة)

فأتوا المرأة في مكان الزرع، زرع الولد، أما المكان الذي لا ينبت منه الولد فلا تقربوه. وبعض الناس فهموا خطأ أن قوله: «فأتوا حرثكم أنّى شئتم» معناها إتيان المرأة في أي مكان، وذلك خطأ؛ لأن قوله: «نساؤكم حرث لكم» يعني على

استنبات الزرع ، والزرع بالنسبة للمرأة والرجل هو الولد ، فأتوها في المكان الذي ينجب الولد على أي جهة شئت .

ويتابع الحق : « وقدموا لأنفسكم » أي إياك أن تأخذ المسألة على أنها استمتاع جنسي فحسب ، إنما يريد الحق سبحانه وتعالى بهذه اللذة الجنسية أن يحمي متاعب ما ينشأ من هذه اللذة ؛ لأن الذرية التي ستأتي من أثر اللقاء الجنسي سيكون لها متاعب وتكاليف ، فلو لم يربطها الله سبحانه وتعالى بهذه اللذة لزهد الناس في الجماع

ومن هنا يربط الحق سبحانه وتعالى بين كدح الآباء وشقائهم في تربية أولادهم بلذة الشهوة الجنسية حتى يضمن بقاء النوع الإنساني . ومع هذا يحذرنا الحق أن نعتبر هذه اللذة الجنسية هي الأصل في إتيان النساء فقال : « وقدموا لأنفسكم » ، يعني نظروا جيداً إلى هذه المسألة على ألا تكون هي الغاية ، بل هي وسيلة ، فلا تقلبوا الوسيلة إلى الغاية ، « وقدموا لأنفسكم » أي ادخروا لأنفسكم شيئاً ينفعكم في الأيام المقبلة .

إذن ، فالأصل في العملية الجنسية الإنجاب . « وقدموا لأنفسكم » أي لا تأخذوا المتاع اللحظي المعجل على أنه هو الغاية بل خذوه لما هو آت . وكيف نقدم لأنفسنا ؟ أو ماذا نعمل ؟ حتى لا نشقى بمَنْ يأتي ، وعليك أن تسبق هذه العملية فتقدم لنفسك شيئاً يريحك ، والعمل ما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ساعة تأتي لهذه المتعة وتقترب من زوجتك لابد أن تسمي الله وتقول : « اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني » ، وعندما يأتي المسلم أهله وينشأ وليد، فلن يكون للشيطان عليه دخل . وقال بعض العلماء : لا يمكن أن يؤثر فيه سحر ، فلماذا كل ذلك ؟

لأنك ساعة استنبته أي زرعته ، ذكرت المُنبِتَ وهو الله عز وجل . وما دمت ذكرت المنبت الخالق فقد جعلت لابنك حصانة أبدية . وعلى عكس ذلك ينشأ الطفل الذي ينسى والده الله عندما يباشر أهله فيقع أولاده فريسة لشياطين

« وقدموا لأنفسكم » أي قدموا لها ما يريحكم وما يطيل أمد حياتكم وأعمالكم في

الحياة ، لأنك عندما تقبل على المسألة بنية إنجاب الولد ، وتذكر الله وتستعيذ من الشيطان فيمن عليك الخالق بالولد الصالح ، هذا الولد يدعو لك ، ويعلم أولاده أن يدعوا لك ، وأولاد أولاده يدعون لك ، وتظل المسألة مسلسلة فلا ينقطع عملك إلى أن تقوم الساعة ، وهنا تكون قدمت لنفسك أفضل ما يكون التقديم

وهب أنك رُزقت المولود ثم مات فجعت به واسترجعت واحتسبته عند ربك ، إنك تكون قد قدمته ، ليغلق عليك بابا من أبواب النيران . إذن فكل أمر لابد أن تذكر فيه « وقدموا لأنفسكم »

ويقول الحق : « واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين » معنى « اتقوا الله » أي إياكم أن تغضبوا ربكم في أي عمل من هذه الأعمال ، ولكن أيها المسلم في هذه التقوى على يقين من أنك ملاقى الله . ولا تشك في هذا اللقاء أبداً . ومادمت ستتقى الله وتكون على يقين أنك تلاقيه لم يبق لك إلا أن تُبشَّر بالجنة . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ ﴾

وفي الآية ثلاثة أشياء : أولا : أن تبروا ، أي أن تعملوا البر . والبر قد يكرهه الإنسان لأنه شاق على النفس . ثانيا : أن تتقوا ، أي أن تتجنبوا المعاصي ، والتقوى تكون أيضا شاقة في بعض الأحيان . ثالثا : أن تصلحوا بين الناس ، أي أن تصلحوا ذات البيْن ، وقد يكون في الإصلاح بين الناس مئونة وذلك بعد أن قلتم : أن تجعلوا الله عرضة للقسم .

وحين يقول الحق : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم » فالعرضة هي الحجاب ،

وهي ما يعترض بين شيئين ، « وعرضة » هي - أيضاً - الأمر الصالح لكل شيء ، فيقال : « فلان عرضة لكل المهمات » أي صالح. والعرضة - كما عرفنا - هي ما اعترض بين شيئين ، كأن يضع الإنسان يده على عينيه فلا يرى الضوء ، هنا تكون اليد « عُرضة » بين عيني الإنسان والشمس إن الإنسان يحجب بذلك عن نفسه الضوء .

كأن الحق يقول : « إنى لا أريد أن تجعلوا اليمين عرضة بين الإنسان وفعل الخير والبر والتقوى » فعندما يطلب منك واحد أن تبر من أساء إليك فقد تقول : « أنا أقسمت ألا أبر هذا الإنسان » إنك بذلك جعلت اليمين بالله مانعاً بينك وبين البر

ويريد الحق بذلك القول أن ينبهنا إلى أن القسم به لا يجوز في منع البر أو صلة الرحم أو إصلاح بين الناس ومن حلف على شيء فرأى غيره خيرا منه فليفعل الخير وليكفر عن يمينه.فلماذا ؟ لأن المؤمن عندما يحلف على ألا يفعل خيراً فهو يضع الله مانعاً بينه وبين الخير ، وبذلك يكون قد ناقض المؤمن نفسه بأن جعل المانع هو الحلف بالله إن الله هو صاحب الأمر بالبر والتقوى والإصلاح بين الناس . لذلك فالحق يقول « ولاتجعلوا الله عُرضة لأيمانكم » أى أن الحق يريد أن يحمى عمليات البر والتقوى والإصلاح بين الناس .

إنك إن حلفت أيها المؤمن ألا تفعل هذه العمليات،فالحق يريد لك أن تحنث في هذا القسم وأن تفعل البر والتقوى والإصلاح بين الناس حتى لا تتناقض مع تشريع الله . ونحن عندما نجد المجتمع وقد صنع فيه كل فرد البر ، واتقى فيه كل إنسان المعاصي ، ورأى فيه كل إنسان نزاعاً بين جماعتين فأصلح هذا النزاع ، أليس هذا دخولا في السلم كافة إذن فالحق يريد أن يستبقى للناس ينابيع الخير وألا يسدوها أمام أنفسهم .

إن الحق هو الآمر بألا يجعل المؤمن اليمين مانعاً بين الإنسان والبر ، أو بين الإنسان والتقوى ، أو بين الإنسان والإصلاح بين الناس ويتساهل الإسلام في

مسألة التراجع والحنث في البر فيقول السلف الصالح « لا حنث خير من البر » إذن فالمجتمع الذي فيه صنع البر ، وتقوى المعاصي ، والصلح بين المتخاصمين يدخل في إطار :

﴿ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾

(من الآية ٢٠٨ سورة البقرة)

والإنسان قد يتعلل بأي سبب حتى يبتعد عن البر أو التقوى أو الإصلاح بين الناس ، بل يعمل شيئاً يريحه ويخلع عليه أنه ممتثل لأمر الله ، ولنضرب لذلك مثلاً سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد أن جاء مسطح بن أثاثة واشترك مع من خاضوا في الإفك الذي اتهموا فيه أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها

وخلاصة الأمر أن عائشة رضي الله عنها زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانت قد خرجت مع الرسول الكريم في غزوة « بني المصطلق » وكان الأمر بالحجاب قد نزل ، لذلك خرجت عائشة رضي الله عنها في هودج .

وقام الرسول بغزوته وحان وقت العودة ، وفقدت عائشة عقداً لها ، وكانت رضي الله عنها خفيفة الوزن ؛ لأن الطعام في تلك الأيام كان قليلاً . راحت عائشة رضي الله عنها تبحث عن عقدها المفقود ، وعندما حملوا هودج عائشة رضي الله عنها لم يفطنوا أن عائشة ليست به ، ووجدت عائشة عقدها المفقود ، وكان جيش رسول الله قد ابتعد عنها . وظنت أنهم سيفتقدونها فيرجعون إليها . وكان خلف الجيش صفوان ابن المعطل السلمي وعرفته عائشة وأناخ راحلته وعادت عائشة إلى المدينة . ودار حديث الإفك بوساطة عبدالله بن أُبيّ بن سلول رأس النفاق

وكان الغم والحزن يصيبان السيدة عائشة طوال مدة كبيرة وأوضح الحق كذب هذا الحديث ، وذاع ما ذاع عن أم المؤمنين عائشة وهي زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تكون بنت أبي بكر ، وأبو بكر صديق رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولو أن غير عائشة حدث لها ما حدث لعائشة لكان موقف أبي بكر هو موقفه عندما جاء قريبه مسطح بن أثاثة واشترك في حديث الإفك مع من اشتركوا ثم يبرىء الله عائشة وينزل القول الذي يثبت براءة أم المؤمنين في حديث الإفك ، وحين يبرئها الله يأتي أبو بكر وكان ينفق على مسطح فيقطع عنه النفقة ويقول : « والله لا أنفق عليه أبداً » لماذا ؟ لأنه اشترك في حديث الإفك . والمسألة في ظاهرها ورع . لذلك سيمتنع عن النفقة على مسطح بن أثاثة لأن مسطحاً خاض في الإفك . لكن انظر إلى مقاييس الكمال والجمال والفضائل عند الله فقد أوضح الحق أن هذا طريق ، وذاك طريق آخر ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة النور)

فإذا كنت تحب أن يغفر الله لك ، أفلا تغفر لمن فعل معك سيئة ؟ ومادمت تريد أن يغفر الله لك فاغفر للناس خطاياهم . قالها الحق عز وجل لأبي بكر ، لأنه وقف موقفاً من رجل خاض في الإفك مع من خاض ومع ذلك يعلمه أن ذلك لا يصح .

قوله تعالى : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا » لا تقل إن حلفت بالله على ألا أفعل ذلك الخير فلا . افعله فالله يرضى لك أن تحنث وتكفر عن يمينك .

« ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم » . إن الله عز وجل يبلغنا : أنا لا أريد أن تجعلوا الحلف بي عُرضة ، يعني حاجزاً أو مانعاً عن فعل الخير . مثلاً لو طلب منك أن تبر شخصاً أساء إليك فلا تقل . حلفت ألا أبرّ به لأنه لا يستحق ، عندها تكون قد جعلت اليمين بالله مانعاً للبر . وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقول لك : لا ، أنا متجاوز عن اليمين بي ؛ إن حلفت ألا تبر أو لا تتقي أو لا تصل رحماً أو لا تصلح بين اثنين ، أنا تسامحت في اليمين .

والحديث يقول : (من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه)[1] وهكذا يحمى الله سبحانه وتعالى فعل البر ويحمى التقوى ويحمى عمليات الإصلاح بين الناس ، ولو كنت قد حلفت بالله ألا تفعلها،لماذا ؟ لأنك عندما تحلف بالله ألا تفعل ، وتجعل الله سبحانه وتعالى هو المانع ، فقد ناقضت التشريع نفسه ، لأن الله هو الآمر بالبر والإصلاح والتقوى ، فلا تجعل يمين البشر مانعة من تنفيذ منهج رب البشر

« ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس » إن حلفت على ترك واجب وجب أن ترجع في اليمين ، احنث فيه وكفر عنه ، والحكم نفسه يسرى على الذي يمنع ممتلكاته كالدابة أو الماكينة أو السيارة من انتفاع الناس بها بحجة أنه حلف ألا يعيرها لأحد ، وذلك أمر يحدث كثيراً في الأرياف

ويختم الحق سبحانه وتعالى الآية بالقول الكريم : « والله سميع عليم » إنه سبحانه سميع باليمين الذى حلفته ، وعليم بنيتك إن كانت خيراً أو شراً فلا تتخذ اليمين حجة لأن تمنع البر والتقوى والإصلاح . والحق سبحانه وتعالى عندما يتكلم عن اليمين يعطينا أصلاً من أصول اعتبار اليمين هل هو يمين حقا أو لغو ، ومن رحمة الله أنه سبحانه وتعالى لم يأخذ إلا باليمين الذى عقد القلب عليه ، أى الذى يقصد صاحبه ألا يحنث فيه ، أما لغو اليمين فقد تجاوز الله عنه .

مثلاً ، الأيمان المدارجة على ألسنة الناس كقولهم : « والله لو لم تفعل كذا لفعلت معك كذا » ، « والله سأزورك » ، « والله ما كان قصدى » أو الحلف بناء على الظن ، كأن تحلف بقولك : « والله حدث هذا » وأنت غير متأكد من تمام حدوثه ، لكن ليس في مقصدك الكذب

أما اليمين الغموس فهي الحلف والقسم الذى تعرف كذبه وتحلف بعكس ما تعرف ، كأن تكون قد شاهدت واحداً يسرق أو يقتل وتحلف بالله أنه لم يسرق أو لم يقتل . من أجل ذلك كله يحسم الله سبحانه وتعالى هذه القضية بقوله

---

(١) هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم والترمذي والإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾

وكان من المناسب أن تأتي هذه الآية بعد كل ما سبق لأنه سبحانه أوضح لنا اليمين التي لا تقع وكأنه قال لنا : ارجعوا فيها واحنثوا وسأقبل رجوعكم في مقابل أن تبروا وتتقوا وتصلحوا . فإذا كان قد قبل تراجعنا عن هذا اليمين فلأن له مقابلا في عمل الخير . وقوله الحق : « بما كسبت قلوبكم » هو المعنى نفسه بقوله تعالى :

﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة المائدة)

أي الشيء المعقود في النفس والذي رسخ داخل نفسك . لكن الشيء الذي يمر على اللسان فلا يؤاخذك الله به « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم » والأيمان جمع يمين ، واليمين : هو الحلف أو القسم ، وسمي يمينا ؛ لأنهم كانوا قديماً إذا تحالفوا ضرب كل امرىء منهم يمينه على يمين صاحبه ، وذلك لأن اليمين هي الجارحة الفاعلة

وبالمناسبة ، فالجارحة الفاعلة إياك أن تظن أنها تعمل بالرياضة والتدريب ، وإنما هي تعمل بالخلق أي كما خلقها الله ، فهي مجبرة على الفعل حسب خلقتها .

ولذلك عندما تجد إنسانا ويده اليمنى لا تعمل ويزاول أعماله بيده اليسرى فلا تحاول أن تجعله يستخدم اليمنى بدلا من اليسرى ؛ لأن محاولتك عبث لن يجدي ؛ لأن السبب في أنه يستخدم اليسرى بدلا من اليمنى سبب خلقي ، فالجهاز الخاص بالتحكم في الحركة في المخ هو الذي يقرر هذا الأمر : إن كان مخلوقا في النصف الأيمن من المخ كانت اليد اليمنى هي الفاعلة ، وإن كان مخلوقا في النصف

الأيسر من المخ فاليد اليسرى هي التي تعمل .

لذلك نجد الذي يكتب بيده اليسرى يتقن الكتابة بها أفضل من الذي يكتب باليمنى في بعض الأحيان ، ومن هنا نقول : إنه من الخطأ أن نحاول تغيير سلوك الذي يعمل بيده اليسرى بدلاً من اليمنى ؛ لأن ذلك عبث لن يصل لنتيجة .

وأحياناً نجد الجهاز المتحكم في حركة اليدين موجوداً في منتصف ووسط المخ، فيرسل حركات متوازنة لليد اليمنى واليد اليسرى معاً ، ولذلك نجد شخصاً يكتب بيديه اليمنى واليسرى معاً بالسرعة نفسها وبالإتقان نفسه ، ويؤدي بهما الأعمال بتلقائية عادية ، ولله في خلقه شئون ، فهو يعطينا الدليل على أنه لا تحكمه قواعد ، فهو قادر على أن يجعل اليد اليمنى تعمل ، وقادر على أن يجعل اليد اليسرى تعمل، أو يجعلهما يعملان معاً بالقوة نفسها ، أو يجعل كلتا اليدين غير قابلتين للعمل . إنها ليست عملية آلية خارجة عن إرادة الله ، بل كل شيء خاضع لإرادته سبحانه .

« لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم » المقصود به الحلف ، والحلف من معانيه التقوية ، وهي مأخوذة من الحِلْف ، وهو أن يتحالف الناس على عمل ما . ونحن عندما نتحالف على عمل فنحن نقسّم العمل بيننا ، وعندما نفعل ذلك يسهل علينا جميعاً أن نعمله .

« لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم » والكسب عملية إرادية ؛ لأنك ساعة تقسم بالله دون أن تقصد فهو لا يؤاخذك ، وهذا دليل على أن الله واسع حليم . ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ ﴾

يؤلون . أى يحلفون ألا يقربوا أزواجهن فى العملية المخصوصة ، ويريد الرجل أحيانا أن يؤدب زوجته فيهجرها فى الفراش بلا يمين ، وبدون أن يحلف . وبعض الناس لا يستطيعون أن يمنعوا عن نسائهم من تلقاء أنفسهم ، فيحلفون ألا يقربوهن حتى يكون اليمين مانعا ومشجعا له على ذلك . وكان هذا الأمر مألوفا عند العرب قبل الإسلام .

كان الرجل يمتنع عن معاشرة زوجته فى الفراش أى فترة من الزمن يريدها ، وبعضهم كان يحلف ألا يقرب زوجته زمنا محدداً ، وقبل أن ينتهى هذا الزمن يحلف يمينا آخر ليزيد المدة فترة أخرى ، وهكذا حتى أصبحت المسألة عملية إذلال للمرأة ، وإعضالا لها ، وامتناعا عن أداء حقها فى المعاشرة الزوجية . وكان ذلك إهدارًا لحق الزوجة فى الاستمتاع بزوجها .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن ينهى هذه المسألة ، وهو سبحانه لا ينهيها لحساب طرف عن طرف ، وإنما بعدل الخالق الحكيم الرحيم بعباده . وكان من الممكن أن يحرمها ويحرمها نهائيا ويمنع الناس منها . لكنه سبحانه عليم بخفايا وطبيعة النفوس البشرية ، فقد ترى امرأة أن تستغل إقبال الرجل عليها ، إما لجمال فيها أو لتوقد شهوة الرجل ، فتحاول أن تستذله ، لذلك أعطى الله للرجل الحق فى أن يمتنع عن زوجته أربعة أشهر ، أمّا أكثر من ذلك فالمرأة لا تطيق أن يمتنع زوجها عنها .

« للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم » والإسلام يريد أن يبنى الحياة الزوجية على أساس واقعى لا على أفكار مجنحة ومجنحة لا تثبت أمام الواقع ، فهو يعترف بالميول فيعليها ولكن لا يهدمها ، ويعترف بالغرائز فلا يكتمها ولكن يضبطها .

وهناك فرق بين الضبط والكبت ، فإن الكبت يترك الفرصة للداء ليستشرى خفيا حتى يتفجر فى نوازع النفس الإنسانية تفجرا على غير ميعاد وبدون احتياط . لكن الانضباط يعترف بالغريزة ويعترف بالميول ، ويحاول فقط أن يهذبها ولا يهدمها . ويخضع البشر فى كل أعمالهم لهذه النظرية حتى فى صناعاتهم ، فالذين يصنعون

المراجل البخارية مثلا يجعلون في تلك المراجل التي يمكن أن يضغط فيها البخار ضغطا فيفجرها يجعلون لها متنفسا حتى يمكن أن يخفف الضغط الزائد إن وُجد ، وقد يصممون داخلها نظاما آليا لا يتدخل فيه العقل بل تحكم الآلة نفسها.

والحق سبحانه وتعالى وضع نظاما واضحا في حقه الذين خلقهم ، وشرع لهم تكوين الأسرة على أسس سليمة. ومن الإسلام هذا النظام أولا على سلامة العقيدة وصلاحتها ووحدتها حتى لا تتوزع المؤثرات في مكونات الأسرة ، لذلك منع المسلم من أن يتزوج من مشركة ، وحرم على المسلمة أن تتزوج مشركا. وبعد ذلك علمنا معنى الالتقاء الغريزي بين الزوجين . ولقد أراد الحق سبحانه وتعالى ألا يطلق العنان للغريزة في كل زمان التواجد الزوجي ، فجعل المحيض فترة يحرم فيها الجماع وقال:

﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾

(من الآية ٢٢٢ سورة البقرة)

وهكذا يضبط الحق العلاقة الجنسية بين الزوجين ضبطا صحيا نظيفا.

الحق سبحانه وتعالى يعلم أن النفس البشرية ذات أغيار ، لأن الإنسان حادث له بداية ونهاية ، وكل ما يكون حادثا لابد أن يطرأ عليه تغيير. فإذا ما التقى الرجل بالمرأة ، كان لابد من أن يتحدد هذا اللقاء على ضوء من منهج الله ؛ لأن اللقاء إن تم على منهج البشر وعواطفهم كان المصير إلى الفشل ؛ لأن مناهج البشر متغيرة وموقوتة ، ولذلك يجب أن يكون لقاء الرجل بالمرأة على ضوء معايير الله.

فالله يعلم أن للنفس نوازع ومتغيرات ، ومن الجائز جدا أن يحدث خلاف بين الزوجين ، فيجعل الله سبحانه وتعالى متنفسا يتنفس فيه الزوج للتأديب الذي ينشد التهذيب والإبقاء . فشرع للرجل إن رأى في امرأته إدلالا له بجمالها وبحسنها ، وقد يكون رجل له مزاج خاص ورغبة جامحة في هذه العملية ؛ لذلك شرع الله له فترة من الفترات أن يحلف ألا يقرب امرأته ، ولم يجعل الله تلك الفترة مطلقة ، إنما قيدها بالحلف حتى يكون الأمر مضبوطا.

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر.

فالحق يريد الملاح لا القسوة . فلو لم يكن الرجل مضبوطا بيمين فقد يُغير رأيه بأن يأتي زوجته ، ولذلك قال الحق : « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر » أي إنّ لك أيها الزوج أن تحلف ألا تقرب زوجتك أربعة أشهر لكن إن زادت المدة على أربعة أشهر فهي لن تكون تأديبا بل إضرارا . والخالق عز وجل يريد أن يؤدب لا أن يضر . فإذا ما تجاوزت المدة يكون الزوج متعديا ولا حق له

إن الحق سبحانه وتعالى هو خالق الميول والعواطف والغرائز ويقنن لها التقنين السليم . إنه عز وجل يترك لنا ما يدلنا على ذلك ، ففي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يمر عمر في جوف الليل فيسمع امرأة تقول الأبيات المشهورة .

تطاول هذا الليل واسود جانبه
وأرقني إلا خليل ألاعبه
فوالله لولا الله تخشى عواقبه
لزلزل من هذا السرير جوانبه

معنى ذلك أن امرأة تعاني من الوحشة إلى الرجل ، وتوشك المعاناة أن تدفعها إلى سلوك غير قويم ، لكن تقوى الله هي التي تمنعها من الانحراف . ومن الجائز أن نتساءل كيف سمع عمر هذه المرأة وهو يسير في الشارع ، وأقول : إن المرأة التي تالى عندها هذه الأحاسيس تترنم في سكون الليل ، وعندما يسكن الليل لا تكون فيه ضجة فيسهل سماع ما يقال داخل البيوت ، ألم يسمع عمر كلام المرأة التي تجادل ابنتها في غش اللبن ؟

ولما سمع الفاروق كلام هذه المرأة التي تعاني من وحشة إلى الرجل ، ذهب بفطرته السليمة وبلمعيّته المشرقة إلى ابنته حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وقال لها : كم تصبر المرأة على بعد الرجل ؟ فقالت : من ستة شهور إلى أربعة أشهر

فسن عمر سنة أصبحت دستورا فيما بعد ، وهي ألا يبعد جندي من جنود المسلمين عن أهله أربعة أشهر . إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر » سبق حادثة عمر ، ثم ترك الحق لواقع الحياة أن يبين لنا

صدق ما قصه لنا ، ويأتي عمر ليستنبط الحكم من واقع الحياة .

« فإن فاءوا » أي فإن رجع الرجل ، وأراد أن يقترب من زوجته قبل مضي الأربعة أشهر ؛ فللرجل أن يكفر عن يمينه وتنتهي المسألة . ولكن إذا مرت الشهور الأربعة وتجاوزت المقاطعة مدتها يؤمر الزوج بالرجوع عن اليمين أو بالطلاق ، فإن امتنع الزوج طلقها الحاكم ، وقال بعض الفقهاء : إن مضي مدة الأربعة أشهر دون أن يرجع ويفيء يجعلها مطلقة طلقة واحدة بائنة . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

واختلف العلماء : هل تطلق الزوجة طلقة بائنة أو طلقة رجعية ؟ ومعنى « طلاق رجعي » مأخوذ من اللفظ نفسه ، أي أن الزوج له الحق أن يراجع امرأته دون إذن منها أو رضا . أما الطلاق البائن فإنه لا يعيده إلا إذا عقد عليها عقداً جديداً بمهر جديد .

والطلقة في الإيلاء بينونة صغرى وهي التي تحتاج إلى عقد ومهر جديدين ، هذا إذا لم يسبق طلاقان . والبينونة الكبرى وهي التي توصف بأنها ذات الثلاث ، فالزوجة فيها تطلق ثلاث مرات ، فلا يصح أن يعيدها الزوج إلا إذا تزوجت زوجاً غيره ، وعاشت معه حياة زوجية كاملة ، ثم طلقها لأي سبب من الأسباب ، وبعد ذلك يحق لزوجها القديم أن يراجعها ويعيدها إليه بعقد ومهر جديدين ، لكن بعد أن يكتوي بغيرة زواجها من رجل آخر . والحق سبحانه وتعالى يعرض هذه المسألة فيقول :

﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فالإسلام دين واقعي يعطي الزوج المسلم أشياء تنفس عن غضبه ، وأشياء تمكنه من أن يؤدب زوجته ، ولكن الإسلام لا يحب أن يتمادى الرجل في التأديب وإذا تمادى وتجاوز الأربعة الأشهر نقول له : لابد أن يوجد حد فاصل

وبعد ذلك ينتقل الحق سبحانه وتعالى في التكليف إلى أن يتكلم عن الطلاق وقد تكلم من قبل عن الزواج والإيلاء حتى وصل الطلاق

وعندما نتأمل موقف الإسلام من الطلاق نجده يتكلم كلاما واقعيا يناسب الميول الإنسانية ، لأننا مادمنا أخيارا فمن الممكن أن يطرأ على حياة الزوجين أحداث أو مشاعر لم تكن في الحسبان ساعة الزواج ويجوز أن يكون الإنسان في ساعة الزواج مدفوعا بحرارة ملكة واحدة ، وبعد ذلك عندما يجيء واقع الحياة تتمسكه ملكات متعددة ، وقد تسيطر عليه المسألة الجنسية ، وتدفعه للزواج ، وفي سبيل إرضاء شهوته الجنسية قد يهمل بقية ملكات نفسه ، فإذا ما دخل واقع الزواج وهدأت شرة وحرارة غرائز الإنسان تنتبه نفس الإنسان إلى مقاييس أخرى يريد أن يراها في زوجته فلا يجدها ويتساءل ما الذي أخفاها عنه ؟

أخفاها سعار وعرامة النظرة الحسية ، فقد نظر للمرأة قبل الزواج من زاوية واحدة ، ولم ينظر لباقي الجوانب . مثلا قد يجد الزوج أن أخلاق الزوجة تتنافر مع أخلاقه ، وقد يجد تفكيرها وثقافتها تتنافر مع تفكيره وثقافته ، وربما وجد عدم التوافق العاطفي بينه وبينها ولم يحدث تآلف نفسي بينهما ، والعواطف ـ كما نعلم ـ ليس لها قوانين .

ومن الجائز أن يكون الرجل غير قادر على الاكتفاء بوليمة جنسية واحدة ، فهو لذلك لا يبني حياته على طهر ، وإنما يريد من امرأته أن تكون طاهرة عفيفة في حياتها معه ، بينما يعطي لنفسه الحرية في أن يعدد ولائمه الجنسية مع أكثر من امرأة ، وربما يحدث العكس ، وذلك أن يجد الرجل أنّ امرأة واحدة تكفيه ، لكن المرأة تريد أكثر من رجل .

وقد يكون الرجل طاهر الأسلوب في الحياة ، وتكون زوجته راغبة في أن يأتيها بالمال

من أي طريق ، فيختلفان . وقد تكون المرأة طاهرة الأسلوب في الحياة فلا ترضى أن يتكسب زوجها من مال حرام

من هنا يأتي الشقاق ، إن الشقاق يأتي عندما يريد أحد الزوجين أن تكون حياتهما نظيفة طاهرة ، مستقيمة ، ولا يرى الآخر ذلك . مثل هذه الصورة موجودة في الواقع حولنا ، فكم من بيوت تشقى عندما تشقى عندما تختفي الوحدة الأسرية ، وتختلف نظرة أحد الزوجين للأمور عن آخر .

وهذا هو سبب الشقاق الذي يحدث بين الزوجين عندما لا يكتفي أحد الزوجين بصاحبه ولو اتفق رجل وامرأته على العفاف ، والطهر ، والخيرية لاستقامت أمور حياتهما . ولذلك يأتي الإسلام بتشريعاته السامية لتناسب كل ظروف الحياة فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾

الآية كلها تتضمن أحكاماً تكسمه ، والحكم التكليفي الأول هو « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » ولنا أن نلحظ أن الحكم لم يرد بصيغة الأمر ولكن جاء في صيغة الخبر ، فقال : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » ، وحين يريد الحق سبحانه وتعالى حكماً لازماً لا يأتي له بصيغة الأمر الإنشائي ، ولكن يأتي به

بصيغة الخبر ، هذا آكد وأوثق للأمر كيف ؟

معنى ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حين يأمر فالأمر يصادف من المؤمنين به امتثالاً ، ويتحقق الامتثال في كل الجزئيات حتى لا تشذ عنه حالة من الحالات فصار واقعا يُحكى وليس تكليفا يُطلب ، ومادام قد أصبح الأمر واقعا يُحكى فكأن المسألة أصبحت تاريخا يُروى هو « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » ويجوز أن نأخذ الآية على معنى آخر هو أن الله قد قال « والمطلقات يتربصن بأنفسهن » فيكون كلاما خبريا.

وقلنا إن الكلام الخبري يحتمل الصدق والكذب ، إن الله قد قال ذلك فمن أراد أن يصدق كلام الله فلينفذ الحكم ، ومن أراد أن يبارز الله بالتكذيب ولا يصدقه فلا ينفذ الحكم ، ويرى في نفسه آية عدم التصديق وهي الخسران المبين ، أليس ذلك أكثر إلزاما من غيره ؟ ومثل ذلك قوله تعالى

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

(سورة النور)

إن هذا وإن كان كلاما خبريا لكنه تشريع إنشائي يحتمل أن تطيع وأن تعصى ، ولكن الله يطلب منا أن تكون القضية هكذا « الخبيثات للخبيثين » يعني أن ربكم يريد أن تكون « الخبيثات للخبيثين » وأن تكون « الطيبات للطيبين » وليس معنى ذلك أن الواقع لابد أن يكون كما جاء في الآية ، إنما الواقع يكون كذلك لو نفذنا كلام الله وسيختلف إذا عصينا الله وتمردنا على شرعه . والمعنى نفسه في قوله تعالى

﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

أي اجعلوا من يدخل البيت الحرام آمنا . ويحتمل أن يعصى أحد الله فلا يجعل البيت الحرام آمنا . إذن فقوله الحق : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » هو

حكم تكليفي يستحق العقاب لمن يؤمن بالله ، وقوله « يتربصن » أي ينتظرن ،
واللفظ هنا يناسب المقام تماما ، فالمتربصة هي المطلقة ، ومعنى مطلقة أي مرغوب
عنها ، وتتربص وتنتظر انتهاء عدتها حتى ترد اعتبارها بصلاحيتها للزواج من زوج
آخر . ولم يأت القول الكريم بقوله « يتربصن » وإنما قال « يتربصن بأنفسهن »
مع أن المتربصة هي نفسها المطلقة ؛ ذلك لأن النفس الواعية المكلفة والنفس الأمارة
بالسوء تكونان في صراع على الوقت وهو « ثلاثة قروء » . « وقروء » جمع « قرء » وهو
إما الحيضة وإما الطهر الذي بين الحيضتين . وقوله الحق سبحانه وتعالى « ثلاثة
قروء » ما المقصود به ؟

هل هو الحيضة أو الطهر ؟ إن المقصود به الطهر ؛ لأنه قال : « ثلاثة » بالتاء ،
ونحن نعرف أن التاء تأتي مع المذكر ، ولا تأتي مع المؤنث ، و« الحيضة » مؤنثة
و« الطهر » مذكر ، إذن ، « ثلاثة قروء » هي ثلاثة أطهار متواليات . والعلة هي
استبراء الرحم وإعطاء مهلة للزوجين في أن يراجعا نفسيهما ، فربما بعد الطهر الأول
أو الثاني يشتاق أحدهما للآخر ، فتعود المسائل ما كانت عليه ، لكن إذا مرت ثلاثة
أطهار فلا أمل ولا رجاء في الرجوع

ثم يقول الحق بعد ذلك « ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن »
وما معنى الخلق ؟ الخلق هو إيجاد شيء كان معدوما ، وهذا الشيء الذي كان معدوما
إما أن يكون حملا وإما أن يكون حيضا ، وللحمل عدة تحدث في قوله الحق

﴿ وَأُولَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾

(من الآية 4 سورة الطلاق)

أما المرأة الحائل وهي التي بدون حمل ، فعدتها أن تحيض وتطهر ثلاث مرات
وهناك حالة ثالثة هي

﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي
لَمْ يَحِضْنَ ﴾

(من الآية 4 من سورة الطلاق)

أى أن المرأة التى انقطعت عنها الدورة الشهرية فعدتها ثلاثة أشهر، الحكم نفسه للصغيرة التي لم تحض بعد، أي عدتها ثلاثة أشهر. إذن فنظام العدة له حالات:

• إن كانت غير حامل فعدتها ثلاثة قروء أي ثلاثة أطهار إن كانت ممن يحضن.

• إن كانت حاملا فعدتها أن تضع حملها.

• وإن لم تكن حاملا وقد بلغت سن اليأس ولم تعد تحيض، أو كانت صغيرة لم تصل لسن الحيض، هذه وتلك عدتها ثلاثة أشهر.

وقوله تعالى: «ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن» يدل على أن المرأة لها شهادتها لنفسها في الأمر الذى يخصها ولا يطلع عليه سواها. وهي التي تقرر المسألة بنفسها، فتقول: أنا حامل أولا، وعليها ألا تكتم ذلك، فقد يجوز أن تكون حاملا وبعد ذلك تكتم ما في بطنها حتى لا تنتظر طول مدة الحمل وتتزوج رجلاً آخر فينسب الولد لغير أبيه. فغالبا ما يستمر الحمل تسعة أشهر ولكن به استثناء فهناك حمل مدته سبعة شهور، وأحيانا ستة شهور. وقد تتزوج المرأة المطلقة بعد ثلاثة شهور وتدعى أنها حامل من الزواج الجديد وأن حملها لم يستمر سوى سبعة أشهر أو ستة أشهر.

ونحن نعرف قصة الحامل في ستة شهور، فقد جاءوا بامرأة لسيدنا عثمان رضي الله عنه لأنها ولدت لستة أشهر، فأراد أن يقيم عليها حد الزنى، فتدخل الإمام على ابن أبى طالب وقال: كيف تقيم عليها الحد لأنها ولدت لستة أشهر، ألم تقرأ قول الحق سبحانه وتعالى؟ قال عثمان: وماذا قال الحق في ذلك؟ فقرأ الإمام على قول الله:

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾

(من الآية ٢٣٣ سورة البقرة)

اى أنها ترضع الوليد مدة أربعة وعشرين شهرا، وفى آية أخرى قال الحق:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

فإذا أخذنا من الآية الأولى أربعة وعشرين شهرا وهي مدة الرضاع وطرحناها من الثلاثين شهرا التي تجمع بين الحمل والرضاع في الآية الثانية فهمنا أن الحمل قد يكون ستة أشهر . هنا قال سيدنا عثمان متعجبا : والله ما فطنت لهذا .

إذن فحمل الستة الشهور أمر ممكن ، ومن هنا نفهم الحكمة في قوله تعالى : « ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن » ، حتى لا تدعى امرأة أنها ليست حاملا وتتزوج رجلا آخر وتنسب إليه ولدا ليس من صلبه ويترتب على ذلك أكثر من إشكال ، منها ألا يرث الولد من الأب الأول ، وأن محارمه لم تعد محرمة عليه ، فأخته من أبيه لم تعد أخته ، وكذلك عمته وخالاته وتنقلب المواريث ، هذا من جانب الأب الأصلي .

أما من جانب الزوج الثاني فالطفل يكتسب حقوقا غير مشروعة له ، فيرث منه ، وتصبح محارم الرجل الثاني محارمه فيدخل عليهن بلا حق ويرى عوراتهن ، وتحدث تداخلات غير مشروعة .

إذن فقوله الحق : « ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن » هو قول يريد به الحق أن تقوم الحياة على طهر وعلى شرف وعلى عفاف ، ولا يعتدى أحد على حقوق الآخر . هذا بالنسبة للحمل ، فكيف يكون الحال بالنسبة للحيض ؟

أيضا لا يحل لها أن تكتم حيضها لتطيل زمن العدة مع زوجها . ويقول الحق : « إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر » . فما علاقة الإيمان هنا بالحكم الشرعي ؟ إنها علاقة وثيقة ؛ لأن الحمل أو الحيض مسائل خفية لا يحكمها قانون ظاهر ، إن الذي يحكمها هو عملية الإيمان ، ولذلك قيل : « الغيب لا يحرسه إلا غيب » وما دام الشيء غائبا فلن يحرسه إلا الغيب الأعلى وهو الله تعالى .

ويتابع الحق : « وبعولتهن أحق بردهن في ذلك » والبعل هو الزوج ، وهو الرب والسيد والمالك ، وفي أثناء فترة التربص يكون الزوج أحق برد زوجته إلى عصمته ، وقوله تعالى : « وبعولتهن أحق بردهن » هل يعني ذلك أن هنالك أناسا يمكن أن

يشاركوا الزوج في الرد ؟ لأن الحق جاء بكلمة « أحق » وفي ظاهرها تعطي الحق لغير الأزواج أن يراجعوا ؟ لا ، إنما المقصود هو أنه لا حق لأحد هنا إلا للزوج ، فالرد خلال العدة من حق الزوج ، فليس للزوجة أن تقول : لا ، وليس لولي الزوجة أن يقول : لا فالزوج إذا أراد مراجعة زوجته وأبت وامتنعت هي وجب إيثار وتقديم رغبته على رغبتها ، وكان هو أحق منها ، ولا ينظر إلى قولها ، فإنه ليس لها في هذا الأمر حق فقد رضيت به أولاً . أما إذا انتهت العدة فالصورة تختلف ، لا بد من الولي ، ولا بد من عقد ومهر جديدين واشتراط موافقة الزوجة .

« وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً » هنا إن أرادوا إصلاحاً والإرادة عمل غيبي ، فكأنها تهديد للزوجين ، إن التشريع يجيز لهما العودة ، لكن إذا كان الزوج يريد أن يردها ليوقع بها الضرر لسبب في نفسه فالدين يقول له : لا ، ليس لك ذلك . وإن كان القضاء يجيز له ردها ، إلا أن الله يحرم عليه ذلك الظلم إن من حق الزوج أن يرد زوجته رداً شرعياً للعفة والإحصان ولغرض الزوجية لا لشيء آخر ، أما غير ذلك كالإضرار بها والانتقام منها فلا يجيز له الدين ذلك

أما قضائياً، فالقضاء يعطيه الحق في ردها ولا يستطيع أحد أن يقف أمامه مهما كانت الأسباب الكامنة في نفسه ، لكن عليه أن يتحمل وزر ذلك العمل . ويتابع الحق : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » أي أن للزوجة مثل ما للزوج ، لكن ما الذي لهن وما الذي عليهن ؟

المثلية هنا في الجنس ، فكل منهما له حق على الآخر حسب طبيعته ، الزوج يقدم للزوجة بعضاً من خدمات ، والزوجة تقدم له خدمات مقابلة ، لأن الحياة الزوجية مبنية على توزيع المسئوليات ، إن الرجل عليه مسئوليات تقتضيها طبيعته كرجل ، والمرأة عليها مسئوليات تحتمها طبيعتها كأنثى . والرجل مطالب بالكدح والسعي من أجل الإنفاق . والمرأة مطالبة بأن توفر للرجل البيت المناسب ليسكن إليها عندما يعود من مهمته في الحياة . ولذلك يقول الله عز وجل

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة

﴿ وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(سورة الروم)

والسكن إلى شيء هو نقيض التحرك ، ومعنى « لتسكنوا إليها » أى إنكم تتحركون من أجل الرزق طوال النهار ثم تعودون للراحة عند زوجاتكم ، فالرجل عليه الحركة ، والمرأة عليها أن تهيء له حسن الإقامة ، وجمال العشرة وحنان وعطف المعاملة . فالمسئوليات موزعة توزيعاً عادلاً ، فهناك حق لك هو واجب على غيرك ، وهناك حق لغيرك وهو واجب عليك .

ويقول الحق : « وللرجال عليهن درجة » وهى درجة الولاية والقوامة . ودرجة الولاية تعطينا مفهوما أعم وأشمل ، فكل اجتماع لابد له من قيّم ، والقوامة مسئولية وليست تسلطاً ، والذى يأخذ القوامة فرصة للتسلط والتحكم فهو يخرج بها عن غرضها ، فالأصل فى القوامة أنها مسئولية لتنظيم الحركة فى الحياة .

ولا غضاضة على الرجل أن يأتمر بأمر المرأة فيما يتعلق برسالتها كامرأة وفى مجالات خدمتها ، أى فى الشئون النسائية ، فكما أن للرجل مجاله ، فللمرأة مجالها أيضاً . والدرجة التى من أجلها رُفِعَ الرجل هى أنه قوام أعلى فى الحركة الدنيوية ، وهذه القوامة تقتضى أن ينفق الرجل على المرأة تطبيقاً لقول الحق :

﴿ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة النساء)

إذن فالإنفاق واجب الرجل ومسئوليته ، وليعلم أن الله عزيز لا يجب أن يستبد رجل بامرأة هى مخلوق لله ، والله حكيم قادر على أن يقتص للمرأة لو فهم الرجل أن درجته فوق المرأة هى للاستبداد ، أو فهمت المرأة أن وجودها مع الرجل هى منة منها عليه ، فلا استدلال فى الزواج ؛ لأن الزواج أساسه المودة والمعروف . ويقول الحق بعد ذلك

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ ﴾

هنا يتحدث الحق سبحانه وتعالى عن الطلاق بعد أن تحدث عن المطلقة في عدتها وكيفية ردها ومراجعتها، وإنه سبحانه يتحدث عن الطلاق في حد ذاته والطلاق مأخوذ من الانطلاق والتحرر، فكأنه حل عقدة كانت موجودة وهي عقدة النكاح، وعقدة النكاح هي العقدة التي جعلها الله عقداً مغلظاً وهي الميثاق الغليظ، فقال تعالى:

﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [سورة النساء]

أنه ميثاق غليظ لأنه أباح للزوجين عورات الآخر، في حين أنه لم يقل عن الإيمان إنه ميثاق غليظ، قال عنه «ميثاق» فقط، فكأن ميثاق الزواج أغلظ من ميثاق الإيمان. والحق سبحانه وتعالى يريد أن يربي في الناس حل المشكلات بأيسر الطرق. لذلك شرع لنا أن نحل عقدة النكاح، ونهاية العقدة ليست كبدايتها، ليست جذرية، فبداية النكاح كانت أمراً جذرياً، أخذناه بإيجاب وقبول وشهود وأنت حين تدخل في الأمر تدخله وأنت دارس لتبعاته وظروفه، لكن الأمر في عملية الطلاق يختلف، فالرجل لا يملك أغيار نفسه، فربما يكون السبب فيها عيناً أو لشيء

كان يمكن أن يمر بغير الطلاق ، فيشاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل للمسلم أناة وروية في حل العقدة فقال : « الطلاق مرتان » يعني مرة ومرة ، ولقائل أن يقول : كيف يكون مرتين ، ونحن نقول ثلاثة ؟ وقد سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله قال الله تعالى : « الطلاق مرتان » فلم صار ثلاثا ؟

فقال صلى الله عليه وسلم مبتسماً : « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » . فكان معنى « الطلاق مرتان » ، أي أن لك في مجال اختيارك طلقتين للمرأة ، أما الثالثة ليست لك ، لماذا ؟ لأنه من بعد ذلك ستكون هناك بينونة كبرى ولن تصبح مسألة عودتها إليك من حقك ، وإن هذه المرأة قد أصبحت من حق رجل آخر

﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾

(من الآية ٢٣٠ سورة البقرة)

أما قول الرجل لزوجته أنت « طالق ثلاثاً » يعتبر ثلاث طلقات أم لا ؟ نقول : إن الزمن شرط أساسي في وقوع الطلاق ، يطلق الرجل زوجته مرة ، ثم تمضي فترة من الزمن ، ويطلقها مرة أخرى فتصبح طلقة ثانية ، وتمضي أيضا فترة من الزمن وبعد ذلك نصل لقوله : « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » ولذلك فالآية نصها واضح وصريح في أن الطلاق بالثلاث في لفظ واحد لا يوقع ثلاث طلقات ، وإنما هي طلقة واحدة ، صحيح أن سيدنا عمر رضي الله عنه جعلها ثلاث طلقات ؛ لأن الناس استسهلوا المسألة ، فرأى أن يشدد عليهم ليكفوا ، لكنهم لم يكفوا ، ولذلك نعود لأصل التشريع كما جاء في القرآن وهو « الطلاق مرتان » .

وحكمة توزيع الطلاق على المرات الثلاث لا في العبارة الواحدة ، أن الحق سبحانه يعطي فرصة للتراجع ، وإعطاء الفرصة لا يأتي في نفس واحد وفي جلسة واحدة . إن الرجل الذي يقول لزوجته : أنت طالق ثلاثاً لم يأخذ الفرصة ليراجع نفسه ، ولو اعتبرنا قولته هذه ثلاث طلقات لتهدمت الحياة الزوجية بكلمة . ولكن عظمة التشريع في أن الحق سبحانه وزع الطلاق على مرات حتى يراجع الإنسان نفسه ، فربما أخطأ في المرة الأولى ، فيمسك في المرة الثانية ويندم . وساعة نجد التشريع يوزع أمراً يجوز أن يحدث ويجوز ألا يحدث ، فلا بد من وجود فاصل زمني

بين كل مرة. وبعض المتشدقين يريدون أن يبرروا للناس تهجمهم على منهج الله فيقولون: إن الله حكم بأن تعدد الزوجات لا يمكن أن يتم فقال:

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة النساء)

ويقولون: إنّ الله اشترط في التعدد العدل، ثم حكم بأننا لن نستطيع أن نعدل بين الزوجات مهما حرصنا، فكأنه رجع في التشريع، هذا منطقهم. ونقول لهم أكملوا قراءة الآية تفهموا المعنى، إن الحق يقول: «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم» ثم فرع على النفي فقال:

﴿ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة النساء)

وما دام النفي قد فُرِّع عليه فقد انتفى، فالأمر كما يقولون: نفي النفي إثبات أن الاستطاعة ثابتة وباقية وكأن قوله تعالى: «فلا تميلوا كل الميل» إشارة إليها وكذلك الأمر هنا «الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان». فما دام قد قال: «فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» وقال «الطلاق مرتان» أي أن لكل مرة زمناً، فذلك يتناسب مع حلقات التأديب والتهذيب، وإلا فالطلاق الثلاث بكلمة واحدة في زمن واحد، يكون عملية قسرية واحدة، وليس فيها تأديب أو إصلاح أو تهذيب، وفي هذه المسألة يقول الحق: «ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً» لأن المفروض في الزوج أن يدفع المهر نظير استمتاعه بالبضع، فإذا ما حدث الطلاق لا يحق للمطلق أن يأخذ من مهره شيئاً، لكن الحق استثنى في المسألة فقال: «إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به».

فكأن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يجعل للمرأة مخرجاً إن أريد بها الضرر وهي لا تقبل هذا الضرر، فيأتي الحق ويشرع. ما دام قد خافا ألا يقيما حدود الله، فقد أذن لها أن تفتدي نفسك أيتها المرأة بشيء من مال، ويكره أن يزيد على المهر إلا إذا كان ذلك ناشئاً عن نشوز منها ومخالفة للزوج فلا كراهة إذن في الزيادة على المهر

وقد جاء الواقع مطابقاً لما شرع الله عندما وقعت حادثة « جميلة » أخت «عبدالله بن أبي » حينما كانت زوجة لعبد الله بن قيس ، فقد ذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : « أنا لا اتهمه في دينه ولا خلقه ولكن لا أحب الكفر في الإسلام » وهي تقصد أنها عاشت معه وهي تبغضه ، لذلك لن تؤدي حقه وذلك هو كفر العشير أي إنكار حق الزوج وترك طاعته .

وهي قد قالت : إنها لا تتهمه لا في دينه ولا في خلقه لتعبر بذلك عن معانٍ عاطفية أخرى ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلم منها ذلك ، فقالت لقد رفعت الخباء فوجدته في عدة رجال فرأيته أشدهم سواداً وأقصرهم قمة وأقبحهم وجهاً ، فقال لها صلى الله عليه وسلم « أتردين حديقته » ؟ فقالت . وإن شاء زدته ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا حاجة لنا بالزيادة ، ولكن رُدِّي عليه حديقته .

ويُسمى هذا الأمر بالخلع ، أي أن تخلع المرأة نفسها من زوجها الذي تخاف ألا تؤدي له حقاً من حقوق الزوجية ، إنها تخلع نفسها منه بمال حتى لا يصيبه ضرر ، فقد يريد أن يتزوج بأخرى وهو محتاج إلى ما قدم من مهر لِمَنْ تريد أن تخلع نفسها منه . ويتابع الحق سبحانه : « ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً » وهذا الشيء هو الذي قال عنه الله في مكان آخر .

﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً ﴾ (٢٠)

(سورة النساء)

ويتابع الحق الآية بقوله : « إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله » والمقصود هنا هما الزوجان ، ومن بعد ذلك تأتي مسئولية أولياء أمر الزوجين وللمجتمع الذي يهمه أمرهما في قوله : « فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » .

وحدود الله هي ما شرعه لعباده حداً مانعاً بين الحل والحرمة . وحدود الله إما أن ترد بعد المناهي ، وإما أن ترد بعد الأوامر ، فإن وردت بعد الأوامر فإنه يقول

« تلك حدود الله فلا تعتدوها » أي آخر غايتكم هنا ، ولا تتعدوا الحد ، ولكن إن جاءت بعد النواهي يقول : « تلك حدود الله فلا تقربوها » ، لأن الحق يريد أن يمنع النفس من تأثير المحرمات على النفس ، فتلح عليها أن تعمل ، فإن كنت بعيداً عنها فالأفضل أن تظل بعيداً .

وانظر جيداً فيما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه »[1] .

ومادامت الحدود تشمل مناهي الله وتشمل أوامر الله فكل شيء مأمور به وكل شيء منهي عنه يجب أن يظل في مجاله من الفعل في « افعل » ومن النهي في « لا تفعل » . وإذا انتقل نظام (افعل) إلى دائرة (لا تفعل) وانتقل ما يدخل في دائرة « لا تفعل » إلى دائرة « افعل » ، هنا يختل نظام الكون ، ومادام نظام الكون أصابه خلل فقد حدث الظلم ، فالظلم هو أن تنقل حق إنسان وتعطيه لإنسان آخر ، وتشريع الطلاق حد من حدود الله ، فإن حاولت أن تأتي بأمر لا يناسب ما أمر الله به في تنظيم اجتماعي فقد نقلت المأمور به إلى حيز المنهي عنه ، وبذلك تُحدث ظلماً .

والحق سبحانه وتعالى حينما يعالج قضايا المجتمع يعالجها علاجاً يمنع وقوع المجتمع في الأمراض والآفات ، والبشر إن أحسنّا الظن بهم في أنهم يشرعون للخير وللمصلحة ، فهم يشرعون على قدر علمهم بالأشياء ، لكننا لا نأمن أن يجهلوا شيئاً يحدث ولا يعرفونه ، فهم شرّعوا لِمَا عرفوا ، وإذا شرعوا لما عرفوا وفوجئوا بأشياء لم يعرفوها ماذا يكون الموقف ؟ إن كانوا مخلصين بحق داسوا على كبرياء غرورهم التشريعي وقالوا: نُعدِّل ما شرعنا ، وإن ظلوا في عنادهم فمن الذي يشقى ؟ إن المجتمع هو الذي يشقى بعنادهم .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه

والحق سبحانه وتعالى لا يتهم الناس جميعاً فى أن منهم من لا يريد الخير ، ولكن هناك فرق بين أن تريد خيراً وألا تقدر على الخير . أنت شرعت على قدر قدرتك وعلمك . ونعرف جميعاً أن شقاء التجريب فى القوانين الاجتماعية النظرية يقع على المجتمع .

ونعرف جيداً أن هناك فرقاً بين العلم التجريبى المعملى والكلام النظرى الأهوائى ؛ فالعلم التجريبى يشقى به صاحب التجربة ، إن العالم يكد ويتعب فى معمله وهو الذى يشقى ويضحى بوقته وبماله وبصحته ويعيش فى ذهول عن كل شىء إلا تجربته التى هو بصددها ، فإذا ما انتهى إلى قضية اكتشافية فالذى يسعد باكتشافه هو المجتمع . لكن الأمر يختلف فى الأشياء النظرية ؛ لأن الذى يشقى بأخطاء المقننين من البشر هو المجتمع ، إلى أن يجىء مقنن يعطف على المجتمع ويعدل خطأ من سبقه .

أما الحق سبحانه وتعالى فقد حمانا بتشريع يحمى البشر من الشقاء ، فهو - سبحانه - يتركنا فى العالم المادى التجريبى أحراراً : ادخلوا المعامل وستنتهون إلى أشياء قد تتفقون عليها ، لكن إياكم واختلافات الأهواء ؛ لذلك تولى الله عز وجل تشريع ما تختلف فيه الأهواء ، حتى يضمن أن المجتمع لا يشقى بالخطأ من المشرعين ، لفترة من الزمن إلى أن يجىء مشرع آخر ويعدل للناس ما أخطأ فيه غيره .

لذلك نجد فى عالمنا المعاصر الكثير من القضايا النابعة من الهوى ، ويتمسك الناس فيها بأهوائهم ، ثم تضغط عليهم الأحداث ضغطاً لا يستطيعون بعدها أن يضعوا رءوسهم فى الرمال ، بل لابد أن يواجهوها ، فإذا ما واجهوها فإنهم لا يجدون حلاً لها إلا بما شرعه الإسلام ، ونجد أنهم التقوا مع تشريعات الإسلام .

إن بعضاً من الكارهين للإسلام يقولون : أنتم تقولون عن دينكم : إنه جاء ليظهر على كل الأديان ، مرة يقول القرآن

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

(سورة الفتح)

ومرة يقول القرآن:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾

(سورة الصف)

ويستمر هؤلاء الكافرون للإسلام في قولهم ويضيفون: إن إسلامكم لم يظهر على الدين كله حتى الآن بدليل أن هناك الملايين لم يدخلوا الإسلام؟ ونقول لهم: أو يظهر على الدين كله بأن يؤمن الناس بالإسلام جميعاً؟ لا، لو نظروا إلى قول الله: «ولو كره الكافرون» لعلموا أن إظهار الإسلام على الدين لابد أن يلازمه وجود كافرين كارهين، ومادام الإسلام موجوداً مع كافرين كارهين، فهو لن يظهر كدين، ولكنه يظهر عليهم - أي يعليهم - كنظام يضطرون إليه ليحلوا مشكلات مجتمعاتهم الكافرة، فيأخذون من أنظمة وقوانين الإسلام وهم كارهون. ولذلك نجدهم يستقون قوانينهم وإصلاحاتهم الاجتماعية من تعاليم الإسلام.

ولو كانوا سيأخذونه كدين لما قال الحق: «ولو كره الكافرون» أو «ولو كره المشركون» لأنهم عندما يعتنقونه كدين فلن يبقى كاره أو مشرك. لكن حين يقول سبحانه: «ولو كره الكافرون» و«ولو كره المشركون» فذلك يعني: أن اطمئنوا يا من آمنتم بمحمد صلى الله عليه وسلم وأخذتم الإسلام ديناً، إن تجارب الحياة ستأتي لتثبت لدى الجاحدين صدق دينكم، وصدق الله في نبيه لكم، وسيضطر الكافرون والمشركون إلى كثير من قضايا إسلامكم ليأخذوها كنظام يحلون به مشاكلهم رغم عنادهم وإصرارهم على أن يكونوا ضد الإسلام.

وضربنا على ذلك مثلاً بما حدث في إيطاليا التي بها الفاتيكان قبة الكاثوليك الروحية ؛ فقد اضطروا لأن يشرعوا قوانين تبيح الطلاق ، وحدث مثل ذلك في أسبانيا وغيرها من الدول . انظر كيف ترجعوا في مبادىء كانوا يعيرونها على الإسلام ! لقد اضطرتهم ظروف الحياة لأن يقننوا إباحة الطلاق تقنيناً بشرياً لا بتقنين إلهي . ومثل هذه الأحداث تبين لنا مدى ثقتنا في ديننا ، وأن مشكلات البشرية في بلاد الكفر والشرك لن يحلها إلا الإسلام ، فإن لم يأخذوه كدين فسيضطرون إلى أخذه كنظام .

ومن شرف الإسلام ألا يأخذوه كدين ؛ لأنهم لو آمنوا به لكانت أعمالهم وقوانينهم تطبيقاً للإسلام من قوم مسلمين . ولكن أن يظلوا كارهين للإسلام ثم يأخذوا من مبادىء الدين الذي يكرهونه ما يصلح مجتمعاتهم الفاسدة فذلك الفخر الأكبر للإسلام . إن هذا هو مفهوم قول الحق : « ولو كره الكافرون » و « ولو كره المشركون » وإذا ما جاء لك أحد في هذه المسألة فقل له : من شرف الإسلام أن يظل في الدنيا مشرك ، وأن يظل في الدنيا هؤلاء الكفار ثم يرغموا ليحلوا مسائل مجتمعاتهم بقضايا الإسلام ، والإسلام يفخر بأنه سبقهم منذ أربعة عشر قرناً إلى ما يلهثون وراءه الآن بعد مضي كل هذا الزمن . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾

وسبق أن قال الحق : « الطلاق مرتان » وبعدها قال : « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » وهنا يتحدث الحق عن التسريح بقوله : « فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره » . وذلك حتى يبين لنا أنه إن وصلت الأمور بين

الزوجين إلى مرحلة اللاعودة فلابد من درس قاس ، فلا يمكن أن يرجع كل منهما للآخر بسهولة. لقد أمهلها الله بتشريع البينونة الصغرى التي يعقبها مهر وعقد جديدان فلم يرتدعا ، فكان لابد من البينونة الكبرى ، وهي أن تتزوج المرأة بزوج آخر وتجرب حياة زوجية أخرى. وبذلك يكون الدرس قاسياً.

وقد يأخذ بعض الرجال المسألة بصورة شكلية ، فيتزوج المرأة المطلقة ثلاثاً زواجاً كامل الشروط من عقد وشهود ومهر ، لكن لا يترتب على الزواج معاشرة جنسية بينهما ، وذلك هو « المحلل » الذي نسمع عنه وهو ما لم يقره الإسلام.

فمن تزوج على أنه محلل ومن وافقت على ذلك المحلل عليهما أن ذلك حرام عن الاثنين ، فليس في الإسلام محلل ، ومن يدخل بنية المحلل لا تجوز له الزوجة ، وليس له حقوق عليها ، وفي الوقت نفسه لو طلقها ذلك الرجل لا يجوز لها الرجوع لزوجها السابق ، لأن المحلل لم يكن زوجاً وإنما هو تمثيل زوج ، والتمثيل لا يُثبت في الواقع شيئاً. ولذلك قال الحق « فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره ».

والمقصود هنا النكاح الطبيعي الذي ساقت إليه الظروف دون افتعال ولا قصد للتحليل. وعندما يطلقها ذلك الرجل لظروف خارجة عن الإرادة وهي استحالة العشرة ، وليس لأسباب متفق عليها ، عندئذ يمكن للزوج السابق أن يتزوج المرأة التي كانت في عصمته وطلقها من قبل ثلاث مرات.

« فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون » أي أن يغلب على الظن أن المسائل التي كانت مثار خلاف فيما مضى قد ذهبت ووصل الاثنان إلى درجة من التعقل والاحترام المتبادل ، وأخذا درساً من التجربة تجعل كلا منهما يرضى بصاحبه. وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ

سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

ولنلاحظ قوله : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن » ونسأل : هل إذا بلغت الأجل وانتهت العدة ، هل يوجد بعدها إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ؟ ، هل يوجد إلا التسريح ؟ . إن هناك آية بعد تلك تقول :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾

(من الآية ٢٣٢ من سورة البقرة)

إذن نحن أمام آيتين كل منها تبدأ بقوله : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن » لكن تكملة الآية الأولى هو : « فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف » وتكملة الآية الثانية هو : « فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن » . فما سر هذا الاختلاف إذن ؟

نقول : إن البلوغ يأتي بمعنيين ، المعنى الأول : أن يأتي البلوغ بمعنى المقاربة مثل قوله تعالى : « إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم » . أي عندما تقارب القيام إلى الصلاة فافعل ذلك . والمعنى الثاني : يطلق البلوغ على الوصول الحقيقي والفعلي . إن الإنسان عندما يكون مسافرا بالطائرة ويهبط في بلد الوصول فهو يلاحظ أن الطيار يعلن أنه قد وصل إلى البلد الفلاني . إذن مرة يطلق البلوغ على القرب ومرة أخرى يطلق على البلوغ الحقيقي .

وفي الآية الأولى « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف » هنا طلق الرجل زوجته لكن عدتها لم تنته بل قربت على الانتهاء قربا يمكنه أن يسرحها أو يمسكها بإحسان ، وأصبح للزوج قدر من زمن العدة يبيح له أن يمسك أو يسرح ، لكنه زمن قليل . إن الحق يريد أن يتمسك الزوج بالإبقاء إلى آخر لحظة ويستبقى أسباب الالتقاء وعدم الانفصال حتى آخر لحظة ، وهذه علة التعبير بقوله : « فبلغن أجلهن » أي قاربن بلوغ الأجل . إن الحق يريدنا أن نتمسك باستبقاء الحياة الزوجية إلى آخر فرصة تتسع للإمساك ، فهي لحظة قد ينطق فيها الرجل بكلمة يترتب عليها إما طلاق ، وإما عودة الحياة الزوجية .

أما الآية الثانية وهي قوله تعالى : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن » فالله سبحانه وتعالى يريد أن يحصر مناقشة الأسباب في الانفصال أو الاستمرار بين الزوج والزوجة فقط فلا تتعدى إلى غير الزوج والزوجة ، لأن بين الاثنين من الأسباب ما قد تجعل الواحد منهما يُلين جانبه للآخر .

لكن إذا ما دخل طرف ثالث ليست عنده هذه فسوف تكبر في نفسه الخصومة ولا توجد عنده الحاجة فلا يبقى على عشرة الزوجين . فإذا ما دخل الأب أو الأخ أو الأم في النزاع فسوف تشتعل الخصومة ، وكل منهم لا يشعر بإحساس كل من الزوجين للآخر ، ولا بليونة الزوج لزوجته ، ولا بهوادة الزوجة لزوجها ، فهذه مسائل عاطفية ونفسية لا توجد إلا بين الزوج والزوجة ، أما الأطراف الخارجية فلا يربطها بالزوج ولا بالزوجة إلا صلة القرابة . ومن هنا فإن حرص تلك الأطراف الخارجية على بقاء عشرة الزوجين لا يكون مثل حرص كل من الزوجين على التمسك بالآخر .

ولذلك يجب أن نفهم أن كل مشكلة تحدث بين زوج وزوجته ولا يتدخل فيها أحد تنتهي بسرعة بدون أم أو أب أو أخ ، ذلك لأنه تدخل طرف خارجي لا يكون مالكا للدوافع العاطفية والنفسية التي بين الزوجين ، أما الزوجان فقد تكفي نظرة واحدة من أحدهما للآخر لأن تعيد الأمور إلى مجاريها . فقد يُعجب الرجل بحنان

المرأة ويشتاق إليها ، فينسى كل شيء . وقد ترى المرأة في الرجل أمراً لا تحب أن تفقده منه فتنسى ما حدث بينهما ، وهكذا

لكن أين ذلك من أبيه وأمه ، أو أبيها وأبيه ؟ ليس بين هؤلاء وبين الزوجين أسرار وعواطف ومعاشرة وغير ذلك .

ولهذا فأنا أنصح دائما بأن يظل الخلاف محصوراً بين الزوج والزوجة ؛ لأن الله قد جعل بينهما سيالاً عاطفيا . والسيال العاطفي قد يميل إلى نزوع ورغبة في شيء ما ، وربما تكون هذه الرغبة هي التي تصلح وتجعل كلا من الطرفين يتنازل عن الخصومة والطلاق . ولذلك شاءت إرادة الله عز وجل ألا يطلق الرجل زوجته وهي حائض . لماذا ؟

لأن المرأة في فترة الحيض لا يكون لزوجها رغبة فيها ، وربما ينفر منها ، لكن يريد الحق عز وجل ألا يطلق الرجل زوجته إلا في طهر لم يسبق له أن عاشرها فيه معاشرة الزوج زوجته وبعد أن تغتسل من الحيض ، وذلك حتى لا يطلقها إلا وهو في أشد الأوقات رغبة لها

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن تكون الخلافات بين الزوج والزوجة في إطار الحياة الزوجية ، حتى يحفظها سياج المحبة والمودة والرحمة . لكن تدخل الأطراف الأخرى يحطم هذا السياج ، أيا كان الطرف أما أو أبا أو أخا

ويقول الحق : « ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا » أي لا تبق أيها الرجل على الحياة الزوجية من أجل الإضرار بالمرأة وإذلالها ، ومعنى الضرار أنك تصنع شيئا في ظاهره أنك تريد الخير وفي الباطن تريد الشر . ولذلك أطلق اللفظ على « مسجد الضرار » فظاهر بنائه أنه مسجد بني للصلاة فيه ، وفي الباطن كان الهدف منه هو الكفر والتفريق بين المؤمنين . وكذلك الضرار في الزواج ؛ يقول الرجل أنا لا أريد طلاقها وسأعيدها لبيتها ، يقول ذلك ويُبيت في نفسه أن يعيدها ليذلها وينتقم منها ، وذلك لا يقره الإسلام ، بل وينهى عنه

إن الحق عز وجل يحذر من مثل هذا السلوك فيقول : « ولا تمسكوهن ضررا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه » فإياك أن تظن أنك حين تعتدى على زوجتك بعد أن تراجعها أنك ظلمتها هي . لا ، إنما أنت تظلم نفسك ؛ لأنك حين تعتدى على إنسان فقد جعلت ربه في جانبه ، فإن دعا عليك قبل الله دعوته ، وبذلك تحرم نفسك من رضا الله عنك ، فهل هناك ظلم أكثر من الظلم الذى يأتيك بسخط الله عليك .

ويتابع الحق سبحانه وتعالى : « ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا » أي خذوا نظام الله على أنه نظام جاء ليحكم حركة الحياة حكماً بلا مراوغة وبلا تحليق في خيال كاذب ، إنما هو أمر واقعى ، فلا يصح أن يهزأ أحد بما أنزله الله من أنظمة تصون حياة وكرامة الإنسان رجلا كان أو امرأة .

« واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به » ونعمة الله عليهم التي يذكرهم الله بها في معرض الحديث عن الطلاق هي أنه - سبحانه - يلفتهم إلى ما كانوا عليه قبل أن يشرع لهم أين كان حظ المرأة في الجاهلية في أمور الزواج والطلاق ، وما أصبحت عليه بعد نزول القرآن ؟ لقد صارت حقوقها مصونة بالقرآن .

إن الحق عز وجل يمتن على المؤمنين ليلفت نظرهم إلى حالهم قبل الإسلام ؛ فقد كان الرّجل يطلق امرأته ويعيدها ، ثم يطلقها ويعيدها ولو ألف مرة دون ضابط أو رابط وكان يحرم عليها المباشرة الزوجية شهوراً ويتركها تتعذب بلوعة البعد عنه ، ولا تستطيع أن تتكلم

وكانت المرأة إذا مات زوجها تنفى من المجتمع فلا تظهر أبدا ولا تخرج من بيتها وكأنها جرثومة ، وقبل ذلك كله كانت مصدر عار لأبيها ، فكان يقتلها قبل أن تصل إلى سن البلوغ بدعوى الحرص على عرضه وشرفه

باختصار كان الزواج أقرب إلى الهازل منه إلى الجد ، فجاء الإسلام ، فحسم

الأمور حتى لا تكون فوضى بلا ضوابط وبلا قوانين . فاذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم بالإسلام ، وانظروا إلى ما أنعم به عليكم من نظم أسرى يلهث العالم شرقه وغربه ليصل إلى مثله .

كنتم أمة بلا حضارة وبلا ثقافة ، تعبدون الأصنام وتقيمون الحرب وتشعلونها بينكم على أتفه الأسباب وأهونها ، وتجهلون القراءة والكتابة ، ثم ينزل الله عليكم هذا التشريع الراقي الناصح الذي لم تصل إليه أية حضارة حتى الآن . ألا تذكرون هذه النعمة التي أنتم فيها بفضل من الله ؟ لذلك قال سبحانه : « واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به » والكتاب هو القرآن ، والحكمة هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويختتم الحق تلك الآية الكريمة بقوله : « واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم » .

وإياكم أن تتهموا دينكم بأنه قد فاته شيء من التشريع لكم ، فكل تشريع حاضر في الإسلام ، لأن الله عليم بما يكون عليه أحوال الناس ، فلا يستدرك كون الله في الواقع على ما شرع الله في كتابه ، لأنه سبحانه خالق الكون ومنزل التشريع . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾

« فبلغن أجلهن » هنا أي فانتهت العدة ، ولم يستنفد الزوج مرات الطلاق ، ولم يعد للزوج حق في أن يراجعها إلا بعقد ومهر جديدين . هب أن الزوج أراد أن

يعيد زوجته إلى عصمته مرة أخرى ، وهنا قد يتدخل أهل اللدد والخصومة من الأقارب ، ويقفون فى وجه إتمام الزواج ، والزوجان ربما كان كل منهما يميل إلى الآخر ، وبينهما سيال عاطفى وهمس لا يعلمه أحد ، لكن الذين دخلوا فى الخصومة من الأهل يقفون فى وجه عودة الأمور إلى مجاريها ، خوفا من تكرار ما حدث أو لأسباب أخرى ، ونقول لهؤلاء : مادام الزوجان قد تراضيا على العودة فلا يصح أن يقف أحد فى طريق عودة الأمور إلى ما كانت عليه .

وقوله الحق : « فلا تعضلوهن » نعرف منه أن العضل هو المنع ، والكلام للأهل والأقارب وكل من يهمه مصلحة الطرفين من أهل المشورة الحسنة . « أن ينكحن أزواجهن » أى الذين طلقوهن أولا .

والمعنى : لا تمنعوا الأزواج أن يعيدوا إلى عصمتهم زوجاتهم اللائى طلقوهن من قبل . وليعلم الأهل الذين يصرون على منع بناتهم من العودة لأزواجهن أنهم بالتمادى فى الخصومة يمنعون فائدة التدرج فى الطلاق التى أراد ، حكمة الله .

إن حكمة التشريع فى جعل الطلاق مرة ، ومرتين هى أن من لم يصلح فى المرة الأولى قد يصلح فى المرة الثانية ، وإذ كان الله العليم بنفوس البشر قد شرع لهم أن يطلقوا مرة ومرتين ، وأعطى فسحة من الوقت لمن أخطأ فى المرة الأولى ألا يخطىء فى الثانية ، لذلك فلا يصح أن يقف أحد حجر عثرة أمام إعادة الحياة الزوجية من جديد .

وقوله الحق : « أن ينكحن أزواجهن » ونلحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى ينسب النكاح للنسوة ، فقال : « ينكحن » وهذا يقتضى رضاء المرأة عن العودة للزوج فلا يمكن أن يطلقها أولا ثم لا يكون لها رأى فى العودة إليه .

« إذا تراضوا بينهم بالمعروف » ومادموا تراضوا ورأوا أن عودة كل منهما للآخر أفضل ، فليبتعد أهل السوء الذين يقفون فى وجه رضا الطرفين ، وليتركوا الحلال يعود إلى مجاريه « ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى

لكم وأطهر » إن هذا تشريع ربكم وهو موعظة لكم يا من تؤمنون بالله ربا حكيما مشرعا وعالما بنوازع الخير فى نفوس البشر .

وكلمة « وأطهر » تلفتنا إلى حرمة الوقوف فى وجه المرأة التى تريد أن ترجع لزوجها الذى طلقها ثم انتهت العدة ، وأراد هو أن يتزوجها من جديد . إن الحق يلفت : لا تقفوا فى وجه رغبتها فى العودة لأى سبب كان . لماذا يارب ؟

وتأتى الإجابة فى قوله الحق : « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » تأمل جمال السياق القرآنى وكيف خدم قوله تعالى : « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » المعنى الذى تريده الآيات . إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون أن فى عودة الأمور لمجاريها بين الزوجين أزكى وأطهر . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

ننظر إلى عظمة الإسلام ها هو ذا الحق سبحانه يتكلم عن إرضاع الوالدات لأولادهن بعد عملية الطلاق ، فالطلاق يورث الشقاق بين الرجل والمرأة ، والحق

سبحانه وتعالى ينظر للمسألة نظرة الرحيم الحيم بعباده، فيريد أن يحمى الثمرة التي تنتجت من الزواج قبل أن يحدث الشقاق بين الأبوين، فيبلغنا : لاتجعلوا شقاقكم وخلافكم وطلاقكم مصدر تعاسة للطفل البرىء الرضيع .

وهذا كلام عن المطلقات اللاتي تركن بيوت أزواجهن، لأن الله يقول بعد ذلك «وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف» ومادامت الآية تحدثت عن «رزقهن وكسوتهن» فذلك يعنى أن المرأة ووليدها بعيدة عن الرجل، لأنها لو كانت معه لكان رزق الوليد وكسوته أمرا مفروغا منه . والحق سبحانه يفرض هنا حقا للرضيع ، وأمه لم تكن تستحقه لولا الرضاع. وبعض الناس فهموا خطأ أن الرزق والكسوة للزوجات عموما ونقول لهم : لا . إن الرزق والكسوة هنا للمطلقات اللاتى يرضعن فقط.

ويريد الحق سبحانه أن يجعل هذا الحق أمرا مفروغا منه ، فشرع حق الطفل فى أن يتكفل والده بالرزق والكسوة حتى يكون الأمر معلوما لديه حال الطلاق .

وقوله تعالى : «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين» نلحظ فيه أنه لم يأت بصيغة الأمر فلم يقل : «والوالدات أرضعن» ، لأن الأمر عرضة لأن يطاع وأن يعصى، لكن الله أظهر المسألة فى أسلوب خبرى على أنها أمر واقع طبيعى ولا يخالف .

ويقول الحق : «وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن» ولنتأمل عظمة الأداء القرآني فى قوله : «وعلى المولود له» إنه لم يقل : «وعلى الوالد» وجاء بـ «المولود له» ليكلفه بالتبعات فى الرزق والكسوة ، لأن مسئولية الإنفاق على المولود هى مسئولية الوالد وليست مسئولية الأم ، وهى قد حملت وولدت وأرضعت والولد يُنسب للأب فى النهاية يقول الشاعر :

فإنما أمهات الناس أوعية

مستودعات وللآباء أبناء

ومادام المولود منسوبًا للرجل الأب، فعلى الأب رزقه وكسوته هو وعليه أيضا رزق

وكسوة أمه التي ترضعه بالمعروف المتعارف عليه بما لا يسبب إجحافاً وظلماً للأب في كثرة الإنفاق . ويقول الحق « لا تكلف نفس إلا وسعها » هنا الحديث عن الأم والأب فلا يصح أن ترهق المطلقة والد الرضيع بما هو فوق طاقته ، وعليها أن تكتفي بالمعقول من النفقة

ويتابع الحق : « لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده » ولازال الحق يُذكِّرُ الأب بأن المولود له هو ، وعليه ألا يضر والدة الطفل بمنع الإنفاق على ابنه ، وألا يتركها تتكفف الناس من أجل رزقه وكسوته ، وفي الوقت نفسه يُذكِّرُ الأم ألا تجعل رضيعها مصدر إضرار لأبيه بكثرة الإلحاح في طلب الرزق والكسوة

إنه عز وجل يضع لنا الإطار الدقيق الذي يكفل للطفل حقوقه ، فهناك فرق بين رضيع ينعم بدفء الحياة بين أبوين متعاشرين ، ووجوده بين أبوين غير متعاشرين

والحق سبحانه وتعالى يعطينا لقطة أخرى هي أن والد المولود قد يموت فإذا ما مات الوالد فمن الذي ينفق على الوليد الذي في رعاية أمه المطلقة ؟ هنا يأتينا قول الحق بالجواب السريع : « وعلى الوارث مثل ذلك »

إن الحق يقرر مسئولية الإنفاق على من يرث ولد الرضيع ، صحيح أن الرضيع سيرث في والده ، لكن رعاية الوليد اليتيم هي مسئولية من يرث الوصاية وتكون له الولاية على أموال الأب إن مات . وهكذا يضمن الله عز وجل حق الرضيع عند المولود له وهو أبوه إذا كان حيا ، وعند من يرث الأب إذا تُوفي

وبذلك يكون الله عز وجل قد شرَّع لصيانة أسلوب حياة الطفل في حال وجود أبويه ، وشرع له في حال طلاق أبويه وأبوه حيٌّ ، وشرع له في حال طلاق أبويه ووفاة أبيه ويتابع الحق : « فإن أرادا فصالا عن تراضٍ منهما وتشاور فلا جناح عليهما »

انظر إلى الرحمة في الإسلام ، فطلاق الرجل لزوجته لا يعني أن ما كان بينهما قد

انتهى ، ويضيع الأولاد ويشقون بسبب الطلاق ، فقوله تعالى « عن تراض منهما وتشاور » دليل على أن هناك قضية مشتركة مازالت بين الطرفين وهي ما يتصل برعاية الأولاد ، وهذه القضية المشتركة لابد أن يُلاحظ فيها حق الأولاد في عاطفة الأمومة ، وحنوهم في عاطفة الأبوة ، حتى ينشأ الولد وهو غير محروم من حنان الأم أو الأب ، وإن حدث الطلاق .

إن عليهما أن يلتقيا بالتشاور والتراضي في مسألة تربية الأولاد حتى يشعروا بحنان الأبوين ، ويكبر الأولاد دون آلام نفسية ، ويفهمون أن أمهم تقدر ظروفهم ، وكذلك الوالد ، وبرغم وجود الشقاق والخلاف بينهما فقد اتفقا على مصلحة الأولاد بتراض وتشاور .

إن ما يحدث في كثير من حالات الطلاق من تجاهل للأولاد بعد الطلاق هي مسألة خطيرة ؛ لأنها تترك رواسب وآثارا سلبية عميقة في نفوس الأولاد ، ويترتب عليها شقاؤهم وربما تشريدهم في الحياة . وما ذنب أولاد كان الكبار هم السبب المباشر في عيشهم للحياة ؟ أليس من الأفضل أن يوفر الآباء لهم الظروف النفسية والحياتية التي تكفل لهم النشأة الكريمة ؟ إن منهج الله أمامنا فلماذا لا نطبقه لنسعد به وتسعد به الأجيال القادمة ؟

والحق سبحانه وتعالى قال في أول الآية « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين » لكن ماذا يكون الحال إن نشأت ظروف تقلل من فترة الرضاعة عن العامين ؟ أو نشأت ظروف خاصة جعلت فترة الرضاعة أطول من العامين ؟ هنا يقول الحق . « فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما »

إنه جل وعلا يبين لنا أن الفصال أي الفطام يجب أن يكون عن تراض وتشاور بين الوالدين ولا جناح عليهما في ذلك . ويقول الحق . « وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف » . « وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم » أي أن تأتوا للطفل بمرضعة ، فإن أردتم ذلك فلا لوم عليكم في ذلك

إن المطلق حين يوكل إلى الأم أن ترضع وليدها فالطفل يأخذ من حنان الأم

الموجود لديها بالفطرة ، لكن هب أن الأم ليست لديها القدرة على الإرضاع أو أن ظروفها لا تسعفها على أن ترضعه لضعف في صحتها أو غيرها، عند ذلك فالوالد مُطالب أن يأتي لابنه بمرضعة ، وهذه المرضعة التي ترضع الوليد تحتاج إلى أن يعطيها الأب ما يُسخيها ويجعلها تقبل على إرضاع الولد بأمانة ، والإشراف عليه بصدق .

ويختم الحق هذه الآية الكريمة بقوله : « واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير » ، إن الحق يحذر أن يأخذ أحد أحكامه ويدعي بظاهر الأمر تطبيقها ، لكنه غير حريص على روح هذه الأحكام ، مثال ذلك الأب الذي يريد أن يدلس على المجتمع ، فعندما يرى الأب مرضعة ابنه أمام الناس فهو يدعي أنه ينفق عليها ، ويعطيها أجرها كاملا ، ويقابلها بالحفاوة والتكريم بينما الواقع يخالف ذلك .

إن الله يحذر من يفعل ذلك : أنت لا تعامل المجتمع وإنما تعامل الله « والله بما تعملون بصير » . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ ﴾

والعدة ـ كما عرفنا ـ هي الفترة الزمنية التي شرعها الله بعد زواج انتهى بطلاق أو بوفاة الزوج . والعدة إما أن تكون بعد طلاق ، وإما بعد وفاة زوج ، فإن كانت العدة بعد طلاق فعدتها ثلاثة قروء ، والقرء ـ كما عرفنا ـ هو الحيضة أو الطهر ، فإن كانت المطلقة صغيرة لم تحض بعد أو كانت كبيرة تعدت سن الحيض فالعدة تنتقل من القروء إلى الأشهر وتصبح « ثلاثة أشهر » .

وعرفنا أن من حق الزوج أن يراجع زوجته بينه وبين نفسه دون تدخل الزوجة أو ولي أمرها به ذلك في أثناء فترة العدة في الطلاق الرجعي ، فإن انتهت عدتها فقد سقط حقه في مراجعة الزوجة بنفسه ، وله أن يراجعها ، ولكن بمهر وعقد جديدين مادام قد بقي له حق أي لم يستنفد مرات الطلاق .

وقد قلنا : إن حدثت الطلقات الثلاث وأصبحت هناك طلقة ثالثة فلا بد من زوج آخر يتزوجها بالطريقة الطبيعية لا بقصد أن يحللها للزوج الأول . وأما عدة المتوفى عنها زوجها فقد عرفنا أن القرآن ينص على أنها تتربص بنفسها أربعة أشهر وعشرا ، هذا إن لم تكن حاملا ، فإن كانت حاملا فعدتها أبعد الأجلين ، فإن كان الأجل الأبعد هو أربعة أشهر وعشرا فتلك عدتها ، وإن كان الأجل الأبعد هو الحمل فعدتها أن ينتهي الحمل . لكن أليس من الجائز أن يموت زوجها وهي في الشهر التاسع من الحمل فتلد قبل أن يدفن ؟ وهل يعني ذلك أن عدتها انتهت ؟ لا ، إنها تنتهي بأبعد الأجلين وهو في هذه الحالة مرور أربعة أشهر وعشر ، وإن قال بعض الفقهاء: إن عدة الحامل بوضع الحمل .

لكن إذا لم يكن زوجها متوفًى عنها فعدتها أن تضع حملها ، وإن شاءت أن تتزوج بعد ذلك فلها ذلك ولو بعد لحظة . وبعض الناس يفسرون الحكمة من جعل عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا ، فيقولون : لأنها إن كانت حاملا بذكر فسيظهر حملها عندما يتحرك بعد ثلاثة أشهر ، وإن كانت حاملا بأنثى فستتحرك بعد أربعة أشهر ونعطيها مهلة عشر ليال .

ونقول لهم : جزاكم الله خيرا على تفسيركم ، لكن العدة هنا ليست لاستبراء الرحم ؛ لأنها لو كانت لاستبراء الرحم لانتهت عدة امرأة بمجرد ولادتها . ولو كان الأمر للتأكد من وجود حمل أو عدمه ، لكانت عدتها ثلاث حيضات إن كانت من ذوات الحيض ، وإن كانت من غير ذوات الحيض لصغر أو لكبر سن لكانت عدتها ثلاثة أشهر . لكن الله اختصها بأربعة أشهر وعشر وفاءً لحق زوجها عليها وإكراما لحياتها الزوجية .

إذن فالله عز وجل جعل للمتوفى عنها زوجها تتربص أقصى مدة يمكن أن تصبر عليها

المرأة . فالمرأة ساعة تكون متوفى عنها زوجها لا تخرج من بيتها ولا تتزين ولا تلقى أحداً وفاءً للزوج ، فإذا انتهت عدتها أى مضت عليها الأربعة الأشهر والعشرة ، « فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن » وهو يعنى أن تتزين فى بيتها وتخرج دون إبداء زينة وأن يتقدم لها من يريد خطبتها . وقوله تعالى : « أربعة أشهر وعشرا » والمقصود بهذه المدة أربعة أشهر وعشر ليال .

وهنا لفتة تشريعية إيمانية تدل على استطراق كل حكم شرعى فى جميع المكلفين وإن لم يكن الحكم خاصا بهم ؛ فالمتوفى عنها زوجها تربصت أربعة أشهر وعشرا وبلغتها فى مدة العدة ، وكان من حكم الله عليها ألا تتزين وألا تكتحل وألا تخرج من بيتها وفاءً لحق زوجها فإذا بلغت الأجل وانتهى قال . « فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن » ، ولم يقل . فلا جناح عليهن .

لقد وجه الخطاب هنا للرجال ؛ لأن كل مؤمن له ولاية على كل مؤمنة ، فإذا رأى فى سلوكها أو أسلوب عنايتها بنفسها ما ينافى العدة فله أن يتدخل . مثلا إذا رآها تتزين قال لها أو أرسل إليها من يقول لها . لماذا تتزينين ؟ إن قول الله : « فلا جناح عليكم » يجعل للرجال قوامة على المتوفى عنها زوجها ، فلا يقولون : لا دخل لنا ؛ لأن الحكم الإيمانى حكم مستطرق فى كل مؤمن وعلى كل مؤمن . فالحق سبحانه وتعالى يقول .

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾

(من الآية ٣ سورة العصر)

إن قوله الحق : « وتواصوا » لا يعنى أن قوما خُصوا بأنهم يُوصون غيرهم وقوما آخرين يُوصيهم غيرهُم ، بل كل واحد منا موصٍ فى وقت ، وموصًى من غيره فى وقت آخر ، هذا هو معنى « وتواصوا » .

فإذا رأيت فى غيرك ضعفا فى أى ناحية من نواحى أحكام الله ، فلك أن توصيه . وكذلك إن رأى غيرُك فيك ضعفا فى أى ناحية من النواحى فله أن يوصيك ، وعندما نتواصى جميعا لا يبقى للمؤمن بيت خطأ ظاهر .

إذن فالآية لا تَخُصُّ بالوصاية جماعة دون أخرى إنما الكل يتواصون ، لأن الأعيار البشرية تتناوب الناس أجمعين . فأنت في فترة ضعفي رقيب على ، فتوصيني وأنا في فترة ضعفك رقيب عليك ، فأوصيك . ولذلك جاء قول الحق : « فلا جناح عليكم » إنه سبحانه لم يوجه الخطاب للنساء ، ولكن خاطب به المؤمنين ولم يخص بالخطاب أولياء أمور النساء فحسب وإنما ترك الحكم للجميع حتى لا يقول أحد : لا علاقة لي بالمرأة التي توفي عنها زوجها ولتفعل ما تشاء . إن لها أن تتزين بالمتعارف عليه إسلاميا في الزينة ، ولها أن تتجمل في حدود ما أذن الله لها فيه .

ويختم الحق هذه الآية بقوله : « والله بما تعملون خبير » أي والله أعلم بما في نفسها وبما في نيتها وهب أنها فعلت أي فعل على غير مرأى من أحد فلا تعتقد أن المجتمع وإن لم يشهد منها ذلك أن المسألة انتهت . لا ، إن الله عليم بما تفعل وإن لم يطلع عليها أحد من الناس .

إن الحق سبحانه وتعالى قد حمى بكل التشريعات السابقة حق الزوج حتى تنتهي العدة ، وحق المتوفى عنها زوجها في أثناء العدة ، وحمى أيضا بكل التشريعات كرامة امرأة . وجعل المرأة حرما لا يقترب منه أحد يخدش حجابها ، إن عليها عدة عصرية في هذا الوقت لرجل آخر ، فلا يحق لأحد أن يقترب منها .

لماذا ؟ لأن المرأة خاصة إذا كانت مطلقة قد تتملكها رغبة في أن تثأر لنفسها ولكرامتها ، وربما تعجلت التزوج ، وربما كانت مسائل الافتراق أو الخلاف ناشئة عن اندساس رغبة راغب فيها ، وبمجرد أن يتم طلاقها وتعيش فترة العدة فقد يحوم حولها الراغبون فيها ، أو تستشرف هي من ناحيتها من تراه صالحا كزوج لها . ولذلك يفرض الحق سياجا من الزمن ويجعل العدة كمنطقة حرام ليحمي المرأة حماية موضوعية لا شكلية

التشريع - لأنه من إله رحيم - لا يهدر عواطف النفس البشرية لا من ناحية الذي يرغب في أن يتزوج ، ولا من ناحية المرأة التي تستشرف أن تتزوج ، فيعالج هذه المسألة بدقة وبحزم ويحسم معا فيقول - جل شأنه - :

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) ﴾

و « عرضتم » مأخوذة من التعريض والتعريض : هو أن تدل على شيء لا بما يؤديه نصا ، ولكن تعرض به تلميحا .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يجعل للعواطف تنفيسا من هذه الناحية ، والتنفيس ليس مجرد تعبير عن العاطفة ، ولكنه رعاية للمصلحة ، فمن الجائز أنه لو حرم التعريض لكان في ذلك ضياع فرصة الزواج للمرأة ، أو قد يفوت ـ هذا المنع ـ الفرصة على من يطلبها من الرجال ، لذلك يضع الحق القواعد التي تفرض على الرجل والمرأة معا أدب الاحتياط ، وكأنه يقول لنا : أنا أمنعكم أن تخطبوا في العدة أو تقولوا كلاما صريحا وواضحا فيها ، لكن لا مانع من التلميح من بعيد .

مثلا يثني الرجل على المرأة ؛ ويعدد محاسنها بكلام لا يعد خروجا على آداب الإسلام مثل هذا الكلام هو تلميح وتعريض ، وفائدته أنه يعبر عن في نفس قائله تجاه المطلقة فتعرف رأيه فيها ، ولو لم يقل ذلك فربما سبقه أحد إليها وقطع عليه السبل لإنفاذ ما في نفسه ، ومنعه من أن يتقدم لخطبتها بعد انتهاء العدة ، وقد يدفعه ذلك لأن يفكر تفكيرا آخر للتعبير بأسلوب وشكل خاطىء .

إذن فالتعريض له فائدة في أنه يُعرف المطلقة رأى فلان فيها حتى إن جاءها غيره لا توافق عليه مباشرة . وهكذا نرى قبساً من رحمة الحق سبحانه وتعالى بنا ، بأن جعل العدة كمنطقة حرام تحمى المرأة ، وجعل التعريض فرصة للتعبير عن العاطفة التي تؤسس مصلحة من بعد ذلك .

إن الحق يقول : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء » والخطبة مأخوذة من مادة « الخاء » و« الطاء » و« الباء » وتدل على أمور تشترك في عدة معالم - منها خُطبة بضم الخاء ، ومنها خَطْب وهو الأمر العظيم ، ومنها المعنى الذي نحن بصدده وهو الخطبة بكسر الخاء . وكل هذه المعالم تدل على أن هناك الأمر العظيم الذي يُعالج ، فالخطب أمر عظيم يهز الكيان ، وكذلك الخُطبة لا يلقيها الخطيب إلا في أمر ذي بال ، فيعظ المجتمع بأمر ضرورى .

والخِطبة كذلك أمر عظيم ؛ لأنه أمر فاصل بين حياتين . حياة الانطلاق ، وحياة التقيد بأسرة وبنظام . وكلها معان مشتركة في أمر ذي بال ، وأمر خطير . وهو سبحانه وتعالى يقول . « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم » أى لا جناح عليكم أن وضعتم في أنفسكم أمراً يخفى على المرأة ، وللمسلم أن يكتم ويخفى في نفسه ما يشاء ، ولكن ما الذى يُدرى ويعلم المطلقة أنها في بالك يا من أسررت أمرها في نفسك ؟ إنك لابد أن تلمح وأن تعرض بأسلوب يليق باحترام المرأة .

ويقول الحق : « علم الله أنكم ستذكرونهن » ، إن الذى خلقك يعلم أنها مادامت في بالك ، ومات زوجها عنها أو طلقها فقد أصبحت أملا بالنسبة لك ، فلو أنه ضيق عليك لعوق عواطفك ، ولضاعت منك الفرصة لأن تتخذها زوجة من بعد ذلك ، ولهذا أباح الحقُّ التعريض حتى لا يقع أحدكم في المحظور وهو « لا تواعدوهن سرا » بأن تأخذوا عليهن العهد ألا يتزوجن غيركم ، أو يقول لها : تزوجيني بل عليه أن يعرض ولا يفصح ولا يصرح . إن المواعدة في السر أمر منهى عنه ، لكن المسموح به هو التعريض بأدب ، « إلا أن تقولوا قولا معروفا » كأن يقول : « يا سعادة من ستكون له زوجة مثلك » . ومثل ذلك من الثناء الذى يُطرب المرأة .

ونعلم جميعا أن المرأة في مثل حال المطلقة أو المتوفى عنها زوجها تملك شفافية وألمعية تلتقط بها معنى الكلام ومراده .

ويتابع الحق : « ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله » وهكذا نرى أن مجرد العزم الأكيد أمر نهي عنه . والعزم مقدم على الفعل فإذا نهى عنه كان النهي عن الفعل أقوى وأشد وأنهى ، فلك أن تنوي الزواج منها وتتوكل على الله ، لكن لا تجعله أمرا مفروغا منه ، إلا بعد أن تتم عدتها ، فإن بلغ الكتاب أجله وانتهت عدتها فاعزموا عقدة النكاح . فكأن عقدة النكاح تمر بثلاث مراحل .

المرحلة الأولى : وهي التعريض أي التلميح .
والمرحلة الثانية : هي العزم الذي لا يصح ولا يستقيم أن يتم إلا بعد انتهاء فترة العدة .
والمرحلة الثالثة : هي العقد .

والمقصود بهذه المراحل أن يأخذ كل طرف فرصته للتفكير العميق في هذا الأمر الجاد ، فإذا كان التفكير قد هدى إلى العزم فإن للإنسان أن يعقد بعد انتهاء العدة ، وإن كان التفكير قد اهتدى إلى الابتعاد وصرف النظر عن مثل هذا الأمر فللإنسان ما يريد .

ويريد الحق من هذه المراحل أن يعطي الفرصة في التراجع إذا اكتشف أحد الطرفين في الآخر أمرا لا يعجبه . وكل هذه الخطوات تدل على أن العقد لا يكون إلا بعزم ، فلا يوجد عقد دون عزم ، إن الحق يريد من المسلم ألا يقدم على عقدة النكاح إلا بعد عزم . والعزم معناه التصميم على أنك تريد الزواج بحق الزواج وبكل مسئولياته ، وبكل مهر الزواج ، ومشروعيته ، وبعفافه ؛ فالزواج بدون أرضية العزم مصيره الفشل .

ومعنى العزم : أن تفكر في المسألة بعمق وروية في نفسك حتى تستقر على رأي أكيد ، ثم لك أن تقبل على الزواج على أنه أمر له ديمومة وبقاء لا مجرد شهوة طارئة ليست لها أرضية من حركة النفس عليه .

ولذلك فإن الزواج القائم على غير روية ، والمعلق على أسباب مؤقتة كقضاء الشهوة لا يستمر ولا ينجح. ومثل ذلك زوج المتعة ؛ فالعلة في تحريم زواج المتعة أن المقدم عليه لا يريد به الاستمرار في الحياة الزوجية ، ومادام لا يقصد منه الديمومة فمعناه أنه هدف للمتعة الطارئة .

والذين يبيحون زواج المتعة مصابون في تفكيرهم ، لأنهم يناسون عنصر الإقبال بديمومة على الزواج ، فما الداعي لأن تقيد زواجك بمدة ؟ إن النكاح الأصيل لا يُقيد بمثل هذه المدة . وتأمل حتى هؤلاء لتعلم أن المسألة ليست مسألة زواج ، إنما المسألة هي تبرير زني ، وإلا لماذا يشترط في زواج المتعة أن يتزوجها لمدة شهر أو أكثر ؟

إن الإنسان حين يشترط تقييد الزوج بمدة فذلك دليل على غباء تفكيره وسوء نيته ؛ لأن الزواج الأصيل هو الذي يدخل فيه بديمومة ، وقد ينهيه بعد ساعة إن وجد أن الأمر يستحق ذلك ، ولن يعترض أحد على مثل هذا السلوك ، فلماذا تقيد نفسك بمدة ؟ إن المتزوج للمتعة يستخدم الذكاء في غير محله ، قد يكون ذكيا في ناحية ولكنه قليل الفطنة في ناحية أخرى

إن على الإنسان أن يدخل على الزواج بعزيمة بعد تفكير عميق وروية ثم يعقد العزم إلى عقد . حذار أن تضع في نفسك مثل هذا الزواج المربوط على مطامع وأهداف في نفسك كعدم الديمومة أو لهدف المتعة فقط ، فكل ما يفكر فيه بعض الناس من أطماع شهوانية ودنيوية هي أطماع زائلة . اصرف كل هذه الأفكار عنك ؛ لأنك إن أردت شيئا غير الديمومة في الزواج ، وإرادة الإعفاف ؛ فالله سبحانه وتعالى يعلمه وسيرد تفكيرك نقمة عليك فاحذره

إن الله سبحانه لا يحذر الإنسان من شيء إلا إذا كان مما يعلمه سبحانه. لذلك يذيل الحق هذه الآية الكريمة بقوله : « واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم » . وهو سبحانه يعلم ضعف النفس البشرية وأنها قد تضعف في بعض الأحيان ، فإن كان قد حدث منها شيء فالله يعطيها الفرصة في أن يتوب صاحبها لأنه سبحانه هو الغفور الحليم. وبعد ذلك يقول الحق سبحانه

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) ﴾

نحن نلاحظ أن الكلام فيما تقدم كان عن الطلاق للمدخول بها ، أو عن المرأة التي دخل بها زوجها ومات عنها . ولكن قد تحدث بعض من المسائل تستوجب الطلاق لامرأة غير مدخول بها . وتأتي هذه الآية لتتحدث عن المرأة غير المدخول بها ، وهي إما أن يكون الزوج لم يفرض لها صداقاً ، وإما أن يكون قد فرض لها صداقاً .

والطلاق قبل الدخول له حكمان : فُرضت في العقد فريضة ، أو لم تفرض فيه فريضة ، فكأن عدم فرض المهر ليس شرطاً في النكاح ، بل إذا تزوجته ولم يفرض في هذا الزواج مهر فقد ثبت لها مهر المثل والعقد صحيح . ودليل ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول : « لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة » ومعنى ذلك أنها كانت زوجة ولم يحدث دخول للزوج بها .

ولنا أن نسأل ما هو المس ؟ ونقول : به مس ، وبه لمس ، وفيه ملامسة فالإنسان قد يمس شيئاً ، ولكن الماس لا يتأثر بالممسوس ، أي لم يدرك طبيعته أو حاله هل هو خشن أو ناعم ؟ دافئ أو بارد ، وإلى غير ذلك .

أما اللمس فلابد من الإحساس بالشيء الملموس ، أما الملامسة فهي حدوث التداخل بين الشيئين . إذن فعندنا ثلاث مراحل : الأولى هي : مس . والثانية لمس . والثالثة : ملامسة . كلمة « المس » هنا دلت على الدخول والوطء ، وهي أخف من اللمس ، وأيسر من أن يقول : لامستم أو باشرتم ، ونحن نأخذ هذا

المعنى ؛ لأن هناك سياقاً قرآنياً في مكان آخر قد جاء ليكون نصاً في معنى ، ولذلك نستطيع من سياقه أن نفهم المعنى المقصود بكلمة « المس » هنا ، فقد قالت السيدة مريم :

﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾

(من الآية ٢٠ سورة مريم)

إن القرآن الكريم يوضح على لسان سيدتنا مريم أن أحداً من البشر لم يتصل بها ذلك الاتصال الذي ينشأ عنه غلام ، والتعبير في منتهى الدقة ، ولأن الأمر فيه تعرض لعورة وأسرار ؛ لذلك جاء القرآن بأحسن لفظ في وصف تلك المسألة وهو المس ، وكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يثبت لها عفافاً حتى في اللفظ ، فنفى مجرد مس البشر لها ، وليس الملامسة أو المباشرة برغم أن المقصود باللفظ هو المباشرة ؛ لأن الآية بصدد إثبات عفة مريم .

ولنتأمل أدب القرآن في تناول المسألة في الآية التي نحن بصددها ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يعبر عن اللفظ بنهاية مدلوله وبأحسن التعبير.

والحق يقول : « أو تفرضوا لهن فريضة » وتعرف أن « أو » عندما ترد في الكلام بين شيئين فهي تعني « إما هذا وإما ذاك » ، فهل نعرض لهن فريضة مقابل المس ؟ إن الأصل المقابل في « ما لم تمسوهن » هو أن تمسوهن ، ومقابل « تفرضوا لهن فريضة » هو أن لا تفرضوا لهن فريضة . كأن الحق عز وجل يقول : لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن سواء فرضتم لهن فريضة أو لم تفرضوا لهن فريضة . وهكذا يحرص الأسلوب القرآني على تنبيه الذهن في ملاحظة المعاني.

ولنا أن نلاحظ أن الحق قد جاء بكلمة « إن » في احتمال وقوع الطلاق ، و« إن » - كما نعرف - تستخدم للشك . فكأن الله عز وجل لا يريد أن يكون الطلاق مجترءاً عليه ومحققاً ، فلم يأت بـ« إذا » ، بل جعلها في مقام الشك حتى تعزز الآية قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق »[1].

---

(1) رواه أبو داود والبيهقي والحاكم عن ابن عمر.

ثم يقول الحق عز وجل بعد ذلك : « ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره » أى إنك إذا طلقت المرأة قبل الدخول ، ولم تفرض لها فريضة فأعطها متعة . وقال العلماء فى قيمة المتعة : إنها ما يوازى نصف مهر مثيلاتها من النساء ؛ لأنه كان من المفروض أن تأخذ نصف المهر ، ومادام لم يُحدَّد لها مهرٌ فلها مثل نصف مهر مثيلاتها من النساء . ويقول الحق : « على الموسع قدره وعلى المقتر قدره » أى ينبغى أن تكون المتعة فى حدود تناسب حالة الزوج ؛ فالموسع الغنى : عليه أن يعطى ما يليق بعطاء الله له ، والمقتر الفقير : عليه أن يعطى فى حدود طاقته .

وقول القرآن « الموسع » مشتق من « أوسع » واسم الفاعل « موسع » ، واسم المفعول « مُوسع عليه » ، فأى اسم من هؤلاء يطلق على الزوج ؟ إن نظرت إلى أن الرزق من الحق فهو « موسع عليه » ، وإن نظرت إلى أن الحق يطلب منك أن توسع حركة حياتك ليأتيك رزقك ، وعلى قدر توسيعها يكون اتساع الله لك ، فهو « موسع » .

إذن فالموسع . هو الذى أوسع على نفسه بتوسيع حركة أسبابه فى الحياة والإقتار هو الإقلال ، وعلى قدر السعة وعلى قدر الإقتار تكون المتعة . والحق سبحانه وتعالى حينما يطلب حكماً تكليفياً لا يقصد إنفاذ الحكم على المطلوب منه فحسب ، ولكنه يوزع المسئولية فى الحق الإيمانى العام ؛ فقوله : « ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره » يعنى إذا وُجد من لا يفعل حكم الله فلا بد أن تتكاتفوا على إنفاذ أمر الله فى أن يمتع كل واحد طلق زوجته قبل أن يدخل بها والجميع فى الأمر وهو قوله : « ومتعوهن » دليل على تكاتف الأمة فى إنفاذ حكم الله وبعد ذلك قال :

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ

﴿ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

أى مادام لم يدخل بها ولم يتمتع بها فلا تأخذ المهر كله ، إنما يكون لها النصف من المهر . ولنعلم أن هناك فرقا بين أن يوجد الحكم بقانون العدل ، وبين أن يُنظر في الحكم بناحية الفضل ، وأحكى هذه الواقعة لنتعلم منها

ذهب اثنان إلى رجل ليحكم بينهما فقالا : احكم بيننا بالعدل . قال : أتحبون أن احكم بينكما بالعدل ؟ أم بما هو خير من العدل ؟ فقالا : وهل يُوجد خير من العدل ؟ قال : نعم . الفضل .

إن العدل يعطى كل ذى حق حقه ، ولكن الفضل يجعل صاحب الحق يتنازل عن حقه أو عن بعض حقه . إذن فالتشريع حين يضع موازين العدل لا يريد أن يحرم المجتمع الإيمانى من أريحية الفضل ؛ فهو يعطيك العدل ، ولكنه سبحانه يقول بعد ذلك : « ولا تنسوا الفضل بينكم » ؛ فالعدل وحده قد يكون شاقاً وتبقى البغضاء فى النفوس ، ولكن عملية الفضل تنهى المشاحة والمخاصمة والبغضاء .

والمشاحة إنما تأتى عندما أظن أنى صاحب الحق ، وأنت تظن أنك صاحب الحق ، ومن الجائز أن تأتى ظروف تزين لى فهمى ، وتأتى لك ظروف تزين لك فهمك ، فحين نتمسك بقضية العدل لن نصل إلى مبلغ التراضى فى النفوس البشرية . ولكن إذا جئنا للفضل تراضينا وانتهينا .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن » أى من قبل أن تدخلوا بهن « وقد فرضتم لهن فريضة » يعنى سميتم المهر « فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون » ، والمقصود بـ « يعفون » هو الزوجة المطلقة .

إن بعض الجهلة يقولون والعياذ بالله : إن القرآن فيه خطأ . وظنوا أن الصحيح فى اللغة أن يأتى القول : إلا أن يعفوا بدلا من « إلا أن يعفون » . وهذا اللون

من الجهل لا يفرق بين « واو الفعل » و« واو الجمع » إنها هنا « واو الفعل » فقول الحق : « إلا أن يعفون » مأخوذة من الفعل « عفا » و« يعفو » .

وهكذا نفهم أن للزوجة أن تعفو عن نصف مهرها وتتنازل عنه لزوجها ويتابع الحق : « أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح » والمقصود به الزوج وليس الولي ، لأن سياق الآية يُفهم منه أن المقصود به هو الزوج ، مع أن بعض المفسرين قالوا : إنه ولي الزوجة ولنا أن نعرف أن الولي ليس له أن يتدخل في مسألة مهر المرأة ؛ لأن المهر من حق الزوجة ، فهو أصل مال ، وأصل رزق في حياة الناس ؛ لأنه نظير التمتع بالبضع

ولذلك نجد بعض الناس لا يصنعون شيئاً بصداق المرأة ، ويدخرونه لها بحيث إذا مرض واحد شترت له من هذا الصداق ولو قرص أسبرين مثلاً ؛ لأنه علاج من رزق حلال ، فقد يجعل الله فيه الشفاء . فالمرأة تحتفظ بصداقها الحلال لمثل هذه المناسبات لتصنع به شيئاً يجعل الله فيه خيراً ، لأنه من رزق حلال لا غش فيه ولا تدليس .

وأرد على المفسرين الذين نادوا بأن ولي الزوجة هو الذي يعفو وأقول : لماذا يأتي الله بحكم تتنازل فيه المرأة عن حقها وأن تعفو عن النصف ، والرجل لا يكون أريحياً ليعفو عن النصف ؟ لماذا تجعل السماء الغرم كله على المرأة ؟ هل من المنطق أن تعفو النساء أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح يعني أولياء الزوجة ، فنجعل العفو يأتي من الزوجة ومن أوليائها ؛ أي من جهة واحدة ؟

إن علينا أن نحسن الفهم لسياق الفضل الذي قال الله فيه : « ولا تنسوا الفضل بينكم » ، إن التفاضل في العفو يكون بين الاثنين ، بين الرجل والمرأة ، ونفهم منه المقصود بقوله تعالى : « أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح » أنه هو الزوج ، فكما أن للمرأة أن تعفو عن النصف المستحق لها فللزوج أن يعفو أيضاً عن النصف المستحق له

ويقول الحق : « وأن تعفوا أقرب للتقوى » ؛ لأن من الجائز جداً أن يظن أحد الطرفين أنه مظلوم ، وإن أخذ النصف الذي يستحقه . لكن إذا لم يأخذ شيئاً فذلك أقرب للتقوى وأسلم للنفوس ولنا أن نتذكر دائماً في مثل هذه المواقف قول الحق

« ولا تنسوا الفضل بينكم » فحتى فى مقام الخلاف الذى يؤدى إلى أن يفترق رجل عن امرأة لم يدخل بها يقول الله . « ولا تنسوا الفضل بينكم » أى لا تجعلوها خصومة وثأراً وأحقاداً ، واعلموا أن الحق سبحانه يجعل من بعض الأشياء أسباباً مقدورة لمقدور لم نعلمه . وهذه المسألة تجعل الإنسان لا يعتقد أن أسبابه هى الفاعلة وحدها .

ومثال ذلك . قد نجد رجلاً قد أعجب بواحدة رآها فتزوجها ، أو واحدة أخرى رآها شاب ولم تعجبه ، ثم جاء لها واحد آخر فأعجب بها ، معنى ذلك أن الله عز وجل كتب لها القبول ساعة رأت الشاب أهلاً لها ورآها هى أهلاً له . ولذلك كان الفلاحون قديماً يقولون : لا تحزن عندما يأتى واحد ليخطب ابنتك ولا تعجبه ؛ لأنه مكتوب على جبهة كل فتاة:أيها الرجال عفوا - بكسر العين وتشديد الفاء - عن سواه الرجال ، فهى ليست له ، ولذلك فليس هذا الرجل من نصيبها . وعلينا ألا نهمل أسباب القدر فى هذه الأمور ، لأن هذا أدعى أن نحفظ النفس البشرية من الأحقاد والضغائن

ويختم الحق الآية بقوله : « إن الله بما تعملون بصير » إنه سبحانه يعلم ما فى الصدور وما وراء كل سلوك وبعد ذلك تأتى آية لتثبت قضية إيمانية ، هذه القضية الإيمانية هى أن تكاليف الإسلام كلها تكاليف مجتمعة ، فلا تستطيع أن تفصل تكليفاً عن تكليف ، فلا تقل : « هذا فرض تعبدى » و« هذا مبدأ مصلحىّ » و« هذا أمر جنائى » ، لا إن كل قضية مأمور بها من الحق هى قضية إيمانية تكوّن مع غيرها منهجاً متكاملاً .

فبعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الطلاق يقول :

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ

فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

ثم يعود إلى الأسرة وإلى المفرق عنها زوجها فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾

(سورة البقرة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى فصَلَ بآية « حافظوا على الصلوات .. » بين قضية واحدة هي قضية الفراق بين الزوجين وقسمها قسمين ، وأدخل بينهما الحديث عن الصلاة ، وذلك لينبهنا إلى وحدة التكاليف الإيمانية ، ونظرا لأن الحق يتكلم هنا عن أشياء كل مظاهرها إما شقاق اختيارى بالطلاق ، وإما افتراق قسرى بالوفاة ، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يدخل الإنسان فى العملية التعبدية التى تصله بالله الذى شرع الطلاق والصلاة وقدر الوفاة .

ولماذا اختار الله الصلاة دون سائر العبادات لتقطع سياق الكلام عن تشريع الطلاق والفرق ؟ لأن الصلاة هى التى تهب المؤمنين الاطمئنان ، إذ كانت أمور الزوج والطلاق حرتهم وأهمتهم فى شقاق الاختيار فى الطلاقات التى وقعت أو عند الافتراق بالوفاة ، ولن يربط على قلوبهم إلا أن يقوموا لربهم ليؤدوا الصلاة ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من يفعل ذلك ، كان إذا ما حزبه أمر قام إلى الصلاة .

إن المؤمن يذهب إلى الخالق الذى أجرى له أسباب الزواج والطلاق والفراق ؛

ليسأله أن يخفف عنه الهم والحزن . ومادام المؤمن قد اختار الذهاب إلى من يُجرى الأقدار عليه أن يعرف أن الله الذى أجرى تلك الأقدار عليه لم يتركها بلا أحكام ، بل وضع لكل أمر حكماً مناسباً ، وما على المؤمن إلا أن يأخذ الأمور القدرية برضا ثم يذهب إلى الله قانتاً وخاشعاً ومصلياً . لأن المسألة مسألة الطلاق أو الوفاة فيها فزع وفراق اختيار أو فراق الموت القدرى .

ويأتى قوله تعالى - « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » لنفهم أن المقصود فى الآية هى الصلوات الخمس ، فما المقصود بالصلاة الوسطى ؟

ساعة يأتى خاص وعام مثل قوله تعالى .

﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة نوح)

فكم مرة دخل الأب والأم هنا ؟ لقد دخلوا فى قوله تعالى : «اغفر لى ولوالدى » ، وفى قوله : « ولمن دخل بيتى » ، وفى قوله . « وللمؤمنين والمؤمنات » ، أى دخلوا ثلاث مرات .

إذن فإيجاد عام بعد خاص ، يعنى أن يدخل الخاص فى العام فيتكرر الأمر بالنسبة للخاص تكراراً يناسب خصوصيته .

وقوله تعالى « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » نفهم ذلك المعنى فإذا سألنا : ما معنى حافظوا ؟ الجواب - إذن - يقتضى أن نفهم أن عندنا « حفظاً » يقابل « النسيان » ، و« حفظ » يقابله « التضييع » ، والاثنان يلتقيان . فالذى حفظ شيئاً ونسيه فإنه قد ضيعه والذى حفظ مالا ثم بدده ، لقد ضيعه أيضاً ، إذن كلها معان تلتقى فى فقد الشىء ، فالحفظ معناه أن تضمن بقاء شىء كان عندك ، فإذا ما حفظت آية فى القرآن فلا بد أن تحفظها فى نفسك ، ولو أنعم الله عليك بمال فلا بد أن تحافظ عليه

وقوله : « حافظوا على الصلوات » معناه لا تضيعوها . ويحتمل معنى آخر هو أنكم قد ذقتم حلاوة الصلاة في القرب من محبة ربكم ، وذلك أجدر وأولى أن تتمسكوا بها أكثر ، وذلك القول يسرى على الصلوات الخمس التي نعرفها .

قوله تعالى : « والصلاة الوسطى » ذكر للخاص بعد العام ، فكأن الله أمر بالمحافظة على ذلك الخاص مرتين ، مرة في دائرة العموم ومرة أخرى أفردها الله بالخصوص . وما العلة هنا في تفرد الصلاة الوسطى بالخصوص ؟ إن « وسطى » هي تأنيث « أوسط » ، والأوسط والوسطى هي الأمر بين شيئين على الاعتدال ، أي أن الطرفين متساويان ، ولا يكون الطرفان متساويين في العدد - وهي الصلوات الخمس - إلا إذا كانت الصلوات وتراً ، أي مفردة ، لأنها لو كانت زوجية لما عرفنا الوسطى فيها ، ومادام المقصود هو وسط الخمس ، فهي الصلاة الثالثة التي يسبقها صلاتان ويعقبها صلاتان ، هذا إن لاحظت العدد ، باعتبار ترتيب الأول والثاني والثالث والرابع والخامس .

وإذا كان الاعتبار بفرضية الصلاة فإن أول صلاة فرضها الله عز وجل هي صلاة الظهر ، هذا أول فرض ، وبعده العصر ، فالمغرب ، فالعشاء ، فالفجر ، فإن لاحظت الوسطى بالتشريع فهي صلاة المغرب وهذا رأى يقول به كثير من العلماء .

وإن أخذت الوسطى بحسب عدد ركعات الصلاة ستجد أن هناك صلاة قوامها ركعتان هي صلاة الفجر وصلاة من أربع ركعات هي صلاة الظهر والعصر والعشاء ، وصلاة من ثلاث ركعات هي صلاة المغرب . والوسط فيها هي الصلاة الثلاثية ، وهي وسط بين الزوجية والرباعية فتكون هي صلاة المغرب أيضاً . وإن أخذتها بالنسبة للنهار فالصبح أول النهار والظهر بعده ثم العصر والمغرب والعشاء ، فالوسطى هي العصر .

وإن أخذتها على أنها الوسط بين الجهرية والسرية فيحتمل أن تكون هي صلاة الصبح أو صلاة المغرب ؛ لأن الصلوات السرية هي الظهر والعصر ، والجهرية هي المغرب والعشاء والفجر . وبين العشاء والظهر تأتي صلاة الصبح ، أو صلاة المغرب باعتبار أنها تأتي بين الظهر والعصر من ناحية ، والعشاء والصبح من ناحية أخرى .

وإن أخذتها لأن الملائكة تجتمع فيها فهي فى طرفى النهار والليل فلذلك يعنى صلاة العصر أو صلاة الصبح إذن ، فالوسط يأتى من الاعتبار الذى تحسب به إن كان عددا أو تشريعا ، او عدد ركعات ، او سرية أو جهرية او بحسب نزول ملائكة ا . ر والليل ، وكل اعتبار من هؤلاء له حكم

ولماذا أخفى الله ذكرها عنا ؟ نقول : أخفاها لينتبه كل منا ويعرف أن هناك فرقا بين الشىء لذاته ، والشىء الذى يُبهم فى سواه ؛ ليكون كل شىء هو الشىء فيؤدى ذلك إلى المحافظة على جميع الصلوات

فما دامت الصلاة الوسطى تصلح لأن تكون الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء فذلك أدعى للمحافظة على الصلوات جميعا . وإبهام الشىء إنما جاء لإشاعة بيانه ولذلك أبهم الله ليلة القدر للعلة نفسها وللسبب نفسه ، فبدل أن تكون ليلة قدر واحدة أصبحت ليالى أقدار .

كذلك قوله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » أى على الصلوات الخمس بصفة عامة وكل صلاة تنفرد بصفة خاصة . ويريد الحق سبحانه أن نقوم لكل صلاة ونحن قانتون ، والأمر الواضح هو « وقوموا لله قانتين » وأصل القنوت فى اللغة هو المداومة على الشىء ، وقد حض وحث القرآن الكريم على ديمومة طاعة الله ولزوم الخشوع والخضوع ، ونرى ذلك فى قول الحق الكريم .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

إن الحق سبحانه يبلغ رسوله صلى الله عليه وسلم ليبلغنا نحن المسلمين المؤمنين برسالته أن نقارن بين الذى يخشع لله فى آناء الليل فيقضيه قائما وساجدا يرجو رحمة ربه ، وبين الذى يدعو ربه فى الضراء وينساه فى السراء ، هل يستوى الذين يعلمون حقوق الله فيطيعوه ويوحدوه والذين لا يعلمون فيتركوا النظر والتبصر فى أدلة قدرات

الله ؟ إن السبيل إلى ذكر الله هو تجديد الصلة به والوقوف بين يديه مقيمين للصلاة .

ونحن نتلقى الأمر بإقامة الصلاة حتى فى أثناء القتال ، لذلك شرع لنا صلاة الخوف ، فالقتال هو المسألة التى تخرج الإنسان عن طريق أمنه ، فيقول سبحانه . « فإن خفتم فرجالا أو ركبانا » ، إننا حتى فى أثناء القتال والخوف لا ننسى ذكر الله ؛ لأننا أحوج ما نكون إلى الله أثناء مواجهتنا للعدو ، ولذلك لا يصح أن نجعل السبب الذى يوجب أن نكون مع الله مبررا لأن ننسى الله .

وكذلك المريض ، مادام مريضاً فهو مع معية الله ، فلا يصح أن ينقطع عن الصلاة ؛ لأنه لا عذر لتاركها ، حتى المريض إن لم يستطع أن يصلى واقفا صلى قاعدا ، فإن لم يستطع قاعدا ، فليصل مضطجعا ، ويستمر معه الأمر حتى لو اضطر للصلاة برموش عينيه . كذلك إن خفتم من عدوكم صلوا رجالا ، يعنى سائرين على أرجلكم أو ركبانا و« رجالا » جمع « راجل » أى يمشى على قدميه ، ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الحج)

لقد كان الناس يؤدون فريضة الحج سيرا على الأقدام أو ركبانا على إبل يضمرها السفر من كل مكان بعيد . إذن فالراجل هو من يمشى على قدميه . والأرجل مخلوقة لتحمل بنى الإنسان : الواقف منهم ، وتقوم بتحريك المتحرك منهم ، فإن كان الإنسان واقفا حملته رجلاه ، وإن كان ماشيا فإن رجليه تتحركان . والمقصود هنا أن الصلاة واجبة على المؤمنين سائرين على أقدامهم أو ركبانا

هذه المسألة قد فصلها الحق سبحانه وتعالى فى صلاة الخوف بأن قسم المسلمين قسمين : قسما يصلى مع النبى عليه الصلاة والسلام فى الركعة الأولى ، ثم يتمون الصلاة وحدهم ويأتى القسم الآخر ليأتم بالرسول فى الركعة التى بعدها حتى تنتهى الصلاة بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم ، وينتظرهم حتى يفرغوا من صلاتهم ويسلم بهم ، فيكون الفريق الأول أخذ فضل البدء مع الرسول ، والفريق الآخر أخذ فضل الانتهاء من الصلاة مع الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان ذلك فى غزوة ذات الرقاع

فكلٌ من الفرقتين كانت تقف فى وجه العدو للحراسة فى أثناء صلاة الفرقة الأخرى .

وفى رأى فى هذه المسألة هو أن صلاة الخوف بالصور التى ذكرها الفقهاء إنما كانت للمعارك التى يكون فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لا يصح أن يكون هناك جيش يصلى خلف النبى صلى الله عليه وسلم ويحرم الباقى من أن يصلى خلفه ، لذلك جعل الله بركة الصلاة مع رسول الله للقسمين

لكن حينما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى فمن الممكن أن يكون للواقفين أمام العدو إمام وللآخرين إمام ، إذن كان تقسيم الصلاة وراء الإمام فى صلاة الخوف إنما كان لأن الإمام هو الإمام الأعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يشأ الله أن يحجب قوما عن الصلاة مع رسول الله عن قوم آخرين ، فقسم الصلاة الواحدة بينهم . لكن فى وقتنا الحالى الذى انتظمت فيه المسائل ، وصار كل الناس على سواء ، ولم يعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا ، لذلك يصح أن تُصلى كل جماعة بإمام خاص بهم

وقوله الحق : « فإن خفتم فرجالا أو ركبانا » نفهم منه أن الصلاة لا تسقط حتى عند لقاء العدو ، فإذا حان وقت الصلاة فعلى المؤمن أن يصليها إذا استطاع فإن لم يستطع فليكبر تكبيرتين[1] ويتابع الحق فيقول : « فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون » أى اذكروا الله على أنه علمكم الأشياء التى لم تكونوا تعلمونها ، فلو لم يعلمكم فهل كنتم تعلمون ؟

وبعد ذلك يعود الحق لسياق الحديث عن المتوفى عنها زوجها فيقول .

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ

(١) انظر تفسير القرطبى للآية الكريمة رقم ٢٣٩ - سورة البقرة

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾

في آية سابقة قال الحق :

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾

(سورة البقرة)

إذن نحن أمام حكمين للذين يتوفون ويذرون أزواجا ، حكم أن تتربص بنفسها أربعة أشهر وعشرا ، وحكم آخر بأن للزوج حين تحضره الوفاة أو أسبابها أو مقدماتها أن ينصح ويوصى بأن تظل الزوجة في بيته حولا كاملا لا تُهاج ، وتكون الأربعة الأشهر والعشر فريضة وبقية الحول والعام وصية ، إن شاءت أخذتها وإن شاءت عدلت عنها .

« والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية » هذه وصية من الزوج عندما تحضره الوفاة .

إذن فالمتوفى عنها زوجها بين حكمين : حكم لازم وهو فرض عليها بأن تظل أربعة أشهر وعشرا ، وحكم بأن يوصى الزوج بأن تظل حولا كاملا لا تُهاج إلا أن تخرج من نفسها . « غير إخراج » أي لا يخرجها أحد . « فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم » . إن لها الخيار أن تظل عاما حسب وصية زوجها ، ولها الخيار في أن تخرج بعد الأربعة الأشهر والعشر

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ ﴾

إن لكل المطلقات في أي صورة من الصور متاعا ، ولكنه سبحانه قد بين المتاع في كل واحدة بدليل أنه أوضح لنا « إن لم تفرضوا لهن فريضة فقال » « ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره » . وإن كنتم فرضتم لها مهرًا فنصف ما فرضتم ، فكأن الله قد جعل لكل حالة حكما يناسبها ، ولكل مطلقة متعة بالقدر الذي قاله سبحانه . وعندما نتأمل قول الحق من بعد ذلك :

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾

فنحن نعرف مما سبق أن الآيات هي الأمور العجيبة ، والحق سبحانه وتعالى حين ينبه العقل إلى استقبال حكم بالتعقل يكون العقل المحض لو وجه فكره إلى دراسة أسباب هذا الموضوع فلن ينتهي إلا إلى هذا الحكم . ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى يترك لبعض المشادات في التعامل والثارات في الخصومة أن تخرج عن حكم ما شرع الله في أي شيء من الأشياء التي تقدمت ، ثم يصيب المجتمع شر من المخالفة ، وكأنه بذلك يؤكد حكمته في تشريع ما شرع . وإلا لو لم تحدث من المخالفات شرور لقال الناس : إنه لا داعي للتشريع ولتركوا التشريع دون أن يصيبهم شر .

إذن فحين لا نلتزم بالتشريع فالمنطق والكمال الكوني أن تحدث الشرور ؛ لأنه لو لم تحدث الشرور لاتهم الناس منهج الله وقالوا : إننا لم نلتزم يارب بمنهجك ، ومع ذلك لا شرور عندنا . فكأن الشرور التي نجدها في المجتمع تلفتنا إلى صدق الله وكمال حكمته في تحديد منهجه . وهكذا يكون المخالفون لمنهج الله مؤيدين لمنهج الله . وبعد ذلك ينتقل الحديث إلى علاج قضية إيمانية وهو أن اللهَ حين يقدر قدرا لا يمكن لمخلوق أن يفلت من هذا القدر ، يقول سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن ما يتعلق بالأسرة المسلمة في حالة علاج الفراق في الزواج إما بالطلاق وإما بالوفاة ، أراد الحق سبحانه وتعالى للأمة الإسلامية أن تعرف أن أحداً لن يفر من قدر الله إلا إلى قدر الله ، فالأمة الإسلامية هي الأمة التي أمنها على حمل رسالة ومنهج السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة ، فلم يعد محمد صلى الله عليه وسلم يأتي ولا نبي يُبعث . ولا بد لمثل هذه الأمة أن تُربى تربية تتناسب مهمتها التي حملها الله إياها . ولا بد أن يضع الحق سبحانه وتعالى بين يدي هذه الأمة كل ما لاقته وصادفته مواكب الرسل في الأمم السابقة ليأخذوا العبرة من المواقف ويتمثلوا المنهج لا من نظريات تُتلى ولكن من واقع قد دُرس ووقع في المجتمع

أراد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى أساس المسألة وهو أنه سبحانه واهب الحياة ولا أحد غيره ، وواهب الحياة هو الذي يأخذها . ولم يضع هبة الحياة سبباً عند

الناس . وإنما هو سبحانه الذى يحيى ويميت . وفى الحياة والموت استبقاء للنوع الإنسانى ، ولكن استبقاء حياة الأفراد إنما ينشأ بالقوت الذى ينشأ من التمول .

ويعالج الحق هذه المسألة بواقع سبق أن عاشه موسى عليه السلام مع قومه وهم بنو إسرائيل ، ونعرف أن قصة موسى مع قومه قد أخذت أوسع قصص القرآن ؛ لأنها الأمة التى أتعبت الرسل ، وأتعبت الأنبياء ، وكان لا بد أن يعرض الحق هذا الأمر برمته على أمة محمد صلى الله عليه وسلم من واقع ما حدث ، فقال سبحانه « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت » . ونعرف من هذا القول أن علة الخروج إنما كانت مخافة أن يموتوا . أما عن سبب هذا الموت فلم تتعرض له الآيات ، وإن تعرض المفسرون له وقالوا كلاما طويلاً ، فمنهم من قال إنهم خرجوا هربا من وباء يحل بالبلد خشية أن يموتوا ، وبعضهم قال : إنهم خرجوا فرارا من عدو قد سُلط عليهم ليستأصلهم ، المهم أنهم أرادوا أن يفروا خوفا من الموت

إذن فالقرآن يعالج تلك المسألة من الزاوية التى تهم ، ولكن ما هو السبب ولماذا الخروج ؟ فذلك أمر لا يهم ؛ لأن القرآن لا يعطى تاريخا ، فلم يقل متى كانت الوقائع ولا زمنها ، ولا على يد من كان هذا ، ولا يحدد أشخاص القصة ، كل ذلك لا يهتم به القرآن والذين يتعبون أنفسهم فى البحث عن تفاصيل تلك الأمور فى القصص القرآنى إنما يحاولون أن يربطوا الأشياء بزمن مخصوص ، ومكان مخصوص ، وأشخاص مخصوصة .

ونقول لهم : إن القرآن لو أراد ذلك لفعل ، ولو كان ذلك له أصل فى العبرة والعظة لبيّنه الحق لنا ، وأنتم تريدون إضعاف مدلول القصة بتلك التفاصيل ؛ لأن مدلول القصة إن حدد زمنه ، فربما قيل إن الزمن الذى حدثت فيه كان يحتمل أن تحدث تلك المسألة والزمن الآن لم يعد يحتملها ، وربما قيل : إن هذا المكان الذى وقعت فيه يحتمل حدوثها ، إنما الأمكنة الأخرى لا تحتمل وكذلك لو حددها بشخصيات معينة لقيل : إنّ القصص لا يمكن أن تحدث إلا على يد هذه الشخصيات ؛ لأنها فلتات فى الكون لا تتكرر .

إن الله حين يبهم في قصة ما عناصر الزمان والمكان والأشخاص وعمومية الأمكنة إنه ـ سبحانه ـ يعطى لها حياة في كل زمان وفي كل مكان وحياة مع كل شخص ، ولا يستطيع أحد أن يقول : إنها مشخصة . وأضرب ذاتيا هذا المثل بالذين يحاولون أن يعرفوا زمن أهل الكهف ومكان أهل الكهف وأسماء أهل الكهف وكلب أهل الكهف . نقول هؤلاء : أنتم لا تقرءون القصة ، لأنكم عندما تحددون لها زمانا ومكانا وأشخاصا فسيقال : إنها لا تنفع إلا للزمان الذي وقعت فيه .

وبذلك إذا أراد الحق أن يبهم فقد أبهم ليعمم ، وإن أراد أن يحدد فهو يشخّص . ومثال ذلك قوله تعالى :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة التحريم)

لم يحدد الحق هنا اسم أي امرأة من هاتين المرأتين ، بل ذكر فقط الأمر المهم وهو أن كلا منهن كانت زوجة لرسول كريم ، ومع ذلك لم يستطع نوح عليه السلام أن يستلب العقيدة الكافرة من زوجته ، ولم يستطع لوط عليه السلام أن يستلب العقيدة الكافرة من زوجته ، بل كانت كل من المرأتين تتآمر ضد زوجها ـ وهو الرسول ـ مع قومها ، لذلك كان مصير كل منها النار . والعبرة من القصة أن اختيار العقيدة هو أمر متروك للإنسان ، فحرية العقيدة أسس واضح من أسس المنهج .

وأيضا قال سبحانه في امرأة فرعون :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة التحريم)

لم يذكر اسمها ؛ لأنه لا يهمنا في المسألة ، المهم أنها امرأة من ادّعى الألوهية ،

ومع ذلك لم يستطع أن يقنع امرأته بأنه إله . لكن حينما أراد أن يشخص قال في مريم عليها السلام :

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ۝١٢ ﴾

(سورة التحريم)

لقد ذكرها الحق وذكر اسم والدها ، ذلك لأن الحدث الذي حدث لها لن يتكرر في امرأة أخرى . فالذين يحاولون أن يُقَوّوا القصة بذكر تفاصيلها نقول لهم : أنتم تفقرون القصة ، فالمهم هو أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقول : إنهم خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت . ويريد أن نقف موقفا لنتوبا عند قول الحق : « ألم تر » .

أنت تقول للإنسان : « ألم تر » يعني ألم ير بعينيه ، وبالله هل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهل المؤمنون معه والمؤمنون بعده إلى أن تقوم الساعة رأوا هذه المسألة ؟ لا . لقد وصلتهم بوسيلة السماع وليس بالرؤية . ونحن نعلم أن الرؤية تكون بالعين ، والسماع يكون بالأذن ، والتذوق يكون باللسان ، والشم يكون بالأنف ، واللمس يكون باليد ، إن هذه هي الوسائل التي تعطي للعقل إدراكا وإحساسا لكي يعطي معلومات ، وفي ذلك اقرأ قوله تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨ ﴾

(سورة النحل)

إذن فوسيلة العلم تأتي من الحواس ، وسيدة الحواس هي العين ؛ لأنه من الممكن أن تسمع شيئا من واحد بتجربته هو ، لكن عندما ترى أنت بنفسك فتكون التجربة خاصة بك ، ولذلك يقال : « ليس من رأى كمن سمع » ، فإذا أراد الحق أن يقول : ألم تعلم يا من أخاطبك بالقرآن خبر هؤلاء القوم ؟ فهو سبحانه يأتي بها على هذه الصورة : « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم » ويعني ألم تعلم والعلم هنا بأي وسيلة ؟ بالسمع .

ولماذا لم يختصر سبحانه المسافة ويقول : « ألم تسمع » بدلا من « ألم تر » ؟ . إنه في قوله : « ألم تر » يخبرك بشيء سابق عن وجودك أو بشيء متأخر عن وجودك ، فعليك أن تستقبله استقبالك لما رأيته ؛ لأن الله الذي خلق الحواس هو ـ سبحانه ـ أصدق من الحواس ، ولذلك جاء قوله تعالى في سورة الفيل .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① ﴾

(سورة الفيل)

إننا نعرف أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد في عام الفيل ولم ير هذه الحادثة فكيف يقول الله له ألم تر ؟ إن المعنى من ذلك هو « ألم تعلم » ؟ « ألم تسمع مني » ولم يقل « ألم تسمع » ؟ لكي يؤكد له أنه سيقول له حدثا هو لم يره ولكن الحق سيخبره به ، وإخبار الحق له كأنه يراه . فكأن الله يقول : إن هذه مسألة مفروغ منها وساعة أخبرك بها فكأنك رأيتها .

ونحن نسمع في حياتنا قول الناس : إن فلانا ألمعي . ومعنى ذلك أنه يحدثك حديثا كأنه رأى أو سمع .

الألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

ويحدثنا الحق عن هؤلاء القوم فيقول : « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم » . إنه سبحانه يخبرنا بأن الأمر الذي يفرون منه لاحق بهم ، لأنه لا يحتاط من قدر الله أحد ، لذلك أماتهم الله ثم أحياهم ليتعظوا . ولو أخر الله الإحياء إلى يوم البعث فلن تؤثر العبرة ؛ لأنه بعد يوم القيامة لا اختبار ولا تكليف ، وكل ذلك لا قيمة له .

وقوله تعالى : « حذر الموت » بيان لعلة الخروج ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لهم أن هذه قضية لا ينفع فيها الحذر ، أنتم خرجتم خوفا من الموت سأميتكم ، والذي كنتم تطلبونه بعد الموت سأحدث لكم غيره ، لذلك أحياهم إحياءً آخر حتى يتحسروا ، ويلحقوا أجلهم المكتوب ، ثم أحياهم ؛ حتى يبين لكم أن أمر الموت بيده

سبحانه سواءً كان خوفهم من الموت نابعا من أعدائهم أو من وباء وطاعون، فالأمر في جوهره لا يختلف، ولو أن الآية ذكرت أنهم خرجوا خوف من وباء ما كنا فهمنا منها احتمال خروجهم خوفا من أعدائهم. إذن إبهام السبب المباشر في القصة أعطاها ثراءً.

وقوله تعالى: «وهم ألوف» يبين لنا مدى الخيبة والغباء الذي كانوا فيه، لأنهم كيف يخرجون خائفين من الأعداء وهم ألوف مؤلفة. ولم يظهر واحد من هؤلاء الألوف ليقول لهم: إن الموت والحياة بيد الله «ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا».

وساعة تأمر مأمورا منك بأمر فلا بد أن يكون عندك طلاقة قدرة أن تفعل، وهل إذا قلت لأحد: مت، سيموت؟ إذا أمات نفسه فقد قتلها، وفرق كبير بين الموت والقتل. إنما الموت يأتي بلا سبب من الميت، ولكن القتل ربما يكون بسبب الانتحار أو بأي وسيلة أخرى، المهم أنه قتل للنفس وليس موتا.

ويوضح لنا الحق الفرق بين القتل والموت حين يقول:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾

(سورة آل عمران)

ولقد جاءت هذه الآية في مجال استخلاص العبر من موقعة أحد حين شاع بين المسلمين أن رسول الله ﷺ قد قتل، ففكر بعض منهم في الارتداد، وجاء قول الحق سبحانه موضحا أن رسول الله ﷺ هو نبي سبقه رسل جاءوا بالمنهج، والأمة المسلمة التي أمنها الله على تمام المنهج لا يصح أن يهتز الإيمان فيها بموت الرسول الكريم؛ لأن من ينقلب ويرتد فلن يضر الله شيئاً، إنما الجزاء سيكون للشاكرين العارفين فضل منهج الله.

ولك أن تعرف أن الحق سبحانه جاء بالموت كمقابل للقتل، وأوضح في الآية

التالية أمر الموت حين قال :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فأمر الموت مرهون بمشيئة الله وطلاقة قدرته وتحديده لكل أجل بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ، وسيلقى كل إنسان نتيجة عمله،فمن عمل للدنيا فقط نال جزاءه فيها ، ومن عمل للآخرة فسيجزيه الله في دنياه وآخرته .

لذلك يصدر الأمر من الحق بقوله : « فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم » فلم يكن بإرادتهم أن يصنعوا موتهم ، أو أمر عودتهم إلى الحياة ، لكنه أمر تسخيرى . إنهم يموتون بطلاقة قدرته المتمثلة فى « كن فيكون » ويعودون إلى الحياة بتمام طلاقة القدرة المتمثلة فى « كن فيكون » . فليس لهم رأى فى مسألة الموت أو العودة للحياة . إنه أمر تسخيرى ، كما قال الحق من قبل للأرض والسماء :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

لقد شاءت قدرته أن يخلق السماء على هيئة دخان فوجدت ، وخلقه للسماوات والأرض على وفق إرادته وهو هين عليه بمنزلة ما يقال للشىء احضر راضيا أو كارها ، فيسمع الأمر ويطيعه . وهذه أمور تسخيرية من الخالق الأكرم ، وليس للمخلوق من سماوات وأرض وما بينهما إلا الامتثال للأمر التسخيرى من الخالق عز وجل عندما يقول الحق سبحانه : « موتوا ثم أحياهم » فهذا أمر تسخيرى بالموت ، وأمر تسخيرى بعودتهم إلى الحياة .

والبس الموت هو ما خافوه وفروا منه واحتاطوا بالهرب منه ؟ نعم ، لكن لا أحد

بقادر على أن يحتاط على قدر الله ، لأن الحق أراد لهم أن يعرفوا أن أحداً لا يفر من قدر الله إلا لقدر الله . ولذلك قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أراد للناس ألا تذهب إلى أرض فيها الطاعون . قالوا له :

- أتفر من قدر الله ؟
قال عمر : نعم . نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله .

إن ذلك يجعل الإنسان في تسليم مطلق بكل جوارحه لله . صحيح على الإنسان أن يحتاط ، ولكن القدر الذي يريده الله سوف ينفذ . والمؤمن يأخذ بالأسباب ، ويسلم أمره إلى الله .

وقد يقول قائل : لماذا لم يترك الله هؤلاء القوم من بني إسرائيل ليموتوا وإلى أن يأتي البعث يوم القيامة ليحاسبهم ؟

وأقول : لقد أراد الحق سبحانه بالأمر التسخيري بالإحياء ثانية أن توجد العبرة والعظة ، ولتظل ماثلة أمام أعين الخلق ومحفوظة في أكرم كتاب حفظه الله منهجاً للناس وهو القرآن الكريم . إن الحق أراد بالأمر عظة واعتباراً وتجربة يموتون بأمر تسخيري ، ويعودون إلى الحياة بأمر تسخيري آخر ، ثم يعيشون الحياة المقدرة لهم ويموتون بعدها حتف أنوفهم ، ولتظل عبرة ماثلة أمام كل مؤمن حق ، فلا يخاف الموت في سبيل الله .

لقد أراد الله بهذه التجربة أن يستخدم قضية الجهاد في سبيل الله ، فلا يظن ظان أن القتال هو الذي يسبب الموت ، إنما أمر الموت والحياة بيد واهب الحياة . وها هو ذا قول خالد بن الوليد على فراش الموت باقياً ليعرفه كل مؤمن بالله .

- لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح ، وها أنذا أموت على فراشي كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء .

• إذن . فأمر الحياة والموت ليس مرهوناً بقتال أو غيره ، إنما هو محدد بمشيئة الله .

ولننظر إلى تذييل الآية حين يقول الحق : «إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون» وما الفضل؟ إنه أن تتلقى عطاءً يزيد على حاجتك . والحق سبحانه وتعالى لايعطي الناس فقط على قدر حاجتهم إنما يعطيهم ماهو أكثر من حاجتهم . إذن فلو مات هؤلاء القوم الذين خرجوا من ديارهم خوفا من وباء أو عدو لكان هذا الموت فضلا من عند الله ؛ لأنهم لو ماتوا بالوباء لماتوا شهداء ، وهذا فضل من الله . ولو ماتوا في لقاء عدو وحاربوا في سبيل الله لنالوا الشهادة أيضا ، وذلك فضل من الله .

لماذا يكون مثل هذا الموت فضلا من الله ؟ لأن جميعا سوف نموت ، فإن مات الإنسان استشهادا في سبيله فهذا عطاء زائد لكن أكثر الناس لايشكرون ؛ لأنهم لايعلمون مدى النعمة فيما يجريه الحق سبحانه وتعالى عليهم من أمور ؛ لأن الناس لو علمت مدى النعمة فيما يجريه الحق عليهم من أحداث بما فيها الإحياء والأماتة ، لشكروا الله على كل مايجريه عليهم ، فالحق سبحانه وتعالى لايجري على البشر ، وهم من صنعته إلا مايصلح هذه الصنعة ، وإلا ماهو خير لهذه الصنعة

لقد استبقى الحق سبحانه هذه العبرة بما أجراه على بعض من بني إسرائيل لنرى أن القتال في سبيل الله هو من نعم الله على العباد ، فلا مهرب من قضاء الله وهاهو ذا الشاعر العربي يقول :

ألا أيها الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

فإن كنت لاتستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

إن الشاعر يسأل من يوجه له الدعوة لا إلى القتال ، ولكن إلى الاستمتاع بملذات الحياة قائلاً : مادمت لاتملك لي خلوداً في هذه الحياة ولا أنت بقادر على رد الموت عني فدعني أقاتل في سبيل الله بما تملكه يداي

وبعد الحديث عن محاولة هرب بعض من بني إسرائيل من قدر الله فأجرى عليهم الموت تسخيراً وأعادهم إلى الحياة تسخيراً ، وهذا درس واضح للمؤمنين الذين سيأتي

إليهم الأمر بالقتال في سبيل الله . فلا تبالوا أيها المؤمنون إن كان القتال يجلب لكم الموت ، لأن الموت يأتي في أي وقت بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٤﴾ ﴾

إنه الأمر الواضح بالقتال في سبيل الله دون مخافة للموت . لماذا ؟ لأن واهب الحياة وكاتب الأجل سميع عليم ، سميع بأقوال من يقاتل وعليم بنواياه .

وكان الجهاد قديماً عبئاً ثقيلاً على المجاهد ، لأنه كان يتحمل نفقة نفسه ويتحمل المركبة ـ حصاناً أو جملاً ـ ويتحمل سلاحه ، كان كل مجاهد يُعدّ عدته للحرب ، فكان ولا بد إذا سمح لنفسه أن تموت فمن باب أولى أن يسمح بماله ، وأن يجهز عدته للحرب ، وعلى ذلك كان القتال بالنفس والمال أمراً ضرورياً .

وقوله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله » أي قاتلوا بأنفسكم ثم عرج إلى الأموال فقال :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾

ساعة تسمع « يقرض الله » فذلك أمر عظيم ؛ لأنك عندما تقرض إنسانا فكأنك تقرض الله ، ولكن المسألة لا تكون واضحة ، لماذا ؟ لأن ذلك الإنسان سيستعيد استعادة مباشرة ، لكن عندما تنفق في سبيل الله فليس هناك إنسان بعينه تعطيه ، وإنما أنت تعطى الحق العام في قضية التدين ، وتعاملك فيها يكون مع الله . كأنك تقرض الله حين تنفق من مالك لتعد نفسك للحرب .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا بكلمة القرض على أنه يطلب منا عملية ليست سهلة على النفس البشرية ، وهو سبحانه يعلم بما طبع عليه النفوس . والقرض في اللغة معناه قطع لشيء بالناب ، وهو سبحانه وتعالى يعلم أن عملية الإقراض هي مسألة صعبة ، وحتى يبين للناس أنه يعلم صعوبتها جاء بقوله : « يقرض » ، إنه المقدر لصعوبتها ، ويقدر الجزاء على قدر الصعوبة .

« من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا » . وما هو القرض الحسن ؟ وهل إذا أقرضت عبداً من عباد الله لا يكون القرض حسنا ؟

أولا إذا أقرضت عبداً من عباد الله فكأنك أقرضت الله ، صحيح أنت تعطى الإنسان ما ييسر له الفرج في موقف متأزم ، وصحيح أيضا أنك في عملية الجهاد لا تعطى إنسانا بعينه وإنما تعطي الله مباشرة ، وهو سبحانه يبلغ . أن من يقرض عبادي فكأنه أقرضني كيف ؟ لأن الله هو الذي استدعى كل عبد له للوجود ، فإذا احتاج العبد فإن حاجته مطلوبة لرزقه في الدنيا ، فإذا أعطى العبد لأخيه المحتاج فكأنه يقرض الله المتكفل برزق ذلك المحتاج

وقوله تعالى : « يقرض الله » تدلنا على أن القرض لا يضيع ؛ لأن القرض شيء تخرجه من مالك على أمل أن تستعيده ، وهو سبحانه وتعالى يطمئنك على أنه هو الذي سيقترض منك ، وأنه سيرد ما اقترضه ، لكن ليس في صورة مقدمة وإنما في صورة مستمرة أضعافا مضاعفة ، إن الأصل محفوظ ومستثمر ، ولذلك يقول : « من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة » ، إنها أضعاف كثيرة بمقاييس الله عز وجل لا بمقاييسنا كبشر .

والتعبير بالقرض الحسن هنا ينبهنا على أن مصدر المال الذي نقرض منه لا بد أن يكون من حلال ، ولذلك قيل للمرأة التي تتصدق من مال الزنا . « ليتها لم تزن ولم تتصدق » .

وقيل: إن القرض ثوابه أعظم من الصدقة ، مع أن الصدقة يجود فيها الإنسان بالشيء كله ، في حين أن القرض هو دين يسترجعه صاحبه ، لأن الألم في إخراج الصدقة يكون لمرة واحدة فأنت تخرجها وتفقد الأمل فيها ، لكن القرض تتعلق نفسك به ، فكلما صبرت مرة أتتك حسنة ، كما أن المتصدق عليه قد يكون غير محتاج ، ولكن المقترض لا يكون إلا محتاجا .

والقرض من المال الذي لديك يجعل المال يتناقص ، لذلك فالله يعطيك أضعافا مضاعفة نتيجة هذا القرض ، وذلك مناسب تماما لقوله تعالى « يقبض ويبسط » التي جاء بها في قوله تعالى : « والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون » أي ساعة تذهب إليه ويأخذ كل ما حقه بالحساب أي أن المال الذي نقرض منه ينقص في ظاهر الأمر ولكن الله ـ سبحانه ـ يزيده ويبسطه أضعافا مضاعفة وفي الآخرة يكون الجزاء جزيلا .

ثم ينتقل الله عز وجل إلى قضية أخرى يستهلها بقوله سبحانه : « ألم تر » تأكيدا للخبر الذي سيأتي بعدها على أنه أمر واقع وقوع الشيء المرئي . يقول سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا

مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ
إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ (٢٤٦)

إن الحق سبحانه يعدنا بوسيلة السماع عنه ، وعلينا أن نتلقى ذلك الأمر كأننا نراه بالعين ، فماذا نرى ؟ « ألم تر إلى الملأ » ، ما معنى الملأ ؟ هي من ملأ يعني ازدحم الإناء ، ولم يعد فيه مكان يتحمل زائداً ، وأن الظرف قد شحن بالمظروف شغلاً لم يعد يتسع لسواه . وكلمة « ملأ » تطلق على أشراف القوم . وأشراف القوم كأنهم هم الذين يملأون حياة الوجود حولهم ولا يستطيع غيرهم أن يزاحمهم . و« الملأ » من أشراف الوجوه والقوم يجلسون ليتشاور .

« ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى » أي ألم يأتك خبر وجوه القوم وأشرافهم من بعد موسى عليه السلام مثلا في عصر « يوشع » أو « حزقيل أو شمويل » أو أي واحد منهم ، ولا يعنينا ذلك لأن القرآن لا يذكر في أي عهد كانوا ، المهم أنهم كانوا بعد موسى عليه السلام . « إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله » .

لقد اجتمع أشراف بني إسرائيل للتشاور ثم ذهبوا إلى النبي الذي كان معاصرا لهم وقالوا له : ابعث لنا ملكا . ونفهم من ذلك أنه لم يكن لهم ملك . وماذا نستفيد من ذكر وجود نبي لهم وعدم وجود ملك لهم ؟

نفهم من ذلك أن النبوة كانت تشرف على نفاذ الأحكام ولا تباشر الأعمال ، وأما الملك فهو الذي يباشر الأعمال . ولو كانت النبوة تباشر أعمالا لما طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكا . وسبب ذلك أن الذي يباشر عرضة للكراهية من كثير من الناس وعرضة أن يفشل في تصريف بعض الأمور ، فبدلا من أن يوجهوا الفشل للقمة العليا ، يحملون ذلك لمن هو أقل وهو الملك . ولذلك طلبوا من النبي أن يأتي بملك يتولى تصريف الأمور فتكون النبوة مرجعا للحق ، ولا تكون موطنا للوم في أي شيء .

الحق سبحانه وتعالى يبلغنا إنه قال لنبي بني إسرائيل .

أنتم الذين طلبتم القتال وأنتم الملأ ـ أي أشراف القوم ـ وأتيتم بالعلة الموجبة للقتال وهي أنكم أخرجتم من دياركم وأبنائكم أي بلغ بكم الهوان أنه لم تعد لكم ديار ، وبلغ بكم الهوان أنه لم يعد لكم أبناء بعد أن أسرهم عدوكم . إذن علة طلب القتال موجودة ، ومع ذلك قال لهم النبي : « هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا » لقد أوضح لهم نبيهم الشرط وقال : إني أخاف أن آتي لكم بملك كي تقاتلوا في سبيل الله ، وبعد ذلك يفرض الله عليكم القتال ، وعندما يأتي للأمر الواقع لا نجد لكم عزماً على القتال وتتخاذلون .

لكنهم قالوا : « وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا » . انظر إلى الدقة في قولهم : « في سبيل الله » وتعليق ذلك السبيل على أنهم أخرجوا من ديارهم وأبنائهم ! لقد أرادوا أن يقلبوا المسألة وأن يقولوا : إن القتال في سبيل الله بعد أن علمتهم التجربة فيما يحبون من الديار والأبناء ، إذن فالله هو الملجأ في كل أمر ، وقبل سبحانه منهم قولهم ، واعتبر قتالهم في سبيله .

وكان إخراجهم من ديارهم أمراً معقولا ، لكن كيف يخرجون من أبنائهم ؟ ربما كانوا قد تركوا أبناءهم للعدو ، وربما أخذهم العدو أسرى . لكنهم هم الذين أخرجوا من ديارهم ، وينطبق عليهم في علاقتهم بالأبناء قول الشاعر :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ... ألا تفارقهم فالراحلون هم

وانظر إلى التمحيص ، إنهم ملأ من بني إسرائيل وذهبوا إلى نبي وقالوا له : ابعث لنا ملكا حتى يجعلوها حربا مشروعة ليقاتلوا في سبيل الله ، وقال لهم النبي ما قال وردوا عليه هم : « وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله » يعني وكيف لا نقاتل في سبيل الله ؟

وجاء لهم الأمر بالقتال في قوله تعالى : « فلما كتب عليهم القتال تولوا » إن قوله : « كتب » لأنهم هم الذين طلبوا تشريع القتال فجعلهم الله داخلين في العقد فجاء

التعبير بـ « كُتِب » ولم يأت بـ « كتب » ، ومع ذلك تولوا أي أعرضوا عن القتال .

لقد كان لنبيهم حق في أن يتشكك في قدرتهم على القتال ، ويقول لهم : « هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا » ولكن هل أعرضوا جميعا عن القتال ؟ لا ؛ فقد كان فيهم من ينطبق عليه قول الشاعر :

إن الذي جعل الحقيقة علقماً ... لم يخل من أهل الحقيقة جيلاً

لقد كان منهم من لم يعرض عن التكليف بالقتال لكنهم قلة ، وهذا تمهيد مطلوب ، حتى إن انحسرت الجمهرة ، وانفض الجمع من حولك إياك أن تقول : « إني قليل » ؛ لأن المقاييس ليست بكثرة الجمع ، ولكن بنصرة الحق سبحانه وتعالى .

وقد يكون عدوك كثيرا لكن ليس له رصيد من أوجهة عالية ، وقد تكون في قلة من العدد ، لكنّ لك رصيد من الوجهة عالية ، وهذا ما يريد الحق أن يلفتنا إليه بقوله : « فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا » . كلمة « إلا قليلا » جاءت لتخدم قضية ، لذلك جاء في آخر القصة قوله تعالى :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

أي أن الغلبة تأتي بإذن الله ، إذن فالشيء المرئي واحد ، لكن وجهة نظر الرائين فيه تختلف على قدر رصيدهم الإيماني . أنت ترى زهرة جميلة ، والرؤية قدر مشترك عند الجميع ، ورآها غيرك ، أعجبتْ أنت وحافظت عليها وتركتها زينة لك ولغيرك ، بينما رآها إنسان آخر فقطفها ولم يبال ملْكُ مَن هي ، وهكذا تعرف أن العمل النزوعي يختلف من شخص لآخر ، فالعدو قد يكون كثيراً أمامنا ونحن قلة ، وكلنا رأى العدو كثيراً ورأى نفسه قليلاً ، لكن المواجيد تختلف . أنا سأحسب نفسي ومعي ربي ، وغيري رآهم كثيرين وقال : لا نقدر عليهم ؛ لأنه أخرج ربه من الحساب .

« فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين » إذن فالتولى ظلم للنفس ، لأن الظلم فى أبسط معانيه أن تنقل الحق لغير صاحبه ، وأنت أخرجت من ديارك وظللت على هذا الحال ، إذن فقد ظلمت نفسك ، وظلمت أولادك الذين خرجوا منك ، ولم تستردهم ، وفوق ذلك كله ظلمت قضيتك الدينية .

إذن فالجماعة الذين تولوا كانوا ظالمين لأنفسهم ولأهليهم ولمجتمعهم وللقضية العقدية . وقوله الحق : « والله عليم بالظالمين » هو إشارة على أن الله مطلع على هؤلاء الذين تخاذلوا سرا ، وأرادوا أن يقتلوا الروح المعنوية للناس وهم الذين يطلق عليهم فى هذا العصر « الطابور الخامس » الذين يفتتون الروح المعنوية دون أن يراهم أحد ولكن الله يعرفهم .

لقد طلب هؤلاء القوم من بنى إسرائيل من نبيهم أن يبعث لهم ملكا ، وكان يكفى النبى المرسل إليهم أن يختار لهم الملك ليقاتلوا تحت رايته ، لكنهم يزيدون فى التلكؤ واللجاجة ويريدون أن يجعلوا الأمر مقلة ليست من قضايا الدين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾

هم الذين طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكا . وكان يكفى - إذن - أن يختار نبيهم شخصا ويوليه الملك عليهم . لكن نبيهم أراد أن يغرس الاحترام منهم فى المبعوث كملك لهم . لقد قال لهم : « إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا » . والنبى القائل ذلك ينتمى إليهم ، وهو منهم ، وعندما طلبوا منه أن يبعث لهم ملكا كانوا يعلمون أنه مأمون على ذلك .

ويجىء أدب النبوة فى التلقى ، فقال : « إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا » . إنه يريد أن يطمئنهم على أن مسألة اختيار طالوت كملك ليست منه ، لأنه بشر مثلهم ، وهو يريد أن ينحى قضيته البشرية عن هذا الموضوع ، فقال : « إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا » . فماذا كان ردهم ؟ « قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال » . وهذه بداية التلكؤ والمجاجة ونقل الأمر إلى مسألة ليست من قضايا الدين .

إنهم يريدون الوجاهة والغنى . وكان يجب عليهم أن يأخذوا المسألة على أن الملك جاء لصالحهم ، لأنهم هم الذين طلبوه ليقودهم فى الحرب . إذن فأمر اختيار الملك كان لهم ولصالحهم . فلماذا يتصورون أن الاختيار كان ضدهم وليس لمصلحتهم ؟

شىء آخر نفهمه من قولهم : « أنّى يكون له الملك علينا » ، إن طالوت هذا لم يكن من الشخصيات المشار إليها ، فمن العادة حين يجرب الأمر فى جماعة من الجماعات أن تفكر فيمن يقود ، فعادة ما يكون هناك عدد من الشخصيات اللامعة التى يدور التفكير حولها ، وتظن الجماعة أنه من الممكن أن يقع على واحد منهم الاختيار ، وكان اختيار السماء لطالوت على عكس ما توقعت تلك الجماعة . لقد جاء طالوت من عمار القوم بدليل أنهم قالوا : « أنّى يكون له الملك » أى لم يؤت الملك من قبل .

ولقد كانوا ينتمون إلى سبطين : سبط أخذ النبوة وهو سبط بنيامين ، وسبط أخذ الملوكية وهو سبط لاوى بن يعقوب . فلما قال لهم : « إن الله بعث لكم طالوت ملكا » ، بدأوا يبحثون عن صحيفة النسب الخاصة به فلم يجدوه منتميا لا لهذا ولا لذاك ، ولذلك قالوا : « أنّى يكونُ له الملك علينا » وهذا يدلنا على أن الناس

حين يريدون وضعا من الأوضاع لا يريدون الرجل المناسب للموقف ، ولكن يريدون الرجل المناسب لنفوسهم ، بدليل قولهم : « أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه » .

وهل الملك يأتي بغطرسة أو كبرياء ؟ ومادام طالوت رجلا من غير الناس فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يضع قضية كل مؤمن وهي إنك حين تريد الاختيار فإياك أن يغشك حسب أو نسب أو جاه ، ولكن اختر الأصلح من أهل الخبرة لا من أهل الثقة . لقد تناسوا أن القضية التي طلبوها من نبيهم تحتاج إلى صفتين : رجل جسيم ورجل عليم ، والله اختار لهم طالوت رجلا جسيما وعليما معا .

وعندما نتأمل سياق الآيات فإننا نجد أن الله قال لهم في البداية : « بعث لكم » حتى لا يحرج أحدا منهم في أن طالوت أفضل منه ، ولكن عندما حدث الحاح قال لهم : « إن الله اصطفاه عليكم » وهو بهذا القول يؤكد إنه لا يوجد فيكم من أهل البسطة والجسامة من يتمتع بصفة العلم ، وكذلك لا يوجد من أهل العلم فيكم من يتمتع بالبسطة والجسامة « إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم » . وكان يجب أن يستقبلوا اصطفاء الله طالوت للملك بالقبول والرضى فما بالك وقد زاده بسطة في العلم والجسم ؟

والبسطة في العلم والجسم هي المؤهلات التي تناسب المهمة التي أرادوا من أجلها ملكا لهم . ولذلك يقول الحق : « والله يؤتي ملكه من يشاء » وكأن الحق يقول لهم : لا تظنوا أنكم أنتم الذين ترشحون لنا الملك المناسب ، يكفيكم أنكم طلبتم أن أرسل لكم ملكا فاتركوني بمقاييسي أختر الملك المناسب .

ويختم الحق الآية بقوله : « والله واسع عليم » أي عنده لكل مقام مقال ، ولكل موقع رجل ، وهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذه المهمة . ومن يصلح لتلك ، لا عن ضيق أو قلة رجال ، ولكن عن سعة وعلم .

لقد استقبلوا هذا الاختيار الإلهي باللجاج ، واللجاج نوع من العند ولا ينهيه

إلا الأمر المشهدي المرئي الذي يلزم بالحجة ، لذلك كان لا بد من مجيء معجزة لذلك يأتي قول الحق

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨)﴾

لقد أرسل الحق مع الملك طالوت آية تبرهن على أنه ملك من اختيار الله فقال لهم نبيهم : « إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت » أي إن العلامة الدالة على ملكه هي ، أن يأتيكم التابوت ، وهذا القول نستدل منه على أن التابوت كان غائباً ومفقوداً ، وأنه أمر معروف لديهم وهناك تلهف منهم على مجيئه

وما هو التابوت ؟ إن التابوت قد ورد في القرآن في موضعين : أحدهما في الآية التي نحن بصددها الآن ، والموضع الآخر في قوله تعالى :

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩)﴾

(سورة طه)

إذن فالتابوت معروف من أيام قصة موسى وهو رضيع ، عندما خافت عليه أمه ،

فأوحى لها الله : « فإذا خفت عليه فألقيه في اليم » فهل هو التابوت نفسه الذي تتحدث عنه الآيات التي نحن بصددها ؟

غالب الظن أنه هو ؛ لأنه ما دام جاء به على إطلاقه فهو التابوت المعروف ، وكأن المسألة التي نجا بها موسى لها تاريخ مع موسى وفرعون ومع نبيهم ومع طالوت. وهذه عملية نأخذ منها أن الآثار التي ترتبط بالأحداث الجسيمة في تاريخ العقيدة يجب أن نعتني بها ، ولا نقول إنها ذكريات روتينية ؛ لأن لها ارتباطاً بأمر عقدي ، وبمسائل تاريخية ، وارتباطاً بالمقدسات. انظر إلى التابوت الذي فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون وتحمله الملائكة ، إن هذا دليل على أنه شيء كبير ومهم .

إذن ، فالآثار التي لها مساس وارتباط بأحداث العقيدة وأحداث النبوة ، هذه الآثار مهمة للإيمان ، وكأن القرآن يقول : اتركوها كما هي ، وخذوا منها عظة وعبرة ؛ لأنها تذكركم بأشياء مقدسة. لقد كان التابوت مفقوداً ، وذلك دليل على أن عدواً غلب على البلاد التي سكنوها ، والعدو عندما يغير على بلاد يحاول أولاً طمس المقدسات التي تربط البلاد بالعقيدة . فإذا كان التابوت مقدساً عندهم بهذا الشكل ، كان لابد أن يأخذه الأعداء . وهؤلاء الأعداء هم الذين أخرجوهم من ديارهم وهم ألوف حذر الموت . وإذ كانوا قد أخرجوهم من ديارهم فمن باب أولى أنهم أجبروهم على ترك التابوت .

والله سبحانه وتعالى يعلمهم بأن آية الملك لطالوت هي مجيء التابوت الذي تتلهفون عليه ، وترتبط به مقدساتكم . « أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم » فكأن الاستقرار النفسي سيأتيكم مع هذا التابوت ؛ لأن الإنسان حين يجد التابوت الذي نجا به نبي ، وفيه الأشياء التي سنعرفها فيما بعد ، إن الإنسان يستروح صلته بالسماء ، وهي صلة مادية تجعل النفس تستريح .

وعلى سبيل المثال تأمل مشاعرك عندما يقال لك : « هذا هو المصحف الذي كان يقرأ فيه سيدنا عثمان » . إنه مصحف مثل أي مصحف آخر ، ولكن ميزته أنه كان يقرأ فيه سيدنا عثمان ، إنك تستريح نفسياً عندما تراه . وأيضاً حين تذهب إلى دار

الخلافة في تركيا ، ويقال لك : « هذا هو السيف الذي كان يحارب به الإمام علي » . فتنظر إلى السيف ، وتجد أن وزنه وثقله يساوي عشرة سيوف ، وتتعجب كيف كان يحمله سيدنا علي كرم الله وجهه وكيف كان يحارب به ؟

وكذلك عندما يقال لك : « هذه شعرة من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم أو المكحلة التي كان يكتحل بها » ، لاشك أن مثل هذه المشاهد ستترك إشراقا وطمأنينة في نفسك . وعندما يراها إنسان به بعض الشكوك والمخاوف فإن العقيدة تستقر في نفسه .

ومن هذا كله أقول : إن ولاة الأمر يجب ألا يعتبروا مقدسات الأشياء ضربا من الشركيات والوثنيات ، بل يجب أن يولوها عناية ورعاية ويبرزوها للناس ؛ لتكون مصدر سكينة وأمن نفس للناس ، وعليهم أن ينصحوا الناس بألا يفتنوا بها ، ولكن عليهم أن يتركوها لتذكرنا بأمر يتصل بعقيدتنا وبديننا .

وانظر إلى حديث القرآن عن التابوت . إن الحق سبحانه لم يقل : إن التابوت سيأتي كاملا ، ولم يقل كذلك إنه التابوت الذي وُضع فيه موسى ، وإنما قال : « فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون » كأن آل موسى وهارون قد حافظوا على آثار أنبيائهم . وأيضا قوله تعالى : « تحمله الملائكة » يؤكد لنا أنه لاشك أن الأثر الذي تحمله الملائكة لابد أن يكون شيئا عظيما يوجب العناية الفائقة « إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت » .

ونلحظ في قوله : « أن يأتيكم التابوت » أنه سبحانه قد نسب الإتيان إلى التابوت ، فهل كان من ضمن العلامة أن يأتيهم التابوت وهم جالسون ينتظرون ، ولأن التابوت تحمله الملائكة فلن يراهم القوم لأنهم كائنات غير مرئية ، فلن يراهم أحد وإنما سيرى القوم التابوت آتيا إليهم ، ولذلك أسند الحق أمر المجيء للتابوت .

وهذا المشهد يخلع القلوب ويجعل أصحاب أشد القلوب قساوة يخرون سجدا ويقولون : « يا طالوت أنت الملك ، ولن نختلف عليك » ونريد الآن أن نعرف

الأشياء التي يمكن لآل موسى أن يحافظوا عليها من آثار موسى عليه السلام ، والآثار التي يحافظ عليها آل هارون من هارون عليه السلام .

قال بعض الناس إنها عصا موسى ، وهي الأثر الذي تبقى من آل موسى ، وذلك أمر معقول ، لأنها أداة من أدوات معجزة موسى عليه السلام ألم تكن هي المعجزة التي انقلبت حية تسعى وابتلعت بسرعة ما صنعه السحرة ؟ إن مثل هذه الأداة المعجزة لا يمكن أن يهملها موسى ، أو يهملها المؤمنون به بعد ما حدث منها . وليس من المعقول أن يفرط آل موسى في عصا تكلم الله فيها وقال :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا ﴾

(الآية ١٧ ، من الآية ١٨ سورة طه)

إن هناك قصة طويلة استغرقها الحديث عن هذه العصا ، فكيف يفرط فيها موسى وقومه بسهولة ؟ لاشك أنهم حافظوا عليها ، وقدسوها ، وجعلوها من أمجادهم .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن هؤلاء القوم أهل لجاج وأهل جدل وأهل تلكؤ ، فهم لا يؤمنون بالأمور إلا إذا كانت حسية كالتابوت الذي يأتيهم وحدهم ، صحيح تحمله الملائكة ، لكنهم لا يرون الملائكة ، وإنما رأوا التابوت يسير إليهم ، « أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » وليس هناك آيات أعجب من مجيء التابوت حتى يثبت صدق النبي في أن الله قد بعث طالوت ملكا ، فإن لم يؤمنوا بهذه المسألة فعليهم أن يراجعوا إيمانهم

والسياق القرآني يدل على أن الله منعهم بالحجة ، وبهتهم بالآية ، وبهتهم بالقرآن ، بدليل أنه حذف ما كان يجب أن يقال وهو فقبلوا طالوت ملكا ونظم طالوت الحرب فقام وقسم الجنود ورسهم ، وكل هذه التفاصيل لم تذكرها الآيات والحق يقول بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) ﴾

الفصل هو أن تعزل شيئا عن شيء آخر ، ومثل ذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة يوسف)

« فصلت العير » أي غادرت مصر وخرجت منه . ونحن نستخدم كلمة « فصل » في تبويب الكتب ، ونقصد به قدرًا من المعلومات المترابطة التي تكون وحدة واحدة ، وعندما تنضم الفصول مع بعضها في الكتب تصير أبوابًا ، وعندما تنضم الأبواب الموضوعة في مجال علم واحد مع بعضها نقول عنها : هذا « كتاب » .

ونحن نستخدم كلمة « فصل » في وصف مجموعة من التلاميذ المتقاربين في العمر والمستوى الدراسي ونقسمهم إلى فصل أول وثان وثالث ، على حسب سعة الفصول وعدد التلاميذ . وهكذا نفهم معنى قول الحق « فلما فصل طالوت بالجنود » أي

فصلهم عن بقية غير المقاتلين ، وقسمهم إلى جماعات مرتبة ، وكل جماعة لها مهمة .

وكلمة « جنود » هي جمع « جند » وهي مفردة لكنها تدل على جماعة ، وأصل الكلمة من « جَنَد » وهي الأرض الغليظة لصلبة القوية . ونظرا لأن الجنود مفروض فيهم الغلظة والقوة فقد أطلق عليهم لفظ : جُنْد . ويزعم أن كلمة « جند » مفرد ؛ إلا أنها تدل على القوم مثل « رهط » و « طائفة » ويسمونها اسم جمع . « فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر » أي عندما خرج إلى مكان إقامة الجيش بدأ في مباشرة أولى مهماته كملك ، لقد أراد أن يختبرهم ، فهم قوم وقفوا ضد تعيينه ملكا ، لذلك أراد أن يدخل الحكم على أرض صلبة فقال لهم عن الحق : « إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم »

لقد أوضح لهم : أنتم مقبلون على مهمة لله في سبيل الله ، وهو سبحانه الذي سيجري عليكم الاختبار ، ولست أنا لأن الاختبار يكون على قدر المهمة ؛ أنا مشرف فقط على تنفيذ الأمر ، والله مبتليكم بنهر من يشرب منه فليس منا إلا من اغترف غرفة بيده .

وساعة تسمع كلمة « مبتليكم » فلا تفسرها على أنها مصيبة ، ولكن فسرها على أنها اختبار ، قد ينجح من يدخله وقد يفشل . والاختبار هنا بنهر . ومادام كان الاختبار بنهر فلا بد أن هذه الكلمة موقعا وأثر نفسيا عندهم ، لا بد أنهم كانوا عطاشا ، وإلا لو لم يكونوا عطشى لما كان النهر ابتلاء . « إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني »

إنهم عطاش ، وساعة يُرى الماء فسيقبلون عليه بنهم شرب ورياً ، ومع ذلك يختبر الحق صلابتهم فيطالبهم بأن يمتنعوا عن الشرب منه ، لقد جاء الاختبار في منعهم مما تصبو إليه نفوسهم « فمن شرب منه فليس مني » لماذا ؟

لأنهم ساعة يرون ما يحبونه ويشتهونه فسيندفعون إليه وينسون أمر الله ومن ينس

أمر الله ويفضل نفسه ، فهو غير مأمون أن يكون في جند الله . لكن الذي يرى الماء ويمتنع عنه وهو في حاجة إليه ، فهو صابر قادر على نفسه ، وسيكون من جند الله ؛ لأنه آثر مطلوب الله على مطلوب بطنه ، وهو أهل لأن يُبتلى .

ومع ذلك لم يَقْسُ الله في الابتلاء ، فأباح ما يفك العطش ولم يحرمهم منه نهائيا « إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده » لقد سمح لهم بغرفة يد تسد الرمق وتستبقي الحياة ، أباح لهم ما تقتضيه الضرورة . لكن ما صلة هذا الابتلاء بالعملية التي سيقبلون عليها ؟

إن العملية الحربية التي سيدخلونها سيقابلون فيها الويل وسيتعرضون لنفاد الزاد ، وهم أيضا عرضة لأن يحاصرهم عدوهم ، وعلى الإنسان المقاتل في مثل هذه الأمور أن يقوى على شهوته ويأخذ من زاده ومائه على قدر ضرورة استبقاء الحياة ، لذلك تكفي غرفة واحدة لاستبقاء الحياة . كأن التدريب هنا ضرورة للمهمة . فهل فعلوا ذلك ؟

يأتينا الخبر من الحق « فشربوا منه إلا قليلا منهم » . وهكذا تتم التصفية ، فمن البداية سبق لهم أن تولوا وأعرضوا عن القتال إلا قليلا ، وهنا امتنع عن الشرب قليل من القليل ، وهذه غرابيل الاصطفاء أو مصافي الاختبار ، فقد يقوى واحد على نصف المشقة ، ويقوى آخر على ثلث المشقة ، ويقوى ثالث على ربعها . لقد بقي منهم القليل ، لكنه القليل الذي يصلح للمهمة ؛ إنه الذي ظل على الإيمان .

وانظر كيف تكون مصافي الابتلاء في الجهاد في سبيل الله ؟ حتى لا يحمل راية الجهاد إلا المأمون عليها الذي يعرف حقها . « فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » أي عندما عبروا النهر واجتازوا كل الاختبارات السابقة قال بعضهم . « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » لقد خاف بعض منهم من الاختبار الأخير ، ولكن الذين آمنوا بالله لم يخافوا ، ويقول الحق : « قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

لقد اختلفت المواجيد وإن اتحدت المرائي . فالذين جاوزوا النهر انقسموا قسمين ، قسم رأى جالوت وجنوده ، والقسم الآخر رآه أيضا ، ولم ينقسموا عند الرؤية لكنهم انقسموا عند المواجيد التابعة للرؤية ، فقسم خاف وقسم لم يخف ، والذين خافوا قالوا . « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » لقد وجد الخوف من جالوت وجنوده في نفوسهم فقالوا : « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » ، لقد مروا بثلاث مراحل ؛ المرحلة الأولى هي إدراك لجالوت وجنوده ، والثانية : هي وجدان متوجس من قوة جالوت وجنوده ، والأخيرة : هي نزوع إلى الخوف من جالوت وجنوده ، لكن القسم الذي لم يخف رأوا المشهد أيضا وجاء فيهم قول الله : « قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله »

كأنهم أدخلوا ربهم في حسابهم فاستهانوا بعدوهم ، لكن الفئة السابقة عزلت نفسها عن ربها فرأوا أنفسهم قلة فخافوا . لقد كان مجرد ظن الفئة المؤمنة أنهم ملاقو الله قد جعل لهم هذه العقيدة ، وإذا كان هذا حال مجرد الظن فما بالك باليقين ؟ « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » وتعرف أن هناك معارك يفوز فيها الأقدر على الصبر . ودليلنا على ذلك قول الحق .

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(آل عمران)

هذا هو الوعد لكن إذا صبرتم كم يكون المدد؟ يقول الحق :

﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

(آل عمران)

فكان البدء بثلاثة آلاف لمساندة أهل الإيمان ويزيد العدد في المدد إلى خمسة الآف إن صبروا واتقوا . إذن فالمدد يأتي على قدر الصبر ؛ لأن حنان القدرة الإلهية عليك

يزداد ساعة يجدك تتحمل المشقة فيحن عليك ويعطيك جزءا أكبر . فالله يريد من عبده أن يستنفد أسباب قوته الخاصة ، وحين تستنفد الأسباب برجولة وثبات ، تأتيك معونة الله ، ويقول الله للملائكة : هذا يستحق أن يعان فأعينوه . ولذلك جاء قوله الحق على ألسنة المؤمنين : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ ﴾

هذه هي الشحنة الإيمانية لمن يريد أن يواجه عدوه فهو ينادي قائلا « ربنا » إنه لم يقل : يا الله ، بل يقول « ربنا » ؛ لأن الرب هو الذي يتولى التربية والعطاء ، بينما مطلوب « الله » هو العبودية والتكاليف . لذلك ينادي المؤمن ربه في الموقف الصعب « ياربنا » أي يا من خلقتنا وتوليتنا وغديتنا بالأسباب . قال المؤمنون مع طالوت « ربنا أفرغ علينا صبرا »

وعندما نتأمل كلمة « أفرغ علينا صبرا » تفيدنا أنهم طلبوا أن يملأ الله قلوبهم بالصبر ويكون أثر الصبر تثبيت الأقدام « وثبت أقدامنا » حتى يواجهوا العدو بإيمان ، وعند نهاية الصبر وتثبيت الأقدام يأتي نصر الله للمؤمنين على القوم الكافرين ، وتأتي النتيجة للعزم الإيماني والقتال في قوله الحق :

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ

ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾

إن الحق يبلغنا أنه قد نصر المؤمنين به ويجيء الحق بكلمة « هزموهم » وهي تدل على فرار من كان يجب أن يكون مهاجماً والمحارب يجب أن يكون مهاجماً كاراً دائماً ، فحين يلجأ إلى أن يفر ، هنا نتوقف لنتبين أمره ، هل هذا الفرار تحرف لقتال وانعطافاً وميلاً إلى موقف آخر هو أصلح للقتال فيه ؟ لو كان الأمر كذلك فلا تكون الهزيمة ، لكن إذ كان الفرار لغير كرٍ ومخادعة للعدو بل كان للخوف هنا تكون هزيمة

وقول الله « فهزموهم بإذن الله » يدل على أن جنود جالوت لم يُقتلوا كلهم ، ولكن الذين قُتلوا هم أئمة الكفر فيهم ، بدليل قوله بعد ذلك : « وقتل داود جالوت » . وجالوت هو زعيم جيش الكفار الذي هرب ، فطارده داود وقتله . ولأول مرة يظهر لنا اسم « داود » في هذه القصة الطويلة ، وهو اسم لم يكن عندنا فكرة عنه من قبل ، وستأتي الفكرة عنه بعد هذه القصة في قوله تعالى

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة سبأ)

إذن فبداية داود جاءت من هذه المعركة بعد قتل جالوت ، وكان « داود » أخاً لعشرة وهو أصغرهم ، وقال النبي للقوم : إن من يدخل المعركة ضد جالوت لا بد أن يأتي درع موسى على مقاسه ، وهنا استعرض والد « داود » الدرع على جميع أبنائه ، فلم يأت على مقاس أي واحد منهم إلا على أصغرهم ، وهو « داود » . جاء الدرع على مقاسه ، ودخل « داود » المعركة فقتل جالوت قائد المشركين ، وشاعت

حكمة الله أن يكون أصغر المؤمنين هو الذى يقتل كبير جيش المشركين .

كانت هذه المعركة بداية تاريخ داود ، وقد جاءت له هذه المعركة بالفتح العظيم ، ثم أنعم الله عليه بالملك والحكمة وجعل الجبال والطير تردد وترجع معه تسبيح الله وتنزيهه ، كل ذلك نتيجة قتل جالوت . وأحب داود الدرع وصار أمله أن يعلمه الله صناعة الدروع ، ولذلك لم يتخذ صنعة فى حياته إلا عمل الدروع . وجعل الله له الحديد ليناً يصنع منه ما يشاء كما جاء فى قوله تعالى

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأنبياء)

وهذا دليل على أن الإنسان يحب الشىء الذى له صلة برفعة شأنه . ولقد كان قتل جالوت هو البداية لداود . « وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » إن الحق يأتى هنا بقضية كونية فى الوجود ، وهى أن الحرب ضرورة اجتماعية ، وأن الحق يدفع الناس بالناس . وأنه لولا وجود قوة أمام قوة لفسد العالم ؛ فلو سيطرت قوة واحدة فى الكون لفسد .

فالذى يعمر الكون هو أن توجد فيه قوى متكافئة ؛ قوة تقابلها قوة أخرى . ولذلك نجد العالم دائماً محروساً بالقوتين العظميين ، ولو كانت قوة واحدة لعم الضلال . ولو تأملنا التاريخ منذ القدم لوجدنا هذه الثنائية فى القوى تحفظ الاستقرار فى العالم .

فى بداية الإسلام كانت الدولتان العظميان هما الفرس فى الشرق ، والروم فى الغرب . والآن سقطت قوة روسيا من كفة ميزان العالم ، وتتسابق ألمانيا واليابان لموازنة قوة أمريكا .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر

إن قول الله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » جاء تعقيبا على قصة الصراع بين بني إسرائيل وبين أعدائهم الذين أخرجوهم من ديارهم وعندما نتأمل هذه القصة من بدايتها نجد أنهم طلبوا أولا من الله الإذن بالقتال . وبعث الله لهم ملكا ليقاتلوا تحت رايته ؛ وكانت علامة هذا الملك في الصدق أن يأتي الله بالتابوت . ثم جاءت قضية اجتماعية ينتهي إليها الناس عادة بتحكيم الرأي ولو بدون الوحي ، وهي أن الإنسان إذا ما أقبل على أمر يجب أن يعد له إعداداً بالأسباب البشرية ، حتى إذا ما استوفى إعداده كل الأسباب جاء إلى معونة الله ، لأن الأسباب - كما قلنا - هي من يد الله ، فلا ترد أنت يد الله بأسبابها ، لتطلب معونة الله بذاته ، بل خذ الأسباب أولا لأنها من يد ربك

ويعلمنا الحق أيضا أن من الأسباب تمحيص الذين يدافعون عن الحق تمحيصا يبين لنا قوة ثباتهم في الاختبار الإيماني ؛ لأن الإنسان قد يقول قولا بلسانه ؛ ولكنه حين يتعرض للفعل تحدثه نفسه بألا يوفي ، وقد نجح قلة من القوم في الابتلاءات المتعددة وفعلا دارت المعركة ؛ وهزم هؤلاء المؤمنون أعداءهم ، وانتصر داود بقتل جالوت

إذن فتلك قضية دفع الله فيها أناسا بأناس ، ويطلقها الحق سبحانه قضية عامة « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » أي لولا أن الله دفع بالقلة المؤمنة الكثرة من عدوهم لفسدت الأرض ، فالدفع هو الرد عن المراد ، فإذا كان المراد للناس أن يوجد شر ، فإن الله يدفعه بذن فالله يدفع ولكن بأيدي خلقه ، كما قال سبحانه .

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

إنه دفع الله المؤمنين ليقاتلوا الكافرين ، ويعذب حق الكافرين بأيدي المؤمنين وعندما نتأمل القول الحكيم « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض »

فإننا نجد مقدمة سابقة تمهد لهذا القول ، لقد أُخرجوا من ديارهم وأبنائهم ، فكان هذا هو مبرر القتال . ونجد آية أخرى أيضا تقول :

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الحج)

والسياق مختلف في الآيتين ، السياق الذي يأتي في سورة البقرة عن أناس يحاربون بالفعل ، والسياق الذي يأتي في سورة الحج عن أناس مؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا وهم المستضعفون من مكة لينضموا إلى إخوتهم المؤمنين في دار الإيمان ليعيدوا الكرة ، ويدخلوا مكة فاتحين .

صحيح أننا نجد وحدة جامعة بين الآيتين . وهو الخروج من الديار ، إذن فمرة يكون الدفاع بأن نفرّ لنكرّ ؛ أي أن تخرج من ديار الكفر مهجرا لتجمع أمر نفسك أنت ومن معك وتعود إلى بلدك مقاتلا فاتحا ، ومرة يكون الدفاع بأن تقاتل بالفعل ، فالآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها هنا تفيد أنهم قاتلوا بالفعل ، والآية الثانية تفيد أنهم خرجوا من مكة ليرجعوا إليها فاتحين . فالخروج نفسه نوع من الدفع ، لماذا ؟ لأن المسلمين الأوائل لو مكثوا في مكة مرمى أعين خصومهم فلا يبقى للإسلام خميرة ، فذهبوا إلى المدينة وكوّنوا الدولة الإسلامية ثم عادوا منتصرين فاتحين :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ ﴾

(سورة النصر)

إن السياق في الآيتين واحد ولكن النتيجة مختلفة ، هنا يقول الحق : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » لماذا تفسد الأرض ؟ لأن معنى دفع الناس بعضهم ببعض أن هناك أناسًا ألفوا الفساد ، ويقابلهم أناس خرجوا على من ألِفَ الفساد ليردوهم إلى الصلاح . ويعطينا الحق سبحانه وتعالى في الآية الثانية السبب فيقول :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الحج)

والصوامع هي ما يقابل الآن الدير للنصارى وكانوا يتعبدون لله فيها ، لأن فيه متعبدٌ عمل بالتكليف العام ؛ ومتعبدٌ آخر قد ألزم نفسه شيء فوق ما كلفه الله به . فالذين يعبدون الله بهذه الطريقة يجلسون في أماكن بعيدة عن الناس يسمونها الصوامع ، وهي تشبه الدير الآن ومعنى العام في التعبد للنصارى هو التعبد في الكنائس وهو المقصود بالبِيَع ، والمعنى الخاص هو التعبد في الصوامع

إذن « لهدمت صوامع » هذه لخاصة المتدينين ، وكنائس أو بيع لعامة المتدينين وقوم الحق « وصلوات » ، من صلوت ، وهي مكان العبادة لليهود ، و« مساجد » وهي مساجد المسلمين

إن قوله تعالى : « فسدت الأرض » في هذه الآية ، وقوله تعالى هناك « هدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد » أي أنه ستفسد الأرض إذا لم تقم الصوامع والبيع والصلوات والمساجد ، لأنها هي التي تربط المخلوق بالخالق وما دامت تلك الأماكن هي التي تربط المخلوق بالخالق فإن هدمت يكون الناس على غير ذكر ربهم وتفتنهم أسباب الدنيا

فالأديرة والكنائس والصوامع ـ حين كانت ـ والمساجد الآن هي حارسة القيم في الوجود ، لأنها تذكرك دائماً بالعبودية وتمنع عنك الغرور ، وهي من السجود الذي هو منتهى الخضوع للرب ، تخضع بها لله خمس مرات في اليوم والليلة ؛ فإن كان عند العبد شيء من الغرور لا بد أن يذوب ، ويعرف العبد أن الكون كله فضل من الله على العباد ؛ فلا يدخلك أيها المسلم شيء من الغرور . فإذا لم يدخلك شيء من الغرور أستعملت أسباب الله في مطلوبات الله أما أن تأخذ أنت أسباب الله في غير مطلوبات الله فهذه قحة منك . فإذا كان الله قد أقدر يدك على الحركة فلماذا تعصي الله بها وتضرب بها الناس ؟ والله أقدر لسانك على الكلام ، فلماذا تؤذي غيرك

بالكلمة ؟ إن الله قد أعطاك النعمة فلا تستعملها في المعصية .

قال الله تعالى في هذه الآية « لفسدت الأرض » وشرح ذلك في قوله تعالى « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » فهذه الأماكن هي التي تبقى أصول القيم في التدين . « وأصول القيم في التدين » غير « كل القيم في التدين » . ولذلك نحن قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى جعل للإسلام خمسة أركان ، وهي التي بني عليها الإسلام . ولا بد أن نقيم بنيان الإسلام على هذه الأركان الخمسة ، فلا تقل : إن الإسلام هو هذه الأركان الخمسة ، لا ؛ لأن الإسلام مبني عليها فقط فهي الأعمدة أو الأسس التي بني عليها الإسلام . فأنت حين تضع أساسا لمنزل وتقيم الأعمدة فهذا المنزل لا يصلح بذلك للسكن ، بل لا بد أن تقيم بقية البنيان . إذن فالإسلام مبني على هذه الأسس .

والحق سبحانه وتعالى يوضح ذلك فيأمر بالمحافظة على أماكن هذه القيم ؛ لأن المساجد - ونحن نتكلم بالعرف الإسلامي - هي ملتقى فيوضات الحق النورانية على خلقه ، فالذي يريد فيض الحق ونوره يذهب إلى المسجد . إذن لكيلا تفسد الأرض لا بد أن توجد أماكن العبادة هذه . فمرة جاء الحق بالنتيجة ومرة جاء بالسبب .

ولماذا يدفع الله الناس بعضهم ببعض ؟ لأن هناك أناسا يريدون الشر وأناسا يريدون الخير ، فمن يريد الشر يدفع من يريد الخير ، وإذا وقعت المعركة بهذا الوصف فإن يد الله لا تتخلى عن الجانب المؤمن الباحث عن الخير ، فهو سبحانه القائل :

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الحج)

أي إن المعركة لا تطول . ولذلك قلنا سابقا : إن المعارك التي نراها في الكون لا نجد فيها معركة بين حقين ؛ لأنه لا يوجد في الوجود حقان ، فالحق واحد ، فلا يقول أحد : إنه على حق وخصمه على حق . لا ، إن هناك حقا واحدا فقط . والمعركة - إن وجدت - توجد بين حق وباطل ، أو بين باطل وباطل . والمعركة بين

الحق والباطل لا تطول ، لأن الباطل زهوق . ولذى يطول من المعارك هي المعارك بين الباطل والباطل ، فليس أحدهما أولى بأن ينصره الله . فهذا على فساد وذاك على فساد ، وسبحانه يدك هذا الفساد بذاك الفساد . وحين يدك هذا الفساد بذاك الفساد ، فيجتمعا الفساد في الكون يتهاوى . ويأتي من بعد ذلك أناس ليس عندهم فساد ويعمرون الكون .

والمعارك التي تدور في أي مكان تجد أن هذا الطرف له هوى والآخر له هوى مختلف . ولا يقف الله في أي جانب منهما ؛ لأنه ليس هناك جانب أحق بالله من الآخر ؛ لذلك يتركهم يصطرع بعضهم مع بعض ، ومادام الحق قد تركهم لبعضهم البعض فلا بد أن تطول المعركة . ولو كان الله في بال جانب منهم لوقف سبحانه في جانبه . وكذلك نرى في معارك العصر الحديث أن المعركة تطول وتطول ؛ لأننا لا نجد القسم الثالث الذي جاء في قوله سبحانه :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجرات)

إن الحق سبحانه وتعالى يأمر عند اقتتال طائفتين من المؤمنين أن يصلح بينهما قوم مؤمنون ، فإن تعدت إحداهما على الأخرى ، ورفضت الصلح فالحق يأمر المؤمنين بأن يقاتلوا الفئة التي تتعدى إلى أن ترجع إلى حكم الله ، فإن رجعت إلى حكم الله فالإصلاح بين الفئتين يكون بالإنصاف ؛ لأن الله يحب العادلين المنصفين .

ونحن نجد الباطل يتماس مع الباطل ؛ لذلك لا نجد من يصلح بين الباطلين ، بل نجد أهواء تتعارك ، وكل حسب يقف في الطائفة التي تناسب هواه .

وهذه هي الخيبة في الكون المعاصر ؛ إن المعارك تطول لأنه ليس في بال المتقاتلين

شيء جامع، ولو كان في نظم شيء جامع، لما حدثت الحرب . ومادامو قد عمدوا عن هذا الشيء الجامع ، فمن المفروض أن تتدخل الفئة القادرة على الإصلاح ، ولكن حتى هؤلاء لم يدخلوا للإصلاح ، وهذا معناه أن الخيبة في العالم كله . وسيظل العالم في خيبة إلى أن يرعووا ويرتدعوا . إنهم يطيلون على أنفسهم أمد التجربة وسيظلون في هذه الخيبة حتى يفطنوا إلى أنه لا سبيل إلى أن تنتهي هذه المشاكل إلا أن يرجعوا جميعا عن أهوائهم إلى مراد خالقهم

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » ، نعم تفسد الأرض فيما جعل الله للإنسان يدا فيه ، أما الشيء الذي لم يجعل الله للإنسان يداً فيه فستظل النواميس كما هي لا يؤثر فيها أحد ، فلا أحد يؤثر في الشمس أو القمر أو الهواء أو المطر ، إنما الفساد جاء فيما للإنسان فيه يد

انظر إلى الكون ، إنك تجد المسائل التي لا دخل للإنسان فيها مستقيمة على أحسن ما يكون ، وإنما يأتي الفساد من النواحي التي تدخل فيها الإنسان بغير منهج الله . ولو أن الإنسان دخل فيها بمنهج الله لاستقامت الأمور كما استقامت النواميس العليا تماما

في سورة الرحمن قوله تعالى

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

ومادام الحق قد رفع السماء ووضع الميزان ، فالسماء لا تقع على الأرض والنظام محكم تماما ، الشمس تطلع من الشرق وتغرب في الغرب ، والقمر والنجوم تسير في منتهى الدقة والإبداع ، لأنه لا دخل لأحد من البشر فيه . فإن أردتم أن تصلح حياتكم ، وأن تستقيم أموركم كما استقامت هندسة السماء والأرض فخذوا الميزان من السماء في أعمالكم ، واتبعوا القول الحق

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ

﴿ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾

(سورة الرحمن)

ومادمتم قد رأيتم أن الأمور الموجودة التي تسير بنظام لا تتحكمون فيه تعمل باستقامة وترون أن الفساد قد جاء من ناحية الأمور التي دخلتم فيها ، فلماذا لا تتبع منهج الله في الأمور التي لم ندخل فيها ؟ إنك إن عملت في الحياة بمنهج الله الذي خلق الحياة فإن أمورك تستقيم لك كما استقامت الأمور العليا في الكون . واحفظ جيداً قوله تعالى :

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾

(سورة الرحمن)

ليحفظ كل منا هذا القول لنعرف أن الأمور العليا موزونة لأن يد الإنسان لا تدخل فيها . إن السماء لا تقع على الأرض لأنها محكومة بنظام محكم تماما

والأرض لا تدور بعيداً عن فلكها ، لأن خالقها قد قدر لها النظام المحكم تماما ولهذا يقول الحق سبحانه عن نظام الكواكب في الكون

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

(سورة يس)

إنه نظام دقيق محكم لأنه لا دخل للإنسان فيه . اصنعوا ميزاناً في كل الأمور التي لكم فيها اختيار حتى لا تطغوا في الميزان

ومادام الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان ومنحه الاختيار ، وبعض الناس اختار منهجاً ، والبعض الآخر اختار منهجا مضادا ، وكلٌّ من المنهجين خارج عن منهج الله ، فالحق سبحانه وتعالى يترك الفئتين للتقاتل والتناحر . ولأنه سبحانه ذو رحمة على العالمين ، يبقى عناصر الخير في الوجود ، لعل أحداً يرى وينتبه ويتلفت

ويدفع ليأخذها . فعندما تطغى جماعة يأتي لهم الحق بجماعة يردونهم ، حتى تبقى عناصر الخير في الوجود لعل إنساناً يأتي ليأخذ عنصراً منها يحرك به حياته ، وصاحب الخير بما يأتي من فضل الله على العالمين . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾

ونعرف أن « تلك » إشارة يخاطب الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويشير إلى الآيات التي سبقت والتي تدل على عظمة الحق وقيومته ، فقد قال الحق من قبل :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وساعة طلبوا أن يقاتلوا ، وأن يبعث لهم ملكاً ، وبعثه لهم ، وبعث لهم التابوت فيه سكينة ، أليست هذه آيات أخرى ؟ ومن بعد ذلك أراد الحق أن يأتي بمقتل جالوت العملاق الضخم على يد داود الصبي الصغير . أليست هذه آية ؟ وآية أخرى هي أن جماعة قليلة - بإقرارهم - حيث قالوا : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » هذه الجماعة القليلة تدخل المعركة وتهزم الكثرة ، أليست هذه آية ؟

وهل الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعرف الآيات التي سبقت رسالته ؟ لا ، ولكنها من إخبار الله له مع إقرار الجميع ، وخاصة الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، بأنه لا قرأ ولا كتب ولا جلس إلى معلم ، ولا أحد قال له شيئاً ؛ حتى الرحلة التي ذهب فيها للتجارة كان يصحبه فيها أناس غيره ، ولو كانوا قد رأوه مائلاً إلى أحد يعلمه شيئاً ؛ لأذاعوا أن محمداً قد جلس مع فلان ، وتعلم منه كذا

وكذا . ولكن هذا لم يقله أحد ؛ لأنه لم يحدث أصلا ، ولذلك كان إخباره صلى الله عليه وسلم بما يعاصرونه مما عندهم هو بعضا من أسرار معجزته ، إنه قد عرف الأخبار السابقة رغم أنه لم يقرأ ولم يكتب ولم يتلق علما من أحد . وقد تماحك بعض المشركين وقال . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجلس إلى فتى عند المروة يسمع منه هذه الأخبار ، فنزل القول الحق يدحض هذا الافتراء :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة النحل)

لقد أثبت الحق أنها حجة باطلة ، وزعم كاذب من ناحيتهم ؛ لأن الذي ادّعوا أنه علم الرسول كان أعجميا . ويقول الحق سبحانه لمحمد صلى الله عليه وسلم : « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق » . إن كلمة « آيات الله » تعني الأشياء العجيبة ، و« نتلوها » أي نجعل كلمة بعد كلمة ، وهي من « ولي » أي جاء بعده بلا فاصل . « نتلوها عليك بالحق » والحق هو الشيء الذي وقع موقعه حيث لا يتغير عنه ، فلا يتضارب أبدا .

مهما أن حادثة وقعت أمامك ، ثم سُئلت عنها ألف مرة في طيلة حياتك ستجد أن حديثك لن يختلف عليها أبدا ؛ لأنك تحكي واقعا رأيته ، لكن لو كانت الحكاية كذبا ، ستجد أن روايتك لها في المرة الثانية تتغير ؛ لأنك لا تذكر ماذا قلت في المرة الأولى ؛ لأنك لا تحكي عن واقع يلاحقك وتلتزم به ، وكذلك الحق لا يتغير ، ولا يتضارب ، ولا يتعارض .

« تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق » ومادام الحق سبحانه هو الذي يقولها ، فسيقولها لك حقيقة ، وعندئذ يعرف الآخرون أنك عرفت ما عندهم مما يخفونه في كتبهم يقوله بعضهم لبعض ، هنا يعرفون أنك من المرسلين . ولذلك نحن نجد في « ماكانات القرآن » التي يقول فيها تعالى : « ما كُنت » ، « ما كُنت » ، و« ما كنت » ومثل قوله الحق :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة القصص)

أى ما كنت يا محمد حاضرا مع موسى فى المكان القريب من الجبل حين عهد الله إليه بأمر الرسالة ، ولم تكن معاصرا لموسى ولا شاهداً تبليغه للرسالة فكيف يكذبك قومك وأنت تتلو عليهم أنباء السابقين ؟ ومثال ذلك قوله الحق .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إن الذى رواه القرآن لك يا محمد من الأخبار الجليلة عمن اصطفاهم الله هى من الغيب الذى أوحى الله به إليك . وما كنت حاضراً معهم وهم يقترعون بالسهام ليعلم بالقرعة من يقوم بشئون مريم ، وما كنت معهم وهم يختصمون فى نيل هذا الشرف النبيل . ومثال ذلك قوله الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة القصص)

أى ما كنت أيها الرسول حاضراً فى جانب الطور حين نادينا موسى لما أتى الميقات وكلمه ربه وناجاه ، ولكن الله أعلمك بهذا عن طريق الوحى رحمة بك وبأمتك ، ولتبلغه لقوم لم يأتهم رسول من قبلك لعلهم يتذكرون ويؤمنون . ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي

﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة الشورى)

إن القرآن هو وحي منزل من عند الله ، يُعرِّف المؤمنين النور إلى الهداية وتكاليف الحق ، ويهدى من اختار الهدى ، وإنك يا محمد لتدعو بهذا القرآن إلى صراط مستقيم . إن كلمة « ما كنت » في القرآن الكريم هي دليل على أن ما أخبرك به جبريل رسولاً من عند الله إليك ، وحاملاً للوحي من الله هو الحق ، فتعلمه أنت يا محمد بطريقة خاصة وعلى نهج مخصوص ، رغم أنك لم تقرأ كتاباً ولم تجلس إلى معلم وما تخبرهم به من آيات هي موافقة لما معهم ، وكان من الواجب أن يقولوا إن الذي علمك هذا هو الله سبحانه وتعالى ، وكان يجب أن يقروا ويشهدوا بأنك من المرسلين . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾

إن الحق سبحانه وتعالى يشير إلى الرسل بقوله : « تلك الرسل » و« الرسل » هي جمع لمفرد هو « رسول » . والرسول هو المكلف بالرسالة . والرسالة هي الجملة من الكلام التي تحمل معنى إلى هدف . ومادام الرسل جماعة فلماذا لم يقل الحق « هؤلاء

الرسل ؛ وقال « تلك الرسل » ؟ ذلك ليدلك القرآن الكريم على أن الرسل مهما اختلفوا فهم مرسلون من قبل إله واحد وبمنهج واحد وكما عرفنا من قبل أن الإشارة بـ « تلك » هي إشارة لأمر بعيد . فعندما نشير إلى شيء قريب فإننا نقول « ذا » ، وعندما نستخدم صيغة الإشارة مع الخطاب نقول : « ذاك » وعندما نشير إلى مؤنث فنقول « تا » وعندما نشير إلى خطاب مؤنث نقول « تيك » و« اللام » كما عرفنا هنا للبعد أو للمنزلة العالية .

إذن فقوله الحق . « تلك الرسل » هو إشارة إلى الرسل الذين يَقْدُمُهُم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، أو الرسل الذين تقدموا في السياق القرآني . والسياق القرآني الذي تقدم تحدث عن موسى عليه السلام ، وعن عيسى عليه السلام ، وتكلم السياق عن أولي العزم من الرسل

إن أردت الترتيب القرآني هنا ، فهو يشير إلى الذي تقدم في هذه السورة ، وإن أردت ترتيب النزول تكون الإشارة إلى من علمهُ الرسول من الرسل السابقين ، والمناسبة هنا أن الحق قد ختم الآية السابقة بقوله هناك : « وإنك لمن المرسلين » ، ولما كانت « وإنك لمن المرسلين » تفيد معضيته صلى الله عليه وسلم لكلية عامة ، كأنه يقول : إياكم أن تظنوا أنهم ماداموا قد اتفقوا في أنهم مرسلون أو أنهم رسل الله ، أنهم أيضا متساوون في المنزلة ، لا ، بل كل واحد منهم له مرتبته العامة في الفضلية والخاصة في التفضيل إنهم جميعا رسل من عند الله ، ولكن الحق يعطي كل واحد منهم منزلة خاصة في التفضيل .

فلما كان قول الله : « وإنك لمن المرسلين » يؤكد لك أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين الرسل فلا تأخذ هذا الأمر على أساس أن كل الرسل متساوون في المكانة ، وتقول إنهم متماثلون في الفضل . لا . إن الله قد فضل بعضهم على بعض .

وما هو التفضيل ؟

إن التفضيل هو أن تأتي للغير وتعطيه ميزة ، وعندما تعطي له مزية عمن سواه قد

يقول لك إنسان ما : « هذه محاباة » ، لذلك نقول لمن يقول ذلك : الزم الدقة ، ولتعرف أن التفضيل هو إيثار الغير بمزية بدافع الحكمة ، أما المحاباة فهي إيثار الغير بمزية بدافع الهوى والشهوة ، فمثلا إذا أردنا أن نختار أحداً من الناس لمنصب كبير ، فنحن نختار عدداً من الشخصيات التي يمكن أن تنطبق عليهم المواصفات ونقول : « هذا يصلح ، وهذا يصلح ، وهذا يصلح » و« هذا فيه ميزات عن ذاك » وهكذا ، فإن نظرنا إليهم وقيمناهم بدافع الحكمة والكفاءة فهذا هو التفضيل ، ولكن إن اخترنا واحداً لأنه قريب أو صهر أو غير ذلك فهذا هو الهوى والمحاباة .

إن التفضيل هو أن تؤثر وتعطي مزية ولكن بحكمة ، وأما المحاباة فهي أن تؤثر وتعطي مزية ، ولكن للهوى في نفسك . فمثلا هب أنك اشتريت قارباً بحرياً وركبته أنت وابنك الصغير ، ومعك سائق القارب البحري ، وأراد ابنك الصغير أن يسوق القارب البحاري ، وجلس مكان السائق وأخذ يسوق . ولكن جاءت أمواج عالية واضطرب البحر فغضبت أنت سريعا وأبعدت الولد وأمرت السائق أن يتولى القيادة ، وهنا قد يصرخ الولد ، فهل هذه محاباة منك للسائق؟ لا ، لو كانت محاباة لكانت لابنك ، لكنك أنت قد آثرت السائق لحكمة تعرفها وهي أنه أعلم بالقيادة من الولد الصغير . إذن إذا نظرت إلى حيثية الإيثار وحيثية التمييز لحكمة فهذا هو التفضيل ، ولكن في المحاباة يكون الهوى هو الحاكم .

وكل أعمال الحق سبحانه وتعالى تصدر عن حكمة ؛ لأنه سبحانه ليس له هوى ولا شهوة ، هكذا حينما بالنسبة إليه سبحانه . إذن هو سبحانه حين يعطي مزية أو يعطي خيراً أو يعطي مصيبة ، يكون القصد فيها إلى حكمة .

وحينما قال الحق : « وإنك لمن المرسلين » جاء بعدها بالقول الكريم : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » ، وأعطانا نماذج التفضيل فقال : « منهم من كلم الله » . وساعة تسمع « منهم من كلم الله » يأتي في الذهن مباشرة موسى عليه السلام ، وإلا فالله جل وعلا قد كلم الملائكة .

وبعد ذلك يقول الحق : « ورفع بعضهم درجات » ، ثم قال : « وآتينا عيسى ابن

مريم البينات » إنه سبحانه قد حدد أولا موسى عليه السلام بالوصف الغالب فقال .
« كلم الله » وكذلك حدد سيدنا عيسى عليه السلام بأنه قد وهبه الآيات البينات .
وبين موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام قال الحق « ورفع بعضهم درجات »
والخطاب في الآيات لمحمد عليه الصلاة والسلام . إذن ففيه كلام عن المبرز المخاطب
هو محمد صلى الله عليه وسلم .

وساعة يأتي التشخيص بالاسم أو بالوصف الغالب ، فقد حدد المراد بالقضية ،
ولكن ساعة أن يأتي بالوصف ويترك لفطنة السامع أن يرد الوصف إلى صاحبه فكأنه
من المفهوم أنه لا ينطبق قوله : « ورفعنا بعضهم درجات » بحق إلا على محمد صلى
الله عليه وسلم وحده . وجاء بها سبحانه في الوسط بين موسى عليه السلام وعيسى
عليه السلام ، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت في الوسط ، وإنما جاء آخر
الأنبياء ، ولكننا نجد أن منهجه صلى الله عليه وسلم هو الوسط . فاليهودية قد
أسرفت في المادية بلا روحانية ، والنصرانية قد أسرفت في الروحانية بلا مادية ،
والعالم يحتاج إلى وسطية بين المادية والروحية ، فجاء محمد صلى الله عليه وسلم ،
فكأن محمدا صلى الله عليه وسلم قطب الميزان في قضية الوجود .

وإذا أردنا أن نعرف ساحات التفضيل ، فإننا نجد رسولا يرسله الله إلى قريته مثل
سيدنا لوط مثلا . وهناك رسول محدود الرسالة أو عمر رسالته محدود ، ولكنْ هناك
رسول واحد قيل له : أنت مرسل للإنس والجن ، ولكل من يوجد من الإنس والجن
إلى أن تقوم الساعة إنه هو محمد صلى الله عليه وسلم .

فإذا كان التفضيل هو مجال العمل فهو لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا
نظرنا إلى المعجزات التي أنزلها الله لرسله ليثبتوا للناس صدق بلاغهم عن ربهم ،
نجد أن كل المعجزات قد جاءت معجزات كونية ، أي معجزات مادية حسية الذي
يراها يؤمن بها ، فالذي رأى عصا موسى وهي تضرب البحر فانفلق ، هذه معجزة
مادية آمن بها قوم موسى ، والذي رأى عيسى عليه السلام يبرىء الأكمه والأبرص
فقد شهد المعجزة المادية وآمن بها ، ولكن هل هذه المعجزات الآن وجود غير الخبر
عنها ؟ لا ليس لها وجود .

لكنّ محمداً صلى الله عليه وسلم حين يشاء الله أن يأتيه بالمعجزة لا يأتي له بمعجزة من جنس المعجزات[1] التي تحدث مرة وتنتهي ، إنه سبحانه قد بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة ، ورسالته غير محدودة ، ولابد أن تكون معجزته صلى الله عليه وسلم غير محسة وإنما تكون معقولة ، لأن العقل هو القدر المشترك عند الجميع ، لذلك كانت معجزته القرآن . ويستطيع كل واحد الآن أن يقول : محمد رسول الله وتلك معجزته .

إن معجزة رسولنا صلى الله عليه وسلم هي واقع محسوس . وفي مجال التطبيق للمنهج نجد أن الرسل ما جاءوا ليشرعوا ، إنما كانوا ينقلون الأحكام عن الله ، وليس لهم أن يشرعوا ، أما الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فهو الرسول الوحيد الذي قال الله له :

﴿ وَمَا ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فهو صلى الله عليه وسلم قد اختصه الله بالتشريع أيضاً ، أليست هذه مزية ؟ إن المراد من المنهج السماوي هو وضع القوانين التي تحكم حركة الحياة في الخلافة في الأرض ، وتلك القوانين نوعان : نوع جاء من الله ، وفي هذا تجد أن كل الرسل فيه سواء ، ولكن هناك نوع ثانٍ من القوانين فوض الله فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضع من التشريع ليلائم ما يرى ، وهذا تفضيل للرسول صلى الله عليه وسلم .

إذن حين يقول الله تعالى : « ورفع بعضهم درجات » فهذا لا ينطبق إلا على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وحده أكثر من التصريح بالاسم . ولنضرب هنا المثل - ولله المثل الأعلى - أنت أعطيت لولدك قلماً عاديا ، ولولدك الثاني قلماً مرتفع القيمة ، ولولدك الثالث ساعة ، أما الولد الرابع فاشتريت له هدية غالية جداً ، ثم تأتي للأولاد وتقول لهم : أنا اشتريت لفلان قلماً جافاً ، ولفلان قلم حبر ، واشتريت لفلان ساعة ، وبعضهم اشتريت له هدية ثمينة « ورفع بعضهم » ، هذا قد عُرف بأنه الابن الرابع الذي لم تذكر اسمه ، فيكون قد تعين وتحدد .

---

[1] - علماً بأن رسول الله ﷺ كانت له معجزات حسية كثيرة انظر كتاب « الفرقان » لابن تيمية .

«تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله» وحين نقول كلم الله فإياك أن تغفل عن قضية كلية تحكم كل وصف لله يوجد في البشر، فأنا أتكلم والله يتكلم، لكن أكلامه سبحانه مثل كلامي؟ إن كنت تعتقد أن وجودي مثل وجوده فاجعل كلامي ككلامه، وإن كان وجودي ليس كوجوده فكيف يكون كلامي ككلامه؟

ربما يقول أحد: إن الكلام صوت وأحبال صوتية وغير ذلك، نقول له: لا، أنت لا تأخذ ما يخص الله سبحانه إلا في إطار «ليس كمثله شيء» ونحن نأخذ كل وصف يرد عن الله بواسطة الله، ولا نضع وصفا من عندنا، وبعد ذلك لا نقرنه بوصف للبشر فلله حياة ولك حياة لكن أحياة أي منا كحياته سبحانه؟ لا، إن حياته ذاتية، وحياة كل منا موهوبة مسلوبة، فليست مثل حياته

وعندما يقول الحق:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ④﴾

(سورة السجدة)

فهل جلوس الحق كجلوس الخلق؟ أو هل يكون كرسي الخالق ككرسي المخلوق؟ طبعا لا. ونحن المؤمنين نأخذ كل صفة عن الله في نطاق التنزيه سبحان الله وليس كمثله شيء، فليس استواء الله مثل استواء البشر، وليس جلوس الحق مثل جلوس الإنسان

ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ـ هب أن صاحبا لك دعاك لتأكل عنده ثم دعاك أحد كبراء القوم لتأكل عنده، لابد أنك تجد الطعام متفاوتا في جودته وأصنافه بين كل مائدة من موائد من دعوك، فإذا كان البشر أنفسهم تتفاوت بينهم الأمور الوصفية تبعا لمقاماتهم وقدراتهم وإمكاناتهم، فإذا ما ترقيت بالصفة إلى خالق كل الأشياء أيقنت أنه سبحانه منزه عن كل من سواه، وليس كمثله شيء.

إذن « كلم الله » تعني أنه أعلم رسوله بأي وسيلة من وسائل الإعلام . « منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » والحق سبحانه وتعالى يؤكد دائما في الكلام عن سيدنا عيسى - أن عيسى ابن مريم مؤيد بروح القدس - ؛ لأن المسائل التي تعرض لها سيدنا عيسى تتطلب أن تكون روح القدس دائما معه ، ولذلك يقول الحق سبحانه عنه :

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (٣٣)

(سورة مريم)

ففي الميلاد سيدنا عيسى معرض لمشكلة ؛ لأنه ولد على غير طريقة ميلاد الناس ، واتهمت فيه أمه ، وجاء القرآن فبرأه ، وبرأها ، ووضع الأمر في نصابه الحق ، وأيضا في موته عندما أرادوا أن يقتلوه .

وحين ننظر إلى الرسل نجد أن مقتضى أن يرسل الله رسلاً إلى العالم هو أنه سبحانه قد خلق الخلق غير مكرهين على فعل ، ولا مسخرين كما تسخر بقية الأجناس في الكون ، ودونه مباشرة الحيوان الذي ينقص عنه العقل ، وبعد الحيوان يأتي جنس النبات الذي ينقص عنه الحس والحركة ، وبعد ذلك الجماد الذي ينقص عن النبات ، تلك هي أجناس الوجود . والإنسان هو سيد هذه الأجناس . والسيادة جاءت له من ناحية أن الأجناس كلها مسخرة لخدمته لا بالاختيار ، ولكن بالقهر والقسر .

فالشمس لم تجئ مرة لتقول : لم يعد الخلق يعجبونني لذلك لن أشرق عليهم اليوم ، ولا الهواء امتنع عن أن يهب ، ولا المطر امتنع عن أن ينزل ، ولا الأرض امتنعت عن أن تعطي النبات عناصر غذائه ، إن الإنسان يركب الدابة ويسيرها كما يحب وكما يريد ، لا شيء يتأبى أبدا على الإنسان . وأنت أيها الإنسان الجنس الوحيد الذي وهبك الله الاختيار لتمارس مهمتك في الوجود ، فإن شئت فعلت كذا ، وإن شئت لم تفعل كذا .

ولكن الله لم يدعك هكذا على إطلاقك ، بل إن فيه أموراً تصير برغم أنفك وأنت

مسخر فيها ، لا تستطيع ـ مثلا ـ أن تتحكم فى يوم ميلادك ، ولا فى يوم وفاتك ، ولا فيما ينزل عليك من الأحداث الخارجة عنك ، ولا فيما يدور من الحركة فى بدنك ، كل ذلك أنت مسخر فيه فلا تنفلت من قبضة ربك ولكنك مختار فى أشياء .

ونعرف أنه سبحانه وتعالى قهر أجناساً على أن تكون كما يريد ، وكما يحب ، وتلك صفة القدرة ؛ لأن صفة القهر تفيد السيطرة فإذا ما ترك جنسا يختار أن يؤمن ، ويختار ألا يؤمن ، وإن آمن يختار أن يطيع ويختار أن يعصى ، فهذه تثبت المحبوبية لله سبحانه وتعالى لمن اختار وآثر طاعة الله على المعصية .

ونحن نعرف أن القهر يخضع القوالب لكنه لا يخضع القلب فأنت تستطيع أن تهدد إنسانا بمسدس وتقول له : « اسجد لى » فيسجد لك ، لكنك لا تستطيع أن تقول له ـ وهو تحت التهديد ـ « أحبنى » . فالحق سبحانه وتعالى يترك لنا الإيمان بالاختيار ، ويترك لنا الطاعة والمعصية اختياراً ، ليعلم من يأتيه حباً ومن يأتيه قهرا

والعالم كله يأتى لله قهرا . وأنت أيها الإنسان فى ذاتك أشياء أنت مقهور فيها ومن هنا تثبت لله تعالى القدرة وبقى أن تثبت له المحبة والعبد الصالح هو الذى يطيعه عن حب ونحن قد سبق لنا أن ضربنا مثلا ـ ولله المثل الأعلى ـ وقلنا إن إنسانا عنده خادمان واحد اسمه سعد والآخر اسمه سعيد ، سعد عنده صاحبه بحبل ويجره قائلا : « ياسعد » فهل لسعد ألا يجىء ؟ لا لكن صاحب العبدين ترك لسعيد الحرية ، وعندما يناديه فهو يأتيه

إذن ، أيهما يحبه . الذى جاء بالحبل أم الذى جاء بالمحبة ؟ إذن ، فمن كرامة الإنسان أن يثبت لله صفة المحبة إن آمن بالله ؛ لأنه سبحانه وتعالى لو شاء أن يهدى الناس جميعا ما استطاع أى واحد منهم أن يكفر به ، ولو شاء أن يكون مطاعا دائما ما استطاع واحد أن يعصيه أبداً ولذلك قلت : إن إبليس كان عالما حينما قال أمام الله تعالى .

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة ص)

أقسم الشيطان لله بعزته سبحانه عن خلقه ، وكأنه قال : أنت يارب لو كنت تحتاج عبادك فأنا لا أستطيع أن آخذهم ، ولكن لأنك عزيز عليهم ، إن أرادوا أن يؤمنوا آمنوا ، وإن أرادوا ألا يؤمنوا لم يؤمنوا ؛ فهذا هو المدخل الذى سأدخل منه . ولذلك استثنى الشيطان بعضا من العباد لأنه لن يستطيع أن يجد لوسوسته لديهم مدخلا :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

أى إن الذى يريد الله أن يستخلصه لنفسه فلن يستطيع الشيطان أن يقترب منه . إذن فإبليس ليس داخلا فى معركة مع الله تعالى ، ولكنه فى معركة معنا نحن . ولقد أوضح الحق ذلك حين جاء على لسان إبليس فى القرآن :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

إذن لو أراد الله أن نكون طائعين جميعا ، أيستطيع واحد أن يعصى ؟ لا يستطيع ولو أرادنا مؤمنين جميعا ، أيستطيع واحد أن يكفر ؟ لا يستطيع . إنما شاء الله تعالى لبعض الأمور والأفعال أن يتركها لاختيارك ، لأنه يريد أن يعرف من الذى يأتيه طوعا وليظل العبد بين الخوف والرجاء ، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد)[1]

ولهذا فإن مطلوب الارتفاع الإيمانى ، والارتفاع اليقينى أن تحب الله لذات الله ، وهو سبحانه يجرى عليك من الأحداث ما يشاء ، وتظل تحبه فيباهى الله بك الملائكة فتقول الملائكة : يارب يحبك لنعمتك عليه فيقول لهم : وأسلب نعمتى ولايزال يحبنى ، ويسلب الحق النعمة لكى العبد لايزال يحب الله ، فهو يحب الله ولا يحب نعمته لأنه سبحانه ذات تُحَب لذاتها بصرف النظر عن أنه يعطينا النعم

---

(١) رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة

إذن الحق سبحانه وتعالى قد أرسل الرسل يحملون منهج الله لِمَنْ يريد أن يعلن حبه لله ، وأن يكون خليفة في الأرض بحق ، وأن يُصلح في الكون ولا يفسده . ويعرف أن الإصلاح له مرتبتان : أن تترك الصالح بطبيعته فلا تفسده ، أو أن تزيد الصالح صلاحاً . فلا تأتي على عين الماء التي تتدفق للناس وتردمها ، ولكنك تتركها على صلاحها إن لم تستطع أن تزيدها إصلاحاً . وقد تستطيع أن تزيد عين الماء صلاحاً ؛ بدلاً من أن يسحب الناس متعبين إلى العين ويحملون منها الماء ، قد تصنع لهم مضخة عالية لها خزان ترفع إليه الماء وتمد « المواسير » وتوصل المياه إلى منازلهم . فأنت بذلك تزيد الأمر الصالح صلاحاً ، وهذه خلافة وعمارة في الوجود . فإن لم تستطع أن تزيد الصالح صلاحاً فجنبنا شر إفسادك ، ودع الحال كما هي عليه ، واقعد كما أنت عالة في الكون .

ولو أن الإنسان كان منصفاً في الكون لسأل نفسه : مَنْ الذي اهتدى إلى صناعة الرغيف الذي نأكله الآن ؟ وسيعرف أنه قد أخذ تجارب الناس من أول آدم حتى وصل إلى صناعة هذا الرغيف ، فهناك إنسان زرع القمح ، وهناك إنسان آخر هداه الله أن يطحن هذا القمح ، وهو سبحانه هدى الإنسان أن يصنع منخلاً ليفصل الدقيق عن النخالة ، ثم هداه أن يعجن الدقيق حتى يجد له طعماً أفضل . ولا شك أنه ترك مرة قطعة من العجين ثم شُغل عنه بأي شاغل أو بأي سبب ثم رجع لها مرة أخرى فوجدها متخمرة ، فلما خبزها خرج له العيش أفضل طعماً ، إنه سبحانه قدر فهدى ، وإلا كيف تأتي هذه التجربة الطويلة ؟

ومثال آخر : إن الإنسان حين ينظف ثوبه ، لو أنه استعرض أعمال مَنْ سبقوه في هذا الموضوع منذ آدم ، لعلم أن كل واحد سبقه في الوجود أعطاه مرحلة من التقدمية إلى أن وصل للغسالة الكهربائية التي تغسل له بدون تعب ، كل هذه الأشياء جاءت له بهدايات من الله .

وقد قلت مرة : لماذا طبخت الناس « الكوسة » ولم تطبخ « الخيار » ؟ إن هذه دليل على أن هناك تجارب كثيرة مرت على الإنسان حتى يميز طعم الكوسة المطبوخة عن الخيار ، وكذلك طبخ الناس الملوخية ولم يطبخوا النعناع ، مع أن النعناع أحسن

منها ، حدث ذلك ؛ لأن هناك تجاوب وصلتنا بأن المخترع لا يُستساغ طمعه مطبوخ .

وأنت لو نظرت إلى أي شيء تستفيد به اليوم ، وقدرت الأعمال التي تداولته من يوم أن وُجد ، ستجد أن الحق قد قدر لكل إنسان عملاً ومجالاً ، وظل يخدمك أنت . ومادمت قد خُدمت بهؤلاء الناس كلهم من أول آدم وحتى اليوم ، فلا بد أن تنظر لترى ماذا ستقدم لمن يأتي من بعدك ، فلا تكن كسولاً في الحياة ؛ تأخذ خير غيرك كله في الوجود ، وبعد ذلك لا تعطي أي شيء ، بل لا بد أن يكون لك عطاء ، فكما أخذت من بيئتك لا بد أن تعطي هذه البيئة ، ولو لم يوجد هذا ما ارتقت الحياة ؛ لأن معنى ارتقاء الحياة أن إنساناً أخذ خبرة من سبقوه ، وحاول أن يزيد عليها ، أي أن يأخذ أكبر ثمرة بأقل مجهود

فلو قدر الناس جهد الإنسان الذي ابتكر « العجلة » مثلا التي تسير عليها السيارة لكان عليهم أن يستغفروا الله له بمقدار ما أراحهم ، فبعد أن كان الإنسان يحمل على أكتافه قصارى ما يحمل ، وُمر عليه من اخترع هذا أن يحمل ويتعب ، وجعله يحمل أكبر كمية وينقلها بأقل مجهود .

إذن لا بد أن تنظر إلى النعم التي تستفيد بها الآن وترى كم مرحلة مرت بها ، وهل صنعها الناس هكذا ؟ أم تعبوا وكدوا واجتهدوا منذ بدء الوجود على الأرض ، وعرف الإنسان جيلا بعد جيل كيفية تطوير تلك الأشياء ، وقد يحدث خطأ في مرحلة معينة فيبدأ الإصلاح أو التحسين وهكذا . فأنت عندما تجد أن العالم قدم لك كل هذه المنتجات ، لا بد أن تسأل نفسك : ما الذي ستقدمه أنت لهذا العالم ، وبذلك تظل الحلقة الإنسانية مرتقية ومتصلة .

والحق سبحانه وتعالى يرسل الرسل ويضع المنهج : « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » ، حتى تستقيم حياة الناس على الأرض ، لكن الناس غلبت عليهم الغفلة عن أمر المنهج ؛ ولذلك تظهر في الوجود مفاسد بقدر الغفلة ، وعندما يزداد الفساد يبعث الحق سبحانه رسولا جديدا يذكرهم بالمنهج مرة أخرى ، وعندما يأتي الرسول

يؤمن به بعض من الناس ويحاربون معه، وينتصر الرسول وتستقر مبادئ الله في الأرض، ثم تمر فترة وتأتي الغفلة فيحدث الخلاف، فهناك أناس يستقيمون بمنهج الله، وأناس ينحرفون في هذا المنهج، ويحدث الخلاف وتقوم المعارك

ولو كان الحق سبحانه وتعالى يريد الكون بلا معارك بين حق وباطل لجعل الحق مسيطرا سيطرة تسخير. لكن الله تعالى أعطانا تمكينا، وأعطانا اختيارا؛ لذلك نجد من ينشأ مؤمنا، ومن ينشأ كافرا ونجد الطائع، ونجد العاصي، هذا فريق، وهذا فريق وإياك أن تفهم أن وجود الكافرين في الأرض، أو وجود العصاة في الكون دليل على أنهم غير داخلين في حوزة الله، لا. بل إن الله تعالى هو الذي أعطاهم هذا الاختيار، ولو شاء الله أن يجعل الناس أمة واحدة لما استطاع إنسان أن يخرج على مراد الله.

وفي الآية التي نحن بصددها جاء الحق بأولي العزم من الرسل: سيدنا موسى عليه السلام، ورسول الله صلى الله عليه وسلم، وسيدنا عيسى عليه السلام وبعد ذلك يقول سبحانه:

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

(من الآية ٢٥٣ سورة البقرة)

إذن ما الذي جعل الناس تقتتل فيما بينها؟ إنه الاختلاف بين الناس، لقد اختلفوا فاقتتلوا. لكن ألا يمكن أن يكونوا قد اختلفوا ولم يقتتلوا؟ إن ذلك لو حدث لكان إجماعا على الفساد. والحق سبحانه لا يريد أن يحدث هذا الإجماع على الفساد، فإن لم يسيطر الخير على أمور البشر فلا أقل من أن يظل عنصر الخير موجودا، ويأتي واحد ليحد عنصر الخير وينميه.

إن الحق سبحانه لا يمحو في أزمنة الباطل معالم الخير والأعمال الحسنة ، بل يستبقي - سبحانه - معالم الخير والأعمال الحسنة ليذهب إليها أي إنسان يريد الخير ، وقد يكون الخير ضعيفاً ، ولكن الله لا يمحوه ، لأنه يعطي به دفعة جديدة لمؤمنين جدد يرفعون راية الحق ، وإن بدأوا ضعفاء . ولذلك نجد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يقول : « لولا عباد الله ركع وصبية رُضَّع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صباً »[1].

إن الرسول صلى الله عليه وسلم ينبهنا ألا ننظر إلى الضعفاء على أنهم عالة وأننا أقوياء لمجرد أنهم يعيشون في كنافنا . بل قد يكونون سياج لطف ورحمة كما في الحديث السابق .

إن الله سبحانه وتعالى رفع عنا العذاب من أجل وجود الضعفاء بيننا . لأن في الضعاف يوجد شيء من الخير ، ولتظل في الوجود خلية من الخير حتى إذا ما أراد الوجود أن يفيق إلى الرشد فإنه سيجد من الخير ما يرشده . إذن لولا الاقتتال لعم الفساد ، وانتهت المسألة . لكن الناس اختلفت فمنهم من آمن ، ومنهم من كفر ، « ولو شاء الله ما اقتتلوا » أي لظلوا على منهج واحد من الكفر أو من الفساد ، لكن الله يفعل ما يريد . وفي الاقتتال - كما نعرف - هناك تضحيات بالنفس ، وتضحيات من أجل أن تظل القيم السماوية على الأرض .

وتقتضي التضحية إما أن يجود الإنسان بنفسه وإما أن يجود بماله ، ولذلك فمن المناسب هنا أن نتكلم عن النفقة وهي الجود بالمال ، وخاصة أنه في الزمن القديم كان المقاتل هو الذي يجهز عدة قتاله : فرسه ، رمحه ، سيفه ، سهامه ، لذلك فهو يحتاج إلى إنفاق ، ويتكلم الحق عن هذه المسألة لأن الأمر بصدد استبقاء خلية الإيمان المصورة في المنهج السماوي الذي جاء به الرسل ، ليظل هذا المنهج في الأرض حتى يفيء إليه الناس إن صدمهم الشر أو صدمهم الباطل فيقول :

---

(١) رواه الطبراني في الكبير والبيهقي في السنن الكبرى

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾

ونحن نعرف أن كل نداء من الحق يبدأ بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا » إنما يدل على أن ما يأتي من بعد هذا القول هو تكليف لمن آمن بالله ، وليس تكليفا للناس على إطلاقهم ؛ لأن الله لا يكلف من كفر به ، إنما يكلف الله من آمن به ، ومن اختار ذلك وأصبح في اليقين الإيماني فهو أهل لمخاطبة الله له . فكأنه يجد في القول الرباني نداء يقول له : يا من آمن بي إلها حكيما قادرا مشرعا لك ، أنا أريد منك أن تفعل هذا الأمر .

إذن الإيمان بالله هو حيثية كل حكم ، فأنت تفعل ذلك لماذا ؟ لا تقل لأن حكمته كذا وكذا . لا ، ولكن قل لأن الله الذي آمنت به أمرني بهذه الأفعال ، سواء فهمت الحكمة منها أو لم تفهمها ، بل ربما كان إقبالك على أمر أمرك الله به وأنت لا تفهم له حكمة أشد في الإيمان من تنفيذك لأمر تعرف حكمته .

ولو أن إنسانا قال له الطبيب : إن الخمر التي تشربها تفسد كبدك وتعمل فيك كذا وكذا ، وبعد ذلك امتنع عن الخمر ، صحيح أن امتناعه عن الخمر صادف طاعة لله ، لكن هل هو امتنع لأن الله قال ؟ لا ، لم يمتنع لأن الله قال ، ولكنه امتنع لأن الطبيب قال ، فإيمانه بالطبيب أكثر من إيمانه برب الطبيب . أما المؤمن فيقول : أنا لا أشرب الخمر ؛ لأن الله قد حرمها ، ولماذا أنتظر حتى يقول لي الطبيب : إن كبدك سيضيع بسبب الخمر ، فالرحمة هي ألا يجيء الداء .

إن الحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم » أي أنا لا أطلب منكم

أن تنفقوا على ، ولكن أنفقوا من رزقي عليكم ؛ لأن الرزق يأتي من حركة الإنسان ، وحركة الإنسان تحتاج طاقة تتحرك في شيء أو مادة ، وهذه الحركة تأتي على ترتيب فكر ، وهذا الفكر ربه من خلقه ، والجوارح التي تنفعل ، واليد التي تتحرك ، والرجل التي تمشي خلقها الله ، والمادة التي تنفعل بها مخلوقة لله . وسنأخذ الزرع نموذجا ، نجد أن الأرض التي فيها العناصر مخلوقة لله ، إذن فالإنسان يعمل بالعقل الذي خلقه الله ، ويخطط بالجوارح التي خلقها الله لتأتي له بالصدقة التي يعمل بها في المادة التي خلقها الله لتعطى للإنسان خيرها .. فأي شيء للإنسان إذن ؟

ومع ذلك إن حصل للإنسان خير من هذا كله فهو سبحانه لا يقول : « إنه لي » بل أمنحه لك أيها الإنسان ، ولكن أعطني حقي فيه ، وحقي لن آخذه لي ولكن هو لأخيك المسكين ، والحق يقول :

﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وإياك أن تقول : وما دخل أنا بالمسكين ؟ عليك أن تعلم أن المسكنة عَرَض ، والعرض من الممكن أن يلحق بك أنت . فلا تُقَدِّر أنك معط دائما ، ولكن قدر أنك ربما حدث لك ما يجعلك تأخذ لا أن تعطى . فالحق يقول لك أعط المسكين وأنت غني ؛ لأنه سبحانه سيقول للناس أن يعطوك وأنت فقير ، فقدِّر حكم الله ساعة يُطلب منك ، ليحميك ساعة أن يُطلب لك ، وبذلك تتوازن المسألة .

ومع أنه سبحانه هو الذي يرزق ، فهو يريد منكم أيها العباد أن تتعاونوا وأن يحب بعضكم بعضا ، حتى تمحى الضغائن من قلوبكم ؛ لأن الإنسان الضعيف - ضعفا طبيعيا وليس ضعف التسول أو الكسل أو الاحتراف ، بل ضعف عدم القدرة على العمل - هو مسئولية المؤمنين ، فسبحانه وتعالى يجعل القوي مسئولا أن يساعدك وأنت ضعيف .

وأنت حين ترى - وأنت ضعيف لا تقدر - الأقوياء الذين قدروا لم ينسوك ، وذكروك بما عندهم ، عندئذ تعلم أنك في بيئة متساندة تحب لك الخير ، فإن رأيت

نعمة تنالك إن عجزت فأنت لا تحسدها أبداً ، ولا تحقد على معطيها ، بل تتمنى من حلاوة وقعها في نفسك - لأنها جاءتك عن حاجة - تتمنى لو أن الله قدرك لتردها ، فيكون المجتمع مجتمعا متكافلا متضامنا .

فحين يقول الله تعالى : « أنفقوا مما رزقناكم » فأنتم لا تترعون لذات الله بل تنفقون مما رزقكم ، ومن فضل الله عليكم أنه احترم أثر عملكم وسببه لكم حتى وإن احتاج أخوك ، فهو سبحانه يقول :

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الحق سبحانه قد اعتبر النفقة في سبيل الله هي قرض من العبد للرب الخالق الوهاب لكل رزق . وحتى نفهم معنى النفقة أقول . قد قلت من قبل : إن الكلمة مأخوذة من مادة « النون والفاء والقاف » ، ويقال نفقت السوق أي انتهت بسرعة وتم تبادل البضائع فيها بالأثمان المقررة لها ، ونحن نعرف أن التجارة تعني مقايضة بين سلع وأثمان . والسلعة هي ما يستفاد بها مباشرة . والثمن ما لا يستفاد به مباشرة .

عندما تكون جائعا أيصح أن يكون عندك جبل من ذهب ؟ إن هذا الجبل من الذهب أنت لا تستفيد منه مباشرة ، أما مائدتك من رغيف الخبز فهي استفادة مباشرة ، وكذلك كوب الماء الممتلىء ، تستفيد منه مباشرة ، والملابس التي ترتديها أنت تستفيد منها مباشرة . إذن فالذي يستفاد منه مباشرة اسمه سلعة ، والذي لا يستفاد منه مباشرة نسميه ثمناً . ولذلك يقول لنا الحق إنذارا وتحذيرا من الاعتزاز بالمال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الحق سبحانه ينبهنا أن ننفق من رزقه لنا من قبل أن يأتي اليوم الآخر الذي لا بيع فيه ؛ أي لا مجال فيه لاستبدال أثمان بسلع أو العكس ، وأيضا لا يكون في هذا اليوم « خُلة » ، ومعنى « خلة » هي الود الخالص ، وهي العلاقة التي تقوم بين اثنين فيصير كل منهما موصولا بالآخر بالمحبة ؛ لأن كلا منكما منفصل عن الآخر ، وإن ربطت بينكما العاطفة وفي الآخرة سيكون كل إنسان مشغولا بأمر نفسه .

إن اليوم الآخر ليس فيه بيع ولا شراء ولا فيه خلة ولا شفاعة ، وهذه هي المنافذ التي يمكن للإنسان أن يستند عليها . فأنت لا تملك ثمنا تشترى به ، ولا يملك غيرك سلعة في الآخرة ، إذن فهذا الباب قد سد . وكذلك لا يوجد خلة أو شفاعة ، والشفاعة هذه مأذون فيها إن كانت ممن أذن له الله أن يشفع فيمن في يد الله ، ومعنى « شفيع » مأخوذة من الشفع والوتر . الوتر واحد والشفع اثنان ، فكأن الشفيع يضم صوته لصوت لتقضى هذه الحاجة عند فلان . ويتشفع الإنسان بإنسان له جاه عند المشفوع عنده حتى ينفذ له ما يطلب . ولكن هذه الوسائل في الآخرة غير موجودة . فلا بيع ولا خلة ولا شفاعة ؛ فأنتم إذا أنفقتم اتقيتم ذلك اليوم ، فانتهزوا الفرصة من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة

وهذه هي أبواب النجاة المطلوبة عند البشر التي تُعلق في هذا اليوم العظيم ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : أنا لم أفوت فرصة على خلقي ؛ خلقي هم الذين ظلموا أنفسهم ووقفوا أنفسهم هذا الموقف ، فأنا لم أظلمهم . لذلك يذيل الحق الآية بقوله : « والكافرون هم الظالمون » .

وبعد أن تكلم الله سبحانه وتعالى عن الرسل ، وعن الاختلاف ، وعن القتال لتثبيت منهج الحق ، وعن الإنفاق ، يوضح لنا التصور الإيماني الصحيح الذي في ضوئه جاءت كل هذه المسائل . فقد جاء موكب الرسالات كله من أجل هذا المنهج فقال سبحانه

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥) ﴾

ونقف بالتأمل الآن عند قول الحق : « الله لا إله إلا هو » . إن كلمة « الله » هي علَمٌ على واجب الوجود . وعندما نقول « الله » فإن الذهن ينصرف إلى الذات الواجبة الوجود .

ما معنى « واجبة الوجود » ؟ إن الوجود قسمان : قسم واجب ، وقسم ممكن والقسم الواجب هو الضروري الذي يجب أن يكون موجودا ، والحق سبحانه وتعالى حين أعلمنا باسمه « الله » أعطانا فكرة على أن كلمة « الله » هذه يتحدى بها ـ سبحانه ـ أن يُسمى بها سواه . ولو كنا جميعا مؤمنين لكان احترامنا لهذا التحدي نابعا من الإيمان . ولكنْ هناك كافرون بالله ومتمردون وملحدون يقولون . « الله خرافة » ، ومع ذلك هل يجرؤ واحد من هؤلاء أن يسمي نفسه « الله » ؟

لم يفعل أحد هذا ؛ لأن الله تحدى بذلك ، فلم يجرؤ واحد أن يدخل في هذه التجربة . وعدم جرأة الكفار والملاحدة في أن يدخلوا في هذه التجربة دليل على أن كفرهم غير وطيد في نفوسهم ، فلو كان كفرهم صحيحا لقالوا نسمي ونرى ما يحدث ، ولكن هذا لم يحدث .

إذن « الله » علَم واجب الوجود المتصف بكل صفات الكمال وبعد ذلك جاء

بالقضية الأساسية وهى قوله تعالى : « لا إله إلا هو » وهنا نجد النفى ونجد الإثبات ، النفى فى « لا إله » ، والإثبات فى « إلا هو » . والنفى تخلية والإثبات تحلية . حق سبحانه نفسه من وجود الشريك له ثم أثبت لنا وحدانيته . و« لا إله إلا هو » أى لا معبود بحق إلا الله . ونعرف أن بعضا من البشر فى فترات الغفلة قد عبدوا أصناما وعبدوا الكواكب . ولكن هل كانت آلهة بحق أم بباطل ؟ لقد كانت آلهة بباطل . ودليل صدق هذه القضية التى هى « لا إله إلا الله » ، أى لا معبود إلا الله أن أحدا من تلك الآلهة لم يعترض على صدق هذه القضية . إذن فهذا الكلام هو حق وصدق .

وإن ادعى أحد غير ذلك ، نقول له . إن الله قد أخبرنا أنه لا معبود بحق غيره ؛ لأنه هو الذى خلق وهو الذى رزق ، وقال أنا الذى خلقت . إن كان هذا الكلام صحيحا فهو صادق فيه ، فلا نعبد إلا هو . وإن كان هذا الكلام غير صحيح ، وأن أحدا غيره هو الذى خلق هذا الكون فأين هذا الأحد الذى خلق ، ثم ترك من لم يخلق ليأخذ الكون منه ويقول : « أنا الذى خلق الكون » ؟ إنه أمر من اثنين ، الأمر الأول : هو أنه ليس هناك إله غيره . فالقضية - إذن - منتهية . والأمر الآخر : هو أنه لو كان هناك آلهة أخرى ، وبعد ذلك جاء واحد وقال : « أنا الإله وليس هناك إله إلا أنا » . فأين هذه الآلهة الأخرى ؟ ألم تعلم بهذه الحكاية ؟

إن كانوا لم يعلموا بها ، فهم لا يصلحون أن يكونوا آلهة ، وإن كانوا قد علموا فلماذا لم يقولوا : لا . نحن الآلهة ، وهذا الكلام كذب ؟ وكما بعث الله رسلا بمعجزات كان عليهم أن يبعثوا رسولا بمعجزات . فصاحب الدعوة إذا ادّعاها ولم يوجد معارض له ، تثبت الدعوى إلى أن يوجد مُنازع .

إذن كلمة « لا إله إلا الله » معها دليل الصدق ؛ لأنه إما أن يكون هذا الكلام حقا وصدقا فتنتهى المسألة ، وإن لم يكن حقا فأين الإله الذى خلق والذى يجب أن يُعبد بعد أن سمع من جاء ليأخذ منه هذه القضية ؟ وبعد ذلك لا نسمع له حسا ولا حركة ، ولا يتكلم ، ولا نسمع عنه شيئا ، فما هو شأنه ؟ إما أنه لم يعلم فلا يصلح أن يكون إلها ، لأنه لو كان قد علم ولم يرد فليست له قوة . ولذلك ربما

سبحانه يأتي بهذه القضية من ناحية أخرى فيقول

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

فلو كان عند تلك الآلهة المزعومة مظاهر قوة لذهبوا إلى الله سبحانه وتعالى وأنكروا ألوهيته ، ولو كان هناك إله غير الله لحدثت معركة بين الآلهة ، ولكن هذا لم يحدث فالكلمة « لا إله إلا الله » صدق في ذاتها حتى عند من ينكرها ، والدليل فيها هو عدم وجود المنازع لهذه الدعوى ؛ لأنه إن لم يوجد منازع فقد ثبت أنه سبحانه لا إله إلا الله . وإن وجد المنازع فنقول : أين هو ؟

ولنضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - هب أننا في اجتماع ، وبعد ذلك وجدنا حافظة نقود ، فعرضناها على الموجودين ، فلم نجد لها صاحب ، ثم جاء واحد كان معنا وخرج ، وقال : يا قوم بينما كنت أجلس معكم ضاعت حافظة نقودي . وبما لم يدعها واحد منا لنفسه فهي إذن حافظته هو

إذن « لا إله إلا الله » هي قضية تمتلىء بالصدق والحق ، والله هو المعبود الذي يُتَوَجَّه إليه بالعبادة ، والعبادة هي الطاعة . فمعنى عابد أي طائع ، وكل طاعة تقتضي أمرا وتقتضي نهيا ، ومادامت العبادة تقتضي أمرا وتقتضي نهيا ، فلا بد أن يكوْن المأمور والمنهي صالحا أن يفعل وصالحا ألاّ يفعل فعندما نقول له : افعل كذا كمنهج إيمان ، فهو صالح لئلا يفعل وعندما نقول له : لا تفعل فهو صالح لأن يفعل ، وإلا لو لم يكن صالحا ألا يفعل أيقول له « افعل » ؟ لا ، لا يقول له ذلك ولو كان صالحا ألا يفعل أيقول له « لاتفعل » ؟ إن ذلك غير ممكن

إذن لا بد أن يكون صالحا لهذه وتلك وإلا لكان الأمر والنهي عبثا ولا طائل من ورائهما . لذلك عندما أرادوا أن يقصروا الإسلام في العبادات الطقسية التي هي شهادة لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة ،

والحج ، قالوا : هل هذا هو كل الإسلام ، وقالوا : إنه دين يعتمد على المظاهر فقط ، قلنا لهم : لا ، إن الإسلام هو كل حركة في الحياة تناسب خلافة الإنسان في الأرض ، لأن الله يقول في كتابه الكريم :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٦١ من سورة هود)

« واستعمركم فيها » أي طلب منكم أن تعمروها ، فكل حركة في الحياة تؤدي إلى عمار الأرض هي من العبادة ، فلا تأخذ العبادة على أنها صوم وصلاة فقط ، لأن الصوم والصلاة وغيرهما هي الأركان التي ستقوم عليها حركة الحياة التي سُمِّيَ عليها الإسلام ، فلو جعلت الإسلام هو هذه الأركان فقط لجعلت الإسلام أساسا بدون مبنى ، فهذه هي الأركان التي يبنى عليها الإسلام ، فإذن الإسلام هو كل ما يناسب خلافة الإنسان في الأرض يبين ذلك ويؤكده قول الله تعالى :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٦١ من سورة هود)

ويخرج إلينا أناس يقولون : نحن ليس لنا إلا أن نعبد ولا نعمل . ونقول لأي منهم : كم تأخذ الصلاة منك في اليوم ؟ ساعة مثلا . والزكاة كم تأخذ منك في العام يوما واحدا في العام ؟ والصوم كم يأخذ منك من وقت ؟ نهار أيام شهر واحد . وفريضة الحج أتأخذ منك أكثر من رحلة واحدة في عمرك ؟ فماذا عليك إذن تفعل في الباقي من عمرك من بعد ذلك وهو كثير ؟ إنك لا تأخذ أكثر من ساعة في اليوم للصلاة ، ولا تأخذ أكثر من يوم في السنة لإخراج الزكاة ، وتقضي شهرا في السنة تصوم نهاره ، وتحج مرة واحدة في عمرك ، فهذا تفعل في بقية الزمان ، ستأكل وتلبس ، ستطلب رغيف الخبز للطعام فمن الذي سيصنعه لك ؟ إن هذا الرغيف يمر بمراحل حتى يصير لقمة تأكلها ، ويحتاج إلى أكثر من علم وأكثر من حركة وأكثر من طاقة .

إن المحل الذي يبيعه فقط ولا يخبزه يحتاج إلى واجهة من زجاج أو غيره ، ولا بد أن يعمل فيه من يذهب بعربته إلى المخبز ليحمل الخبز ، وينقله إلى المحل ويبيعه ،

وإذا نظرت إلى الفرن فسوف تجد مراحل عدة من تسليم وتسلم للدقيق ، ثم إلى العجين ، وإلى النار التي توقد بالمازوت ، ويقوم بذلك عمال يحتاجون لمن يخطط لهم ، وقبل ذلك كان الدقيق مجرد حبوب ، وتم طحنها لتصير دقيقا ، وهناك مهندسون يديرون الماكينات التي تطحن ، ويعملون على صيانتها ، وبعد ذلك الأرض التي نبت فيها القمح وكيف تم حرثها ، وتهيئتها للزراعة ، وريها ، وتسميدها ، وزرعها ، وحصدها ، وكيف دُرس القش والسنابل ، وكيف تم تذريته من بعد ذلك ، لفصل الحبوب عن التبن ، وتعبئة الحبوب ، إلى غير ذلك ؟

انظر كم من الجهد أخذ رغيف الخبز الذي تأكله ، وكم من الطاقات وكم رجال للعمل ، فكيف تستبيح لنفسك أن يصنعوه لك ، وأنت فقط جالس لتصلي وتصوم ؟ لا ، إياك أن تأخذ عمل غيرك دون جهد منك .

مثال آخر ، أنت تلبس جلبابا ، كم أخذ هذا الجلباب من غزل ونسج وخيط ؟ إذن فلا تقعد ، وتنتفع بحركة المتحرك في الحياة ، وتقول:أنا مخلوق للعبادة فقط ، فليست هذه هي العبادة ، ولكن العبادة هي أن تطيع الله في كل ما أمر ، وأن تنتهي عن كل ما نهى في إطار قوله تعالى « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيه » إن كل عمل يعتبر عبادة ، ولا تكون « تنبلا » في الوجود والإيمان الحق يقتضي منك أن تنتفع بعملك ولا تعتمد على عمل غيرك

إن الحق سبحانه وتعالى قد استخلفنا في الأرض من أجل أن نعمرها ومن حسن العبادة أن نتقن كل عمل وبذلك لا نقيم أركان الإسلام فقط ، ولكن نقيم الأركان والبنيان معا ونكون قد أدينا مستوجبة الإيمان ، وعاين كل فعل من أعمالنا قولنا: « لا إله إلا الله » .

ولقد عرفنا أن كلمة « الله » هي علَم على واجب الوجود ، وهي الاسم الذي اختاره الله لنفسه وأعلمنا به ، ولله أسماء كثيرة كما روي في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأل الله بكل اسم هو له أنزله في كتابه أو علمه أحدا من خلقه أي خصّه به ـ أو استأثر به في علم الغيب عنده ، فلا تظن أن أسماء الله هي

كلها هذه الأسماء التي نعرفها ، ولكن هذه الأسماء هي التي أذن الله سبحانه وتعالى بأن نعلمها

ومن الجائز ، أو من لفظ الحديث نعلم أن الله قد يُعلّم بعضا من خلقه أسماء له ، ويستأثر لنفسه بأسماء سنعرفها يوم القيامة حين نلقاه ، وحين نتكلم عن الأسماء الأخرى نجد أنها ملحوظ فيها الصفة ، ولكنها صارت أسماء لأنها الصفة العالية ، فإذا قيل « قادر » نجد أننا نستخدم هذه الكلمة لوصف واحد من البشر ، ولكن « القادر » إذا أطلق انصرف إلى القادر الأعلى وهو الله وكذلك « السميع » ، و« البصير » و« العليم » .

إننا نجد أن بعضا من أسماء الله سبحانه وتعالى له مقابل ، ومن أسماء الله الحسنى ما لا نجد له مقابلا فإذا قيل « المحيي » نجد « المميت » ، و« المعز » نجد « المذل » ، لأنها صفة يظهر أثرها في الغير ، فهو مميت لغيره ، ومعزٌّ لغيره ، ومذل لغيره ، لكن الصفة إن لم يوجد لها مقابل نسميها صفة ذات ، فهو « حي » ولا نأتي بالمقابل ، لكن « مُحيي » نأتي بالمقابل وهو « المميت » ، فهذه اسمها صفة فعل فصفات الفعل يتصف بها وبمقابلها لأنها في الغير لكن صفة الذات لا يتصف إلا بها .

وحينما قال الحق « الله » فهو سبحانه يريد أن يعطينا بعض تجليات الله في أسمائه ، فقال « الله لا إله إلا هو » ليحقق لنا صفة التوحيد ، ويجب أن نعلم أن « إلا » هنا ليست أداة استثناء ، لأنها لو كانت أداة استثناء فكأنك تنفي أن توجد آلهة ويكون الله من ضمن هذه الآلهة التي نفيتها وذلك غير صحيح وإنما المراد أنه لا آلهة أبدا غير الله فهو واحد لا شريك له ، وأنه لا معبود بحق إلا هو فكلمة « إلاّ » ليست للاستثناء وإنما هي بمعنى غير ، أي لا إله غير الله

وقد عرف أن هذه القضية معها دليلها ، وإلا فلو كان هناك إله آخر لقال لنا إنه موجود لكن لا إله إلا هو سبحانه أبلغنا « الله لا إله إلا هو » وأعجبني ما قاله الدكتور عبدالوهاب عزام -رحمة الله عليه- وكان متأثرا بالشاعر الباكستاني « إقبال » ، كان للشاعر إقبال شيء اسمه « المثاني » ، أي أن يقول بيتين من الشعر في

معنى ، وبيتين من الشعر في معنى ، وكان يغلب على شعر إقبال الفلسفة الإسلامية والفكر الإسلامي ، وقد تأثر الدكتور عبدالوهاب عزام بشعر إقبال فجعل له مثاني أيضا يناظر فيها « إقبال » ، فيقول :

إنما التوحيد إيجاب وسلب   وفيها للنفس عزم ومضاء

وقوله : « إنما التوحيد إيجاب وسلب » هو قول متأثر بالقضية الكهربية . فيقول : إنما التوحيد إيجاب وسلب فيهما للنفس عزم ومضاء . فأنت عندما تقول : « لا إله » ، فـ « لا » للنفي ، وعندما تكمل قولك: « إلا الله » فـ « إلا » للإثبات ، ويكمل الدكتور عزام قوله : لا وإلا قوة قاهرة . فهما في القطب قطبا الكهرباء كان الكهرباء تأتي بأنك تسلب وتوجب . فالإيجاب في « إلا » والسلب في « لا » . ومادام فيه إيجاب وسلب ، إذن ففيه شرارة كهرباء .

« الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم » ، و« حيّ » هو أول صفة يجب أن تكون للملك الإله ، لأن القدرة بعد الحياة ، والعلم بعد الحياة . فكل صفة لابد أن تأتي بعدها في الذكر وإلا فليست صفة من صفات الله أسبق من صفة ولا متقدمة عليها فكلها قديمة لا أول لها ، فلو كان عدم فكيف تأتي الصفات على العدم ؟ ، وكلمة « حيّ » عندما نسمعها نقول : ما هو الحيّ ؟ . إن الفلاسفة قد حتاروا في تفسيرها . فمنهم من قال : الحيّ هو الذي يكون على صفة تجعله مُدْرِكاً إن وُجِد ما يُدْرَك .

كأن الفيلسوف الذي قال ذلك : يعني بالحياة حياتنا نحن ، وما دون ذلك ليس فيه إدراك . ونقول لصاحب هذا الرأي : لا ، إن أردت الحياة بالمعنى الواسع الدقيق فلا بد أن تقول : الحياة هي أن يكون الشيء على الصفة التي تبقي صلاحيته لمهمته ، هذا هو ما يجب أن يكون فيه التعريف ، فـ « الحيّ » : هو الذي يكون على صفة تُبقي له صلاحيته لمهمته ، مثال ذلك النبات . مادمت تجده ينمو ، إذن ففيه حياة تُبقي له صلاحية مهمته . فلو قُطِعَ لانتهت الصلاحية . ومثل الإنسان عندما يموت تنتهي صلاحيته لمهمته ، والعناصر الجامدة عندما تأتي مع بعضها تتفاعل ، هذا التفاعل فرع وجود الحياة ، لكنها حياة مناسبة لها وليست مثل حياتنا .

أنت مثلاً ترى « الزلط » لنعم الأملس ، تجده على مقدار واحد ؟ لا ، إن أشكاله مختلفة ، وهذا دليل على أن هناك مراحل للحجر الواحد منها ، ولو استمرت تلك الأحجار في بيئتها الطبيعية فلاشك أن هذه الكبيرة تنقسم يوماً وتصير صغيرة ثم تكبر مرة أخرى ، لكن الإنسان حين يستخدم هذه الحجارة ليضعها على سبيل المثال بين القضبان التي تسير عليها القطارات فهذه الأحجار تكون قد خرجت من بيئتها ومن حكمة الله أنه لا يوجد شيء تنتهي جدواه أبداً ، من هو سبحانه يجيء لكل شيء مهمة أخرى .

إذن فكل كائن يكون على صفة تُبقي له صلاحيته لمهمة ، وتكون له حياة مناسبة لتلك المهمة . نحن لا نأتي بهذا الكلام من عندنا ، ولكننا نأتي بهذا الكلام لأننا نقرأ القرآن بإمعان وتدبر ، ونقول : ماذا يقابل الحياة في القرآن ؟ إنه الهلاك بدليل أن الله قال

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

إذن فالحياة مقابلة للهلاك . والحيّ ، غير هالك والهالك لا يكون حياً ، ويقول تعالى في الآخرة :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

ومعنى ذلك أن كل الأجناس من أعلاها إلى أدناها ، سواء الإنسان ، أو الملائكة ، أو الحيوان أو النبات ، كلها ستكون هالكة ، ومادام كل شيء سيهلك يوم القيامة فكأنه لم يكن هالكاً قبل ذلك ، وله حياة مناسبة له . أليست الحجارة شيئاً ، وستدخل في الهلاك يوم القيامة ؟ . إذن فهي قبل ذلك غير هالكة لكننا نحن البشر لا نفطن إلى ذلك ونفهم الحياة فقط على أنها الحس والحركة الظاهرة . مع أن العلماء قد أثبتوا أنه حتى الذرة فيها دوران ، ولها حياة . وأنت عندما تنظر بالمجهر على ورقة من النبات ، وترى ما بها من خضرة وخلايا ، وتشاهد العمليات التي تحدث بها ، وتقول : هذه حياة أرقى من حياتنا ، وأدق منها

إذن فكل شيء له حياة ، وإياك أن تظن أنك أنت الذي تهلكها ، فعندما تأتي بحجر وتدقه أو تصنعه في الفرن لتصنع الجير ، إياك أن تقول: إنك أنهيت من الأحجار الحياة المناسبة لها ، أنت فقط قد حولت مهمتها من حجر صلب ، وصارت لها مهمة أخرى ، فالمسائل تتسلسل إلى أن يصير لكل شيء في الوجود حياة تناسب المهمة التي يصلح لها

وانظر إلى مهمة الحق ، ما شكلها ؟ إنها الحياة العليا ، وهو الحي الأعلى وحي لا تُسلب منه الحياة ، لأن أحداً لم يعطه الحياة ، بل حياته سبحانه ذاتية ، فهذا هو الحي على إطلاقه

إذن فالحي على إطلاقه هو الله والحق سبحانه وتعالى قال « الله لا إله إلا هو الحيّ » وأثر صفة هذه موجود في كل الصفات لأخرى فقال : « القيوم » والقيوم هو صيغة مبالغة في قائم ومثلها قولنا « الله غفور » لكن ألا يوجد غافر ؟ يوجد غافر ، لكن « غفور » هي صيغة مبالغة .

وقد يقول قائل . هل صفات الله فيها صفة قوية وأخرى ضعيفة ؟ . نقول : لا ، فصفات الله لا يصح أن توصف بالضعف أو بالقوة ، صفات الله نظام واحد . وحتى نفهم ذلك فلنضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن نقول : كلنا نأكل كي نستبقي حياتنا ، فكل واحد منا « آكل » ، لكن عندما نقول . فلان أكول ، فمعنى ذلك أنه أخذ صفة الأكل التي كلنا شركة فيها وزاد فيها فنقول عليه: « أكّال » او « أكول »

من أي ناحية تأتي هذه الزيادة ؟ قد تأتي الزيادة من أنك تأكل في الوجبة رغيفا ، وهو يأكل رغيفين أو ثلاثة ، إذن فالحدث به في الأكل أثر كبير ، فنقول عليه : أكول وقد يأكل معك رغيفا في الوجبة الواحدة ، لكنه يأكل خمس وجبات بدلا من ثلاث وجبات ، فيكون أيضا أكولا ، إذن فـ « أكول » إما مبالغة في الحدث نفسه وإما بتكرار الحدث

ونحن ننظر إلى صفات الله ونقول: إنها لا تحتمل القوة والضعف في ذات الحدث ،

إنما في تكررها بالنسبة للمخلوقين جميعاً ، فالله غافر لهذا ، وغافر لذاك ، وغافر لكل عاص يتوب ، إذن فالحدث يتكرر ، فيكون « غفوراً » و« غفاراً » . وهذا ما يحل لنا الإشكال في كثير من الأمور ، فعندما يقول سبحانه :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة فصلت)

نحن هنا نجد قضية لغوية تقول : إنك إذا جئت بصيغة المبالغة ، وأثبتها ، تكون الصيغة الأخرى الأقل منها ثابتة بالضرورة ، مثال ذلك عندما نقول : فلان « علّام » أو « عالم » ، مادمت أثبت له الصفة القوية ، تكون الصفة الضعيفة موجودة ، لكن إذا نفيت الصفة المبالغ فيها قد تكون الصفة الأخرى موجودة ، فهو ليس « علامة » لكنه قد يكون « علاماً » أو « عالماً » ، فإذا قلت : فلان « علامة » فقد أثبت له الأدنى أيضاً ، فيكون « علاماً » و« عالماً » . لكن إذا نفيت عنه « علامة » انتفى عنه الباقي ؟ لا ، إذن نفي الأكثر لا ينفي الأقل .

لكن إذا أثبت الأكثر ثبت الأقل ، وإذا نفيت الأكثر فلا ينتفي الأقل ، فإذا قلت : الله ليس بظلام للعبيد ، نفيت الأكثر . صحيح أنه غير مبالغ في الظلم ، فهل يمكن أن يكون ظالماً ؟ عن حسب ما قلنا : إذ نفينا الأكثر لا ينتفي الأقل نقول : لا ، لأننا هنا يجب أن نأخذ القضية الأولى في أن المبالغة في الحدث والمبالغة في الفعل تأتي مرة في ذات الحدث ، ومرة في تكرار الحدث ، والحق سبحانه لو أراد أن يظلم هذا ويظلم هذا ، فقد تكرر الحدث ؛ فيكون ـ معاذ الله ـ ظلّاماً . ولذلك لم يقل : بظالم للعبيد ، بل قال : بظلّام للعبيد .

إذن فهذا العبد يحتاج ظلماً ، والعبد الآخر يحتاج ظلماً ، وذاك يحتاج ظلماً ! فعندما يظلم كل هؤلاء يكون ظلاماً ، ولذلك نفاها سبحانه وقال : « وما ربك بظلام للعبيد » .

والحق هنا يقول : « قيوم » وهذه صيغة مبالغة من قائم ، فالأصل فيها : القائم على أمر بيته ، والقائم على أمر رعيته ، والقائم على أمر المدرسة ، والقائم على أمر

هذه الإدارة ، ومعنى قائم على أمرها : أنه متولي شئونها ، فكأن القيام هو مظهر الإشراف . فنحن لا نقول : « قاعد عن إدارتها » . وعندما نقول « قيوم » فمعناها أنه أوسع في القيام . كيف جاء هذا الاتساع ؟ لأن القائم قد يكون قائماً بغيره ، لكن حين يكون قائماً بذاته ، وغيره يستمد قيامه منه ، فهو قائم على كل نفس وهو سبحانه القائل :

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الرعد)

إن المشركين قد نعوا النعمة في جحودهم فجعلوا لله شركاء في العبادة ، فهل يستطيع أحد أن يبلغ تلك المرتبة العالية ، مرتبة خلق العالم والقيام على كل أمر فيه ، صغر أو كبر ؟ إنه الحافظ المرقب لكل نفس ، العالم بكل ما خفي وظهر ، وهذه الأوثان لا تبصر ولا تسمع ، فكيف تتوهمون يا من أشركتم بالله له نداً ، إن الحق منزه عن ذلك بقيامه على كل نفس وكل الخلق . لكن أهل الضلال أغواهم ضلالهم فلم يعبد هم هاد بعد الله .

إن الحق سبحانه قائم بذاته ، وقائم على غيره . والغير إن كان قائماً فهو يستمد منه القيام . فلابد أن يكون « قيوماً » ، ومن قيومته أنه « لا تأخذه سنة ولا نوم » ، وقيل في كتب العلم : إن قوم بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام : أينام ربك ؟

فأوحى الله إليه : أن ائت بزجاجتين وضعهما في يد إنسان ، ودعه إلى أن ينام ، ثم انظر الجواب . فلما وضع في يده الزجاجتين ونام ، انكسرت الزجاجتان فقال : هو كذلك ، هو قائم على أمر السماء والأرض ، ولو كانت تأخذه سنة أو نوم لتحطمت الدنيا .

وهو سبحانه « لا تأخذه سنة ولا نوم » . و« السنة » هي أول ما يأتي من

النعاس » أي النوم الخفيف ، فالواحد ما يكون جالساً ثم يغفو ، لكن النوم هو « السبات العميق » ، فلما قال : « لا تأخذه سنة » قالوا : إنه يتغلب على النوم الخفيف لكن ، هل يقدر على مقاومة النوم العميق ؟ فقال الحق عن نفسه : « لا تأخذه سنة ولا نوم » . وعرفنا أن السنة هي : النعاس الذي يأتي في أول النوم ، ومظهرها يبدو أولاً في العين وفي الجفن ، فعندما يذهب الإنسان في النوم ، فإن أثر ذلك يظهر في عينيه ، ولذلك يقولون : إن العين هي الجارحة التي يمكن أن تعرف بها أحوال الإنسان ، وقد اكتشفوا في عصرنا الحديث أن الشرايين لا يمكن أن يعرفوا حالتها بالضبط إلا من العين . فالفتور الذي يأتي في العين أولاً هو السنة أو مقدمات النوم ونسميه : النعاس .

« لا تأخذه سنة ولا نوم » أتريدون تطميناً من إله خالق ، ومن معبود لعابد ، ومن خالق لمخلوق أكثر من أنه يقول للعابد المخلوق : « نم أنت ملء جفونك ، واسترح ؛ لأن ربك لا ينام » . ماذا تريد أكثر من هذا ؟ هو سبحانه يعلم أنه خلقك ، وأنك تحتاج إلى النوم ، وأثناء نومك فهناك أجهزة في جسمك تعمل . إذا نمت وقف قلبك ؟ إذا نمت انقطع نفسك ؟ إذا نمت وقفت معدتك عن حركتها الدودية التي تهضم ؟ إذا نمت توقفت أمعاؤك عن امتصاص المواد الغذائية ؟ لا ، بل كل شيء في دولابك يقوم بعمله . فمن الذي يشرف على هذه العمليات لو كان ربك نائم ؟

إذن فأنت تنام وهو لا ينام . وبالله هل هذه عبودية تذلك أو تعزك ؟ إنها عبودية تعزك ؛ فالذي نعبده يقول : ناموا أنتم ؛ لأنني لا تأخذني سنة ولا نوم . ويريد أن تفهم أنه لا تأخذه سنة ولا نوم . وأن شيئاً في كونه يخرج عن مراده ، لا ، لأن كل ما في السموات والأرض له ، فلا شيء ولا أحد يخرج عن قدرته . ولذلك يقول الحق : « له ما في السموات وما في الأرض » .

ويتابع سبحانه بقوله : « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » إنه سبحانه وتعالى يوضح : أنا أعطيتك الراحة في الدنيا ، وحتى الكافر جعلته ينعم بنعمي ، ولم أجعل الأسباب تضن عليه ، وأعطيته مادام قد اجتهد في تلك الأسباب ثم يدل على أنني ليس عندي محاباة ، قلت للأسباب : يا أسباب من أحسنك يأخذك ولو كان

كافرا بى . لكنه سيأتى يوم القيامة وليس للكافر إلا العذاب ، لأنه مادام قد عمل فى الدنيا وأحسن عملا فقد أخذ جزاءه . فإياكم أن تظنوا كما قالوا : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله »، وجاء فيهم قول الحق :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

إن هؤلاء الذين افتروا على الله بالشرك به ، واتخذوا أصناما باطلة لا تضرهم ولا تنفعهم ، يقولون عن هذه الأصنام : إنها تشفع لهم عند الله فى الآخرة ، ويأمر الحق سبحانه رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يبلغ المشركين : قل لهم يا محمد : هل تخبرون الله بشريك لا يعلم الله له وجودا فى السموات ولا فى الأرض ، وهو الخالق لكل ما فى السموات والأرض وتنزه سبحانه عن أن يكون له شريك فى المُلك .

لقد أرادوا أن يخلوا بقضية التوحيد ويجعلوا لله شركاء ويقولوا : إن هؤلاء الشركاء هم الذين سيشفعون لنا عند الله . فيقول الحق سبحانه : إن الشفاعة لا يمكن أن تكون عندى إلا لمن أذنت له أن يشفع . إن الشفاعة ليست حقا لأحد . ولكنها عطاء من الله ، ولذلك يقول : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » .

ويقول الحق : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » . ساعة يتعرض العلماء إلى « ما بين أيديهم وما خلفهم » يشرحون لنا أن ما بين اليدين أى ما أمامك ، وما خلفك أى من وراءك ، وما بين يدى الإنسان يكون مواجها لآلة الإدراك الرائدة وهى العين ، فهو أمر يُشهد .

والذى فى الخلف يكون غيبا لا يراه ، كأن ما بين اليد يراد به المشهود والذى فى الخلف يراد به الغيب ، فهو « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » أى يعلم مشهدهم

وعيبهم ، ويطلق « ما بين اليد » إطلاقا آخر . إننا قد نسأل حيا بين يديك . هل هو مواجه لك أو غير مواجه ؟ فلو كان أمامك بشر ، فهل هم قادمون إليك أو راحلون عنك ؟

إنهم إن كانوا راحلين عنك فقد سبقوك وقد جئت أنت من بعدهم ، ومن وراءك سيأتي من بعدك . أي أن الحق سبحانه يخبرنا أنه يعلم الماضي والمستقبل . فمرة يعلم الحق ما بين أيديهم ، أي العالم المشهود ويسمونه « عالم الملك » . وما خلفهم أي الغيب ، ويسمونه « عالم الملكوت » . إنه يعلم المشهود لهم والخفي عنهم . وكما يقول الحق :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩ ﴾

(سورة الأنعام)

إن عند الله علم جميع الغيب ويحيط علمه بكل شيء ، ولا تخفى عليه خافية . إنها إحاطة من كل ناحية . « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » . إنه الحق يعلم مطلق العلم . وكون الحق يعلم فإن ذلك لا ينفي أن يكون غيره يعلم أيضا ، لكن علم البشر هو بعض علم موهوب من الخالق لعباده .

فعندما يقول واحد : أنا أقول الشعر . فهل مع ذلك القول أحداً آخر من أن يقول الشعر؟ لا . إنه لم يقل : ما يقول الشعر إلا أنا .

ويقول سبحانه : « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » . و« العلم » هو الصفة التي تعلم الأشياء على وفق ما هي عليه ، هذا هو العلم . وصفة الله وعلمه أعظم من أن يحاط بها ، لأنها لو أحيطت لحددت ، وكمالات الله لا تحدد ، مثلما ترى شيئا يعجبك فتقول : هذه قدرة الله ، هل هي قدرة الله أو مقدور الله ؟ إنها مقدور الله أي أثر القدرة ، فعندما يقول : « ولا يحيطون بشيء من علمه » أي من معلومه .

« ويحيطون » هي دقة في الأداء ، لأنك قد تدرك معلوما من جهة وتجهله من جهات ، فأوضح سبحانه : أنك لا تقدر أن تحيط بعلم الله أو قدرته ، لأن معنى الإحاطة أنك تعرف كل شيء ، مثل المحيط على الدائرة ، لكن ذلك لا يمنع أن نعلم جزئية ما ، ونحن نعلم بما آتانا الله من قوانين الاستنباط ، فهناك مقدمات نستنبط منها نتائج ، مثل الطالب الذي يحل مسألة جبر ، أو تمرين هندسة ، أيعلم هذا الطالب غيبا ؟ لا ، ولكنه يأخذ مقدمات موضوعة له ويصل إلى نتائج معروفة سلفا لأستاذه وأنت لا تحيط بعلم إلا بما شاء لك الله أن تحيط ، « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » .

وقول الله : « إلا بما شاء » هو إذن منه سبحانه بأنه سيتفضل على خلقه بأن يشاء لهم أن يعلموا شيئا من معلومه ، وكان هذا المعلوم خفيا عنهم ومستورا في أسرار الكون ، ثم يأذن الله للسر أن ينكشف ، وكل شيء اكتشفه العقل البشري ، كان مطمورا في علم الغيب وكان سرا من أسرار الله ، وبعد ذلك أذن الله للسر أن ينكشف بمعرفتنا ، بمشيئته سبحانه . فكل سر في الكون له ميلاد كالإنسان تماما ، أي أن له ميعادا يظهر فيه ، وهذا الميلاد يسمى مولد السر . لقد كان هذا السر موجودا وكان العالم يستفيد منه وإن لم يعلمه . لقد كنا نحن نستفيد ـ على سبيل المثال ـ من قانون الجاذبية ولم نكن نعلم قانون الجاذبية ، وكذلك النسبية كنا نستفيد منها ولم نكن نعلمها ، وهذا ما بينه لنا الحق في موضع آخر من القرآن الكريم ، قال تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

مادام قال سبحانه : « سنريهم » ، فهذا يعني أنه سبحانه سيولد لنا أسرارا جديدة ، وهذا الميلاد ليس إيجادا وإنما هو إظهار ، ولذلك يقول الناس عن الأسرار العلمية إنها اكتشافات جديدة ، لقد تأدبوا في القول مع أن كثيرا منهم غير متدينين ، قالوا : اكتشفنا كذا ، كأن ما اكتشفوه كان موجودا وهم لا يقصدون هذا الأدب ، إنما هي جاءت كذلك ، أما المؤمنون فيقولون : لقد أذن الله لذلك السر أن يولد .

وقوله : « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » فيه تحدٍ واضح ، فحتى إذا اجتمع البشر مع بعضهم البعض فلن يحيطوا بشيء إلا بإذنه . وهذا تحدٍ للكل ، حين يشاء سبحانه أن يوجد إظهار سر في الوجود ، فهذا السر يولد ، وقد يكون إظهار السر موافقا لبحث الناس مثل العالم الذي يجلس في معمله ليجرب في العناصر والتفاعلات ، ويهتدي لهذه وهذه ، إنه يتعب كثيرا كي يعرف بعضا من الأسرار ، ونحن لا ندري بتعبه وجهده إلا يوم أن يكتشف سره .

لقد أخذ المقدمات التي وضعها الله في الكون حتى إذا تتبعناها نصل إلى سره ، مثلما نريد أن نصل إلى الولد فنتزوج حتى يأتي ، وقد يأذن الله مرارا كثيرة أن يولد السر بدون أن يشتغل الخلق بمقدماته ، لكن ميعاد ميلاد السر قد جاء ولم يشغل العلماء بمقدماته ، فيخرجه الله لأي مخترع كنتيجة خطأ في تجربة ما .

وعندما نبحث في تاريخ معظم الاكتشافات نجدها كذلك ، فقد جاءت مصادفة ، فهناك عالم يبحث في مجال ما ، فتخرج له حقيقة أخرى كانت عفية عما يجيء لقد جاء ميعاد ميلادها على غير بحث من الخلق ، فجاء الله بها في طريق آخر لغيرها ، وفي بعض الأحيان يوفق الله عالما يبحث المقدمات ويكشف له السر الذي يبحث عنه

إذن ، فـ « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » تعني أن الإنسان قد يصادف السر بالبحث . ومرة يأتي سر آخر في مجال البحث عن غيره ، فالله لا يضن بكشف السر حتى لو لم يشتغلوا به ونسميها نحن ـ مصادفة ـ إن كل شيء يجري في الكون إنما يجري بمقدار ، وهذا هو الذي يفرق لنا بين معرفة غيب كان موجودا وله مقدمات في كون الله نستطيع أن نصل إليه بها ، وشيء مستور عند الله ليست له مقدمات ، إن شاء سبحانه أعطاه من عنده تفضلا ، من باب فضل الجود لا بذل المجهود وهو سبحانه يعطيه في « المصادفة » هـ ويعطيه فيما لا مقدمات له على بعض أصفيائه من خلقه ، ليعلم الناس جميعا أن لله فيوضات على بعض عبيده الذين والاهُم الله بمحبته وإشراقاته وتجليه

لكن هل هذا يعني أن باستطاعتنا أن نعرف كل الغيب ؟ لا ، فالغيب قسمان .

غيب جعل الله له في كونه مقدمات ، إن استعملناها نصل إليه ، ككثير من الاكتشافات ، وإذا شاء الله أن يولد سر ما ولم نبحث عنه فهو يعطيه لنا ، مصادفة ، من باب فيض الجود لا بذل المجهود . ونوع آخر من الغيب ليست له مقدمات ، وهذا ما استأثر الله بعلمه إلا أنه قد يفيض به على بعض خلقه كما يقول سبحانه .

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الجن)

إن الله هو عالم الغيب فلا يُطلع أحدا من خلقه على غيبه إلا من ارتضاه واصطفاه من البشر . أو الملك فلا أحد يستطيع أن يتعلم هذا اللون من الغيب ولذلك فلا يوجد من يفتح دكانا لعلم الغيب يذهب إليه الإنسان ليسأله عن الغيب إن الحق يقول

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وهو سبحانه لا يعطي المفتاح لأحد من خلقه . وقد يريد الله أن يعطي لواحد كرامة ، فأعطاه كلمة على لسانه قد يكون هو غير مدركٍ لها فيقول : من يسمع هذا القول ويتمتع به فلان قال لي كذا وكذا . يا سلام ! وهذا فيض من الله على عبده حتى يبيّن الله لنا أنه يوالي هؤلاء العباد الصالحين .

وقوله الحق : « ولا يحيطون بشيء » نجد أن كلمة « شيء » تعني أقل القليل . وقوله سبحانه : « من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض » يعلمنا أن الحق فيما يتكلم به عن نفسه والخلقه فيه تقائر ، كالوجود ، هو سبحانه موجود وأنت موجود ، وكالغنى هو غني وأنت غنيٌ ، كالعلم هو عالم وأنت تكون عالماً ، فهل

نقول : إن الصفة لله كالصفة عندك ؟ لا ، كذلك كل ما يرد بالنسبة للغيب فيما يتعلق بالله إضافة أو وصفاً ، لا تأخذها بالمناسب عندك ، بل خذها في إطار « ليس كمثله شيء » .

فإذا قيل لله يد ، قل : هو له يد كما أن له وجودا ، وبما أن وجوده ليس كوجودي فيده ليست كيدي بل افهمها في إطار « ليس كمثله شيء » . فإذا قال : « وسع كرسيه » نقول : هو قال هذا ، ومادام قال هذا فسنأخذ هذه الكلمة في إطار « ليس كمثله شيء » . فلا تقل له كرسي وسيقعد عليه مثلنا ، لا . لقد وجدنا من قال : أين يوجد الله ؟! ! من وجد ؟؟ وقلنا ونقول : « متى » و « أين » لا تأتي بالنسبة لله ، إنما تأتي بالنسبة لكم أنتم ، لماذا ؟ لأن « متى » زمان و « أين » مكان . والزمان والمكان ظرفان للحدث ، فالشيء الحادث هو الذي له زمان ومكان ، مثال ذلك أن أقول : « أنا شربت » ومادام قد حدث الشرب فيكون له زمان ومكان ، لكن هب أنني لم أشرب ، أيكون هناك زمان أو مكان ؟! لا ، فمادام الله ليس حدثاً فليس متعلقا به زمان أو مكان ، لأن الزمان والمكان ثبت عندما خلق الله وأحدث هذا الكون ، فلا تقل : « متى » لأن « متى » خلقت به ، ولا تقل « أين » لأن أين خلقت به ولأن « متى » و « أين » ظرفان ، هذه للزمان ، وهذه للمكان ، والزمان والمكان فرعا الحدث . وعندما يوجد حدث نقل زمان ومكان .

إذن فمادام الله ليس حدثاً ، فإياك أن تقول فيه متى ، وإياك أن تقول فيه أين ، لأن « متى » و « أين » وليدة الحدث . وقوله الحق : « وسع كرسيه » نأخذه ـ كما قلت ـ في إطار « ليس كمثله شيء » ، الكرسي في اللغة من الكِرْس والكِرْسُ هو التجميع ، ومنه الكراسة وهي عدة أوراق مجمعة ، وكلمة « كرسي » استعملت في اللغة بمعنى الأساس الذي يُبنى عليه الشيء ، فمادة « الكرسي » (الكاف والراء والسين) تدل على التجميع وتدل على الأساس الذي تثبت عليه الأشياء ؛ فنقول : أصبح لهذا الجدار كرسيا ، أي صنع لهذا الجدار أساسا يقوم عليه ، ويطلق أيضاً على القوم العلماء الذين يقوم بهم الأمر فيما يشكل من الأحداث ، والشاعر العربي قال : « كراسي في الأحداث حين تنوب » أي يُعتمد عليهم في الأمور الحسيمة .

وحين يُنسب شيء من ذلك للحق سبحانه وتعالى فإن السلف لهم فيها كلام

والخلف لهم فيها كلام ، والسلف يقولون : كما قال الله نأخذها ولكن نضع كيفيتها وتصورها في إطار « ليس كمثله شيء » ، وبعضهم قال : نؤولها بما يُثبت لها صفة من الصفات ، كما يثبتون قدرة الحق بقوله الحكيم

﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الفتح)

أى أن قدرة الله فوق قدرتهم ، وكما قال سبحانه عن قدرته في الخلق

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إن كمال قدرة الله أحكمت خلق السماء ، والحق سبحانه مقدس ومنزّه عن أن يتصور المخلوق كلمة « يد » بالنسبة لله . ونحن نقول : الله قال ذلك ، ونأخذها من الله ؛ لأنه أعلم بذاته وبنفسه ، ونحيلها إلى ألا يكون له شبيه أو نظير ، كما أثبتنا لله كثيراً من الصفات ، وفى خلق الله مثلها ومع ذلك نقول : علمه لا كعلمنا ، وبصره لا كبصرنا . فلماذا يكون كرسيه مثل كرسينا ؟ . فتكون فى إطار « ليس كمثله شيء »

والعلماء قالوا عن الكرسي : إنه ما يعتمد عليه ، فهل المقصود علمه ؟ نعم وهل المقصود سلطانه وقدرته ؟ نعم ، لأن كلمة « كرسى » توحى بالجلوس فوقه ، والإنسان لا يجلس عن قيام إلا إذا استتب له الأمر ، ولذلك يسمونه « كرسى الملك » ؛ لأن الأمر الذى يحتاج إلى قيام وحركة لا يجعلك تجلس على الكرسى ، فعندما نقعد على الكرسى ، فمعنى ذلك أن الأمر قد استتب ، إذن فهو بالنسبة لله السلطان ، والقهر ، والعلم ، والقدرة .

أو نقول : مادام قال : « وسع كرسيه السموات والأرض » فوسع لشيء أى دخل فى وسعه واحتماله . « والسموات والأرض » نحن نفهم أنها كائنات كبيرة بالنسبة لنا ، إنه سبحانه يقول

﴿ لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(سورة غافر)

وعندما يقول : إن الكرسى وسع السموات والأرض ، إذن ، فهو أعظم من السموات والأرض أى دخل فى وسعه السموات والأرض ولذلك يقول أبو ذر الغفارى رضى الله عنه :

(سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن الكرسى فقال يا أبا ذر ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة . وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة)[1] .

والبشرية بكل ما وصلت له من إنجازات علمية قد وصلت إلى القمر فقط وهو مجرد ضاحية من ضواحى الأرض ، ومفصول عنا بمسافة تقاس بالثوانى الضوئية ، ولقد تعودنا فى حياتنا أن نستخدم وحدات الميل والكيلومتر لقياس الأطوال والأبعاد الكبيرة . لكننا اكتشفنا أن هذه الوحدات ليست ذات نفع فى قياس أبعاد النجوم ؛ لأننا نعرف مثلاً أن الشمس تبعد عن الأرض ثلاثة وتسعين مليونا من الأميال ، ولكن عندما نريد أن نرصد المسافة بيننا وبين أحد النجوم فسوف نضطر إلى استخدام أعداد كثيرة من الأصفار أمام رقم ما ، وهذا يجعل التعبير غير عملى ، ولهذا السبب وضع علماء الفلك وحدة ملائمة لقياس أبعاد النجوم وهى ما نسميه السنة الضوئية ونحن نعرف أن سرعة الضوء حوالى ثلاثمائة ألف كيلومتر فى الثانية . ولذلك فقياس أى مسافة بيننا وبين أى نجم فى السماء أمر يحتاج إلى حسابات دقيقة وكثيرة ودراسة علوم متعددة .

فالشمس بيننا وبينها ثلاثة وتسعون مليوناً من الأميال ويصلنا ضوؤها فى خلال ثمانى دقائق وثلث الدقيقة . والشعرى اليمانية وهى ألمع نجوم السماء يصل إلينا ضوؤها فى تسع سنوات ضوئية .

---

(١) حديث شريف أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ فى العظمة

إذن فالسنة الضوئية هي وحدة لقياس المسافات الفلكية . ونحن نذهل عندما نعرف أن بعض النجوم يصل ضوؤها إلينا في خمسين سنة ضوئية !! كل ذلك ونحن لم نصل بعد إلى السماء الدنيا ، فما بالنا ببقية السموات ؟ إذن فحدود ملك الله فوق تصورنا . ولنا أن نعرف أي تكريم من الحق للمؤمنين حين يصور لنا ضخامة الجنة بقوله سبحانه .

﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢١ ﴾

(سورة الحديد)

هذه هي الجنة التي أعدها الله للمؤمنين بالله ورسله الذين يسارعون إلى طلب غفران الله . فإذا كان عرض الجنة هو السموات والأرض ، فما طولها إذن ؟ وكم يكون بعدها ؟ والعرض كما نعرف هو أقل البعدين .

إذن يجب أن نفهم أن هناك عوالم أخرى غير السماء والأرض ، لكن عيوننا لا تبصر فقط إلا ما أراده الحق لنا من السماء والأرض ، ولذلك عندما نسمع قول الحق : « وسع كرسيه السموات والأرض » فلنا أن نتخيل أي عظمة هي عظمة كرسي ذي الجلال والإكرام .

إن الحق يقول : « وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما » ، ومعنى آده الشيء ، أي أثقله . وحتى نفهم ذلك هب أن إنسانا يستطيع أن يحمل عشرة كيلوجرامات ، فإن زدنا هذا الحمل إلى عشرين من الكيلوجرامات فإن الحمل يثقل عليه ، ويجعل عموده الفقري معوجا حتى يستطيع أن يقاوم الثقل . فإن زدنا الحمل أكثر فقد يقع الرجل على الأرض من فرط زيادة لوزن الثقيل .

إذن فمعنى « ولا يؤوده حفظهما » أي أنه لا يثقل على الله حفظ السموات والأرض .

إن السماء والأرض وهما فوق اتساع رؤية البشر ؛ قد وسعهما الكرسي الرباني . وقال بعض المفسرين . إذا كان الكرسي لا يثقل عليه حفظ السموات والأرض فما بالنا بصاحب الكرسي !!؟

ها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يطمئننا فيقول

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة فاطر)

إنه الحق وحده سبحانه وتعالى الذي يحفظ السموات والأرض في توازن عجيب ومذهل ، ولئن قُدِّر لهما أن تزولا . فلن يحفظهما أحد بعد الله ، أي لا يستطيع أحد إمساكهما ؛ فهما قائمتان بقدرة الواحد القهار ، وإذا أراد الله أن تزولا فلا يستطيع أحدٌ أن يمسكهما ويمنعهما من الزوال .

وإذا كانت هذه الأشياء الضخمة من صنع الله وهو مولاها ، فإنه عندما يصف نفسه بأنه « عليّ » و« عظيم » فذلك أمر طبيعي . إن الحق سبحانه وتعالى يعطينا تذييلاً منطقياً يقتضيه ما تقدمت به الآية الجليلة آية الكرسي ، إنه الحق يقول : « وهو العليّ العظيم » وكلمة « عليّ » صيغة مبالغة في العلو . و« العليّ » هو الذي لا يوجد ما هو أعلى منه فكل شيء دونه .

هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها نعرفها بآية الكرسي ؛ لأن كلمة « الكرسي » هي الظاهرة فيها وكلمة « الكرسي » فيها : تعني السلطان والقهر والقدرة والملكية وكلها مأخوذة من صفات الحق جل وعلا .

إنه لا إله إلا هو إنه الحي . إنه القيوم . إنه الذي لا تأخذه سنة ولا نوم .

والشفاعة عنده مأذون فيها بإرادته هو وحده وليس بإرادة سواه . وهو العليم بكل

شيء ، الذي يسع كرسيه السموات والأرض وهو العليّ فلا أعلى منه ، وهو العظيم بمطلق العظمة . وتتجمع كل هذه الصفات لتضع أمامنا أصون التصور في العقيدة الإيمانية ، وقد وردت فيها أحاديث كثيرة ، ومنها نستخلص أنها آية لها قدرها ومقدارها عند الله . فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال

« وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو الطعام فأخذته وقلت والله لأرفعنّك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : إني محتاج ، وعليّ عيال ، ولي حاجة شديدة . قال فخليت عنه ، فأصبحت فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم ـ يا أبا هريرة « ما فعل أسيرك البارحة » ؟ قال : قلت يا رسول الله : شكا حاجة شديدة وعيالا ، فرحمته ، فخليت سبيله ، قال « أما إنه كذبك وسيعود » فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه سيعود ، فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنّك إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال:دعني فإني محتاج ، وعليّ عيال لا أعود ، فرحمته وخليت سبيله ، فأصبحت فقال لي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا أبا هريرة: ما فعل أسيرك ؟! فقلت يا رسول الله : شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله قال « أما إنه قد كذبك وسيعود » فرصدته الثالثة ، فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنّك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم لا تعود ، قال : دعني أعلّمك كلمات ينفعك الله بها قلت . ما هي ؟

قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي « الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم » حتى تختم الآية ، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربنّك شيطان حتى تصبح ، فخليت سبيله ، فأصبحت فقال لي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ما فعل أسيرك البارحة » ؟ قلت يا رسول الله . زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله قال « ما هي » قلت : قال لي إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم « الله لا إله إلا هو الحي القيوم » ، وقال لي : لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، وكانوا (أي الصحابة) أحرص شيء على تعلم الخير ، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم : « أما إنه قد

صدقك وهو كذوب ، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟ قال : لا ، قال صلى الله عليه وسلم : « ذاك الشيطان »[١] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سورة البقرة فيها آية سيدة آي القرآن لا تقرأ في بيت فيه شيطان إلا خرج منه : آية الكرسي »[٢] .

وعن أبي أمامة قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ دُبُرَ كل صلاة آية الكرسي لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت »[٣] .

وعن علي - كرم الله وجهه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال : « من قرأها - يعني آية الكرسي - حين يأخذ مضجعه آمنه الله تعالى على داره ، ودار جاره ، وأهل دويرات حوله »[٤] .

كل هذه المعاني قد وردت في أفضال هذه الآية الكريمة ، وقد جلس العلماء يبحثون عن سر هذه المسألة فقال واحد منهم : انظروا إلى أسماء الله الموجودة فيها .

وبالفعل قام أحد العلماء بحصر أسماء الله الحسنى فيها ، فوجد أن فيها ستة عشر اسماً من أسماء الله ، وبعضهم قال : إن بها سبعة عشر اسماً من أسماء الله الحسنى ، وبعضهم قال أن فيها واحداً وعشرين اسماً من أسماء الله ، كل ذلك من أجل أن يستنبطوا منها أشياء ، ويعلموا فضل وفضائل هذه الآية الكريمة . والذين قالوا إن بها ستة عشر اسماً من أسماء الله قالوا :

إن بها اسم علم واجب الوجود « الله »
واسم « هو » في لا إله إلا هو: هو الاسم الثاني

---

١ - من صحيح البخاري في كتاب فضائل القرآن وكتاب الوكالة وفي صفة إبليس
٢ - الحاكم أبو عبدالله في مستدركه
٣ - النسائي في اليوم والليلة وابن حبان في صحيحه
٤ - البيهقي في شعب الإيمان

و «الحيّ» هو الاسم الثالث .
و «القيوم» هو الاسم الرابع .
وعندما ندقق في قول الحق «لا تأخذه سنة ولا نوم» نجد أن الضمير في «لا تأخذه» عائد إلى ذاته -جل شأنه- .
و «له ما في السموات وما في الأرض» فيها ضمير عائد إلى ذاته سبحانه .
وكذلك الضمائر في قوله: «عنده» و «بإذنه» و «يعلم» و «من علمه» و «بما شاء» و «كرسيه» ، كلها تعود إلى ذاته جل شأنه .
و «لا يؤوده حفظهما» فيها ضمير عائد إلى ذاته كذلك .
و «هو» في قوله سبحانه «وهو العلي العظيم» اسم من أسمائه تعالى
و «العليّ» اسم من أسمائه جل وعلا .
و «العظيم» كذلك اسم من أسمائه سبحانه وتعالى .

لكنّ عالماً آخر قال : إنها سبعة عشر اسماً من أسماء الله ؛ لأنك لم تحسب الضمير في المصدر المشتق من الفعل الموجود بقوله: «حفظهما» ، إن الضمير في «هما» يعود إلى السموات والأرض و «الحفظ» مصدر . فمن الذي يحفظ السموات والأرض ؟ إنه الله سبحانه وتعالى . وهكذا أصبحوا سبعة عشر اسماً من أسماء الله الحسنى في آية الكرسي

وعالم ثالث قال : لا ، أنتم تجاهلتم أسماء أخرى ؛ لأن في الآية الكريمة أسماء واضحة للحق جل وعلا ، وهناك أسماء مشتقة ، مثال ذلك :
الله لا إله إلا هو الحيّ هو . القيوم هو العليّ هو العظيم هو .
ولكن العلماء قالوا ردا على ذلك . صحيح أنها أسماء مشتقة ولكنها صارت أعلاما .

المهم أن في الآية الكريمة ستة عشر اسماً ، وإن حسبنا الضمير المستتر في «حفظهما» نجد أنها سبعة عشر اسماً ، وإذا حسبنا الضمير الموجود في المشتقات مثل «الحيّ هو» و «القيوم هو» ، و «العليّ هو» و «العظيم هو» صارت أسماء الله الحسنى الموجودة في هذه الآية الكريمة واحدًا وعشرين اسماً . إذن هي آية قد جمعت قدراً كبيرا من أسماء الله ، ومن ذلك جاءت عظمتها .

وهذه الآية الكريمة قد بيَّنت ووضحت قواعد التصور الإيماني، وأنشأت عقيدة متكاملة يعتز المؤمن أن تكون هذه العقيدة معتقده. والآية في ذاتها تتضمن حيثيات الإيمان، إنه ما دام هو الله لا إله إلا هو، وما دام هو الحيّ القيوم على أمر السماء والأرض، وكل شيء بيده، وهو العليّ العظيم، فكل هذه مبررات لأن نؤمن به سبحانه وتعالى، وأن نعتز بأن نعتقد هذه المعتقدات، وتكون هي الدليل على أن المؤمن فخور بهذا الدين الذي كان أمر الألوهية المطلقة واضحاً وبيناً فيه.

وبذلك، فمن الطبيعي ألا يقهر الحق أحداً على الإيمان به إكراهاً ؛ لأن الذي يقهر أحداً على عقيدة ما، هو أول مَنْ يعتقد أنه لولا الإكراه على هذه العقيدة لما اعتقدها أحد. ونحن في حياتنا اليومية نجد أن أصحاب المبادىء الباطلة هم الذين يمسكون السياط من أجل إكراه الناس على السير على مبادئهم. وكل من أصحاب هذه المبادىء الباطلة يعلم تمام العلم أنه لو ترك السوط والقهر ما سار إنسان على مثل هذه المبادىء الباطلة.

ولو كان أحد من أصحاب هذه المبادىء الباطلة معتقداً أن مبدأه سليم لقال: أطرح هذا المبدأ على الناس، وأترك لهم الخيار ؛ لأنه في هذه الحالة سيكون واثقاً من مبدئه. أما الذي يقهر الناس إكراهاً بالسوط أو السلطان ليعتقدوا مبدأ ما، فهو أول مَنْ يشك في هذا المبدأ، وهو أول مَنْ يعتقد أنه مبدأ باطل. مثل هؤلاء تراهم عندما تضعف أيديهم عن استعمال السوط أو السلطان، فإن أمر مبدئهم ينهزم ويسقط ببيانه

والحق سبحانه وتعالى بعد ذلك يقول

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا نحن العباد المؤمنين ولسائر البشرية أنه « لا إكراه في الدين » . والإكراه هو أن تحمل الغير على فعل لا يرى هو خيراً في أن يفعله . أي لا يرى الشخص المكرَه فيه خيراً حتى يفعله .

ولكن هناك أشياء قد نفعلها مع مَن حولنا لصالحهم ، كأن نرغم الأبناء على المذاكرة ، وهذا أمر لصالح الأبناء ، وكأن نجبر الأطفال المرضى على تناول الدواء ومثل هذه الأمور ليست إكراهاً ، إنما هي أمور نقوم بها لصالح من حولنا ، لأن أحداً لا يسره أن يظل مريضاً .

إن الإكراه هو أن تحمل الغير على فعل من الأفعال لا يرى فيه هو الخير بمنطق العقل السليم . ولذلك يقول الحق سبحانه : « لا إكراه في الدين » . ومعنى هذه الآية أن الله لم يُكره خلقه - وهو خالقهم - على دين ، وكان من الممكن أن الله يقهر الإنسان المختار ، كما قهر السموات والأرض والحيوان والنبات والجماد ، ولا أحد يستطيع أن يعصي أمره . فيقول سبحانه :

﴿ لَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٣١ سورة الرعد)

لكن الحق يريد أن يعلم من يأتيه محباً مختاراً وليس مقهوراً ، أن المجيء قهراً يثبت له القدرة ، ولا يثبت له المحبوبية ، لكن من يذهب له طواعية وهو قادر ألا يذهب فهذا دليل على الحب ، فيقول تعالى . « لا إكراه في الدين » أي أنا لم أضع مبدأ الإكراه ، وأنا لو شئت لآمن من في الأرض كلهم جميعاً . فهل الرسل الذين أرسلهم سبحانه يتطوعون بإكراه الناس ؟ لا ، إن الرسول جاء ليبلغ عن الله لا ليكره الناس ، وهو سبحانه قد جعل خلقه مختارين ، وإلا لو أكرههم لما أرسل الرسل ، ولذلك يقول المولى عز وجل :

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾

(سورة يونس)

إن الرسول له مهمة البلاغ عن الله ؛ لأن الله لم يرد خلقه مكرهين على التدين ، إذن فالمبلغ عنه لا يكره خلقه على التدين ، إلا أن هنا لبسًا . فهناك فرق بين القهر على الدين ، والقهر على مطلوب الدين ، هذا هو ما يحدث فيه الخلاف .

تقول لمسلم : لماذا لا تصلي ؟ يقول لك : « لا إكراه في الدين » ، ويدعي أنه مثقف ، ويأتيك بهذه الآية ليلجمك بها ، فتقول له : لا . « لا إكراه في الدين » عقيدة وإيمانا ، إنما إن آمنت وأعلنت أنك آمنت بالله وصرت معنا مسلماً فلا بد أن تعرف أنك إن كسرت حكماً من أحكام الإسلام فعليك أن تؤديه ، أنت حر أن تؤمن أو لا تؤمن ، لكن حين التزمت بالإيمان ، فعليك مسئولية تنفيذ مطلوب الإيمان ، وإلا حُسب تصرفك أنه من تصرفات الإسلام ، فإذا كنت تشرب خمراً فأنت حر ؛ لأنك كافر مثلاً ، لكن أتؤمن ثم تشرب خمراً ؟! لا ، أنت بذلك تكسر حداً من حدود الله ، وعليك العقاب .

ولأنك مادمت قد علمت كعاقل رشيد مطلوبَ الإسلام ، فعليك أن تنفذ مطلوب الإسلام ، ولذلك لم يكلف الله الإنسان قبل أن ينضج عقله بالبلوغ ؛ حتى لا يقال : إن الله قد أخذ أحداً بالإيمان وألزمه به قبل أن يكتمل عقله ، بل ترك التكليف حتى ينضج الإنسان ويكتمل ، حتى إذا دخل إلى دائرة التكليف عرف مطلوباته ، وهو حر أن يدخل إلى الإيمان أو لا يدخل ، لكن إن دخل سيُحاسب .

إذن فلا يقل أحد عندما يسمع حكماً من أحكام الدين : « لا إكراه في الدين » ؛ لأن هذه الآية نزلت بشأن العقيدة الأساسية ، فإن اتبعت هذه العقيدة صار لزاماً عليك أن تفي بمطلوباتها . وقد أراد خصوم الإسلام أن يصعدوا هذه العملية فقالوا كذباً وافتراء : إن الإسلام انتشر بحد السيف .

ونقول لهم : لقد شاء الله أن ينشأ الإسلام ضعيفاً ويُضطهد السابقون إليه بكل أنواع الاضطهاد ، ويُعذبون ، ويخرجون من ديارهم ومن أموالهم ومن أهلهم ، ولا يستطيعون عمل شيء . إذن فترة الضعف التي مرت بالإسلام أولاً فترة مقصودة .

ونقول لهم أيضا من الذي قهر وأجبر أول حامل للسيف أن يحمل السيف ؟! والمسلمون ضعاف ومغلوبون على أمرهم ، لا يقدرون على أن يحموا أنفسهم ، إنكم تقعون في التناقضات عندما تقولون : إن الإسلام نشر بالسيف . ويتحدثون عن الجزية رفضاً لها ، فنقول : وما هي الجزية التي يأخذها الإسلام من غير المسلمين كضريبة للدفاع عنهم ؟ لقد كان المسلمون يأخذون الجزية من البلاد التي دخلها الفتح الإسلامي ، أي أن هناك أناسًا بقوا على دينهم . ومادام هناك أناس باقون على دينهم فهذا دليل على أن الإسلام لم يُكره أحدا

ويقول الله : « لا إكراه في الدين » علة أن الرشد واضح والغيّ واضح ، ومادام الأمر واضحا فلا يأتي الإكراه ؛ لأن الإكراه يأتي في وقت اللبس ، وليس هناك لبس ، لذلك يقول الحق « قد تبين الرشد من الغيّ » . ومادام الرشد بائن من الغيّ فلا إكراه لكن الله يعطيك الأدلة ، وأنت أيها الإنسان بعقلك يمكنك أن تختار ، كي تعرف أنك لو دخلت الدين لالتزمت ، وحرصت على دخولك في الدين ، فلا تدخل إلا وأنت مؤمن واثق بأن ذلك هو الحق ؛ لأنه سيترتب عليه أن تقبل أحكام الدين عليك .

« لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » والرشد هو طريق النجاة ، و« الغي » . هو طريق الهلاك ويقول الحق إيضاحاً للرشد والغي في آية أخرى من آيات القرآن الكريم

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إن الحق يعلمنا أن المتكبرين في الأرض بغير حق لن يستطيعوا الفوز برؤية آيات الله ودلائل قدرته ، وحتى إن رأوا السبيل الصحيح فلن يسيروا فيه ، وإن شاهدوا طريق الضلال سلكوا فيه لأنهم يكذبون بآيات الرحمن ويغفلون عنها .

والغى ـ أيضاً ـ هو ضلال الطريق ، فعندما يسير إنسان فى الصحراء ويضل الطريق يقال عنه : « فلان قد غوى » أى فقد الاتجاه الصحيح فى السير ، وقد يتعرض لمخاطر جمة كلقاء الوحوش وغير ذلك . ويوضح لنا الحق طريق الرُّشد بمنطوق آخر فى قوله الحق :

﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ ﴾

(سورة الجن)

إن الجن قد ظنوا كما ظن بعض من معشر الإنس أن الله لن يبعث أحداً بعد الموت أو لن يرسل رسولاً من البشر لهداية الكون. وقد طلب الجن بلوغ السماء فوجدوها قد مُلئت حرساً من الملائكة وشُهباً محرقة . وأن الجن لا يعلمون السر فى حراسة السماء وهل فى ذلك شرٌّ بالبشر أو أراد الله بهم خيراً وهدى . إذن فالرُّشد ـ بضم الراء وسكون الشين ـ والرَّشَد بفتح الراء وفتح الشين ـ كلاهما يوضح الطريق الموصل للنجاة . ويقابل الرشد الغىّ .

ويتابع الحق : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى » أولاً نلحظ أن الحق هنا قد قدم الكفران بالطاغوت ، ثم جاء بالإيمان بالله ؛ لأن الأمر يتطلب التخلية أولاً والتحلية ثانياً ، لابد أن يتخلى الإنسان من الطاغوت ، فلا يدخل على أنه يؤمن بالله وفى قلبه الطاغوت . فنحن قبل أن نكوى الثوب نغسله وننظفه ، التخلية قبل التحلية .

وما هو « الطاغوت » ؟ إنه من مادة « طغى » ، وكلمة « طاغوت » مبالغة فى الطغيان . لم يقل : طاغ ، بل طاغوت ، مثل جبروت ، والطاغوت إما أن يُطلق على الشيطان،وإما أن يُطلق على من يعطون أنفسهم حق التشريع فيُكفّرون ويثيبون من يشاءون إلى الإيمان حسب أهوائهم ، ويعطون أشياء سلطة زمنية من عندهم ، ويطلق أيضاً على السحرة والدجالين ، ويُطلق على كل من طغى وتجاوز الحد فى أى شيء ، فكلمة « طاغوت » مبالغة ، وقد تكون هذه المبالغة متعددة الألوان ، فمرة يكون الطاغى شيطاناً ، ومرة يكون الطاغى كاهناً ، ومرة يكون ساحراً أو دجالاً ، ومرة يكون حاكماً .

ومادة « الطاغوت » تدل على أن الموصوف بها هو من تزيده الطاعة له طغيانا ، فعندما يجربك في حاجة صغيرة ، فتطيعه فيها فيزداد بتلك الطاعة طغيانا عليك . والحق سبحانه يقول :

﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

ويزيد في الأمر حتى يصير طاغية ، ولا يوجد أحد استهل عمله بالطغيان العالي ، إنما يبدأ الأمر خطوة خطوة ، كأي نظام ديكتاتوري قهري ، إنه يبدأ بـ(جس نبض) فإن صبر الناس ، ازداد هذا النظام في القسوة حتى يصير طاغوتا ، إذن فالطاغوت هو الذي تستزيده الطاعة طغيانا ، وتطلق على الشيطان ؛ لأنه هو الأساس ، وعلى الذين يتكلمون باسم الدين للسلطة الزمنية (سواء كانوا كهاناً أو غيرهم) ، وتطلق على الذين يسحرون ويدجلون ، لأنهم طغوا بما علموه ؛ إنهم يستعملون أشياء يفتنون بها الناس ، وقد جاءت الكلمة هنا بصيغة المبالغة لاشتمالها على كل هذه المعاني ، وإذا استعرضنا الكلمة في القرآن نجد أن « الطاغوت » ترد مذكرة في بعض الأحيان ، وقد وردت مؤنثة في آية واحدة في القرآن .

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الزمر)

لقد أوضحت هذه الآية أنهم تركوا كل أنواع الطغيان وأصنافه ، أي إن الذين اجتنبوا الألوان المتعددة من الطغيان هم الذين يتجهون بالعبادة خالصة لله ، ولهم البشرى « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى » وكلمة « استمسك » غير كلمة « تمسك » ، لأن « استمسك » تدل على أن فيه مجاهدة في المسك ، والذي يتدين يحتاج إلى مجاهدة في الدين ؛ لأن الشيطان لن يتركه ، فلا يكفي أن تمسك ، بل عليك أن تستمسك ، كلما وسوس الشيطان لك بأمر فعليك أن تستمسك بالتدين ، هذا يدل على أن هناك مجاهدة وأخذاً ورداً .

« فقد استمسك بالعروة » ، والعروة هي العلاقة ، مثلما نقول : « عروة الدلو » ، التي تمسكها منه ، وهذه عادة ما تكون مصنوعة من الحبل الملفوف المتين ،

و« الوثقى » هي تأنيث (الأوثق) أي أمر موثوق به ، وقوله « فقد استمسك بالعروة الوثقى » ، قد يكون تشبيهاً بعروة الدلو لأن الإنسان يستخدم الدلو ليأتى بالماء ، وبالماء حياة البدن ، وبالدين حياة القيم.

« فقد استمسك بالعروة الوثقى » كأنه ساعة جاء بكلمة « عروة » يأتى بالدلو فى بال الإنسان ، والدلو تأتى بالماء ، والماء به حياة البدن ، إذن فهذه تعطينا إيحاءات التصور واضحة ، « فقد استمسك بالعروة الوثقى » ، وما دامت « عروة وثقى » التى هى الدين والإيمان بالله ، وما دامت هى الدين وحبل الله فهذه وثقى ، وما دامت « وثقى » فلا انفصام لها ، وعلينا أن نعرف أن ثمة انفصاماً وفيه انقصام الأول بالفاء والثانى بالقاف .

الانفصام . يمنع الاتصال الداخلى ، مثلما تتكسر اليد لكنها تظل معلقة ، والانقصام : أن يذهب كل جزء بعيداً عن الآخر أى فيه بينونة ، والحق يقول : « لا انفصام لها والله سميع عليم » توحى بأن عملية الطاغوت ستكون دائماً وسوسة ، وهذه الوسوسة هى . الصوت الذى يُغرى بالكلام المعسول ، ولذلك أخذت كلمة «وسوسة الشيطان » من وسوسة الحُلِىّ ، ووسوسة الذهب هى رنين الذهب ، أى وسوسة مغرية مثل وسوسة الشيطان ، والله عليم بكل أمر ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾

إن الله ولىّ الذين آمنوا ما دام « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك

بالعروة الوثقى ، وكأن الحق يشرح ذلك بهذه الآية ، فمادام العبد سيتصل بالعروة الوثقى ويستمسك بها ، وهذه ليست لها انفصام فقد صارت ولايته لله ، وكلمة « وليّ » إذا سمعتها هي من « وَلِيَ » أي : جاء الشيء بعد الشيء من غير فاصل ؛ هذا يليه هذا ، ومادام يليه من غير فاصل فهو الأقرب له ، ومادام هو الأقرب له إذن فهو أول من يفزع لينقذ ، فقد يسير معي إنسان فإذا التوت قدمي أناديه ؛ لأنه الأقرب مني ، وهو الذي سينجدني .

فلا يوجد فاصل ، ومادام لا يوجد فاصل فهو أول من تناديه ، وأول من يفزع إليك بدون أن تصرخ له ؛ لأن من معك لا تقل له : خذ بيدي ، إنه من نفسه يأخذ بيدك بلا شعور ، إذن فكلمة « الله ولي الذين آمنوا » إذا نظرت إليها وجدتها تنسجم أيضاً مع « سميع وعليم » ، فلا يرهبك أن تناديه ؛ لأن هناك من تصرخ عليه لينجدك ، وهو لن تصرخ عليه ؛ لأنه سميع وعليم ، « الله ولي الذين آمنوا » .

وكلمة « وليّ » أيضا منها (مولى) ومنها (وال) ، « وليّ الذين آمنوا » أي هو الذي يتولى شئونهم وأمورهم ، كما تقول : الوالي الذي تولّى أمر الرعيّة ، وكلمة « موْلَى » مرة تُطلق على السيد ، ومرة تطلق على خادمه ، ولذلك يقول الشاعر :

مولاك يا مولاي طالب حاجة

أي عبدك يا سيدي طالب حاجة ، فهي تستعمل في معان مترابطة ؛ لأننا قلنا . « وَليّ » تعني القريب ، فإذا كان العبد في حاجة إلى شيء فمَن أول من ينصره ؟ سيده ، وإذا نادى السيد ، فمن أول مجيب له ؟ إنه خادمه ، إذن فيُطلق على السيد ويُطلق على العبد ، ويُطلق على الوالي ، « الله ولي الذين آمنوا » وقوله الحق « الذين آمنوا » يعني جماعة فيها أفراد كثيرة ، كأنه يريد من الذين آمنوا أن يجعلوا إيمانهم شيئا واحداً ، وليسوا متعددين ، أو أن ولاية الله لكل فرد على حدة تكون ولاية لجميع المؤمنين ، ومادامو مؤمنين فلا تضارب في الولايات ؛ لأنهم كلهم صادرون وفاعلون عن إيمان واحد ، ومنهج واحد ، وعن قول واحد ، وعن فعل واحد ، وعن حركة واحدة .

وكيف يكون « الله ولي الذين آمنوا » ؟ إنه وليهم أي ناصرهم ، ومحبهم ومجيبهم

ومعينهم ، هو وليهم بما أوضح لهم من الأدلة على الإيمان ، هل هناك حُبّ أكثر من هذا ؟ هل تركنا لنبحث عن الأدلة أو أنه لفت إلى الأدلة ؟

وتلك هي ولاية من ولايات الله . فقبل أن نؤمن أوجد لنا الأدلة ، وعندما آمنا والانا بالمعونة ، وإن حاربنا خصومنا يكن معنا ، وبعد ذلك تستمر الولاية إلى أن يعطينا الجزاء الأوفى في الآخرة ، إذن فهو ولي في كل المراحل ، بالأدلة قبل الإيمان وليّ . ومع الإيمان استصحاباً يكون ناصرنا على خصومنا وخصومه . وفي الآخرة هو وليّنا بالمحبة والعطاء ويعطينا عطاءً غير محدود ، إذن فولايته لا تنتهي .

« الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » إنه سبحانه يخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان ؛ لأن الظلمات عادة تنطمس فيها المرائي ، فلا يمكن أن ترى شيئاً إلا إذا كان هناك ضوء ينبعث لك من المرئي أي أشعة تصل إليك ، فإن كانت هناك ظلمة فمعنى ذلك أنه لا تأتي من الأشياء أشعة فلا تراها ، وعندما يأتي النور فأنت تستبين الأشياء ، هذا في الأمور الحسّيّة ، وكذلك في مسائل القيم ، « يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات »

هل هم دخلوا النور يا ربنا ؟ لنا أن نفهم أن المقصود هنا هم المرتدون الذين وسوس لهم الشيطان فأدخلهم في ظلمات الكفر بعد أن كانوا مؤمنين ، أو « يخرجونهم من النور إلى الظلمات » ، أي يحولون بينهم وبين النور فيمنعونهم من الإيمان كما يقول واحد :

أما دريت أن أبي أخرجني من ميراثه ؟ إن معنى ذلك أنه كان له الحق في التوريث ، وأخرجه والده من الميراث . وهذا ينطبق على الذين تركوا الإيمان ، وفضلوا الظلمات . والقرآن يوضح أمر الخروج من الظلمة إلى النور ومن الكفر إلى الإيمان في مواقع أخرى ، كقول سيدنا يوسف للشابين اللذين كانا معه في السجن :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ

﴿ ... مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة يوسف)

فهل كان سيدنا يوسف في ملة القوم الكافرين ثم تركها ؟ لا ، إنه لم يدخل أساساً إلى ملة القوم الذين لا يؤمنون بالله . إن هذه الملة كانت أمامه ، لكنه تركها ورفض الدخول فيها وتمسك بملة إبراهيم عليه السلام . وفي التعبير ما فيه من تأكيد حرية الاختيار . وهناك آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة النحل)

إن معنى الآية أن الله قد خلقنا جميعا ، وقدر لكل منا أجلاً ، فمنا من يموت صغيراً ، ومنا من يبلغ أرذل العمر ، فيعود إلى الضعف وتقل خلايا نشاطه فلا يعلم ما كان يعلمه . وليس معنى الآية أن الإنسان يوجد في أرذل العمر ثم يرد إلى الطفولة .

وعندما يقول الحق : « والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » ، فالحق أورد هنا كلمة أولياء من الطاغوت ، لأن الطاغوت كما قلنا ألوان متعددة ، الشيطان طاغوت ، والدجال طاغوت ، والساحر طاغوت . وجاء الحق بالخبر مفرداً وهو الطاغوت لمبتدأ جمع وهو أولياء ، ووصف هؤلاء الأولياء للطاغوت بأنهم يخرجون الذين كفروا من النور إلى الظلمات .

لقد أفرد الله الطاغوت وأورد بالجمع الأفراد الذين يخرجهم الطاغوت إلى الظلمات . ولماذا لم يقل الله هنا : « طواغيت » بدلاً من طاغوت ؟ إن الطاغوت كلمة تتم معاملتها هنا كما نقول : « فلان عدل » أو « الرجلان عدل » أو « الرجال عدل » . وعلى هذا القياس جاءت كلمة طاغوت ، فالشيطان والدجال والكاهن

والساحر والحاكم بغير أمر الله ، كلهم طاغوت ، لقد التزمت الآية بالإفراد والتذكير . فالطاغوت تطلق على الواحد أو الاثنين أو الجماعة ، أي أن المخرجين من النور إلى الظلمات هم أولياء الطاغوت ، أو من اتخذوا الطواغيت أولياء ، وهم إلى النار خالدون . والدخول للنار يكون للطواغيت ويكون لأتباع الطواغيت ، كما يقول الحق في كتابه .

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

إن أتباع الطواغيت ، والطواغيت في نار جهنم . وقانا الله وإياكم عذابها . ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا صورة واقعية في الكون من قوله « الله ولي الذين آمنوا » ، فهو الولي ، وهو الناصر فيقول سبحانه .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾

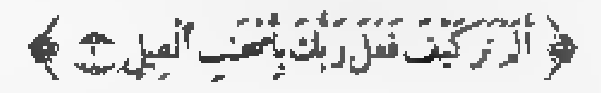
وساعة تسمع « ألم تر » ؟ فأنت تعلم أنها مكونة من همزة هي « أ » وحرف نفي وهو « لم » ، ومنفي هو « تر » والهمزة ، تأتي هنا للإنكار ، والإنكار نفي بتقريع ، ولكنها لم تدخل على فعل مثبت حتى نقول : إنها أنكرت الفعل بعدها ، مثلما نقول

للولد . أتضرب أمك ! هنا الهمزة جاءت لا لتستفهم وإنما أنت تنكر هذه العملة ، لأن الفعل بعدها مثبت وهو « تضرب » ، وجاءت الهمزة قبله فتسمى « همزة إنكار » للتقريع . إذن فالإنكار نفي بتقريع إذا دخلت على فعل منفي .

ومادام الإنكار نفيا والفعل بعدها منفيّ فكأنك نفيت النفي ، إذن فقد أثبته ، كأنه سبحانه عندما يقول للرسول صلى الله عليه وسلم . « ألم تر » فالمقصود « أنت رأيت » . ولماذا لم يقل له رأيت ؟ لقد جاء به بأسلوب النفي كي تكون أوقع ، فقد يكون مجيء الإثبات تلقيا للمسئول ، فعندما يقول لك صديق : أنت لم تسأل عني وأنت تهملني . فأنت قد ترد عليه قائلا : ألم أساعدك وأنت ضعيف ؟ ألم آخذ بيدك وأنت مريض ؟

لقد سبق أن قدمت خدماتك لهذا الصديق ، ولكنك تريد أن تنكر النفي الذي يقوله هو ، وهكذا نعلم أن نفي النفي إثبات . ولذلك صحّ نأخذ من قوله تعالى من هذه العبارة « ألم تر » على معنى أنت رأيت ، والرؤية تكون بالعين فهل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو المخاطب الأول بالقرآن الكريم من ربه ـ هل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحادثة أيام إبراهيم ؟ طبعا لا . فكان « ألم تر » هنا تأتي بمعنى ألم تعلم .

ولماذا جاء بـ « ألم تر » هنا ؟ لقد جاء بها لتعلم أن الله حين يقول : « ألم تعلم » فكأنك ترى ما يخبرك به ، وعليك أن تأخذه على أنه مصدق كأنك رأيته بعينك . فالعين هي حاسة من حواسك ، والحاسة قد تخدع ، ولكن ربك لا يخدع ، إذن فـ « ألم تر » تعني . « ألم تعلم علم يقين » ، وكأنك قد رأيت ما يخبرك به الله ، ولذلك يقول تعالى للرسول .



(سورة الفيل)

والرسول ولد عام الفيل ، فلم ير هذه الحادثة ، وكان الله يخبره بها ويقول له : ألم تعلم ، وكأنه يقول له . اعلم علما يقينيا كأنك تراه ؛ لأن ربك أوثق من عينيك ،

وعندما يقال : « ألم تر » فالمراد به « ألم تر كذا » ، لكن الحق قال : « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه » واستعمال حرف « إلى » هنا يشير إلى أمر عجيب قد حدث ، ومثال ذلك ما نقوله أحيانا : ألم تر إلى زيد يفعل كذا .

فكأن ما فعله زيد أمر عجيب ، وكأنه ينبه هنا إلى الالتفات إلى نهاية الأمر ، لأن « إلى » تفيد الوصول إلى غاية ، فكأنها مسألة بلغت الغاية فى العجب ، فلا تأخذها كأنك رأيتها فقط ، ولكن انظر إلى نهايتها حينما حدثت .

والحق يقول هنا : « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه » و« إلى » جاءت هنا لتدل على أنه أمر بلغ من العجب غاية بعيدة ، وهو بالفعل قد بلغ من العجب غاية بعيدة ، والحق سبحانه وتعالى لم يقل لنا من هو ذلك الإنسان الذى حاج إبراهيم فى ربه ، لأنه لا يعنينا التشخيص سواء كان النمروذ أو غيره .

فإذا ذهب بعض المفسرين إلى القول : إنه ملك واسمه النمروذ . فإننا نقول لهم : شكراً لاجتهادكم ، ولكن لو شاء الله تحديد اسم الرجل لحدده لنا ، والذى يهمنا هو أنه واحد خرج عن رسول الله إبراهيم عليه السلام وجادله فى هذه المسألة ، والتشخيص هنا ليس ضرورياً ، والحق سبحانه وتعالى حينما يريد شيوع الأمر وإمكان حدوثه فى أى زمان أو مكان فإن الله لا يشخص الأمر ، فأى إنسان فى أى مكان قد يحاجج أى مؤمن وليس كذلك الأمر بالنسبة لأى تشخيص أو تحديد ، ومثال ذلك هؤلاء الذين يريدون أن يعرفوا قصة أهل الكهف ، ويتساءلون : أين ومتى ، وكم عددهم ، ومن هم ؟

ونقول : لو جاءت واحدة من هؤلاء لفسدت القصة ، لأنه لو حددنا زمانها سيأتى واحد يقول لك : مثل ذلك الزمان الذى حدثت فيه القصة كان يسمح بها . ولو حددنا المكان سيقول آخر : إن المكان كان يسمح بهذه المسألة . ولو حددت الأشخاص بأسمائهم فلان وفلان ، فسيقول ثالث : إن مثل هذه الشخصيات يمكن أن يصدر منها مثل هذا السلوك وأين لنا بقوة إيمان هؤلاء ؟

والحق لم يحدد الزمان والمكان والأشخاص وجاء بها مبهمة ليدل على أن أى فتية فى

أي زمان وفي أي مكان يقولون ما يقولون ، ولو شخصها في واحد لفسد المراد . ولننظر إلى دقة الحق حين ضرب مثلا للذين كفروا بامرأة نوح وامرأة لوط حين قال جل وعلا :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠ ﴾

(سورة التحريم)

ولم يحدد لنا اسم امرأة من هاتين امرأتين ، بل ذكر الأمر المهم فقط ، وهو أن كلا منهما زوجة لرسول كريم ، ولكن كلا منهما أصرت على الكفر فدخلتا النار . ولكن الحق سبحانه وتعالى حين أراد التخصيص بحادث لن يتكرر في أي زمان أو مكان جاء بذكر السيدة مريم بالتشخيص والتحديد الواضح حين قال :

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ۝١٢ ﴾

(سورة التحريم)

فحدد الحق مريم بالاسم والحادث لماذا ؟ لأن الواقعة غير قابلة للتكرار من أية امرأة أخرى . التشخيص هنا واجب ، لأنه لن تلد امرأة من غير زوج إلا هذه ، إنما إذا كانت المسألة ستتكرر في أي زمان أو مكان فهو سبحانه يأتي بوصفها العام . ومثال ذلك قول الحق « ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم » فلم يقل لنا : من هو ؟ و« حاجّ » أصلها « حاجج » ، مثل « فاس » و« شارك » . وعندما يكون هناك حرفان مثلان ، فنحن نسكن الأول وندغم الثاني فيه وذلك للتخفيف ، فتصير (حاجّ) ، و« حاج » من مادة « فاعل » التي تأتي للمشاركة ، وحتى نفهم معنى « المشاركة » إليكم هذا المثال :

نحن نقول : قاتل زيد عمراً ، أو نقول : قاتل عمرو زيداً ، ومعنى ذلك أن كُلًّا منهما قد تقاتل ، وكلاهما فاعل ومفعول في الوقت نفسه ، لكننا غلبنا جانب الفاعل في واحد ، وجانب المفعول في الثاني . برغم أن كلا منهما فاعل ومفعول معا

ومثال آخر ، حين تقول : شارك زيد عمراً ، وشارك عمرو زيداً ، إذن فالمفاعلة جاءت من الاثنين ، هذا فاعل وهذا مفعول ، لكننا عادة نُغلب الفاعلية فيمن بدأ ، والمفعولية في الثاني ، وإن كان الثاني فاعلاً أيضا . ولذلك يقول الشاعر عندما يريد أن يشرح حال إنسان يمشي في مكان فيه حيات كثيرة ومتحرزاً من أن حية تلدغه فقال :

قد سالم الحيات منه القدم
الأفعوان والشجاع الشجعما

إن الشاعر هنا يصف لنا إنساناً سار في مكان ملىء بالحيات ، وعادة ما يخاف الإنسان أن تلدغه حية ، لكن هذا الإنسان الموصوف في هذا البيت نجد أن الحيات قد سالمت قدمه ، أي لم تلدغه لأنه لم يُهِجْها ، والثعابين عادة لا تلدغ إلا من يبدأها بالإهاجة . نجد هنا أن الفاعل هو الحيات ؛ لأنها سالمت قدمه ويصح أيضا أن نقول : إن القدم هي التي سالمت الحيات

ونحن نعرف من قواعد اللغة ما درسناه قديما ما يسمى بالبدل ، والبدل يأخذ حكم المبدل منه ، فإن كان المبدل منه مرفوعا جاء البدل مرفوعا ، وإن كان المبدل منه منصوبا جاء البدل منصوبا ، وإن كان المبدل منه مجروراً كان البدل كذلك . هنا نجد « الحيات » في هذا البيت من الشعر مرفوعة ولكن الأفعوانَ جاءت في البيت منصوبة مع أنها بدل من مرفوع هو « الحيات » لأنه لاحظ ما فيها أيضاً من المفعولية فأتى بها منصوبة . كما أن بالإمكان أن تُقرأ « الحيات » بالنصب و« القدم » بالرفع لأن كلا منها فاعل ومفعول من حيث المسألة .

وكذلك في قول الحق سبحانه : « ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه » نحن نلاحظ أن كلمة « إبراهيم » تأتي في الآية الكريمة منصوبة بالفتحة ، أي يغلب عليها المفعولية . فمن إذن الذي حاجّ إبراهيم ؟ إنه شخص ما ، وهو الفاعل ؛ لأنه الذي بدأ بالمحاجّة ، وهكذا تدلنا الآية الكريمة ، وتصف الآية ذلك الرجل « أن آتاه الله الملك » أي أن الرجل قد وهبه الله الملك وقد حاج هذا الرجل إبراهيم في ربه ، فكان هذا الرجل هو الذي بدأ الحجاج قائلا لإبراهيم : من ربك ؟

فقال إبراهيم عليه السلام : « ربي الذي يحيي ويميت » وهذه هي براعة القرآن في أن يترك الشيء ثقة بأن السمع يرد كل شيء إلى أصله . فقوله الحق : « إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت » فكأن الذي حاج إبراهيم سأله : من ربك ؟ فقال إبراهيم : « ربي الذي يحيي ويميت » .

ولنا أن نلحظ أن هذه الآية قد جاءت بعد قوله الحق في الآية السابقة « الله ولي الذين آمنوا » ، والولاية هي النصر والمحبة والمعونة ، فيريد سبحانه أن يبين لنا كيف أعان الله إبراهيم على من حاجه ، إلا أن الذي حاج إبراهيم دخل في متاهات السفسطة بعد أن سمع قول إبراهيم « ربي الذي يحيي ويميت » ، وقد جاء الحق بـ« يحيي ويميت » ؛ لأن تلك القضية هي التي لم يدّعِ أحد أنه صنعها ، ولم يدّعِ أحد أنه شريك فيها ، حتى الكافرون إذا سألتهم : من الذي خلق ؟ يقولون الله .

إذن فهذه قضية ثابتة . إلا أن الخصم الذي حاجّ إبراهيم أراد أن ينقل المحاجة نقلة سفسطائية . والسفسطة كما نعلم هي الكلام الذي يطيل الجدل بلا نهاية .

وقال الرجل الذي يحاج إبراهيم عليه السلام : إذا كان ربك الذي يحيي ويميت فأنا أحيي وأميت .

فسأله إبراهيم عليه السلام : كيف تحيي أنت وتميت ؟

قال الرجل : أنا أقدر أن أقتل ما عندي من مساجين وأقدر ألا أقتلهم ، فالذي لم أقتله كأني أحييته ، والذي قتلته قد أمته .

ولم يقل سيدنا إبراهيم لنتفق أولا ما الحياة ؟ وما الموت ؟ ذلك أن إبراهيم خليل الرحمن لم يشأ أن يطيل هذه المجادلة ، فجاء له بأمر يُلجمه من البداية وينهي الجدل ، فقال له : « إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر » . وهكذا أنهى سيدنا إبراهيم هذا الجدل . كان من الممكن أن يدخل معه سيدنا إبراهيم في جدل ، ويقول له : ما هي الحياة ؟

ونحن نعرف أن الحياة هي إعطاء المادة ما يجعلها متحركة حساسة مريدة مختارة، أما الموت فهو إخراج الروح من الجسد ، فالذي يقتل إنساناً ؛ إنما يخرج روحه من جسده ، والقتل يختلف عن الموت ؛ لأن الموت خروج الروح من الجسد بدون جرح ، أو نقض بنية ، أو عمل يفعله الإنسان في بدنه كالانتحار

وقد يكون الإنسان جالساً مكانه وينتهي عمره فيموت ، ولا أحد قادر قبل ذلك أن يقول له مت فيموت ، هذا هو الموت ، لكن إزهاق الروح بجرح جسيم أو نقض بنية فهذا هو القتل وليس الموت ، ولذلك يجعل الله القتل مقابلاً للموت ، في قوله تعالى

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) ﴾

(سورة آل عمران)

وقد أوضح لنا الله سبحانه وتعالى الفرق بين الموت والقتل ، وجعل كلا منهما مقابلاً للآخر ، فعندما أشيع أن رسول الله قد قتل ، هَمَّ بعض المسلمين بالارتداد إلى الكفر ، فأنكر الله عليهم ذلك قائلاً : إن محمداً رسول من عند الله قد مات من قبله المرسلون أفإن مات أو قتل رجعتم من الإيمان للكفر ، ومَنْ يعمل ذلك فإنما يضر نفسه ، والثواب عند الله للثابتين على منهج الله الشاكرين لنعمه ، أوضح لنا الحق أن موت أي إنسان لا يمكن أن يحدث إلا بإذن الله ، وقد كتب الله ذلك في كتاب مشتمل على الآجال

ويريد الله أن يُنبها ويلفتنا إلى حقيقة مهمة وهي أن الرسل في جدلهم مع أممهم أو مع المناقشين لهم لا يكون الهدف أن النبيّ يظفر بالغلبة وإنما يكون الهدف بالنسبة للرسول أو النبي أن يصل إلى الحقيقة ، ولذلك لم يتوقف إبراهيم عليه السلام مع

الرجل الذى يحاجه فى الله عند نقطة الإحياء والإماتة ؛ لأنه رأى فى مناقشة الرجل لونا من السفسطة .

وعلينا ونحن نتدبر آيات القرآن بالخواطر الإيمانية أن نفهم الفرق بين الإماتة والقتل . الصحيح أن الإماتة والقتل يشتركان فى أمر واحد وهو خروج الروح من الجسد . والإماتة تختلف عن القتل بأنه لا يقدر عليها إلا واهب الحياة الذى وضع مقومات خاصة فى البنية الإنسانية حتى تسكنها الروح ، وهو القادر على أن يسلب الروح بأمر غير محس .

أما القتل فهو أن تجرح إنساناً فيموت ، أو تنقض بنيته ، تكسر له رأسه مثلاً ، أما « الإماتة » فهى أن تنقض حياته بمجرد الأمر دون أن تقربه ، هل أحد من البشر يقدر على هذه ؟ لا . إذن فالذى حاج إبراهيم لم يحي الذى قال . إنه سيتركه بدون عقوبة ، إنه لم يقتله ، لكنه أبقى الحياة التى كانت فيه ، هذا إذا أردنا أن ندخل فى جدل .

والله قد جعل القتل مقابلاً للموت ، صحيح أنهما ينتهيان بأن لا روح ، لكنْ هناك فرق بين أن تؤخذ الروح بدون هذه الوسائل وأن تترك الروحُ البدن لأن بنيته قد تهدمت . وإياك أن تظن أن الروح لا تخضع لقوانين معينة ، إن الروح لا تحل إلا فى مادة خاصة ، فإذا انتهت المقومات الخاصة فى المادية فالروح لا تسكنها ، فلا تقل إنه عندما ضربه على رأسه أماته ! لا ، هو لم يخرج الروح لأن الروح بمجرد ما انتهت البنية تمضى .

والمثال الذى يوضح ذلك لنفترض أن أمامنا نوراً ، إذا كسرت الزجاجة يذهب النور هل الزجاجة هى النور ؟ لا ، لكن الكهرباء لا تظهر إلا فى هذه الزجاجة ، كذلك الروح لا توجد إلا فى بنية لها مواصفات خاصة . إذن فالقاتل لا يُخرج الروح ولكنه يهدم البنية بأمر مُحَسّ ، فالأمر الغيبى وهو الروح لا يسكن فى بنية مهدومة .

« ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك » ، انظر إلى الطغيان ،

أتجعل إيتاء المُلْك وهو نعمة وسيلة إلى التمرد على من أنعم عليك بها؟ أتجعل شكر النعمة بأنك تخالف المنعم؟ من الذي أبطره؟ أبطره أن آتاه الله الملك؟ وكيف يعين الله واحداً ليس مؤمناً به؟ والمُلْك ـ بمعنى الأمر والنهي ـ إنما يكون للمبلغ عن الله، إنما المُلك الآخر مُلْكُ السلطان بأن يَحْكُمَ إنساناً على جماعة، فمن الجائز أن يكون مؤمناً، وأن يكون كافراً.

وقوله: «أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت» هو جواب على من قال: «من ربك» فجاءته إجابة إبراهيم عليه السلام «ربي الذي يُحيي ويميت فقال أنا أحيي وأميت» وعرفنا ما في هذا الأمر من سفسطة، فلم يقل له إبراهيم: أنت تُحيي وتُميت، بل نقله إلى أمر آخر، كأنه قد قال له: اترك الأمر الغيبي وهو الروح، وتعال للأمر المشهود «قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر».

ولأن الله ولي الذين آمنوا فهو سبحانه لم يلهم المحاج أن يرُدّ، كان يستطيع أن يقول له: اجعل من يأتي بها من المشرق يأت بها من المغرب، لكنه لم يقلها لأنها تدل على أنه غبي! أو يكون ذكياً فيقول: إن الرب الذي معه بهذا الشكل قد يفعلها، فخاف. إذن «والله ولي الذين آمنوا» حقاً. وهو سبحانه «يخرجهم من الظلمات إلى النور».

وما معنى كلمة «بُهت»؟ إن البهت يأخذ ثلاث صور. الصورة الأولى: الدهشة؛ نقله فيما يمكن أن تحدث فيه مماحكة إلى ما لا تحدث فيه مماحكة وجدال، أراد أن يجد أمراً يرد به فلم يقدر، مثلما قال: أنا أحيي وأميت، لقد دهش، وأول ما فاجأه هو الدهش، ثم كان التحيّر، أراد أن يجد كي يخرج من هذه الورطة فلم يجد، إذن فقد هُزم. فهذه هي نهاية البُهت. فـ «بُهت» تعني أنه دهش أولاً، فتحير في أن يرد ثانياً، فكان نتيجة ذلك أنه هُزم ثالثاً، وهذا أمر ليس بعجيب؛ لأنه مادام كافراً فليس له ولي، أو وليه من لا يقدر «أولياؤهم الطاغوت». أما إبراهيم خليل الرحمن فوليه الله.

ويختم الحق الآية بقوله: «والله لا يهدي القوم الظالمين» لا يهديهم إلى برهان،

ولا إلى دليل ، ولا إلى حجة ، لأن وليهم الشيطان ، « والله لا يهدي القوم الظالمين »
والآية التي تأتي من بعد ذلك كلها ستدخل في الحياة والموت ، ومن المهم أن الآية
تدخل في الحياة والموت كي لا نفهم أن إبراهيم إنما ترك المحاجة مع ذلك الذي حاجّه
في أمر الموت والحياة هرباً من الكلام فيها ، لذلك يريد الله أن يستوفي تلك القضية
استيفاء في قصص متعددة ، ويبسط الحق القضية التي عدل عنها إبراهيم وهي الموت
والحياة فيقول سبحانه

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾

وعندما ننظر إلى بداية الآية نجدها تبدأ بـ « أو » ، وما بعد « أو » يكون معطوفاً
على ما قبلها ، فكأن الحق يريد أن يقول لنا : أو (ألم تر) إلى مثل الذي مر على
قرية

وعندما نسمع كلمة « قرية » فإنها تفيد تجمع جماعة من الناس يسكنون في مكان

محدود ، ونفهم أن الذى مر على هذه القرية ليس من سكانها ، إنما هو قد مر عليها سياحة فى رحلة . ونلحظ كذلك أن الحق سبحانه لم يشأ أن يأتى لنا باسم القرية أو باسم الذى مر عليها .

قال البعض : إنه هو أورميا بن حلقيا أو هو الخضر ، أو هو عزير ، وقد قلت من قبل : إنه إذا أبهم الحق فمعناه لا مشخص الأمر ، فيمكن لأى أحد أن يحدث معه هذا .

« أو كالذى مر على قرية » . وقالوا . إنها بيت المقدس ، « وهى خاوية على عروشها » وحتى نفهم معنى خاوية على عروشها ، لنا أن نعرف أننى عندما أقول : « أنا خوبان » أى « أنا جوعان » : « جوعان » فـ « خاوية » المقصود بها أنها قرية خالية من السكان ، وقد تكون أبنيتها منصوبة ، لكن ليس فيها سكان ، والحق يقوله عن تلك القرية . إنها خاوية على عروشها ، و« العرش » يُطلق على البيت من الخيام ، ويطلق كما نعرف على السقف ، فإذا قال : « خاوية على عروشها » أى أن العرش قد سقط أولا ، ثم سقطت الجدران عليه ، مثلما نقول فى لغتنا العامية « جاب عاليها على واطيها » .

وعندما يمر إنسان على قرية مثل هذه القرية فلا بد أن مشهدها يكون شيئاً لافتاً للنظر ، قال « أنّى يُحيى هذه الله بعد موتها » فكأنه يسأل عن القرية ، وعن إماتة وإحياء الناس الذين يسكنون القرية والحق حين يذكر القرية فى القرآن فهو يقصد فى بعض الأحيان الحديث عن أهلها مثل قوله تعالى :

﴿ وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يوسف)

إن أبناء يعقوب عليه السلام حين عادوا من مصر وتركوا أخاهم الأصغر مع يوسف عليه السلام قالوا لأبيهم : أرسل من يأتيك بشهادة أهل مصر واسأل نفسك زملاءنا الذين كانوا معنا فى القافلة ، وسيقولون لك إننا قد تركنا أخانا بمصر لكن سؤال الذى مر على القرية الخاوية على عروشها هو سؤال عن أهلها .

« أنّى يُحيى هذه الله بعد موتها » ، وساعة تسمع « أنّى » فهي تأتى مرة بمعنى « كيف » ، ومرة تأتى بمعنى . « من أين » . والمناسب له هنا هو أن يكون السؤال كالتالى . « كيف يحيى الله هذه بعد موتها » ؟ وقوله هذا يدل على أنه مؤمن ، فهو لا يشك فى أن قضية الإحياء من الله ، وإنما يريد أن يعرف الكيفية ، فكأنه مؤمن بأن الله هو الذى يحيى ويميت ، وهذه ستأتى فى قصة سيدنا إبراهيم

﴿ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾

(من الآية ٢٦٠ سورة البقرة)

هو لا يشك فى أن الله يُحيى الموتى ، إنما يريد أن يرى كيف تتم هذه الحكاية ؛ لأن الذى يريد أن يعرف كيفية الشىء ، لابد أنه متعجب من وجود هذا الشىء ، ليتساءل . كيف تم عمل هذا الشىء ؟ مثلما نرى الأهرام ، ونحن لا نشك أن الأهرام مبنية بهذا الشكل ، لكننا نتساءل فقط . كيف بنوها ؟ كيف نقلوا الحجارة بضخامتها لأعلى ولم يكن هناك سقالات أو روافع آلية ؟ إذن فنحن نتعجب فقط ، والتعجب فرع الإيمان بالحدث .

والسؤال عن الكيفية معناه التيقن من الحدث ، فقول الحق « أنّى يُحيى هذه الله » . . يعنى : كيف يُحيى الله هذه القرية بعد موتها ، فكأن القائل لا يشك فى أن الله يُحيى ، ولكنه يريد الكيفية ، والكيفية ليست مناط إيمان ، فالله لم ينهنا عن التعرف على الكيفية ؛ فهو يعلم أننا نؤمن بأنه قادر على إيجاد هذا الحدث .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ فمُصمم الملابس عندما يقوم بتفصيل أزياء جميلة ، أنت تراها ، فأنت تتيقن من أنه صانعها ، ولكنك تتعجب فقط من دقة الصنعة ، وتقول له بالله كيف عملت هذه ؟ كأنك قد عشقت الصنعة ! فتشوقت إلى معرفة كيف صارت ، فما بالنا بصنعة الحق تبارك وتعالى ؟ إنك تندهش وتتعجب لتعيش فى ظل السر السائح من الخالق فى المخلوق ، وتريد أن تتمم بهذه النعم

ومثال آخر ـ ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ـ أنت ترى مثلا لوحة رسمها رسام ، فتقول له : بالله كيف مزجت هذه الألوان ؟ أنت لا تشك فى أنه قد مزج

الألوان . بل نريد أن تسعد نفسك بأن تعرف كيف رسمها ، إذن مقوله وقول إبراهيم بالسؤال في الإحياء والإماتة فيما يأتي ليس معناه أنه غير مؤمن بل هو عاشق ومشتاق لأن يعرف الكيفية ، ليعيش في جو الإبداع الجمالي الذي أنشأ هذه الصنعة .

ونعلم أن إحياء الناس سيترتب عليه إحياء القرية ، فالإنسان هو باعث الحركة التي تعمر الوجود ، والناس لهم حياة ولهم موت ، والقرية بأنقاضها وجدرانها وعروشها لها حياة ولها موت وعندما سأل العبد هذا السؤال ، أراد الله أن تكون الإجابة تجربة معاشة في ذات السائل ؛ لذلك يأتي القرآن بالقول « فأماته الله مائة عام » .

إن صاحب السؤال قد أراد أن يعرف الكيفية ، وطلبه هو إيمان دليل ، ليصبح بيناً بعد إيمانا بواقع مشاهد « فأماته الله مائة عام »لقد جعل الله الأمر والتجربة في السائل ذاته وهذا إخبار الله . لقد أماته مائة عام ، والعام هو الحول ، وقد سموا « الحول » عاما ؛ لأن الشمس تعوم في الفلك كله في هذه المدة ، والعوم سَبْحٌ ، والحق يقول :

﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة يس)

ولذلك نسميه عاماً . « فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم » ، فكأن الله قال له كلاماً كما كلم موسى ، أو سمع صوتاً أو ملكاً أو أن أحدًا من الموجودين رأى التجربة فالمهم أن هناك سؤالاً وجوابًا . ويصور لنا الحق سبحانه بحوار دار في هذا الشأن ، السؤال هو : كم لبثت ؟ فأجاب الرجل لبثت يوماً أو بعض يوم .

وإجابة الرجل تعني أنه قد تشكك ، فقد وجد اليوم قد قارب على الانتهاء أو انتهى ، أو أنه عندما رأى الشمس مشرقة أجاب هذه الإجابة : لبثت يوماً أو بعض يوم ، أو يكون قد قال ذلك ، لأنه لا يستطيع أن يتحكم في تقدير الزمن فهل هو صادق في قوله أو كاذب ؟ إنه صادق ، لأنه لم ير شيئاً قد تغير فيه ليحكم بمقدار التغير ، فلو كان قد حلق لحيته مثلاً ، ونام بعد ذلك ليجد لحيته قد طالت ، أو قد

نام بشعر أسود ، وقام بعد ذلك بشعر أشيب ، فلو حدثت أية تغيرات فيه لكان قد لمسها ، لكنه لم يجد تغيراً .

فماذا كان جواب الحق ؟ قال الحق : « بل لبثت مائة عام » . إننا هنا أمام طريقين ويكاد الأمر أن يصبح لغزاً ، طرف يقول : « لبثت يوماً أو بعض يوم » ورب يقول : « بل لبثت مائة عام » . ونريد أن نحل هذا اللغز . إن الحق سبحانه صادق ومُنَزّه ، والعبد المؤمن صادق في حدود ما رأى من أحواله .

ونريد دليلا على هذا ، ودليلا على ذاك . نريد دليلا على صدق العبد في قوله : « لبثت يوماً أو بعض يوم » . ونريد من الحق سبحانه وتعالى دليل اطمئنان لا دليل برهان على أن الرجل قد مات مائة عام وعاد إلى الحياة .

ونقول : إن في القصة ما يؤيد « لبثت يوما أو بعض يوم » ، وما يؤيد « بل لبثت مائة عام » ، فقد كان مع الرجل حماره ، وكان معه طعامه وشرابه من عصير وعنب وتين . فقال الحق سبحانه وتعالى : « لبثت مائة عام » ، وأراد أن يدلل على الصدق في القضيتين معاً قال : « فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه » . ونظر الرجل إلى طعامه وشرابه فوجد الطعام والشراب لم يتغيرا ، وهذا دليل على أنه لم يمكث إلا يوما أو بعض يوم ، وبذلك ثبت صدق الرجل ، بقيت قضية « مائة عام » .

فقال الحق : « وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس » ، وهذا القول يدل على أن هنا شيئا عجيبا ، وأراد الله أن يبين له بنظرة إلى الحمار دليلاً على صدق مرور مائة عام ، ووجد الرجل حماره وقد تحول عظاماً منخرة ، ولا يمكن أن يحدث ذلك في زمن قصير ، فإن موت الحمار أمر قد يحدث في يوم ، لكن أن يَرِمّ جسمه ، ثم ينتهي لحمه إلى رماد ، ثم يبقى العظام مبعثرة ، فتلك قضية تريد زمانا طويلاً لا يتسع له إلا مائة عام ، فكأن النظر إلى الحمار هو دليل على صدق مرور مائة عام ، والنظر إلى الطعام دليل على صدق « يوماً أو بعض يوم » .

فالقضية إذن قضية عجيبة ، وكيف طَوى الزمن في مسألة الطعام ، وكيف بَسط

الزمن في مسألة الحمار . إنه سبحانه يظهر لنا أنه هو القابض الباسط ، فهو الذي يقبض الزمن في حق شيء ، ويبسط الزمن في حق شيء آخر ، والشيئان متعاصران معا . وتلك العملية لا يمكن أن تكون إلا لقدرة حليقة لا تملكها النواميس الكونية ، وإنما هي التي تملك النواميس .

وقد قال الحق سبحانه : « ولنجعلك آية للناس » ، فمن هم الناس الذين سيجعل الله من قضية الذي مرَّ على قرية آية لهم ؟ كان لابد أن يوجد أناس في القصة ، لكن القرية خاوية على عروشها ، وليس فيها إنسان أو بيان ، أهم الذين كانوا في القرية أم سواهم ؟ قال بعض المفسرين هذا ، وقال البعض الآخر الرأي المضاد .

وأصدق شيء يمكن أن يتصل بصدق الله في قوله : « ولنجعلك آية للناس » هو قبض الله للزمن في حق شيء ، وبسطه في حق شيء آخر ، وعزير كما قال جمهرة العلماء هو الذي مر على قرية ، وعزير هذا كان من الأربعة الذين يحفظون التوراة ، فلم يحفظ التوراة إلا أربعة : موسى ، وعيسى ، وعزير ، ويوشع ، وقد أراه الله العظام وكيف ينشزها ويرفعها فتلتحم ثم يكسوها لحما ، أي أراه عملية الإحياء مشهدياً ، وفي هذا إجابة للسؤال : « أنّى يحيي هذه الله بعد موتها » ؟

والحق يقول : « وانظر إلى العظام كيف ننشرها » و« ننشزها » أي نرفعها ، ورأى « عزير » كل عظمة في حماره ، وهي تُرفع من الأرض ، وشاهد كل عظمة تُركب مكانها ، وبعد تكوين الهيكل العظمي للحمار بدأت رحلة كسوة العظام لحماً ، وبعد ذلك تأتي الحياة .

لقد وجد عزير إجابة في نفسه ، ووجد إجابة في الحمار ، ومن بعد ذلك تذكر قريته التي خرج منها ، وأراد العودة إليها ، فلما عاد إليها وجد أمرها قد تغير بما يتناسب مع مرور مائة عام ، وكان في تلك القرية مولاة لهم ، أي أمة في أسرته ، وكانت هذه الأمة قد عميت وأصبحت مقعدة ، فلما دخل وقال : أنا العزير . قالت الأمة : ذهب العزير من مائة عام ولا ندري أين ذهب ولم يعد ؟

قال : أنا العزير . قالت : إن للعزير علامة ، هذه العلامة أنه مجاب الدعوة ، ولم تنس نفسها . قالت : فإن كنت العزير فادع الله أن يرد علىّ بصرى وأن يخرجني من تعوقى هذا . فدعا عزير الله فبرئت ، فلما برئت ، نظرت إليه فوجدته هو العزير فذهبت إلى قومها وأعلنت أن العزير قد عاد . وبعد ذلك ذهب العزير إلى ابنه ، فوجده رجلا قد تجاوز مائة سنة ، وكان العزير لا يزال شابا في سن خمسين سنة

ولذلك ترى الشاعر يقول مُلغزاً : وما ابنٌ رأى أباه وهو في ضعف عمره ؟ والمقصود بهذا اللغز هو العزير الذى أماته الله وهو في الخمسين ثم أحياه الله في عمره نفسه بعد مائة عام ، والتقى العزير بابنه . قال الابن : كنت أسمع أن لأبي علامة بين كتفيه « شامة » . فلما كشف العزير كتفه لابنه وجد الشامة .

وتثبت أهل القرية من صدق عزير ، بشيء آخر هو أن (بختنصر) حينما جاء إلى بيت المقدس وخربها حرق التوراة ، إلا أن رجلا قال : إن أباه قد دفن في مكان ما نسخة من التوراة ، فجاءوا بالنسخة ، قال العزير : وأنا أحفظها . وتلا العزير التوراة كما وُجدت في النسخة ، فصدق القوم أنه العزير ، وتعجب الناس وهم يشاهدون ابنا تخطى المائة وأبا في سن الخمسين . ولذلك يذيل الحق الآية بالقول : « قال أعلم أن الله على كل شيء قدير » .

ألم يكن قبل ذلك يعلم أن الله على كل شيء قدير ؟ نعم كان يعلم علم الاستدلال ، وهو الآن يعلم علم المشهد ، علم الضرورة ، فليس مع العين أين .

إذن فـ « أعلم أن الله على كل شيء قدير » هي تأكيد وتعريف بقدرة الله على أن يبسط الزمن ويقبضه ، وقدرة الله على الإحياء والإماتة ، فصار يعلم حق اليقين بعد أن كان يعلم علم اليقين .

وهذه المسألة تفسر ما يقوله العلم الحديث عن تعليق الحياة . ومعنى تعليق الحياة هو يشبه ما تفعله بعض الثعابين عندما تقوم بالبيات الشتوى ، أى تنكمش في الشتاء

في ذاتها ولا تُبدي حركة ، وتظل هكذا إلى أن يذهب الشتاء ، ومدة البيات الشتوي لا تحتسب من عمر الثعبان ، ولذلك يقال : إن ذلك هو عملية تعليق الحياة . وهذه العملية التي قد نفسر بها مسألة أهل الكهف . فأهل الكهف أيضا مرت عليهم العملية نفسها

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الكهف)

إنهم لم يروا شيئاً قد تغير فيهم . وبعد ذلك قال الحق سبحانه

﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إن الله حدد الزمن الذي لبثوه ، بينما هم قالوا : إن الزمن هو يوم أو بعض يوم ومعنى ذلك أنهم عندما نامروا هذا اللون من النوم واستيقظوا وجدوا أنفسهم على حالتهم التي كانت قبل هذا اللون من النوم . إذن فقد علق الله حياتهم . ونلاحظ أن كل هذه العملية قد جاءت هنا في قصة العزير بعد آية الكرسي التي تصور العقيدة الإيمانية :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وتصور قضية الحياة وقضية الموت ونعلم أن إبراهيم حين حاجَّه الرجل وقال له .

« أنا أحيي وأميت » نقل إبراهيم الحُجّة إلى الليل والنهار ، وطلب منه أن يعكس آية الليل والنهار ، فقال للرجل : « فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر » .

وحتى لا يظن أحد أن إبراهيم عليه السلام إنما ترك الكلام عن الإحياء والإماتة فراراً من الجدل ، ونقل الأمر إلى الشمس ، لكن أراد الله أن يأتي بقصة هذا الإنسان الذي مر على قرية وهي خاوية ، فيحدث له كل ما تقدم ليثبت الحق لنا أن قصة الحياة وقصة الموت بيده وحده ، وليخرج الحق سبحانه أمر الحياة والموت عن مجال السفسطة الجدلية . وعرفنا من قبل معنى السفسطة الجدلية حيث تعرضنا لقول الذي حاج إبراهيم في ربه بأنه أتى من المسجونين وقال : أنا أستطيع أن أقتل واحداً ، وأن أترك الثاني بلا قتل .

هذه هي السفسطة ، إنه لم يحي ، بل أبقى حياة . وعرفنا أن الإحياء ضد الإماتة ؛ لأن الإماتة هي أن تخرج الروح من الجسد بدون جرح ، أو نقض بنية ، أو عمل يفعله الإنسان في البدن . أما إذا فعل إنسان أي شيء من هذه الأفعال ضد إنسان آخر فلا يقال إنه أماته بل يقال لقد قتله . والموت كما عرفنا غير القتل .

ويأتي بعد ذلك قصة لإبراهيم أيضا بعد أن نقل الجدل مع الرجل إلى الشمس ، فبهت الرجل الذي كفر ، أما إبراهيم عليه السلام فهو مؤمن بقدرة الله ، لكنه يريد أن يعرف الكيفية . إن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكا لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : « رب أرني كيف تحيي الموتى قال : أو لم تؤمن قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي »[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء .

ونحن المسلمين لم نشك في هذا الأمر . إذن ، فإبراهيم عليه السلام لم يشك من باب أولى بدليل منطوق الآية حين قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾

إن إبراهيم عليه السلام يسأل : كيف تحيى الموتى ؟ أي أنه يطلب الحال التي تقع عليها عملية الإحياء . فإبراهيم عليه السلام لا يتكلم في الإحياء ، وإنما كان شكه - عليه السلام - في أن الله سبحانه قد لا يستجيب لطلبه في أن يريه ويطلعه على كيفية إحياء الموتى ؟ ولنضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد - والمثل لتقريب المسألة من العقول ، لأن الله منزه عن أي تشبيه

إن الواحد منا يقول للمهندس . كيف تبنى هذا البيت ؟ إن صاحب السؤال يشير إلى حدث وإلى مُحْدَث وهو البيت الذي تم بناؤه فهل معرفة الكيفية تدخل في عقيدة الإيمان ؟ لا .

ولنعلم أولا ما معنى « عقيدة ؟ » إن العقيدة هي : أمر معقود ، وإذا كان هذا فكيف يقول « ليطمئن قلبي » ؟ فهل هذا دليل على أن إبراهيم قبل السؤال ، وقبل أن يجاب إليه ، لم يكن قلبه مطمئنا ؟ لا ، لقد كان إبراهيم مؤمناً ، ولكنه يريد أن يزداد اطمئناناً ، لأنه أدار بفكره الكيفية التي تكون عليها عملية الإحياء ، لكنه لا يعرف على أية صورة تكون

إذن فالاطمئنان جاء للمراد في كيفية مخصوصة تخرجه من متاهات كيفيات متصورة ومتخيلة ، ومادمت تريد الكيفية ، وهذه الكيفية لا يمكن أن نشرحها لك بكلام . بل لا بد أن تكون تجربة عملية واقعية ، « فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك » وا صرهن » أي أملهن واضممهنّ إليك لتتأكد من ذوات الطير ، ومن شكل كل طير ، حتى لا تتوهم أنه قد جاء لك طير آخر .

وقال المفسرون : إن الأربعة من الطير هي . الغراب ، الطاووس ، الديك ، الحمامة ، وهكذا كان كل طائر له شكلية مختصة

« ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً » ، فهل أجرى سيدنا إبراهيم هذه العملية أو اكتفى بأن شرح الله له الكيفية ؟ إن القرآن لم يتعرض لهذه الحكاية ، فإما أن يكون الله قد قال له الكيفية ، فإن أراد أن يتأكد منها فليعمل ، وإمّا أنه قد تيقن دون أن يجري تلك العملية إن القرآن لم يقل لنا هل أجرى سيدنا إبراهيم هذه العملية أم لا ؟ والحق يقول معلما إبراهيم بخطوات التجربة « ثم ادعهن يأتينك سعيا » ، وكان المفروض أن يقول يأتينك طيرانا

فكيف تسعى الطيور ؟ إن الطير يطير في السماء وفي الجو لكن الحق أراد بذلك ألا يدع أي مجال لاختلاط الأمر فقال : « سعيا » أي أن الطير سيأتي أمامه سائرا ، لقد نقل الحق الأمر من الطيران إلى السعي كي يتأكد منها سيدنا إبراهيم ، إذن فلكي تتأكد يا إبراهيم ويزداد اطمئنانك جئت بها من طيور مختلفة وأنت الذي قطعتها ، وأنت الذي جعلت على كل جبل جزءا . ثم أنت الذي دعوت الطير فجاءتك سعيا .

وهنا ملحظية في طلاقة القدرة ، وفي الفرق بين القدرة الواجبة لواجب الوجود ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، والقدرة الممنوحة من واجب الوجود وهو الله ـ سبحانه ـ للممكن واجب الوجود وهو الإنسان ، هذا له قدرة ، وذاك له قدرة ؛ إن قدرة الله هي قدرة واجبة ، وقدرة الإنسان هي قدرة ممكنة ، وقدرة الله لا ينزعها منه أحد ، وقدرة الإنسان ينزعها الله منه ؛ فالإنسان من البشر ، والبشر تتفاوت قدراتهم ، فحين

تكون لأحدهم قدرة فهناك آخر لا قدرة له ، أى عاجز . ويستطيع القادر من البشر أن يعدى أثر قدرته إلى العاجز ؛ فقد يحمل القادر كرسياً ليجلس عليه من لا يقدر على حمله . لكن قدرة الحق تختلف .

كأن الحق سبحانه وتعالى يقول : أنا أعدى من قدرتى إلى من لا يقدر ، فيقدر ، أنا أقول للضعيف : كن قادراً ، فيكون . وهذا ما نفهمه من قوله سبحانه لإبراهيم : « ثم ادعهن يأتينك سعيا » . إن إبراهيم كواحد من البشر عاجز عن كيفية الإحياء ، ولكن الحق يعطيه القدرة على أن ينادى الطير ، فيأتى الطير سعياً .

إن الحق يعطى القدرة لإبراهيم أن يدعو الطير فيأتى الطير سعيا . وهذا هو الفرق بين القدرة الواجبة ، وبين القدرة الممكنة . إن قدرة الممكن لا يعديها أحدٌ لخالٍ منها ، ولكن قدرة واجب الوجود تُعديها إلى من لا يقدر فيقدر ، ولذلك يأتى القول الحكيم بخصائص عيسى ابن مريم عليه السلام :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إن خصائص عيسى ابن مريم لا تكون إلا بإذن من الله ، فقدرة عيسى عليه السلام أن يصنع من الطين ما هو على هيئة الطير ، وإذ نفخ فيه بإذن الله لأصبح طيرا ، وكذلك إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، إن ذلك كله بإذن من ؟ بإذن من الله .

وكذلك كان الأمر فى تجربة سيدنا إبراهيم ، لذلك قال له الحق . « واعلم أن الله عزيز حكيم » إن الله عزيز أى لا يغلبه أحد . وهو حكيم أى يضع كل شىء فى موقعه .

وكذلك يبسط الحق قصة الحياة وقصة الموت في تجربة مادية ؛ ليطمئن قلب سيدنا إبراهيم ، وقد جاءت قصة الحياة والموت ؛ لأن الشك عند الذين عاصروا الدعوة المحمدية كان في مسألة البعث من الموت ، وكل كلامهم يؤدي إلى ذلك ، فهم تعجبوا من حدوث هذا الأمر

﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

وفي قول آخر

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة يس)

لقد أمر الحق سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم ليجيب على ذلك . قل يا محمد يحييها الذي أنشأها أول مرة ؛ فقد خلقها من عدم ولذلك يقول الحق سبحانه

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الروم)

إن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يبدأ الخلق على غير مثال ، ثم يعيده بعد الموت ، وإعادته أهون عليه من ابتدائه بالنظر إلى مقاييس اعتقاد من يظن أن إعادة الشيء أسهل من ابتدائه ؛ فالله له مطلق القدرة في حقه ، وهو الغالب في ملكه ، وهو الحكيم في فعله وتقديره .

إن الذي يعيد إنما يعيد من موجود ، أما الذي بدأ فمن معدوم فالأهون هو الإعادة ، أما الابتداء فهو ابتداء من معدوم ، وكلاهما من قدرة الحق سبحانه

وتعالى . إن هذه القضية إنما تثبت ليوم الآخر ، لأن الإيمان باليوم الآخر هو الميزان العقدى فإن استقر فى القلب فالإنسان بكل جوارحه يتجه إلى الأعمال التى تسير على ضوء منهج الله لينال الإنسان الجزاء الأوفى .

إن الإنسان حينما يفهم أن هناك حسابا وهناك جزاء ، وهناك بعثا ، فهو يعرف أنه لم ينطلق فى هذا العالم ، ولم يفلت من الإله الواحد القهار ، إن للإنسان عودة ، فالذى يغتر بما آتاه الله نقول له . لا ، إنك لن تفلت من يد الله ، بل لك عودة بالموت وعودة بالبعث . وإذا ما استقرت فى أذهان المسلمين تلك العودة ، فكل إنسان يقيم حسابه على هذه العودة .

وبعد أن استقر الأمر فى شأن الحياة والموت أراد الحق سبحانه وتعالى أن يجىء بشىء هو ثمرة الحياة فى الكائن الحى وأول مظهر من مظاهر الحياة هو الحس والحركة . والحركة فى الوجود أرادها الله للإنسان ، لأنه وهو الحق قد أراد الإنسان للخلافة فى الأرض والخلافة فى الأرض تقتضى أن يعمر الإنسان الأرض ، كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة هود)

إن خلافة الإنسان فى الأرض تقتضى أن يتحرك ويعمر الأرض . وحين يريد الله منا أن نتحرك ونعمر الأرض فلا بد من أعمال تنظم هذه الحركة ، ولا بد من فنون متعددة تقوم على المهارة . ويوزع الله الطاقات الفاعلة لهذه الفنون المتعددة ويجعلها مواهب مفكرة ومخططة فى البشر . إن الحق سبحانه لم يجعل من إنسان واحد مجمع مواهب ، بل نثر الله المواهب على الخلق ، وكل واحد أخذ موهبة ما .

لماذا ؟ لأن الله قد أراد أن يتكامل العالم ولا يتكرر ؛ فالتكامل يوحى بالاندماج ، فإذا كنت أنت تعرف شيئاً خاضعا لموهبتك ، وأنا لا أعرفه فأنا مضطر أن ألتحم بك ، وأنا أيضا قد أعرف شيئا وأنت لا تعرفه ، لذلك تضطر أنت أن تلتحم بى . وهذا اللون من الالتحام ليس التحام تفضل . إنما هو التحام تعايش ضرورى .

لكن لو أن كل واحد صار مجمع مواهب ، لاستغنى عن غيره من البشر وأقام وحده بمفرده ، وينتهي احتياجه للمجتمع الإنساني . فكأن الله حين وزع أسباب الفضل على الخلق يريد منهم أن يتكاملوا ويلتحم بعضهم ببعض لا التحام تفضل ، ولكن التحام تعايش ضروري ؛ لأن واحداً يريد ما ينتجه الآخر بموهبته ، والآخر يريد من إنسان غيره ما هو موهوب فيه . ولذلك فالناس بخير ما تباينوا ؛ لأن كلا منهم يحتاج إلى الآخر .

ولذلك لا نجد أي تقدم في مجتمع إلا إذا كانت المواهب في هذا المجتمع مختلفة ومتآزرة . أما حين يوجد قوم هم مواهب متحدة فلا بد أن يقاتل بعضهم بعضا لكن عندما يكون كل واحد في حاجة موهبة الآخر ، فهم يتعايشون ؛ لأن الحياة لا تسير إلا بالكل ، ولذلك إذا استوت جماعة في المواهب فلا بد أن يتعادوا لأنهم يتنافسون فيها ويريد كل واحد منهم أن يستأثر بها لنفسه ، لكن لا أحد في المواهب المتكاملة يقول : لماذا يكون فلان أفضل مني ، لأنه يعرف أنه من الضروري أن يوجد المهندس والطبيب والصانع ، ولذلك تجد الوجود منظماً بذاته التنظيم الطبيعي الذي يُوجد قاعدة ويُوجد قمة ، فالقمة الصغيرة تحملها القاعدة الكبيرة . ولو عكست الهرم لصارت مشكلة ؛ لأن الأمر في هذه الحالة سيُوجدُ به جوانب كثيرة ليس لها أساس ولا ترتكز على شيء ، ولذلك فمن الحكمة إذا رأيت في المجتمع واحداً قد ذهب في القمة فأعنه على أن يستمر متفوقاً ، ولا تصطرع معه فتسقطوا جميعاً . فلا بد من التفاضل كي ينشأ التكامل .

والحق سبحانه وتعالى يعرض لنا هذه القضية عرضاً اجتماعياً وعرضاً اقتصادياً ، ليبين لنا أن أصل الوجود يجب أن ينشأ عن أمر اجتماعي وأمر اقتصادي ، لماذا ؟ لأن الإنسان مشغول أولا باستبقاء حياته ، ثم باستبقاء نوعه . واستبقاء حياة الإنسان بالقوت ، واستبقاء نوعه بالزواج . واستبقاء الحياة بالقوت يحتاج إلى حركة في الحياة . والحق يحترم تحركك ، وعندما يريد الحق أن يرقق قلب المتحرك على أخيه العاجز فهو يقول :

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

كما ضربنا المثل من قبل ـ ولله المثل الأعلى ـ وقلنا : إن الإنسان يعطى أولاده مصروفا ، وكل واحد منهم يضعه في حصالته ، فهب أن واحداً من الأولاد اضطر إلى شيء عاجل كإجراء جراحة ، هنا يذهب الرجل إلى أولاده ويقول لهم : أقرضوني ما في حصالاتكم لأن أخاكم يحتاج إلى عملية ، وسأرده لكم بعد ذلك مضاعفا . إن الأب لم يرجع في هبته ليقول إن ما في الحصالات هو مالي وسآخذه . لا ، هو مالكم ، لكنه سيكون دينا على

كذلك يصنع الله مع الخلق فيوضح : بعضكم عاجز وبعضكم قادر ، وسأتكفل أنا بالعاجز ، وأقترض من القادر وكان ضروريا أن يكون بعضنا عاجزاً ، حتى لا يظن أحد أن القوة ذاتية في النفس البشرية . لا ، إن القوة موهوبة ، ويستطيع من وهبها أن يسلبها . وحتى يعرف صاحب القوة أن القوة ليست ذاتية فيه ، يجد بجانبه إنساناً آخر عاجزا . لكن هذا العاجز الذى سيلفت القوى إلى أن القوة ليست ذاتية ، ما ذنبه ؟

إن الله قد جعله وسيلة إيضاح في الكون وكأن الحق يقول : سنضمن لك أيها العاجز المستوى اللائق من الحياة من أثر قدرة القادر ، ومادام من أثر قدرة القادر ، فهل سيتحرك القادر في الكون على قدر «حاجته» أو على قدر «طاقته»؟ لابد أن يتحرك على قدر طاقته ؛ لأنه لو تحرك على قدر حاجته فلن يجد ما يعطيه للعاجز

ويتكلم الحق سبحانه وتعالى عن تلك القضية المهمة في البناء الاجتماعي والبناء الاقتصادي بعد إثبات قضية البعث والإحياء والإماتة لكي تكون مائلة أمامنا ، ويتنقل بنا الحق سبحانه وتعالى كي يعطينا الكيان الإسلامي الاقتصادي والاجتماعي فيقول جل شأنه :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ

﴿ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾

إن الله ينسب المال للبشر المتحركين ؛ لأنهم أخذوا هذه الأموال بحركتهم . وفي موضع آخر من القرآن يقول الحق :

﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة النور)

إن المال كله مال الله ، وقد أخذه الإنسان بالحركة ، فاحترم الله هذه الحركة ، واحترم الله في الإنسان قانون النفعية ، فجعل المال المتبقي من حركتك ملكا لك أيها الإنسان ، لكن إن أراد الله هذا المال فسيأخذه ، ومن فضل الله على الإنسان أنه سبحانه حين يطلب من الإنسان بعضا من المال المتبقي من حركته فهو يطلبه كقرض ، ويرده مضاعفا بعد ذلك .

إذن فالإنفاق في سبيل الله يرده الله مضاعفا ، ومادام الله يضاعفه فهو يزيد ؛ لذلك لا تحزن ولا تخف على مالك ؛ لأنك أعطته لمقتدر قادر واسع عليم . إنه الحق الذي يقدر على إعطاء كل واحد حسب ما يريد هو سبحانه ؛ إنه يعطي على قدر نية العبد وقدر إنفاقه . وهذه الآية تعالج قضية الشُح في النفس الإنسانية ؛ فقد يكون عند الإنسان شيء زائد ، وتشح به نفسه ويبخل ، فيخاف أن ينفق منه فينقص هذا الشيء .

وهنا تقول لك قضية الإيمان : أنفق لأنه سبحانه سيزيدك ، والحق سيعطيك مثلما يعطيك من الأرض التي تزرعها . أنت تضع الحبة الواحدة فهل تعطيك حبة واحدة ؟ لا . إن حبة القمح تعطي كمية من العيدان وكل عود فيه سنبلة وهي مشتملة على حبوب كثيرة ، فإذا كانت الأرض وهي مخلوقة لله تضاعف لك ما تعطيه أفلا يضاعف العطاء لك الذي خلقها ؟ وإذا كان بعض من خلق الله يضاعف لك ، فما بالك بالله جل وعلا ؟

إن الأرض لصفاء عناصرها تعطيك ، فإذا ما أخذت كيلة القمح من مخزنك

لتبذرها في الأرض أيقال - إنك أنقصت مخزنك بمقدار كيلة القمح ؟ لا ؛ لأنك ستزرع بها ، وأنت تنتظر كم سنابل من حبوب ، وهذه أرض صماء مخلوقة لله ، وإذا كان المخلوق لله قد استطاع أن يعطيك بالحبة سبعمائة ، ألا يعطيك الذي خلق هذه الأرض أضعاف ذلك ؟

إنه كثير العطاء . والحق قد نسب للمنفقين الأموال التي رزقهم الله بها فقال : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله » وكلمة « في سبيل الله » كلمة عامة ، يصح أن يكون معناها الجهاد ، أو مصارف الصدقات ؛ لأن كل هذا في سبيل الله ؛ لأن الضعيف حين يجد نفسه في مجتمع متكافل ، ويجد صاحب القوة قد عنّى من أثر قوته وحركته إليه ، أيحقد على ذي القوة ؟ لا ؛ لأن خيره يأتيه ، تضرب المثل في الريف تقول :

البهيمة التي تدر لبناً ساعة تسير في الحارة . فالكل كان يدعو الله لها ويقول : « بجميكي » لماذا ؟ لأن صاحبها يعطي كل من حوله من لبنها ومن جبنتها ومن سمنها ، لذلك يدعو لها الجميع ، ولا يربطها صاحبها ، ولا يحلبها ، ولا ينشغل عليها ، والخير القادم منها يذهب إلى كل الأهل ، وحين نجد مجتمعاً بهذا الشكل ويجد العاجز من القوى معيناً له ، هنا يقول العاجز : إنني في عالم متكامل

وإذا ما وُجد في إنسان قوة وفي آخر ضعف ، فالضعيف لا يحقد وإنما يقول . إن خير غيري يصلني . وكذلك يطمئن الواهب أنه إن عجز في يوم ما سيجد من يكمله - والقدرة أغيار - مادام الإنسان من الأغيار فقد يكون قويا اليوم ضعيفاً غداً .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم » هو قانون يريد به الله أن يحارب الشح في نفس المخلوقين ، إنه يقول لكل من : انظر النظرة الواعية ؛ فالأرض لا تنقص من مخزنك حين تعطيها كيلة من القمح ! صحيح أنك أنقصت كيلة من مخزنك لتزرعها ، ولكنك تتوقع أن تأخذ من الأرض أضعافها . وإياك أن تظن أن ما تعطيه الأرض يكون لك فيه ثقة ، وما يعطيه الله لا ثقة لك فيه .

« مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل

سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ، إن الآية تعالج الشح ، وتؤكد أن الصدقة لا تنقص ما عند الإنسان بل ستزيده . وبعد ذلك يقول تعالى :

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) ﴾

إنها لقطة أخرى يوضح فيها الحق : إياك حين تنفق مالك في سبيل الله وأنت جامع في عطاء الله أن تمن على من تعطيه أو تؤذيه . والمنّ هو أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ويريه أنه أوجب عليه حقا له وأنه أصبح صاحب فضل عليه ، وكما يقولون في الريف (تعيير بها) ، والشاعر يقول :

وإنّ امرأً أسدى إلىّ صنيعة ... وذكّرنيها مرّةً للئيم

ولذلك فمن الأدب الإيماني في الإنسان أن ينسى أنه أعطى وينسى أنه أنفق ، ولا يطلع أحداً من ذويه على إحسانه عن الفقير أو تصدقه عليه وخاصة الصغار الذين لا يفهمون منطق الله في الأشياء ، فعندما يعرف ابني أني أعطي لجاري كذا ، ربما دلّ ابني ومَنّ على ابن جاري ، وربما أخذه غروره فعيّره هو . ولا يمكن أن يقدر هذا الأمر إلا مُكَلَّفٌ يعرف الحكم بحيثيته من الله

إن الحق يوضح لنا . إياك أن تتبع الصدقة منّاً أو أذى ، لأنك إن أتبعتها بالمنّ ماذا يكون الموقف ؟ يكرهها المُعطَى الذي تصدقت بها عليه ويتولد عنده حقد ، ويتولد عنده بغض ، ولذلك حينما قالوا : « اتق شر من أحسنت إليه » شرحوا ذلك بأن اتقاء شر ذلك الإنسان بألا تذكره بالإحسان ، وإياك أن تذكره بالإحسان ، لأن ذلك يولد عنده حقداً

ولذلك تجد كثيرا من الناس يقولون : كم صنعت بفلان وفلان الجميل ، هذا كذا وهذا كذا ، ثم خرجوا عليّ فانكروه . وأقول لكل من يقول ذلك : مادمت تتذكر ما أسديته إليهم فمن العدالة من الله أن ينكروه ، ولو أنك عاملت الله لما أنكروه ، ومادمت لم تعامل الله ، فإنك تقابل بنكران ما أنفقت .

فكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يستحي بالآية الأولى قلب المنفق ليبسط يده بالنفقة ، لذلك قال : « ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

فالحق سبحانه وتعالى طمأننا في الآية الأولى على أن الصدقة والنفقة لا تنقص المال بل تزيده ، وضرب لنا الحق سبحانه المثل بالأرض التي تؤتينا بدل الحبة الواحدة سبعمائة حبة ، ثم يوضح الحق لنا أن آفة الإنفاق أن يكون مصحوباً بـ « المنّ » أو « الأذى » ؛ لأن ذلك يفسد قضية الاستطراق الصفائي في الضعفاء والعاجزين ، ولذلك يقول الحق سبحانه

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ٢٦٢ من سورة البقرة)

انظر إلى الدقة الأدائية في قوله الكريم . « ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًا ولا أذى » قد يستقيم الكلام لو جاء كالآتي . « الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ولا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى » ، لكن الحق سبحانه قد جاء بـ « ثم » هنا ؛ لأن هناك موقفاً إن المنفق بالمال قد لا يمن ساعة العطاء ، ولكن قد يتأخر المنفق بالمن ، فكأن الحق سبحانه وتعالى ينبه كل مؤمن :

يجب أن يظل الإنفاق غير مصحوب بمن وأن يبتعد المنفق عن المن ذاتيّاً ، فلا يمتنع عن المن فقط وقت العطاء ، ولكن لابد أن يستمر عدم المن حتى بعد العطاء وإن طال الزمن

إن « ثم » تأتى فى هذا المعنى لوجود مسافة زمنية يتراخى فيها الإنسان عن فعل المن . فالحق يمنع المن منعاً متصلاً متراخياً ، لا ساعة العطاء فحسب ، ولكن بعد العطاء أيضاً . وشوقى أمير الشعراء ـ رحمه الله ـ عندما كتب الشعر فى حمل الأثقال ، وضع أبياتاً من الشعر فى مجال حمل الأثقال النفسية ، فقال :

أحملت دَيْناً فى حياتك مرة ؟
أحملت يوما فى الضلوع غليلا ؟
أحملت مَنَّا فى النهار مُكَرَّرا ؟
والليل من مُسْدٍ إليك جميلا ؟

وبعد أن عدد شوقى أوجه الأحمال الثقيلة فى الحياة قال :

تلك الحياة وهذه أثقالها
وُزِنَ الحديدُ بها فعاد ضئيلا

كان المن إذن عبء نفسى كبير . ويطمئن الحق سبحانه من ينفقون أموالهم دون مَنٍّ ولا أذى فى سبيل الله بأن لهم أجرهم عند ربهم . وكلمة « الأجر » ـ والإيضاح من عند الرب ـ هى طمأنة إلى أن الأمر قد أحيل إلى موثوق بأدائه ، وإلى قادر على هذا الأداء . أما الذى يمن أو يؤذى فقد أحبط أجره بالمن أو الأذى ، وليس له أجر عند الله ؛ لأن الذى يمن أو يؤذى لم يتصور ربَّ الضعيف ، وإنما تصور الضعيف .

والمنفق فى سبيل الله حين يتصور رب الضعيف ، وأن رب الضعيف هو الذى استدعاه إلى الوجود ، وهو الذى أجرى عليه الضعف ، فهو يؤمن أن الله هو الكفيل برزق الضعيف ، وحين ينفق القوى على الضعيف فإنما يؤدى عن الله ، ولذلك نجد فى أقوال المقربين

« إننا نضع الصدقة فى يد الله قبل أن نضعها فى يد الضعيف » ولننظر إلى ما فعلته سيدتنا فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد راحت تجلو الدرهم وتطيبه ، فلما قيل لها : ماذا تصنعين ؟ قالت : أجلو درهماً وأطيبه لأنى نويت أن

أتصدق به ؟ فقل لها : أتصدقين به حلواً ومعطراً ؟

قالت الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأني أعلم أنه يقع في يد الله قبل أن يقع في يد الفقير . إن الأجر يكون عند من يغليه ويحليه ويرتفع بقيمته وهو الخالق الوهاب .

ونتأمل قوله الحق : « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » لماذا لم يقل الله : ولا خوف منهم ؟. لأن الحق يريد أن يوضح لنا بقوله : « ولا خوف عليهم » أن هناك عنصراً ثالثاً سيتدخل ، إنه تدخل من شخص قد يُظهر للإنسان المنفق أنه محبٌ له ، فيقول : ادخر للأيام القادمة ، ادخر لأولادك .

لمثل هذا العنصر يقول الحق : « ولا خوف عليهم » أي إياك يا صاحب مثل هذا الرأي أن تتدخل باسم الحب ، ولتوفر كلامك ؛ لأن المنفق في سبيل الله إنما يجد العطاء والحماية من الله ، فلا خوف على المنفق في سبيل الله ، وليس ذلك فقط ، إنما يقول الحق عن المنفقين في سبيل الله دون منٍّ ولا أذى : « ولا هم يحزنون » ومعناها أنه سوف يأتي في تصرفات الحق معهم ما يفرحهم بأنهم يصدقوا إلى سرعة الخلف عليهم ، أو برضى النفس ، أو برزق السلب ، فآفة الناس أنهم ينظرون إلى رزق الإيجاب دائماً ، أي أن يقيس البشر الرزق بما يدخل له من مال ، ولا يقيسون الأمر برزق السلب ، ورزق السلب هو عطاء البركة .

هب أن إنساناً راتبه خمسون جنيهاً ، وبعد ذلك يسلب الله منه مصارف تتطلب منه مائة جنيه ، كأن يدخل فيجد ولده متعباً وحرارته مرتفعة ، فيرزق الله قلب الرجل الاطمئنان ، ويطلب من الأم أن تعد كوباً من الشاي للابن ويعطيه قرصاً من الأسبرين ، وتذهب الوعكة وتنتهي المسألة .

ورجل آخر يدخل ويجد ولده متعباً وحرارته مرتفعة ، وتستمر الحرارة لأكثر من يوم ، فيقذف الله في نفسه الرعب ، وتأتي الخيالات والأوهام عن المرض في ذهن الرجل ، فيذهب بابنه إلى الطبيب فينفق خمسين أو مائة من الجنيهات .

الرجل الأول ، أبرأ الله ابنه بقرش . والثاني ، أبرأ الله ابنه بجنيهات كثيرة إن رزق الرجل الأول هو رزق السلب ، لكنما يرزق الله بالإيجاب ، فالله يرزق بالسلب أي يسلب المصرف ويدفع البلاء . وهناك رجل دخله مائة جنيه ، ويأتي له الله بمصارف تأخذ مائتين ، وهناك رجل دخله خمسون جنيها فيسلب الله عنه مصارف تزيد على مائة جنيه ، فأيهما الأحسن ؟

إنه الرجل الذي سلب الله عنه مصارف تزيد على طاقته . إذن فعلى الناس أن تنظر إلى رزق السلب كما تنظر إلى رزق الإيجاب . وقوله الحق عن المنفقين في سبيله دون مَنّ أو أذى . « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » هذا القول دليل على أن الله سيأتي بنتيجة النفقة بدون منّ أو أذى بما يفرح له قلب المؤمن ، إما بالبركة في الرزق وإمّا بسلب المصارف عنه ، فيقول القلب المؤمن : إنها بركة الصدقة التي أعطيتها .

إنه قد تصدق بشيء فرفع وصرف عنه الله شيئا ضارا ، فيفرح بذلك القلب المؤمن . وبعد ذلك ينبهنا الحق سبحانه وتعالى إلى قضية مهمة هي : إن لم تجد أيها المؤمن بمالك فأحسن مقالك ، فإن لم تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بحسن الرد ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

« اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة »[1]

والحق سبحانه وتعالى يحدد القضية في هذه الآية

﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ (٢٦٣)

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة .

ما معنى «قول معروف»؟ إن في العادة نجد أن المعروف مقابل للمنكر، كأن الأمر الخير أمر متعارف عليه بالسجية، وكأن المتعارف عليه ذاتي من جنس الجمال ومن جنس الخير، أما الأمر الذي تنكره النفس فمن جنس الشر وجنس القبح ولذلك يقول الحق: «قول معروف» فكأن من شأن الجمال ومن شأن الحسن أن يكون معروفا، ومن شأن النقيض أن يكون منكرا، إذن فالقول المعروف هو أن ترد السائل الرد الجميل بحيث لا تشعره نفسه بالخطيئة عليك، وبحيث لا توبخه لأنه سألك، وإن كان السائل قد ألحّ عليك فلتسامحه ولتغفر له ذلك. لماذا؟

لأن هناك إنسانا تلتهب ظهره سياط الحاجة ويراك أهلا لغنى أو يسر أو جدة وسعة من المال، وقد يزيد بالقول واللسان قليلا عليك، وقد يتجاوز أدب الحديث معك، فعليك أن تتحمله.

وإذا كنت أنت أيها العبد تصنع المعاصي التي تغضب الله، ويحلم الحق عليك، ويغفرها لك ولا يعذبك بها، فإذا ما صنع إنسان معك شيئا فكن أيضا صاحب قول معروف ومغفرة وحلم. إن الحق سبحانه يقول لك: «ألا تحبون أن يغفر الله لكم»؟

إننا جميعا نحب أن يغفر الله لنا، ولذلك يجب أن نغفر لغيرنا وخصوصا للمحتاج. والحق حين يقول: «والله غني حليم» معنى ذلك تنبيه للمقتدر الذي حرم الفقير، وكأنه يقول له: إنما حرمت نفسك أيها المقتدر من أجر الله. إنك أيها المقتدر حين تحرم فقيرا، فأنت المحروم، لأن الله غني عنك، وهو سبحانه يقول:

﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم (٣٨)﴾

(سورة محمد)

إن الله غني بقدرته المطلقة، غني وقادر أن يستبدل بالقوم البخلاء قوما يسخون بما أفاء الله عليهم من رزق في سبيل الله. فالذي يمسك عن العطاء إنما منع عن نفسه

بل رحمة . ولذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾

فالذى يتصدق ويتبع صدقته بالمن والأذى ، قد يُبطل صدقته ، وخسارته تكون خسارتين : الخسارة الأولى أنه أنقص ماله بالفعل ، لأن الله لن يعوض عليه لأنه أتبع الصدقة بما يبطلها من المنّ والأذى . والخسارة الأخرى هي الحرمان من الثواب ؛ فالذى ينفق ليقول الناس عنه إنه ينفق ؛ عليه أن يعرف أن الحق يوضح لنا : أنه يعطى الأجر على قاعدة أن الذى يدفع الأجر هو من عملت له العمل .

إن الإنسان على محدودية قدرته يعطى الأجر لمن عمل له عملا ، والذى يعمل من أجل أن يقول الناس إنه عمل ، فيأخذ أجره من القدرة المحدودة للبشر ، ولذلك قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الذى يفعل الحسنة أو الصدقة ليقال عنه إنه عمل ، فإنه يأتى يوم القيامة ولا يجد أجرا له . وقد جاء فى الحديث الشريف :

« ورجل آتاه الله من أنواع المال فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال ما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من شيء تحب أن أنفق فيه إلا أنفقت فيه لك ، قال : كذبت إنما

أردت أن يقال : فلان جواد فقد قيل ، فأمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار »[1]

وإياك إذن أن تقول : أنا أنفقت ولم يوسع الله رزقي ؛ لأن الله قد يبتليك ويمتحنك ، فلا تفعل الصدقة من أجل توسيع الرزق ، فعطاء الله للمؤمن ليس في الدنيا فقط ، ولكن الله قد يريد ألا يعطيك في الفانية وأبقى لك العطاء في الباقية وهي الآخرة . وهو خير وأبقى .

والحق يقول : « ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب » والصفوان هو الحجر الأملس ، ويُسمى المروة والذي نسميه بالعامية « الزلطة » . ويقال للأصلع « صفوان » ، أي رأسه أملس كالمروة . والشيء الأملس هو الذي لا مسام له يمكن أن تدركها العين المدركة ، إنما يدرك الإنسان هذه المسام بوضع الحجر تحت المجهر . وعندما يكون الشيء ناعما قد يأتي عليه تراب ، ثم يأتي المطر فيزيل عن التراب وينزلق التراب من على الشيء الأملس ، ولو كان بالحجر بعض من الخشونة ، لبقي شيء من التراب بين النتوءات ، فالذي ينفق ماله رئاء الناس ، كالصفوان يتراكم عليه التراب ، وينزل المطر على التراب فيزيله كله فيصير الأمر : « لا يقدرون على شيء مما كسبوا » أي فقدوا القدرة على امتلاك أي شيء ؛ لأن الله جعل ما لهم من عمل هباء منثورا

وهؤلاء كالحجر الصفوان الذي عليه تراب فنزل عليه وابل : أي مطر شديد فتركه صلدا : تلك هي صفات من قصدوا بالإنفاق رئاء الناس ، فيبطل الله جزاءهم ؛ لأن الله لا يوفقهم إلى الخير والثواب . ويأتي الله بالمقابل ، وهم الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله فيقول :

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ

---

(١) من حديث نبه قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين وقد خرجه مسلم

وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)

إن ابتغاء مرضاة الله في الإنفاق تعني خروج الرياء من دائرة الإنفاق، فيكون خالصاً لوجهه ـ سبحانه ـ وأما التثبيت من أنفسهم، فهو لأنفسهم أيضاً فكأن النفس الإيمانية تتصادم مع النفس الشهوانية، فعندما تطلب النفس الإيمانية في شيء فإن النفس الشهوانية تحاول أن تمنعها. وتتغلب النفس الإيمانية على النفس الشهوانية وتنتصر لله.

والمراد بـ «تثبيتاً من أنفسهم» هو أن يتثبت المؤمن على أن يحب نفسه حباً أعمق لا حباً أحمق. إذن فعملية الإنفاق يجب أن تكون أولاً إنفاقاً في سبيل الله، وتكون تثبيت النفس بأن وهب المؤمن أولاً دمه، وثبت نفسه ثانياً بأن وهب ماله، وهكذا يتأكد التثبيت فيكون كما تصوره الآية الكريمة

﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

(من الآية ٢٦٥ سورة البقرة)

والجنة كما عرفنا تُطلق في اللغة على المكان الذي يوجد به زرع كثيف أخضر لدرجة أنه يستر من يدخله. ومنها «جن» أي «ستر»، ومن يدخل هذه الجنة يكون مستوراً.

إن الحق يريد أن يضرب لنا المثل الذي يوضح الصنف الثاني من المنفقين في سبيل الله ابتغاء مرضاته وتثبيتاً من أنفسهم ضد النفس الشهوانية، فيكون الواحد منهم كمن دخل جنة كثيفة الزرع، وهذه الجنة توجد بربوة عالية، وعندما تكون

الجنة بربوة عالية فمعنى ذلك أنها محاطة بأمكنة وطيئة ومنخفضة عنها ، فماذا يفعل المطر بهذه الجنة التي توجد على ربوة ؟ وقد أخبرنا الحق بما يحدث لمثل هذه الجنة قبل أن يتقدم العلم الحديث ويكتشف آثار المياه الجوفية على الزراعة

فهذه الجنة التي بربوة لا تعاني مما تعاني منه الأرض المستوية ، ففي الأرض المستوية قد توجد المياه الجوفية التي تذهب إلى جذور النبات الشعرية وتصيبها بالعطن ، فلا تستطيع هذه الجذور أن تمتص الغذاء اللازم للنبات ، فيشحب النبات بالاصفرار أولا ثم يموت بعد ذلك ، إن الجنة التي بربوة تستقبل المياه التي تنزل عليها من المطر ، ويكون لها مصارف من جميع الجهات الوطيئة التي حولها ، وتروى هذه الجنة بأحدث ما توصل إليه العلم من وسائل الري ، إنها تأخذ المياه من أعلى ، أي من المطر ، فتنزل المياه على الأوراق فتؤدي وظيفة أولى وهي غسل الأوراق .

إن أوراق النبات - كما نعلم - مثل الرئة بالنسبة للإنسان مهمتها التنفس ، فإذا ما نزل عليها ماء المطر فهو يغسل هذه الأوراق مما يجعلها تؤدي دورها فيما نسميه نحن في العصر الحديث بالتمثيل الكلوروفيلي ، وبعد ذلك تنزل المياه إلى الجذور لتذيب العناصر اللازمة في التربة لغذاء النبات ، فتأخذ الجذور حاجتها من الغذاء المذاب في الماء ، وينزل الماء الزائد عن ذلك في المصارف المنخفضة . وهذه أحدث وسائل الزراعة الحديثة ، واكتشفوا أن المحصول يتضاعف به

إن الحق يضرب أن من ينفق ماله ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل هذه الجنة التي تروى بأسلوب رباني ، فإن نزل عليها وابل من المطر ، أخذت منه حاجتها وانصرف باقي المطر عنها . « فإن لم يصبها وابل فطل » والطل وهو المطر الخفيف يكفيها لتؤتي ضعفين من ناتجها . وإذا كان الضعف هو ما يساوي الشيء مرتين ، فالضعفان يساويان الشيء أربع مرات . والله يضرب لنا مثلا ليزيد به الإيضاح لحالة من ينفق ماله رئاء الناس فيسأل عباده المؤمنين وهو عليم بهم فيقول جل شأنه

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾

إن الحق سبحانه يشركنا في الصورة كأنه يريد أن يأخذ منا الشهادة الواضحة فهل يود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات. ونعلم أن النخيل والأعناب هما من أهم ثمار ونتاج المجتمع الذي نزل به القرآن الكريم. ونعرف أن هناك حدائق فيها نخيل وأعناب، ويضيف إليها صاحبها أشجاراً من الخوخ وأشجاراً من الفواكه الأخرى. ولذلك يقول الحق في أصحاب الجنة:

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

كان الجنتين هنا فيها أشياء كثيرة ، فيها أعناب ، وزادهما الله عطاء النخيل ، ثم الزرع ، وهذا يسمى في اللغة عطف العام على الخاص ، أو عطف الخاص على العام ، فيذكر الشيء مرتين ، مرة بخصوصه ، ومرة في عموم غيره . وعندما يتحدث الحق سبحانه عن جنة الآخرة فإنه يقول مرة :

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة التوبة)

لقد هيأ الله للمؤمنين به ، المقاتلين في سبيل نصرة دينه وإعلاء كلمته جنات تتخللها الأنهار ، وذلك هو الفوز والنجاح الكبير . ومرة أخرى يتحدث الحق عن جنة الآخرة بقوله :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

(سورة التوبة)

إن الحديث عن الأنهار التي تجري تحت الجنة يأتي مرة مسبوقا بـ « من » ، ومرة أخرى غير مسبوق بـ « من » . فعندما يأتي الحديث عن تلك الأنهار التي تجري تحت الجنة مسبوقا بـ « من » فإن ذلك يوحي أن منبعها ذاتي فيها ومائيه مملوكة لها .

وعندما يأتي الحديث عن تلك الأنهار التي تجري تحت الجنة غير مسبوق بـ « من » ، فمعنى ذلك أن منبع هذه الأنهار غير ذاتي فيها ، ولكنه يجري تحتها بإرادة الله ، فلا يجرؤ أحد أن يمنع الماء عن هذه الجنة التي أعدها الله للمؤمنين . وعندما يشركنا الحق في التساؤل :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الجنة التي بهذه الصفة وفيها الخير الكثير، لكن صاحبها يصيبه الكبر، ولم تعد في صحته فتوة الشباب، إنه محاط بالخير وهو أحوج ما يكون إلى ذلك الخير؛ لأنه أصبح في الكبر وليس به طاقة يعمل بها، وهكذا تكون نفسه معلقة بعطاء هذه الجنة، لا لنفسه فقط ولكن لذريته من الضعفاء. وهذه قمة التصوير للاحتياج للخير، لا للنفس فقط ولكن للأبناء الضعفاء أيضا.

إننا أمام رجل محاط بثلاثة ظروف: الظرف الأول: هو الجنة التي فيها من كل خير.

والظرف الثاني: هو الكبر والضعف والعجز عن العمل.

والظرف الثالث: هو الذرية من الضعفاء.

فيصيب هذه الجنة إعصار فيه نار فاحترقت. فأي حسرة يكون فيها الرجل؟ إنها حسرة شديدة. كذلك تكون حسرة من يفعل الخير رئاء الناس. والإعصار كما نعرف هو الريح الشديدة المصحوبة برعد وبرق ومطر وقد يكون فيه نار، هذا إذا كانت الشحنات الكهربائية ناتجة من تصادم السحب أو حاملة لقذائف نارية من بركان ثائر. هكذا يكون حال من ينفق ماله رئاء الناس: ابتداء مطمع وانتهاء مؤيس أي ميئوس منه.

إذن فكل إنسان مؤمن عليه أن يتذكر ساعة أن يفعل هذا الابتداء المثير للطمع، وذلك الانتهاء المليء باليأس. إنها الفجيعة الشديدة. ويصورها الشاعر بقوله:

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض
على الماء خانته فروج الأصابع

ويقول آخر:

كما أبرقت قوما عطاشا غمامة
فلما رأوها أقشعت وتجلت

إن الذي يرائي يخسر كل حاجاته ، ولا يقدر على شيء مما كسب . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾

إن هذه الآية تعطي صورا تحدث في المجتمع البشري . وكانت هذه الصور تحدث في مجتمع المدينة بعد أن أسس فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم دولة الإسلام . بعض من الناس كانوا يحضرون العذق من النخل ويعلقه في المسجد من أجل أن يأكل منه من يريد ، والعذق هو فرع فوقي من النخل يضم الكثير من الفروع الصغيرة المعلقة عليها ثمار البلح . وكان بعضهم يأتي بعذق غير ناضج أو بالحشف وهو أردأ التمر ، فأراد الله أن يجنبهم هذا الموقف ، حتى لا يجعلوا لله ما يكرهون ، فأنزل هذا القول الحكيم : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم » .

إن الإنفاق يجب أن يكون من الكسب الطيب الحلال ، فلا تأت بمال من مصدر غير حلال لتنفق منه على أوجه الخير ، فالله طيب لا يقبل إلا طيبا . ولا يكون الإنفاق من رُذال ورديء المال .

ويحدد الحق سبحانه وتعالى وسيلة الإنفاق من عطائه فيقول : « ومما أخرجنا لكم من الأرض » وهو سبحانه يذكرنا دائما حين يقول : « أنفقوا من طيبات ما كسبتم » ألا نظن الكسب هو الأصل في الرزق ، لا ، إن الكسب هو حركة موهوبة لك من الله . إنك أيها العبد إنما تتحرك بطاقة موهوبة لك من الله ، وبفكر ممنوح لك من

الله ، وفي أرض سخرها لك الله ، إنها الأدوات المتعددة التي خلقها الله وليس فيها ما تملكه أنت من ذاتيتك . ولكن الحق يحترم حركة الإنسان وسعيه إلى الرزق فيقول : «أنفقوا من طيبات ما كسبتم» .

ويحذرنا الحق من أن نختار الخبيث وغير الصالح من متاع عندنا لننفق منه بقوله سبحانه : «ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون» أي لا يصح ولا يليق أن تأخذ لنفسك طيبات الكسب وتعطي لله رديء الكسب وخبيثه ؛ لأن الواحد منا لا يرضى لنفسه أن يأخذ لطعامه أو لعياله هذا الخبيث غير الصالح لينفق منه أو ليأكله . «ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غني حميد» أي أنك أيها العبد المؤمن لا ترضى لنفسك أن تأكل من الخبيث إلا إذا أغمضت عينيك ، أو تم تنزيل سعره لك ؛ كأن يعرض عليك البائع شيئا متوسط الجودة أو شيئا رديئا بسعر يقل عن سعر الجيد .

لقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا بهذه الصور وجه الإنفاق :

- إن النفقة لا تنقص المال وإنما تزيده سبعمائة مرة .
- إن النفقة لا يصح أن يبطلها الإنسان بالمن والأذى .
- إن القول المعروف خير من الصدقة المتبوعة بالمن أو الأذى .
- إن الإنفاق لا يكون رئاء الناس إنما يكون ابتغاء مرضاة الله .

هذه الآيات الكريمة تعالج آفات الإنفاق سواء آفة الشح أو آفة المن أو الأذى ، أو الإنفاق من أجل التظاهر أمام الناس ، أو الإنفاق من رديء المال . وبعد ذلك يقول سبحانه :

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾

إن الشيطان قد يوسوس لكم بأن الإنفاق إفقار لكم ، ويحاول أن يصرفكم عن الإنفاق فى وجوه الخير ، ويغريكم بالمعاصى والفحشاء . فالحق حين يقبض يده عن المحتاج فإنه يُدْخل فى قلب المحتاج الحقد . وأى مجتمع يدخل فى قلبه الحقد نجد كل المنكرات تنتشر فيه . ويعالج الحق هذه المسائل بقوله :

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

إن الحق سبحانه وتعالى لا يسألك أن ترد عطاءه لك من المال ، إنما يطلب الحق تطهير المال بالإنفاق منه فى سبيل الله ليزيد ولينمو ، وليخرج الضغن من المجتمع ؛ لأن الضغن حين يدخل مجتمعا فعلى هذا المجتمع السلام . ولا يُفيق المجتمع من هذا الضغن إلا بأن تأتيه ضربة قوية تزلزله ، فينتبه إلى ضرورة إخراج الضغن منه . لذلك يحذرنا الله أن نسمع للشيطان :

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فالذى يسمعُ لقول الشيطان ووعده ، ولا يستمع إلى وعد الله يصبح كمن رجّح عدو الله على الله - أعاذنا الله وإياكم من مثل هذا الموقف - إن الشيطان قد وسوس لكم بالفقر إذا أنفقتم ، وخبرة الإنسان مع الشيطان تؤكد للإنسان أن الشيطان كاذب مضلل ، وخبرة الإنسان مع الإيمان بالله تؤكد للإنسان أن الله واسع المغفرة ، كثير العطاء لعبده . والحكمة تقتضى أن نعرف إلى أى الطرق نهتدى ونسير . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ

﴿ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾

والحكمة هي وضع الشيء في موضعه النافع. فكأن الحق يقول: كل ما أمرتكم به هو عين الحكمة؛ لأني أريد أن أؤمّن حياتكم الدنيا فيمن تتركون من الذرية الضعفاء، وأؤمّن لكم سعادة الآخرة. فإن صنع العبد المؤمن ما يأمر به الله فهذا وضع الأشياء في موضعها وهو أخذ بالحكمة.

وقد أراد الحق أن يعلم الإنسان من خلال عاطفته على أولاده، لأن الإنسان قد تمر عليه فترة يهون فيها عنده أمر نفسه، ولايشغل إلا بأمر أولاده، فقد يجوع من أجل أن يشبع الأولاد، وقد يعرى من أجل أن يكسوهم. ولنا المثل الواضح في سيدنا إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، لقد ابتلاه ربه في بداية حياته بالإحراق في النار، ولأن إبراهيم قوي الإيمان فقد جعل الله النار برداً وسلاماً.

وابتلاه الله في آخر حياته برؤيا ذبح ابنه، ولأن إبراهيم عظيم الإيمان فقد امتثل لأمر الرحمن الذي افتدى إسماعيل بكبش عظيم. والإنسان في العمر المتأخر يكون تعلقه بأبنائه أكبر من تعلقه بنفسه. وهكذا كان الترقي في ابتلاء الله لسيدنا إبراهيم عليه السلام، ولذلك أراد الله أن يضرب للبشر على هذا الوتر وقال:

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

إن الحق سبحانه يريد من عباده أن يؤمّنوا على أولادهم بالعمل الصالح وبالقول السديد.

ومثال آخر حين أراد الحق أن يحمي مال اليتامى، وأعلمنا بحدوث موسى عليه السلام مع العبد الصالح الذي أوتي العلم من الله، يقول سبحانه:

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة الكهف)

كان موسى عليه السلام لا يعلم علم العبد الصالح من أن الجدار كان تحته كنز ليتيمين، كان أبوهما رجلاً صالحاً، وأهل هذه القرية لئام، فقد رفضوا أن يطعموا العبد الصالح وموسى عليه السلام، لذلك كان من الضروري إقامة الجدار حتى لا ينكشف الكنز في قرية من اللئام ويستولوا عليه ولا يأخذ الغلامان كنز أبيهما الذي كان رجلاً صالحاً.

إذن فالحق سبحانه يعلمنا أن نؤمّن على أبنائنا بالعمل الصالح، وهذه هي الحكمة عينها التي لا يصل إليها إلا أصحاب العقول القادرة على الوصول إلى عمق التفكير السديد.

وسيدنا الحسن البصري يعطي المثل في العمل الصالح عندما يقول لمن يدخل عليه طالباً حاجة: مرحباً بمن جاء يحمل زادي إلى الآخرة بغير أجرة. إن سيدنا الحسن البصري قد أوتي من الحكمة ما يجعله لا ينظر إلى الخير بمقدار زمنه، ولكن بمقدار ما يعود عليه بعد الزمن.

وقد ضربت من قبل المثل بالتلميذ الذي يجدُّ ويتعب في دروسه ليحصل على النجاح، بينما أخوه يحب لنفسه الراحة والكسل. ثم نجد التلميذ الذي يتعب هو الذي يرقى في المجتمع، بينما الذي ارتضى لنفسه الكسل يصير صعلوكاً في المجتمع. وبعد ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ

﴿ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ ﴾

وقد عرفنا النفقة من قبل ، فما هي مسألة النذر ؟ إن النذر هو أن تُلزم نفسك شيء من جنس ما شرع الله فوق ما أوجب الله . فإذا نذرت أن تصلي لله كل ليلة عددا من الركعات فهذا نذر من جنس ما شرع الله ؛ لأن الله قد شرع الصلاة وفرضها خمسة فروض ، فإن نذرت فوق ما فرضه الله فهذا هو النذر . ويقال في الذي ينذر شيئا من جنس ما شرع الله فوق ما فرضه الله : إن هذا دليل على أن العبادة قد حلت له ، فأحبها وعشقها ، ودليل على أنه قارب أن يعرف قدر ربه ، وأن ربه يستحق منه فوق ما افترضه عليه ، فكأن الله في افتراضه كان رحيماً بنا ، لأنه لو فرض ما يستحقه منا لما استطاع واحد أن يفي بحق الله .

إذن فعندما تنذر أيها العبد المؤمن نذراً ، فإنك تُلزم نفسك بشيء من جنس ما شرع الله لك فوق ما فرض الله عليك . وأنت مخير أن تقبل على نذر ما ، أو لا تقبل . لكن إن نطقت بنذر فقد لزم . لماذا ؟ لأنك ألزمت نفسك به . ولذلك من العقل ألا يورط الإنسان نفسه ويسرف في النذر ، لأنه في ساعة الأداء قد لا يقدر عليه .

وأهل القرب من الله يقولون لمن يفي بالنذر بعد أن نذر : هل جربت ربك فلم تجده أهلاً لاستمرار الود . وليس بنا من يجرؤ على ذلك ؛ لأن الله أهل لعميق الود . ولهذا فمن الأفضل أن يتريث الإنسان قبل أن ينذر شيئا .

ونقف الآن عند تذييل الآية . « وما للظالمين من أنصار » . إن الظالمين هم من ظلموا أنفسهم ؛ لأن الحق عرفنا أن ظلم الإنسان إنما يكون لنفسه ، وقال لنا :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة يونس)

ومن أشد الظلم للنفس الإنفاق رياء ، أو الإنفاق في المعاصي ، أو عدم الوفاء

بالشر، فليس لمن يفعل ذلك أعوان يدفعون عنه عذاب الله في الآخرة. ويقول الحق من بعد ذلك:

﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾

فإن أظهرتم الصدقة فنعم ما تفعلون؛ لتكونوا قدوة لغيركم، ولتردوا الضغن عن المجتمع. وإن أخفيتم الصدقة وأعطيتموها الفقراء فإن الله يكفر عنكم بذلك من سيئاتكم، والله خبير بالنية وراء إعلان الصدقة ووراء إخفاء الصدقة. والمدقق في هذه الآية الكريمة يجد قضية إبداء الصدقة وقضية إخفاء الصدقة، فالحق خبير بنية من أبدى الصدقة. فإن كان غنيا فعليه أن يبدي الصدقة حتى يحمي عرضه من وقوع الناس فيه؛ لأن الناس حين يعلمون بالغنى فلا بد أن يعلموا بإنفاق الغني، وإلا فقد يحسب الناس على الغني عطاء الله له، ولا يحسبون له النفقة في سبيل الله. لماذا؟ لأن الله يريد أن يحمي أعراض الناس من الناس.

أما إن كان الإنسان غير ظاهر الغنى فمن المستحسن أن يخفي الصدقة. وإن أظهرت الصدقة كي تلفت ليتأسى الناس بك، وليس في ذهنك الرياء فهذا أيضا مطلوب. والحق يقول: «والله بما تعملون خبير»، أي أن الله مجازٍ على قدر نية العبد في الإبداء أو في الإخفاء.

إنه باستقراء الآيات التي تعرضت للإنفاق نجده سبحانه يسد أمام النفس البشرية كل منافذ الشح، ويقطع عنها كل سبيل تحدثها به إذا ما أرادت أن تبخل بما أعطاها الله، والخالق الذي وهب للمخلوق ما وهبه يطلب منه الإنفاق. وإذا نظرنا إلى الأمر في عرف المنطق وجدناه أمرا طبيعيا؛ لأن الله لا يسأل خلقه النفقة [illegible]

ولكنه يسألهم النفقة مما خلقه لهم .

إن الإنسان في هذا الكون حين يُطلب إيجاباً منه أن ينفق فلازم ذلك أن يكون عنده ما ينفقه ، ولا يمكن أن يكون عنده ما ينفقه إلا إذا كان مالكاً لشيء زاد عن حاجته وحاجة من يعوله ، وذلك لا يتأتى إلا بحصيلة العمل . إذن فأمر الله للمؤمن بالنفقة يقتضي أن يأمره أولاً بأن يعمل على قدر طاقته لا على قدر حاجته ، فلو عمل كل إنسان من القادرين على قدر حاجته ، فكيف توجد مقومات الحياة لمن لا يقدر على العمل ؟ . إذن فالحق يريد منا أن نعمل على قدر طاقتنا في العمل لنعول أنفسنا ولنعول من في ولايتنا ، فإذا ما زاد شيء على ذلك وهبناه لمن لا يقدر على العمل

ولقائل أن يقول : إذا كان الله قد أراد أن يحنن قلوب المنفقين على العاجزين فلماذا لم يجعل العاجزين قادرين على أن يعملوا هم أيضاً ؟

نقول لصاحب هذا القول : إن الحق حين يخلق ، يخلق كوناً متكاملاً مستجيباً دائماً له الأسباب ، وربما أطغاه أن الأسباب تخضع له ، فقد يظن أنه أصبح خالقاً لكل شيء ، فحين تستجيب له الأرض إن حرث وزرع ، وحين تستجيب الماء له إن أدلى دلوه ، وحين تستجيب له كل الأسباب ، ربما ظن نفسه أصيلاً في الكون فيشاء الله أن يحمي القوة التي تعمل في الأسباب لتنتج ، يشاء ـ سبحانه ـ أن يجعلها عرضاً من أعراض هذا الكون ، ولا يجعلها لازمة من لوازم الإنسان ، فمرة تجده قادراً ، ومرة تجده عاجزاً

فلو أنه كان بذاتيته قادراً لما وُجِدَ عاجزٌ . إذن فوجود العاجزين عن الحركة في الحياة لفت للناس على أنهم ليسوا أصلاء في هذا الكون ، وأن الذي وهبهم القدرة يستطيع أن يسلبهم إياها ليعيدها إلى سواهم ، فيصبح العاجز بالأمس قادراً اليوم ، ويصبح القادر بالأمس عاجزاً اليوم وبذلك يظل الإنسان منتبهاً إلى القوة الواهبة التي استخلفته في الأرض .

ولذلك كان الفارق بين المؤمن والكافر في حركة الحياة أنهما يجتمعان في شيء، ثم ينفرد المؤمن في شيء، يجتمعان في أن كل واحد من المؤمنين ومن الكافرين يعمل في أسباب الحياة ليتيح ما يقوته ويقوت من يعول، ذلك قدر مشترك بين المؤمن والكافر. والكافر يقتصر على هذا السبب في العمل فيعمل لنفسه ولمن يعول.

ولكن المؤمن يشترك معه في ذلك ويزيد أنه يعمل لشيء آخر هو: أن يفيض عنه شيء يمكن أن يتوجه به إلى غير القادر على العمل. محتسبا ذلك عند الله.

ولذلك قلنا سابقا: إن الحق سبحانه حينما تكلم عن الزكاة تكلم عنها مرة مطلوبة أداء، وتكلم عنها مرة أخرى مطلوبة غاية فقال: «والذين هم للزكاة فاعلون» ولم يقل للزكاة مؤدون، فالمؤمنون لا يعملون لقصد الزكاة إلا إن عملوا عملا على قدر طاقاتهم ليقوتهم ويقوت من يعولهم، ثم يفيض منهم شيء يؤدون عنه الزكاة.

والحق سبحانه وتعالى يقول في أمر الزكاة:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾

(سورة البقرة)

إذن فحصيلة الأمر أن الزكاة مطلوبة منهم حين يقدمون على أي عمل. ولقد صارت الزكاة بذلك الأمر الإلهي مطلوبة غاية، فهي أحد أركان الإسلام وبذلك يتميز المؤمن عن الكافر.

والحق سبحانه وتعالى حين يعرض لمنابع الشح في النفس البشرية أوضح: أن أول شيء تتعرض له النفس البشرية أن الإنسان يخاف من النفقة لأنها تنقص

ما عنده ، وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشح في قوله : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم »(١) هي كذلك ، ولكن الحق سبحانه أوضح لكل مؤمن : أنها تنقص ما عندك ، ولكنها تزيدك مما عند الله ؛ فهي إن انتقصت ثمرة فعلك فقد أكملتك بفعل الله لك . وحين تكملك بفعل الله لك ، يجب أن تقارن بين قوة مخلوقة عاجزة وقوة خالقة قادرة .

ويلفتنا سبحانه . أن ننظر جيداً إلى بعض خلقه وهي الأرض ، الأرض التي نضع فيها البذرة الواحدة - أي الحبة الواحدة - فإنها تُعطي سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، فلو نظر الإنسان أول الأمر إلى أن ما يضعه في الأرض حين يحرث ويزرع يقلل من مخازنه لما زرع ولما غرس ، ولكنه عندما نظر لما تعطيه الأرض من سبعمائة ضعف أقبل على البذر ، وأقبل على الحرث غير هياب ؛ لأنها ستعوضه أضعاف أضعاف ما أعطى .

وإذا كانت الأرض وهي مخلوقة لله تعطي هذا العطاء ، فكيف يكون عطاء خالق الأرض ؟

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾

(سورة البقرة)

إذن فقد سدّ الحق بهذا المثل على النفس البشرية منفذ الشح . وشيء آخر تتعرض له الآيات ، وهو أن الإنسان قد يُحرج في مجتمعه من سائل يسأله فهو في حرصه على ماله لا يحب أن ينفق ، وحرصه على مكانته في الناس لا يحب أن يمنع ، فهو يعطي

(١) رواه مسلم .

ولكن يتأفف ، وربما تعدى تأففه إلى غير الذى سأله وزجره ، فقال الحق سبحانه وتعالى ليسد ذلك الموقف :

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وقول الله : « قول معروف ومغفرة » يدل على أن المسئول قد أحفظه سؤال السائل وأغضبه الإحراج ، ويطلب الحق من مثل هذا الإنسان أن يغفر لمن يسأله هذه الزلة إن كان قد اعتبر سؤاله له ذنباً :

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وبعد ذلك يتعرض الحق سبحانه وتعالى إلى « المن » الذى يفسد العطاء ، لأنه يجعل الآخذ فى ذلة وانكسار ، ويريد المعطى أن يكون فى عزة العطاء وفى استعلاء المنفق ، فهو يقول : إنك إن فعلت ذلك ستتعدى الصدقة منك إلى الغير فيفيد ، ولكنك أنت الخاسر ؛ لأنك لن تفيد بذلك شيئاً ، وإن كان قد استفاد السائل . إذن فحرصاً على نفسك لا تتبع الصدقة بالمن ولا بالأذى

ثم يأتى الحق ليعالج منفذاً من منافذ الشح فى النفس البشرية هو : أن الإنسان قد يحب أن يعطى ، ولكنه حين تمتد يده إلى العطاء يعز عليه إنفاق الجيد من ماله الحسن ، فيستبقيه لنفسه ثم يعزل الأشياء التى تزهد فيها نفسه ليقدمها صدقة فيهانا - سبحانه - عن ذلك فيقول :

﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾

(من الآية ٢٦٧ سورة البقرة)

أى إن مثل هذا لو أعطى لك لم تأخذه إلا أن تغمض وتتسامح فى أخذه وكأنك

لا تبصر عيبه لتأخذه ، فإن لم تقبله لنفسك فلا يصح أن تقبله لسواك . ثم بعد أن تكلم القرآن عن منافذ الشح في النفس الإنسانية بين لنا أن الذي يفتح هذه المنافذ ويغذيها إنما هو الشيطان .

﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فإن سويتم بين عدة الشيطان ووعد الله لكم بالرضوان كان الخسران ولضياع مرجعوا إيمانكم ، وعليكم أن تجعلوا عدة الشيطان مدحورة أمام وعد الله لكم بالفضل والمغفرة .

ثم يتكلم بعد ذلك عن زمن الصدقة وعن حال إنفاقها ـ ظاهرة أو باطنة ـ وتكون النية عندئذ هي المرجحة لعمل على عمل ، فإذا كنت إنسانا غنيا فترحم عرضك من أن يتناوله الناس وتصدق صدقة علنية فيما هو واجب عليك لتحمي عرضك من مقولهم ، وإن أردت أن تتصدق تطوعا فلا مانع أن تُسر بها حتى لا تعلم شمالك ما أنفقت يمينك . فعن ابن عباس رضي الله عنهما : صدقات السر في التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفا ، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا .

وكأن الله فتح أمام النفس البشرية كل منافذ العطاء وسد منافذ الشح . انظروا بعد ذلك إلى الحق سبحانه حينما يحمي ضعاف المؤمنين ليجعلهم في حماية أقوياء المؤمنين . اعلم أيها العبد المؤمن أنك حين تتلقى حكم الله لا تتلقاه على أنه مطلوب منك دائما ، ولكن عليك أن تتلقى الحكم على أنه قد يصير بتصرفات الأغيار مطلوبا لك ، فإن كنت غنيا فلا تعتقد أن الغنى يطاولك دائما ، ولكن قدِّر أنك إن أصبحت بعرض الأغيار في الحياة فقيراً سيكون الحكم مطلوباً لك . فقدِّر ـ حال كونه مطلوبٌ منك الآن ؛ لأنك غني ـ أنه سيطلب لك إن حصلت لك أغيار ، فصرت بها فقيرا .

إذن فالتشريع لك وعليك ، فلا تعتبره عليك دائما لأنك إن اعتبرته عليك دائما

عزلت نفسك عن أطيار الحياة ، وأغير الحيلة قائمة لا يمكن أن يبرأ منها أحد أبدا .
لذلك أمر ـ سبحانه ـ المؤمن أن يكفل أخاه المؤمن .

انظروا إلى طموحات الإيمان في النفس الإنسانية ، حتى الذين لا يشتركون معك في الإيمان . إن طُلب منك أن تعطى الصدقة المفروضة الواجبة لأخيك المؤمن فقد طُلب منك أيضا أن تتطوع بالعطاء لمن ليس مؤمنا وتلك ميزة في الإسلام لا توجد أبدا في غيره من الأديان ، إنه يحمى حق غير المؤمن ولذلك يقول الحق :

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾

ما أصل هذه المسألة ؟

أصل هذه المسألة أن بعض السابقين إلى الإسلام كانت لهم قرابات لم تسلم ، وكان هؤلاء الأقرباء من الفقراء وكان المسلمون يحبون أن يعطوا هؤلاء الأقارب الفقراء شيئا من مالهم ، ولكنهم تحرجوا أن يفعلوا ذلك فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر .

وها هي ذي أسماء بنت أبي بكر الصديق وأمها « قُتَيْلة » كانت مازالت كافرة وتسأل أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تعطى من مالها شيئا لأمها حتى تعيش وتقتات . وينزل الحق سبحانه قوله : « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء » . وعن أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنها قالت : قدمتْ علىّ أمى وهى مشركة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتيتُ رسول الله صلى الله عليه

وسلم قلت : قدمتْ عليّ أمي وهي راغبة . أفأصل أمي ؟ قال . «نعم صلي أمّك»[1] . ولقد أراد بعض من المؤمنين أن يضيقوا على أقاربهم ممن لم يؤمنوا حتى يؤمنوا . لكن الرحمن الرحيم ينزل القول الكريم . «ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء» .

إنه الدين المتسامي . دين يريد أن يعول المخلوق في الأرض من عطاء الربوبية وإن كان لا يتسامى معنا في عطاء الألوهية ؛ لأن عطاء الألوهية تكليف ، وعطاء الربوبية رزق وتربية .

والرزق والتربية مطلوبان لكل من كان على الأرض ؛ لأننا نعلم أن أحداً في الوجود لم يستدع نفسه في الوجود ، وإنما استدعاه خالقه ، ومادام الخالق الأكرم هو الذي استدعى العبد مؤمناً أو كافراً ، فهو المتكفل برزقه . والرزق شيء ، ومنطقة الإيمان بالله شيء آخر ، فيقول الحق : «ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء» .

أو أن الآية حينما نزلت في الحث على النفقة ربما كان بعض الناس تكاسل ، وربما كان بعض المؤمنين يعمدون إلى الرديء من أموالهم فينفقونه .

وإذا كان الإسلام قد جاء ليواجه النفس البشرية بكل أغيارها وبكل خواطرها ، فليس بعجيب أن يعالجهم من ذلك ويردهم إلى الصواب إن خطرت لهم خاطرة تسيء إلى السلوك الإيماني .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب حين ينزل أي أمر أن يلتفت المسلمون إليه لفتة الإقبال بحرارة عليه ، فإذا رأى تهاوناً في شيء من ذلك حزن ، فيوضح له الله : عليك أن تبلغهم أمر الله في النفقة ، وما عليك بعد ذلك أن يطيعوا «ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء» .

---

(١) رواه البخاري ومسلم

ولقائل أن يقول : مادام الله هو الذى يهدى فيجب أن نترك الناس على ما هم عليه من إيمان أو كفر ، وما علينا إلا البلاغ ، ونقول لأصحاب هذا الرأى : تنبهوا إلى معطيات القرآن فيما يتعلق بقضية واحدة ، هذه القضية التى نحن بصددها هى الهداية ، ولنستقرىء الآيات جميعا ، سنجد أن الذين يرون أن الهداية من الله ، وأنه ما كان يصح له أن يعذب عاصياً ، هم وجهة نظر ، والذين يقولون : إن لله سبحانه أن يعذبهم ؛ لأنه ترك لهم الخيار لهم وجهة نظر ، فما وجهة النظر المختلفة حتى يصير الأمر على قدر سواء من الفهم ؟

إن الحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم فى قرآنه الكلام الموحى ، فهو يطلب منا أن نتدبره ، ومعنى أن نتدبره ألا ننظر إلى واجهة النص ولكن يجب أن ننظر إلى خلفية النص . « أفلا يتدبرون » يعنى لا ننظر إلى الوجه ، ولكن انظر ما يواجه الوجه وهو الخلف .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة النساء)

فالحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

كيف يكون الله قد هداهم ، ثم بعد ذلك يستحبون العمى على الهدى ؟ إذن معنى « هداهم » أى دلهم على الخير . وحين دلهم على الخير فقد ترك فيهم قوة الترجيح بين البدائل ، فلهم أن يختاروا هذا ، ولهم أن يختاروا هذا ، فلما هداهم الله ودلهم استحبوا العمى على الهدى . والله يقول لرسوله فى نصين آخرين فى القرآن الكريم :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة القصص)

فنفى عنه أنه يهدى . وأثبت له الحق الهداية فى آية أخرى يقول فيها .

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

فكيف يثبت الله فعلاً واحداً لفاعل واحد ثم ينفى الفعل ذاته عن الفاعل ذاته ؟ نقول لهم : رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه أن يدل الناس على منهج الله ولكن ليس عليه أن يحملهم على منهج الله ؛ لأن ذلك ليس من عمله هو ، فإذا قال الله : « إنك لا تهدى » أى لا تحمل بالقسر والقهر من أحببت ، وإنما أنت « تهدى » أى تدل فقط ، وعليك البلاغ وعلينا الحساب .

إذن فقول الحق : « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء » ليس فيه حجة عن القدرية الإيمانية التى يريد بعض المتحللين أن يدخلوا منها إلى مفهد التحلل النفسى عن منهج الله ويقول هؤلاء : فيه فرق بين هداية الدلالة وهداية المعونة ، فالله يهدى المؤمن ويهدى الكافر أى يدلهم ، ولكن من آمن به يهديه هداية المعونة ، ويهديه هداية التوفيق ، ويهديه هداية تخفيف أعمال الطاعة عليه .

« ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ، وما تنفقوا من خير فلأنفسكم » تلك قضية تعالج الشح منطقياً ، وكل معطٍ من الخلق عطاؤه عائد إليه هو ، ولا يوجد معطٍ عطاؤه لا يعود عليه إلا الله ، هو وحده الذى لا يعود عطاؤه لخلقه عليه ، لأنه ـ سبحانه ـ أزلا وقديما وقبل أن يخلق الخلق له كل صفات الكمال ، فعطاء الإنسان يعود إلى الإنسان وعطاء الرب يعود إليك .

ولذلك قال بعض السلف : الذين لهم لمحة إيمانية : ما فعلت لأحد خيراً قط ؟ فقيل له : أتقول ذلك وقد فعلت لفلان كذا ولفلان كذا ؟ فقال : إنما فعلته لنفسى . فكأنه نظر حينما فعل للغير أنه فعل لنفسه . ولقد قلت سابقا : إن العارف بالله « الحسن البصرى » كان إذا دخل عليه من يسأله هشّ فى وجهه وبشّ ، وقال له : مرحباً بمن جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة

إذن فقد نظر إلى أنه يعطيه وإن كان يأخذ منه. فالحق سبحانه وتعالى يعالج في هذه القضية «وما تنفقوا من خير فلأنفسكم» أي إياكم أن تظنوا أني أطلب منكم أن تعطوا غيركم، لقد طلبت منكم أن تنفقوا لأزيدكم أنا في النفقة والعطاء، ثم يقول: «وما تنفقوا من خير يوفّ إليكم» ومعنى التوفية: الأداء الكامل. ولا تظنوا أنكم تنفقون على من ينكر معروفكم؛ لأن ما أنفقتم من خير فالله به عليم. إذن فاجعل نفقتك عند من يجحد، ولا تجعل نفقتك عند من يجحد، لأنك بذلك قد أخذت جزاءك من جحده وليس لدى الله جزاء لك.

كنت أقول دائماً للذين يشكون من أناس نكران الجميل ونسيان المعروف: أنتم المستحقون لذلك؛ لأنكم جعلتموهم في بالكم ساعة أنفقتم عليهم، ولو جعلتم الله في بالكم ما حدث ذلك منهم أبداً. «وما تنفقوا من خير فلأنفسكم، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله» أهذه الآية تزكية لعمل المؤمنين، أم خبر أريد به الأمر؟

إنها الاثنان معاً، فهي تعني أنفقوا ابتغاء وجه الله. «وما تنفقوا من خير يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون»، أنتم لا تظلمون من الخلق، ولا تظلمون من الخالق، أما من الخلق فقد استرأتم دينكم وعرضكم حين أديتم بعض حقوق الله في أموالكم، فلن يعتدي أحد عليكم ليقول ما يقول، وأما عند الله فهو سبحانه يوفي الخير أضعاف أضعاف ما أنفقتم فيه.

وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن مصرف من مصارف النفقة كان في صدر الإسلام:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ

لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)

فساعة أن نسمع « جاراً ومجروراً » قد استهلت به آية كريمة فنعلم أن هناك متعلقاً . ما هو الذي للفقراء ؟ هو هنا النفقة، أي أن النفقة للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله . وإذا سألنا : ما معنى « أحصروا » فإننا نجد أن هناك « حصر » وهناك « أحصر » وكلاهما فيه منع ، إلا أن المنع مرة يأتي بما لا تقدر أنت على دفعه ، ومرة يأتي بما تقدر على دفعه

فالذي مرض مثلاً وحُصِر عن الضرب في الأرض ، أكانت له قدرة أن يفعل ذلك ؟ لا ، ولكن الذي أراد أن يضرب في الأرض فمنعه إنسان مثله فإنه يكون محصوراً ، إذن فيئول الأمر في الأمرين إلى المنع ، فقد يكون المنع من النفس ذاتها أو منعٌ من وجود فعل الغير ، فهم أحصروا في سبيل الله . حُصِرُوا لأن الكافرين يضيقون عليهم منافذ الحياة ، أو حصَرُوا أنفسهم على الجهاد ، وما قبلوا أن يشتغلوا بغيره ؛ لأن الإسلام كان لا يزال في حاجة إلى قوم يجاهدون . وهؤلاء هم أهل الصُّفَّة « للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض » وعدم استطاعتهم ناشئ من أمر خارج عن إرادتهم أو من أمر كان في نيتهم وهو أن يرابطوا في سبيل الله ، هذا من الجائز وذاك من الجائز

وكان الأنصار يأتون بالتمر ويتركونه في سباطه ، ويعلقونه في حبال مشدودة إلى سواري المسجد ، وكلما جاع واحد من أهل الصُّفَّة أخذ عصاه وضرب سباطة التمر ، فينزل بعض التمر فيأكل ، وكان البعض يأتي إلى الرديء من التمر والشيص ويضعه ، وهذا هو ما قال الله فيه : « ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » .

وإذا نظرنا إلى قول الحق : « لا يستطيعون ضرباً في الأرض » و« الضرب » هو

فعل من جارحة يشدة على متأثر بهذا الضرب ، وما هو الضرب فى الأرض ؟ إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أن الكفاح فى الحياة يجب أن يكون فى منتهى القوة ، وإنك حين تذهب فى الأرض فعليك أن تضربها حرثاً ، وتضربها بذراً ، لا تأخذ الأمر بهوادة ولين ولذلك يقول الحق :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الملك)

إن الأرض مسخرة من الحق سبحانه للإنسان ، يسعى فيها ، ويضرب فيها ويأكل من رزق الله الناتج منها .

وحين يقول الله سبحانه فى وصف الذين أحصروا فى سبيل الله فلا يستطيعون الضرب فى الأرض « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » أى يظنهم الجاهل بأحوالهم أنهم أغنياء ، وسبب هذا الظن هو تركهم للمسألة . وإذا كان التعفف هو ترك المسألة فالله يقول بعدها « تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا » والسمة هى العلامة المميزة التى تدل على حال صاحبها ، فكأنك ستجد فيهم خشوعاً وانكساراً ورثاثة هيئة وإن لم يسألوا أو يطلبوا ، ولكنك تعرفهم من حالتهم التى تستحق الإنفاق عليهم ، وإذا كان التعفف هو ترك المسألة فالله يقول بعدها : « لا يسألون الناس إلحافا » فكأنه أباح مجرد السؤال ولكنه نهى عن الإلحاح والإلحاف فيه ، ولو أنهم سألوا مجرد سؤال بلا إلحاف ولا إلحاح أما كان هذا دليلا على أنهم ليسوا أغنياء ؟ نعم ، لكنه قال : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » إذن فليس هناك سؤال ، لا سؤال على إطلاقه ، ومن باب أولى لا إلحاف فى السؤال ، بدليل أن الحق يقول « تعرفهم بسيماهم » ، ولو أنهم سألوا لكنا قد عرفناهم بسؤالهم ، إذن فالآية تدلنا على أن المنفى هو مطلق السؤال ، وأما كلمة « الإلحاف » فجاءت لمعنى من المعانى التى يقصد إليها أسلوب القرآن الإعجازى ، ما هو ؟

إن « السيما » ـ كما قلنا ـ هى العلامة المميزة التى تدل على حال صاحبها ، فكأنك ستجد خشوعاً وانكساراً ورثاثة هيئة وإن لم يسألوا ، أى أنت تعرفهم من حالتهم

البائسة ، فإذا ما سأل السائل بعد ذلك اعتبر سؤاله إلحاحاً ؛ لأن حاله تدل على الحاجة ، ومادامت حالته تدل على الحاجة فكان يجب أن يجد من يكفيه السؤال، فإذا ما سأل مجرد سؤال فكأنه ألحف في المسألة وألح عليها .

وأيضا يريد الحق من المؤمن أن تكون له فراسة نافذة في أخيه بحيث يتبين أحواله بالنظرة إليه ولا يدعه يسأل ، لأنك لو عرفت بـ « السيما » فأنت ذكي ، أنت فطن ، لكن لو لم تعرف بـ « السيما » وتنتظر إلى أن يقول لك ويسألك ، إذن فعندك تقصير في فطنة النظر ، فهو سبحانه وتعالى يريد من المؤمن أن يكون فطن النظر بحيث يستطيع أن يتفرس في وجه إخوانه المؤمنين ليرى من عليه همّ الحاجة ومن عنده خواطر العوز ، فإذا ما عرف ذلك يكون عنده فطانة إيمانية .

ولنا العبرة في تلك الواقعة ، فقد دق أحدهم الباب على أحد العارفين فخرج ثم دخل وخرج ومعه شيء ، فأعطاه الطارق ثم عاد باكياً فقالت له امرأته : ما يبكيك ؟ قال : إن فلاناً طرق بابي . قالت : وقد أعطيته فما الذي أبكاك ؟ قال : لأني تركته إلى أن يسألني .

إن العارف بالله بكى ؛ لأنه أحس بمسئولية ما كان يجب عليه أن يعرفه بفراسته ، وأن يتعرف على أسرار إخوانه . ولذلك شرع الله الاجتماعات الجمعة حتى يتفقد الإنسان كل أخ من إخوانه ، ما الذي أقعده ؟ أحاجة أم مرض ؟ أحدث أم مصيبة ؟ وحتى لا يحوجه إلى أن يذل ويسأل ، وحين يعمل ذلك يكون له فطنة الإيمان .

« وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » يجب أن نعلم أنه قبل أن تعطي قد علم الله أنك ستعطي ، فالأمر محسوب عنده بميزان ، ويجيء تصرف خلقه على وفق قدره ، وما قدره قديماً يلزم حالياً ، وهو سبحانه قد قدر ؛ لأنه علم أن عبده سيفعل وقد فعل . وكل فعل من الأفعال له زمن يحدث فيه ، وله هيئة يحدث عليها والزمن ليل أو نهار

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى مبينا حالات الإنفاق والأزمان التي يحدث فيها وذلك في قوله تعالى

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾

إن المسألة في الإنفاق تقتضي أمرين : إما أن تنفق سراً ، وإما أن تنفق علانية . والزمن هو الليل والنهار ، فحصر الله الزمان والحال في أمرين : الليل والنهار فإياك أن تحجز عطيّة تريد أن تعطيها وتقول : « بالنهار أفضل أو في الليل أفضل ؛ لأنه أفضل » وتتعلل بما يعطيك الفسحة في تأخير العطاء ، إن الحق يريد أن تتعدى النفقة منك إلى الفقير ليلاً أو نهاراً ، ومسألة الليلية والنهارية في الزمن ، ومسألة السرية والعلنية في الكيفية لا مدخل لها في إخلاص النية في العطاء .
« الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم » أقالت الآية : الذين ينفقون أموالهم بالليل أو النهار ؟ لا ، لقد طلب من كل منا أن يكون إنفاقه ليلاً ونهاراً وقال : « سرا وعلانية » فأنفق أنت ليلاً ، وأنفق أنت نهارا ، وأنفق أنت سراً ، وأنفق أنت علانية ، فلا تحدد الإنفاق لا بليل ولا بنهار ، لا بزمن ، ولا بكيفية ولا بحال .

إن الحق سبحانه استوعب زمن الإنفاق ليلاً ونهاراً ، واستوعب أيضاً الكيفية التي يكون عليها الإنفاق سراً وعلانية ليشيع الإنفاق في كل زمن بكل هيئة ، وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى عن هؤلاء : « فلهم أجرهم عند ربهم » وهذا القول يدل على عموم من يتأتى منه الإنفاق ليلاً أو نهاراً ، سراً أو علانية .

وإن كان بعض القوم قد قال : إنها قيلت في مناسبة خاصة ، وهي أن الإمام عليًّا كرم الله وجهه ورضي عنه كانت عنده أربعة دراهم ، فتصدق بواحد نهاراً ، وتصدق بواحد ليلا ، وتصدق بواحد سراً ، وتصدق بواحد علانية ، فنزلت الآية في هذا

الموقف ، إلا أن قول الله : « فلهم » يدل على عموم الموضوع لا على خصوص السبب ، فكأن الجزاء الذي رتبه سبحانه وتعالى على ذلك شائع على كل من يتأتى منه هذا العمل.

وقول الله « فلهم أجرهم عند ربهم » هنا نجد أن كلمة « أجر » تعطينا لمحة في موقف المؤمن من أداءات الإنفاق كلها ؛ لأن الأجر لا يكون إلا عن عمل فيه ثمن لشيء ، وفيه أجر لعمل . فالذي تستأجره لا يقدم لك شيئا إلا مجهودا . هذا المجهود قد ينشأ عنه مُثَمَّنٌ ، أيْ شيء له ثمن ، فقول الله : « فلهم أجرهم عند ربهم » يدل على أن المؤمن يجب أن ينظر إلى كل شيء جاء عن عمل فالله يطلب منه أن ينفق منه

إن الله لا يعطيه ثمن ما أنفق ، وإنما يعطيه الله أجر العمل ، لماذا؟ لأن المؤمن الذي يضرب في الأرض يخطط بفكره ، والفكر مخلوق لله ، وينفذ التخطيط الذي خططه بفكره بوساطة طاقاته وأجهزته ؛ وطاقاته وأجهزته مخلوقة لله ، ويتفاعل مع المادة التي يعمل فيها ، وكلها مخلوقة لله ، فأي شيء يملكه الإنسان في هذا كله ؟ لا الفكر الذي يخطط ، ولا الطاقة التي تنفعل ، ولا المادة التي تنفعل ؛ فكلها لله إذن فأنت فقط لك أجر عملك ؛ لأنك تُعمل فكرا مخلوقا لله ، بطاقة مخلوقة لله ، في مادة مخلوقة لله ، فإن نتج منها شيء أراد الله أن يأخذه منك لأخيك العاجز الفقير فإنه يعطيك أجر عملك لا ثمن عملك . لكن المساوي لك في الخلق وهو الإنسان إن أخذ منك حصيلة عملك فهو يعطيك ثمن ما أخذ منك ، فهي من المخلوق المساوي « ثمن » ، وهي من الخالق الأعلى أجر ؛ لأنك لا تملك شيئا في كل ذلك

وبعد ذلك يقول الحق : « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » والخوف هو الحذر من شيء يأتي ، فمن الخائف ؟ ومن المُخوف ؟ ومن المخوف عليه ؟ « ولا خوف عليهم » ممن ؟

يجوز أن يكون « ولا خوف عليهم » من أنفسهم ؛ فقد يخاف الطالب على نفسه من أن يرسب ، فالنفس واحدة خائفة ومخوف عليها ، إنها خائفة الآن ومخوف عليها بعد الآن . فالتلميذ عندما يخاف أن يرسب ، لا يقال . إن الخائف هو غير المخوف ،

لأن هذا في حالة، وهذا في حالة.

أو «لا خوف عليهم» من غيرهم، فمن الجائز أن يكون حول كثير من الأغنياء أناس حمقى حين يرون أيدي هؤلاء مبسوطة بالخير للناس فيغمزونهم ليمسكوا مخافة أن يفتقروا كأن يقولوا لهم: «استعدوا للزمن فوراءكم عيالكم». لكن أهل الخير لا يستمعون هؤلاء الحمقى.

إذن فهم «لا خوف عليهم» لا من أنفسهم، ولا من الحمقى حولهم. ويقول الحق: «ولا هم يحزنون» أي لا خوف عليهم الآن، ولا حزن عندهم حين يواجهون بحقائق الخير التي ادخرها الله سبحانه وتعالى لهم بل إنهم سيفرحون.

بعد ذلك يتعرض الحق سبحانه وتعالى إلى قضية من أخطر قضايا العصر، وهذه القضية كان ولابد أن يتعرض لها القرآن؛ لأنه يتكلم عن النفقة وعن الإنفاق. ولاشك أن ذلك يقتضي منفق ومنفَق عليه؛ لأنه عاجز. فهب أن الناس شحّوا، ولم ينفقوا، فماذا يكون موقف العاجز الذي لا يجد؟ إن موقفه لا يتعدى أمرين: إما أن يذهب فيقترض، وإن لم يقبل أحد أن يقرضه فهو يأخذ بالربا والزيادة وإلا فكيف يعيش؟

إذن فالآيات التي نحن بصددها تعرّضت للهيكل الاقتصادي في أمة إسلامية موجودة، أو أمة إسلامية بخيلة شحيحة، لماذا؟

لأن الذي خلق الخلق قد صنع حساباً دقيقاً لذلك الخلق، بحيث لو أحصيت ما يجب على الواجدين من زكاة، وأحصيت ما يحتاج إليه من لا يقدر لأن به عجز طبيعي عن العمل، لوجدت العاجزين يحتاجون لمثل ما يفيض عن القادرين بلا زيادة أو نقصان، وإلا كان هناك خطأ والعياذ بالله في حساب الخالق، ولا يمكن أن يأتي ذلك أبداً.

وحين ننظر إلى المجتمعات في تكوينها نجد أن إنساناً غنياً في مكان قد نبا به مكانه، ويختار أن يقيم في مكان آخر، فيعجب الناس لماذا ترك ذلك المكان وهو في

يسر ورخاء وغنى؟ ربما لو كان فقيراً لقلنا طلبا للسعة، فلماذا خرج من هذا المكان وهو واجد، وهو على هذا الحال من اليسر؟ إنهم لم يفطنوا إلى أن الله الذي خلق الخلق يُدير كونه بتسخير وتوجيه الخواطر التي تخطر في أذهان الناس، فتجد مكانه قد نبا به، وامتلأت نفسه بالقلق، واختار أن يذهب إلى مكان آخر.

ولو أن عندنا أجهزة إحصائية دقيقة وحسبنا المحتاجين في البيئة التي انتقل منها لوجدنا قدرا من المال زائدا عن حاجة الذين يعيشون في هذه البيئة، فوجهه الله إلى مكان آخر يحتاج إلى مثل هذا الكم منه. وهكذا نجد التكافل منظما. فإن رأيت إنسانا محتاجا أو إنسانا يريد أن يرابي فاعلم أن هناك تقصيراً في حق الله المعلوم، ولا أقول في الحق غير المعلوم. أي أن الغني بخل بما يجب عليه إنفاقه للمحتاج.

والقرآن حين يواجه هذه المسألة فهو يواجهها مواجهة تُبشّع العمل الربوي تبشيعا يجعل النفس الإنسانية المستقيمة التكوين تنفر منه فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَانتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾

وانظر إلى كلمة «يأكلون»، هل كل حاجات الحياة أكل؟ لا، فحاجات الحياة كثيرة، والأكل بعضها، ولكن الأكل أهم شيء فيها؛ لأنه وسيلة استبقاء النفس و«الربا» هو الأمر الزائد، ومادام هو الأمر الزائد بمعنى هو لا يحتاج أن يأكل، فهذا

تقريع له .

إن الحق يريد أن يبشع هذا الأمر فيقول . لهم سمة . هذه السمة قال العلماء أهي في الآخرة يتميزون بها في المحشر ، كما يقول الحق

﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الرحمن)

فهؤلاء غير المصلين لهم علامة مميزة ، وهؤلاء غير المزكين لهم علامة أخرى مميزة بحيث إذا رأيتهم عرفتهم بسيماهم ، وأنهم من أي صنف من أصناف العصاة ، فكأنهم حين يقومون يوم القيامة يقومون مصروعين كالذي يتخبطه ويصرعه الشيطان من المس فيصرعه ، أو أن ذلك أمر حاصل لهم في الدنيا ، ولنبحث هذا الأمر :

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » نريد أن نعرف كلمة « التخبط » وكلمة « الشيطان » وكلمة « المس » . « التخبط » هو الضرب على غير استواء وهدى ، أنت تقول : فلان يتخبط ، أي أن حركته غير رتيبة ، غير منطقية ، حركة ليس لها ضابط ، ذلك هو التخبط ، و« الشيطان » جنس من خلق الله ، لأن الله قال لنا : إنه خلق الإنس والجن ، والجن منهم شياطين ، وجن مطلق ، والشيطان هو عاصي الجن . ونحن لم نر الشيطان ، ولكنا علمنا به بوساطة إعلام الحق الذي آمنا به فقال : أن لي خلق مستتر ، ولذلك سميته الجن ، من الاستتار ومنه المجنون أي المستور عقله ، والعاصي من هذا الخلق اسمه « شيطان » .

إذن فإيماننا به لا عن حس ، ولكن عن إيمان بغيب أخبرنا به من آمنا به . وحين نجد شيئاً اسمه الإيمان يجب أن تعرف أنه متعلق بشيء غير محس ؛ لأن المحس لا يقال لك . آمن به ؛ لأنه مشهود لك ، فأنا لا أقول : أنا أؤمن بأن المصباح منير الآن ، أو لا أؤمن بأن ناسا يجتمعون في المسجد الآن ، لا أقول ذلك لأن هذا واقع مشهود ومحس . إذن فالأمر الإيماني يتعلق بالغيب ، مثل الإيمان بوجود الملائكة وإذا ما كنا قد آمنا بالغيب نجد الحق سبحانه وتعالى يعطي لنا صورة للشيطان ،

ولكنه حين يعطينا صورة للشيطان أو لرأس الشيطان المميزة له ، كما في رءوسنا نحن هي التي تميزنا يتكلم سبحانه عن شجرة الزقوم فيقول جل شأنه

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وشجرة الزقوم في الآخرة في النار ، إذن فنحن لا نراها ، ورءوس الشياطين لا نراها ، فكيف يشبه الله ما لم نره بما لم نره ، يشبه شيئا مجهولاً بشيء مجهول ؟ نقول نعم ، وذلك أمر مقصود للإعجاز القرآني ؛ لأن للشيطان صورة متخيلة بشعة ، بدليل أنك لو طلبت من رسامي العالم في فن الكاريكاتير ، وقلت لهم ارسموا لنا صورة الشيطان ، ولم تعطهم ملامح صورة محددة ، فكل منهم يرسم وفق تخيله كي يأتي غاية في القبح . فهذا يصوره بالقبح من ناحية ، وذاك يصوره بالقبح من ناحية أخرى بحيث لو جمعت الرسوم لما اتحد رسم مع رسم .

إذن فكل واحد يستبشع صورة برسمها . وساعة نعطي الجائزة لمن رسم صورة الشيطان أنعطي الجائزة لأجملهم صورة أم لأقبحهم صورة ؟ إنما نعطي الجائزة لصاحب أشد الصور قبحا . إذن فصورة الشيطان المتمثلة صورة بشعة قبيحة ، ولو جاء على صورة واحدة من القبح لاختلف الناس حول هذه الصورة فلعلها لا تكون قبحا عندك ولا يكون قبحا عند آخر ، ولكن حين يُطلق الله أخيلة الناس في تصور القبح ، يكون القبح ماثلا وواضحا في عقل كل إنسان فتكون الصورة أكمل وأوفى ، فالأكمل والأوفى أن يكون القبح شائعا فيها جميعا

ويقول الحق : « الذي يتخبطه الشيطان من المس » الشيطان قلنا إنه العاصي من الجن ، وقلنا : إن ربنا سبحانه وتعالى حكى لنا كثيرا أن الشياطين لهم التصاق واتصال بكثير من الإنس

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الجن)

« لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » فكأن الشيطان قد مس التكوين الإنسانى مما أفسد استقامة ملكاته ، فلتكوين الإنسان له استقامة ملكات مع بعضها البعض ، فكل حركة لها استقامة ، فإذا ما مسّه الشيطان فسد تآزر الملكات ، فملكاته النفسية تكون غير مستقيمة وغير منسجمة مع بعضها البعض ، فتكون حركته غير رتيبة وغير منطقية .

وما المناسبة بين هذه الصورة وبين عملية الربا ؟ . إن أردنا فى الآخرة ميزة ، فساعة ترى واحداً مصروعاً فاعرف أنه من أصحاب الربا ، هذا فى الآخرة ، وفى الدنيا تجد أيضاً أن له حركة غير منطقية ، هستيرية ، كيف ؟

انظر إلى العالم الآن ، لقد خلق الله العالم على هيئة من التكامل ، فهذا إنسان يتمتع بإمكانات ومواهب ، وذاك يتمتع بمواهب وإمكانات أخرى ، حتى يحتاج صاحب هذه الإمكانات إلى صاحب تلك الإمكانات فيكتمل الكون ، ولو أن كل إنسان كان وحدة متكررة لاستغنى الكل عن الكل ولو أن الأفراد متساوون فى المواهب لما احتاج الناس لبعضهم البعض . لكن المواهب تختلف ؛ لأنك إن أحذقت فنا من فنون الحياة فقد أجاد سواك فنونا أخرى أنت محتاج إليها ، فإن احتاجوا إليك فيما أجدت ، فقد احتجت إليهم فيما أجادوا ، وهكذا يتكامل العالم . وكذلك خلق الله الكون مناطق حارة ، ومناطق باردة ، ومناطق بها معادن ، ومناطق بها زراعة ؛ حتى يضطر العالم إلى أن يتكامل ، ويضطر العالم إلى أن يتعايش مع بعضه ، ولذلك يقول الحق فى سورة « الرحمن »


﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾

(سورة الرحمن)

« وضعها » لمن ؟ « والأرض » ، أى أرض ، وأى أنام ؟ . الأرض كل الأرض ، والأنام كل الأنام ، فإن تعددت الحواجز فسدت إن منع الإنسان من حرية الانتقال من مكان إلى مكان يفسد حركة الإنسان فى الكون ، فقد يرغب إنسان فى أن ينتقل إلى أرض بكر ليعمرها ، فيرفض أهل تلك الأرض ، فلو أن الأرض كل الأرض كانت للأنام كل الأنام بحيث إن ضاق العمل فى مكان ذهبت إلى مكان

آخر ، بدون قيود عليك ، تلك القيود التي نشأت من السلطات الزمنية التي تحتجز الأماكن لأنفسها ، فهذا ما يفسد الكون. فهناك بيئات تشتكي قلة القوت ، وبيئات تشتكي قلة الأيدي العاملة لأرض خراب وهي تصلح أن تزرع ، فلو أن الأرض كل الأرض للأنام كل الأنام لما حدث عجز .

ويلاحظ ما يُقال . ازدحام السكان أو الانفجار السكاني ، بينما توجد أماكن تتطلب خلقاً ! ويوجد خلق تتطلب أماكن ، فلماذا هذا الاختلال ؟ هذا الاختلال ناشيء من أن السلوك البشري غير منطقي في هذا الكون . والكون الذي نعيش فيه ، فيه ارتقاءات عقلية شتى ، وطموحات ابتكارية صعدت إلى الكواكب ، وتغزو الفضاء ، ووُجدت في كل بيت آلات الترفيه ، أما كان المنطق يقتضي أن يعيش العالم سعيداً مستريحاً ؟

كان المنطق يقتضي أن يعيش العالم مستريحاً هادئاً ، لأنه في كل يوم يبتكر أشياء تعطي له أكبر الثمرة بأقل مجهود في أقل زمن ، فماذا نريد بعد هذه ؟ ولكن هل العالم الذي نعيش فيه منطقي مع هذا الواقع ؟ لا ، بل نحن نجد أرقى بلاد العالم وأحسنها وفرة اقتصادية هي التي يعاني الناس فيها القلق ، وهي التي تمتلىء بالاضطراب ، وهي التي ينتشر فيها الشذوذ ، وهي التي تشكو من ارتفاع نسبة الجنون بين سكانها

إذن فالعالم ليس منطقيا. وهذا التخبط يؤكد ما يقوله الحق : « إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » إنها حركة هستيرية في الكون تدل على أنه كون غير مستريح ، كون غير منسجم مع طموحاته وابتكاراته .

أما كان على هذا الكون بعقلائه أن يبحثوا عن السبب في هذا ، وأن يعرفوا لماذا نشقى كل هذا الشقاء وعندنا هذه الطموحات الابتكارية ؟ كان يجب أن يبحثوا ، فالمصيبة عامة ، لا تعم الدول المتخلفة أو النامية فقط ، بل هي أيضاً في الدول المتقدمة ، كان يجب أن يعقد المفكرون المؤتمرات ليبحثوا هذه المسألة ، فإذا ما كانت المسألة عامة تعم كل البلاد متقدمها ومتأخرها وجب أن نبحث عن سبب مشترك ، ولا نبحث عن سبب قد يوجد عند قوم ولا يوجد عند قوم آخرين ، لأننا لو بحثنا لقلنا : يوجد في هذه البيئة. وكذلك هو موجود في كل البيئات ، فلابد أن يوجد

القدر المشترك .

فالأرزاق التي توجد في الكون تنقسم إلى قسمين : رزق أنتفع به مباشرة ، ورزق هو سبب لما أنتفع به مباشرة . أنا آكل رغيف الخبز ، هذا اسمه رزق مباشر ، وأشرب كوب الماء ، وهو رزق مباشر ، وأكتسي بالثوب وذلك أيضاً رزق مباشر ، وأسكن في البيت وهذا أيضاً رزق مباشر ، وأنير المصباح رزق مباشر . ولكن المال يأتي بالرزق المباشر ، ولا يغني عن الرزق المباشر . وإذا كان عندي جبل من ذهب وأنا جوعان ، ماذا أعمل به ؟ إذن فرغيف العيش أحسن منه ، هذا رزق مباشر ، فالنقود أو الذهب أشتري بها هذا وهذا ، لكن لا يغني عن هذا وهذا .

وقد جاء وقت أصبح الناس يرون فيه أن المال هو كل شيء حتى صار هدفاً وتعلق الناس به . . وفي الحق أن المال ليس غاية ، ولا يصح أن يكون غاية بل هو وسيلة فإن فقد وسيلته وأصبح غاية فلابد أن يفسد الكون ، فعلة فساد الكون كله في القدر المشترك الذي هو المال ، حيث أصبح المال غاية ، ولم يعد وسيلة .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يطهر حياة الاقتصاد للناس طهارة تضمن جعل ما يطعمون ، وما يشربون ، وما يكسون ، حتى تصدر أعمالهم عن عمليات إيمانية طاهرة مصفاة ؛ ذلك أن الشيء الذي يصدر عن عملية إيمانية طاهرة مصفاة لا يمكن أن ينشأ عنه إلا الخير .

ومن العجيب أن نجد القوم الذين صدروا لنا النظام الربوي يحاولون الآن جاهدين أن يتخلصوا منه ، لا لأنهم ينظرون إلى هذا التخلص على أنه طهارة دينية ، ولكن لأنهم يرون أن كل شرور الحياة ناشئة عن هذا الربا . وليست هذه الصيحة حديثة عهد بنا ، فقديماً أي من عام ألف وتسعمائة وخمسين قام رجل الاقتصاد العالمي « شاخت » في ألمانيا وقد رأى اختلال النظام فيها وفي العالم ، فوضع تقريره بأن الفساد كله ناشئ من النظام الربوي ، وأن هذا النظام يضمن للغني أن يزيد غنى ، ومادام هذا النظام قد ضمن للغني أن يزيد غنى ، فمن أين يزداد غنى ؟ لاشك أنه يزداد غنى من الفقير . إذن فستئول المسألة إلى أن المال سيصبح في يد أقلية في الكون تتحكم في مصائره كلها ولاسيما المصائر الخلقية . لماذا ؟ .

لأن الذين يحبون أن يستثمروا المال لا ينظرون إلا إلى النفعية المالية ، فهم يخيرون المشروعات التي تحقق لهم تلك النفعية . وهناك رجل اقتصاد آخر هو « كينز » الذى يتزعم فكرة « الاقتصاد الحر » فى العالم يقول قولته المشهورة : إن المال لا يؤدى وظيفته فى الحياة إلا إذا انخفضت الفائدة إلى درجة الصفر . ومعنى ذلك أنه لا ربا .

وإذا ما نظرنا إلى عملية عقد الربا فى ذاتها وجدناها عقداً باطلاً ؛ لأن كل عقد من العقود إنما يوجد لحماية الطرفين المتعاقدين ، وعقد الربا لا يحمى إلا الطرف الدائن فقط ، وهناك أمر خلقى آخر وهو أن الإنسان لا يعطى ربا إلا إذا كان عنده فائض زائد على حاجته .

ولا يأخذ إنسان من المرابى إلا إذا كان محتاجاً . فانظروا إلى النكسة الخلقية فى الكون . إن المعدم الفقير الذى لا يجد ما يسد جوعه وحاجته يضطر إلى الاستدانة ، وهذا الفقير المعدم هو الذى يتكفل بأن يعطى الأصل والزائد إلى الغنى غير المحتاج .

إنها نكسة خلقية توجد فى المجتمع ضغناً ، وتوجد فى المجتمع حقداً ، وتقضى على بقية المعروف وقيمته بين الناس ، وتنعدم المودة فى المجتمع . فإذا ما رأى إنسان فقيرٌ إنساناً غنياً عنده المال ، ويشترط الغنى على الفقير المعدم أن يعطيه ما يأخذه وأن يزيد عليه ، فعلى أية حال ستكون مشاعر وأحاسيس الفقير ؟ كان يكفى الغنى أن يعطى الفقير ، وأن يسترد الغنى بعد ذلك ما أخذه الفقير ، ولكن الغنى المرابى يطلب من الفقير أن يسدد ما أخذه ويزيد عليه . وكانوا يتململون ويقولون : إن النص القرآنى إنما يتكلم عن الربا فى الأضعاف المضاعفة ، فإذا ما منعنا القيد فى الأضعاف المضاعفة لا يكون حراما !!

أى أنهم يريدون تبرير إعطاء الفقير مالاً ، وأن يرده أضعافاً فقط لا أضعافاً مضاعفة ، حتى لا يصير ذلك الاسترداد بالزيادة حراماً . ولهؤلاء نقول : إن الذين يقولون ذلك يحاولون أن يتلصصوا على النص القرآنى ، وكأن الله قد ترك النص يتلصصو عليه ويسرقوا منه ما شاءوا دون أن يضع فى النص ما يحول دون هذا التلصص ، ولو فطنوا إلى أن الله يقول فى آخر الأمر .

﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٧٩ سورة البقرة)

هذا القول الحاسم يوضح أن الله لم يشرع ضعفاً ولا أضعافاً إذن فقوله حق:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١٣٠)

(سورة آل عمران)

إن هذا القول الحكيم لم يجيء إلا ليبين الواقع الذي كانوا يعيشونه ، ولم يشرع الله ضعفاً أو أضعافاً ، لأن الحق جعل التوبة تبدأ من أن يأخذ الإنسان رأس ماله فقط ، فلا يسمح الله لأحد أن يأخذ نصف الضعف أو الضعف أو الضعفين ، ولا يسمح بالأضعاف ولا بالمضاعفات.

وكانوا يعللون أن اتفاق الطرفين على أي أمر يعتبر تراضياً ويعتبر عقداً وقد يكون ذلك صحيحاً إن لم يكن هناك مشرع أعلى من كل الخلق يسيطر على هذا التراضي فهل كلما تراضى الطرفان على شيء يصير حلالاً ؟

لو كان الأمر كذلك لكان الزنا حلالاً لأنهما طرفان قد تراضيا وكل ذلك لا يتأتى - أي رضاء الطرفين - إلا في الأمور التي ليس فيها تشريع صدر عن المشرع الأعلى ، وهو الله الحق القيوم.

إن الله قد فرض أمراً يقضي على التراضي بيني وبينك ؛ لأنه هو المسيطر ، وهو الذي حكم في الأمر ، فلا نرضى بيننا بما يخالف ما شرع الله أو حكم فيه وإذا نظرنا نظرة أخرى فإننا نجد أن التراضي الذي يدعونه مردود عليه لأنه « تراض » باطل بالفحص الدقيق والبحث المنطقي لماذا ؟ لأننا نقول إن التراضي إنما ينشأ بين اثنين لا يتعدى أمر ما تراضيا عليه إلى غيرهما ، أما إذا كان الأمر قد تعدى من تراضيا عليه إلى غيرهما فالتراضي باطل.

فهب أن واحداً لا يملك شيئاً ، وواحداً آخر يملك ألفاً ، والذي يملك ألفاً هي ملكه ، ودار بها عملاً من الأعمال ، وحين يدير صاحب الألف عملاً فالمطلوب له أجر عمله ليعيش من هذا الأجر . أما الذي لا يملك شيئاً إذا ما أراد أن يعمل مثل عمل صاحب الألف ، فذهب إلى إنسان وأخذ منه ألفاً ليعمل عملاً كعمل صاحب الألف ، فيشترط من يعطيه هذه الألف من الأموال أن يزيده مائة حين السداد ، فيكون المطلوب من الذي اقترض هذه الألف أجر عمله كصاحب الألف الأول ومطلوب منه أيضاً أن يزيد على أجره تلك المائة المطلوبة من أقرضه بالربا .

فمن أين يأتي من اقترض ألفاً بهذه المائة الزائدة ؟ إن سلعته لو كانت تساوي سلعة الآخر فإنه يخسر . وإن كانت سلعته أقل من سلعة الآخر فإنها تكسد وتبور .

إنه فلابد له من الاحتيال المكشوف ، وهذا الاحتيال هو أن يغلي على سلعته وصفاً شكلياً يساوي به سلعة الآخر ، ويعمد إلى بعض الجواهر الفعالة في صنعة سلعته ، فيسحب منها ما يوازي المائة المطلوب سدادها للمرابي . فمن الذي سيدفع ذلك ؟ إنه المستهلك .

إذن فالمستهلك قد أضير بهذا التراضي ، فهو الذي سيدفع ، لأنه هو الذي يدفع أخيراً قيمة عرض الرجل المتاجر بالسلعة وقيمة الشبهة الربوية التي حدثت من المرابي . إذن فالعقد بين المقترض والمرابي - حتى في عرفهم - عقد باطل رغم أن الاثنين المقترض والمرابي - قد اعتبرا هذا العقد تراضياً .

إن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يشيع في الناس الرحمة والمودة ، وأن يشيع في الناس التعاطف ، إنه الحق - سبحانه - صاحب كل نعمة أراد أن يشيع في الناس أن يعرف كل صاحب نعمة في الدنيا أنه يجب عليه أن تكون نعمته متعدية إلى غيره ، فإن رأى محروماً علم أنه مستخلف منه ، فإذا كان مستخلفاً منها فإنه لن ينظر إليها بحقد ، ولا أن يغل لمنعه بحسد ، ولا يتمنى أن تزول لأن أمرها عائد إليه .

ولكن إذا كان السائد هو أن يريد صاحب النعمة في الدنيا أن يأخذ بالاستحواذ على كل عائد لنفسه ، ولا يراعي حق الله في مهمة النعمة ، ولا تتعدى هذه النعمة

إلى غيره ، فالمحروم عندما يرى ذلك يتمنى أن تزول النعمة عن صاحبها وينظر إليها بحسد ، ويشيع الحقد ومعه الضغينة ، ويجد الفساد فرصة كاملة للشيوع في المجتمع كله .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يسيطر على الاقتصاد عناصر ثلاثة :

العنصر الأول : الرفد والعطاء الخالص ، فيجد الفقير المعدم غنيا يعطيه ، لا بقانون الحق المعلوم المفروض في الزكاة ، ولكن بقانون الحق غير المعلوم في الصدقة ، هذا هو الرفد .

العنصر الثاني : يكون بحق مفروض وهو الزكاة .

العنصر الثالث : هو بحق مفروض وهو المداينة .

إذن فأمور ثلاثة هي التي تسيطر على الاقتصاد الإسلامي : إما تطوع بصدقة ، وإما أداء لمفروض من زكاة ، وإما مداينة بالقرض الحسن . وذلك هو ما يمكن أن ينشأ عليه النظام الاقتصادي في الإسلام . ولننظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى حين عرض هذه المسألة وشنّع فيها : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » .

لماذا ؟ لأن الحق قال فيهم : « ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا » فهل الكلام في البيع ، أو الكلام في الربا ؟ إن الكلام في الربا ، وكان المنطق يقتضي أن يقول : « الربا كالبيع » ، فما الذي جعلهم يعكسون الأمر ؟

إن النص القرآني هنا يوحي إلى التخبط حتى في القضية التي يريدون أن يحتجوا بها ، كأنهم قالوا : مادمت تريد أن تحرم الربا ، فالبيع مثل الربا ، وعليك تحريم البيع أيضا .

وكان القياس أن يقولوا : « إنما الربا مثل البيع » ، لكن الحق سبحانه أراد أن يوضح لنا تخبطهم فجاء على لسانهم : « إنما البيع مثل الربا » ، فإن كنتم قد حرمتم الربا فحرموا البيع ، وإن كنتم قد حللتم البيع فحللوا الربا . إنهم يريدون قياسا إما بالطرد ، وإما بالعكس .

فقال الله القول الفصل الحاسم .

﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى .. (٢٧٥) ﴾

(سورة البقرة)

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « لَعَنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله »(١) .

إنها موعظة من الله جاءت ، الموعظة إن كانت من غير مستفيد منها ، فالمنطق أن تُقبل ـ بضم التاء ـ أما الموعظة التى يُشك فيها ، فهى الموعظة التى تعود على الواعظ بشيء ما . فإذا كانت الموعظة قد جاءت مِمَّنْ لا يستفيد بهذه الموعظة ، فهذه حيثية قبولها « فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى » ، ولنر كلمة « ربه » حينما تأتى هنا فنفهم منها أن المقصود بها الحق سبحانه الذى تولى تربيتكم ، ومتولى التربية خلقاً بإيجاد ما يستبقى الحياة ، وبإيجاد ما يستبقى النوع ، ومحافظة على كل شيء بتسخير كل شيء لك أيها الإنسان ، فيجب أن تكون أيها الإنسان مهذباً أمام ربك فلا توقع نفسك فى اتهام الرب الخالق فى شبهة الاستفادة من تلك الموعظة ـ معاذ الله ـ .

لماذا ؟ لأن الخالق رب ، وما دام الخالق رباً فهو المتولى تربيتكم ، فإياك أيها الإنسان أن تتأبَّى على عظة المُربِّى . « فمَنْ جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف» ومعنى ذلك أن الأمر لن يكون بأثر رجعى فلا يؤاخذ بما مضى منه ، لأنه أخذ قبل نزول التحريم ، تلك هى الرحمة ، لماذا ؟

لأنه من الجائز أن يكون المرابى قد رتب حياته ترتيباً على ما كان يناله من ربا قبل التحريم ، فإذا كان الأمر كذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يعفو عما قد سلف . وعلى المرابى أن يبدأ حياته فى الوعاء الاقتصادى الجديد .

تلك هى عظمة التشريع الربانى « فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله » أى أن له

---

(١) رواه مسلم ورواه الترمذى فى رواية رغيره (وشاهديه وكاتبه) .

ما سبق وما مضى قبل تحريم الربا . وتفيد كلمة «وأمره إلى الله» أن الله سبحانه وتعالى حينما يعفو عما سلف فله طلاقة الحرية فى أن يقضى ما شاء ، فيجب أن تتعلق دائما باستدامة الفضل من الله . «وأمره إلى الله» إن مثل هذا الإنسان ربما قال سأنهار اقتصاديا ومركزى سيتزعزع ، وسأصبح كذا وكذا . لا . اجعل سندك فى الله ، ففى الله عوض عن كل فائت ، هو سبحانه لا يريد أن يزلزل مراكز الناس ، ولكن يريد أن يقول لهم . إنى إن سلبتكم نعمتى فاجعلوا أنفسكم فى حضانة المنعم بالنعمة .

ومادمت قد جعلت نفسك فى حضانة المنعم بالنعمة ، فإذن فالنعمة لا شيء ؛ لأن المنعم عوض عن هذه النعمة ، والربا من السبع الموبقات التى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم باجتنابها حيث قال : «اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله وما هى ؟ قال : الشرك بالله والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»[1] «وأمره إلى الله ومن عاد» أى عاد بعد الموعظة ماذا يكون أمره ؟ «فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» . وكان يكفى أن يقول عنهم . إنهم «أصحاب النار» فلعل واحداً يكون مؤمنا وبعد ذلك عاد إلى معصية ، فيأخذ حظه من النار .

إنما قوله : «هم فيها خالدون» يدل على أنه خرج عن دائرة الإيمان . وافهم السابق جيداً لتفهم التذييل اللاحق ؛ لأن هنا أمرين : هنا ربا حرمه الله ، وأناس يريدون أن يحللوا الربا عندما قالوا : «إنما البيع مثل الربا» ، فإن عدت إلى الربا حاكيا بحرمته فأنت مؤمن عاص تدخل النار

إنما إن عدت إلى ما سلف من المناقشة فى التحريم ، وقلت : البيع مثل الربا ، وناقشت فى حرمة الربا وأردت أن تحلله كالبيع فقد خرجت عن دين الإسلام . وحين تخرج عن دين الإسلام فلك الخلود فى النار

---

(١) رواه البخارى ومسلم

ومن هنا يجب أن نلفت الذين يعولون بالربا ، ونقول لهم قولوا : إن الربا حرام ، ولكننا لا نقدر على نفسنا حتى نبطله ونتركه ، وعليكم أن تجاهدوا أنفسكم على الخروج منه حتى لا تتعرضوا لحرب الله ورسوله . إنهم باعتقادهم أن الربا حرام يكونون عاصين فقط ، أما أن يحاولوا تبرير الربا ويحللوه فسيدخلون في دائرة أخرى شر من ذلك ، وهي دائرة الكفر والعياذ بالله .

وقد عرفنا أن آدم عليه السلام عصى ربه ، وأكل من الشجرة ، وإبليس عصى ربه ، فلما تلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، أما إبليس فقد طرده الله ، ولماذا طرد الله إبليس وأحل عليه اللعنة ؟

لأن آدم أقر بالذنب وقال : « ربنا ظلمنا أنفسنا » . لقد اعترف آدم : حكمك يارب حكم حق ، ولكني ظلمت نفسي . ولكن إبليس عارض في الأمر وقال : « أأسجد لمن خلقت طينا » . فكأنه رد الأمر على الآمر .

وبعد ذلك حين بين الله الحكم في الربا ، وبين أن من انتهى له ما سلف ، فماذا عن الذي يعود ؟ « ومن عاد » وهي المقابل « فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . يريد سبحانه أن يقول : إياكم أن يخدعكم الربا بلفظه ، فالألفاظ تخدع البشر ؛ لأنكم سميتموه « ربا » بالسطحية الناظرة ؛ لأن الربا هو الزيادة ، والزكاة تنقص ، فالمائة في الربا تكون مائة وعشرة مثلا حسب سعر الفائدة ، وفي الزكاة تصبح المائة (٩٧,٥) ، في الأموال وعروض التجارة ، وتختلف عن ذلك في الزروع وغيرها ، وفي ظاهر الأمر أن الربا زاد ، والزكاة أنقصت ، ولكن هذا النقصان وتلك الزيادة هي في اصطلاحاتكم وفي أعرافكم . والحق سبحانه وتعالى يمحق الزائد ، وينمي الناقص ؛ فهو سبحانه يقول :

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾

وكلمة « يمحق » من « محق » أي ضاع حالا بعد حال ، أي لم يضع فجأة ، ولكن تسلل في الضياع بدون شعور ، ومنه « المحاق » أي الذهاب لهلال . « ويمحق الله الربا » أي يجعله واهيا أمام صاحبه ثم يتسلل إليه الخراب من حيث لا يشعر .

ولعلنا إن دققنا النظر في البيئات المحيطة بنا وجدنا مصداق ذلك . فكم من أناس رابوا ، ورأيناهم ، وعرفناهم ، وبعد ذلك عرفنا كيف انتهت حياتهم . « يمحق الله الربا ويربي الصدقات » ويقول في آية أخرى

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الروم)

وإياكم أن تعتقدوا أنكم تخدعون الله بذلك ما هو المقابل ؟

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الروم)

و « المضعفون » هم الذين يجعلون الشيء أضعافاً مضاعفة وعندما يقول الحق « يمحق الله الربا » فلا تستهن بنسبة الفعل لله ، إن نسبة الفعل لفاعله يجب أن تأخذ كيفيته من ذات الفاعل ، فإذا قيل لك فلان الضعيف يضعفك ، أو فلان الملاكم يضعفك ، فلابد أن تقيس هذه الضعفة بفاعلها ، فإذا كان الله هو الذي قال « يمحق الله » ، أيوجد محق فوق هذا ؟ لا ، لا يمكن .

وأيضا حين يقول الله « يمحق الله الربا ويربي الصدقات » في القرآن الذي يُتلى وهو معجز ، ومحفوظ ومُتحدى بحفظه ، فهذه قضية مصوبة « يمحق الله الربا ويربي الصدقات » ؛ لأن الذي قالها هو الله في كتاب الله المحفوظ ، الذي يُتلى مُتعبَّداً به ، أي أن القضية على ألسنة الجماهير كلهم ، وفي قلوب المؤمنين كلها ، أيقول الله قضية يحفظها ذلك الحفظ ليأتي واقع الزمن ليكذبها ؟ لا ، لا يمكن . فالإنسان لا يحفظ إلا المستند الذي يؤيده !! أنا لا أحفظ إلا « الكمبيالة » التي تحميني ! فمادام هو حافظه وهو القائل :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝ ﴾

(سورة الحجر)

فمعنى ذلك أنه سبحانه سيطلق فيه قضايا ، وهذه القضايا هو الذى تعهد بحفظها ، ولا يتعهد بحفظها إلا لتكون حجة على صدقه فى قولها فالشيء الذى لا يكون فيه حُجة لا يحافظ عليه وهو سبحانه القائل

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣ ﴾

(سورة الصافات)

إن هذه قضية قرآنية تعهد الله بحفظها ، فلابد أن يأتى واقع الحياة ليؤيدها ، فإذا كان واقع الحياة لا يؤيدها ، ماذا يكون الموقف ؟ أنكذب القرآن ـ وحاشانا أن نكذب القرآن ـ الذى قاله الحق الذى لا إله سواه لِيُدبر كوناً من ورائه .

« يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » ولماذا قال الحق : « كفار » ولم يقل : « كافر » ، ولماذا قال « أثيم » وليس مجرد « آثم » ؟ لأنه يريد أن يرد الحكم على الله ومادام يريد أن يرد الحكم على الله ، فقد كفر كفرين اثنين : كفر لأنه لم يعترف بهذه ، وكفر لأنه ردّ الحكم على الله ، وهو « أثيم » ، ليس مجرد « آثم » ، وفى ذلك صيغة المبالغة لنستدل على أن القضية التى نحن بصددها قضية عمرانية اجتماعية كونية ، إن لم تكن كما أرادها الله سيتزلزل أركان المجتمع كله .

وبعد أن شرح لنا الحق مرارة المبالغة فى « كفار » وفى « أثيم » يأتى لنا بالمقابل حتى ندرك حلاوة هذا المقابل ، ومثال ذلك ما يقوله الشاعر :

فالوجه مثل الصبح مبيضّ	والشعر مثل الليل مسودّ
ضدان لما استجمعا حَسُنا	والضد يظهر حسنه الضدُّ

فكأن الله بعد أن تكلم عن الكفّار والأثيم يرجعنا حلاوة الإيمان فيقول

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾

وقد . إن كلمة « أجر » تقتضي أنه لا يوجد مخلوق يعمل متبرعاً ، إنما كل مستأجرون ، لماذا ؟ لأننا نشغل المخ المخلوق لله ، بالطاقة المخلوقة لله ، في المادة المخلوقة لله ، فماذا تملك أنت أيها الإنسان إلا عملك ، ومادمت لا تملك إلا عملك فلك أجر « لهم أجرهم عند ربهم » . وكلمة « عند ربهم » لها ملحظ ، فمثلما يكون لك الأجر عند المساوي لك قد يأكلك ، أما أجرك عند رب تولى هو تربيتك ، فلن يضيع أبداً .

ويتابع الحق : « ولا خوف عليهم » لا من أنفسهم على أنفسهم ، ولا من أحد غيرهم عليهم ، « ولا هم يحزنون » ؛ لأن أي شيء فاتهم من الخير سيجدونه محضراً أمامهم . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾

وحين يقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا » فنحن نعرف أن النداء بالإيمان حيثية كل تكليف بعده . وساعة ينادي الحق ويقول : « يا أيها الذين آمنوا » أي يا من آمنتم ب

إلهاً قادراً حكيماً ، عزيزاً محكم غالباً على أمري ، لا تضرني معصيتكم ، ولا تنفعني طاعتكم ، فإذا كنتم قد آمنتم بي وأنا إله قادر حكيم فاسمعوا مني ما أحكم لكم من الأحكام .

إذن فكل « يا أيها الذين آمنوا » في القرآن هي حيثية كل حكم يأتي بعدها ، وأنت تفعل ما يأمرك به الله ، وإن سألك أحد : وقال لك : لماذا فعلت هذا الأمر ؟ فقل له فعلته لأني مؤمن ، والذي أمرني به هو الذي آمنت بحكمته وقدرته . وأنت لا تدخل في متاهة علل الأحكام ، لأنك آمنت بأن الله إله حكيم قادر ، أنزل لك تلك التكاليف ، وإياك أن تدخل في متاهة علة الأحكام ، لماذا ؟ لأن هناك أشياء قد تغيب علتها عنك ، أكنت تؤجلها إلى أن تعرف العلة ؟.

أكنا نؤجل تحريم لحم الخنزير إلى أن يثبت معملياً بالتحليل أنه ضار ؟ لا ، إذا كان قد ثبت معملياً بالتحليل أنه ضار فنحن نزداد ثقة في كل حكم كلفنا الله به ، ولم نهتد إلى علته ، والحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله » ومن عجائب كلمة « اتقوا » أنها تأتي في أشياء تبدو أنها متناقضة ، إنما هي ملتقية « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله » ولم يقل هنا : اتقوا النار كما قال في آية أخرى : « اتقوا النار » إذن فكيف يقول : « اتقوا الله » ويقول : « اتقوا النار » ؟ لأن معنى « اتقوا » أي اجعلوا وقاية بينكم وبين ربكم .

كيف نجعل وقاية بيننا وبين ربنا مع أن المطلوب منا إيمانياً أن نلتحم بمنهج الله لنكون دائماً في معية الله ؟ نقول : إن الله سبحانه وتعالى له صفات جلال كالقهار ، والمنتقم ، والجبار ، وذي الطول وشديد العقاب ، فهو يطلب من عبده المؤمن أن يجعل بينه وبين صفات جلاله وقاية ، فالنار جند من جنود صفات الجلال ، وحين يقول سبحانه : « اتقوا الله » يعني : اجعلوا وقاية بينكم وبين صفات الجلال التي من جنودها النار . إذن فـ « اتقوا الله » مثل « اتقوا النار » أي اجعلوا وقاية بينكم وبين النار .

ويتابع الحق : « وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين » ، و« ذروا » أي اتركوا ، ودعوا ، وتناسوا ، واطلبوا الخير من الله فيما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين

حقاً بالله . كأن الله أراد أن يجعلها تصفية فاصلة ، يولد من بعدها المؤمن طاهرا نقيا

إنه أمر من الحق : دعوا الربا الذى لم تقبضوه ، لأن الذى قبضتموه أمره « فله ما سلف » والذى لم تقبضوه اتركوه : « اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين » فإن قلتم إن التعاقد قد صدر قبل التحريم ، والتعاقد قد أوجب لك الحق فى ذلك ، تذكر أنك لم تقبض هذا الحق ليصير فى يدك ، ولا تقل إن حياتى الاقتصادية مترتبة عليه ، فترتيب الحياة الاقتصادية لم ينشأ بالاتفاق على هذا الربا ، ولكنه ينشأ بقبضه وأنت لم تقبضه ويتابع الحق :

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾

فى هذه الآية قضية كونية يتغافل عنها كثير من الناس لقد جاء نظام ليحمى طائفة من ظلم طائفة ، ولم يأت هذا النظام إلا بعد أن وجدت طائفة المرابين الذين ظلموا طائفة الفقراء المستضعفين . وحَسْبُ هؤلاء المستضعفين الذين استغلوا من المرابين أن ينصفهم القرآن وأن يُنهى قضية الربا إنهاء بعطى الذين رابوا ما سلف لأنهم بنوا حياتهم على ذلك .

و « فأذنوا بحرب » كلمة (الألف والذال والنون) من « الأذن » ، وكل المادة مشتقة من «الأذن» و«الأذُن» هي الأصل الأول فى الإعلام ، لأن الإنسان ليس مفروضاً أنه قارىء أولا ، إنه لا يكون قارئاً إلا إذا سمع ، إذن فلا يمكن أن ينشأ إعلام إلا بالسماع . والحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن أدوات التعلم للإنسان قال

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

(سورة النحل)

ولذلك عندما جاء علم وظائف الأعضاء ليبحث ذلك وجدوها طبق الأصل كما قال الله عنها. فالوليد الصغير حين يولد إن جاء أصبع إنسان عند عينيه فلا يهتز له رمش؛ لأن عينه لم تؤد مهمتها بعد، ولكن إن تصرخ بجانب أذنه فإنه ينفعل.

وعرفنا أن أول أداة تؤدي مهمتها بالنسبة للإنسان الوليد هي أذنه، وهي أيضا الأداة التي تؤدي مهمتها بالنسبة للإنسان مستيقظاً كان أو نائماً. إن العين تغمض في النوم فلا ترى، لكن الأذن مستعدة طوال الوقت لأن تسمع؛ لأنها آلة الاستدعاء. إذن فمادة «الأذان» و«الأذن» كلها جاءت من مهمة السمع. وقال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾﴾

(سورة الانشقاق)

ما معنى أذنت؟. أنت حين تسمع من مساوٍ لك، فقد تنفذ وقد لا تنفذ، لكن حين تسمعه من إله قادر فلا مناص لك إلا أن تنفذ، فكأن الله يقول: إن الأرض تنشق حين تسمع أمري بالانشقاق. فبمجرد أن تسمع الأرض أمر الحق فإنها تفعل، وحق لها أن تفعل ذلك؛ إنها أذنت لأمر الله، أي خضعت؛ لأن القائل لها هو الله.

إذن كل المادة هنا جاءت من «الأذن». ولذلك فالله يقول لمن لا يفعل ما أمر به الله في الربا: «فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله». أما حرب الله فلا نقول فيها إلا قول الله.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

ولا يستطيع أحد أن يحتاط لها . وأما حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذه هي الأمر الظاهر . كأن الله سبحانه وتعالى يجرد على المرابين تجريدة هائلة من جنوده التي لا يعلمها إلا هو ، وحرب رسول الله جنودها هم المؤمنون برسوله ، وعليهم أن يكونوا حربا على كل ظاهرة من ظواهر الفساد في الكون ؛ ليطهروا حياتهم من دنس الربا.

وهكذا وضع الله نهاية لأسلوب التعامل ، حتى يتطهر المال من خلث الربا ، فإذا قال الحق : « فلكم رءوس أموالكم لا تَظلِمُون ولا تُظلَمُون » فمعنى هذا أنه سبحانه يبين لنا بهذا القول أنه لا حق للمرابين في ضعف ولا ضعفين ، ولا في أضعاف مضاعفة . وحينئذ « لا تَظلِمون » من رابيتم ، بأن تأخذوا منهم زائدا عن رأس المال.

ولكن ما موقع « ولا تُظلَمون » ، ومن الذي يظلمهم ؟ قد يظلمهم الضعيف الذي ظلِمَ لهم سابقا ، ويأخذ منهم بعض رأس المال بدعوى أنهم طالما استغلوه فأخذوا منه قدراً زائدا على رأس المال . إن المشرع يريد أن يمنع الظلم السابق فينهى ظلمه ، وأن ينصف المظلوم اللاحق فيعطيه حقه ، وهو سبحانه لا يريد أن يوجه ظلما ليستقل به من ظُلِم فيظلم الذي ظلمه أولا ، بل سبحانه يشاء بهذا الحكم أن ينهى هذا النوع من الظلم على إطلاقه ، وأن يجعل الجميع على قدر سواء في الانتفاع بمزايا الحكم.

وكثير من النظريات التي تأتي لتقلب نظاما في مجتمع ما تعمد إلى الطائفة التي ظلَمت ، فلا تكتفي بأن تكفها عن الظلم ، ولكن تمكن للمظلوم أن يظلم من ظلمه ، وذلك هو الإجحاف في المجتمع ، وهذا ما يجب أن يتنبه إليه الناس جيدا ؛ لأن الله الذي أنصفك أيها المظلوم من ظالمك ، فمنع ظلمه لك ، هنا يجب أن تحترم حكمه حينما قال : « فله ما سلف » وبهذا القول انتهت القضية.

ويستأنف سبحانه الأمر بعدالة جديدة تجمعك وتجمعه على قدم المساواة بدون ظلم منك أيها المظلوم سابقا بحجة أنه طالما ظلمك . والمجتمعات حين تسير على هذا النظام « لا تَظلِمون ولا تُظلَمون » إنما تسير على نمط معتدل لا على ظلم موجه

فنحن نعيب على قوم أنهم ظلموا ، ثم نأتي بقوم لنجعلهم يَظْلِمون ، لا . إن الجميع على قدم المساواة من الآن .

وفساد أي نظام في المجتمع يأتي من توجيه الظلم من فئة جديدة إلى فئة قديمة ، فبذلك يظل الظلم قائما ، طائفة ظَلَمَت ، وتأتي طائفة كانت مظلومة تظلم الطائفة الظالمة سابقا ، نقول لهم : ذلك ظلم موجه ، ونحن نريد أن تنتظم العدالة وتشمل كل أفراد المجتمع بأن يأخذ كل إنسان حقه ، فالذي ظَلَمَ سابقا منعناه عن ظلمه ، والمغلوب سابقا أنصفناه ، وبذلك يصير الكل على قدم المساواة ؛ ليسير المجتمع مسيرة عادلة تحكمه قضية إيمانية . إننا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه .

وبعد ذلك يجيء القرآن ليفتح بابا جديدا من الأمل أمام المطلوبين ، وليضع حدا للذين كانوا ظالمين أولا ، وحكم لهم برأس المال ومنعهم من الزائد على رأس المال ، فحنن قلوبهم على هؤلاء . أي ليست ضربة لازب أن تأخذوا رأس المال الآن ، ولكن عليكم أن تنظروا وتمهلوا المدين إن كان معسراً ، وإن تساميتم في النضج الإيماني اليقيني وارتضيتم الله بديلا لكم عن كل عوض يفوتكم ، فعليكم أن تتجاوزوا وتتنازلوا حتى عن رءوس أموالكم التي حكم الله لكم بها بتترفعوا بها وتهبوها لمن لا يقدر . فيأتي قول الحق :

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ ﴾

« وإن كان ذو عسرة » حكم بأن للدائن رأس المال ، ولكن هب أن المدين ذو عسرة ، هنا قضية يثيرها بعض المستشرقين الذين يدعون أنهم درسوا العربية ، لقد درسوها صناعة ، ولكنها عزت عليهم ملكة ؛ لأن اللغة ليست صناعة فقط ، اللغة

طبع ، اللغة ملكة ، اللغة وجدان ، يقولون : إن القرآن يعوته بعض التقعيدات التى تقعدها لغته . فمثلا جاءوا بهذه الآية : « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ، وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون » .

قال بعض المستشرقين . نريد أن نبحث مع علماء القرآن عن خبر « كان » فى قوله . « وإن كان ذو عسرة » ، صحيح لا نجد خبر « كان » ، ولكن الملكة العربية ليست عنده ؛ لأنه إذا كان قد درس العربية كان يجب أن يعرف أن « كان » تحتاج إلى اسم وإلى خبر ، اسم مرفوع وخبر منصوب وهذه هى التى يقال عنها كان الناقصة ، كان يجب أن يفهم أيضا معها أنها قد تأتى تامة أى ليس لها خبر . وتكتفى بالمرفوع ، وهذه تحتاج إلى شرح بسيط

إن كل فعل من الأفعال يدل على حدث وزمن ، وكلمة « كان » إن سمعتها دلت على وجود وحدث مطلق لم تبين فيه الحالة التى عليها اسمها ، كان مجتهدا ؟ كان كسولا ؟ مثلا فهى تدل على وجود شىء مطلق أى ليس له حالة ، ومعنى ذلك أن (كان) دلت على الزمن الوجودى المطلق أى على المعنى المجرد الناقص ، والشىء المطلق لا يظهر المراد منه إلا إذا قيد . فإن أردت أن تدل على وجود مقيد ليتضح المعنى ، ويظهر ، فلابد أن تأتيها بخبر ، كأن تقول كان زيد مجتهدا ، هنا وجد شىء خاص وهو اجتهاد زيد . إذن فـ (كان) هنا ناقصة تريد الخبر يكملها ويعطيها الوجود الخاص ، فإذا لم يكن الأمر كذلك وأردنا الوجود فقط تكون (كان) تامة أى تكتفى بمرفوعها فقط مثل أن تقول عاد الغائب فكان الفرح أى وجد ، أو أشرقت الشمس فكان النور ، والشاعر يقول :

وكانت وليس الصبح فيها بأبيض
وأضحت وليس الليل فيها بأسود

فقوله « وإن كان ذو عسرة » أى إن وجد ذو عسرة أى إن وُجد إنسان ليس عنده مقدرة على السداد ، « فنظرة » من الدائن « إلى ميسرة » أى إلى أن يتيسر ، ويكون رأس المال فى هذه الحالة « قرضا حسنا » ، وكل صبر عليه بخطه أعطاه الله عليها ثوابا

ولنا أن نعرف أن ثواب القرض الحسن أكثر من ثواب الصدقة ؛ لأن الصدقة حين تعطيها فقد قطعت أمل نفسك منها ، ولا تشتغل بها ، وتأخذ ثوابا على ذلك دفعة واحدة ، لكن القرض حين تعطيه فقلبك يكون متعلقا به ، فكلما يكون التعلق به شديدا ، ويغضب عليك حب المال وتصبر فأنت تأخذ ثوابا . لذلك يجب أن تلحظ أن القرض حين يكون قرضا حسنا والمقترض معذور بحق ؛ لأن فيه فرقاً بين معذور بحق ، ومعذور بباطل ، فالمعذور بحق هو الذي يحاول جاهدا أن يسدد دينه ، ولكن الظروف تقف أمامه وتحول دون ذلك ، أما المعذور بباطل فيجد عنده ما يسد دينه ولكنه يماطل في السداد ويبقى المال ينتفع به وهو يبدأ ظالم

ولذلك جرب نفسك ، ستجد أن كل دين يشتغل به قلبك فاعلم أن صاحبه قادر على السداد ولم يسدد ، وكل دين كان برداً وسلاماً على قلبك فاعلم أن صاحبه معذور بحق ولا يقدر أن يسدد ، وربما استحييت أنت أن تمر عليه مخافة أن تحرجه بمجرد رؤيتك . وهؤلاء لا يطول بهم الدَّيْنُ طويلا ؛ لأن الرسول حكم في هذه القضية حكما ، فقال صلى الله عليه وسلم : « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »[1] .

فمادام ساعة أخذها في نيته أن يؤدي فإن الله ييسر له سبيل الأداء ، ومن أخذها يريد إتلافها ، فالله لا ييسر له أن يسدد ؛ لأنه لا يقدر على ترك المال يسدد به دينه ، وهذه حادثة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم تفسر لنا هذا الحديث ، فقد مات رجل عليه دين ، فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مدين ؛ قال لأصحابه : صلوا على أخيكم .

إذن فهو لم يصل ، ولكنه طلب من أصحابه أن يصلوا ، لماذا لم يصل ؟ لأنه قال قضية سابقة . « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه » ، مادام قد مات ولم يؤد إذن فقد كان في نيته أن يماطل ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يمنع أصحابه من الصلاة عليه

---

(١) رواه البخاري وأحمد عن أبي هريرة

والرسول صلى الله عليه وسلم يأتي للمعسر ويعامله معاملة الأريحية الإيمانية ، فيقول:

« مَنْ أَنْظَر معسراً أَوْ وَضَعَ عنه أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله »[1].

ومعنى « أنظر » أي أمهله وأخر أخذ الدين منه فلا يلاحقه ، فلا يحبسه في دَيْنه ، فلا يطارده ، وإن تسامى في اليقين الإيماني ، يقول له : « اذهب ، الله يعوض عليّ وعليك » وتنتهي المسألة . ولذلك يقول الحق « وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون » والثمرة هي حسن الجزاء من الله . فإما أن تنظر وتؤخر وإما أن تتصدق ببعض الدين أو بكل الدين ، وأنت حر في أن تفعل ما تشاء . فانظروا دقة الحق عند تصفية هذه القضية الاقتصادية التي كانت الشغل الشاغل للبيئة الجاهلية .

ولقد عرفنا مما تقدم أن الإسلام قد بنى العملية الاقتصادية على الرفد والعطاء ، وتكلم الحق سبحانه وتعالى عنها في آيات النفقة التي سبقت من أول قوله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة » ، وتكلم طويلاً عن النفقة. والنفقة تشمل ما يكون مفروضاً عليك من زكاة ، وما تتطوع به أنت . والمتطوع بشيء فوق ما فرض الله يعتبره سبحانه حقاً للفقير ، ولكنه حق غير معلوم ، ولذلك حينما تعرضنا إلى قوله سبحانه :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

(سورة الذاريات)

أيتطلب الإسلام منا ألا نهجع إلا قليلاً من الليل ؟ لا ، إن للمسلم أن يصلي العشاء وينام ، ثم يقوم لصلاة الفجر ، هذا ما يطلبه الإسلام . لكن الحق سبحانه هنا يتكلم عن المحسنين الذين دخلوا في مقام الإحسان مع الله.

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبي اليسر

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ ﴾

(سورة الذاريات)

هل التشريع يلزم المؤمن أن يقوم بالسحر ليستغفر ؟ لا ، إن المسلم عليه أن يؤدي الفروض ، ولكن إن كان المسلم يرغب في دخول مقام الإحسان فعليه أن يعرف الطريق :

﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ ﴾

(سورة الذاريات)

والكلام هنا في مقام الإحسان ويضيف الحق عن أصحاب هذا المقام :

﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩ ﴾

(سورة الذاريات)

إن الله سبحانه قد حدد في أموال من يدخل في مقام الإحسان حقا للسائل والمحروم ، ولم يحدد الله قيمة هذا الحق أو لونه . هل هو معلوم أو غير معلوم . لكن حين تكلم الله عن المؤمنين قال سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝٢٥ ﴾

(سورة المعارج)

وهكذا نجد في أموال صاحب مقام الإحسان حقا للسائل والمحروم ، لكن في أموال صاحب الإيمان حق معلوم وهو الزكاة ومقام الإحسان يعلو مقام الإيمان ؛ لأن الحق في مال المؤمن معلوم . أما في مقام الإحسان فإن في مالهم حق للإحسان إلى الفقير وإن لم يكن معلوما ، أي لم محدد

وقد رأينا بعض الفقهاء قد اعتبر الزكاة ـ مادامت حقاً للفقير عند الغني ـ فإن منع الغني ما قدره نصاب سرقة تُقطع يد الغني ، لأنه أخذ حق الفقير . ونصاب السرقة ربع دينار ذهباً ، فيبني الإسلام قضاياه الاجتماعية إما على النفقة غير المفروضة وإما على النفقة المفروضة . فإذا ما شحّت نفوس الناس ، ولم تستطع أن تتبرع بالقدر الزائد عن المفروض ، وتمكن حب المال في نفسها تمكنا قوياً بحيث لا تتنازل عنه يقول الله سبحانه لكل منهم .

أنت لم تتنازل عن مالك ، وأنا حرمت الربا ، فكيف نلتقي لنضع للمجتمع أساساً سليماً ؟ سنحتفظ لك بمالك ونمنع عنك فائدة الربا ، وهكذا نلتقي في منتصف الطريق ، لا أخذنا مالك ، ولا أخذت من غيرك الزائد على هذا المال .

وشرح الحق سبحانه آية الدين ، وأخذت منه لآية أطول حيز في حجم آيات القرآن ، لماذا ؟ . لأن على الدين هذا تبنى قضايا المجتمع الاقتصادية عند من لا يجد مورداً مالياً يُسيّر به حركة حياته . وحين وضع الحق آية الدين لم يضعها وضعاً تقنيناً جافاً جامداً ، وإنما وضعها وضعاً وجدانياً . أي مزج التقنين بالوجدان ، مزج الحق جمود القانون بروح الإسلام ، فلم يجعلها عملية جافة .

والمشرعون من البشر عندما يقننون لهم يضعون القانون جافاً ، فمثال ذلك : من قتل يقتل ، وغير ذلك . لكن الحق يقول غير ذلك حتى في أعنف قضايا الخلاف ، وهي خلافات الدم ، فقال سبحانه :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

والحق سبحانه وتعالى قبل أن يأتي بآية الدين ، يقول :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾

ولقد أوضحنا من قبل أن تقوى الله تقتضى أن نقوم بالأفعال التى تقينا صفات الجلال فى الله ، وأوضحنا أن الله قال « اتقوا النار » أى أن نفعل ما يجعل بيننا وبين النار وقاية ، فالنار من متعلقات صفات الجلال . وها هو ذا الحق سبحانه هنا يقول : « اتقوا يوماً » ، فهل نتقى اليوم ، أم نتقى ما يشأ فى اليوم ؟ إن اليوم ظرف زمان ، والأزمان لا تُخاف بذاتها ، ولكن يخاف الإنسان مما يقع فى الزمن

لكن إذا كان كل شيء فى الزمن مخيفاً ، إذن فالخوف ينصب على اليوم كله ، لأنه يوم هول ؛ كل شيء به مفزّع ومخوف ، وقانا الله وإياكم ما فيه من هول ، وانظر إلى الدقة القرآنية المتناهية فى قوله « تُرجَعون فيه إلى الله »

إن المرجع فى هذا اليوم لا يكون بطواعية العباد ولكن بإرادة الله . وسبحانه حين يتكلم عن المؤمنين الذين يعملون الصالح من الأعمال ، فإنه يقول عن رجوعهم إلى الله يوم القيامة

﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴿٤٥﴾ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ومعنى ذلك أن العبد المؤمن يشتاق إلى العودة إلى الله ؛ لأنه يرغب فى أن ينال الفوز

أما غير المؤمنين فيقول عنهم الحق :

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الطور)

إن رجوع غير المؤمنين يكون رجوعاً قسرياً لا مرضوياً فيه . والحق يقول عن هذا اليوم : « ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون » ويعد ذلك يقنن الحق سبحانه للدَّيْن فيقول سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ

تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

إنها أطول آية في آيات القرآن ويستهلها الله بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » وهذا الاستهلال كما تعرف يوحي بأن ما يأتي بعد هذا الاستهلال من حكم ، يكون الإيمان هو حيثية ذلك الحكم ، فما دمت قد آمنت بالله فأنت تصدق ما كلفك به ؛ لأن الله لم يكلف كافراً ، فالإنسان ـ كما قلنا سابقاً ـ حر في أن يُقبل على الإيمان بالله أو لا يُقبل.

فإن أقبل الإنسان بالإيمان فليستقبل كل حكم من الله بالتزام . ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ إن الإنسان حين يكون مريضاً ، هو حر في أن يذهب إلى الطبيب أو لا يذهب ، ولكن حين يذهب الإنسان إلى الطبيب ويكتب له الدواء فالإنسان لا يسأل الطبيب وهو مخلوق مثله : لماذا كتبت هذه العقاقير؟

إن الطبيب يمكن أن يرد : إنك كنت حرا في أن تأتي إليّ أو لا تأتي ، لكن ما دمت قد جئت إلى فاسمع الكلام ونفذه . والطبيب لا يشرح التفاعلات والمعادلات ، لا ، إن الطبيب يشخص المرض ، ويكتب الدواء . فما بالنا إذا أقبلنا على الخالق الأعلى بالإيمان ؟

إننا ننفذ أوامره سبحانه ، والله لا يأمر المؤمن إلا عن حكمة ، وقد تتجلى للمؤمن بعد ذلك آثار الحكمة ويزداد المؤمن ثقة في إيمانه بالله . يقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » وعندما نتأمل قول الحق : « تداينتم » نجد فيها « دَيْن » ، وهناك « دين » ، ومن معنى الدَّيْن الجزاء ، ومن معنى الدِّين

منهج السماء ، وأما الدَّيْن فهو الاقتراض إلى موعد يسدد فيه . هكذا نجد ثلاثة معانٍ واضحة : الدِّين : وهو يوم الجزاء ، والدين وهو المنهج السماوي، والدَّيْن . هو المال المقترض .

والله يريد من قوله : « تداينتم بدين » أن يزيل اللبس في معنيين ، ويبقى معنى واحداً وهو الاقتراض فقال : « بِدَيْنٍ » فالتفاعل هنا في مسألة الدَّيْن لا في الجزاء ولا في المنهج ، والحق يحدد الدَّيْن بأجل مُسَمّى . وقد أراد الله بكلمة « مُسَمّى » مزيداً من التحديد ، فهناك فرق بين أجل لزمن ، وبين أجل لحدث يحدث ، فإذا قلت : الأجل عندي مقدم الحجيج . فهذا حدث في زمن ، ومقدم الحجيج لا يضمنه أحد ، فقد تتأخر الطائرة ، أو يصاب بعض من الحجيج بمرض فيتم حجز الباقين في الحجر الصحي .

أما إذا قلت : الأجل عندي شهران أو ثلاثة أشهر فهذا يعني أن الأجل هو الزمن نفسه ، لذلك لا يصح أن يؤجل أحد دينه إلى شيء يحدث في الزمن ؛ لأنه من الجائز ألا يحدث ذلك الشيء في هذا الزمن . إن التداين بدَيْن إلى أجل مُسمى يقتضي تحديد الزمن ، والحق يوضح لنا : «إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه» وكلمة «فاكتبوه» هي رفع لحرج الأحباء من الأحباء .

إنه تشريع سماوي ، فلا تأخذ أحد الأريحية ، فيقول لصاحبه : « نحن أصحاب » ، إنه تشريع سماوي يقول لك : اكتب الدَّيْن ، ولا تقل : « نحن أصدقاء » فقد يموت واحد منكما فإن لم تكتب الدَّيْن حرج فماذا يفعل الأبناء، أو الأرامل ، أو الورثة ؟ .

إذن فالتزام الحق بكتابة الدَّيْن هو تنفيذ لأمر من الله يحقق رفع الحرج بين الأحباء . ويظن كثير من الناس أن الله يريد بالكتابة حماية الدائن . لا ، إن المقصود بذلك والمهم هو حماية المدين ، لأن المدين إن علم أن الدَّيْن عليه موثق حرص أن يعمل ليؤدي دينه ، أما إن كان الدَّيْن غير موثق فمن الجائز أن يكسل عن العمل وعن سداد الدَّيْن . وبذلك يحصل هو وأسرته على حاجته مرة واحدة ، ثم يضن المجتمع الغني على المجتمع الفقير فلا يقرضه ، ويأخذون عجز ذلك الإنسان عن السداد ذريعة لذلك ، ويقع

هذا الإنسان الذي لم يؤد دينه في دائرة تحمل الوزر المضاعف ، لأنه ضيّق باب القرض الحسن .

إن الله يريد أن يسير دولاب الحياة الاقتصادية عند من لا يملك ، لأن من يملك يستطيع أن يسيّر حياته ، أما من لا يملك فهو المحتاج . ولذلك فهناك مثل في الريف المصري يقول : من يأخذ ويعطي يصير المال ماله . إنه يقترض ويسدد ، لذلك يثق فيه كل الناس ، ويرونه أميناً ويرونه جداً ، ويرونه مخلصاً ، ويعرفون عنه أنه إذا أخذ وفّى ، فكل المال يصبح ماله .

إذن فالله - سبحانه - بكتابة الدّيْن يريد حماية حركة الحياة عند غير الواجد ، لأن الواجد في غير حاجة إلى القرض . لذلك جاء الأمر من الحق سبحانه : « إذ تداينتم بدَيْن إلى أجل مسمى فاكتبوه » . ومن الذي يكتب الدّيْن ؟

انظر الدقة : لا أنت أيها الدائن الذي تكتب ، ولا أنت أيها المدين ، ولكن لابد أن يأتي كاتب غير الاثنين ، فلا مصلحة هذا لثالث من عملية الدين « وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله » . وفي ذلك إيضاح بأن الإنسان الذي يعرف الكتابة إن طُلب منه أن يكتب ديْناً ألا يمتنع عن ذلك ، لماذا ؟ لأن الآية - آية الدّيْن - قد نزلت وكانت الكتابة عند العرب قليلة ، كان هناك عدد قليل فقط هم الذين يعرفون الكتابة ، فكان هناك طلب شديد على من يعرف الكتابة .

ولكن إن لم يُطلب أحد من الذين يعرفون الكتابة أن يكتب الدّيْن فماذا يفعل ؟ . إن الحق يأمره بأن يتطوع ، وفي ذلك يأتي الأمر الواضح « فليكتب » ، لأن الإنسان إذا ما كان هناك أمر يقتضي منه أن يعمل ، والظرف لا يحتمل تجربة ، فالشرع يلزمه أن يندب نفسه للعمل

هب أنكم في زورق وبعد ذلك جاءت عاصفة ، وأغرقت الذي يمسك بدفة الزورق ، أو هو غير قادر على إدارة الدفة ، هنا يجب أن يتقدم من يعرف ليدير الدفة ، إنه يندب نفسه للعمل ، فلا مجال للتجربة . والحق سبحانه وتعالى حين عرض قضية الجدب في قصة سيدنا يوسف قال :

﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة يوسف)

وقال سيدنا يوسف

﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة يوسف)

إن المسألة جدب فلا تحتمل التجربة ، وهو كفء لهذه المهمة ، يملك موهبة الحفظ والعلم ، فينتدب نفسه للعمل . كذلك هنا ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، إذا طُلب منه وإن لم يطلب منه وتعين « فليكتب » .

وهذه علة الأمرين الاثنين ، ومادامت الكتابة للتوثيق فى الدَّيْن ؛ فمن الضعيف ؟ إنه المدين ، والكتابة حجة عليه للدائن ، لذلك يحدد الله الذى يملل : الذى عليه الدَّيْن ، أى يمل الصيغة التى تكون حجة عليه « وليملل الذى عليه الحق » ولماذا لا يمل الدائن ؟ لأن المدين عادة فى مركز الضعف ، فلعل الدائن عندما تأتى لحظة كتابة ميعاد السداد فقد يقلل هذا الميعاد ، وقد يخجل المدين أن يتكلم ويصمت ؛ لأنه فى مركز الضعف . ويختار الله الذى فى مركز الضعف ليمل صيغة الدَّيْن ، يمل عن راحته ، ويضمن الا يُؤخذ بسيف الحاجة فى أى موضع من المواضع .

لكن ماذا نفعل عندما يكون الذى عليه الدَّيْن سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو ؟ إن الحق يضع القواعد « فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليُّه بالعدل » والسفيه هو البالغ مبلغ الرجال إلا أنه لا يمتلك أهلية التصرف . والضعيف هو الذى لا يملك القدرة التى تُبلغه أن يكون ناضجا النضج العقلى للتعامل ، كأن يكون طفلا صغيرا ، أو شيخا بلغ من الكبر حتى صار لا يعلم من بعد علمه شيئا ، أو لا يستطيع أن يمل . أى أخرس فيقوم بالإملاء الولى أو القيِّمُ أو الوصىّ .

ويأتى التوثيق الزائد : بقوله - تعالى - : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » .

ولننظر إلى الدقة فى التوثيق عندما يقول الحق : « واستشهدوا » نستشهد ونكتب ، لأنه سبحانه يريد بهذا التوثيق أن يؤمّن الحياة الاقتصادية عند غير الواجد ؛ لأن الحاجة عندما تكون مؤمّنة عند غير الواجد فالدولاب يمشى وتسير حركة الحياة الاقتصادية ؛ لأن الواجد هو القليل ، وغير الواجد هو الكثير ، مثل فكر جاد ومفيد يحتاج إلى مائة إنسان ينفذون التخطيط .

إن المخ الواحد الذى يصرف يحتاج إلى مائة لينفذوا ، ولهذا تكون الجمهرة من الذين لا يجدون ، وذلك حتى يسير نظام الحياة ؛ لأن الله لا يريد أن يكون نظام الحياة تفضلا من الخلق على الخلق ، إنما يريد الله نظام الحياة نظاما ضروريا ؛ فالعاصى الذى لا يعول أسرة قد لا يخرج إلى العمل ، لذلك فالحق يربط خروج العاصى بحاجته . إنه يحتاج إلى الطعام ورعاية نفسه وأسرته فيخرج اضطرارا إلى العمل ، وبتكرار الأمر يعشق عمله ، وحين يعشق العمل فهو يحب العمل فى ذاته

وبذلك ينتقل من الحاجة إلى العمل ، إلى حب العمل فى ذاته ، وإذا ما أحب العمل فى ذاته ، فعجلة الحياة تسير والحق سبحانه حين يحدد الشهود بهذا القول : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم » .

ولماذا قال الحق « شهيدين » ولم يقل « شاهدان » ؟ لأن مطلق شاهد قد يكون زورا ، لذلك جاء الحق بصيغة المبالغة . كأنه شاهد عرفه الناس بعدالة الشهادة حتى صار شهيدا . إنه إنسان تكررت منه الشهادة العادلة ؛ واستأمنه الناس على ذلك ، وهذا دليل على أنه شهيد . وإن لم يكن هناك شهيدان من الرجال فالحق يحدد لنا « فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء » .

إن الحق سبحانه وتعالى قد طلب منا على قدر طاقتنا أى من نرضى نحن عنهم ، وعلل الحق مجىء المرأتين فى مقابل رجل بما يلى : « أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » ؛ لأن الشهادة هى احتكاك بمجتمع لتشهد فيه وتعرف ما يحدث . والمرأة

بعيدة عن كل ذلك غابا .

أن الأصل في المرأة ألا علاقة لها بمثل هذه الأعمال ، وليس لها شأن بهذه العمليات ، فإذا ما اضطرت الأمور إلى شهادة المرأة فلتكن الشهادة لرجل وامرأتين ؛ لأن الأصل في فكر المرأة أنه غير مشغول بالمجتمع الاقتصادي الذي يحيط بها ، فقد تضل أو تنسى إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، وتتدارس كلتاهما هذا الموقف ، لأنه ليس من واجب المرأة الاحتكاك بجمهرة الناس وبخاصة ما يتصل بالأعمال

وبعد ذلك يقول الحق : « ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا » فكما قال الحق عن الكاتب ألا يمتنع عن توثيق الدَّيْن ، كذلك الشهادة على هذا الدَّيْن . وكيف تكون الشهادة ، هل هي في الأداء أو التحمل ؟ إن هنا مرحلتين . مرحلة تحمل ، ومرحلة أداء .

وعندما نطلب من واحد قائلين - تعال اشهد على هذا الدَّيْن . فليس له أن يمتنع ، وهذا هو التحمل وبعدما وثقنا الدَّيْن ، وسنطلب هذا الشاهد أمام القاضي ، والوقوف أمام القاضي هو الأداء وهكذا لا يأبى الشهداء إذا ما دعوا تحملا أو أداءً

لكن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن كل نفس بشرية لها مجال حركتها في الوجود ، ويجب ألا تطغى حركة حدث على حدث ، فالشاهد حين يُستدعى - بضم الياء - ليتحمل أولا أو ليؤدي ثانيا يسعى ألا تتعطل مصالحه ، إن مصالحه ستتعطل ؛ لأنه عادل ، ولأنه شهيد ، لذلك يضع الله لذلك الأمر حداً فيقول : « ولا يضار كاتب ولا شهيد »

إذن فالشهادة هنا تتطلب أن نحترم ظروف الشاهد . فإن كان عند الشاهد عمل أو امتحان أو صفقة أو غير ذلك ، فلنا أن نقول للشاهد : إما أن تتعين في التحمل حيث لا يوجد من يوثق به ويطمأن إليه أما في الأداء فأنت مضطر

إن الشاهد يمكنه أن يذهب إلى أمره الضروري الذي يجب أن يعمله ، فلا يطغى حدث على حدث ، لذلك علينا أن نبحث عن شاهد له قدرة السيطرة على عمله بدرجة ما . وإن لم نجد غيره ، فماذا يكون الموقف ؟

لقد قال الحق: «ولا يضار كاتب ولا شهيد» إذن فعلينا أن نبحث له عن «جُعْل» يعوض عليه ما فاته، فلا نلزمه أن يعطل عمله وإلا كانت عدالته وبالاً عليه، لأن كل إنسان يُطلب للشهادة تتعطل أعماله ومصالحه. والله لا يحمي الدائن والمدين ليضر الكاتب أو الشهيد.

وقوله الحق لكلمة: «يضار» معناه الممكن أن تأتي الكلمة على وجهين في اللغة. فمرة تأتي «يضار» بمعنى أن الضرر يأتي من الكاتب أو الشهيد، ومرة أخرى تأتي كلمة «يضار» بمعنى أنّ الضرر يقع على الكاتب أو الشهيد. فاللفظ واحد، ولكن حالة اللفظ بين الإدغام الذي هو عليه حسب قواعد اللغة وبين فكه هي التي تُبيِّن لنا اتجاه المعنى. فإن قلنا: «ولا يضارِرْ كاتب ولا شهيد» - بكسر الراء - فالمعنى في هذه الحالة هو أن يقع الضرر من الكاتب فيكتب غير الحق، أو أن يقع الضرر من الشهيد فيشهد بغير العدل.

وإن قلنا: «ولا يضارَرْ كاتب ولا شهيد» - بفتح الراء - فالمنهي عنه هو أن يقع الضرر على الكاتب أو الشهيد من الذين تؤدى الكتابة عرضا لهم، وتؤدى الشهادة واجبا بالنسبة لهم؛ ليضمن الدائن دَيْنه، وليستوثق أن أداءه حتم.

والكاتب والشهيد شخصان لهما في الحياة حركة، ولكل منهما عمل يقوم به ليؤدي مطلوبات الحياة، فإذا عُلِمَ - بضم العين وكسر اللام وفتح الميم - أنه كاتب أو شهيد بأنه عادل، عند ذلك يتم استدعاؤه في كل وقتٍ من أصحاب المصلحة في المدينة، وربّما تعطلت مصالح الكاتب أو الشهيد.

ويريد الله أن يضمن لذلك الكاتب أو الشهيد ما يبقي على مصلحته. ولذلك أخذت القوانين الوضعية من القرآن الكريم هذا المبدأ، فهي إن استدعت شاهدا من مكان ليشهد في قضية فإنها تقوم له بالنفقة ذهابا وبالنفقة إيابا، وإن اقتضى الأمر أن يبيت فله حق المبيت وذلك حتى لا يضار، وهو يؤدي الشهادة، وحتى لا يتعطل الشاهد عن عمله أو أن يصرف من جيبه.

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر

ويريد الحق سبحانه وتعالى أيضا أن يضمن مصالح الجميع لا مصلحة جماعة على حساب جماعة .

ويقول الحق في هذه « المضارة » : « وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم » أى وإن تعملوا الضرر من هذا أو من ذاك فإنه فسوق بكم ، إنه سبحانه يحذر أن يقع الضرر من الكاتب أو الشهيد ، أو أن يقع الضرر على الكاتب أو الشهيد . ففعل الضرر فسوق ، أى خروج عن الطاعة .

والأصل في « الفسق » هو خروج الرطبة من قشرتها ، فالبلح حين يرطب تكون القشرة قد خلعت عن الأصل من البلحة ، فتخرج الثمرة من القشرة فيقال : « فسقت الرطبة » ومنها أخذ معنى الفسوق وهو الخروج عن طاعة الله في كل ما أمر

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : « واتقوا الله » وعلمنا من قبل معنى كلمة « التقوى » حين يقول الله : « واتقوا الله » أو يقول سبحانه : « واتقوا النار » « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » ، وكل هذه المعاني مبنية على الوقاية من صفات جلال الله ، وجبروته ، وقهره ، وإذا قلنا : « اتقوا النار » فالنار من جنود صفات القهر لله ، فـ « اتقوا الله » هي بعينها « اتقوا النار » هي بعينها « اتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » .

ويقول الحق سبحانه : « واتقوا الله ويعلمكم الله » وهنا مبدأ إيماني يجب أن نلاحظه في كل تكليف من الله ؛ فإن التكاليف إن جاءت من بشر لبشر ، فأنت لا تنفذ التكليف من البشر إلا إن أقنعك بحكمته وعلته ؛ لأن التكليف يأتي من مساوٍ لك ، ولا توجد عقلية أكبر من عقلية ، وقد تقول من يكلفك . ولماذا أكون تبعا لك وأنت لا تكون تبعا لي ؟ إنك إذا أردت أن تكلفني بأمر من الأمور وأنت مساوٍ لي في الإنسانية والبشرية وعدم العصمة فلا بد أن تقنعني بحكمة التكليف

أما إن كان التكليف من أعلى وهو الحق سبحانه وهو الله الذي آمنا بقدرته وعلمه وحكمته وتنزهه عن الغرض العائد عليه فالمؤمن في هذه الحالة يأخذ الأمر قبل أن

يبحث في الحكمة ، لأن الحكمة في هذا الأمر أنه صادر من الله ، وحين ينفذ المؤمن التكليف الصادر من الله فسيعلم سر هذه الحكمة فيما بعد ؛ فأسرار الحكم عند الله تأتي للمؤمن بعد أن يقبل على تنفيذ التكاليف الإيمانية .

إن الحق سبحانه ـ على سبيل المثال ـ لا يقنع العبد بأسرار الصوم ، ولكن إن صام العبد المؤمن كما قال الله وعند ممارسة المؤمن لعبادة الصوم سيجد أثر حكمة الصوم في نفسه بما لا يمكن إقناعه به أولا إن المؤمن حين يعمل التكليف الإيماني فإن الله يعلمه حكمة التكليف ولنا في قوله سبحانه الدليل الواضح :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

إن الله سبحانه يَعِدُ عباده المؤمنين أنهم عندما يتقونه فإنه يجعل لهم دلائل تبين لهم الحق من الباطل ويستر عنهم السيئات ويغفر لهم . لماذا ؟ لأن الله الذي يعلمنا هو الحق سبحانه العليم بكل شيء . وعلم الله ذاتي ، أما علم الإنسان فقد يكون أثرا من ضغط الأحداث عليه فيفكر الإنسان في تقنين شيء يخرجه مما يكون فيه من شر ، ولكن علم العليم الأعلى سابق على ذلك لأنه علم ذاتي

وفيما سبق علمنا أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى الدَّيْن هذه العناية ليضمن للحياة حركتها الطاهرة ، حركتها السليمة ؛ لأن المعدم لا وسيلة له في حركة الحياة إلا لأمور ثلاثة ، الأمر الأول الرِّفْد أي عطاء تطوعي يستعين به على حركة الحياة . والأمر الثاني : الفرض الذي فرضه الله في الزكاة والأمر الثالث القرض الذي شرعه .

فعندما لا يجد المؤمن المعدم الرفد أو الفرض فماذا يكون بعد ذلك ؟ إنه القرض . إذن فالقرض هو المفزَع الثالث للحركة الاقتصادية عند المعدمين . وعرفنا أن القرض عند الله يفوق ويعلو الصدقة في الثواب ؛ لأن الصدقة حين تتصدق بها تكون قد خرجت من نفسك من أول الأمر فلا مشغولية لذهنك بعد ذلك ، ولكن القرض

نفسك تكون متعلقة به ، لأنك لا تزال مالكاً له ، وكلما صبرت عليه أخذت ثواباً من الله على كل صبرة تصبرها على المدين

وعرفنا كذلك أن الحق سبحانه وتعالى قد استوثق لعملية الدَّيْن استيثاقا يجب أن نفهمه من وجهيه ، الوجه الأول أنه يحفظ بذلك ثمرة حركة المتحرك في الحياة ، وهي أن يتمول ، أي أن يكون عنده مال ، فإن لم تحْمِ له ثمرة حركته في الحياة استهان بالحركة ، وإذا استهان بالحركة تعطلت مصالح كثيرة ، لأن حركة المتحرك في الحياة تنفع بشراً كثيرين قصد المتحرك ذلك أو لم يقصد ، وضربنا المثل بمن يريد بناء عمارة ، وعنده مال ، فيسلط الله عليه خاطراً من خواطره مصداقاً لقوله الحق

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

فيقول ولماذا أكنز المال ؟ ولماذا لا أبني عمارة أستفيد من إيجارها ؟ وبذلك لا يتناقص المال عما يريد وليس في بال ذلك الرجل أن ينفع أحداً . إن باله مشغول بأن ينفع نفسه ، لكن حركته وإن لم يقصد نفع الغير ستنفع الغير . فالذي يحفر الأرض سيأخذ أجراً لذلك ، والذي يضرب الطوب سيأخذ أجراً لذلك ، وكل من يشترك في عمل لإقامة هذا البنيان من بناء أو إدخال كهرباء أو توصيل مياه أو تحسين وتجميل كل واحد من هؤلاء سيأخذ أجره ، وبذلك يستفيد الجميع وإن لم يقصد المتحرك في الحياة

إذن فالحق يريد أن يحمي حركة المتحرك في الحياة لأنه لو لم يحمِ الله ثمرة حركته في الحياة ، لاكتفى المتحرك في حركته بما يقوته ويقوت من يعول ، ويبقى الضعيف في الحياة ، فمن ذا يعوله ؟ إذن لابد أن نضمن للمتحرك ماله حتى يتشجع على الحركة إن الله الذي وهب الناس أرزاقهم ، عندما يطلب من القوي المتحرك أن يعطي أحد لضعيف المحتاج قرضاً ، لا يقول الله « أقرض المحتاج » ، ولكنه جل وعلا يقول :

﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

إن الله سبحانه وتعالى قد احترم حركة الإنسان المتحرك في الحياة وجعل المال مال المتحرك ، فلا يقول الله للمتحرك : اعط المحتاج من المال الذي وهبتك إياه . لا ، إنه مال المتحرك ، ويقول الله للمتحرك : اقرضني لأن أخاك في حاجة إليه ، كما نقول للتقريب لا للتشبيه ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت تأخذ من حصالة ابنك لمصلحة تخصه ، وتعد ابنك الذي أخذت من حصالته أنك سوف تعطيه الكثير والمال الذي أخذته من حصالة ابنك غرضه أنت الذي أعطيته له أولا

إذن فالله يريد أن يحمي حركة الحياة . وإن لم تحم حركة الحياة ، لا يكون كل إنسان آمناً على ثمرة حركته ، فستفسد الحياة كلها وستشرى الضغن والحقد ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى

﴿ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

وساعة يتفشى الضغن في المجتمع فلا فائدة في هذا المجتمع أبداً . إذن فالحق حين يوثق الدين يريد أن يحمي حركة المتحرك ؛ لأن الناس تختلف فيما بينها في الحركات الطموحية ولا توجد الحركات الطموحية في كل الناس ، بل توجد في بعضهم ، فليستغل حركة الطموح عند بعض الناس ؛ لأنهم سيفيدون المجتمع قصدوا ذلك أو لم يقصدوا

وبعد ذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أن يحمي أيضاً الإنسان من نفسه ؛ لأنه إن علم أن الدين الذي عليه موثق ، ولا وسيلة لإنكاره حاول جاهداً أن يتحرك في الحياة ليؤديه وحين يتحرك الإنسان ليؤدي عن نفسه الدين فوق ذلك يزيد الحركة في الحياة ، ويزداد النفع

وهكذا نرى أن الله أراد بالتوثيق للدين حماية المدين من نفسه ؛ لأن المدين قد تطرأ عليه ظروف فيماطل ، وإذا ما ماطل فلن تكون الخسارة فيه وحده ، ولكنه

فيصبح أسوة عند جميع الناس وسيقول كل من عنده مال: لا أعطي أحداً شيئاً لأن فلاناً الغني مثلاً قد أعطى فلاناً الفقير وماطله وأكله . وبعد ذلك تتوقف حركة الحياة. ولكن إذا كان الدين موثقاً ومكتوباً فإن المدين يكون حريصاً على أدائه. والله يريد أن يصون لحركة الحياة دواماً واستمراراً شريفاً نظيفاً. ولذلك نجد في آية الدين أن كلمة « الكتابة » ومادتها « الكاف والتاء والباء » تتكرر أكثر من مرة بل مرات كثيرة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهذا التكرار في هذه الآية لعملية الكتابة يوصل العلاقة بين الناس ؛ فالكتابة هي عمدة التوثيق ، وهي التي لا تغش ، لأنك إن سجلت شيئاً على ورقة فلن تأتي الورقة لتنكر ما كتبته أنت فيها ، ولكن الأمر في الشهادة قد يختلف ، فمن الجائز أن يخضع الشاهد لتأثير ما فينكر الحقيقة ، ولذلك فإن الحق يعطينا قضية إيمانية جديدة حين يقول : « أن يكتب كما علمه الله » أي أن يكتب الكاتب على وفق ما علمه الله .

فكأنه لابد أن يكون فقيهاً عالماً بأمور الكتابة ، أو « كما علمه الله » أي أن الله أحسن إليه وعلمه الكتابة دون غيره ، فكما أحسن الله إليه بتعلم الكتابة فليحسن وليُعَدِّ أثر الكتابة إلى الغير .

وليست المسألة مسألة كتابة فقط ، إن ذلك يشمل ويضم كل شيء أو موهبة خص الله بها فرداً من الناس من مواهب الله على خلقه ؛ فالمؤمن هو من يعمل على أن يعدي أثر النعمة والموهبة إلى الغير . وعليك أن تعدي أثر مواهب الغير إليك فتنتفع بها سواك ، وبذلك يشيع الخير ويعم النفع لأنك إن أحدث موهبة فستأخذ موهبة واحدة تكفيك في زاوية واحدة من زوايا حياتك ، وعندما تعديها للجميع وتنقلها إليهم فيعدى الجميع مواهبهم المجتمعة لمصلحتك ، فأيها أكسب ؟

حين تعدي وتنقل موهبتك إلى الناس ، تكون أنت الأكثر كسباً ؛ لأن الجميع يعدون وينقلون مواهبهم إليك . وإذا أتقنت صنعتك للناس فالصنعة التي في يدك واحدة ، وعندما تتقنها فإن الله يسلط جنود الخواطر على كل من يصنع لك شيئاً أن يتقنه ، كما أتقنت أنت لسواك . وبعد ذلك يعلمنا الحق سبحانه شدة الحرص على التوثيق فيقول :

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾

والسفر كما نعلم هو خروج عن رتابة الحياة في الموطن ، ورتابة الحياة في الموطن

تجعل الإنسان يعلم تمام العلم مقومات حياته ، لكن السفر يخرج الإنسان عن رتابة الحياة فلا يتمكن من كثير من الأشياء التي يتمكن بها في الإقامة . فهب أنك مسافر ، واضطررت إلى أن تستلف ، ولا يوجد كاتب ولا يوجد شهيد ، فماذا يكون الموقف ؟

ها هو ذا الحق يوضح لك : « فرهان مقبوضة » . إذن فلم يترك الله مسألة الدَّيْن حتى في السفر فلم يشرع فقط للإقامة ولكن الحق قد شرّع أيضا للسفر « فرهان مقبوضة » وهكذا الكتابة ، والشهادة في الإقامة والرهان المقبوضة في السفر هدفها حماية الإنسان أمام ظروف ضبط المجتمع .

ولكن هل يمنع الحق سبحانه وتعالى طموحية الإيثار ؟ هل يمنع الحق سبحانه وتعالى رجولية التعامل ؟ هل يمنع الحق سبحانه وتعالى المروءات من أن تتغلغل في الناس ؟ لا . إنه الحق سبحانه يقول : « فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن أمانته » إنه الطموح الإيماني ، لم يَسُدّ الله مسألة المروءة والإيثار في التعامل . إن كتابة الدَّيْن والإشهاد والرهن ليس إلزاماً لأن الله قال : « فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن أمانته »

وأيضا قد تفهم أن الذي اؤتمن هو المدين ، ونحن نقول : لا ، إن الأمر مختلف ، فهنا رهان ، وذلك معناه وجود مسألتين . المسألة الأولى هي « الدَّيْن » ، والمسألة الثانية هي « الرهان المقبوضة » وهي مقابل الدَّيْن فواحد مأمون على الرهن في يده . والآخر مأمون على الدَّيْن وهذا يكون لقول الحكيم مقصودا به من بيده الرهن ، ومن بيده الدَّيْن ومعنى ذلك أن يؤدي من معه الرهن أمانته ، وأن يؤدي الآخر دينه وحين نرتقي إلى هذا المستوى في التعامل فإن ورع الإنسان ليس في التوثيق الخارج عن ذات النفس ، ولكنه التوثيق الإيماني بالنفس ، ولكن أنضمن أن يوجد التوثيق الإيماني عند كل الناس ؟.

أنضمن الظروف ؟ . نحن لا نضمن الظروف ، فقد توجد الأمانة الإيمانية وقت التحمل والأخذ ، ولا نضمن أن توجد الأمانة الإيمانية وقت الأداء فقد يأتي واحد ويقول لك : إن عندي مائة جنيه وخذها أمانة عندك .

ومعنى « أمانة » أنه لا يوجد صك ، ولا شهود ، وتكون الذمة هي الحكم ، فإن شئت أقررت بهذه الجنيهات المائة ، وإن شئت أنكرتها . إن الرجل الذي يفعل معك ذلك إنما يطلب منك توثيق المائة جنيه في الذمة الإيمانية ، ومن الجائز أن تقول له لحظة أن يفعل معك ذلك : نعم سأحتفظ لك بالمائة جنيه بمنتهى الأمانة . وتكون نيتك أن تؤديها له ساعة أن يطلبها ، ولكنك لا تضمن ظروف الحياة بالنسبة لك ، وأنت كإنسان من الأغيار . ومن الجائز أن تضغط عليك الحياة ضغطاً يجعلك تماطل معه في أداء الأمانة ، أو يجعلك تنكرها ، فتقول لمن ائتمنك

ابعد عني ؛ أنا لا أملك نفسي في وقت الأداء ، وإن ملكت نفسي وقت التحمل .
والأمانة هي القضية العامة في الكون ، وإن كانت خاصة الآن بالنسبة للآية الكريمة التي نحن بصددها والحق - سبحانه - يعرضها بعمومها على الكون كله فيقول - جل شأنه - .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝ ﴾

(سورة الأحزاب)

إن الكون كله أشفق على نفسه من تحمل الأمانة وهذا يعني أن الأمانة سوف تكون عرضة للتصرف والاختيار ، ولا كائن في الكون قد ضمن لنفسه القدرة على الوفاء وقت الأداء . لقد أعلنت الكائنات فوق فأبين تحمُّل الأمانة وكأنها قالت : إننا يا ربنا نريد أن نكون مسخرين مقهورين لا اختيار لنا ؛ ولذلك نجد الكون كله يؤدي مهمته كما أرادها الله ، ماعدا الإنسان . أي أنه الذي قبل بما له من عقل وتفكير أن يتحمل أمانة الاختيار ، وبلسان حاله أو بلسان مقاله قال : إني قادر على تحمل الأمانة ؛ لأني أستطيع الاختيار بين البدائل

وهنا نذكّر الإنسان إنك قد تكون قوياً لحظة التحمل ، ولكن ماذا عن حالك وقت الأداء ؟ لذلك قال الله عن الإنسان : « وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » ، لقد ظلم الإنسان نفسه حيث حمل الأمانة ولم يف بها فلذلك فهو ظلوم . وهو جهول لأنه قدّر وقت التحمل ، ولم يقدّر وقت الأداء ، أو ضمنها ثم خاس وخالف ما عاهد نفسه على أدائه .

إذن فالإنسان وإن كان واثقاً أنه سيؤدي الأمانة إلا أنه عرضة للأغيار ، لذلك قال الحق سبحانه : « ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله » فالكتابة فرصة ليحمي الإنسان نفسه من الضعف وقت الأداء ، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يوثق الأمر توثيقاً لا يجعلك أيها العبد خاضعاً لذمتك الإيمانية فقط ، ولكنك تكون خاضعاً للتوثيق الخارج عن إيمانيتك أيضاً ، وذلك يكون بكتاب الدين صغيراً أو كبيراً إلى أجله .

ويقول الحق سبحانه : « ولا تكتموا الشهادة » وهذه الكلمة « ولا تكتموا » إنما هي أداء معبر ، لأن كلمة « شهادة » تعني الشيء الذي شهدته ، فمادمت قد شهدت شيئاً فهو واقع ، والواقع لا يتغير أبداً ، ولذلك فالإنسان الذي يحكي لك حكاية صدق لا يختلف قوله في هذه الحكاية حتى وإن رواها ألف مرة ؛ لأنه يستوحي واقعاً .

لكن الكذاب يستوحي غير واقع ، فيقول كلمة ، وينسى أنه كذب من قبل فيكذب كذبة أخرى ؛ لأنه لا يستوحي واقعاً . فكلمة الشهادة هي عن أمر مشهود واقع ، ومادام الأمر مشهوداً وواقعاً ، فإنه يلح على نفس من يراه أن يخرج ، فإياك أن تكبته بالكتم ، لأن كلمة « الكتم » تعني أن شيئاً يحاول أن يخرج وأنت تحاول كبته ، لذلك يقول الحق : « ولا تكتموا الشهادة » فكأن الطبيعة الإيمانية الفطرية تلح على صاحبها لتنطقه بما كان مشهوداً له لأنه واقع .

لذلك يأتي الأمر من الحق : « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » وقد يسأل الإنسان : هل الكتم هنا صفة للقلب أو للإنسان الذي لم يقل الشهادة ؟ إن الشاعر يقول :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما
جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وساعة يؤكد الله شيئاً فهو يأتي بالجارحة التي لها علاقة بهذا الصدد ، فتقول : أنا رأيته بعيني وسمعته بأذني ، وأعطيته بيدي ومشيت له برجلي . إنك تذكر الجارحة التي لها دخل في هذه المسألة .

وعندما يقول الحق : « فإنه آثم قلبه » إنّ كل الجوارح تخضع للقلب ، « والله بما تعملون عليم » أي أن كتمك للحقيقة لن يغير من واقع علم الله شيئاً . وحين تنتهي مسألة المداينة والتوثيق فيها وظروفها سواء كانت في الموطن العادي أو في أثناء السفر فإن الله يضمن للإنسان المتحرك في الحياة حركة شريفة وطاهرة .

فإن لم تكن هذه فالمصالح تتوقف ، ويصيبها العطل ، فالذي لا يقدر على الحركة فماذا يصنع في الحياة ؟ إن قلبه يمتلىء بالحقد على الواجد . وحين يمتلىء قلبه بالحقد على الواجد فإنه يكره النعمة عنده ، وحين يكره المعدم النعمة عند أخيه الواجد، فالنعمة نفسها تكره أن تذهب إلى من كره النعمة عند أخيه . إنها مسائل قد رتبها الحق سبحانه بعضها متعلق بالبعض الآخر .

إن النعمة تحب المُنعَم عليه ـ بضم الميم وفتح العين ـ أكثر من حب المنعم عليه للنعمة وتذهب إلى من أنعم الله عليه بها بعشق ، فمن كره النعمة عند منعم عليه فالنعمة تستعصي عليه حتى كأنها تقول له : لن تنال مني خيراً.وليحرمها كل إنسان

أحبب النعمة عند سواك فستجد نعمة الكل في خدمتك ، إنك إنْ أحببت النعمة عند غيرك فإنها تأتي إليك لتخدمك . وأيضاً فعلى المؤمن أن يعرف أن بعض النعم ليست وليدة كد وجهد ، قد تكون النعمة مجرد فضل من الله ، يتفضل به بعض خلقه ، فحين تكرهها أنت عند المنعم عليه تكون قد اعترضت على قدر الله في النعمة . وحين تعترض على قدر الله في النعمة فإن الحق ـ سبحانه ـ لا يجعلك تنتفع منها بشيء .

فإن رأيت قريباً حُرم نعمته من أقاربه فاعلم أنهم يكرهون النعمة عنده . ولو أحبوها لسعت النعمة إليهم . إن المنهج الإلهي يريد أن يجعل الناس كتلة متكافلة متكاملة بحيث إذا رأيت أنا النعمة عندك ونلت منها ، أحببتها عندك . وحين أحب النعمة عندك فإن العطاء يجيء من هذه النعمة إليّ ، ولا تجد فارقاً بين واجد ومعدم . إنك لا تجد فارقاً بين واجد ومعدم إلا في مجتمع لا يؤدي حكم الله في شيء .

لقد قلنا ذلك فى مجال اضطرار الإنسان إلى الربا لأنه لم يجد من يقرضه قرضاً حسناً ، ولم يجد من يؤدى فرض الله له من الزكاة لتسع حاجته فاضطر أن يأخذ بالربا ، وبذلك يدخل المجتمع الربوى فى حرب مع الله ، وهل لأحد جلد على أن يدخل فى حرب مع الله ؟ لا . والمجتمع الربوى يدخل فى حرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الربا وقال فى حجة الوداع : « إن كل ربا موضوع ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون قضى الله أنه لا ربا وإن ربا عباس بن عبدالمطلب موضوع كله » .

وتلك سمة سمو التشريع السماوى ، إن التشريع البشرى يحمى به صاحبه أقاربه من التقنين ، لكن التشريع السماوى يحرص تطبيقاته أولا على الأقارب . وكان الأسوة فى ذلك سيدنا عمر بن الخطاب ، فساعة يريد عمر أن يضع التشريع فإنه يجمع أهله وأقاربه ويقول :

ـ سأقوم بعمل كذا وكذا والذى نفسى بيده من خالفنى فى شىء من هذا لأجعلنَّه نكالاً للمسلمين . ويعلنها عمر أمام الناس ، ولماذا أعلن عمر ذلك ؟ ؛ لأن كثيرا من الناس يجاملون أولياء الأمور ، وقد لا يكون أولياء الأمور على دراية بذلك ؛ فقد نجد واحداً يدخل على قوم على أساس أنه فلان بن فلان ، وبالرعب يقضى هذا الإنسان مصلحته عند الناس برغم أنف الناس . وقد يكون ولى الأمر لا يعرف عن مثل هذا التصرف شيئاً

لكن حين يعلن ولى الأمر على الناس ولأقاربه أنه لا تعرفة أبداً فيما يقضى وأن القانون سائر على نفسه وعلى أهله فمن استعمل اسماً لولى الأمر أو اصطنع شيئاً فالتبعة على من فعل له وعليه ، وبذلك تستقيم الأمور . لكن أن تظهر الحقائق فى استغلال أقارب الحكام بعد انتهاء فترات حكم الحكام ، فهنا نقول : ولماذا لم نعرف كل شىء من البداية ؟ . وأين كانت الحقائق فى وقتها ؟ .

إن الحاكم المسلم عليه أن يعلن للمحكومين أن القوانين إنما تُطبق عليه أولاً وعلى

من يعول . هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع (وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع ربانا ، ربا عباس بن عبدالمطلب فإنه موضوع كله)[١] .

وفى معركة بدر ، أخرج الرسول صلى الله عليه وسلم أهل بيته ليحاربوا ؛ لأنه لو لم يخرج أحداً من أهل بيته لقال واحد من الكفار . إنه يحمى أهل بيته ، ولو أن أجر الاستشهاد هو الجنة فلماذا يقدم الأباعد ولا يقدم أحبابه للقتال ؟

لكن ها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم أقاربه وأحبابه ، فهو العارف من ربه بأمر الشهادة وكيف أنها تقصر على الإنسان صاحب الحياة وتدخله الجنة . هكذا كانت المحاباة فى صدر الإسلام ، إنها محاباة فى الباقى ، ولم تكن كمحاباة الحمقى فى الفانى .

وحين يعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك ويضرب على أيدى المرابين فهذه هى الحرب التى يجب أن تقوم ، حرب من الله المالك القادر على المحاربة ، أما الضعاف الذين لا يستطيعون القتال فهم لا يحاربون ؛ لأنهم أمام خالقهم وقاهرهم فلا يقدرون على حربه ولذلك يجب أن تنتبه الدولة إلى مثل هذه الأمور وتقنن تقنيناً إسلامياً وبعد ذلك إذا لم تتسع الزكاة المفروضة إلى ما يقوم بأود المحتاجين فلتفرض الدولة ما تشاء لتفى بحاجة المحتاجين .

والحق سبحانه وتعالى بعد أن أوضح الأمر عقيدة فى قوله : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » ، وتقنيناً للعقيدة فى قوله : « لا إكراه فى الدين » ، وحماية للعقيدة يأمره سبحانه المؤمنين أن يقاتلوا لتكون كلمة الله هى العليا ، وبعد ذلك تكلم الحق عن حماية حركة الاقتصاد فى الإنفاق أولاً فى سبيل الله ، والإنفاق على المحتاجين . يقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ

(١) رواه مسلم فى خطبة الوداع فى حجة الوداع .

أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

استهلت الآية بتقديم « لله » على ما في السماوات وما في الأرض ، والحق سبحانه يقول : « لله ما في السماوات وما في الأرض » ذلك هو الظرف الكائنة فيه المخلوقات ، السماوات والأرض لم يدع أحد أنها له ، لكن قد يوجد في السماوات أو في الأرض أشياء يدعي ملكيتها المخلوقون ، وإذا ما نظرنا إلى خيرات الأرض فإننا نجدها مملوكة في بعض الأحيان لأناس بما ملكهم الله ، والبشر الذين صعدوا إلى السماء وأداروا في جوها ما أداروا من أقمار صناعية ومراكب فضائية فمن الممكن أن يعلنوا ملكيتهم لهذه الأقمار وتلك المراكب

ويلفتنا الحق سبحانه هنا بقوله : « لله ما في السماوات وما في الأرض » وهو يوضح لنا : إنه إن كان في ظاهر الأمر أن الله قد أعطى ملكية السببية لخلقه فهو لم يعط هذه الملكية إلا عرضاً يؤخذ منهم ، فإما أن يزولوا عنه فيموتوا ، وإما أن يزول عنهم فيؤخذ منهم عن بيع أو هبة أو غصب أو نهب

وكلمة « لله » تفيد الاختصاص ، وتفيد القصر ، فكل ما في الوجود أمره إلى الله ، ولا يدعي أحد بسببية ما آتاه الله أنه يملك شيئا لماذا ؟ لأن المالك من البشر لا يملك نفسه أن يدوم

نحن لم نر واحداً لم تنله الأغيار ، وما دامت الأغيار تنال كل إنسان فعلينا أن نعلم أن الله يريد من خلقه أن يتعاطفوا ، وأن يتكاملوا ، ويريد الله من خلقه أن يتعاونوا ، والحق لا يفعل ذلك لأن الأمر خرج من يده ـ والعياذ بالله ـ لا ، إن الله يلفتنا . أنا لي ما في السماوات وما في الأرض ، وأستطيع أن أجعل المسألة دولاً بين الناس

ولذلك نقول للذين يصلون إلى المرتبة العالية فى الغنى ، أو الجاه ، أو أى مجال ، لهؤلاء نقول : احذر حين تتم لك النعمة ، لماذا ؟ لأن النعمة إن تمت لك علواً وغنىً وعافيةً وأولاداً ، أنت من الأغيار ، ومادامت قد تمت وصارت إلى النهاية وأنت لاشك من الأغيار ، فإن النعمة تتغير إلى الأقل فإذا ما صعد إنسان إلى القمة وهو متغير فلا بد له أن ينزل عن هذه القمة ، ولذا يقول الشاعر

إذا تم شيء بدا نقصه ترقب زوالاً إذا قيل تم

والتاريخ يحمل لنا قصة المرأة العربية التى دخلت على الخليفة وقالت له . أتم الله عليك نعمته وسمعها الجالسون حول الخليفة ففرحوا ، وأعلنوا سرورهم ، لكن الخليفة قال لهم والله ما فهمتم ما تقول ، إنها تقول : أتم الله عليك نعمته ، فإنها إن تمت تزول ، لأن الأغيار تلاحق الخلق وهكذا فهم الخليفة مقصد المرأة

والشاعر يقول :

نفسى التى تملك الأشياء ذاهبة

فكيف آسى على شيء لها ذهبا

إن النفس المالكة هى نفسها ذاهبة ، فكيف يحزن على شيء له ضاع منه ؟

والحق سبحانه يطلب منا أن نكون دائماً على ذكر من قضية واضحة هى أن الكون كله لله ، والبشر جميعاً بذواتهم ونفوسهم وما ظهر منها وما بطن لا يخفى على الله ، والحق سبحانه لا يحاسبنا على مقتضى ما علم فحسب ، بل يحاسبنا على ما تم تسجيله علينا .

إن كل إنسان يقرأ كتابه بنفسه . سبحانه يقول :

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤ ﴾

(سورة الإسراء)

والحساب معناه أن للإنسان رصيدا ، وعليه أيضا رصيد . والحق سبحانه وتعالى يبصرنا (له وعليه) بالميزان كما نعرف في موازين الأشياء عندنا وهو سبحانه يقول

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إن حساب الحق دقيق عادل ، فالذين ثقلت كفة أعمالهم الحسنة هم الذين يورثون بالفردوس ، والذين باعوا أنفسهم للشيطان وهوى النفس تثقل كفة أعمالهم السيئة ، فصاروا من أصحاب النار

إذن نحن أمام نوعين من البشر ، هؤلاء الذين ثقلت كفة الخير في ميزان الحساب ، وهؤلاء الذين ثقلت كفة السيئات والشرور في ميزان الحساب ، فماذا عن الذين تساوت الكفتان في أعمالهم ، استوت حسناتهم مع سيئاتهم ؟ إنهم أصحاب الأعراف ، الذين ينالون المغفرة من الله ، لأن مغفرة الله وهو الرحمن الرحيم قد سبقت غضبه جل وعلا ، ولو لم يجيء أمر أصحاب الأعراف في القرآن لقال واحد : لقد قال الله لنا خبر الذين ثقلت موازينهم ، وأخبار الذين خفت موازين الخير عندهم ، ولم يقل لنا خبر الذين تساوت شرورهم مع حسناتهم

لكن الحليم الخبير قد أوضح لنا خبر كل أمر وأوضح لنا أن المغفرة تسبق الغضب عنده ، لذلك فالحساب لا يكتفي الحق فيه بالعلم فقط ، ولكن بالتسجيل الواضح الدقيق ، لذلك يطمئننا الحق سبحانه فيقول :

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إن الحق يطمئننا على أن ما نصنعه من خير نجده في كفة الميزان ، ويطمئن أيضا على أنه ـ سبحانه ـ سيجازينا على ما أصابنا من شر الأشرار وأننا سنأخذ من حسناتهم

لتضاف إلى ميزانا ، إذن فالطمأنينة جاءت من طرفين : طمأننا الحق على ما فعلناه من خير ، فلا يُنسى أنه يدخل فى حسابنا ، وطمأننا أيضا على ما أصابنا من شر الأشرار ، وسيأخذ الحق من حسناتهم ليضيفها لنا .

ونحن نجد فى الكون كثيراً من الناس قد يحبهم الله لخصلة من خصال الخير فيهم ، وقد تكون هذه الخصلة الخيرة خفيَّة فلا يراها أحد . لكن الله الذى لا تخفى عليه خافية يرى هذه الخصلة فى الإنسان ، ويحبه الله من أجلها ، ويرى الحق أن حسنات هذا الرجل قليلة ، فيجعل بعض الخلق يصيبون هذا الرجل بشرورهم وسيئاتهم حتى يأخذ من حسنات هؤلاء ليزيد فى حسنات هذا الرجل .

ومعنى « تبدوا ما فى أنفسكم » أى تصيروا الوجدانيات إلى نزوعيات عملية ، ولكن هل معنى « أو تخفوه » هو ألا تصيروا الوجدانيات النفسية إلى نزوعيات عملية ؟ لا ، فليس لكل شىء نزوع عملى . ومثال ذلك الحب ؛ إن الإنسان قد يحب ، ولا يجد القدرة على النزوع ليعلن بهذا النزوع أنه يحترق فى حبه ، وكذلك الذى يحقد قد لا يجد القدرة على النزوع ليعلن بهذا النزوع عن حقده ، إذن فهناك أعمال تستقر فى القلوب ، فهل يؤاخذ الله بما استقر فى النفوس ؟

إن هذه المسألة تحتاج إلى دقة بالغة ؛ لأننا وجدنا بعضا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقفوا فيها موقفا أبكى بعضهم ، هذا عبدالله بن عمر رضى الله عنهما حينما سمع هذه الآية قال : لئن آخذنا الله على ما أخفينا فى نفوسنا لنهلكن . وبكى حتى سُمع نشيجه بالبكاء . وبلغ ذلك الأمر ابن عباس فقال : يرحم الله أبا عبدالرحمن لقد وجد إخوانه المسلمون مثلما وجد من هذه الآية ، فأنزل الله بعدها « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » إلى آخر السورة .

ولنعلم أن نوازع النفس كثيرة ؛ فهناك شىء اسمه « هاجس » وهناك شىء آخر اسمه « خاطر » وهناك ما يسمى « حديث نفس » ، وهناك « هم » وهناك « عزم » ، إنها خمس حالات ، والأربع الأولى من هذه الحالات ليس فيها شىء ، إنما الأخيرة التى يكون فيها القصد واضحا يجب أن ننتبه لها ولنتناول كل حالة بالتفصيل .

إن الهاجس هو الخطرة التي تخطر دفعة واحدة ، أما الخاطر فهو يخطر .. أي يسير في النفس قليلا ، وأما حديث النفس فإن النفس تظل تتردد فيه ، وأما الهم فهو استجماع الوسائل ، وسؤال النفس عن كل الوسائل التي ينفذ بها الإنسان رغباته ، أما العزم (القصد) فهو الوصول إلى النهاية والبدء في تنفيذ الأمر.

والقصد هو الذي يُعنى به قوله تعالى . « وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » وقد وجدنا كثيرا من العلماء قد وقفوا عند هذا القول وتساءل بعض من العلماء : هل الآية التي جاءت بعد ذلك والتي يقول فيها : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » هل هي نسخ للآية السابقة عليها ؟

ولكن نحن نعرف أن الآية هي خبر ، والأخبار لا تنسخ إنما الأحكام هي التي يتم نسخها ، وعلى ذلك يكون القصد والعزم على تنفيذ الأمر هو المعنى بقوله الحق : « وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » فهذا هو الذي يحاسبنا الله عليه .

وعندما يقول الحق سبحانه : « فيغفر لمن يشاء » فمن هم ؟ لقد بين الله من يشاء المغفرة لهم ، إنهم الذين تابوا ، وهم الذين أنابوا إلى الله ، هم الذين قال فيهم الحق :

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠ ﴾

(سورة الفرقان)

وتبديل المغفرة حسنة مسألة يجب أن يقف عندها الإنسان المكلف من الله وقفة ليرى فضل الله ، لأن الذي صنع سيئة ثم آلمته ، نكزا آلمته السيئة التي ارتكبها وحزن منها ، فإن الله يكتب له حسنة . ولكن الذي لم يصنع سيئة لا تنزعه هذه ، وبعض العارفين يقول : رُبَّ معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا .

إنك لتجد الخير الشائع في الوجود كله ربما كان من أصحاب الإسراف على أنفسهم في شيء ما قد اقترفوه وتابوا عنه ولكنه لا يزال يؤرقهم .

يكون الواحد منهم قويا في كل شيء ، إلا أنه ضعيف أمام مسألة واحدة ، وضعفه أمام هذه المسألة الواحدة جعله يعصي الله بها وهو يحاول جاهداً في النواحي التي ليس ضعيفاً فيها أن يزيد كثيراً في حسناته ، حتى يمحو ويذهب الله هذه بهذه . فالخير الشائع في الوجود ربما كان من أصحاب السيئات الذين أسرفوا على أنفسهم في ناحية من النواحي ، فيشاء الله سبحانه وتعالى أن يجعلهم متجهين إلى نواح من الخير قائلين : ربما هذه تحمل تلك .

لكن الذي يظل رتيباً هكذا لا تدفعه معصية ربما تظل المسائل فاترة في نفسه ولذلك يجب أن ننظر إلى الذين أسرفوا على أنفسهم لا في زاويه واحدة ، ولكن في زوايا متعددة ، ونتأدب أمامهم وندعو الله أن يعفيهم مما نعرفه عنهم ، وأن يبارك لهم فيما قدموه ؛ ليزيل الله عنهم أوزار ما عملوا

وبعض العلماء يرى في قوله الحق : « فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » أن الله قد جعل المغفرة أمراً متعلقاً بالعابد لله ، فإن شئت أن يغفر الله لك فأكثر من الحسنات حتى يبدل الله سيئاتك إلى حسنات وإن شئت أن تعذب . وهذا أمر لا يساوره أحد . فلا تضيع الحسنات

وهذه المسألة تجعلنا نعرف أن الحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا الإيمان به فإنه يُملكنا الزمام . وبمجرد إيماننا به نصبح متلقين منه زمام الاختيار . والدليل واضح في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله - عز وجل - .

« أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هم خيرٌ منهم وإن تقرب مني شبرا تقربتُ إليه ذراعا ، وإن تقرب إليّ ذراعا ، تقربت منه باعا ، وإن أتاني يمشي أتيته هرْولة »[1]

إذن فبمجرد إيمانك ملكك الله الزمام ، فإن أردت أن يتقرب الله إليك ذراعا ،

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة في كتاب الذكر

فتقرب أنت إليه شبرا ، فالزمام في يدك . وإن شئت أن يتقرب الله منك باعا ، فتقرب أنت ذراعا . وإن شئت أنت أن يأتي ربك إليك مهرولاً ـ جرياً ـ فأت إليه مشيا . فبمجرد أن يراك الله وأنت تقبل وتتجه إليه ، كأنه يقول لك : لا ، استرح أنت ، أنا الذي آتي إليك .

ولذلك قلنا من قبل في مسألة الصلاة حين تؤمن ـ أيها العبد ـ بالله وبعد ذلك ينادي المؤذن للصلاة ، فتذهب أنت إلى الصلاة ، صحيح أنت تذهب إلى الصلاة المفروضة ، لكن هل منعك الله أن تقف بين يديه في أية لحظة ؟ لقد طلب الله منك أن تحضر بين يديه خمس مرات في اليوم ، وبعد ذلك ترك الباب مفتوحاً لك ـ أيها المؤمن ـ فالله لا يمل حتى يمل العبد .

والإنسان في حياته العادية ـ ولله المثل الأعلى ـ إذا أراد أن يقابل عظيماً من العظماء من الإنسان يطلب الميعاد ، وإما أن يقبل العظيم من البشر لقاء من يطلب الميعاد أو يرفض . وإذا قبل العظيم من البشر لقاء من يطلب الميعاد ، فإن العظيم من البشر يحدد الزمن ، ويحدد المكان ، وربما طلب العظيم من البشر أن يعرف سبب وموضوع المقابلة . لكن الله يترك الباب مفتوحاً أمام العبد المؤمن ، يلقى الله عبده في أي شيء ، وفي أي وقت ، وفي أي مكان ، وفي أي زمان .

حسب نفسي عزاً بأني عبد يحتفي بي بلا مواعيد رب
هو في قدسه الأعز ولكن أنا ألقى متى وأين أحب

الزمام إذن في يد من ؟ . إن الزمام في يد العبد المؤمن . لذلك فالذين قالوا في مهم ، فيغفر لمن يشاء ، إن البشر في أيديهم أمر المغفرة لهم ، فإن شاء البشر أن يغفر الله لهم فإنهم يفعلون أسباب المغفرة ، ويتوبون إلى الله ، ويكثرون من الحسنات ، ومن يريد أن يتعذب فليظل سادراً في غيه في فعل السيئات . ثم بعد ذلك يقول الله عز وجل :

﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾

﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾

عندما نتأمل هذه الآية الكريمة نجد أن الإيمان الأول بالله كان من الرسول صلى الله عليه وسلم : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه » وبعد ذلك يأتي إيمان الذين بلغهم الرسول بالدعوة « والمؤمنون » . وبعد ذلك يمتزج إيمان الرسول بإيمان المؤمنين « كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » .

أي أن كلا من الرسول والمؤمنين آمنوا بالله . إن الإيمان الأول هو إيمان الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإيمان أيضاً من المؤمنين بالرسالة التي جاء بها الرسول بناء على توزيع الفاعل في « آمن » بين الرسول والمؤمنين . وبعد ذلك يجمعهم الله - الرسول والمؤمنين - في إيمان واحد . وهذا أمر طبيعي ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم آمن بالله أولاً ، وبعد ذلك بلغنا الرسول صلى الله عليه وسلم وآمنا بالله وبه ثم امتزج الإيمان فصار إيماننا هو إيمان الرسول وإيمان الرسول هو إيماننا ، وهذا ما يوضحه القول الحق - « كل آمن بالله » .

إذن فالرسول في مرحلته الأولى سبق بالإيمان بالله ، والرسول مطلوب منه حتى حين يؤمن بالله أن يؤمن بأنه رسول الله ، ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم : أشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وكان الرسول إذا ما أعجبه أمر في سيرته ذاتها يقول : أشهد أني رسول الله . إنه يقولها بفرحة .

مثال ذلك ما روي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : « كان بالمدينة يهودي وكان يسلفني في تمري إلى الجداد ، وكان لجابر الأرض التي بطريق رومة فجلست[1]

(١) فجلست : تأخرت الأرض عن الإثمار ، وفي رواية : فخاست : أي خالفت ما كان معهوداً منها من الثمر

فخلا[1] فجاء اليهودي عند الجداد[2] ولم أجد منها شيئاً فجعلت أستنظره إلى قابل ، أي أطلب منه أن يمهلني إلى عام ثان ، فيأبى فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال لأصحابه : امشوا نستنظر لجابر من اليهودي فجاءوني في نخلي ، فجعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم يكلم اليهودي فيقول (اليهودي) أبا القاسم ، لا أنظره فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم قام فطاف في النخل ثم جاءه فكلمه فأبى ، فجئت بقليل رطب فوضعته بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فأكل ثم قال : أين عريشك يا جابر فأخبرته ، فقال : افرش لي فيه ففرشته ، فدخل فرقد ثم استيقظ فجئته بقبضة أخرى فأكل منها ، ثم قام فكلم اليهودي فأبى عليه ، فقام في الرطاب في النخل الثانية ثم قال يا جابر ، جذ واقض فوقف في الجداد فجددت منها ما قضيته ، وفضل منه فخرجت حتى جئت النبي صلى الله عليه وسلم فبشرته فقال : أشهد أني رسول الله[3]

والحق سبحانه وتعالى يشهد أن لا إله إلا هو :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فالله يشهد أن لا إله إلا هو ، ورسول الله يشهد أن لا إله إلا الله ، ويشهد أيضاً أنه رسول الله ، فبلغ ذلك للمؤمنين فيكتمل التكوين الإيماني ، ولذلك يقول الحق عن ذلك : « كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » والحق يأتي بـ « كل » ـ بالتنوين ـ أي كل من الرسول والمؤمنين .

ويورد الحق سبحانه عناصر الإيمان : « كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » ونحن نعرف أن الإيمان بالله وكل ما يتعلق بالإيمان لابد أن يكون غيباً ؛ فلا يوجد إيمان بمحس

(١) فخلا : تأخر السنة عام

(٢) الجداد (بكسر الجيم وفتحها وبالدال المعجمة ويجوز المهملة) زمن قطع ثمر النخل

(٣) رواه البخاري في الأطعمة ، ومسلم في الإيمان

أبداً . فالأشياء المحسة لا يدخلها إيمان ، لأنها مشهودة . وعناصر الإيمان في هذه الآية هي :

إيمان بالله وهو غيب . وإيمان بالملائكة وهي غيب من خلق الله ، ولو لم يبلغنا الله أن له خلقاً هم الملائكة لما عرفنا ، إن الحق أخبرنا أنه خلق الملائكة وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهم غيب ، ولولا ذلك لما عرفنا أمر الملائكة إيمان بالكتب والرسل .

وقد يقول قائل : هل الرسل غيب ؟ وهل الكتب السماوية غيب ؟ إن الرسل بشر ، والكتب مشهودة . ولمثل هذا القائل نقول : لا ، لا يوجد واحد منا قد رأى الكتاب ينزل على الرسول ، وهذا يعني أن عملية الوحي للرسول بالكتاب هي غيب يعلمه الله ويؤمن به المؤمنون .

وكيف نؤمن بكل الرسل ولا نفرق بين أحد منهم ؟ . ونقول : إن الرسل المبلغين عن الله إنما يبلغون منهج عن الله فيه العقائد التي لا تختلف باختلاف العصور ، وفيه الأحكام التي تختلف باختلاف العصور ومواقع القضايا فيها .

إذن فالأصل العقدي في كل الرسالات أمر واحد ، ولكن المطلوب في حركة الحياة يختلف ؛ لأن أقضية الحياة تختلف . وحين تختلف أقضية الحياة فإن الحق سبحانه ينزل التشريع المناسب ، لكن الأصل واحد والبلاغ من خالق لا إله إلا هو . ولذلك يأتي القول الحكيم : « لا نفرق بين أحد من رسله » فنحن لا نفرق بين الرسل في أنهم يبلغون عن الله ما تتفق فيه مناهج التبليغ من ناحية الاعتقاد ، وما تختلف من ناحية الأحكام التي تناسب أقضية كل عصر .

وبعد ذلك يقول الحق : « وقالوا سمعنا وأطعنا » إذن السماع هو بلوغ الدعوة ، والطاعة هي الانفعال بالمطلوب ، وأن ينفذ المؤمن أمراً ويمتثل المؤمن نهياً في كل أمر يتعلق بحركة الكون . فالذين يريدون أن يعزلوا الدين عن حركة الحياة يقولون : إن الدين يهتم بالعبادات كالصلاة والصوم والزكاة والحج . وبعد ذلك يطلبون عزل حركة الحياة عن الدين .

هؤلاء بقول : أنتم تتكلمون عن بلعكم من دين لم يجىء لينظم حركة الحياة ، وإنما جاء ليعطى الحرية المفقودة عند اليهود وهى الحرية الروحية ، لكن الدين الإسلامى جاء جامعاً للأديان منظماً حركة الحياة ، فكل أمر فى الحياة وكل حركة فيها داخلة فى حدود الطاعة ونحن حين نقرأ القرآن الكريم ، نجد القول الحكيم .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ ﴾

(سورة الجمعة)

إذن الحق سبحانه يأمر المؤمنين ويخرجهم من حركة من حركات الحياة إلى حركة أخرى ، فهو لم يأخذهم من فرغ ، إنما ناداهم لإعلان الولاء الجماعى ، وهو إعلان من كل مؤمن بالعبودية لله أمام بقية المخلوقات وبعد أن يقضى المؤمنون الصلاة ماذا يقول لهم الحق سبحانه ؟ يقول لهم

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ ﴾

(سورة الجمعة)

إذن فالانتشار فى الأرض هو حركة فى الحياة ، تماماً كما كان النداء إلى السعى لذكر الله وهكذا تكون كل حركة فى الحياة داخلة فى إطار الطاعة ، إذن « سمعنا وأطعنا » أى سمعنا كل المنهج ، ولكن نحن حين نسمع المنهج ، وحين نطيع فهل لنا قدرة على أن نطيع كل المنهج أو أن لنا هفوات ؟

ولأن أحداً لن يتم كل الطاعة ولنا هفوات جاء قوله الحق « غفرانك ربنا وإليك المصير » فالغاية والنهاية كلها عائدة إليك ، وأنت الإله الحق ، لذلك فنحن العباد نطلب منك المغفرة حتى نلقاك ، ونحن آمنون على أن رحمتك سبقت غضبك ويقول الحق

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٨٦)

«لا يكلف الله نفساً إلا وسعها» إنه سبحانه لم يكلفكم إلا ما هو في الوسع لماذا؟ لأن الأحداث بالنسبة لعزم النفس البشرية ثلاثة أقسام: القسم الأول: هو ما لا قدرة لي عليه، وهذا بعيد عن التكليف. القسم الثاني: لي قدرة عليه لكن بمشقة أي بجهد طاقتنا قليلاً. القسم الثالث: التكليف بالوسع. إذن «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها» أي أن الحق لا يكلف النفس إلا تكليفاً تكون فيه طاقتها أوسع من التكليف، كلف الحق كل مسلم بالصلاة خمسة فروض كل يوم، ونملأ أوقاتنا بالصلاة وكان من الممكن أن تكون عشرة، بدليل أن هناك أناساً تتطوع وهو سبحانه كلف كل مسلم بصوم شهراً، ألا يوجد من يصوم ثلاثة أشهر؟ ومثل هذا في الزكاة، فهناك من كان يخرج عن ماله كله لله، ولا يقتصر على ما يجب عليه من زكاة.

إذن فهذا في الوسع، ومن الممكن أن نزيد، إذن فالأشياء ثلاثة: شيء لا يدخل في القدرة فلا تكليف به، وشيء يدخل في القدرة بشيء من التعب، وشيء في الوسع، والحق حين كلف، كلف ما في الوسع. ومادام كلف ما في الوسع فإن

تطوعت أنت بأمر زائد فهذا موضوع آخر « فمن تطوع خيراً فهو خير له » مادمت تتطوع من جنس ما فرض .

إذن فالتكليف في الوسع وإلا لو لم يكن في الوسع لما تطوعت بالزيادة . فسبحانه يقول : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » ويأتي بعد ذلك ليعلمنا فيقول « ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » ، وهو القائل « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » إذن ـ سبحانه ـ يكلفنا بما نقدر عليه ونطيقه .

فقد روي أن الله حينما سمع رسوله وسمع المؤمنين يقولون : « ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا » قال سبحانه : قد فعلت .

وعندما قالوا : « ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » قال سبحانه : قد فعلت . ولم يكلفنا سبحانه إلا بما في الوسع ، وهو القدر المشترك عند كل المؤمنين . وهناك أناس تكون همتهم أوسع من همة غيرهم ، ومن تتسع همته فإنه يدخل بالعبادات التي يريد منها في باب التطوع ، ومن لا تتسع همته فهو يؤدي الفروض المطلوبة منه فقط وعندما يطرأ على الإنسان ما يجعل الحكم في غير الوسع ، فإن الله يخفف التكليف ؛ فالمسافر تقول له الشريعة : أنت تخرج عن حياتك الرتيبة ، وتذهب إلى أماكن ليس لك بها مستقر ، لذلك يخفف الحق عليك التكليف ؛ فلك أن تفطر في نهار رمضان ، ولك أن تُقصر الصلاة .

والحق سبحانه يعلم أن الوسع قد يضيق ؛ لذلك فإنه ـ جل شأنه ـ يخفف حكم التكليف ويمنح الرخص عند ضيق الوسع ، ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأنفال)

كانت النسبة في القتال قبل هذه الآية هي واحداً لعشرة ، وخففها الحق وجعلها

واحداً إلى اثنين لأن هناك ضعف ، وهكذا نرى أنه سبحانه سيخفف التكليف إذا ما زاد عن الوسع . وكثير من الناس يخطئون التفسير ، فيقولون عن بعض التكاليف : إنها فوق وسعهم ولهؤلاء نقول : لا . لا تحدد أنت الوسع ، ثم تقيس التكليف عليه ، بل انظر هل كلفك أو لم يكلفك ؟ فإذا كان قد كلفك الحق فاحكم بأنه كلفك بما في الوسع ، وكل تكاليف الرحمن تدخل في الوسع « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » .

و« لها » تفيد الملكية والاختصاص وهي ما تفيد وتكسب النفس ثوابا ، و« عليها » تفيد الوزر ، ونلاحظ أن كل « لها » جاءت مع « كسبت » ، وكل « عليها » جاءت مع « اكتسبت » إلا في آية واحدة يقول فيها الحق :

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهنا وجه في الأسلوب ؛ لأن « كسب » تعني أن هناك فرقاً في المعالجة العملية الحدثية بينها وبين كلمة « كتسبت » ، لأن « اكتسب » فيها « افتعل » أي تكلف ، وقام بفعل أخذ منه علاجاً ، أما « كسب » فهو أمر طبيعي إذن فهو كسب غير « اكتسب » وكل أفعال الخير تأتي كسباً لا اكتساباً .

مثال ذلك عندما ينظر الرجل إلى زوجته ، ويرى جمالها ، فهل هو يفتعل شيئاً ، أو أن ذلك أمر طبيعي ؟ إنه أمر طبيعي ، ولكن عندما ينظر الرجل إلى غير محارمه فإنه يرقب هل يرى أحد النظرة ؟ وهل رآه أحد من الناس ؟ وهل سينال سخرية واستهزاء على ذلك الفعل أو لا ؟ لماذا ؟ لأنه ارتكب عملاً مفتعلاً .

مثال آخر ، إنسان يأكل من ماله ، أو من مال أبيه ، إنه يأكل كأمر طبيعي ، أما من يدخل بستاناً ويريد أن يسرق منه فهو يتكلف ذلك العمل ، ويريد أن يستر نفسه ، فصاحب الشر يفتعل ، أما صاحب الخير فإن أفعاله سهلة لا افتعال فيها فالشر هو الذي يحتاج إلى افتعال

والمصيبة الكبرى ألا يحتاج الشر إلى افتعال ؛ لأن صاحبه يصير إلى بلادة الحس الإيمانى ، وتكون الشرور بالنسبة إليه سهلة ؛ لأنه تعود عليها كثيرا . ويقول الحق « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته » إن الخطيئة تحيط به من كل ناحية ، ولم يعد هنالك منفذ ، وهو لا يفتعل حتى صارت له ملكة فى الشر ؛ فاللص مثلاً فى بداية عمله يخاف ويترقب ، لكن عندما تصبح اللصوصية مهنته فإنه يحمل أدوات السرقة ويصير حسه متبلداً .

ففى المرحلة الأولى من الشر يكون أهل الشر فى حياء من فعل الشر ، وذلك دليل على أن ضمائرهم وقلوبهم مازال فيها بعض من خير ، لكن عندما يحترفون الشر حرفة وملكة فهنا المصيبة ، وتحيط بكل منهم خطيئته وتطوقه ولا تجعل له منفذا إلى الله ليتوب

فالذى يلعب الميسر ، أو طوقته خطيئة الفحش قد يقول فرحاً « كانت سهرة الأمس رائعة » ، أما الذى يرتكب الخطأ لأول مرة فإنه يقول « كانت ليلة سوداء يا ليتها ما حدثت » ، ويظل يؤنب نفسه ويلومها ؛ لأنه تعب وأرهق نفسه ؛ لأنه ارتكب الخطأ .

إذن فقول الحق : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » يوضح لنا أن فعل الشر هو الذى يحتاج إلى مجهود ، وإن انتقلت المسألة من اكتسبت إلى كسبت فهذه هى الطامة الكبرى ، ويكون قد أحاطت به خطيئته . ويكون على كل نفس ما اكتسبت والعاقل هو من يكثر ما لنفسه ، لا ما عليها ؛ لأن الذى يقول ذلك هو الحق العام المالك الذى إليه المصير ، فليس من هذا الأمر مفر . وبعد ذلك يقول الحق على لسان عباده المؤمنين : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » ، ولقائل أن يقول : إن الرسول صلى الله عليه وسلم طمأننا ، فقال : (رفع عن أمتى الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه)[1]

فكيف يأتى القرآن بشىء مرفوع عن الأمة الإسلامية ليدعو به الناس ربهم ليرفعه عنهم ؟

---

(١) رواه الطبرانى فى معجمه الكبير عن ثوبان

على مثل هذا القائل نرد : هل قال لك أحد . إن رفع الخطأ والنسيان والاستكراه كان من أول الأمر؟ لعل الرفع حدث بعد أن دعا الرسول والسابقون من المؤمنين ، فما دام قد رُفِعَ - بضم الراء وكسر الفاء وفتح العين - فمعنى ذلك أنه كان موجوداً ، إذن فلا يقولن أحد : كيف تدعو بشيء غير موجود . لو أن ذلك يدل على منتهى الصفاء الإيماني ، أي انه يجب ألا يُعصى إلا خطأ أو نسياناً ، وأن الله لا يصح ولا يستقيم أن يُعصى قصداً ؛ لأن الذي يعرف قدر الله حقاً ، لا ينبغي منه أن يعصى الله إلا نسياناً أو خطأ ؛ لأن الخالق هو المنعم بكل النعم ، وبعد ذلك كلها ، وكان يجب ألا نقصد المعصية ولذلك فالحق سبحانه وتعالى قد سمى ما حدث من آدم معصية مع أنه يقول :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة طه)

وسمى الله النسيان في قصة آدم معصية . « وعصى آدم ربه فغوى » فكان النسيان أولاً معصية ، ولكن الله أكرم أمة محمد ، فرفع عنها النسيان وفي مسألة آدم هناك ملحظ يجب على المؤمن أن يتنبه إليه ؛ فآدم خلق بيد الله ، ونحن مخلوقون بقانون التكاثر ، وآدم تلقى التكليف من الله مباشرة وليس بواسطة رسول ، وكُلف بأمر واحد وهو ألا يأكل من الشجرة

فإذا كان آدم مخلوقاً من الله مباشرة ومكلفاً من الله مباشرة ، ولم يكلف إلا بأمر واحد وهو ألا يقرب هذه الشجرة ، ولم تكن هناك تكاليف كثيرة فماذا نسي ؟ وماذا تذكر؟ إنها معصية إذن . لقد كان النسيان بالنسبة لآدم معصية ؛ لأنه مخلوق بيد الله .

﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

لذلك فلم يكن من المناسب أن ينسى هذا التكليف الواحد ، وما كان يصح له أن ينسى ، ولعلَّ سيدنا آدم نسيَ لحكمة يعلمها الله ربما تكون بعمر الأرض التي جعله الله خليفة فيها ؛ أما بالنسبة لأمة محمد فحينما نقول : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو

أخطأنا ، فكأننا يارب نقدرك ، حق قدرك ، ولا نجترىء على عصيانك عمدا ، وإن عصينا فإنما يكون العصيان نسياناً أو خطأ ، وهذه معرفة لقدر الحق سبحانه وتعالى

ولكن ما النسيان ؟ وما الخطأ ؟

أولاً فيه « أخطأ » وفيه « خطىء » و الخطء ، لا يكون إلا إثما ، لأنه تعمد ما لا ينبغي ، فأنت تعلم قاعدة وتخطىء ، والذي أخطأ قد لا يعرف القاعدة ، فأنت تصوب له خطأه لأنه حاد عن الصواب

ومثال ذلك : عندما تتعلم في المدرسة أن الفاعل مرفوع ، والمفعول منصوب ، وفي وسط السنة يصححون لك القاعدة حتى تستقر في ذهنك ، إنما في أيام الامتحان أيصحح لك المدرس أم يؤاخذك ؟ إنه يؤاخذك ؛ لأنك درست طوال السنة هذه القاعدة ، إذن فيه خطىء وفيه أخطأ ، فأخطأ مرة تأتي عن غير قصد ؛ لأنه لا توجد قاعدة أنا خالفتها ، أو لم أعرف القاعدة وإنما نطقت خطأ ؛ لأنهم لم يقولوا لي ، أو قالوا لي مرة ولم أتذكر ، أي لم تستقر المسألة كملكة في نفسي . لأن التلميذ يخطىء في الفاعل والمفعول مدة طويلة ، وبعد ذلك ينضج وتصير اللغة ملكة في نفسه إن كان مواظبا على صيانتها

كان التلميذ في البداية يقول : قطع محمد الغصن ، ولا يقولها مُشكَّلَةً ولكن يسكن الآخر في نهاية نطقه لاسم محمد ، وساعة يتذكر القاعدة ينطقها « محمد » بالرفع وينطق « الغصن » بالنصب لماذا ؟ لأنه ترد ثلاث قواعد في ذهنه ، هذه فاعل والفاعل حكمه الرفع ، فهي مرفوعة ، فهو يمر بقضية عقلية ، لكن بعدما يمر عليها يقرأها صحيحة وقد لا يتذكر القاعدة ، فقد صارت المسألة ملكة لغوية عنده ، هذه الملكة اللغوية مثلها نقول :« صارت آلية » .

ومثال ذلك الصبي الذي يتعلم الخياطة ، انظر كم من الوقت يمر ليتعلم كيف يمسك بخيط ليدخله في سم الإبرة ، وقد يضربه معلمه أكثر من مرة ليتعلمها ، وفتلة الخيط تنثني منه لأنها طويلة فيقصرها ثم لا تدخل في العين فيبرمها لتدخل ، إنه يأخذ وقتا كثيرا ثم يعمل الغرزة فتخرج غير منتظمة وبعد ذلك يظل مدة ، ثم يعمل كل .

هذه الأعمال بتلقائية وهو يتكلم مع غيره ، لأن هذه الأعمال صارت ملكة ذاتية أي عملاً آلياً

والتدريب على العمل الذهني ـ حسب قواعد صحيحة مثل تعلم اللغة ـ نسميه ملكة أما التدريب على عمل الجوارح ـ مثل إدخال الخيط في سم الإبرة ـ نسميه آلية .

وعلى سبيل المثال في العمل الذهني عندما تسأل سؤالاً في الفقه لطالب في الأزهر فإنه يحتار قليلاً إلى أن يتعرف على الباب الذي فيه إجابة للسؤال ، أما إذا سألت السؤال نفسه لعالم مدرب بمجرد أن توجه له السؤال فإنه يقول لك الحكم والباب الذي فيه هذا الحكم ، لقد صار الفقه بالنسبة لهذا العالم ملكة .

ويقول الحق من بعد ذلك : « ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا » والإصر هو الشيء الثقيل الذي يثقل على الإنسان ، ومثال ذلك الإصر الذي نزل على اليهود « إن أردتم التوبة فاقتلوا أنفسكم أو تصدقوا أو زكوا بربع أموالكم » لكن الله لم يعاملنا كما عامل الأمم السابقة علينا ، وعندما نقول : « ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » فنحن نصدق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله نعم »[1] ومعنى قال الله نعم أنه سبحانه وتعالى أجاب الدعاء برفع المشقة عن الأمة .

أي أن الله لن يحملنا ما لا طاقة لنا به . وعندما نقول : « واعف عنا » فنحن نتوجه إلى الله ضارعين . أنت يا حق تعلم أننا مهما أوتينا من اليقظة الإيمانية والحرص الورعي فلن نستطيع أن نؤدي حقك كاملاً ، ولذلك لا ندخل عليك إلا من باب أن تعفو عنا

ومعنى العفو محو الأثر ، كالسائر في الصحراء تترك قدماه علامة ، ويأتي الريح لتزيل هذا الأثر كأن هناك ذنباً والذنب له أثر ، وأنت تطلب من الله أن يمحو الذنب .

وعندما نقول : « واغفر لنا » فأنت تعرف أن من مظاهر التكوين البشري النيه

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة

التي تريد أن تحول العزم إلى حيز السلوك والانفعال النزوعي ، فالمسألة تحتاج منك إلى تدريب ، ومثال ذلك ، عندما يذنب واحد في حقك فلك أن ترد عليه الذنب بالذنب ، ولك أن تكظم الغيظ ، لكن يظل الغيظ موجوداً وأنت تحبسه ، ولك أن تعفو .

لكن ماذا عن مثل هذا الأمر بالنسبة للخالق الذي له كمال المقدرة ؟ إن الله قد لا يعذب العبد المذنب ولكنه قد يظل غاضبا عليه ، ومن منا قادر على أن يتحمل غضب الرب ؟ لذلك نطلب المغفرة ، ونقول : « واغفر لنا وارحمنا » فنحن ندعوه سبحانه ألا يدخلنا في الذنب الذي يؤدي إلى غضبه ـ والعياذ بالله ـ علينا . فالعفو هو أن نرتكب ذنبا ونطلب من الله المغفرة ، ولكن الرحمة هي الدعاء بألا يدخلنا في الذنب أصلا .

وعندما يقول الحق : « أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » فهذا اعتراف بعبوديتنا له ، وأنه الحق خالقنا ومتولي أمورنا وناصرنا ، ومادام الحق هو ناصرنا ، فهو ناصرنا على القوم الكافرين ، فكان ختام سورة البقرة منسجماً مع أول سورة البقرة في قوله : « الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون » .

في أول السورة ضرب الله المثل بالكافرين والمنافقين ، وفي ختامها يقول الحق دعاء على لسان المؤمنين : « فانصرنا على القوم الكافرين » هذا القول يدل على استدامة المعركة بين الإيمان والكفر ، وأن المؤمن يأخذ أحكام الله دائماً ليزاول بها الكفر أيان وُجد ذلك الكفر ، ويثق المؤمن تمام الثقة أن الله متوليه ؛ لأن الله مولى الذين آمنوا ، أما الكافرون فلا مولى لهم . فإذا كان الله هو مولى المؤمن ، وإذا كان الكافر لا مولى له ، فمعنى ذلك أنه يجب أن تظل المعركة بين المؤمن والكافر قائمة ، بحيث إذا رأى المؤمن اجتراء على الإسلام في أي صورة من صوره فليثق بأن الله ناصره ، وليثق بأن الله معه . وليثق المؤمن أن الله لا يطلب منه إلا أن يُعمل بحكمه وتأييده بالنصر ؛ لأنه هو الذي يطلب فهو القائل جل وعلا : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم »

يجب أن تظل دائما مؤمناً متيقظاً لعملية الكفر فى أى لون من ألوانها ، فهذا الكفر بعملياته يريد أن يشوه حركة الحياة وأن يتعب الكون ، وأن يجعل القوانين الوضعية البشرية هى المسيطرة ، كما يجب عليك أيها المؤمن أن تكون من المتقين الذين استهل بهم الله سورة البقرة ، وبعد ذلك تسأل الله أن ينصرك دائماً على القوم الكافرين هذا هو مسك الختام من سورة البقرة « فانصرنا على القوم الكافرين »

وختام السورة بهذا النص يوحى بأن الذى آمن يجب أن يعدى إيمانه بربه إلى الخلق جميعاً ، حتى تتساند حركة الحياة ، ولا توجد فيها حركة مؤمن عن هدى لتصطدم حركة كافر على ضلال ، لأن فى ذلك إرهاقاً للنفس البشرية ، وتعطيلاً للقوى والمواهب التى أمد الله بها ذلك الإنسان الذى سخر من أجله كل الوجود ، فلا يمكن أن يعيش الإنسان الذى سوّده الله وكرّمه على سائر الخلق إلا فى أمان واطمئنان وسلام وحركة تتعاون وتتساعد لتنهض بالمجتمع الذى تعيش فيه نهضة عمرانية تؤكد للإنسان حقاً أنه هو خليفة الله فى الأرض

ولا يكتفى الإيمان ما بأن يؤمن الفرد إيماناً يعزله عن بقية الوجود ، لأنه يكون فى ذلك قد حسر حركة الحياة فى الدنيا ، والله يريد به أن يأخذ الدنيا تخدمه كما شاء الله لها أن تكون خادمة ، فحين يعدى المؤمن إيمانه إلى غيره يتمتع بخير الغير ، وإن اكتفى بإيمان نفسه فقط وترك الغير فى ضلالة ، انتفع الغير بخير إيمانه وأصابته مضرة الكافر وأذاه

إذن فمن الخير له أن يؤمن الناس جميعاً ، ويجب أن يعدي ذلك الإيمان إلى الغير ولكن الغير قد يكون متمتعاً بالضلال ؛ لأنه يؤيد له طغيانه ، عندئذ تنشأ المعركة ، تلك المعركة التى غاية كل من دخل فيها أن ينتصر ، فيعلمنا الله أن نطلب النصر على الكافرين منه ؛ لأن النصر على الكافرين لا يعتبر نصراً حقيقياً إلا إن أصّل صفات الخير فى الوجود كله ، وحين تتأصل صفات الخير فى الوجود كله يكون المؤمن قد انتصر بحق

وحين يطلب من الله أن نسأله أن ينصرنا لابد أن نكون على مطلوب الله منا فى المعركة ، بأن نكون جنوداً إيمانيين بحق . وقد عرفنا أن المؤمنين حين يدخلون فى

معركة مع غيرهم يستطيعون أن يحددوا مركزهم الإيماني من غاية المعركة . فإن انتهت المعركة بنصرهم وغلبتهم علموا أنهم من جنود الله ، وإن هزموا وغلبوا فليراجعوا أنفسهم ؛ لأن الله أطلقها قضية إيمانية في كتابه الذي حفظه فقال :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

فإن لم نغلب فلنتظر في نفوسنا : ما الذي أخللنا به من واجب الجندية لله . وحين يعلمنا الحق أن نقول : « فانصرنا على القوم الكافرين » ، أي بعد أن أخذنا أسباب وجودنا من مادة الأرض المخلوقة لنا بالفكر المخلوق لله ، بعمل فيها بالطاقة المخلوقة لله ، وحينئذ نكون أهلاً للنصر من الله ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قد مد يده بأسباب النصر .

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

حينئذ لا تخافون أبداً ؛ لأن لله جنوداً لم تروها ، ولا يتدخل الله بالجنود غير المرئية لنا إلا إذا استنفدنا نحن أسباب الله الممدودة لنا .

وحين يختم الحق سبحانه وتعالى سورة البقرة وهي الزهراء الأولى لتأتي بعدها الزهراء الثانية وهي سورة آل عمران نجد أن هذا هو الترتيب القرآني (الآن) وهو ليس على ترتيب النزول الذي حدث . فللقرآن ترتيبان : ترتيب نزولي حين نزلت الآيات لتعالج حدثاً وقع للأمة المسلمة في صراعها مع الكافرين بربهم ، وفي تربيته لنفوسهم . فكانت كل آية تأتي لتعالج حدثة . والأحداث في الوجود إنما تأتي على أيدي البشر ، فليس من المعقول أن تنزل آيات من القرآن تعالج أحداثاً أخرى لا صلة بينها وبين ما يجري من أحداث في المجتمع الإسلامي أو ما ينشأ في الكون من قضايا .

إذن فلا بد أن توجد الأحداث أولاً ، ويأتي بعدها النص القرآني ليعالج هذه

الأحداث ، ولكن بعد أن اكتمل الدين كما قال الله :

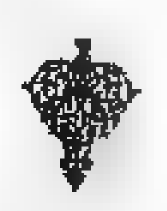
﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

جاء الترتيب الذي يرتب القضايا ترتيباً كيفياً ، لأنه عالجها من قبل علاجا حركيا ، فحين نقول: إن هذه السورة نزلت بعد كذا ، أو فيها آية كذا ، نزلت بعد كذا ، ونجد أن ذلك يختلف عن النسق المروي نعلم أن الله سبحانه وتعالى في كتابه ترتيبين :

الترتيب الأول : حسب النزول

والترتيب الثاني : الذي وُجد عليه القرآن الآن وتمت به كلمة الله في خدمة الحركة الإيمانية وهذا الأخير من عند الله أيضا




سورة آل عمران
مدنية



وهذه السورة التي نحن بصددها ـ سورة آل عمران ـ كان من السياق أن تأتي بعد سورة البقرة ؛ لأن سورة البقرة جاءت لتحدثنا في قضية الوجود الأول ، فتكلمت عن خلق آدم ، وتكلمت عن خلافته في الأرض ، وتكلمت عن تعليمه الأسماء ، ثم تكلمت عن بعض مواكب الرسل لذلك الإنسان الذي استخلف في الأرض وتعرضت لقضايا تعلقت بأحداث ، هذه الأحداث ربطت بأزمنة مخصوصة والقرآن قد جاء بها ، ثم جاء مترتباً على الصورة النهائية تناسب أن تأتي بعد سورة البقرة سورة آل عمران ، لأنها تكلمت عن نوع جديد من الخلق ، لم يأت على نمط الخلق الأول ، وإن جاء من الخلق الأول ؛ لأنها جاءت لتكلمنا عن خلق عيسى وخلق عيسى جاء بغير الناموس الذي خلق به آدم فكما أن آدم خلق بلا أب وبلا أم ، كان المنطق أن يأتي بخلق آخر وجد من دون أب

لقد استهل الحق سبحانه وتعالى سورة البقرة بأسماء ثلاثة من حروف المعجم وهي « ألف ـ لام ـ ميم » وتلك القضية تعرضنا لها طويلاً عند استهلال سورة البقرة وبيّنا الحكمة في ورود بعض الحروف ، وعرفنا أنّ للحرف « مسمّى » وله « اسم » « المسمّى » هو الذي ننطق به ، و« الاسم » هو الذي يُعتبر عنواناً على هذا المسمّى فأنت حين تقرأ مثلاً ، تقول قرأ ، فعندما تنطق حرف « ق » تنطقه حرفاً متصلاً ببقية الحروف ، وهذا النطق اسمه « المسمّى » ولكن اسم ذلك المسمّى « قاف »

إذن فلكل حرف اسم ، ومسمّى حين نتكلم جميعاً نتكلم بالمسمّى ، وسواء منّا الأمي أو المتعلم ، فكل واحد ينطق المسمى « ق رَ أ » ولكن لا يعرف اسم « قاف » إلا من تعلم ؛ لأنه قيل له هذه اسمها « قاف » فذلك هو الاسم

إذن فالتعليم يعطينا أسماء المسميات ، واللفظ الذي ينطق به الأمي والمتعلم هو

المسميات ، ونحن نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أمياً ، لم يجلس إلى معلم ولم يتعلم ، فمن الذى لقنه أسماء الحروف التى لا يعرفها إلا من تعلم ؟ هذه الحروف نطقت على صور مختلفة ، فتنطق بالمسمى مرة وننطق مرة أخرى بأسماء الحروف ، فلما جاءت فى أول سورة البقرة « الم » تلك هى أسماء الحروف . ولكنا قلنا . إننا حين نقرأ فى أول سورة الفيل « ألم تر » هى (الألف واللام والميم) ونقرأها كثلاثة حروف تكون سؤالاً . « ألم تر » ، ولم تقرأ أسماء حروفها ، وإنما قرأتها بمسميات الحروف . فقلت : « الٓمٓ » ، فمن الذى يفرق لنا بين ألف ولام وميم وتقرأ مرة أخرى ألم ؟ لاشك أنه توقيف من الله ، وهى حقا توقيف من الله ، هذه نقرأ ألم وهذه تقرأ ألف ، لام ، ميم

إن الحق يدلنا على أن هذا القرآن ليس من صنعة البشر ، وإلا فصنعة البشر لم تأت قبل نزول القرآن لتنطق بأسماء الحروف ، فلهم إلا بعض أسماء قالوا فيها:إنها أداة مثل « هاء التنبيه » أى لتنبيه السامع لماذا ؟ لأن المتكلم حر فى أن يتكلم وهو الذى يحدد وقت كلامه ولكن السامع يفاجأ . إذن فالكلام من المتكلم يحدده المتكلم ، يتكلم متى شاء . ولكن السامع لا يسمع متى شاء ، ولكنه يسمع بعد أن يتكلم المتكلم ، لكن السامع ليس عنده اختيار ، فكانوا يريدون لبعض الحروف أن يخرجوا بها إلى السامع كلون من ألوان الانجذاب إلى المتكلم ، فقبل أن يجىء بالكلام الذى يريده يأتى بهاء التنبيه . كأن المتكلم يقول تنبه لى فأنا أريد أن تكلم حتى لا يفوتك بعض الكلمات التى أنطق بها وبعضهم يسمونه « أداة استفتاح » مثل القول ألا هُبِّى بصحنك فاصبحينا . فـ « ألا » تنبه إلى أن كلاماً يقال ، ثم نقول : هبى بصحنك فاصبحينا ؛ لأنه ربما تفوت بعض الكلمات فى شغل من السامع عن المتكلم ، فتفوته الفائدة .

إذن فكل الألفاظ التى تأتى بأسماء حروف أو بأسماء يراد بها التنبيه ، إنما هى تهيئة للذهن . وما الذى يمنع أن يكون أيضاً ذلك من باب تهيئة السامع إلى ضرورة حضور الذهن ؟ ومما يدل على أن هذه الحروف التوقيفية مواقع فى النفس البشرية ، أن الذين عارضوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعواه لم يستدركوا عليه شيئاً وهم أهل فصاحة وأهل لغة .

هل سمعنا أن واحداً منهم قال . انظروا إلى محمد كيف يأتي بألفاظ وكلمات لا مدلول لها ولا معنى ، ثم يدعى أنه أفصح العرب ؟!

هل قال واحد منهم ذلك ؟ لم يقل ، وقبلوها ولم يستدركوا ، ولم يقولوا . « ما هذه » « ألف ، لام ، ميم » التي جاء بها محمد ؟ مما يدل على أنها أخذت من أسماعهم موقعاً كما أرادها الله ، بدليل أنهم لم يستدركوا بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يجعلوها من النقد الذى وُجِّهَ إلى رسول الله ، وقلنا فى ذلك : إنه بعض من أسرار هذه الحروف .

ويريد الله حين يؤكد معنى من المعانى ألا يجىء مرة واحدة ، فقد جاءت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم على فترة من النبوات ، ومن خطاب السماء ، والمعنى الذى يريد الله أن يوضحه ويؤكده يردده كثيراً حتى يستقر فى ذهن المتلقى . وعلى هذا النمط جاء قول الحق سبحانه فى أول سورة آل عمران :



وجاءت أيضاً فى سور أخرى ، فى سورة العنكبوت ، وفى سورة الروم ، ولقمان ، والسجدة ، وزاد عليها راءً فى بعض السور ، وزاد عليها صاداً فى بعض السور « المص » و« المر » كل ذلك جاء تأكيداً للمعانى أو تأكيداً للسر الذى وضعه الله فى هذه الحروف ، وإن لم نكن ندرك ذلك السر

والإنسان ينتفع بأسرار الأشياء التى وضعها من أوجد الأشياء وإن لم يعلم هذه

الأشياء فهو متمتع به . وضربنا المثل وقلنا : إن الريفي الذى ليس عنده ثقافة في الكهرباء ، أيستفيد بالكهرباء أم لا ؟ إنه يستفيد بها ويحرك زر المصباح لينيره أو ليعتمه ، أهو يعلم سر ذلك ؟ لا ، لكنه إنما انتفع به ، فكذلك المؤمن حين يقول : « ألف - لام - ميم » ، يأخذ سرها من قائلها ، فهمها أم لم يفهمها ، إذن فالمسألة لا تحتاج إلى أن نعلمها ، صحيح أن العقل البشرى يحوم حول شيء ليستأنس به ، ولكن عطاء الله وحكمة لعطاء فوق ما يستأنس به وفوق ما تستوحش منه

وقول الحق سبحانه في ختام سورة البقرة « فانصرنا على القوم الكافرين » يناسب أيضاً سورة آل عمران ، لماذا ؟ لأن الإسلام سيأتي ليواجه معسكر كفر ومعسكر أهل الكتاب ، فحتى لا تتشقق دعوة الله التي صدرت عن الله بمواكب الرسل جميعاً الذين سبقوا محمداً صلى الله عليه وسلم وأن هذا جاء ليناقض شيئاً منه ، إنه قد جاء ليجرد دعوة الله ، ولتكون هذه الأمم التي تبعت هذه الديانات في صف الإسلام ولذلك حينما أنكر العرب رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله لهم « ومن عنده علم الكتاب » أي أن من عنده علم الكتاب يشهد أنك رسول الله

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الرعد)

فكان المفروض في أهل الكتاب أنهم حينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكونوا هم أول المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه جاء ليؤكد موكب الإيمان ويأتي لهم بسورة يسميها آل عمران حتى يعلم المسيحي أنك يا محمد لم تأت لتهدم ديانة عيسى ، ولكن لتنقى ديانة عيسى ولتزيد ديانة عيسى ، فإن كنتم يا من آمنتم بعيسى مؤمنين بعيسى فاهرعوا حالا إلى الإيمان بمحمد ، فقد سماها الله آل عمران ، وجعل لهم سورة في القرآن .

إن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لم تأت للعصبية ، أو لتمحو ما قبلها كما تأتي عصبيات البشر حين يأتي قوم على أنقاض قوم ، ويهدمون كل ما يتصل بهؤلاء القوم

حتى التاريخ يمحونه ، والأشياء يمسخونها ؛ لأنهم يريدون أن ينشئوا تاريخاً جديداً .
لا ، إن هذا القرآن يريد أن يصوب التاريخ ، فيأتي بسورة اسمها « آل عمران » وذلك تكريم عال لهذه الديانة ولتابعيها

وبعد ذلك يأتي الحق فيستهل : بقوله جل شأنه :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ ﴾

تلك هي قضية القمة ، ولذلك يتكرر في القرآن التأكيد على هذه القضية ، « الله لا إله إلا هو » . و« الله » كما يقولون مبتدأ ، و« لا إله إلا هو » خبر ، والمبتدأ لا بد أن يكون متضحاً في الذهن ، فكأن كلمة « الله » متضحة في الذهن ، ولكنه يريد أن يعطي لفظ « الله » الوصف الذي يليق به وهو « لا إله إلا هو » . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

إذن فالله متضح في أذهانهم ، ولكن السلطات الزمنية أرادت أن تطمس هذا الإيضاح ، فجاء القرآن ليزيل ويمحو هذا الطمس مؤكداً « الله لا إله إلا هو » فهذه قضية أطلقها الحق شهادة منه لنفسه :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

وكفى بالله شهيداً ؛ لأنها شهادة الذات للذات ، وشهدت الملائكة شهادة المشهد فلم يروا أحداً آخر إلا هو ، وكذلك ، شهد أولو العلم الذين يأخذون من الأدلة في

الكون ما يثبت صدق الملائكة ويؤكد صدق الله ، فإذا ما نظرنا نظرة أخرى نقول : إن الحق أطلقها عن نفسه وقال « لا إله إلا هو » ، وجعلها كلمة التوحيد وجعل الأمر في غاية اليسر والسهولة والبساطة ، فلم يشأ الله أن يجعل دليل الإيمان بالقوة العليا دليلاً معقداً ، أو دليلاً فلسفياً ، أو لا يستطيع أحد أن يصل إليه إلا أهل الثقافة العالية ، لا ، إن الدين مطلوب للجميع ، من راعي الشاة إلى الفيلسوف ، إنه مطلوب للذي يكنس في الشارع كما هو مطلوب من الأستاذ الجامعي .

فيجب أن تكون قضية الإيمان في مستوى هذه العقول جميعاً ؛ فلا فلسفة في هذه المسألة ، لذلك شاء الحق أن يجعل هذه المسألة في منتهى البساطة فأوضح الله أنه شهدت ألا إله إلا أنا ، فإما أن يكون الأمر صدقا وبذلك تنتهي المشكلة ، وليس من حق أحد الاعتراض ، وإن لم تكن صدقاً فقولوا لنا : أين الإله الآخر الذي سمع التحدي ، وأخذ الله منه ذلك الكون ، وقال : أنا وحدي في الكون ، وأنا الذي خلقت ، ثم لم نسمع رداً عليه ولا عن معارض له ، ألم يدر ذلك الإله الآخر ؟

إذن فذلك الآخر لا يصح أن يكون إلهاً ، فإن علم ذلك الآخر ولم يدافع عن نفسه وملكيته للكون فإنه لا يصلح أن يكون إلهاً . وتصبح القضية لله إلى أن يظهر مدع لينافسها ، فـ « لا إله إلا هو » كلمة حق . وبالعقل والمنطق هو إله ولم نجد معارضاً . وقلنا سابقاً: إن الدعوى حين تُدعى ولا يوجد معارض حين تسمعها تكون لصاحبها إلى أن يوجد المعارض . وضربنا مثلاً : نحن مجتمعون في حجرة ، عشرة أشخاص ، وبعد ذلك انصرفوا فوجد صاحب البيت حافظة نقود ، فجاء واحد منهم وقال : لقد ضاعت مني حافظة نقود . فقال له صاحب البيت : وجدنا حافظة ولكن كان هنا عشرة ، فلما جيء بالعشرة ، وسئلوا لم يدعها أحد ، إذن فهي له .

إن الله قد قال : « لا إله إلا هو » ، فإن كان هناك إله آخر فليظهر لنا ، لكن لا تظهر لنا إلا قوة الله « لا إله إلا هو » ومادام لا إله إلا هو ، وهذا الكون يحتاج إلى قيومية لتدبيره ، فلا بد أن يكون حيا حياة تناسبه ، لأنه سيهب حيوات كثيرة لكل الأجناس ، للإنسان وللحيوان وللنبات وللجماد ، إذن فالذي يوجدها لا بد أن يكون حياً ولا بد أن تكون حياته مناسبة له .

و« قيّوم » هذه يسمونها صيغة مبالغة ؛ لأنّ الحدث إذا وقع فإنه يقع مرة على صورة عادية ، ومرة يقع على صورة قوية . مثلما تقول : فلان أكول ، و« أكول » غير « آكل » ، فكلنا نأكل ، وكلنا يُطلق علينا « آكل » ، لكن ليس كلنا يُطلق علينا « أكول » لأن هذه اسمها صيغة مبالغة في الحدث .

وإذا كان الله هو الذي يدبر ويقوم على أمر كل عوالم الكون هل يكون قائماً أو قيّوماً ؟ لا بد أن يكون قيّوماً . و« قيوم » معناها أيضاً . قائم بذاته . فما شكل هذا القيام ؟ إنه قيام أزلي كامل

إذن فكلمة « قيّوم » صيغة مبالغة من القيام على الأمر ، قائم بنفسه ، قائم بذاته ، ويُقيم غيره ، والغير متعدد متكرر ، فعندما يكون هذا الغير متعدداً ومتكرراً فهو يحتاج إلى صفة قوية في خالقه ، فيكون الخالق قيّوماً .

إن قوله الحق : « الله لا إله إلا هو الحيّ القيّوم » هو سند المؤمن في كل حركات حياته . عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قلت : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم » فضرب في صدري وقال : « ليهنك العلمُ أبا المنذر »[1]

وقولوا لنا بالله : حين يوجد ولد وأب ، هل يحمل الولد همّاً لأي مسألة من مسائل الحياة ؟ لا ؛ لأن الأب متكفل بها ، والمثل العامي يقول : الذي له أب لا يحمل همّاً ، إذن فالذي له ربٌّ عليه أن يستحي ؛ لأنه سبحانه يقول : أنا حيّ ، وأنا قيّوم ، و« قيّوم » معنى قائم بأمرك

ويؤكد سبحانه هذه القيّومية في سورة البقرة ، فقال في آية الكرسي : « لا تأخذه سنة ولا نوم » ، كأنه يقول لنا : ناموا أنتم لأني لا أنام ، وإلا فإن نمت أنت عن حراسة حركة حياتك فمن يحرسها لك ؟ إنه سبحانه يتفضل علينا بقيوميته فـ « الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم » ، ومادام هو « الحيّ » و« القيّوم » فأمر محقق أنه قائم

---

(١) رواه مسلم .

بأمر الخلق جميعا وقد وضع لكل الخلق ما تقوم به حياتهم من مادة وصيانة مادة ، ومن قيم وصيانة قيم .

وما دام هو القيوم والقائم بالأمر والمتولي الشئون للخلق فلا بد أن يؤدي لهم مطلوبات مادتهم وما يبقيها ، ومطلوبات قيمهم وما يبقيها . أما مطلوبات المادة فيقول فيها :

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة فصلت)

إنه سبحانه يطمئننا على القوت . وأما مطلوبات القيم فقال سبحانه :

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ ﴾

إذن فلم يعطنا سبحانه مقومات المادة فقط ، ولكن أعطانا مقومات القيم أيضا ؛ لأن المادة بدون قيم تكون شرسة هوجاء رعناء ، فيريد الله أن يجعل المادة في مستوى إيماني . إذن لا بد أن تنزل القيم . لذلك قال سبحانه : « نزّل عليك الكتاب بالحق » وه نزل ، تفيد شيئا قد وجب عليك ؛ لأن النزول معناه : شيء من أعلى ينزل ، وهو يقول لك لا تتأبى على القيم التي جاءت لك من أعلى منك ؛ لأنها ليست من مساو لك ، إنها من خالق الكون والبشر . والذي يمكنك أن تتأبى عليه ما يأتي ممن هو أدنى منك .

لكن حين يجيء لك التقنين ممن هو أعلى منك فلا تتأبّ عليه ؛ لأن خضوعك له ليس ذلة بل عزة ، فقال : « نزل عليك الكتاب » وفي سياق القرآن نجده سبحانه

يقول

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾

(سورة الشعراء)

ومرة أخرى يقول في القرآن الكريم

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾

(سورة الإسراء)

ولكن هل نزل القرآن وحده ؟ لقد كان جبريل عليه السلام ينزل بالقرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يعني ذلك خروج القرآن عن كونه « نزل » ، فجبريل عليه السلام كان ينزل بالقرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم. والحق سبحانه وتعالى يقول

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾

(سورة الإسراء)

وبذلك تستوي « أنزل » مع « نزل » . وحين نأتي للحدث في الفعل في أي وقت من الأوقات فإننا نتساءل : أهو موقوت بزمن أم غير موقوت بزمن ؟ إن القرآن الكريم قد نزل على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم في ثلاثة وعشرين عاما ، وينزل القرآن حسب الحوادث ، فكل نجم من نجوم القرآن نزل حسب مقتضيات الأحداث . ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾

(سورة القدر)

والحق هنا يحدد زمنا . ولنا أن نعرف أن القرآن الذي نزل في ثلاثة وعشرين عاما هو الذي أنزله الله في ليلة القدر

إذن فللقرآن نزولان اثنان . الأول : إنزال من « أنزل »
الآخر : تنزيل من « نزّل »

إذن فالمقصود من قوله ـ سبحانه ـ « إنا أنزلناه في ليلة القدر » أن القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ليباشر مهمته في الكون . وهذا ما أنزله الله في ليلة القدر .

والكتاب الكريم الذي أنزله الله في ليلة القدر إلى السماء الدنيا ينزل منجما على حسب الأحداث التي تتطلب تشريعا أو إيضاحا لأمر .

لكن الكتب الأخرى لم يكن لها ذلك اللون من النزول والتنزيل ، لقد نزلت مرة واحدة ، لا حسب الأحداث والمناسبات . لقد جاءت مرة واحدة ، كي ينزل القرآن أولا من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا . وسطر في الأداء القرآني حين يقول :

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ومما يجب أن نلتفت إليه أن الحق قال عن القرآن : « نزّل » وقال عن التوراة والإنجيل : « أنزل » . لقد جاءت الهمزة للتعدية وجمع ـ سبحانه ـ بين التوراة والإنجيل في الإنزال ، وهذا يوضح لنا أن التوراة والإنجيل إنما أنزلهما الله مرة واحدة ، أما القرآن الكريم فقد نزله الله في ثلاث وعشرين سنة منجما ومناسبا للحوادث التي طرأت على واقع المسلمين ، ومتضمنا البلاغ الشامل من يوم الخلق إلى يوم البعث .

ونزّل الله القرآن منجما مناسبا للأحداث ، ليثبت فؤاد رسول الله ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان يتعرض لأحداث شتى ، وكلما يأتي حدث يريد تثبيتا ينزل نجم من القرآن .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

وكان النجم من القرآن ينزل، ويحفظه المؤمنون، ويعملون بهديه، ثم ينزل نجم آخر. والله سبحانه يقول:

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ﴾

(سورة الفرقان)

فمن رحمته سبحانه وتعالى بالمسلمين أن فتح لهم المجال لأن يسألوا، وأن يستوضحوا الأمور التي تغمض عليهم.

وجعل الحق سبحانه لأعمال المؤمنين الاختيارية خلال الثلاثة والعشرين عاما فرصة ليقيموا حياتهم في ضوء منهج القرآن، وصوبت لهم القرآن ما كان من خطأ، وذلك يدل على أن القرآن قد فرض الجدل ومناقشته، وفرض مجيء الشيء في وقت طلبه؛ لأن الشيء إذا ما جيء به وقت طلبه فإن النفس تقبل عليه وترضى به.

ومثال ذلك في حياتنا اليومية أن الواحد منا قد يملك في منزله صندوقا للأدوية مملوءا بألوان شتى من الدواء، ولكن عندما يصاب صاحب هذا الصندوق بقليل من الصداع فهو يبحث عن قرص أسبرين، وقد لا يعرف مكانه في صندوق الدواء فيبعث في شرائه، وذلك أسهل وأوثق. والحق سبحانه قد جمع للقرآن بين «نزّل» و«أنزل» فقال:

﴿ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤) ﴾

ويأتي القول الفصل في «وأنزل الفرقان»
هنا الجمع بين «نزل» و«أنزل».

وساعة يقول الحق عن القرآن: «مصدقا لما بين يديه» فمعنى ذلك أن القرآن

يوضح المتجه ؛ إنه مصدق لما قبله ولما سبقه ، إنه مصدق للقضايا العقدية الإيمانية التي لا يختلف فيها دين عن دين ؛ لأن الديانات إن اختلفت فإنما تختلف في بعض الأحكام ، فهناك حكم يناسب زمنا وحكم آخر لا يناسب ذلك الزمن . أما العقائد فهي لا تتغير ولا تتبدل ، وكذلك الأخبار وتاريخ الرسل ، فليس في تلك الأمور تغيير

ومعنى « مصدق » أي أن يطابق الخبر الواقع ، وهذا ما نسميه « الصدق » . وإن لم يطابق الخبر الواقع فإننا نسميه « كذبا » . إذن ، فالواقع هو الذي يحكم . ولذلك قلنا من قبل : إن الصادق هو الذي لا تختلف روايته للأحداث ؛ لأنه يستوحي واقعا ، وكلما روى الحادثة فإنه يرويها نفسها بكلياتها وتفاصيلها . أما الكاذب فلا يوجد له واقع يحكي عنه ، لذلك نشيء في كل حدث واقعا جديدا . ولذلك يقول الناس : « إن كنت كذوبا فكن ذكورا » . أي إن كنت تكذب ، والعياذ بالله ، فتذكر ما قلت ؛ حتى لا تناقضه بعد ذلك . فالصادق هو من يستقرئ الواقع ، ومادام يروي عن صدق فهو يروي عن أمر ثابت لا تلونه الأهواء ، فلا يحكي مرة بهوى ، ومرة بهوى آخر

ومادام الخبر صادقاً فإنه يصبح حقاً ؛ لأن الحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير وسبحانه يقول هنا : « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل ، من قبل هدى للناس »

وقد تكلمنا من قبل عن التوراة ، وقلنا : إن بعضا من العلماء حين يتعرض للفظ من الألفاظ فهو يحاول أن يجعله من اللغة العربية ، ويحاول أن يعثر له على وزن من الأوزان العربية ، وأن يأتي له بصيغة من الصيغ العربية ، فقال بعضهم عن التوراة : إنها من « الورْي » ـ بسكون الراء ـ وكان الناس قديما يشعلون النار بضرب عود في عود آخر ، ويقولون : « الزند قد وَرَى » ، أي قد خرجت ناره . وقال بعض العلماء أيضا : إن الإنجيل من « النجْل » ، وهو الزيادة .

وأقول هؤلاء العلماء : لقد نظرتم إلى هذه الألفاظ على أنها ألفاظ عربية ، لكن التوراة لفظ عبري ، والإنجيل لفظ سرياني أو لفظ يوناني ، وصارت تلك الكلمات

علي على تلك الكتب وجاءت إلى لغتنا . ولا نظن أن القرآن مادام قد نزل عربيا فكل ألفاظه عربية . لا ، صحيح أن القرآن عربي ، وصحيح أيضا أنه قد جاء وهذه الألفاظ دائرة على لسان العرب ، وإذا تم النطق بها يفهم معناها .

والمثال على ذلك أننا في العصر الحديث أدخلنا في اللغة كلمة « [illegible] » وتكلمنا بها ، فأصبحت عربية ، لأنها تدور على اللسان العربي . فمعنى أن القرآن عربي أن الله حينما خاطب العرب خاطبهم بألفاظ يفهمونها ، وهي دائرة في ألسنتهم ، وإن لم تكن في أصلها عربية . وحينما تكلم الحق عن التوراة والإنجيل وقال : إن القرآن جاء مصدقا لما قال ـ جل شأنه ـ :

﴿ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ (٤)

(سورة آل عمران)

فأي ناس هؤلاء الذين قال عنهم : « هدى للناس » ؟ لاشك أنهم الناس الذين عاصروا الدعوة لتلك الكتب . وإذا كان القرآن قد جاء مصدقا لما في التوراة والإنجيل ألا تكون هذه الكتب هداية لنا أيضا ؟ نعم هي هداية لنا ، ولكن هداية إنما نكون مصدقين القرآن لها ، حتى لا يكون كل ما جاء فيها ومنسوبا إليها حجة علينا . فالذي يصدقه القرآن هو الحجة علينا ، فيكون « هدى للناس » معناه الذين عاصروا هذه الديانات وهذه الكتب ، ونحن مؤمنون بما فيها مصدقين القرآن لها .

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى : « وأنزل الفرقان » نفهم منه أن الكتاب ـ أي القرآن ـ سيباشر مهمة صعبة ، فكلمة « الفرقان » لا تأتي إلا في وجود معركة ، ونريد أن نفرق بين أمرين : هدى وضلال ، حق وباطل ، شقاء وسعادة ، استقامة وانحراف . إذن فكلمة « الفرقان » تدل على أن القرآن قد جاء ليباشر مهمة صعبة وهو أنه يفرق بين الخير والشر . ومادام يفرق بين الخير والشر إذن ففيه خير وله معسكر ، وفيه شر وله معسكر ، إذن ففيه فريقان . ويأتي للفريق الذي يدافع عن الحق نضالا وجهادا بما يفرق به ويميز به بين الحق والباطل ويختم الحق هذه الآية

بقوله : « إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام » .

ولماذا جاء هذا التذييل على هذه الصورة في هذه الآية ؟ أي مادام القرآن فرقاناً فلا بد أن يفرق بين حق وباطل ، والحق له جنوده ، وهم المؤمنون ، والباطل له جنوده وهم الكافرون . والشر قد جاء من الكافرين فلا بد أن يتكلم عن الذين كفروا « إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد » والعذاب إيلام ، ويختلف قوة وضعفا باعتبار المؤلم المباشر للعذاب . فصفعة طفل غير صفعة شاب غير صفعة رجل قوى ، كل واحد يوجه الصفعة بما يناسب قوته ، فإذا كان العذاب صادراً من قوة القوى وهو الله ، إذن فلا بد أنه عذاب لا يطاق . « لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام » أي لا يُغلب عن أمره ، ولا توجد قوة أخرى ضده ، وانتقامه لن يستطيع أحد أن يرده .

وقوله الحق سبحانه وتعالى . إنه « قيوم » أي يقوم بشئون خلقه إيجاداً وإمداداً ، بناء مادة وإيجاد قيم ، لابد أن يتفرع من ذلك أنه يعلم كل الخلق ويعلم الخفايا ، ولذلك يضع التقنين المناسب لكل ما يجري لهم ، والتقنينات التي تأتي من البشر تختلف عن التقنينات الموجودة من الله ، لماذا ؟

لأن الله حين يقنن بكتاب ينزله على رسوله ليبلغ حكم الله فيه فهو سبحانه يقنن لما يعلم ، وما يعلمه سبحانه قد يعلمه خلقه وقد لا يعلمونه ، وقد تأتي الأحداث بما لم يكن في بال المشرع البشرى المقنن حين يقنن . ولذلك يضطرون عادة إلى تغيير القانون ، لأنه قد جدّت أحداث لم يلتفت إليها المشرع البشرى . ولماذا لم يلتفت إليها المشرع البشرى ؟ لأن علمه مقصور على المرئيات التي توجد في عصره وغير معاصر للأشياء التي تحدث بعد عصره ، وأيضاً يقنن للملكات خفية عنه .

إن الحق سبحانه وتعالى لكونه قيوما ونزّل ما يفرق بين الحق والباطل ، فهو - سبحانه - يعلم علماً واسعاً ، بحيث لا يُستدرك عليه ، ولذلك فالذين يحاولون أن يقولوا : إن هذا الحكم غير ملائم للعصر ، نقول لهم : أتستدركون على الله ؟! كأنكم تقولون . إن الله قد فاته مثل هذه الحكاية ونريد أن نصححها له !

لا ، لا تستدركوا على الله ، وتحدوا حكم الله هكذا ؛ لأن هذا هو الحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ لأنه حكم من عالم لا يتجدد علمه ، ولا يطرأ شيء على علمه ، وفوق كل ذلك فهو سبحانه لا ينتفع بما يفعل ، وهو سبحانه يقول

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝٥ ﴾

انظروا إلى خدمة الآية لكل الأغراض التي سبقتها ، مادام قيوما وقائما بأمور الخلق ، فلا بد أنه يعلم كل شيء عن الخلق ، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ومادام سيفرق بين الحق والباطل ويعذب الكفار عذاباً شديداً فلا يخفى عليه شيء . إن الآية تخدم كل الأغراض ، وهو سبحانه يعلم كل الأغراض ، فحين يقنن بقيوميته ، فهو يقنن بلا استدراك عليه ، وحين يخرج أحد عن منهجه لا يخفى عليه . إذن فالآية حصاد على التشريع وعلى الجزاء « إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء » . وبعد ذلك يتكلم الحق عن مظهر القيومية الأول بالنسبة للإنسان فيقول

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ
لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦ ﴾

والتصوير في الرحم هو إيجاد المادة التي سيوجد منها الإنسان على هيئة خاصة ، هذه الهيئة تختلف نوعيتها : ذكورة وأنوثة ، والذكورة والأنوثة تختلفان أشكالاً ؛ بيضاء وسمراء وقمحية وعربية وقصيرة وطويلة ، هذه الأشكال التي يوجد عليها الخلق والتي منها

﴿ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الروم)

هذا الاختلاف فى الألوان والألسنة والأشياء المتعددة يدل على أنها ليست من إنتاج مصنع يصنع قالباً ثم يشكل عليه ، لا ؛ فكل إنسان يولد بصنع بيد قديرة بقدرة ذاتية

إن الصانع الآن إذا أردت أن يصنع لك كوباً يصنع قالباً ويكرره ، لكن فى الخلق البشرى كل واحد بقالبه الخاص ، وكل واحد بشكله المخصوص ، وكل واحد بصوته الذى ثبت أن له بصمة كبصمة اليد ، وكل واحد بلون ، إذن فهى من الآيات ، وهذا دليل على طلاقة القدرة ، وفوق كل هذا هو الخلق الذى لا يحتاج إلى عملية علاج ، فهى عملية علاج أى يعمل قالباً واحداً ليصب فيه مادته لا ، هو - جل شأنه - يقول

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الأب والأم قد يتحدان فى اللون ولكن الابن قد يصبح بلون مختلف ، ويخلق الله معظم الناس خلقاً سوياً ، ويخلق قلة من الناس خلقاً غير سوى ؛ فقد يولد طفل أعمى أو مصاب بعاهة ما أو بأصبع زائدة أو إصبعين وهذا الشذوذ أراده الله فى الخلق ليلفتنا الحق إلى حسن وجمال خلقه لأن من يرى - وهو السوى - إنساناً آخر ممنوعاً عن الحركة فإنه يحمد الله على كمال خلقه

وحين يرى إنسان له فى كل يد خمس أصابع إنساناً آخر له إصبع زائدة يعوق حركة يده ، يعرف حكمة وجود الأصابع الخمس . فالجمال لا يثبت إلا بوجود القبح ، وبضدها تتمايز الأشياء ، الإنسان الذى له ست أصابع فى يد واحدة ، يضع الطب أمام مهمة يجند نفسه لها ؛ حتى يستطيع الطبيب أن يستأصل الزائد عن حاجة الإنسان الطبيعى ولو خلق الله الإنسان بثلاث أصابع لما استطاع ذلك الإنسان أن يتحكم عند استعماله الأشياء الدقيقة .

إن الإنسان العادي في حركته اليومية لا يدرك جمال استواء خلقه إلا إذا رأى فرداً من أفراد الشذوذ. والحق ينبه الناس الساهين عن نعم الله عليهم لرتابتها فيهم بفقدها في غيرهم. فساعة أن يرى مبصرٌ مكفوفاً يسير بعكاز، يلتفت إلى نعمة البصر التي وهبها له الله فيشعر بنعمة الله عليه. إن الشذوذ في الخلق هو نماذج إيضاحية تلفت الناس إلى نعم الله التي أنعم الله عليهم بها.

هذه المُثُل في الكون تلفت الناس إلى نعم الله فيهم، ولذلك تجدها أمامك وأيضاً كي لا تستدرك على خالقك، ولا تقل ما ذنب هذا الإنسان أن يكون مخلوقاً هكذا؟ فهو سبحانه سيعوضه في ناحية أخرى، فقد يعطيه عبقرية تفوق إمكانات المبصر.

ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ عن الذي ساح في الدنيا «تيمور لنك الأعرج» وهو القائد الذي أذهل الدنيا شجاعة، إن الله قد أعطاه موهبة التخطيط والقتال تعويضاً له عن العرج. ونحن نجد العبقريات تتفجر في السواد عادة، لماذا؟ لأن الله يجعل للعاجز عجزاً معيناً همة تحاول أن تعوض ما افتقده في شيء آخر، فيأتي النبوغ. إذن «هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء» وكل تصوير له حكمة. ومادام كل تصوير له حكمة فكل خلق الله جميل.

فعليك ألا تأخذ الخلق مفصولاً عن حكمة خالقه، بل خذ كل خلق مع حكمته. إن الذي يجعلك تقول: هذا قبيح، إنك تفصل المخلوق عن حكمته. ومثال ذلك، التلميذ الذي يرسب قد يحزن والده، ولكن لماذا يأخذ الرسوب بعيداً عن حكمته؟ لقد رسب حتى يتعلم معنى الجدية في الاستذكار، فلو نجح مع لعبه فماذا سيحدث؟ كل أقرانه الذين عرفوا أنه لعب ونجح سيلعبون ويقولون: هذا لعب ونجح. إذن فلابد أن تأخذ كل عمل ومعه حكمة وجوده.

كذلك لا تأخذ العقوبة منفصلة عن الجريمة، فكل عقوبة علينا أن نأخذها ملتصقة بجريمتها، فساعة ترى واحداً مثلاً سيحكمون عليه بالإعدام تأخذك الرحمة به وتحزن، هنا نقول لك: أنت فصلت إعدامه عن القتل الذي ارتكبه سابقاً، إنما

لو استحضرت جريمته لوجدته يُقتَلُ عدالة وقصاصاً فقد قَتَل غيره ظلماً ، فلا تبعد هذه عن هذه .

« هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو » ومعنى « لا إله إلا هو » أي سيصوِّر وهو عالم أن ما يصوِّره سيكون على هذه الصورة ؛ لأنه لا يوجد إله آخر يقول له : هذه لا تعجبني وسأصور صورة أخرى ، لا ؛ لأن الذي يفعل ذلك عزيز ، أي لا يُغلب على أمر ، وكل ما يريده يحدث وكل أمر عنده حكمة ، لأنه عندما يقول « يصوركم في الأرحام » قد يقول أحدٌ من الناس : إن هناك صورٌ شاذة وصوراً غير طبيعية . وهو سبحانه يقول لك : أنا حكيم ، وأعطيها الحكمة فلا تفصل الحدث عن حكمته ، خُذ الحدث بحكمته ، وإذا أردت الحدث بحكمته تجده الجمال عينه ، وهو سبحانه المصوِّر في الرحم كيف يشاء ، هذا من ناحية مادته

وهو سبحانه يوضح . هل يترك المادة هكذا بل سيجعل هذه المادة قيما كي تنسجم حركة الوجود مع بعضها يقول سبحانه

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ ﴾

إذن فعندما صورنا في الأرحام كيف يشاء عن مُقتضى حكمته لن يترك الصور بدون منهج للقيم ، بل صنع منهج القيم بأن أنزل القرآن وفيه منهج القيم ، ولا بد أن نأخذ الشيء بجوار الحكمة منه ، وإذا أخذنا الشيء بجوار الحكمة منه يوجد كل أمر مستقيما كله جميل وكله خير . فيقول سبحانه : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات » .

ماذا يعني الحق بقوله : « آيات محكمات » ؟ إن الشيء المحكم هو الذي لا يتسرب إليه خلل ولا فساد في الفهم ؛ لأنه محكم ، وهذه الآيات المحكمة هي النصوص التي لا يختلف فيها الناس ، فعندما يقول :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

هذه آية تنص حكما واضحا . وهو سبحانه يقول :

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ﴾

(من الآية ٢ سورة النور)

هذه أيضا أمور واضحة ، هذا هو المُحكم من الآيات ، فالمُحكم هو ما لا تختلف فيه الأفهام ؛ لأن النص فيه واضح وصريح لا يحتمل سواه ، وما المتشابه ؟ هو الذي نتعب في فهم المراد منه ، ومادمنا سنتعب في فهم المراد منه فلماذا أنزله ؟

ويوضح لنا سبحانه ـ كما قلت لك ـ حد الشيء مع حكمته كي نعرف ماذا نزل ؟ فالمُحكم جاء للأحكام المطلوبة من الخلق ، أي افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، ومادامت أفعالا مطلوبة من الخلق فالذي فعلها يُثاب عليها ، والذي لم يفعلها يُعاقب ، إذن فسيترتب عليها ثواب وعقاب ، فيأتي بها في صورة واضحة ، وإلا لقال واحد : « أنا لم أفهم » ، إن الأحكام تقول لك : « افعل كذا ولا تفعل كذا » ، فهي حين تقول : « افعل » ، « أنت صالح ألا تفعل . فلو كنت مخلوقا على أنك تفعل فقط ، لا يقول لك : افعل ، لكن لأنك صالح أن تفعل وألا تفعل فهو يقول لك « افعل » .

وساعة يقول لك : « لا تفعل » ، فأنت صالح أن تفعل ، فلا يقال : « افعل ولا تفعل » إلّا لأنه خلق فيك صلاحية أن تفعل أو لا تفعل ، ونلاحظ أنه حين يقول لي : افعل كذا ولا تفعل كذا يريد أن أقف أمام شهوة نفسي في الفعل والترك ، ولذلك يقول الحق في الصلاة

﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة البقرة)

فعندما يقول لي : « افعل ولا تفعل » فمعناها أن فيه أشياء تكون ثقيلة أن أفعلها ، وأنّ شيئا ثقيلا على أن أتركه ، فمثلا البصر خلقه الله صالحا لأن يرى كل ما في حيّزه على حسب قانون الضوء ، والحق يقول له

﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة يونس)

ولكن عند المرأة التي لا يحل لك النظر إليها يقول الحق : اغضض

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾

(سورة النور)

ومعنى « يغضوا » و « يغضضن » أنه سبحانه حدد حركة العين ، ومثال آخر ، اليد تتحرك بأمرك ـ سبحانه ـ ألّا تحركها إلا في مأمور به ، فلا تضرب بها أحدًا ، ولا تشعل بها نارا تحرق وتفسد بل أشعل بها النار لتطبخ مثلا

إذن فهو سبحانه يأتي في « افعل ولا تفعل » ويحدد شهوات النفس في الفعل أو الترك ، فإن كانت شهوة النفس بأنها تنام ، يقول الأمر التعبدي : قم وصلّ ، وإن كانت شهوة النفس بأنها تغضب يقول الأمر الإيماني : لا تغضب

إذن فالمحكم إنما جاء بافعل ولا تفعل لتحديد حركة الإنسان ، فقد يريد أن يفعل فعلاً ضاراً ، فيقول له : لا تفعل ، وقد يريد ألا يفعل فعل خير فيقول له : افعل إذن فكل حركات الإنسان محكومة بـ « افعل ولا تفعل » ، وعقلك وسيلة من وسائل الإدراك ، مثل العين والأذن واللسان . إن مهمة العقل أن يدرك ، فتكليفه يدعوه إلى أن يفهم أمراً ولا يفهم أمراً آخر ، وجعل الله الآيات المحكمات ليريح العقل من مهمة البحث عن حكمة الأمر المحكم ؛ لأنها قد تعلو الإدراك البشري ويريد الحق أن يلزم العبد آداب الطاعة حتى في الشيء الذي لا تدرك حكمة تشريعه ، وأيضاً لتحرك عقلك لترد كل المتشابه إلى المحكم من الآيات وإذا قرأنا قول الحق :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103) ﴾

(سورة الأنعام)

نرى أن ذلك كلام عام وفي آية أخرى يقول سبحانه

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23) ﴾

(سورة القيامة)

ويتكلم عن الكفار فيقول

﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15) ﴾

(سورة المطففين)

إذن فالعقل يشمل بقوله : « لا تدركه الأبصار » ، وهذا يحدث في الدنيا ، أما في الآخرة فسيكون الإنسان قد تم إعداده إعداداً آخر ليرى الله ، نحن الآن في هذه الدنيا بالطريقة التي أعدنا بها الله لنحيا في هذا العالم لا نستطيع أن نرى الله ، ومسألة إعداد شيء ليمارس مهمة ليس مؤهلاً ولا مهيأ لها الآن ، أمر موجود في دنيانا ، فنحن نعرف أن إنساناً أعمى يتم إجراء جراحة له أو يتم صنع نظارة طبية له فيرى ، ومن لا يسمع أو ثقيل السمع نصنع له سماعة فيسمع بها

وإذا كان البشر قد استطاعوا أن يُعِدُّوا بمقدور تهم في الكون المادي أشياء لتؤهلهم إلى استعادة خاصية ما ، فما بالنا بالخالق الأكرم الإله المربي ، ألا يستطيع أن يعيد خلقنا في الآخرة بطريقة تتيح لنا أن نرى ذاته ووجهه ؟! إنه القادر على كل شيء

إذن فالأمر هنا متشابه ، إن الله يُدرك ـ بضم الياء وفتح الراء ـ أو لا يُدرك ، ما الذي تغير من الأحكام بالنسبة لك ؟ لا شيء . إذن فهذه الآيات المتشابهات لم تأت من أجل الأحكام ، إنما هي قد جاءت من أجل الإيمان فقط ، ولذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم ينهي كل خلاف للعلماء حول هذه المسألة بقوله وهو الرسول الخاتم : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه فآمنوا به »[1] .

إن المُتشَابه من الآيات قد جاء للإيمان به ، والمُحْكَم من الآيات إنما جاء للعمل به ، والمؤمن عليه دائما أن يرد المُتشَابه إلى المُحْكَم . مثال ذلك عندما نسمع قول الله عز وجل :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) ﴾

(سورة الفتح)

إن الإنسان قد يتساءل : « هل لله يد » ؟ على الإنسان أن يرد ذلك إلى نطاق « ليس كمثله شيء » . وعندما يسمع المؤمن قول الحق :

﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥) ﴾

(سورة طه)

فهل لله جسم يستقر به على عرش ؟ هنا نقول : هذا هو المتشابه الذي يجب على المؤمن الإيمان به ، ذلك أن وجودك أيها الإنسان ليس كوجود الله ، ويدك ليست كيد الله وأن استواءك أيضا ليس كاستواء الله . ومادام وجوده سبحانه ليس كوجودك وحياته ليست كحياتك فلماذا تريد أن تكون يده كيدك ؟

هو كما قال عن نفسه : « ليس كمثله شيء » . ولماذا أدخلنا الله إلى تلك المجالات ؟ لأن الله يريد أن يُلفت خلقه إلى أشياء قد لا تستقيم في العقول ، فمن

(١) رواه الإمام ابن كثير في تفسيره ، ورواه ابن مردويه

يتسع عقله إلى ذلك يؤول ويردها إلى المُحكم بأن الله ليس كمثله شيء. فله ذلك، ومن يتسع عقله ويقول: أنا آمنت بأن لله يداً ولكن في إطار «ليس كمثله شيء» فله ذلك أيضاً وهذا أسلم.

والحق يقول: «منه آيات محكمات هن أم الكتاب» ومعنى «أمّ» أي الأصل الذي يجب أن ينتهي إليه تأويل المُتشابه إن أوّلت فيه، أو تُرجعه إلى المُحكم فتقول إن لله يداً، ولكن ليست كأيدي البشر. إنما تدخل في نطاق

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الشورى).

ولماذا قال الحق: «هن أم الكتاب»؟ ولم يقل: هن أمهات الكتاب؟ لك أن تعرف أيها المؤمن أنه ليس كل واحدة منهن أمّاً، ولكن مجموعهن هو الأم، ولتوضيح ذلك فلنسمع قول الحق:

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝ ﴾

(سورة المؤمنون)

لم يقل الحق: إنهما آيتان، لأن عيسى عليه السلام لم يوجد كآية إلا بميلاده من أمه دون أب أي بضميمة أمه، وأم عيسى لم تكن آية إلا بميلاد عيسى أي بضميمة عيسى. إذن فهي معاً يكونان الآية، وكذلك «هن أم الكتاب وأخر متشابهات» فالمقصود بها ليس كل محكم أمّاً للكتاب، إنما المحكمات كلها هي الأم، والأصل الذي يرُدّ إليه المؤمنُ أيّ متشابه. ومهمة المحكم أن نعمل به، ومهمة المتشابه أن نؤمن به؛ بدليل أنك إن تصورته على أي وجه لا يؤثر في عملك. فقوله الحق: «لا تدركه الأبصار» لا يترتب عليه أي حكم، وهنا يكفي الإيمان فقط.

لكن ماذا عن أمر الذين قال عنهم الله: «فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله»؟ ولنا أن نعرف أن «الزيغ» هو الميل، زاغ يزيغ مال، وهي مأخوذة من تزايغ الأسنان، أي اختلاف منابتها، فسنة تظهر داخلة، وأخرى خارجة، وعندما لا تستقيم الأسنان في طريقة نموها يصنعون لها

الآن عمليات تجميل وتقويم ليجعلوها صفاً واحداً .

إن الذين في قلوبهم زيغ أي ميل ، يتبعون ما تشابه من الآيات ابتغاء الفتنة . كأن الزيغ أمر طارئ على القلوب ، وليس الأصل أن يكون في القلوب زيغ ، فالفطرة السليمة لا زيغ فيها ، لكن الأهواء هي التي تجعل القلوب تزيغ ، ويكون الإنسان عارفاً لحكم الله الصحيح في أمر ما ، لكن هوى الإنسان يغلب فيميل الإنسان عن حكم الله . والميل صنعة القلب ، فالإنسان قد يخضع منطقه وفكره ليخدم ميل قلبه ، ولذلك فرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1]

لماذا ؟ لأن آفة الرأي الهوى ، وحتى المنحرفون يعرفون القصد السليم ، لكن الواحد منهم ينحرف لما يهوى ، ودليل معرفة المنحرف للقصد السليم أنه بعد أن يأخذ شرته في الانحراف يتوب ويعلن توبته ، وهذا أمر معروف في كثير من الأحيان ؛ لأن الميل تكلفٌ تبريري ، أما القصد السليم فأمر فطري لا يُرهق ، ومثال ذلك : عندما ينظر الإنسان إلى حلاله ، فإنه لا يجد افتعال ملكة يناقض افتعال ملكة أخرى ، ولكن عندما ينظر إلى واحدة ليست زوجته ، فإن ملكاته تتعارك ، ويتساءل : هل سيتصل منه النظرة أو لا ؟ إن ملكاته تتضارب ، أما النظر إلى الحلال فالملكات لا تتعب فيه . لذلك فالإيمان هو اطمئنان ملكات ، فكل ملكات الإنسان تتآزر في تكامل ، فلا تسرق ملكة من وراء أخرى .

مثال آخر : عندما يذهب واحد لإحضار شيء من منزله ، فإنه لا يحس بتضارب ملكاته ، أما إذا ذهب إنسان آخر ليسرقه هذا الشيء فإن ملكاته تتضارب ، وكذلك جوارحه ؛ لأنها خالفت منطق الحق والاستقامة والواقع .

« فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » إذن فاتباعهم للمتشابه منه ليؤولوه تأويلاً يخالف الواقع ليخدموا الزيغ الذي في قلوبهم

(1) رواه في شرح السنة للبغوي ، وفي كنز العمال ، ومشكاة المصابيح لتبريزي

فالميل موجود عند قلوبهم أولاً ، ثم بدأ الفكر يخضع للميل ، والعبارة تخضع للفكر ، وهكذا نرى أن الأصل في الميل قد جاء منهم . ولننظر إلى أداء القرآن الكريم حين يقول :

﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾

(من الآية ٥ سورة الصف)

كأنه يقول : مادمتم تريدون الميل فسأميلكم أكثر وأساعدكم فيه . والحق سبحانه لا يبدأ إنساناً بأمر يناقض تكليفه ، لكن الإنسان قد يميله هواه إلى الزيغ ، فيتخلى الله عنه ويدفعه إلى هاوية الزيغ . وآية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(سورة التوبة)

إنهم الذين بدأوا ، انصرفوا عن الله فصرف الله قلوبهم بعيداً عن الإيمان وكذلك الذين يتبعون المتشابه يبتغون به الفتنة أي يطلبون الفتنة ، ويريدون بذلك فتنة عقول الذين لا يفهمون ، ومادموا يريدون فتنة عقول من لا يفهمون فهم ضد المنهج ، وماداموا ضد المنهج فهم ليسوا مؤمنين إذن ، وماداموا غير مؤمنين فلن يهديهم الله إلى الخير ، لأن الإيمان يطلب من الإنسان أن يتجه فقط إلى الإيمان بالرب الإله الحكيم ، ثم تأتي المعونة بعد ذلك من الله . لكن عندما لا يكون مؤمناً فكيف يطلب المعونة من الله ، إنه سبحانه يقول :

(أنا أغنى الشركاء عن الشرك)[1]

إنهم يبتغون الفتنة بالمتشابه ، ويبتغون تأويله ، ومعنى التأويل هو الرجوع ، لأننا نقول : « آل الشيء إلى كذا » أي رجع الشيء إلى كذا ، فكأن شيئاً يرجع إلى شيء ، فمن لهم عقل لا زيغ فيه يحاولون جاهدين أن يؤولوا المتشابه ويردوه إلى المحكم ، أو يؤمنوا به كما هو .

---

(١) إتحاف السادة المتقين للزبيدي ، ومسند الربيع بن حبيب ، والترغيب والترهيب للمنذري ، والأسماء والصفات للبيهقي .

ويقول الحق بعد ذلك: «وما يعلم تأويله إلا الله». إن الله لو أراد للمتشابه أن يكون مُحكماً لجاء به من المُحكم، إذن فبإرادة الله أن تكون هناك آيات المتشابه ومهمتها أن تحرك العقول، وذلك حتى لا تأتي الأمور بمنتهى الرتابة التي يجمد بها عقل الإنسان عن التفكير والإبداع، والله يريد للعقل أن يتحرك وأن يفكر ويستنبط. وعندما يتحرك العقل في الاستنباط تتكون عند الإنسان الرياضة على الابتكار، والرياضة على البحث، وليجرب كل واحد منا أن يستنبط المتشابه إلى المحكم ولسوف يمتلك بالرياضة تنمية الابتكار والبحث، والحاجة هي التي تفتق الحيلة.

إن الحق يريد أن يعطي الإنسان دربة حتى لا يأخذ المسائل برتابة بليدة ويتناولها تناول الخامل ويأخذها من الطريق الأسهل، بل عليه أن يستقبلها باستقبال واعٍ ومفكر وتدبر.

﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴿٢٤﴾﴾

(سورة محمد)

كل ذلك حتى يأخذ العقل القدر الكافي من النشاط ليستقبل العقل العقائد بما يريده الله، ويستقبل الأحكام بما يريده الله، فيريد منك في العقائد أن تؤمن، وفي الأحكام أن تعمل. «وما يعلم تأويله إلا الله». والذين في قلوبهم زيغ يحاولون التأويل ويحكمهم أهواؤهم، فلا يصلون إلى الحقيقة. والتأويل الحقيقي لا يعلمه إلا الله.

قد رأينا من يريد أن يعيب على واحد بعض تصرفاته فقال له: يا أخي أتدّعي أنك أحطت بكل علم الله؟ فقال له: لا. قال له: دعنا من الذي لا نعلم. وكأنه يرجوه أن ينصرف عنه.

والعلماء لهم وقفات عند قوله الحق: «وما يعلم تأويله إلا الله». بعضهم يقف عندها ويعتبر ما جاء من بعد ذلك وهو قوله الحق: «والراسخون في العلم» كلاماً مستأنفاً، إنهم يقولون: إن الله وحده هو الذي يعلم تأويل المتشابه، والمعنى «والراسخون في العلم» أي الثابتون في العلم، الذين لا تحركهم الأهواء، إنهم:

« يقولون آمنا به كل من عند ربنا » وهو ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم ، إن الراسخين في العلم يقولون : إن المحكم من الآيات سيعملون به ، والمتشابه يؤمنون به ، وكل من المتشابه والمحكم من عند الله .

أما من عطف وقرأ القول الحكيم ووقف عند قوله : « والراسخون في العلم » فنقول له : إن الراسخين في العلم علموا تأويل المتشابه ، وكان نتيجة علمهم قولهم « آمنا به » .

إن الأمرين متساويان ، سواء وقفت عند حد علم الله للتأويل أو لم تقف . فالمعنى ينتهي إلى شيء واحد . وحيثية الحكم لإيمان للراسخين في العلم هي قوله الحق على لسانهم : « آمنا به كل من عند ربنا » فالمحكم من عند ربنا ، والمتشابه من عند ربنا ، وله حكمة في ذلك ؛ لأنه ساعة أن يأمر الأعلى الأدنى بأمر ويبين له علته فيفهم الأدنى ويعمل ، وبعد ذلك يلقي الأعلى أمراً آخر ولا يبين علته ، فواحد ينفذ الأمر وإن لم يعرف العلة ، وواحد آخر يقول : لا ، عليك أن توضح لي العلة . فهل الذي آمن آمن بالأمر أو بالعلة ؟

إن الحق يريد أن نؤمن به وهو الآمر ، ولو أن كل شيء صار مفهوماً لما صارت هناك قيمة للإيمان . إنما عظمة الإيمان في تنفيذ بعض الأحكام وحكمتها غائبة عنك ؛ لأنك إن فهمت كل شيء وأنت تفهم حكمته فأنت مؤمن بالحكمة ، ولست مؤمناً بمن أصدر الأمر .

وعندما نأتي إلى لحم الخنزير الذي حرمه الله من أربعة عشر قرناً ، ويظهر في العصر الحديث أن في أكل لحم الخنزير مضار ، ويمتنع الناس عن أكله لأن فيه مضار ، فهل امتناع هؤلاء أمر يثابون عليه ؟ طبعاً لا ، لكن الثواب يكون لمن امتنع عن أكل لحم الخنزير لأن الله قد حرمه ؛ ولأن الأمر قد صدر من الله ، حتى دون أن يُعَرِّفنا الحكمة ، إن المؤمن بالله يقول : إن الله قد خلقني ولا يمكن - وهو الخالق - أن يخدعني وأنا العبد الخاضع لمشيئته .

إن العبد الممتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر امتثالاً لأمر الله ، هو الذي

بنال الثواب . أما الذي يمتنع خوفا من احتراق الكبد و الإصابة بالمرض فلا ثواب له . وهناك فرق بين الذهاب إلى الحكم بالمحبة وبين الذهاب إلى الحكم بالطاعة للآمر بالحكم

إذن فالمتشابه من الآيات نزل للإيمان به ، والراسخون في العلم يقابلهم من تلويهم الأهواء ، والأهواء تؤدي إلى مرادات النفس وإلى اتجاهات غير الحق وملابسات اتجاهات غير الحق ، فغير الحق هو الباطل ، فكل واحد من أهل الباطل يحاول أن يأتي بشيء يتفق مع هواه . ولذلك جاء التشريع من الله ليعصم الناس من الأهواء ؛ لأن هوى إنسان ما قد يناقض هوى إنسان آخر ، والباقون من الناس قد يكون لهم هوى يناقض بقية الأهواء . والحق سبحانه يقول

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١) ﴾

(سورة المؤمنون)

إذن فلا بد أن نسير في حركتنا ما لا هوى له إلا الحق . والدين إنما جاء ليعصمنا من الأهواء ، فالأهواء هي التي تميلنا ، والمثل يدل على أن الأهواء هي التي تميل إلى غير الحق . إن صاحب الهوى يهوى حكما في شيء ، ثم تأتي ظروف أخرى تجعله يهوى حكما مقابلا ، إنه يلوي المسألة على حسب هواه ، وإلا فما الذي أحوج دنيا الناس إلى أن يخرجوا من قانون السماء الأول الذي حكم الأرض عند آدم عليه السلام ؟

لقد خرجوا من قانون السماء حينما قام قوم بأمر الدين فأخذوا لهم من هذا سلطة زمنية ، وأصبحوا يخضعون المسائل إلى أهوائهم . ونحن إذا نظرنا إلى تاريخ القانون في العالم لوجدنا أن أصل الحكم في القضايا إنما هو لرجال الدين والكهنة والقائمين على أمر المعابد . كان الحكم كله لهم ، لأن هؤلاء كانوا هم المتكلمين بمنهج الله .

ولماذا لم يستمر هذا الأمر ، وجاءت القوانين الرومانية والإنجليزية والفرنسية وغيرها ؟ لأنهم جربوا على القائمين بأمر الدين أنهم خرجوا عن نطاق التوجيه السماوي إلى خدمة أهوائهم ، فلاحظ الناس أن هؤلاء الكهنة يحكمون في قضية

بحكم ما يختلف عن حكم آخر في قضية مشابهة . إنهم القضاة أنفسهم والقضايا متشابهة متماثلة ، لكن حكم الهوى يختلف من قضية إلى أخرى ، بل وقد يتناقض مع الحكم الأول ، فمال الناس عن هؤلاء الكهنة .

لقد خرجوا عن منطق الدين واتبعوا أهواءهم ، ليثبتوا لهم سلطة زمنية ، فنحن لم نعد نأمنهم على ذلك . وخرج التقنين والحكم من يد الكهنة ورجال الدين إلى غيرهم من رجال التقنين . لقد كان أمر القضاء بين الكهنة ورجال الدين ؛ لأن الناس افترضت فيهم أنهم يأخذون الأحكام من منهج الله ، فلما تبين للناس أن الكهنة ورجال الدين لا يأخذون الحكم من منهج الله ، ولكن من الهوى البشرى ، عند ذلك أخذ الناس زمام التقنين لأنفسهم بما يضمن لهم عدالة ما حتى ولو كانت قاصرة .

وبمناسبة كلمة الهوى نجد أن هناك ثلاثة ألفاظ :
أولا : الهواء وهو ما بين السماء والأرض ، ويراد به الريح ويحرك الأشياء ويميلها وجمعه : الأهوية وهذا أمر حسيّ .
ثانيا : الهوَى : وهو ميل النفس ، وجمعه : الأهواء ، وهو مأخوذ من هوِيَ يَهْوَى بمعنى مال .
ثالثا : الهُوِيّ : بفتح الهاء وضمها وتشديد الياء وهو السقوط مأخوذ من هَوَى يَهْوِى . بمعنى سقط . وهذا يدل على أن الذى يتبع هواه لا بد أن يسقط ، والاشتقاقات اللغوية تعطى هذه المعانى . إنها متلاقية . إذن الراسخون في العلم يقفون ثابتين عند منهج الله . وأما الذين يتبعون أهواءهم فهم يميلون على حسب ميل الريح . فإن الريح مالت ، مالوا حيث تميل .

ويقول الراسخون في العلم في نهاية علمهم : آمنا ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، . وهنا تلتقى المسألة ، فنحن نعرف أن المحكم نزل للعمل به ، والمتشابه نزل للإيمان به لحكمة يريدها الله سبحانه وتعالى ، وهى أن نأخذ الأمر من الآمر لا لحكمة الأمر . وعندما نأخذ الأوامر من الحق فلا نسأل عن علتها ، لأننا نأخذها من خالق محب حكيم عادل . والإنسان إن لم ينفذ الأمر القادم من الله إلا إذا علم علته وحكمته فإننا نقول لهذا الإنسان : أنت لا تؤمن بالله ولكنك تؤمن بالعلة

والحكمة ، والمؤمن الحق هو من يؤمن بالأمر وإن لم يفهم .

والراسخون في العلم يقولون : آمنا به ، كل من عند الله ، المحكم من عند ربنا والمتشابه من عند ربنا .

ويضيف سبحانه : « وما يذّكّر إلا أولو الألباب » و« أولو الألباب » أي أصحاب العقول المحفوظة من الهوى ، لأن آفة الرأي الهوى ، والهوى يتحايل به . « وما يذّكّر إلا أولو الألباب » و« اللب » هو : العقل ، يخبرنا الله أن العقل يحكم لُبّ الأشياء لا ظواهر الأشياء وعوارضها . فهناك أحكام تأتي للأمر الظاهر ، وأحكام للُبّ الحق يأمر بقطع يد السارق . وبعد ذلك يأتي من يمثل دور حامي الإنسانية والرحمة ويقول : « هذه وحشية وقسوة » !

هذا ظاهر الفهم ، إنما لُبّ الفهم أن أردت أن تُقطع يد السارق حتى أمنعه أن يسرق ، لأن كل واحد يخاف على ذاته ، فيمنعه ذلك أن يسرق . وقد قلنا من قبل إن حادثة سيارة قد ينتج عنها مشوهون قدر من قطعت أيديهم بسبب السرقة في تاريخ الإسلام كله ، فلا تتصعب وتدعي أنك رحيم ولا تنظر إلى العقاب حين ينزل بالمذنب ، ولكن انظر إلى الجريمة حين تقع منه ، فإن الله يريد أن يحمي حركة الحياة للناس بحيث إذا عملت وكددت وجتهدت وعرقت يضمن الله لك حصيلة هذا العمل ، فلا يأتي متسلط يتسلط عليك ليأخذ ثمرة عرقك أنت .

إذن فهو يحمي حركة الحياة ويحرك كل واحد وهو آمن . هذا « لُبّ » الفهم ، ولذلك يقول تعالى : « ولكم في القصاص حياة » ، إياكم أن تقولوا : إن هذا القصاص اعتداء على حياة فرد . لا ، لأن « ولكم في القصاص حياة » إذ من علم أنه إن قُتل سيُقتل ، سيمتنع عن القتل ، إذن فقد حيا نفسه وحيا الناس منه ، وهكذا يكون في القصاص حياة ، وذلك هو لُبّ الفهم في الأشياء ، فالله سبحانه وتعالى يلفتنا وينبهنا ألا نأخذ الأمور بظواهرها ، بل نأخذها بلبها ، وندع القشور التي يحتكم إليها أناس يريدون أن يتفلتوا من حكم الله . و« الراسخون في العلم » حينما فصلوا في أمر المتشابه دعوا الله بالقول الذي أنزله ـ سبحانه ـ :

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾

فكان قول الراسخين في العلم: إن كل محكم وكل متشابه هو من عند الله ، والمحكم نعمل به ، والمتشابه نؤمن به ، فهذه هي الهداية ؛ ثم يكون الدعاء بالثبات على هذه الهداية ، والمعنى : يارب ثبتنا على عبادتك ولا تجعل قلوبنا تميل أو تزيغ. وهذا يدلنا على أن القلوب تتحول وتتغير ؛ لذلك يأتي القول الفصل بالدعاء على الثبات الإيمان :

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فهم يطلبون رحمة هبة لا رحمة حق ، فليس هناك مخلوق له حق على الله إلا ما وهبه الله له . والراسخون في العلم يطلبون من الله الرحمة من الوقوع في الهوى بعد أن هداهم الله إلى هذا الحكم السليم بأن المتشابه والمحكم كل من عند الله ويعلموننا كيف يكون الطريق إلى الهداية وطلب رحمة الهبة. والراسخ في العلم مادام قد علم شيئاً فهو يريد أن يشيعه في الناس ، لذلك يقول لنا .

إياكم أن تظنوا أن المسألة مسألة فهم لنص وتنتهي ، إن المسألة يترتب عليها أمر آخر ، هذا الأمر الآخر لا يوجد في الدنيا فقط ، فهناك آخرة ، فالدنيا مقدور عليها لأنها محدودة الأمد ومنتهية ، ولكن هناك الآخرة التي تأتي بعد الدنيا حيث الخلود ، فيقول الحق على لسان الراسخين في العلم :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ ﴾

فيه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩ ﴾

وقولهم: « ربنا » نفهم منه أنه الحق المتولى التربية ، ومعنى التربية هو إيصال من تتم تربيته إلى الكمال المطلوب له ، فهناك ربٌّ يربى ، وهناك عبد تتم تربيته ، والربُّ يعطى الإنسان ما يؤهله إلى الكمال المطلوب له .

والمؤمنون يرجون الله قائلين : يارب من تمام تربيتك لنا أن تحمينا من عذاب الآخرة ، فإذا ما عشنا الدنيا وانتهت فنحن نعلم أنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، ومادمت ربا ، ومادمت إلها فإنك لا تخلف الميعاد ، فالذى يخلف الميعاد لا يكون إلها ، لأن الإله ساعة الوعد يعلم بتمام قدرته وكمال علمه أنه قادر على الإنفاذ ، إنما الذى ليس لديه قدرة على الإنفاذ لا يستطيع أن يعد إلا مشمولا بشيء يستند إليه ، كقولنا نحن العباد : « إن شاء الله » لماذا ؟ لأن الواحد منا لا يملك أن يفى بما وعد .

حينما تعرضنا إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝٢٤ ﴾

(سورة الكهف)

قلنا إياك أن تقول: إنى سأفعل شيئا إلا أن تشتمله وتربطه بمشيئة الله ، لأنك أنت إن وعدت ، فأنت لا تضمن عمرك ولا إنفاذ وعدك ، إنك لن تفعل شيئا إلا بإرادة الله ، لذلك فلا تعد إلا بالمشيئة ، لأنك تعد بما لا تضمن ، فأنت فى حقيقة الأمر لا تملك شيئا ، فإن أردت فعل أى شيء أو الذهاب إلى أى مكان فالفعل يحتاج إلى فاعل ومفعول وزمان ومكان وسبب ، ثم يحتاج إلى قدرة لتنفيذ الفعل . والإنسان لا يملك من هذه الأشياء إلا ما يشاء الله له أن يملكه . إن الإنسان لا يملك أن يظل فاعلا . والإنسان لا يملك إن وُجد الفاعل أن يُوجد المفعول . والإنسان لا يملك الزمن ، ولا يملك المكان ، بل لا يملك الإنسان أن يظل السبب قائما ليفعل ما كان

يريد أن يفعله ، فكل هذه العناصر ، الفاعل والمفعول ، والزمان ، والمكان ، والسبب ، لا يملكها إلا الله . لذلك فليحم الإنسان نفسه من أن يكون كاذبا ومخادعا وليكن في ظل قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إن كلمة « إلا أن يشاء الله » تعصم الإنسان من أن يكون كاذبا . وعندما لا يحدث الذي يعد به الإنسان فمعنى ذلك أن الله لم يشأ ؛ لأن الإنسان لا يملك عنصراً واحداً من عناصر غد ا لفعل . وعندما يقول الحق : « ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد » لأن الذى يخلف الميعاد إما تمنعه قوة قاهرة تأتيه ، ولو من تغير نفسه تمنعه أن يفعل ، أما الله فلا تأتى قوة قاهرة لتغير ما يريد أن يفعل ، ولا يمكن أن يتغير ، لأن التغير ليس من صفات القديم الأزلي .

وحين يؤكد الحق أنه سيتم جمعا عشيته في يوم لا ريب فيه ، وأن الله لا يخلف الميعاد فمن المؤكد أننا سنلتقى . وسنلتقى لماذا ؟ لقد قال الراسخون في العلم عملت بالمحكم ، وآمنا بالمتشابه ، ودعوا الله أن يثبت قلوبهم على الهداية رحمة من عنده ، وأن يبعد قلوبهم عن الزيغ ؛ لأنهم خائفون من اليوم الذى سيجمع الله الناس فيه . إننا سنلتقى للحساب على أعمال وإيمانا . وبعد ذلك يقول الحق جل شأنه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ ﴾

ساعة تسمع وأنت المؤمن ، ويسمع معك الكافر ، ويسمع معك المنافق . « ربما

إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد » وربما فكر الكافر أو المنافق أن هناك شيئاً قد ينقذه مما سيحدث في ذلك اليوم ، كعزوة الأولاد ، أو كثرة مال يشتري نفسه به ، أو حيلة ، أو شفاعة ، هنا يقول الحق لهم « لا » إن أولادكم وأموالكم لا تغني عنكم شيئاً .

وفي اللغة يقال : هذا الشيء لا يغني فلاناً ، أي أنه يظل محتاجاً إلى غيره ، لأن الغنى هو ألا تحتاج إلى الغير ، فالأموال والأولاد لا تغني أحداً في يوم القيامة ، والمسألة لا عزوة فيها ، لا أسباب بينهم يومئذ والجنة ليست للبيع ، فلا أحد يستطيع شراء مكان في الجنة بمال يملكه .

وكان الكافرون على أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون ذلك القول الشاذ يقولون . مادام الله قد أعطانا أموالاً وأولاداً في الدنيا فلا بد أن يعطينا في الآخرة ما هو أفضل من ذلك . ولذلك يقول الله لهم « إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا » إذن فالأمر كله مردود إلى الله . صحيح في هذه الدنيا أن الله قد يخلق الأسباب . والكافر تحكمه الأسباب ، وكذلك المؤمن ، وإذا ما أخذ الكافر بالأسباب فإنه يأخذ النتيجة . ولكن في الآخرة فالأمر يختلف ؛ فلن يملك أحد أسباباً ، ولذلك يقول الحق عن اليوم الآخر :

﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة غافر)

إن البشر في الدنيا يملكون الأسباب ، ويعيشون مختلفين في النعيم على اختلاف أسبابهم ، واختلاف كدحهم في الحياة ، واختلاف وجوه ما يحقق للإنسان المتع ، لكن الأمر في الآخرة ليس فيه كدح ولا أسباب ؛ لأن الإنسان المؤمن يعيش بالمسبب في الآخرة وهو الله ـ جلت قدرته ـ فبمجرد أن يخطر الشيء على بال المؤمن في الجنة فإن الشيء يأتي له . أما الكفار فلا يغني عنهم مالهم ولا أولادهم ، لأنهم انشغلوا في الدنيا بالمال والأولاد وكفروا بالله .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ

﴿ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة الفتح)

إذن فما اشتغل به الكفار في الدنيا لن ينفعهم ، ويضيف الحق عن الكفر في تذييل الآية التي نحن بصددها « وأولئك هم وقود النار » إنهم المعذبون ، وسوف يتعذبون في النار . ولنر النكاية الشديدة بهم ، إن الذين يُعذِّبون ، هم الذين يُعذَّبون ، لأنهم بأنفسهم سيكونون وقود النار . إن المعذَّب ـ بفتح العين وفتح الدال مع التشديد ـ يكون هو المعذِّب ـ بفتح العين وكسر الدال مع التشديد ـ .

فهذه ثورة الأبعاض . فذرات الكافر مؤمنة ، وذرات العاصي طائعة ، والذي جعل هذه الذرات تتجه إلى فعل ما يُغضب الله هو إرادة صاحبها عليها . وضربنا قديما المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ وقلنا . هب أن كتيبة لها قائد فالمفروض في الكتيبة أن تسمع أمر القائد ، وتقوم بتنفيذ ما أمر به ، فإذا ما جاءوا للآمر والقائد الأعلى بعد ذلك فإنهم يرفعون أمرهم إليه ويقولون له : نحتكم لأمر فعدنا العمل الذي صدر لنا من قائدنا المباشر وكنا غير موافقين على رأيه . وفي الحيلة الإيمانية نجد القول الحكيم من الخالق :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة النور)

فكان اللسان ينطق بكلمة الكفر وهو لاعنٌ لصاحبه . واليد تتقدم إلى المعصية وهي كارهةٌ لصاحبها ولاعنةٌ له ، إن إرادة الله العليا هي التي جعلت للكافر إرادة على يده ولسانه في الدنيا ، وينزع الله إرادة الكافر عن جوارحه يوم القيامة فتشهد عليه أنه أجبرها على فعل المعاصي ، وتتعدد الأبعاض بعضها ، وعندما يقول الحق : « وأولئك هم وقود النار » فهنا مسألة يجب أن نلتفت إليها ونأخذها من واقع التاريخ . هذه المسألة هي أن الذين كفروا برسالات الله في الأرض تلقوا بعض العذاب في الدنيا ؛ لأن الله لا يدّخر كل العقاب للآخرة وإلا لشقي الناس بالكافرين وبالعاصين . ولذلك فإن الله يُعَجِّل بشيء من العقاب للكافرين والعاصين في هذه الدنيا .

ويقول الحق مثالاً على ذلك .

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾

وساعة تسمع « كداب كذا » ، فالدأب هو العمل بكدح وبلا انقطاع فنقول فلان دأبه أن يفعل كذا أي هو معتاد دائماً أن يفعل كذا ، أو نقول : ليس لفلان دأب إلا أن يغتاب الناس .

فهل معنى ذلك أن كل أعماله محصورة في اغتياب الناس ، أو أنه يقوم بأعمال أخرى ؟ إنه يقوم بأفعال أخرى لكن الغالب عليه هو الاغتياب ، وهذا هو الدأب . فالدأب هو السعي بكدح وتوال حتى يصبح الفعل بالتوالي عادة . إذن فقوله الحق : « كدأب آل فرعون » أي كعادة آل فرعون . وآل فرعون هم قوم جاءوا قبل الرسالة الإسلامية ، وقبلهم كان قوم ثمود وعاد وغيرهم .

ويلفت الحق سبحانه إلى أن ننظر إلى هؤلاء ونرى ما الذي حدث لهم ، إنه سبحانه لم يؤخر عقابهم إلى الآخرة ، لأنه ربما ظن الناس أن الله قد ادخر عذاب الكافرين إلى الآخرة ؛ لأنه قال :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لا ، بل العذاب أيضاً في الدنيا مصداقاً لقوله الحق .

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة الرعد)

إن العذاب لو تم تأجيله إلى الآخرة لشقى الناس بالأشقياء ، لذلك يأتى الله بأمثلة من الحياة ويقول : « كدأب آل فرعون » أى كعادة آل فرعون ، ولا تصير مسألة عادة إلا بالكدح فى العمل ، وكان دأب آل فرعون هو التكذيب والطغيان وادعاء فرعون الألوهية .

ويقول سبحانه : « والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا ، فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب » فصار الدأب منهم ، وعما وقع بهم ، فإذا كانوا قد اعتادوا الكفر والتكذيب فقد أوقع الله عليهم العذاب . لقد كان دأب آل فرعون هو التكذيب ، والخالق ـ سبحانه ـ يجازيهم على ذلك بتعذيبهم ، ولتقرأ إن شئت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الفجر)

فدأبهم التكذيب وجزاء الله لهم على ذلك هو العذاب والعقاب . إذن فقوله الحق : « فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب » أى أوقع بهم العذاب فى الدنيا ، وكانت النهاية ما كانت فى آل فرعون وثمود ومَن قبلهم من القوم الكافرين .

وعندما تسمع قول الله : « والله شديد العقاب » فالذهن ينصرف إلى أن هناك ذنباً يستحق العقاب . وكل الأمور من المعنويات مأخوذة دائماً من المحسات ؛ لأن الأصل فى إيجاد أى معلومات معنوية هو المشاهد الحسية ، وتنقل الأشياء الحسية إلى

المعنويات بعد ذلك . لماذا ؟ لأن الشيء الحسيّ مشهود من الجميع ، أما الشيء المعنوى فلا يفهمه إلا المتعقلون ، والإنسان له أطوار كثيرة ففى طور الطفولة لا يفهم ولا يعقل الإنسان إلا الأمر المحسوس أمامه

وقلت قديماً فى معنى كلمة « الغصب » : إنه أخذ وسلب شيء من إنسان صاحب حق بقوة ، وهذا أمر معنوى له صورة مشهدية ؛ لأن الذى يسلخ الجلد عن الشاة نسميه غاصباً . ولنر كيف يكون أخذ الحق من صاحبه ، إنه كالسلخ تماماً ، فالكلمة تأتى للإيضاح .

وكلمة « ذنب » وكلمة « عقوبة » مترابطتان ، فكلمة « ذنب » مأخوذة من مادة ذنب ؛ لأن المادة كلها تدل على « التالى » والذَّنَب يتلو المقدمة فى الحيوان والعقاب هو ما يأتى عقب الشيء .

إذن فهناك ذنب وهناك عقاب . لكن ماذا قبل الذنب ، وماذا يتلو العقاب ؟ لا يوجد ذنب إلا إذا وُجِدَ نص مُجرِّم ، فلا ذنب إلا بنص فليس كل فعل هو ذنب ، بل لابد من وجود نص قبل وقوع الذنب يجرّم عمله ، ولذلك أخذ التقنين الوضعى هذا الأمر ، فقال لا يمكن أن يعاقب إنسان إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص ، فلا يمكن أن يأتى إنسان فجأة ويقول : هذا العمل جريمة يعاقب عليها بل لابد من التنبيه والنص من قبل ذلك على تجريم هذا العمل

إنه لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص فالنص يوضح تجريم فعل نوع ما من العمل ، وإن قام إنسان بهذا العمل فإنه مُجرِم . ويكون ذلك هو الذنب ، فكأن الذنب جاء تالياً لنص التجريم . والعقاب يأتى عقب الجريمة . وهكذا نجد أن كلاً من الذنب والجريمة يأخذان واقع اللفظ ومدلوله ومعناه ؛ فالذَّنَب هو التالى للشيء . ولذلك يسمّون الدلو الذى يملأونه بالماء « ذَنوباً » لأنه هو الذى يتلو الحبل . وأيضاً الجزاء فى الآخرة .

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

أى ذنوباً تتبع ، وتتلو جريمتهم . إذن فالنص القرآنى فى أى ذنب وفى أى عقاب يؤكد لنا القضية القانونية الاصطلاحية الموجودة فى كل الدنيا : إنه لا عقوبة دون تجريم . فكأن العقابَ بعد الجريمة أى بعد الذنب ، والذنب بعد النص ، فلا تأتى لواحد بدون نص سابق وتقول له : أنت ارتكبت ذنباً . وهذه تحل إشكالات كثيرة ، مثال ذلك :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

إن الله يغفر ما دون الشرك بالله ، فالشرك بالله قمة الخيانة العظمى ؛ وهذا لا غفران فيه وبعد ذلك يغفر لمن يشاء . ويقول الحق فى آية أخرى :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الزمر)

فهناك بعض من الناس يقولون : إن الله قال:إنه لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، حتى إنهم قالوا : إن ابن عباس ساعة جاءت هذه الآية التى قال فيها الحق : « إن الله يغفر الذنوب جميعا » قال : « إلا الشرك » وذلك حتى لا تصطدم هذه الآية مع الآية الأخرى .

والواقع أنه حين يدقق أولو الألباب فلن نجد اصطداما ، لأن الذين أسرفوا على أنفسهم . هم من عباد الله الذين آمنوا ولم يشركوا بربهم أحدًا ، ولكنهم زلُّوا وهفوا ووقعوا فى المعاصى فهؤلاء يقال عنهم : إنهم مذنبون ، لأنهم مؤمنون بالله ومعترفون بالذى أنزله ، أما المشرك فلم يعترف بالله ولا بما شرع وقنن من أحكام،فما هو عليه لا يسمى ذنبا وإنما هو كفر وشرك . فلا تعارض ولا تصادم فى آيات الرحمن .

وعندما يقول الحق :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فهذا القول الحكيم متوازن ومُتّسق ، فالذنب يأتي بعد نص ، والعقاب من بعد ذلك . ويقول الحق آمرا رسوله بإبلاغ الكافرين :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾

إنه أمر من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وهو المبلغ عن الله ، أن يحمل للكافرين خبرا فيه إنذار . من هم هؤلاء الكفار ؟ هل هم كفار قريش ؟ الأمر جائز . هل هم اليهود ؟ الأمر جائز . فالبلاغ يشمل كل كافر .

والنص القرآني حينما يأتي فهو يأتي على غير عادة الناس في الخطاب ، ولأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى وسبحانه منزه عن التشبيه أو المثل - أنت تقول لابنك : اذهب إلى عمك ، وقل له : إن أبي سيحضر لزيارتك غدا . فماذا يكون كلام الابن للعم ؟ إن الابن يذهب للعم ويقول له : إن أبي سيزورك غدا . لكن الأمر وهو الأب يقول : قل لعمك إن أبي سيزورك غدا . فإذا كان الابن دقيق الأمانة فهو يقول :

- قال أبي : - قل لعمك إن أبي سيزورك غدا . وعندما يقول الحق سبحانه : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد »

فهذا معناه قمة الأمانة من الرسول المبلغ عن الله ، فنقل للكافرين النص الذي أمره الله بتبليغه للكافرين . وإلا كان يكفي الرسول صلى الله عليه وسلم أن يذهب

للكافرين ويقول لهم : ستُغلبون وتُحشرون . لكن من يدريهم أن هذا الكلام ليس من عند محمد وهو بشر ؟ لذلك يبلغهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أبلغه أن يبلغهم بقوله : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد » .

إن الرسول لم يبلغهم بمقول القول : لا ، إنما أبلغهم نص البلاغ الذى أبلغه به الله . وساعة يأمر الحق فى قرآنه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ أمرا للكافرين فإن الرسول صلى الله عليه وسلم مُخاطب ، والكفار مُخاطبون ، فعندما يواجههم فإنه يقول لهم : ستغلبون .. وفى آية أخرى يقول الحق :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

إن القياس أن يقول : إن تنتهوا يغفر لكم ما قد سلف ، لكن الحق قال : « إن ينتهوا » ، فكأن الله حينما قال كان الكفار غير حاضرين للخطاب ورسول الله هو الحاضر للخطاب ، والله يتكلم عن غائبين .

ولكن الله ـ سبحانه ـ فى هذه الآية التى نحن بصددها يحمل الرسول تمام البلاغ . فمرة يكون النقل من الأمر الأول كما صدر منه سبحانه كقوله: « إن ينتهوا » ومرة يأمره الآمر الأول أن يبلغ الكلمة التى يكون بها مُخاطِبا أى لا تقل : سيغلبون وقل : « ستغلبون » لأنك أنت الذى ستخاطبهم . وهذه الدقة الأدائية لا يمكن إلا أن تكون من قادر حكيم .

إنه بلاغ إلى كفار قريش أو إلى مطلق الذين كفروا . والغلب سيكون فى الدنيا ، والحشر يكون فى الآخرة .

فإذا ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل النص القرآنى « ستُغلبون » فمتى قالها رسول الله ؟ لقد قالها والمسلمون قلة لا يستطيعون حماية أنفسهم ، ولا يقدرون على شيء . وكل مؤمن يحيا فى كنف آخر ، أو يهاجر إلى مكان بعيد . فهل يمكن أن يأتى هذا البلاغ إلا ممن يملك مطلق الأسباب ؟

لقد قالها الرسول مبلغا عن الله ، والمسلمون في حالة من الضعف واضحة ، ومادام قد قالها ، فهي حجة عليه ، لأنّ مَن أبلغه إياها وهو الله قادر على أن يفعلها . « قل للذين كفروا ستغلبون » ليس العقاب في الدنيا فقط ، ولكن في الآخرة أيضا « وتُحشرون إلى جهنم وبئس المهاد » هذه المسألة بشارة لرسول الله ولأصحابه ، وإنذار للكافرين به ، ويتم تحقيقها في موقعة بدر . فسيدنا عمر بن الخطاب لما نزل قول الله :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة القمر)

تساءل عمر بن الخطاب : أي جمع هذا ؟ إنه يعلم أن المسلمين ضعاف لا يقدرون على ذلك ، وأسباب انتصار المسلمين غير موجودة ، ولكن رسول الله لم يكن يكلم المؤمنين بالأسباب ، إنما برب الأسباب ، فإذا ما تحدى وأنذرهم ، مع أنه وصحبه ضعاف أمامهم ، فقد جاء الواقع ليثبت صدق الحق في قوله : « ستغلبون » ويتم انتصار* المسلمين بالفعل ، ويغلبون الكافرين .

ألا يُجعل صدق بلاغ الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يحدث في الدنيا دليل صدقٍ على ما يحدث في الآخرة ؟ إن تحقيق « ستغلبون » يؤكد « وتُحشرون إلى جهنم » . وفي هذه الآية شيئان : الأول : بلاغ عن هزيمة الكفار في الدنيا وهو أمر يشهده الناس جميعا ، والأمر الآخر هو في الآخرة وقد يُكذّبه بعض الناس . وإذا كان الحق قد أنبأ رسوله بأنك يا محمد ستغلب الكافرين وأنت لا تملك أسباب الغلبة عليهم . ومع ذلك يأتي واقع الأحداث فيؤكد أن الكافرين قد تمت هزيمتهم . ومادام قد صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في البلاغ عن الأول ولم يكن يملك الأسباب فلا بد أن يكون صادقا في البلاغ في الثانية وهي البلاغ عن الحشر في نار جهنم .

وبعض المفسرين قد قال : إن هذه المقولة لليهود ؛ لأن اليهود حينما انتصر المسلمون في بدر زُلزلوا زلزالا شديدا ؛ فلم يكن اليهود على ثقة في أن الإسلام والمسلمين سينتصرون في بدر ، فلما انتصر الإسلام في بدر ؛ قال بعض اليهود : إن محمداً هو الرسول الذي وَعدنا به الله والأَوْلى أن نؤمن به.فقال قوم منهم : انتظروا إلى معركة أخرى . أي لا تأخذوها من أول معركة ، فانتظروا ، وجاءت معركة أحد ،

وكانت الحرب سجالا(١) .

ولنا أن نقول : وما المانع أن تكون الآية لليهود وللمشركين ولمطلق الذين كفروا ؟ فاللفظ عام وإن كان قد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع وقال لهم : يا معشر اليهود احذروا مثل ما نزل بقريش وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم ، فقد عرفتم أنى نبىّ مرسل . فماذا قالوا له ؟ قالوا له : لا يغرنك أنك لقيت قوما أغماراً - أى قوما من غمار الناس لم يجربوا الأمور - لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، لئن قاتلتنا لعلمت أنّا نحن الناس ، فأنزل الله قوله : « قل للذين كفروا ستغلبون . . . » إلخ الآية .

والمهاد هو ما يُمهّد عادة للطفل حتى ينام عليه نوما مستقراً أى له قرار ، وكلمة « بئس المهاد » تدل على أنهم لا قدرة لهم على تغيير ما هم فيه ، كما لا قدرة للطفل على أن يقاوم من يضعه للنوم فى أى مكان . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ (١٣) ﴾

وحين يقول الحق : « قد كان لكم آية » . فمن المخاطب بهذه الآية ؟ لاشك أن المخاطب بهذه الآية كل من كانت حياته بعد هذه الواقعة ، سواء كان مؤمنا أو كافرا ، فالمؤمن تؤكد له أن نصر الله يأتى ولو من غير أسباب ، والكافر تأتى له الآية

(١) الحرب سجال : النصر بين طرفيها متداول .

بالعبرة فى أن الله يخذله ولو بالأسباب ، إن الله جعل من تلك الموقعة آية . والآية هى الشيء العجيب . أىْ إن واقعه ونتائجه لا تأتى وَفق المقدمات البشرية .

نعم هذا خطاب عام لكل من ينتسب إلى أىّ فئة من الفئتين المتقاتلتين ، سواء كانت فئة الإيمان أو فئة الكفر . ففئة الإيمان لكى تفهم أنه ليست الأسباب المادية هى كل شيء فى المعركة بين الحق والباطل ، لأن لله جنودا لا يرونها . وكذلك يخطئ هذا الخطاب فئة الكافرين فلا يقولون : إن لنا أسبابنا من عدد وعُدّة قوية ، فقد وقعت المعركة بين الحق والباطل من قبل ؛ وقد انتصر الحق .

وكلمة « فئة » إذا سمعتها تصورت جماعة من الناس ، ولكن لها خصوصيّة ؛ فقد توجد جماعة ولكن لكل واحد حركة فى الحياة . ولكن حين تسمع كلمة « فئة » فهىْ تدل على جماعة ، وهى بصدد عمل واحد . ففى غير الحرب كل واحد له حركة قد تختلف عن حركة الآخر . ولكن كلمة « فئة » تدل على جماعة من الناس لها حركة واحدة فى عمل واحد لغاية واحدة .

ولاشك أن الحرب تصور هذه العملية أدق تصوير ، بل إن الحرب هى التى تُوحّد كل فئة فى سبيل الحركة الواحدة والعمل الواحد للغاية الواحدة ؛ لأن كل واحد من أى فئة لا يستطيع أن يحمى نفسه وحده ، فكل واحد يفيء ويرجع إلى الجماعة ، ولا يستطيع أن ينفصل عن جماعته . ولكن الفرد فى حركة الحياة العادية يستطيع أن ينفصل عن جماعته .

إذن فكلمة « فئة » تدل على جماعة من الناس فى عملية واحدة . وتأتى الكلمة دائما فى الحرب لتصور كل معسكر يواجه آخر . وحين يقول الحق : « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا » أى أن هناك صراعا بين فئتين ، ويوضح الحق ماهية كل فئة فيقول : « فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة » . وحين ندقق النظر فى النص القرآنى ، نجد أن الحق لم يورد لنا وصف الفئة التى تقاتل فى سبيل الله ولم يذكر أنها فئة مؤمنة ، وأوضح أن الفئة الأخرى كافرة ؛ وهذا يعنى أنّ الفئة التى تقاتل فى سبيل الله لا بد أن تكون فئة مؤمنة ، ولم يورد الحق أن الفئة الكافرة تقاتل فى سبيل الشيطان اكتفاء بأن كفرها لا بد أن يقودها إلى أن تقاتل فى سبيل الشيطان .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ احمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر